



ذاكرة وطن... عدن والعالم

١٩٦٧-١٩٩٠م



علي ناصر محمد

ذاكرة وطن... عدن والعالم

دار الفارابي

الكتاب: ذاكرة وطن... عدن والعالم
المؤلف: علي ناصر محمد
الغلاف: شركة عين ميديا

الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان
ت: ٣٠١٤٦١(٠١) – فاكس: ٣٠٧٧٧٥(٠١)
ص.ب: ١١/٣١٨١ – الرمز البريدي: ٢١٣٠ ١١٠٧
www.dar-alfarabi.com
e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: ٣٠ نوفمبر/ تشرين الثاني ٢٠٢٠
ISBN: 978-614-432-881-1

مقدمة

من المسلَّم به أنه لا يمكن فصل السياسة الخارجية عن السياسة الداخلية بصورة عامة، فالأخيرة تنعكس على الأولى بالضرورة، حتى وإن بدت على غير ذلك في بعض تجلياتها بحكم ما تتطلبه الدبلوماسية على الصعيد الدولي. ولا بد لنا بداية من الإشارة ونحن نتعرض للسياسة الخارجية لجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية، إلى بعض العوامل التي أثرت في هذه السياسة في السنوات الأولى من عمر الدولة المستقلة التي أُعلن قيامها قبل ٥٣ عاماً من صدور هذا الكتاب في ٣٠ نوفمبر ١٩٦٧م، أي بعد خمسة أشهر من نكسة حزيران ١٩٦٧م، التي كان لها انعكاساتها وتأثيراتها المختلفة على صعيد المنطقة العربية بكاملها.

بعد هذه النكسة أخذت بعض منظمات حركة التحرر الوطني تصنِّف القيادات العربية الحاكمة أنها قيادات برجوازية، وتحمِّلها مسؤولية الانتكاسة التي تعرضت لها مصر وسورية والأردن ودعت إلى «تثوير» المنطقة كلها، وإلى تعزيز التعاون والتضامن مع الحركة الثورية العالمية وفي المقدمة الاتحاد السوفياتي والصين الشعبية.

ترتب على هذه النكسة شيوع واسع للأفكار اليسارية الراديكالية في كل الأحزاب القومية تقريباً، وكان لها تأثير بدرجة أكبر على حركة القوميين العرب، الأمر الذي أدى إلى تفككها، وتفشي الخلافات والمزايدات الفكرية بين قياداتها. ولأن الاستقلال في اليمن الجنوبي تحقق عبر ثورة اكتسبت في مراحلها الأخيرة طابعاً شعبياً عميقاً، كان من الطبيعي أن ينهج الحاكم الذي تولى السلطة في أعقاب الثورة خطاً جذرياً على صعيد السياسة الخارجية، ليكون منسجماً مع نهج الثورة داخلياً ومترجماً لأهدافها خارجياً.

لم تنجُ «الجبهة القومية» التي تسلمت السلطة في عدن بعد كفاح سياسي وعسكري مسلح ضد الوجـود البريطانـي في عدن والجنوب من هذا التنظير، بل ربما كانت «اليمن

الجنوبية» الساحة أو «المختبر» الكفاحي الذي وقع عليه الاختيار، لاختبار هذه السياسة أو تنفيذها! بينما أخفق «المركز» وبقية الفروع في إنجاز هذه المهمة على الرغم من إعلان فرع الحركة في اليمن انفصاله عن مركزها الرئيس في بيروت. كانت الجبهة القومية تضمّ عدداً من التنظيمات السياسية والشخصيات التي كان لحركة القوميين العرب التأثير الأكبر في انتماءاتهم الفكرية والإيديولوجية، وقد شكلوا بانخراطهم فيها عمودها الفقري، حتى إن الجبهة القومية هي الفرع الوحيد لحركة القوميين العرب الذي تمكن من الوصول إلى السلطة في الوطن العربي.

كانت الجبهة القومية تنظيماً مستقلاً بقراراته الصادرة عن هيئاته التنظيمية القيادية، إلا أنه لم يستطع قطّ الفكاك من تأثيرات الحركة فيه، حتى بعد أن وصل إلى السلطة، بل تماهى معها، ومع خطاباتها السياسية التي اتجهت «يساراً» بعدما نقلت الحركة صراعاتها، وأمراضها، إلى ساحة اليمن الديمقراطية التي اتخذت منها معقلاً للتنظير، وللتثوير والعنف «والصراع الطبقي» الداخلي والخارجي، باحثة عن «شرعية» هذا التنظير في ضرورة تحقيق الانتصار على «أعداء» الداخل وأعداء «الخارج» دفعة واحدة، مبتدئة بخلق التوتر في ساحة اليمن الجنوبية نفسها في مستهل الاستقلال، وهو ما مهَّد التربة الخصبة للارباك والصراعات معاً.

شهد الخطاب السياسي الذي كان ينبغي أن يوجَّه لبناء الدولة والتنمية للخروج من نفق التخلف المظلم الذي رسخه الاستعمار البريطاني طوال أكثر من قرن وربع قرن من احتلاله، تصعيداً غير مألوف في بذر بذور الخلاف داخل القيادة الجنوبية التي صنعت النصر والاستقلال مع القوى الأخرى، والتشكيك في توجهاتها السياسية الوطنية، وتقسيم التنظيم والمجتمع إلى (يمين) و(يسار)، الأمر الذي أدخل الثورة في متاهة، وأدى إلى صراعات مبكرة صرفتها عن الاهتمام بالحاجات الأساسية لبناء الدولة وتطوير المجتمع. ولم يكن هذا الجدل نظرياً فقط، وفي الأطر الحزبية والرسمية فحسب، بل أخذ منحًى عنيفاً بين أنصار الدولة الوطنية الديمقراطية، وأنصار بناء دولة العمال والفلاحين على أنقاض جهاز الدولة القديم في عدن، لـ«بناء الاشتراكية» و«تدمير الإمبريالية!». وهما الشعاران اللذان

كانت ترفعهما بعض القيادات المتطرفة في مهرجانات التأييد للثورة، وتلقنها للجماهير التي ترددها بعفوية.

هكذا قيل، وهكذا جاء منظرو المرحلة، بوثائقهم الجاهزة من بيروت، لتطبيقها وتفصيلها على الدولة الوليدة قبل أن تلتقط أنفاسها، أو تتبصّر المهمات التي عليها التصدي لها بروح من الواقعية والقراءة الصحيحة للواقع المتخلف، في منطقة من أكثر المناطق حساسية في شبه الجزيرة العربية، حيث المقدسات الإسلامية ومصالح الدول الرأسمالية الكبرى، وفي مقدمتها النفط، إضافة إلى الموقع الاستراتيجي الذي تتمتّع به هذه الجمهورية الفتية على باب المندب والبحر الأحمر والمحيط الهندي والقرن الإفريقي.

لم يفطن الكثير من القيادات إلى خطر ما تنطوي عليه هذه الأطروحات التي يجري التنظير لها، وللأسف فإن بعض القيادات لم تكن على مستوى المسؤولية التاريخية تجاه هذا الشعب الذي عانى ويلات الاحتلال طوال ١٢٩ عاماً كاملة، بما فيها الفقر، والمرض، والجهل والتخلف. وبدلاً من حلّ مشاكله، والبحث عن حلول لقضاياه، أخذت وسائل الإعلام، من إذاعة وتلفزيون وصحافة، تمطره صباح مساء بوابل من الأفكار والمصطلحات، التي لم يتمكن من تقبلها لأنه لم يكن قد سمعها من قبل، وبالتالي لم يكن ليفهمها أو يهضمها، حتى أن البعض ممن كانوا يرددونها أو من الذين «جلبوها» لم يكونوا يفهمونها. المهم أن هذه الشعارات خلقت احتقاناً، ليس مع أعداء الثورة والنظام فحسب، بل داخل معسكر الثورة نفسها، وزرعت الخلافات، وبذرت الفتن التي انعكست على شكل معارك سياسية وإعلامية، واتهامات متبادلة، وصولاً إلى التخلص من المخالفين بالرأي.

هكذا تحولت الدولة الفتية، إلى حقل تجارب لبعض القيادات الخارجية التي ليس لها علاقة باليمن الجنوبي، ولا بثورته، ولكنها كانت تملك التأثير الكافي على بعض القيادات ذات النزوع الدائم إلى التطرف «الثوري»، وتمكنت من استمالتها وإقناعها بصحة مقولاتها «اليسارية» التي دعت إلى تطبيقها، تارة في عدن، وتارة في حضرموت، دون مراعاة خصائص الواقع، وتاريخ الشعب اليمني وتطلعاته. عدّ هؤلاء المنظرون القيادة الجديدة الممسكة بالسلطة خطراً على الثورة وقيمها، وعلى مستقبل النظام، حتى دون أن يبدر منها ما يشير إلى

ذلك. وبلغ التنظير ذروته في أوساط القيادة، والتنظيم، والمؤسسات، وعموم الشعب، ومن ثم انتقل تأثيره إلى المنطقة كلها. وكانت هذه التنظيرات قد بدأت أولاً داخل حركة القوميين العرب والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين كجزء من الصراع الدائر بين القيادات، ونُقلَت إلى اليمن الديمقراطية فوراً، حيث سمح بذلك قلة خبرة القيادات الشابة التي تَسَلَّمَت السلطة ولم تدرك أهميتها وأهمية الوصول إليها وأهمية الحفاظ عليها وعلى قادتها وانبهرت بتلك الشعارات.

لم يكن ذلك المشهد لينضج ويسيطر دون إحداث توترات متلاحقة، وخلق أجواء من عدم الثقة بين القيادات، وزعزعة الوحدة التي كانت تجمع المناضلين، وذلك برفع شعارات ضخمة لا يتحملها واقع الدولة الفتية، واستثارة أحلام بعيدة عن الواقع وأكبر من الإمكانات. وهكذا، ارتفعت أصوات تطالب بإسقاط القيادة في عدن، وصنعاء، بل إسقاط الأنظمة في الخليج، والتصدي لمحاربة القواعد الفرنسية والأميركية في جيبوتي وديجوجارسيا، وإسقاط نظام الشاه في إيران، ونظام هيلاسلاسي في إثيوبيا، والأنظمة الرجعية في المنطقة العربية، حسب مقولات ذلك الزمن، والشروع في تحويل عدن إلى المقرّ الرئيس لتصدير الثورة، والملهم الرئيس للحركات والمجموعات الثورية على امتداد العالم!! وتحول النظام في اليمن الديمقراطية في غضون سنوات إلى «بُعبع» يخيف الآخرين، بل يهدد مصالحهم، ومصالح الأميركيين والغرب وأصدقائهم في المنطقة.

نتيجة لهذه السياسات شبَّه البعض القيادة في عدن بالمجنون الذي يمسك بقنبلة ليس لها صمام أمان، ويمكن أن يفجر بها نفسه والآخرين!! لذلك، كان الكل في حال خوف وذعر، داخل النظام وخارجه، داخل المنطقة وخارجها! ويذكرني هذا التشبيه بتشبيه آخر لموفد أميركي شبّه نظام الإمام أحمد حميد الدين بعد الزيارة التي قام بها إلى مملكة الإمام، أو «اليمن السعيد» في الخمسينيات من القرن العشرين، في تقريره للرئيس الأميركي «أيزنهاور» بقوله: «إن اليمن كالجوهرة، في يد قرد لا يعرف قيمتها أو أهميتها!» وما أورده أمين الريحاني في وصف اليمن السعيد في كتابه الشهير ملوك العرب–رحلة في البلاد العربية

جوهرة في يد فحّام! ونحن بالمثل لم نكن ندرك أن أهمية السلطة تكمن في خدمة الوطن والمواطن، وليس في التنظير أو تحويل البلد إلى بعبع يخيف الآخرين.

لقد خلق هذا «التنظير» الذي تحول إلى سياسة، ومن ثم إلى برنامج سياسي، تحدياً أمام السياسة الخارجية لليمن الديمقراطية. لسنوات طويلة، لم يستطع البلد أن يتخلص من هذه النزعة «الثورية» في سياسته الخارجية وعلاقاته بالعالم، وعدَّه الجميع معقلاً لتصدير الثورة، ومستودعاً لتقديم الدعم المادي والمعنوي إلى حركات التحرر والمتمردين والناقمين في الوطن العربي، وفي مختلف القارات على حساب مصالح الدولة والمجتمع. كانت هذه العقيدة الثورية تطغى على الحقائق السياسية التي تتطلبها الدولة، وعلاقاتها، ومصالحها، والتزاماتها القانونية تجاه مختلف الدول والشعوب. وكان هذا الفهم متجسداً في جزءٍ مؤثر من القيادة كان يتبنى خيار «الشرعية الثورية» بدلاً من «شرعية الدولة»، ليس في السياسة الداخلية وحدها، بل أيضاً في السياسة الخارجية، ويرى أن المرحلة السياسية والاقتصادية – الاجتماعية التي تمرّ بها اليمن الديمقراطية تتطلبها لضمان استمرار الثورة وحماية النظام. وكان كل من يخرج عن هذا النهج، أو حتى يحاول مناقشته ومراجعته من منطلق مراعاة مصالح البلد مع محيطها العربي وعلاقاتها الدولية، يصنف فوراً في مربع (خيانة) الثورة.

علينا أن نعترف، بأنّ كثيرين منا في القيادة كانوا ضحية هذا «التنظير والفهم» اللّذَيْن زرعتهما بعض قيادات حركة القوميين العرب، حتى بعد أن تفرقت الحركة أيادي سبأ، لكن روحها حلّت في جزء من أرض سبأ تنخر مثلما نخر الفأر والإهمال سدّ مأرب، فعاثا فيه فساداً وخراباً! كذلك كانت التجربة في اليمن الجنوبي متأثرة أيضاً بالصراع السوفياتي – الصيني على موقع اليمن الاستراتيجي الذي كانت تتصارع عليه كل القوى الإقليمية والدولية، وكانت أيضاً ضحية لأفكار بعض التروتسكيين وطروحاتهم من أمثال العفيف الأخضر، ومظفر النواب، وأحمد بابا مسكه (الموريتاني)، وفواز طرابلسي، وألفريد هوليداي وغيرهم من اليساريين الذين كانوا يتحركون بين باريس والبلاد العربية، مبشِّرين بالثورة الدائمة، وبعصر «الكادحين» الذين سيرثون الثروة النفطية من أغنياء الخليج!!

ولكن هل نعفي أنفسنا مما جرى؟ وهل يعفينا كل ذلك من المسؤولية؟! كلا.

ما تأثير ذلك في مستقبل اليمن الديمقراطية وعلاقاتها الخارجية؟!

ما موقف بعض الأنظمة العربية والقوى الدولية من نظامنا الوليد الجديد؟! وما تأثيرها أيضاً ودورها في فرض العزلة على النظام بهدف إسقاطه والإجهاز عليه، تمهيداً لفرض البديل الذي كان يُعَدُّ لتسلُّم السلطة؟

علي ناصر محمد

٣٠ نوفمبر ٢٠٢٠م

الفصل الأول

السياسة الخارجية... بين ثورية القرار ودبلوماسية الدولة
البدايات الصعبة

مرت السياسة الخارجية لليمن الديمقراطية بمراحل متعددة تفاوتت ما بين القوة والضعف، الواقعية والتطرف، تغليب الأيديولوجيا على حساب المصالح... منطق الثورة على منطق الدولة، والعكس. وكان لكل مرحلة من هذه المراحل أو الفترات سماتها منذ الاستقلال (في ٣٠ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٦٧م) وحتى أحداث يناير ١٩٨٦م وانتهاءً بالثاني والعشرين من أيار/ مايو ١٩٩٠م، وهو تاريخ الوحدة بين الجمهوريتين اليمنيتين، وآخر يوم في تاريخ الوجود السياسي للدولة في الجنوب.

تميزت المرحلة الأولى التي أعقبت الاستقلال بصعوبات تعود إلى عدم وجود إطار سياسي ودبلوماسي مؤهل يقوم بأعباء العمل الدبلوماسي ومسؤولياته. فبريطانيا التي استعمرت الجنوب منذ عام ١٨٣٩م، أي مدة تزيد على قرن وربع قرن لم تهتم كثيراً بتأهيل مثل هذا الجهاز الذي يفترض أن يتحمّل المسؤوليات في المستقبل عندما يحين موعد رحيلها الحتمي. وعلى نقيض كثير من البلدان التي نالت استقلالها، كالهند وبعض المستعمرات البريطانية الأخرى، كان الوضع في الجنوب يختلف عنه في كثير من البلدان التي استعمرتها بريطانيا، فلم يكن هناك وحدة سياسية كاملة للمنطقة، بل كان ثمة سلطنات

ومشيخات ووحدات إدارية مجزأة، لم تستكمل مقومات اندماجها في دولة واحدة بالرغم من محاولات ايجاد نواة لذلك متمثلة في اتحاد الجنوب العربي والحكومة الاتحادية، أو في الوضع الإداري المتميز لمدينة عدن وحكومتها. ولكن حتى وجود هاتين الحكومتين لم يكن يسمح بتهيئة جهاز لإدارة السياسة الخارجية، لأن ذلك كان من شأن الحكومة البريطانية التي كانت تحتكر لنفسها العلاقات والاتصالات الدولية، وكان محظوراً على السلاطين وحكام الإمارات أي اتصال بالقوى الخارجية أو الدول الأجنبية. فكانت بريطانيا الدولة المستَعْمِرَة، تحكم قبضتها على السلطنات والمشيخات بما مكّنها من توجيه السياسة الخارجية وإدارتها كاملة. كذلك إن حدود التعليم الذي سمح به الإنكليز في مستعمرة عدن وبعض المحمّيات كان يلبي فقط الحاجات الإدارية لعدن ولتلك المحميات، ولم يكن موجهاً لإعداد أطر بشرية تخدم حاجات الاستقلال الوطني، بما في ذلك إدارة السياسة الخارجية.

في المقابل، فإن الجبهة القومية التي كانت تقود الكفاح المسلح ضد الوجود البريطاني للحصول على الاستقلال لم تُولِ هذه المسألة الاهتمام الذي تستحقه، حيث لم تعد مسبقاً الجهاز السياسي والدبلوماسي الذي يُدير السياسة الخارجية عند تسلم السلطة.

وزارة الخارجية قبل الاستقلال

كانت الوزارة تقوم على وزير وهو الشيخ محمد فريد العولقي.، ووكيل للوزارة، وعدد من الموظفين لا يتجاوزون أصابع اليدين بقليل. لم يكن لحكومة الاتحاد أو حكومة عدن تمثيل في الخارج سوى مكتب في لندن كان يسمى «مكتب الجنوب العربي»، وكانت مهمته رعاية مصالح الطلبة اليمنيين الذين يتلقون العلم في بريطانيا، وتسهيل بعض الأمور للسلاطين والوزراء المتنقلين بين عدن ولندن في مهمات رسمية أو في زيارات خاصة. أما التمثيل القائم في عدن للدول الأجنبية، فقد كان في المستوى القنصلي فقط، وخصوصاً للبلدان التي توجد لها جاليات كبيرة في عدن مثل الهند، أو تلك التي لها مصالح اقتصادية أو تجارية أو سفن تحمل علمها أو تابعة لها ترسو في ميناء عدن. فكانت توجد قنصليات لكل من الولايات المتحدة الأميركية، وإيطاليا، وفرنسا. كذلك كانت هناك قنصليات فخرية لعدد

من البلدان الأخرى، وتحديداً البلدان الإسكندنافية التي كان لها أساطيل بحرية تجارية. وكان لبعض البلدان الآسيوية وجود فخري بسبب محدودية عملها، إذ كانت تتعامل فقط في تسهيل أمور السفن والبحّارة المارين بميناء عدن. وفيما عدا القنصلية الأميركية العامة التي فتحت في نهاية القرن التاسع عشر في عدن والتي كانت تتعاطى العمل السياسي بالتنسيق مع البريطانيين، ومن خلال الاتصالات التي كانت تجريها مع مختلف الفئات التي كانت تتنازع سلطة حكومة الاتحاد وحكومة عدن، لم يكن هناك تمثيل دبلوماسي بالمعنى الصحيح للدول الأجنبية في عدن، وهو أمر ينسجم مع وجود الجنوب تحت الاحتلال المباشر لبريطانيا وتحكمها في شؤونه الخارجية كافة.

تأسيس وزارة خارجية الدولة الوليدة

كان تأسيس وزارة الخارجية يوم الاستقلال من الأمور المهمة التي واجهت الحكومة الجديدة التي تسلمت السلطة. وتمثلت الصعوبات في شحة الكادر البشري المؤهل لتحمّل مسؤولية كهذه من ناحية، وفي المشاكل التي خلفتها الحرب، سواء ضد الإنكليز أو الحرب الأهلية بين ثوار الجبهة القومية وجبهة التحرير على أعتاب الاستقلال، ما أدى إلى هروب كثير من العاملين المؤهلين إلى الخارج، ولاسيما أصحاب الخبرات الفنية وأصحاب المؤهلات العالية. ومن ناحية أخرى، ساعد الموقف البريطاني المتساهل على نزوح العديد من الفنيين إلى دول الخليج.

لذلك، فإن حاجة الحكومة إلى الأطر الفنية المؤهلة في مختلف المجالات، بما في ذلك السياسة الخارجية كانت في ذلك الوقت المبكر من نيل الاستقلال من الأمور التي ألقت عبئاً ثقيلاً على البلد وعلى قيادته السياسية. وبالرغم من العوائق التي كانت تعترض آنذاك طريق تأسيس مختلف الوزارات لنقص الأطر البشرية، وعدم توافر الخبرة، أو فهم ماهية العمل المطلوب، فإن وزارة الخارجية حظيت باهتمام خاص، ووُفِّرَ لها جهاز، كان محدوداً في عدده، ولكنه كان قادراً على تأدية المهمة الموكلة إليه في حدودها الدنيا، وتمثل هذا الجهاز بـ سيف الضالعي وزير الخارجية ومحمد هادي عوض نائب وزير الخارجية

والذي خلفه عبد القوي محمد رشاد. وأسهمت الجمهورية العربية المتحدة التي كانت من أوائل الدول التي سارعت في الاعتراف بجمهورية اليمن الجنوبية الشعبية وإقامة علاقات دبلوماسية معها، في وضع الأسس العامة والقوانين المنظمة لرئاسة الجمهورية ومجلس الوزراء ووزارة الخارجية ووضعت من خلال فنييها بعض الترتيبات لتدريب الأطر اليمنية في مجال البروتوكول والأعمال القنصلية والمراسم والمراسلات الدبلوماسية المختلفة والتوجيه بنوعية الجوازات التي طبعت في بريطانيا فيما بعد.

أولى البعثات الدبلوماسية

بعد الاستقلال، سارعت العديد من الدول التي اعترفت باستقلال الدولة الحديثة إلى فتح بعثات لها في العاصمة عدن. وكانت المملكة المتحدة من أوائل الدول التي افتتحت لها سفارة، ثم تلتها الولايات المتحدة الأميركية، وكان لها مصالحها الخاصة ورؤيتها المستقبلية للمنطقة، فرفعت من مستوى قنصليتها العامة إلى سفارة، كذلك الهند التي كانت لها قنصلية عامة أولت اهتماماً كبيراً بجاليتها الكبيرة وبممتلكاتها وبمصالحها المرتبطة بعدن منذ كانت تدار عبر شركة الهند الشرقية في بومباي، رفعت قنصليتها العامة إلى مستوى السفارة. وقد كان للهند دوافع سياسية، بحكم أنها من الدول المؤسسة لحركة عدم الانحياز، وكان ذلك يدفعها إلى العمل على إنشاء علاقات متطورة مع البلدان المستقلة في العالم الثالث. وكانت إيطاليا من الدول التي رفعت مستوى قنصليتها العامة الموجودة في عدن قبل الاستقلال إلى سفارة، وكذلك فعلت فرنسا. وكان لكلتا الدولتين مصالح اقتصادية وتجارية تهتم بها، بالإضافة إلى اهتمامها بسفنها التي ترسو في عدن، كانت فرنسا بالذات تهتمّ بموقع عدن الاستراتيجي، بحكم وجودها في جيبوتي على الشاطئ المقابل.

الـدول العربيـة

أما الدول العربية، فكانت مصر من الدول السَّباقة إلى الاعتراف باليمن الجنوبية وإقامة علاقات دبلوماسية معها، ومن الدول التي فتحت سفارة لها جمهورية الصومال بحكم

العلاقة التاريخية القديمة بين البلدين والشعبين، وبحكم وجود قنصلية لها في عدن قبل الاستقلال لرعاية مصالح الجالية الصومالية الكبيرة في عدن. لكن في المقابل، كان ثمة دول عربية لم تبادر فوراً إلى إقامة علاقات دبلوماسية كاملة ولم تفتح سفارات لها في عدن بالرغم من اعترافها بالاستقلال. ومن هذه الدول الجمهورية العربية السورية، ولعل ذلك يعود إلى أن سورية نفسها كانت تمرّ بظروف صعبة ناتجة عن آثار عدوان الخامس من حزيران/ يونيو ١٩٦٧م وانشغالها بتجاوز تلك الآثار.

كان لبنان من أوائل البلدان العربية التي أوليناها اهتمامنا ليكون لنا فيها تمثيل دبلوماسي. كان الهدف في البداية إعلامياً، وذلك لما تمثله بيروت من مركز وثقل إعلامي مفتوح على كل الفضاءات السياسية العربية والأجنبية. بدأ ذلك عام ١٩٧١ بتعيين قائم بالأعمال، وكان اختيارنا موفقاً، إذ اختير لهذه المهمة واحد من أنجح الإعلاميين، هو محمد ناصر محمد الذي استطاع خلال زمن قصير نقل إعلامنا الخارجي إلى مستوى جديد وأقام علاقات مع الحكومة اللبنانية والأحزاب والصحف والسفارات الأجنبية في بيروت.

أما العراق، فقد كان يعيش ظروفاً سياسية صعبة وخلافات وصراعات على السلطة، حالت دون التفاهم العربي نتيجة أوضاع سياسية معقدة أدت أخيراً في عام ١٩٦٨م إلى الإطاحة بحكم عبد الرحمن عارف ومجيء حكم أكثر تفهماً لخلق علاقات عربية متطورة[(١)].
وحتى عام ١٩٦٩م لم يكن لدينا بعثات في كل من العراق والجزائر، لكن فيما بعد أصبح لنا عدد من السفارات في بلدان عربية أخرى عقب إنشاء عدد من الدول العربية بعثات دبلوماسية لها في عدن. وبالطبع، كانت هذه المسألة محكومة بمستوى تطور العلاقات السياسية السائدة بين بلادنا وهذه البلدان. وعلى سبيل المثال، فإن العلاقات الدبلوماسية مع بعض دول الخليج تأخرت إلى ما بعد السبعينيات، وبعضها تأخر إلى النصف الأول من الثمانينيات.

وكان لنا قنصلية عامة في الكويت، وسفارة في الصومال، وقنصلية في إثيوبيا، وسفارة في الهند، وسفارة في بريطانيا حيث حُوِّل مكتب الجنوب العربي الموجود منذ ما قبل

(١) حكم حزب البعث بقيادة أحمد حسن البكر وصدام حسين.

الاستقلال إلى سفارة، وأنشأنا بعثة دائمة لدى الأمم المتحدة بنيويورك مكونة من شخصين فقط برئاسة السفير إسماعيل نعمان رئيساً للبعثة مندوباً دائماً لدى الأمم المتحدة، ولم يمضِ السفير إسماعيل نعمان وقتاً طويلاً في مهمته في المنظمة الدولية، حيث أخبرني في لقاء معه عام ٢٠١٦م أنه استدعي الى وزارة الخارجية في عدن وأنهيت مهمته في الأمم المتحدة وذلك بسبب اتهامه بـ«البرجزة» لأن أحد المسؤولين شاهده وهو يقطع الخبز بسكين كهربائي عندما استضافه في منزله في نيويورك أثناء المشاركة في أعمال الجمعية العامة ١٩٦٩م. وسافر بعد ذلك الى الكويت للعمل.

وكنت قد سمعت عن هذه الحادثة ولم أصدقها حينها إلا بعد أن تحدث معي السفير اسماعيل نعمان بذلك وهو رجل مهذب ومثقف ودبلوماسي.





السفير إسماعيل نعمان أول مندوب لجمهورية اليمن الجنوبية الشعبية

الانضمام إلى الجامعة العربية

انضمت الجمهورية إلى الجامعة العربية في ١٢ ديسمبر ١٩٦٧م، وكُلف الأخ عبد الملك إسماعيل عضو القيادة العامة للجبهة القومية في ذلك الوقت تمثيل بلادنا وحضور مراسم قبولنا في الجامعة، وتم تعيين أول مندوب دائم لجمهورية اليمن الجنوبية الشعبية لدى الجامعة العربية، وكان أول سفير لليمن الجنوبية لدى الجمهورية العربية المتحدة الأخ

محمد هادي عوض، الذي قدم أوراق اعتماده إلى الرئيس جمال عبد الناصر في ١٦ أبريل ١٩٦٨م، واعتُمد سفيراً غير مقيم لدى كل من الجزائر وليبيا والسودان وسورية ولبنان. وفي الوقت نفسه، كُلف مهمات في فترات متتالية بعد الثورة العراقية، وأجرى اتصالات بالمسؤولين العراقيين لمتابعة بعض الاتفاقيات بين البلدين.

لم يكن في وسع اليمن الجنوبية عند بدء استقلالها، ونتيجة الظروف الاقتصادية التي كانت شديدة الوطأة على الدولة حديثة الاستقلال أن تتحمل عبء فتح بعثات دبلوماسية كثيرة وتكاليفها، فضلاً عن توافر الأجهزة المؤهلة لإدارة هذه العملية، لذلك اكتُفي في البداية بإنشاء بعثات محدودة تكلفت بمهمات واسعة في مجالات مختلفة مثلما كانت الحال بالنسبة إلى سفارتنا في القاهرة التي كانت تتابع معظم الأعمال والقضايا مع عدد كبير من الدول العربية وحتى البلدان الاشتراكية ما عدا موسكو وألمانيا الديمقراطية. وكانت الاتصالات بالصين الشعبية تجري عبر سفارتنا في القاهرة، ووقّع سفيرنا الأخ محمد هادي اتفاقية التمثيل الدبلوماسي مع الصين، كذلك وقّع مع السفير الصيني في عام ١٩٦٨م اتفاقية القرض الأول لبناء طريق امعين – المحفد في المحافظة الثالثة (أبين) في مرحلته الأولى، ورُتّبت زيارات معظم الوفود الصينية أو وفود البلدان الاشتراكية التي زارت اليمن الجنوبي خلال هذه الفترة عبر السفارة في القاهرة. وكانت زيارات الوفود التي تذهب إلى موسكو وغيرها من البلدان تُرتَّب عبر القاهرة، كزيارة وزير الدفاع حينذاك علي البيض لموسكو. ولم تفتح سفارة لليمن الجنوبية في موسكو إلا بعد الزيارة التي قام بها رئيس الجمهورية قحطان الشعبي عام ١٩٦٨، وكانت أول زيارة يقوم بها لخارج المنطقة بعد زيارته الجمهورية العربية المتحدة التي نتج عنها الاتفاقية الأولى للتسليح والتعاون الفني.

كانت سفارتنا في لندن ترعى شؤون مغتربينا، وتتعاون مع المؤسسات المختلفة في القضايا الاقتصادية والتجارية والمصرفية، وكانت في الوقت نفسه مسؤولة عن طلبة اليمن الديمقراطية الذين كانوا يدرسون في بريطانيا. وكانت سفارتنا في الهند مسؤولة بدورها عن منطقة واسعة في آسيا ما عدا إندونيسيا التي كان لنا فيها قنصلية عامة، نظراً إلى وجود جالية يمنية كبيرة هناك. كذلك أصبحت لدينا قنصلية في تنزانيا، مسؤولة عن شرق إفريقيا، ورفعت

فيما بعد إلى مستوى سفارة. ظل التمثيل الدبلوماسي زمناً محصوراً في هذا العدد البسيط من البعثات لتسهيل أمور الدولة وربط العلاقات الدبلوماسية بالبلدان التي تربطنا بها علاقات اقتصادية وتجارية وسياسية.

أما التمثيل الدبلوماسي مع الجزائر، فقد اقتصر حتى وقت متأخر من أواخر السبعينيات على مستوى قائم بالأعمال إلى حين تعيين سفير لنا هناك في الوقت الذي كانت الجزائر تدير فيه علاقاتها معنا عبر سفارتها في صنعاء ولم تتخذ قراراً بفتح سفارة لها في عدن إلا بعد بدء العمل في مشاريع اقتصادية في اليمن الجنوبي. وبالنسبة الى ليبيا فقد افتُتِحَت سفارة لنا في طرابلس بدأت باعتماد مندوب يتنقل بين القاهرة وطرابلس، وكان طالباً يدرس الهندسة في القاهرة اسمه يوسف علي بن علي الذي أتيت على ذكره في أكثر من موقع من مذكراتي. وفيما بعد عُين الأخ ناصر صدح قائماً بالأعمال في سفارة ليبيا، وبعد تطور العلاقات بين البلدين ارتفع التمثيل إلى مستوى سفير، وافتتحت ليبيا سفارة لها في عدن.

البلدان الاشتراكية

كان أول وفد يصل إلى عدن من المنظومة الاشتراكية، بعد الاستقلال مباشرة هو الوفد السوفياتي، حيث وصل في كانون الأول/ ديسمبر (١٩٦٧م)، وكان مؤلفاً من شخصين: المرشح سفيراً في عدن، وسفير مفوض من السفارة السوفياتية في القاهرة اسمه بنيامين. وقد رافق الوفد وكيل وزارة الخارجية الأخ محمد هادي. وقد قام الوفد بجولة استطلاعية وقابل تقريباً معظم المسؤولين في الحكومة الجديدة، ووقع اتفاقية التمثيل الدبلوماسي بين الاتحاد السوفياتي واليمن الجنوبية، وبحث إمكانية الحصول على المباني الضرورية لفتح سفارتهم في عدن، وأجرى اتصالاته الخاصة للحصول على هذه المباني، التي كانت حتى ذلك الوقت ملكاً للقطاع الخاص. وقد وقع اختيارهم على المباني المملوكة لشركة الطيران البريطانية أو ما كان يسمى Aden Airways، أي خطوط عدن الجوية.

أما بالنسبة لبقية الدول الاشتراكية فلم تنته فترة السبعينيات حتى كان هناك سفارات

لمعظم الدول الاشتراكية في اليمن الجنوبية. فقد أُنشئت سفارات لكل من المجر، بلغاريا، رومانيا، تشيكوسلوفاكيا، كوبا، وكوريا الديمقراطية، بالإضافة إلى ألمانيا الديمقراطية والاتحاد السوفياتي والصين الشعبية.

وكانت سفارة ألمانيا الديمقراطية واحدة من السفارات النشيطة في مجال العلاقات الثنائية، ولاسيما في مجالات التدريب في الجانب الأمني، وتقديم المنح الدراسية وبعض القروض، ودفع هذا في المقابل إلى افتتاح سفارات لنا في هذه البلدان، حيث عُيِّن الأستاذ علي عبد الرزاق باذيب أول سفير لنا في ألمانيا الديمقراطية.

الفصل الثاني

العلاقات بين جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية وجمهورية مصر العربية

كلنا شربنا من النبع نفسه
وسام الثورة لجمال عبد الناصر
علاقات عدن بالقاهرة مساحة لا يمكن اختزالها

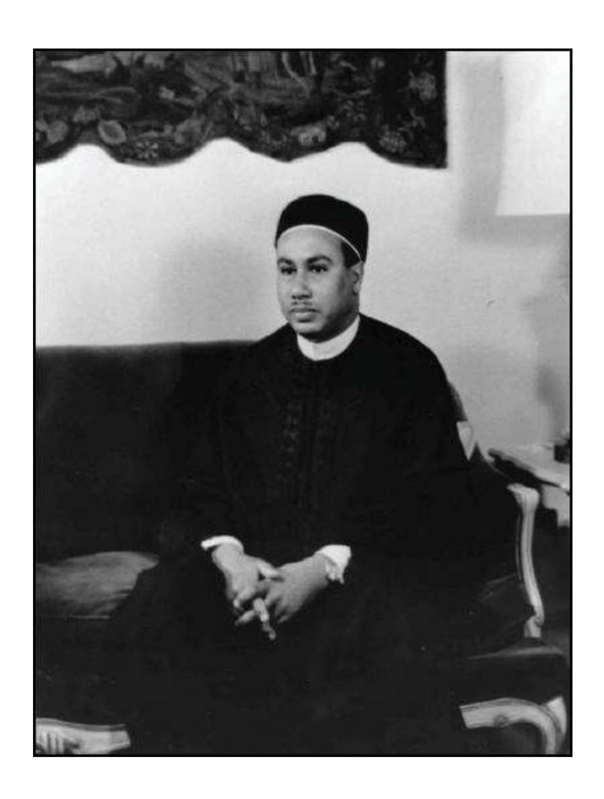
في عدن أغنية وطنية شهيرة كتب كلماتها الشاعر الكبير الراحل «لطفي جعفر أمان» عنوانها «يا بلادي»، ولحنها ووضع موسيقاها واحدٌ من أشهر فنانينا المعاصرين هو «محمد مرشد ناجي». وأحد مقاطعها يقول «... يا لنهر النيل يروي كل قلب عربي». ويدور موضوع الأغنية حول الثورة العربية. صرخة مدوية عبر خلالها الشاعر عن نظرته وموقفه من الثورات العربية وانتمائها جميعاً إلى ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م، وكأني به يريد أن يقول إنها جميعاً شربت من نهر ثورة يوليو في مصر.. وإن كل البلدان العربية قبلها كانت صحراء يقتلها العطش تحت نير الاستعمار الأجنبي.

يصح هذا على «الثورة اليمنية» أكثر من سواها. وإذا أضفتم إلى ذلك الدور الذي كان

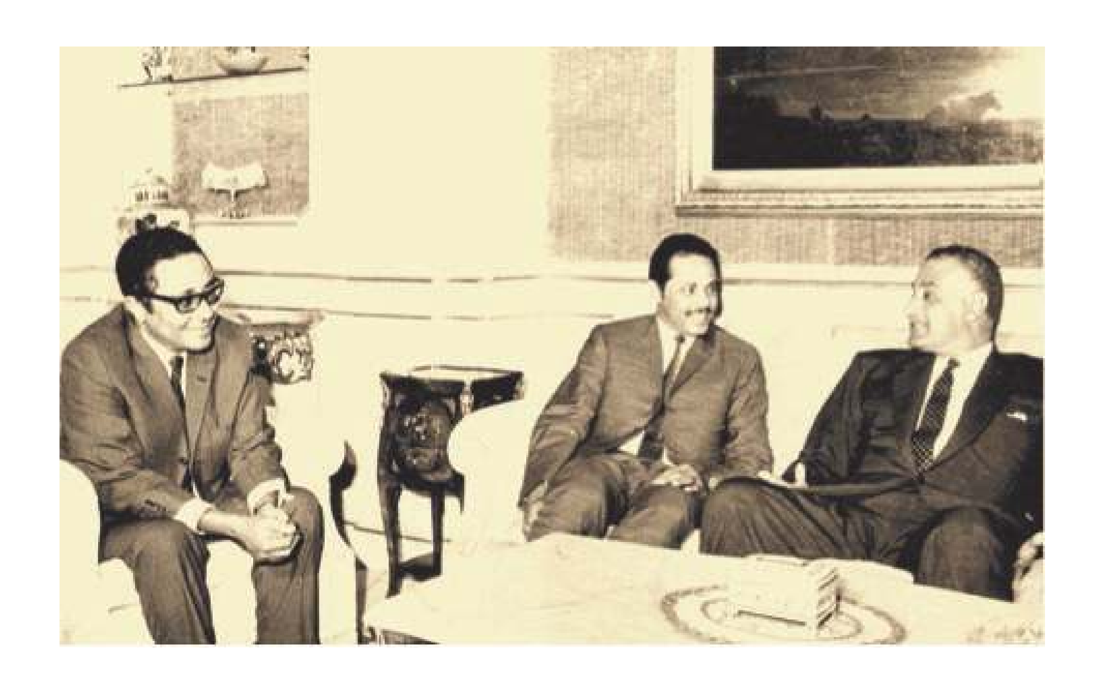
للقائد العربي الراحل جمال عبد الناصر في هذا المضمار، أدركتم مغزى ما سأتحدث عنه في السطور اللاحقة.

اللقـاء الأول مع عبد الناصر

في يونيو عام ١٩٧٠م كنت أمثل بلادي بصفتي وزيراً للدفاع في احتفالات الجماهيرية الليبية بذكرى جلاء القوات الأميركية والبريطانية عنها، وكان عبد الناصر حاضراً هناك انطلاقاً من نظرته القومية البعيدة، يرى في ثورة الفاتح عمقاً جديداً لمصر، ويرى في الثوار الليبيين الشبان تلاميذ مدرسته، وإحدى نتائج تأثيرات ثورته، ويرى في طموح قائد هذه الثورة الشاب معمر القذافي وحماسته طموحه وحماسته وهو شاب، وهو الذي حارب الاستعمار والقواعد والأحلاف وأمّم قناة السويس وبنى السد العالي وساند حركات التحرر... وهذه المواقف جعلت منه زعيماً وطنياً وقومياً بلا منازع. شاهدته وصافحته لأول مرة في المهرجان الجماهيري الذي أقيم بهذه المناسبة، وقد سلم على الضيوف الذين يجلسون في الصف الأمامي نور الدين الأتاسي، القاضي عبد الرحمن الإرياني، أحمد حسن البكر، جعفر نميري، هواري بومدين، الباهي الأدغم، الملك حسين، فاروق قدومي، خليفة بن زايد وآخرين. قدمت نفسي إليه وطلبت منه في لحظة سريعة وعابرة أن ألتقيه، من باب المجاملة. لم أتوقع أنه في زحمة الاحتفالات والرؤساء والوفود المشاركة سيتذكر هذا الطلب، وفي مهرجان آخر لوّح لي بيده من بعيد والتفت خلفه وطلب من مرافقيه أن يبلغني بأنه قد تحدد موعد للمقابلة في الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي في مقر إقامته بالقصر الذي كان يملكه ويسكنه ولي عهد المملكة الليبية الأمير الحسن الرضا السنوسي.



ولي عهد المملكة الليبية الأمير الحسن الرضا السنوسيفي اليوم التالي وعند الساعة العاشرة فتح الباب، وشاهدته وجهاً لوجه... لا تزال صورته راسخة في ذهني، ببذلته المقلمة، وقامته العملاقة، كان يسير في جناحه حيث استقبلني بمحبة وسرور وتعانقنا عناقاً حاراً. حضر المقابلة سفيرنا في القاهرة «محمد عبد القادر بافقيه»، والكاتب والصحفي المصري الكبير محمد حسنين هيكل الذي كان يرافق عبد الناصر في معظم زياراته الخارجية.



اللقاء الأول بين رئيس الوزراء علي ناصر محمد والزعيم الخالد جمال عبد الناصر في طرابلس الغرب أثناء الاحتفالات بجلاء القوات البريطانية والأميركية من ليبيا في يونيو ١٩٧٠م، ويبدو في الصورة السفير محمد القادر باقفيه

بعد كلمات الترحيب والمجاملة شكرته على الاستقبال وعلى مواقفه الوطنية والقومية تجاه القضايا العربية، وفي المقدمة قضية الشعب الفلسطيني، وأشدت بدعمه ومساندته للثورة اليمنية شمالاً وجنوباً، وتحدثت عن المخاطر والمؤامرات التي تتعرض لها اليمن الجنوبية، وطالبناه بالدعم السياسي لأننا ندرك أن مصر بعد نكسة حزيران تواجه كثيراً من الصعوبات على الصعيد العسكري والاقتصادي.

أثناء الحديث، ودون شعور مني، وضعتُ على الطاولة الصغيرة التي أمامي علبة سجائر أميركية (Kent) وولاعة رونسون.

قاطعني وسألني: هل تدخن هذا النوع من السجائر؟

فأجبت: نعم.

فقال: لقد حرمني الأطباء إياها، وهي متعتي المفضلة.

كان يدخن قبلها سجائر كرافن أ CRAVEN A وL M خلال الخمسينيات وقد طلب إليه الأطباء المعالجون، ومنهم الطبيب الروسي المشهور «يفغيني تشازوف»[1] أن يمتنع عن التدخين، وكانت هذه هي المتعة الوحيدة التي بقيت له. أطفأ آخر سيجارة مشتعلة في يده بتاريخ ١٥ أيلول/ سبتمبر ١٩٦٩م بعد أن أصيب بجلطة قلبية، ولم يعد إلى التدخين حتى وفاته كما علمت فيما بعد، والدكتور «تشازوف» هو من عالج الرئيس الجزائري الراحل هواري بومدين وعدداً من قادة العالم بالإضافة إلى القادة السوفيات.

قال: تفضل دخّن.

احتراماً له لم أدخن، لكنه ألحّ عليَّ في التدخين، لأن هذا لا يضايقه. شعرت بأنه كان يريد أن يشتمّ رائحة الدخان، لأن الأطباء كانوا يمنعونه، بل يحرمونه متعته الباقية له، كما أشار إلى ذلك. حدث مثل هذا الموقف بعد ذلك مع الرئيس بريجنيف عندما طلب مني أن أدخن ونحن في السيارة بين المطار والكرملين، وسأتحدث عن ذلك في مكان آخر من هذه المذكرات.

في الحديث الذي جرى بيننا نصحنا الرئيس ناصر بأن نتجنب الصدام مع السعودية[2]، وحذرنا من الوقوع في الفخ المنصوب لنا، وقد شـبّهه بالفخ الذي نصب للجمهورية العربية المتحدة في حزيران ١٩٦٧م.

انتقل إلى الشق الثاني للموضوع، فأخبرني بأن مصر لن تستطيع أن تقدم مساعدة إلى اليمن الجنوبية نظراً إلى الخسائر التي منيت بها في الحرب، ومن جراء إغلاق قناة السويس، وتهجير مواطني منطقة القناة، وإغلاق المصانع فيها وخسارة مناجم سيناء، وبترول أبو رديس، وما ترتب عن ذلك من مضاعفة ميزانية الجيش وازدياد أعباء الحرب وكلفتها.

وفي ما يخص التغييرات في السياسة المصرية بعد النكسة والتقارب المصري السعودي

---

(١) قال الدكتور يفغيني تشازوف في برنامج «رحلة في الذاكرة» على قناة روسيا اليوم إن القيادة السوفياتية كلفته علاج عبد الناصر، وقالت له الإدارة السوفياتية إن علاجه الناجح أهم من إرسال فرق عسكرية إلى الشرق الأوسط.

(٢) حينها استولت السعودية على منطقة الوديعة الجنوبية في الحرب التي عرفت (بحرب الوديعة) في عام ١٩٦٩م.

ومؤتمر القمة العربي الذي عقد في الرباط، أكد الرئيس عبد الناصر أنه لا يتوقع شيئاً كثيراً من السعودية وقال:

«أنا أعرف تماماً أن الملك فيصل لن يقدم شيئاً، ولكنني أردت أن أكشف ذلك لمن ينتقدون سياستنا تجاه السعودية. ولهذا فقد حرصت على أن أدعو الملك فيصل للمجيء إلى القاهرة حتى لا يرفض حضور مؤتمر القمة العربي في الرباط. وفي لقائي به في القاهرة عرفت منه صراحة أنه ليس لديه ما يقدمه. كنت قد رجوت رئيسكم سالم ربيع علي ألا يثير مشكلة الوديعة، لأن فيصل سيستغلها حجة للانسحاب من المؤتمر».

جرى بيني وبين الرئيس جمال عبد الناصر حديث آخر عن القضايا القومية، وقد أدركت من حديثه المرارة التي يحسّ بها حيث علّق قائلاً: «هناك حديث يدور حول إقليمية المعركة أو قوميتها، ونحن نحارب على أي حال إن كانت إقليمية أو قومية. وليس هناك مشكلة في هذا الصدد من وجهة نظرنا». وأضاف بمرارة: «لو أردنا المعركة إقليمية، لكنا حللنا قضيتنا من زمان». وكشف لي أن الأميركان عرضوا عليه في عام ١٩٦٨م إجلاء إسرائيل عن كل أراضي مصر التي تحتلها مقابل شرط واحد، هو عدم ربطها بمشكلة بقية الأراضي العربية المحتلة، وأنه رفض ذلك.

شرحت للرئيس عبد الناصر الصعوبات التي تواجهها بلادنا بسبب عدم إيفاء البريطانيين بالتزاماتهم تجاه النظام في عدن وفقاً لاتفاق جنيف بتقديم ٦٠ مليون جنيه إسترليني، فقال لي: «عليكم أن تصمدوا كما صمدنا في وجه الضغوط التي تعرضنا لها».

قال: «لا أخفي عليكم أننا كنا في الماضي «زعلانين منكم» ولكن هذا قد زال الآن ولم يعد هناك سبب للزعل والحساسية. وبعد أن ذاب الجليد فنحن نرحب بتبادل الزيارات بين السياسيين الحزبيين والرسميين في أي وقت». ووعد بأنه سيرسل مندوباً عنه إلى عدن، لحضور أيٍّ من مناسباتنا الوطنية. وقال: «نحن معكم بالرغم من أننا ساعدنا عبد القوي المكاوي في فترة من الفترات، ولكننا قد صححنا هذا الموقف واعترفنا بكم فور إنجازكم الاستقلال، ومش زعلانين منكم أبداً، مع أن هناك مسؤولاً عندكم يشتم مصر!»، وأشار بصفة خاصة إلى علي سالم البيض الذي هاجم عبد الناصر واتهمه بأنه برجوازي وأسير

المخابرات المصرية بقيادة عزت سليمان، وقال إنني لم أصدق ذلك إلا عندما سمعته شخصياً من العقيد معمر القذافي الذي نصحه البيض بعدم تقديم أي مساعدة ليبية الى مصر، بل حذره من مصر، والتفت نحوي وقال: لقد ساعدنا نضالكم في الجنوب ضد الاحتلال البريطاني وساعدنا إخوانكم في صنعاء من أجل الحفاظ على النظام الجمهوري، وساعدنا ثورة الجزائر وحركات التحرر العربية والإفريقية وحتى ليبيا، قدمنا إليهم المدرسين والمهندسين والأطباء والضباط لمساعدتهم، ولم نطلب منهم دولاراً واحداً، وأعترف لك بأن الذي ساعدنا بعد نكسة حزيران رجل قومي اسمه زايد بن سلطان حاكم أبو ظبي، وأنا لم أعرفه حتى اليوم، وبلده لا يزال تحت الاحتلال البريطاني. وواصل حديثه عن اتهامه بالبرجوازية: وقال لقد قرأت في الاقتصاد والفلسفة الماركسية أكثر منكم، وضحك وقال: لقد أممت قناة السويس وبنيت السد العالي ومصانع الحديد والصلب بحلوان، وأنتم ماذا فعلتم؟ أممتم السينما الصيفية بالمكلا[1]. وكان يشير في حديثه إلى التأميمات التي قام بها

(١) في فبراير ١٩٦٨م، أصدر مجلس الشعب الأعلى في المحافظة الخامسة (حضرموت) قرارات رقم ١٢و١٣ جرت بموجبها تأميمات عقارية «كخطوة على طريق سلسلة تأميمات توالت فيما بعد»، كما ستتضح في سياق التحليل، وأبرزها تأميم المنظمة الوطنية وفروعها وشركة السينما الأهلية بالمكلا ومصادرة شركة الكهرباء بسيئون وبيتي العمودي وباحبيشي.

ويُروى عن فيصل العطاس، أحد القياديين بالحركة المتطرفة اليسارية في حضرموت، وهو عضو في مجلس الشعب الأعلى بحضرموت، نحيف جداً، أسمر البشرة، يرتدي ثياباً رثة فقيرة قوله: «نحن لم نطرد الإمبرياليين، كي نبيع البلاد لهم في النهاية»، يقول فيصل العطاس. وهذا ما ترغبه حكومتنا، أروني شخصاً واحداً نزيهاً وشريفاً في الحكومة؟ كلهم برجوازيون، ويخافون الاشتراكية كما يخافون نار جهنم، وهم لن يقوموا أبداً ببنائها، فبرنامج المؤتمر الرابع للجبهة القومية حبر على ورق. ولم ينجز منه شيء حتى الآن، إلا إقامة الحرس الشعبي. والشرطة الشعبية لم تشكل حتى الآن في البلاد لأن الرئيس يخافها. أما نحن فقد شكلناها بأنفسنا في حضرموت. وقمنا بتسليح الشعب لأننا لا نخافه. ويوجد نظام في محافظتنا، حتى الرئيس نفسه لا يحلم به. وهذا الإصلاح الزراعي؟ ما هو إلا عبارة عن تكرار التجربة المصرية في هذا المجال. ومصر لا يمكن أن تكون مثلاً لنا في أي جانب من الجوانب. فهي بلد برجوازي رجعي. أين هو التأميم الموعود؟ نحن أممنا قاعة السينما ومحطتي توليد طاقة للكهرباء وكادوا يعتبروننا في عدن مجرمين. الاشتراكية هي ما يحتاجه الشعب وليست الديماغوجية. تقرير مصير حضرموت؟ ولو ذلك على الأقل! سيصل الأمر إلى العراك، شعبنا مستعد =

عبد الله الأشطل[1] وعلي سالم البيض في حضرموت، ما يدل على أنه كان على اطلاع على ما يحدث عندنا، وأضاف بأدق التفاصيل رغم مشاكله الكثيرة بإزالة آثار العدوان هو «زعلان منا» لأننا دربناه في الصاعقة ورفسه أحد الضباط وسقط ووقع على وجهه، وقال إنه لم ينسَ ذلك، وقاطعته باحترام، وقلت: لقد كنت معه في الدورة نفسها بأنشاص وأنتم أيضاً لم تنسوا حديثه مع القذافي، فأنت كبير يا فخامة الرئيس والكبير يبقى كبيراً، أرجو أن نتجاوز ذلك. قال في نهاية اللقاء: «نحن معكم».

لم تنقطع الاتصالات الرسمية والشعبية بين الشعبين والبلدين إلا بعد زيارة السادات للقدس وتوقيع اتفاقية كامب ديفيد التي اتخذ العرب منها موقفاً في قمة بغداد بمقاطعة مصر التي لم تدم طويلاً. ظلت الاتصالات بين مصر والزعماء العرب تجري بطريقة سرية كما أكد لي ذلك السيد خالد محيي الدين أثناء لقائه الرئيس مبارك قبل زيارته عدن عام ١٩٨٣، فقد تحدث معه الرئيس مبارك عن العلاقة مع عدن وقال إنّ الرئيس علي ناصر محمد لا يتصل بنا ولا يشتمنا، والآخرون يتصلون سراً ويشتموننا علناً فبلغه تحياتي، وأبلغه أننا أوقفنا خطة لإسقاط النظام في عدن بعد تسلمي رئاسة الدولة شاركت فيها أطراف إقليمية ودولية بعد معاهدة عدن الثلاثية بين ليبيا وإثيوبيا واليمن الديمقراطية عام ١٩٨١. زار خالد محيي الدين عدن لأول مرة للمشاركة في الذكرى العشرين لثورة ١٤ أكتوبر، وبهذه المناسبة أقيم الاحتفال بعيد الثورة العشرين في «ملعب الشهيد الحبيشي» في المدينة الباسلة كريتر التي استولى عليها ثوارها وشعبها أكثر من أسبوعين وحرروها من قوات الاحتلال البريطاني عام ١٩٦٧ رداً على نكسة حزيران في مصر واعترافاً ببعض الجميل لعبد الناصر الذي هتفت

= للتضحية بروحه من أجل الثورة. أما وإذا تحدثنا عن السياسة الخارجية فإننا نود مساعدة إخوتنا المقاتلين في ظفار وفي اليمن الشمالي. وقد جمعنا لهم الأموال. كل منا قدم ما يقدر عليه. أما الرئيس فقد قدم هذه الأموال للجيش، وفي نفس الوقت قدم المساعدة للملكيين في اليمن. (المصدر كتاب اليمن واليمنيون) سبق ذكره، الصفحة ٢٢٣.

(١) ولد في أديس أبابا وتعلم في الجامعة الأميركية في بيروت وأصبح ممثلًا لليمن الديمقراطية في الأمم المتحدة قبل الوحدة وبعدها ممثلاً للجمهورية اليمنية.

الجماهير بحياته ورددت أغنية الفنان الكبير محمد محسن عطروش «برع يا استعمار من أرض الأحرار» وكان ذلك بتاريخ ٢٠ يونيو ١٩٦٧م وهو يوم مجيد في تاريخ الثورة.

كان علينا في اليمن الديمقراطية، ونحن نحتفل بمرور عشرين عاماً على ثورة «١٤ أكتوبر» أن نردّ بعض الجميل إلى صاحب الفضل الذي لن نستطيع مهما حاولنا أن نفيه حقه أو حتى جزءاً يسيراً منه. أردت أن أجعل من المناسبة فرصة لتكريم قائد فذّ من هذا الطراز الفريد في التاريخ، ولم يكن ذلك تعبيراً عن وفاء شعبنا في اليمن لهذا القائد ولنضاله وتضحياته فحسب، بل أيضاً لأنه، بعد أن أصبح في ذمة الله والتاريخ، تعرض لموجة عنيفة من الحملات الظالمة بلغت حد التشهير به وبدوره القومي، وعلى الخصوص دوره في مساندة الثورة اليمنية.

كان واضحاً لنا منذ البداية، أن بلدنا هو الأحق بتكريم اسم القائد وذكراه نظراً إلى دوره الاستثنائي في دعم كفاح الشعب ونضاله ضد الاستعمار، ونظراً إلى ما كان يتعرض له من هجوم شرس، ونقد جارح وغير موضوعي، انطلاقاً من ظروف مصر الداخلية. ويبقى هنا شيء مهمّ هو الذي أود الإشارة إليه، وهو أننا في اليمن الديمقراطية كنا نريد بهذا التكريم تأكيد أن الثورة التحررية التي بدأها وقادها عبد الناصر بأهدافها القومية العظيمة في الحرية والوحدة لا تزال قائمة ولا يزال لها امتدادها في هذا الركن المنسيّ من الوطن العربي، وأننا على استعداد لتحمل أعباء دورنا انطلاقاً من موقعنا ومواقفنا العربية القومية بعد أن كان البعض يحاول إقامة الدليل على خروجنا عن الخط والتوجه العربيين. وهكذا أردنا أن نثبت لكل من أراد ذلك في داخل اليمن وخارجها أننا نشرب من النبع نفسه، أو كما قال شاعرنا لطفي أمان: «يا لنهر النيل يروي كل قلب عربي».

كان العيد في ذلك اليوم الأكثر بهاءً منذ أن درجنا على الاحتفال بهذه المناسبة الغالية. كان احتفالاً فريداً. جاءت الجماهير من كل مكان وملأت المدرجات حتى آخرها. إنه عيد متميز لتكريم شخصية متميزة. عشرون سنة مرت على الثورة، وعشرون احتفالاً مماثلاً حصل قبل هذا اليوم، ولكن في اللحظة التي أعلن تكريم اسم الزعيم الخالد بدأت الجماهير بالزئير باسمه، وكان ذلك شاهداً ودليلاً عملياً على أن «جمال عبد الناصر» ما زال في قلوب

الناس وأنه ما زال يجسد في رمزيته همومهم وأحلامهم بمستقبل جديد مشرق. وحتى أنا الذي كنت صاحب فكرة قرار تكريمه، هزني الموقف من الأعماق، وسَرَتْ في جسدي قشعريرة حارة. كنت أحاول التحديق إلى الوجوه داخل الملعب الكبير. كان التصفيق حاراً يتردد صداه دون توقف في كريتر وبين جبالها الشاهقة، شاهدت الدموع في عيون البعض... أية عاطفة جياشة كانت تجتاحنا جميعاً في تلك اللحظات؟! دوّت الأسئلة في خاطري... كيف لم نستطع تكريمه في حياته؟ كيف استطاع بعضنا أن يسيء إليه، وكيف كان قلبه الكبير يتسع للجميع؟، تذكرت حينها رثاء الشاعر الكبير نزار قباني في موته: «قتلناك يا آخر الأنبياء» واعتقدت أن كل واحد من الحضور في تلك اللحظة كان يعتذر منه ولسان حاله يردد: لقد غبت عنا وطال غيابك أكثر مما قدرنا... أما أنا فكنت أقول لنفسي: لم يتسع لك الوقت للاحتفال معنا بهذه المناسبة الغالية، لقد كان القدر أسبق منا إليك، وإذا كانت السنوات السابقة قد حالت دون تكريمك، فإننا سعداء اليوم إذ نفعل ذلك... معتزين بدورك وبالدعم المخلص الذي قدمته لفتح طريق المستقبل أمام أجيال عربية قادمة. كانت الجماهير تستعيد كيف أنه رهن حياته وكفاحه من أجل القضايا التي آمن بها، وكيف رسم معالم المستقبل أمامها. وتوحدت مشاعر الجميع تجاه هذا الرمز الذي جسّد الملحمة والفكرة في ذاته، لكنه لم يكن فرداً بالمعنى العادي والبسيط، كان بطلاً قومياً ووطنياً ارتبط اسمه بالتاريخ بعده، ارتبط اسمه بحركة التحرر العربية والإفريقية، وبحركة عدم الانحياز وبالسد العالي وبتأميم قناة السويس، استمدّ دوماً كفاحه ونضاله من الجماهير، وأنهى حياته وهو يعمل من أجلها ومن أجل صون الدم الفلسطيني والثورة الفلسطينية ومن أجل مستقبلها بعد مذبحة أيلول الأسود في الأردن، وهو ما ربطه بهذا الرباط الذي لا ينفصم بالجماهير.

ما إن تلفظت باسمه، حتى انهال الجمهور كالسيل العارم على المنصة. يهتفون باسمه في فرح وابتهاج كأنه ما زال يعيش بينهم، كأنه لم يغادرهم لحظة واحدة. وارتفعت الأغاني والأناشيد والزغاريد والأهازيج، وتحولت ساحة الملعب إلى ساحة رقص عمومية، هرع إليها جميع من كان في مدرجات الميدان. كانت لحظات تاريخية نادرة لا تتكرر. لحظات سيطر فيها شعور من الترقب والفرح والغموض، وكأن الرئيس جمال عبد الناصر قد نهض

من قبره، كأنه بعد لحظات سوف يقف على المنصة حيث كنت أقف، ويأخذ «المايكروفون» مني ويجلجل بصوته: «أيها الإخوة، ها نحن نحتفل معكم بذكرى الثورة بعد أن حمل الاستعمار البريطاني عصاه ورحل عن عدن».

في هذه اللحظة، تقدم إلى المنصة خالد محيي الدين، رفيق نضاله وكفاحه، ليتسلم مني الوسام الذي سلمه بدوره في القاهرة إلى نجله الأكبر الدكتور خالد جمال عبد الناصر في احتفال مهيب أقيم في نقابة المحامين المصريين.

ما فعلناه كان سبباً للاهتمام الغربي، فقد سألتني مندوبة «وكالة الأنباء الفرنسية» التي صدف وجودها في عدن: لماذا تكرم عبد الناصر؟ وهل هذا يعني دعوة من قبلكم إلى إقامة الجبهة العربية المعادية للإمبريالية؟ لم أفكر كثيراً في الجواب، فقد قلت لها مباشرة: إن ثورة ١٤ أكتوبر وغيرها من الثورات العربية التحررية ارتبطت بثورة ٢٣ يوليو التي قادها الرئيس جمال كما ارتبط اسمه شخصياً في حياة شعبنا اليمني بالموقف الشجاع والتاريخي الذي وقفته ثورة ٢٣ يوليو إلى جانب ثورتنا. وعليه فإننا حين نكرم اسم جمال عبد الناصر بمنحه وسام الثورة التي وقف إلى جانبها وساندها وآزرها، فإننا نكرم من خلاله الشعب المصري، ونعبّر عن وفائنا لإسهام عبد الناصر في دعم الثورة اليمنية.

ما دمت قد تحدثت عن تكريم الزعيم العربي الخالد جمال عبد الناصر، فلا بد من شرح التعقيدات التي مرت بها علاقاتنا مع مصر.

عقدة «المخابرات المصرية» كانت قد استحكمت لدى قطاع واسع من قياداتنا في عدن، وساد الاعتقاد في أحد الأيام، أنه حتى الرئيس عبد الناصر كان أسيراً لهذه المخابرات والمعلومات التي تقدمها إليه عن الوضع في جنوب اليمن. وعلى أساس ذلك، كان بعضها يتصرف من غير حكمة ولا روية. وبالمناسبة، أذكر وقائع حديث دار بيني وبين الكاتب الأستاذ أحمد عطية المصري في عدن[1] حيث قال لي: «عليكم أن تتحرروا من عقدة

---

(١) عمل أحمد عطية المصري قنصلًا عاماً لمصر في (تعز) في سنوات حرب التحرير، وكان على علاقة وثيقة بمختلف أطراف الحركة الوطنية اليمنية. وبعد استقلال الجنوب عمل في عدن وزيراً مفوضاً لبلاده، واستمرت علاقاته الطيبة بالجميع، وظل اهتمامه منصباً على التجربة الجديدة في اليمن =

المخابرات المصرية، لأنكم إذا نظرتم إلى المصريين وغير المصريين من العرب والأجانب جميعاً بأنهم مخابرات فلن تجدوا من تتعاملون معه من السفراء والخبراء العرب والأجانب. يجب أن تتأكدوا من شيء واحد، أن الكل يعمل لمصلحة بلده، والكل يقدم التقارير من الصيني إلى الروسي إلى المصريين وسواهم... ولكن المهم ماذا يكتبون عن بلادكم! هذا هو السؤال الذي ينبغي أن تطرحوه نصب أعينكم. بإمكانكم التعامل مع الجميع على هذا الأساس ووفقاً لهذا المبدأ، وإلا فلن تجدوا موظفاً واحداً في أية سفارة يكتب تقريراً لمصلحة تنمية العلاقات مع بلادكم، إذا حاربتم الجميع وانعزلتم عن الجميع، إن هذا لن يكون في مصلحتكم، فهم في كل الأحوال سيحصلون على المعلومات بوسائل أخرى، ربما كانت أهم وأخطر، وحينئذ سيلحقون أضراراً بالغة بالنظام».

ثورة ٢٣ والثورة اليمنية

من الطبيعي، في معرض الحديث عن العلاقات اليمنية المصرية، أن لا نحاول تجاوز المعقول، فنسعى في صفحات معدودات إلى اختزال مساحة من الزمن، تعود في قدمها إلى أيام الحضارة الفرعونية والممالك اليمنية القديمة.

التعريف بالعلاقة بين اليمن ومصر، في هذه الزاوية الضيقة، ضرب من المستحيل، فمكان ذلك الأبحاث والدراسات. لكن يكفي أن أقول إنها حاضرة في الأذهان وفي الأعيان على كل شفة ولسان في الحاضر، كما كانت في التاريخ القديم، وستظل كذلك في المستقبل... لكن كل ما أنا معني به هو التاريخ الحديث لهذه العلاقة، بل ربما الأقرب إلى الحداثة من حيث الوقت والزمن. علاقة الثورة المصرية الناصرية ٢٣ يوليو بثورتي اليمن،

= الجنوبي. وقد لخص ملاحظاته ومعلوماته وتتبعه الدقيق لمسار التجربة في كتابه القيّم والشهير: «تجربة اليمن الجنوبية... من الثورة إلى الاستقلال» وأعيد إصداره بعد أحداث ١٣ يناير ١٩٨٦ م تحت عنوان جديد: «النجم الأحمر فوق اليمن الجنوبية»، ويعتبر من أنضج المؤلفات وأكثرها موضوعية وعقلانية، ناقش من خلاله سلبيات التجربة وإيجابياتها في وقت مبكر. ورغم أن القيادة حاربت الكتاب والكاتب ومنعت بيعه وتداوله، إلا أن ذلك لا يمنع من كونه أهم المراجع عن الثورة والتجربة في جنوب اليمن.

تتجلى بالمساهمة الأخوية العسكرية التي قدمها عبد الناصر في الدفاع عن الجمهورية، وفي دعم الحركة التحررية الوطنية في اليمن الجنوبي، جملة محاور شكلت عمق العلاقات اليمنية المصرية في الزمن الحاضر، مما أصبح معروفاً وكتبت عنه الكثير من الكتابات والدراسات. ولهذا سأختصر الحديث عن هذه العلاقة بالحقول القريبة جداً، انطلاقاً من الأفكار الناصرية والقومية العربية التي شكلت المشروع النهضوي العربي بقيادة الزعيم الخالد جمال عبد الناصر، والتي على أساسها خضنا نضالنا التحرري في اليمن شمالاً وجنوباً حتى الانتصار على الإمامة في الشمال وهزيمة الاستعمار البريطاني في عدن وبقية الجنوب، وخروج قواته من عدن في نفس الشهر الذي صادف خروج القوات المصرية من شمال اليمن عقب هزيمة ٥ حزيران، وفقاً للاتفاق الذي تم في الخرطوم بين الملك فيصل آل سعود والرئيس عبد الناصر في أثناء القمة العربية هناك، وهذا الخروج المتزامن من المفارقات التاريخية المثيرة.

تتحكم اليمن الجنوبية في البوابة الجنوبية للبحر الأحمر عند تلك النقطة الاستراتيجية المهمة التي تسمى «باب المندب»، بينما تتحكم مصر في بوابته الشمالية. وارتبط البلدان منذ القديم بمصالح استراتيجية حيوية وعلاقات تاريخية تستوطن حضن الزمن الواسع، وزاد من عمقها الامتداد الجغرافي، والتأثيرات الحضارية والثقافية، الدينية واللغوية والأهداف القومية المشتركة... تلك العوامل الإنسانية والعضوية الاجتماعية التي كان لها تأثيرها الكبير في الجمع بين البشر.

بعد إعلان الاستقلال، في ٣٠ نوفمبر ١٩٦٧م، اعترفت الجمهورية العربية المتحدة بحكومة الاستقلال التي شكلتها الجبهة القومية برئاسة قحطان محمد الشعبي...

كانت حكومة الجبهة القومية تخشى ألّا يأتي الاعتراف المصري بها، أو أن يأتي متأخراً، نظراً إلى ما كان من خلاف وتوتر بين الجبهة القومية وبعض الأجهزة المصرية.

أخبرني الأخ عبد الملك إسماعيل[١] أنه التقى الرئيس جمال عبد الناصر في منزله بمنشية البكري بالقاهرة في مارس ١٩٦٨م، ومن ضمن ما قاله له: «إنني بالرغم من خلاف

---

(١) عبد الملك إسماعيل: أول مندوب دائم لليمن الديمقراطية لدى جامعة الدول العربية، وعضو القيادة العامة للجبهة القومية.

أجهزتي معكم قبيل الاستقلال إلا أنني أخبرت سفيراً عربياً لدولة مجاورة لكم بأنني لا أقبل التهديدات والضغوط بشأن عرقلة عضويتكم في جامعة الدول العربية، وأنتم حققتم الاستقلال في منطقة مهمة جداً ووصلتم إلى الحكم وأعدتم لي الثقة بنفسي بعد خمسة أشهر من النكسة، وجعلتموني أزداد فخراً بحيوية هذه الأمة وبأنها لا تستسلم حتى في ظل الهزائم العسكرية، فكيف يطلب مني عدم مساندتكم تحت تهديدات بقطع الدعم عن مصر والدول التي تضررت من آثار العدوان.

وفي الوقت نفسه نصح الرئيس جمال عبد الناصر، الرئيس قحطان الشعبي في أول زيارة له لمصر بعد الاستقلال، بضرورة توطيد العلاقات مع موسكو في شتى المجالات مع نصائح موازية بكيفية التعامل معها، ومما شجع على ارتباط مصر الأعمق بالمعسكر الاشتراكي تخلي دول عربية عن الدعم الفوري والضروري لدولة عربية كانت في أشد الحاجة للدعم النزيه وغير المشروط وغير المقيد، ولكن للأسف كان العرض يأتي كالصدقة المشروطة من الدول الغنية للدول الفقيرة. ولهذا يقول (عبد الملك إسماعيل): كان أمام نظام الحكم في عدن طريقٌ واحدٌ، إما النهاية، وإما البحث عن أصدقاء ممكنين ومحتملين من خارج الدول العربية للحصول على وسائل الدعم والثبات.

برغم الأجواء الغائمة التي سادت علاقة الجبهة القومية بمصر، إلا أن برقية عبد الناصر كانت في مقدمة برقيات الاعتراف التي جاءت للقيادة الجديدة في عدن. وكانت برقية عبد الناصر الثانية أو الثالثة من حيث ترتيب الوصول، لا أذكر تماماً، لكن أذكر جيداً أن القيادة في عدن أصرت على إذاعة برقية جمال عبد الناصر قبل كل البرقيات الأخرى، بل لم تذع البرقيات الأخرى قبل وصول برقيته. ومن حسن الحظ أن انتظارها لم يطل... ففي رأي القيادة - وهي على حق - أن إحجام مصر عن الاعتراف بحكومة الجبهة القومية سيلقي ظلالاً من الشك حول هوية الاستقلال الذي نالته، وسيجلب عليها كذلك المتاعب، وربما يؤلب عليها الشارع الذي يحب عبد الناصر إلى حد التقديس، وقد مثلت برقية عبد الناصر قوة ودعماً معنوياً للنظام الجديد الوليد.

كان من حسن حظ القيادة، أن عبد الناصر لم يكن ضيق الأفق مثل بعض أجهزته التي

قادت حملة مهاترات ضد قيادة الجبهة القومية في السنوات السابقة للاستقلال، حيث أطلقوا عليها صفات مثل: «الخوارج» و«المنشقّين» أو «مجموعة تشومبي» كما كان يطلق عليهم المذيع أحمد سعيد من إذاعة «صوت العرب». لم يقبل التضحية بها بسبب خلاف بعض أجهزته مع قيادة الثورة في الجنوب، فقد كانت له نظرته الاستراتيجية لمنطقة البحر الأحمر وشبه الجزيرة العربية والمحيط الهندي، وكان يرى في خروج الاستعمار من عدن انتصاراً لسياسته، فلا شك في أنه كان يرى في استقلال اليمن الجنوبي فجراً ساطعاً للرد على هزيمة حزيران، ولهذا حرص على الاعتراف باستقلالنا لأنه كان يرى فيه قوة جديدة مهما كانت صغيرة. وقد أثبتت الأيام بُعد نظره ورؤيته الاستراتيجية، إذ سيكون لليمن الديمقراطية دور في حرب أكتوبر ١٩٧٣م، حيث تستفيد القوات المصرية من موقعها الاستراتيجي المتحكم في جنوب البحر الأحمر وتسده في وجه السفن الإسرائيلية إلى درجة أن إسرائيل بعدها طالبت بتدويل مضيق باب المندب.

في ٢٢/ ١٠/ ١٩٧٣م جرى لقاء بين غولدا مائير رئيسة مجلس الوزراء الإسرائيلي وهنري كيسنجير وزير خارجية الولايات المتحدة الأميركية، وقالت له: هناك موضوع مهم وخطير يتعلق بباب المندب، حيث توجد مدمرات مصرية تحت قيادة يمنية لإغلاق المضيق أمام السفن الإسرائيلية. ورد كيسنجير إنه لا يعرف شيئاً عن هذا الموضوع، ولكنه سيتحدث مع الروس بشأن ذلك باعتبار عدن صديقة لموسكو، ونصح مائير بأن تتحدث للصحفيين لنشر هذا الموضوع لأنه لا يريد أن يتحدث باسم الحكومة الإسرائيلية.

كان السوفيات يتابعون العلاقات المصرية اليمنية الجنوبية ويرصدونها عن كثب، ويؤكد ذلك ما أورده الدكتور أوليغ بيريسيبكين عن هذه العلاقة في كتابه «اليمن واليمنيون في ذكريات دبلوماسي روسي» حيث يقول:

«تعتبر العلاقة بين الجمهورية العربية المتحدة وجمهورية اليمن الجنوبية الشعبية من أهم العلاقات الخارجية للجمهورية الشابة. وإذا بدأنا من القاعدة فمن الضروري الإشارة إلى النفور الدائم لدى الأهالي نحو المصريين. إن المصريين يبغضوننا هذا ما قاله عامل التنظيفات في فندق كريسنت. لدى المصريين الرئيس فقط هو الجيد، يقول نائب أحد

الوزراء، من المحتمل أن يكون هذا الشعور هو سبب فشل التجربة المحزنة لليمن الشمالي، المرتبط باليمن الجنوبي بعلاقة قربى عائلية. ومع ذلك كانت صور جمال عبد الناصر معلقة في كل مكان. كانت محطتا الإذاعة والتلفزيون في اليمن الجنوبي تبث يومياً البرامج المصرية».

كان سفير الجمهورية العربية المتحدة في عدن سمير عباسي ضيفاً دائماً على الرئيس اليمني قحطان الشعبي، حسب أقوال الصحف المحلية. وغالباً ما كانت هذه الزيارات متكررة. فقد حدثني مراسل وكالة الإعلام المصري سمير شحاتة بأن سفيرنا والرئيس قحطان الشعبي صديقان حميمان، فهما غالباً ما يلتقيان دون أن يكون دافع بالضرورة إن مكانة الجمهورية العربية المتحدة لدى عدن لا تعود فقط إلى المكانة التي شغلتها على الساحة العربية أو السياسية فقط أو إلى تأثير جمال عبد الناصر في ثورة اليمن الجنوبي، وإنما كان يعود ذلك إلى التأثير الذي تركته مصر في السياسة الحالية للجمهورية الشابة وفي جمهورية اليمن الجنوبية الشعبية.

فسياسة جمال عبد الناصر أدّت دوراً كبيراً في عدن قبل تحرير البلاد من الاستعمار الإنكليزي بزمن طويل. عندما كانت الحملة على الشيوعيين قائمة في عام ١٩٥٨م في مصر، أثرت هذه الحملة في التيارات اليسارية المتأثرة بالأفكار الشيوعية في البلاد. وكانت النقابات من الذين تأثروا بنيران هذه الحملة، حيث كان كثير من قياداتها من العناصر اليسارية. وأصبحت كلمة شيوعي مرتبطة لزمن طويل بالرعب في البلاد. وكما كان يؤكد محمد ناصر رئيس التحرير السابق لجريدة «الطريق»، فمنذ اللحظات الأولى لتأسيس الجبهة القومية، كان قحطان الشعبي يحصل على تمويل من الجمهورية العربية المتحدة. وتؤكد هذا مصادر أخرى أيضاً. إذا كان هذا صحيحاً، فهذا يعني أن الجمهورية العربية المتحدة ساعدت الجبهة القومية ومنظمة التحرير. ولكن الرهان الأكبر كان على منظمة التحرير دون أن تغضّ الطرف عن الجبهة القومية تحسباً لكل الاحتمالات. وعلى الغالب فإن تنظيم الجبهة القومية لم يكن مكشوفاً للمصريين، الذين استعصى عليهم الحصول على معلومات كافية عنه من داخل

التنظيم على عكس منظمة التحرير التي كانت خاضعة للمراقبة من الجانب التنظيمي وأدت، على الأرجح، دوراً كبيراً في دعم الثورة في الجنوب من أجل الاستقلال.

في جميع الأحوال، أدت مصر الآن دوراً كبيراً في حياة جمهورية اليمن الجنوبية الشعبية.

هناك أمثلة قليلة في الواقع تشهد على قوة نفوذ المخابرات المصرية في البلاد. وعلى سبيل المثال، سمير شحاتة مراسل وكالة الإعلام المصرية الذي يعمل جاهداً لمعرفة «من هو شيوعي». عمل جاهداً لمعرفة ذلك بشتى الوسائل وبالطرق غير المباشرة كافة. كذلك حاول مباشرةً وبإصرار أن يعرف ذلك من مراسل «تاس»، وفيما بعد من المراسلين الصحفيين لوكالة الأنباء الصينية. ومثال آخر، عبد الله باذيب الذي صرّح بأنه زاره في بيته في منتصف مايو أحمد عطية المصري، الموظف في سفارة الجمهورية العربية المتحدة، القنصل السابق في تعز. فقد ادعى أنه شيوعي وحاول اقتناص المعلومات بأسلوب غير لبق عن الماركسيين في جمهورية اليمن الجنوبية الشعبية. وعندما وجد أنه لم يتمكن من الحصول على أية معلومات، سأل في نهاية المطاف: هل يحصل الماركسيون المحليون على مساعدات مالية من الاتحاد السوفياتي؟ فأجابه عبد الله باذيب: لا تسأل أسئلة غبية. ولكن هذه هي طبيعة عمله لخدمة بلده، وهو لا يختلف عن بقية الدبلوماسيين الذين يعملون في اليمن وخارج اليمن في مدّ دولهم بما يستجدّ من معلومات في البلدان التي يعملون فيها، ولا شك في أن أحمد عطية المصري كان يمثل حالة أفضل بحكم معرفتي له في تعز ودار السلام (تانزانيا) وعدن، هو صاحب كتاب «النجم الأحمر فوق البحر الأحمر (اليمن الجنوبية)» الذي يُعَدّ من أهم الكتب التي صدرت عن جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية.

الحزب الطليعي والغباوة السياسية

مساء الأول من مايو ١٩٧١م جاءني إلى فندق شيراتون، حيث كنت أنزل، السيد ضياء الدين داوود، عضو اللجنة التنفيذية للاتحاد الاشتراكي العربي وقتذاك، والمسؤول عن حزب الطليعة الذي أسّسه عبد الناصر بعد نكسة حزيران. وحين أردت أن أبادله الحديث في

بعض القضايا العربية، طلب مني أن ننتقل إلى «الشرفة» حتى يمكننا التحدث بحرية أكثر، فهمت أنه كان يخشى أن تكون قد بثت أجهزة تنصت في غرفتي بالفندق، فتسجل حديثنا، وأدركت ونحن في طريقنا إلى الشرفة، أنه يريد أن يقول لي أمراً مهماً...

جاء توقعي في محله، إذ سرعان ما أخذ ضياء يشرح لي طبيعة الصراع الدائر داخل اللجنة التنفيذية للاتحاد الاشتراكي العربي وخلفياته، ومواقف السادات التراجعية عن خط عبد الناصر، ورفضه التزام قرارات اللجنة التنفيذية واللجنة المركزية.

أدركت من حديثه أن الصراع بين الجناحين قد تطور إلى مرحلة خطيرة تشير إلى عدم إمكانية التعايش بينهما مستقبلاً. فقلت لضياء بعد أن انتهى من الحديث:

لكن السادات، على عكس ما تقول، أشاد في خطابه هذا الصباح في حلوان بالعلاقات المصرية السوفياتية... وفي هذا ما يدلّ على أنه لم يتنازل عن الخط التحرري لثورة يوليو.

قال ضياء الدين داوود: الذي كان مسؤولاً عن الحزب الطليعي داخل الاتحاد الاشتراكي العربي:

هذه محض مناورة سياسية يمهد بها السادات لإجراءات أخرى. ولا تستغرب إن حدث نقيض ذلك اليوم أو غداً.

بالفعل، حدث ما كان يتوقعه ضياء، فقد فوجئ العديد من الناس، بمن فيهم أعضاء اللجنة التنفيذية للاتحاد الاشتراكي، بصدور قرار عن الرئيس السادات بإقصاء علي صبري من منصبه كنائب رئيس في مساء اليوم نفسه.. ثم توالت إجراءات السادات بحبس بقية أعضاء اللجنة التنفيذية والعناصر الذين وقفوا ضد سياسته، مثل عبد المحسن أبو النور السكرتير العام للاتحاد الاشتراكي، وشعراوي جمعة وزير الداخلية، ومحمد فوزي وزير الحربية، ومحمد فائق وزير الإعلام، وغيرهم من الذين قدموا استقالاتهم تحت وهم أن الشعب سيخرج ويتظاهر لإسقاط السادات، ولكنهم هم الذين سقطوا وقدمهم السادات للمحاكمة وقال مقولته المشهورة الساخرة: «سنحاكمهم بتهمة الغباوة السياسية فقد جاءت استقالتهم هدية من السماء وعلى طبق من ذهب. قام السادات بخطوة أخرى أبعد من ذلك، بحلّ اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي بأكملها، وبحلّ مجلس الأمة، وكان هذا الانقلاب

داخل السلطة على من كان يسميهم «بمراكز القوى» هو الذي أطلق يده فيما بعد، لتثبيت مركزه في السلطة، واتخاذ أخطر القرارات السياسية على مختلف المستويات، ابتداءً بسياسة الانفتاح الاقتصادي، إلى تغيير تحالفات مصر وسوقها بعيداً من عالمها العربي... إلى زيارته إسرائيل وتوقيع اتفاقات صلح منفرد معها كما هو معروف. وقد تركت مصر فراغاً هائلاً في الساحة العربية في المواجهة مع إسرائيل ومع أعداء الأمة العربية، فلا أحد يستطيع خوض حرب بدون مصر، كما أنْ لا سلام لإسرائيل بدون سورية كما أثبتت الأيام.

وقد استخدم الرئيس السادات بذكاء كل الأوراق التي في حوزته، ابتداءً من ورقة العلاقة مع السوفيات، ومروراً بورقة العلاقات مع حركات التحرر، وانتهاءً بالعلاقات مع الولايات المتحدة لخدمة هدفه في استرداد سيناء.

لم ألتقِ ضياء الدين داوود بعد ذلك اللقاء اليتيم في مايو عام ١٩٧١م، إلا في ٤ أبريل ١٩٩٦م، أي بعد ربع قرن من ذلك اللقاء، على هامش مؤتمر المركز العربي للدراسات الاستراتيجية الذي أنشأته، في ندوته المعنونة «الوطن العربي على خريطة القرن الحادي والعشرين» الذي عقد بجامعة الدول العربية وبالتعاون معها، وذلك بعد نحو ربع قرن من قيام السادات بإقصائه ورفاقه الذين كانوا يمسكون بأهم أجهزة الدولة العسكرية والأمنية والحزبية والسياسية، بجرة قلم وبالتلفون، وأسقطهم جميعاً في أول مواجهة وأودعهم السجن سنوات، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من اعتزل السياسة وبعضهم عاد إليها من بوابة التاريخ وعبد الناصر، حيث أنشأوا الحزب الناصري وأصدروا صحيفة «العربي»، وأصبح ضياء الدين داوود رئيساً للحزب.

عقد اللقاء في مقر الحزب الناصري حيث لم يبقَ من وهج عبد الناصر إلا صورته المعلقة على جدار مكتبه، وفي كل صالة ومكتب. حضر ذلك اللقاء عدد من القيادات السياسية من مختلف الأحزاب اليمنية، وقد تحدثوا عن همومهم اليمنية، عن الفساد والرشوة والفوضى الأمنية وعن انهيار الدولة فيها. وكان ضياء الدين صامتاً، وقد أيقنت أن عبد الناصر لن يتكرر في شخص أيٍّ من القيادات الناصرية في الوطن العربي، وأيقنت أن

على هذه الأحزاب أن تشقَّ طريقها في النضال، معتمدة على شعبها وبرامجها، مستفيدة من تراثه النضالي العظيم.

الزيارة الأولى للقاهرة
بعد تولي رئاسة الوزراء

بعد أن توليت منصب رئاسة الوزراء شعرت بالحاجة للقيام بتحرك سياسي خارجي، وقررت أن أبدأ بالقاهرة التي درست فيها وعشت فيها أجمل الأيام.

كانت مصر بما لها من ثقل ووزن سياسي في المنطقة محطة زيارتي الأولى وأنا في طريقي إلى «موسكو» التي تلقيت منها دعوة لزيارتها. وكان الهدف من زيارة مصر في الحقيقة ذا قيمة سياسية. لم نكن نعوِّل كثيراً على الحصول منها على مساعدات اقتصادية، أو دعم مالي، فقد كان لديها ما يكفي من الأعباء والمشكلات التي تعانيها من آثار حرب ١٩٦٧ وإغلاق قناة السويس.

بدأت زيارتي للقاهرة يوم ٢٦ سبتمبر ١٩٧١م يرافقني وزير العمل والخدمة المدنية محمد صالح عولقي، وزير الاقتصاد محمود عبد الله عشيش، وزير الأشغال حيدر العطاس، وزير الداخلية صالح مصلح قاسم، مسؤول أمن الدولة محمد سعيد عبد الله (محسن)، نائب وزير التربية والتعليم أحمد عبد الإله ومديرة مكتب رئيس مجلس الوزراء عائده علي سعيد وآخرون.

كان في استقبالنا في مطار القاهرة الدكتور «محمود فوزي» رئيس وزراء جمهورية مصر الذي ترأس جانب بلاده في المحادثات التي بدأناها مساء اليوم نفسه.

تحدثت عن موقف اليمن الديمقراطية المؤيد لمصر، ونضالها في سبيل إزالة آثار العدوان الإسرائيلي واستعادة أراضيها المحتلة، ودعمنا السياسي اللامحدود لدور مصر العربي القومي في توحيد السياسات العربية، وتنسيق التضامن العربي الذي على أساسه تُبنى عملية التحرير. وقد أبدى الدكتور فوزي اهتمامه بما عرضناه، وأبدى تعاطفه مع النظام في

عدن، وأشار إلى أن «مصر تمرّ بظروف صعبة ولن تتمكن من تقديم أي دعم اقتصادي، ولكنها ستقدم لكم المدرسين والأطباء والخبراء والمنح الجامعية في مختلف التخصصات، إضافة إلى تطوير كلية ناصر الزراعية في لحج»، وأبدى وزير الخارجية المصري بالوكالة مراد غالب اهتماماً بالوضع في اليمن وأكد أنه سيتحدث مع بعض الدول الصديقة والشقيقة لدعم اليمن.

وقال إن القاهرة وموسكو تدعمان محسن العيني الذي كان رئيساً للوزراء في الجمهورية العربية اليمنية، وأن مصر ترى في العيني عنصراً تقدمياً يمكن التفاهم معه والاستفادة من وجوده على رأس الحكومة اليمنية في صنعاء. وقدم المصريون عرضاً بالوساطة بيننا وبين الشمال لحلّ مشاكلنا معهم.

عندما تطرقنا إلى الحديث عن السعودية، عرض علينا المصريون هنا أيضاً وساطتهم، وقد أجبتهم بأننا لسنا ضد علاقات جيدة مع أخوتنا في صنعاء والأشقاء في الرياض، ونحن نرحب بجهودهم في هذا المجال.

خلال وجودي في القاهرة أجريت اتصالات مباشرة مع الفريق محمد صادق وزير الحربية، ومراد غالب وزير الخارجية بالوكالة، والدكتور أحمد حسن الزيات، والدكتور فؤاد مرسي. وكان الأولان قد اشتركا في المباحثات ضمن الوفد الرسمي المصري إلى جانب كل من الدكتور عبد القادر حاتم وزير السياحة، وعبد اللطيف بلقيه وزير القوى العاملة. ورئيس الأركان الفريق سعد الدين الشاذلي.

عند ضريح عبد الناصر

جاء يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٧١م وأنا ما زلت في القاهرة. مرة أخرى كان قلبي مكتئباً حزيناً. عام مرّ على رحيل الزعيم الخالد عبد الناصر. كان عبد الناصر آخر عمالقة هذا العصر، وشغل حيزاً واسعاً من أحداثه وسياسته، وعرفه الناس، لا في وطنه العربي فحسب، بل في كل القارات، ورددت اسمه كل الألسن، سواء كانوا أصدقاءه أو أعداءه. ولهذا عندما مات

كان تأثير غيابه قوياً، ونشأ فراغ هائل في الوطن العربي برحيله، وفي اليمن التي دعم ثورتيها في الشمال والجنوب كان الحزن الذي تركه في قلوب الشعب اليمني مؤلماً. ولا بد أن تأثير غيابه سيستمر زمناً طويلاً..

هذا ما كنت أحس وأفكر فيه وأنا في طريقي إلى بيت الزعيم الراحل في منشية البكري حيث قدمت المواساة إلى أسرته بمناسبة مرور عام على وفاته. وهذه هي المرة الأولى التي أزور فيها منزل الرئيس الراحل العظيم ولقاء أم خالد الحزينة ونجله الأكبر خالد وبقية إخوانه الذين فقدوا أباً رحيماً وزعيماً عظيماً، كما فقدت الأمة العربية برحيله قائداً قومياً وهب حياته لمصر وشعب مصر والأمة العربية والإسلامية.

بيت جمال عبد الناصر

بيت عبد الناصر، كما نعرف جميعاً، هو البيت نفسه الذي كان يقيم فيه وهو برتبة «البكباشي»، وهو البيت نفسه الذي بقي فيه حين أصبح رئيساً لمصر وزعيماً للعروبة. وهو أيضاً البيت نفسه الذي خرج منه جثمانه الطاهر إلى مدفنه، وخرجت منه أيضاً قرينته لتدفن في جواره.



زيارتي لمنزل الرئيس جمال عبد الناصر ولقائي
زوجته تحية محمد كاظم[١] وابنه خالد عام ١٩٧١م

دخلت بيت عبد الناصر فشاهدت أولاً حجرة الصالون الشهير الذي كان يستقبل فيه مئات من زعماء العالم. يقع الصالون إلى يمين الداخل من بوابة البيت، جدرانه مطلية باللون الرمادي الفاتح، الشبابيك مغطاة بالستائر والأرضية مفروشة بسجادة كبيرة وسجادة للصلاة يتداخل لونها الأزرق والأحمر أمام المدفأة. وركن المدفأة – بالمناسبة – كثيراً ما استقبل فيه عبد الناصر ضيوفه، وكثيراً ما ظهر في صور ضيوفه على صفحات الصحف. أما المدفأة نفسها، فهي من الطوب الأحمر، ولها رفّ خاص يحمل إلى حينها صوراً فوتوغرافية

---

(١) تحية محمد كاظم، زوجة الرئيس المصري الراحل جمال عبد الناصر، وقد تزوجها في عام ١٩٤٤ ووالدها في الأصل من رعايا إيران. تعرف إليها في الإسكندرية، فقد كان جمال عبد الناصر صديق والدها تاجر السجاد الميسور الحال. عاش معها حياة سعيدة قبل توليه حكم مصر وبعده.

لنهرو وسوكارنو وتيتو ونيكروما ويوثانت وشواين لاي، وعليها جميعاً كلمات إهداء إلى عبد الناصر بخطوط أصحابها، والكلمات بعضها لا يزال واضحاً، وبعضها مثل صورة نهرو بهت حبره. فوق المدفأة على جدار الحجرة صورة زيتية لطفلين من أطفال الفقراء الإسبان مهداة من الحكومة الإسبانية وأمام المدفأة كرسيان متقابلان بينهما منضدة صغيرة للشاي أو القهوة. باقي أثاث الصالون بسيط ومرتب بعناية يتمثل في كنبة وستة كراسٍ وثلاث مناضد صغيرة موزعة بين الكنبة والكراسي المغطاة جميعها بقماش بسيط ونظيف مطرز بالورد وأوراق الشجر.

أوراق الذاكرة تسقط ولا يسقط منها أبداً أول مرة دخلت إلى هذا الصالون، مع الدكتور خالد عبد الناصر الابن الأكبر للزعيم الخالد، وقبل أن يصحبني إلى الصالون، وقعت عيني في الحجرة التي استقبلني فيها خالد على دولاب إيديال صغير عليه عبارة محمولة على حامل معدني تقول: لو دامت لغيرك لما وصلت إليك، وفيما بعد في أكتوبر من عام ٢٠١١ زرت منزل خالد جمال عبد الناصر لتقديم العزاء بوفاته إلى أنجال جمال وحكيم وعبد الحميد أشقائه، وكان معنا الدكتور عبد القدوس المضواحي والدكتور علي محسن حميد والأستاذ أحمد الجمال، وبقي المنزل متواضعاً مُختلفاً عن منازل أبناء الرؤساء الآخرين.

بعد تقديم العزاء توجهت إلى ضريح القائد حيث قرأنا الفاتحة على روحه الطاهرة. وهناك لمحت أعضاء الوفد الليبي المكون من عضوي مجلس قيادة الثورة المقدم «أبو بكر يونس» والرائد عبد المنعم الهوني اللذين جاءا لتمثيل قيادة الفاتح في الذكرى الأولى لوفاة الزعيم الراحل جمال عبد الناصر الذي يعتبرونه «الأب الروحي» لثورتهم، حيث قال عبد الناصر في إحدى خطبه التي ألقاها في طرابلس بحضور العقيد معمر القذافي إنه يذكره بأيام شبابه وحماسته، «وإنه الأمين على القومية العربية». وبينما كنت أتبادل الحديث معهما، وصل موكب الرئيس أنور السادات إلى الضريح، وبعد أن صافحني قال:

«أهلاً بكم في بلدكم. نرجو أن تكون مرتاحاً في مباحثاتك مع الدكتور فوزي»، وكنت متيقناً أن السادات حتماً كان على علم بطبيعة سيرها. فقلت له:

«نعم، إنني مرتاح. وأتمنى أن تتطور علاقات بلدينا إلى الأفضل». وأعربت له عن تقدير شعبنا لمصر وشعبها العظيم.

التقيت الرئيس السادات مرة أخرى يوم ٢٩ سبتمبر ١٩٧١م في استراحته بالقناطر بحضور وزير الحربية المصري محمد أحمد صادق، وحضر المقابلة من الوفد المرافق لي صالح مصلح قاسم، وجرى بيني وبينه حديث دام مدة ساعتين. وتطرق الحديث بيننا إلى طبيعة المؤامرات التي تتعرض لها اليمن الديمقراطية، وكان لدى السادات اقتناع ثابت بأن النظام في صنعاء «نظام معادٍ لكم يأتمر بأوامر خارجية» وقال إنها «هي التي تدفعه إلى التخريب ضد الثورة في الجنوب». وأسرّ لي بما دار بينه وبين الملك فيصل عندما قام بزيارته، وقال: «لقد ثبت لي أنه يخشى النظام في عدن كما كان يخشى مصر سابقاً؟». لكنه أضاف أنه نظراً إلى الظروف التي تمرّ بها بلاده، فإن القاهرة تهدف من علاقات مصر التي تحسنت كثيراً مع السعودية إلى تحييدها في صراعها مع أميركا... على حدّ قوله.

وفي رأي السادات أن تحييد الشمال وعدم دخولها في معارك مع الجنوب سيفقد السعودية منفذها السهل للضغط على الجنوب. وقال إنه يأمل أن يتمكن السيد «محسن العيني» رئيس وزراء الجمهورية العربية اليمنية، «من إيقاف الضغط عليكم»، ووصفه بأنه رجل متفهم ومعقول.

وقال إنه سيكاشف «العيني» بالموضوع بعيداً عن معرفة الآخرين.

ثم تطرق الحديث بعد ذلك إلى علاقتنا بالسوفيات، ولما كان على اطلاع على أنني ذاهب لزيارة موسكو، وعلى ما دار في مباحثاتنا الرسمية مع الوفد المصري، قال إنه متفق مع ما توصلنا إليه مع رئيس وزرائه محمود فوزي بشأن حثّ السوفيات على دعم اليمن الديمقراطية سياسياً واقتصادياً.

وعودة إلى تاريخ العلاقات المصرية السوفياتية، وصف السادات الروس بأنهم مماطلون دائماً في تنفيذ وعودهم. لم تكن العلاقات بين القاهرة وموسكو في تلك الأيام من عام ١٩٧١ قد اقتربت من العد التنازلي، لكن لهجة السادات الساخرة كانت توحي بأنه يهيئ لطبخة ما، لم تكن معالمها واضحة بعد.

تتفق هذه الملاحظة مع ما نصحني به الزعيم الكوبي «فيديل كاسترو» عندما شكوت له أن السوفيات لا يساعدوننا بالقدر الكافي، حيث قال لي:

«اقرع بابهم مرة واثنتين وثلاثاً حتى ١١ مرة ولا يصبك اليأس. لأنهم حين يوافقون في الأخير يفون بوعودهم. وبعد أن تأخذ منهم ما تريد، لا تدفع لهم شيئاً. هكذا هم السوفيات!».

ولما كنت أرى أهمية فتح قنوات لتطوير العلاقات بين مصر واليمن الديمقراطية، فقد سألته عن إمكانية خلق تعاون حزبي بين الجبهة القومية والاتحاد الاشتراكي العربي في مصر.

لكنني فوجئت بالسادات يسألني:

ما علاقتكم بجورج حبش ونايف حواتمة؟

أدركت ما يرمي إليه من وراء هذا السؤال، فقلت له على الفور:

إن اليمن الديمقراطية لها علاقات مع كل حركات التحرر العربية، ومنها الجبهتين الشعبية لتحرير فلسطين والجبهة الديمقراطية اللتين يرأسهما كل من جورج حبش ونايف حواتمة.

قال: إن صحفهم تهاجمنا.

قلت له: إن صحفهم لا تعبّر إلا عن موقف هاتين الجبهتين، وإن علاقتنا بحركة القوميين العرب انتهت تنظيمياً منذ عام ١٩٦٥م، وأصبحت علاقات تاريخية أكثر منها علاقات تنظيمية وفكرية.

وعلق الرئيس السادات وهو يضحك مقطباً حاجبيه حتى ظهرت التجاعيد على جبهته السمراء التي تتوسطها علامات سجدة سوداء، وكان يحب أن يطلق على نفسه لقب (الرئيس المؤمن).

والله يا أخ علي مش عارفين أنتم مين.. أنتم موسكو.. أنتم بكين.. أنتم جورج.. أنتم نائف.. وبدا لي حينذاك أن لخطابنا السياسي والإعلامي غير المنضبط في تلك الفترة دوراً في كل ذلك.

وقد ذكرني موقف السادات بما سبق وأن قاله الرئيس عبد الناصر في أحد المؤتمرات

وهو يمزح مع الرئيس سالم ربيع علي: «لقد شغلت كل العقول الإلكترونية لتحدد لي من أنتم وماذا تريدون وقد عجزت هذه الأجهزة عن تحديد استراتيجيتكم وهويتكم».

وقد أجبت السادات:

نحن أشقاؤكم وإخوانكم ولا ننسى دوركم في دعم الثورة اليمنية شمالاً وجنوباً، ونحن حلفاؤكم في جنوب الجزيرة العربية.

فقال السادات بارتياح:

على أية حال، نحن موافقون على بناء علاقات إيجابية بين «الاتحاد الاشتراكي» و«الجبهة القومية».

وبهذا اللقاء مع الرئيس السادات انتهت زيارتي لمصر التي استمرت أربعة أيام وغادرتها متوجهاً إلى موسكو يوم ٣٠ سبتمبر ١٩٧١م.

شهر عسل قصير!

بعد موت عبد الناصر، ظلت العلاقات اليمنية الجنوبية المصرية تراوح مكانها، ولم تشهد فترة ازدهار إلا بعد حرب أكتوبر عام ١٩٧٣م، وتحديداً بعد موقف اليمن الديمقراطية من مرور السفن الإسرائيلية في «باب المندب» حيث سمحت للسفن الحربية المصرية بالدخول إلى ميناء عدن والإقامة فيه أثناء الحرب، والتزود بالوقود ومراقبة السفن الحربية الإسرائيلية. ومنذ هذه اللحظة أو قبلها بقليل بدأ اهتمام الرئيس المصري أنور السادات بعدن وبباب المندب، وخصوصاً جزيرة «بريم»، وأبدى استعداده لتطويرها وجلب المياه إليها وتحصينها والاهتمام بها، لما تتمتع به من أهمية استراتيجية. فوجه السادات الدعوة للرئيس سالم ربيع علي لزيارة مصر، فزارها في ٥ سبتمبر ١٩٧٤م والتقيا في الإسكندرية. اهتم السادات بربيع، وبالعلاقات بين مصر واليمن الديمقراطية. وكان هو عَراب العلاقات بين عدن والسعودية، وكان له دور مهمّ في التقارب الذي حدث بين البلدين في أواخر أيام الرئيس ربيع الذي أدى في عام ١٩٧٦م إلى إقامة العلاقات الدبلوماسية بين اليمن الديمقراطية والمملكة العربية السعودية كما أسلفت.

لكن شهر العسل في العلاقات اليمنية المصرية لم يدم طويلاً، فقد قامت أجهزة المخابرات اليمنية الجنوبية بعدة محاولات اغتيال في القاهرة لبعض عناصر المعارضة اليمنية الجنوبية[1] ما أدى إلى تدهور العلاقات وانهيارها تماماً خاصة بعد زيارة السادات المشهورة للقدس في ١٩ نوفمبر ١٩٧٧م عندما أدانت اليمن الجنوبية الزيارة، وقطعت علاقاتها بمصر، استجابة لقرارات مؤتمر بغداد، وانضمت إلى جبهة الصمود والتصدي التي تأسست في طرابلس في ٥ ديسمبر عام ١٩٧٧ كردّ فعل على ما اعتبر حلولاً استسلامية نجمت عنها اتفاقيات «كامب ديفيد» والتي عمّدها الرئيس السادات بزيارته للقدس.

شاركت اليمن الديمقراطية بنشاط في جبهة الصمود والتصدي، وفي مؤتمر الشعب العربي العام الذي تأسس في الفترة نفسها من المنظمات الجماهيرية والاجتماعية العربية بما فيها المصرية واللبنانية، فضلاً عن أعضاء جبهة الصمود والتصدي، ولم يكن الرئيس سالم ربيع راضياً عن هذا الموقف، بل يمكن القول إنه كان ضده. لكنني سأؤجل الحديث عن تفاصيل موقفه إلى الحديث عن جبهة الصمود والتصدي في موقع آخر. والمهم، أن التظاهرات والمسيرات الاحتجاجية عمّت أرجاء اليمن الديمقراطية، رفضاً لاتفاقيات كامب ديفيد، وتضامناً مع القوى الوطنية المصرية.

وبنتيجة هذه السياسة، أقدمت السلطات المصرية على طرد (١٤٠) طالباً وطالبة من اليمن الديمقراطية من الذين يدرسون في جامعات مصر. وقد التقيتهم عقب عودتهم إلى عدن، وكنت حينذاك رئيساً للوزراء. وقد أعطيت توجيهاتي للجهات المعنية بتوفير منح دراسية بديلة لهم ليواصلوا دراستهم. وبالفعل، جرى توزيعهم على عدة بلدان، منها سورية والجزائر وليبيا والعراق وإثيوبيا وبريطانيا. والمعروف أن مصر عبر تاريخها كانت تفتح أبواب الدراسة في المعاهد والجامعات والمدارس الثانوية والكليات العسكرية للطلاب اليمنيين والعرب.

---

(١) جرت محاولتان فاشلتان لاغتيال رئيس وزراء اليمن الجنوبية السابق محمد علي هيثم الذي كان مقيماً في القاهرة لاجئاً سياسياً.

خالد محيي الدين و«الكف النظيف»

انتقل الصراع بين البلدين من المهاترات والحملات السياسية والإعلامية إلى مرحلة خطيرة. فقد أكد الكاتب الصحفي الأميركي «بوب وود وورد» في كتابه (الحجاب) دور الاستخبارات الأميركية في العملية التخريبية التي هدفت إلى إحراق العاصمة عدن في عام ١٩٨٢م وقد تم الكشف عن عناصرها قبل تنفيذ جريمتهم، وأكد لي خالد محيي الدين، «نقلاً عن مسؤول مصري كبير» أن «أجهزة» المخابرات المصرية كانت مشاركة في تلك المخططات بالتعاون مع دول عربية وأجنبية في أيام السادات، وقد أوقفها الرئيس حسني مبارك بعد تسلمه السلطة على أثر مصرع الرئيس أنور السادات في عام ١٩٨١م.

أكد لي خالد محيي الدين أن الرئيس مبارك أوقف خطة عسكرية مصرية جاهزة أعدت أيام سلفه لإسقاط النظام في عدن. وقال لي إن الرئيس مبارك قال له: إن الرئيس علي ناصر لا يتصل بنا لكنه كذلك لا يهاجمنا، على نقيض بقية الدول العربية التي تتصل بنا وفي الوقت نفسه تهاجمنا!! ونصحني خالد محيي الدين بمدّ جسور العلاقة مع مصر حسني مبارك وسمّاه حينذاك «صاحب الكف النظيف». وكان من رأيه أن مؤسسة الرئاسة في مصر تمثل حالة أفضل من بقية مؤسسات الدولة. وقد جرى هذا الحديث بيني وبينه في عدن أثناء مشاركته في الاحتفالات اليوبيلية للذكرى العشرين لثورة ١٤ تشرين الأول/ أكتوبر المجيدة التي سبق أن تحدثت عنها.

بعد ذلك أخذت العلاقات بين البلدين تعود إلى حالتها الطبيعية تدريجاً، وكخطوة تمهيدية ثم فتح مكتب لشركة الطيران اليمنية الجنوبية «اليمدا» في القاهرة وسمح لطائراتنا بالمرور في الأجواء المصرية والهبوط في مطارها على طريق تطبيع العلاقات، وفي انتظار رفع المقاطعة عن مصر من قبل الجامعة العربية أو من قبل مؤتمر قمة عربي.

في مصر... بعد ٢٢ عاماً

بعد ٢٢ عاماً عدت إلى القاهرة محملاً بالحنين والذكريات، أنظر إلى عيون أصدقائي القدامى فأرى ما فعله الدهر بهم وبمصر العظيمة.

ها أنذا في طريقي إلى القاهرة. في الخامس والعشرين من ديسمبر عام ١٩٩٤م، نقطة الانطلاق مطار دمشق الدولي. المصادفة دائماً تؤدي دورها معي. رحلتي إلى القاهرة عام ١٩٧٠م أيضاً كانت من دمشق. ها أنذا أستعيد ذكريات أول رحلة قمت بها بين دمشق والقاهرة في مارس من ذلك العام. أصبحت أسيراً لحالة من المقارنة المضنية بين الرحلتين اللتين يفصل بينهما أكثر من عشرين عاماً. بين دمشق والقاهرة ساعتان من الطيران، لكن البعد والفراق عن مصر استمر ٢٢ عاماً منذ آخر مرة زرت فيها مصر، أي منذ توقيع اتفاقية القاهرة الوحدوية عام ١٩٧٢م بين جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية والجمهورية العربية اليمنية مع أخي الأستاذ محسن العيني رئيس وزراء الشطر الشمالي من الوطن حينها. جرت خلالها أحداث جسيمة، وحروب كبرى وكوارث، وانهارت أنظمة وإمبراطوريات عظمى كالاتحاد السوفياتي، واختفت زعامات كبيرة في مصر والعالم العربي والعديد من بلدان العالم. كل شيء أصابه التغيير، الأيديولوجيات، المبادئ، والقيم، والأخلاق، وكانت هذه المقارنات متعبة، بل مضنية.

مع رجالات عبد الناصر

خلال الزيارة أجريت سلسلة لقاءات حافلة مع عدد من السياسيين والكُتاب المصريين واللبنانيين الذين صودف وجودهم في القاهرة، من بينهم السيد مراد غالب، السفير الذي برز في موسكو أيام حكم عبد الناصر، ووزير الخارجية في عهد السادات، وعضو لجنة التضامن الأفرو- آسيوي، وهو سياسي ودبلوماسي مهذب يحترم تاريخه وسمعته، واكتسب تقدير الناس في مصر وخارجها بسبب مواقفه القومية. وشملت لقاءاتي السيد أمين هويدي وزير المخابرات ووزير الحربية في عهد عبد الناصر، وكان قد تولى مهمات أخرى، وما زال وفياً لتراثه الناصري، ويتحدث عنه رجال الأمن المرافقون لي باحترام، وعندما يلفظون اسمه يقولون «سيادة الوزير»، وقد جرى بيني وبينه حديث عن الوحدة اليمنية وحرب ١٩٩٤م ومحاولة الانفصال. وكان أمين هويدي متأثراً بمواقف بعض العناصر والأحزاب الشيوعية، وتحديداً بعض قادة «حزب التجمع» المسيطرين على صحيفة «الأهالي» والذين

وقفوا إلى جانب القيادة الجنوبية في حرب ٩٤، ودافع عن موقفه قائلاً: «إنني لست ضد الوحدة، ولكنني مع الفيدرالية في اليمن». ولم أعلّق على رأيه فوراً، ولكنني قلت له في معرض حديثي إن قوة عبد الناصر كانت تكمن في مواقفه القومية والوحدوية على المستوى العربي، وإنه ضحّى كثيراً من أجل مصر والعروبة، وقدم التضحيات في اليمن دفاعاً عن الثورة اليمنية التي كان يرى فيها عمقاً استراتيجياً لمصر في جنوب البحر الأحمر والجزيرة العربية في ذروة صراعه مع القوى الاستعمارية في المنطقة. ويبدو لي أن بعض المصريين ما زالوا يعانون عقدة انفصال الوحدة المصرية السورية عام ١٩٦١م والمشاريع الوحدوية التي يطلقها بين حين وآخر الزعيم معمر القذافي، لذلك أصبحوا حذرين تجاه أي وحدة عربية، لكن قضية الوحدة اليمنية أمر آخر مختلف.

وبالرغم من ذلك، وبعد حرب ٩٤م والاعتقاد بالنصر والحسم العسكري وعدم حسم القضية سياسياً وعدم معالجة آثار الحرب وتداعياتها وصولاً إلى خروج الشارع الجنوبي منتفضاً من خلال الحراك الجنوبي السلمي، بدأ الكثير من السياسيين والمفكرين والصحفيين يستحضرون التجربة المصرية ويعقدون المقارنات بين الممارسات التي قام بها بعض المسؤولين المصريين تجاه السوريين ويجدونها لاشيء مقارنة بممارسات بعض المسؤولين اليمنيين الشماليين الذين مارسوا الفيد والنهب ومصادرة حقوق الجنوبيين، وبالرغم من عدالة القضية الجنوبية والطابع السلمي للحراك الجنوبي، لجأت السلطة إلى العنف ولم تستفد من دروس الماضي.

اللقاء التالي كان مع الكاتب لطفي الخولي، ومن بعده التقيت السيد محمد فائق، وأخيراً الأستاذ نديم عبد الصمد ومصطفى الكشك، وقد تناول حديثي مع جميع هؤلاء الأوضاع في اليمن والعالم العربي، والضرورة الاستراتيجية لإقامة مركز الدراسات وهو ما احتلّ حيزاً مهماً من أحاديثنا، وشدّدت على أهمية مشاركة المثقفين العرب في إنجاح الجهود المبذولة لتأسيسه، وقد لمست اهتماماً من الجميع بقيام هذا المركز.



مع الكاتب الكبير لطفي الخولي

من عزت سليمان إلى عمر سليمان

في اليوم الأول من العام الميلادي الجديد ١٩٩٥م، كان موعدي مع اللواء عمر سليمان مدير المخابرات العامة. جرى اللقاء في مكتبه بمصر الجديدة، وقد وجدته في استقبالي على باب المصعد بقامته المهيبة، وابتسامته الودودة. ومن حديثه وجدته رجلاً عميقاً في رؤيته، بسيطاً ومرناً في حديثه، عيناه تلمعان ذكاءً كالصقر، وتواضعه الجمّ يغريك بصحبته وصداقته. أحسست في كلامه بالعمق وبُعد النظر. وحين دار الحديث حول اليمن، تحدث من موقع الحب والحرص على مستقبلها. لقد ضحّت مصر من أجل اليمن برجالها وأموالها حتى انتصرت الثورة والجمهورية في صنعاء، وانتصرت الثورة في عدن. إن كلمات عبد الناصر القوية والمدوية التي أطلقها من مدينة تعز عام ١٩٦٤م هزت أكبر قاعدة للإمبراطورية البريطانية في شرق السويس عندما قال: «إن على بريطانيا أن تحمل عصاها وترحل عن عدن». بعد هذا الخطاب فتحت مصر مستودعاتها وخزائنها وأجهزة إعلامها، مسخرة إمكاناتها لمعركة التحرير وطرد الإنكليز من عدن وبقية الجنوب، وكنت مشاركاً وشاهداً على هذا التاريخ المجيد الذي ضحّت من أجله مصر وشعبها وجيشها البطل.



مع عمر سليمان

طلبت من اللواء عمر سليمان وثائق الثورة في الجنوب التي كانت في حوزة جهازه، وهي كثيرة ومثيرة لأنها عن مرحلة مهمة من تاريخ الثورة اليمنية في جنوب اليمن ومعارك عبد الناصر ضد الاستعمار الأجنبي في الوطن العربي، وقلت له إنني أنوي استخدام الوثائق لاستكمال مذكراتي عن هذه المرحلة، ولتوظيفها للدفاع عن دور مصر في اليمن الذي تعرض لكثير من التشويه على أيدي أعداء الثورتين اليمنية والمصرية وأعداء الزعيم العربي الخالد جمال عبد الناصر. وتلقيت رداً إيجابياً من اللواء عمر سليمان الذي وعد بتوفير ما أمكن من الوثائق عن هذه المرحلة، وقال إنه سيكلف بعض المسؤولين في الجهاز تهيئتها. ودار حديث بيننا عن الماضي والحاضر والمستقبل، تطابقت خلاله آراؤنا ووجهات نظرنا، وقد عبرت له عن ارتياحي لهذا الموقف المبدئي من أحد القادة الذين يسهمون في صنع القرار من موقعه في هذه المنطقة الحيوية والاستراتيجية. ومن هذا المبنى بالذات الذي كانت تدار منه في منتصف الخمسينيات والستينيات عمليات التحرير في الجزائر وعدن وأكثر من بلد عربي وإفريقي وآسيوي، تذكرت وأنا هنا في مبنى المخابرات العامة رجل

المخابرات القوي، مدير المخابرات العامة الأسبق اللواء عزت سليمان قائد (عملية صلاح الدين)[1]، كما أطلق على عملية تحرير الجنوب من الاحتلال البريطاني يومذاك. هذا الرجل كان يسمع دبيب النمل في المنطقة كما يقال، وهو الذي كان يمسك بكل الخيوط في ظل قوة مصر وعزتها في عهد عبد الناصر. علمت أن ذلك الرجل قد غدا عجوزاً مريضاً بعد أن أصابه مرض الشيخوخة الذي لا يفوت أحداً، فحادثته بالهاتف وتمنيت له الصحة الطيبة في ما بقي له من عمره المديد.

في عام ٢٠٠٩م تجددت اللقاءات بيننا وبين اللواء (الوزير) عمر سليمان على أثر التدهور في اليمن ومشاكله التي يعانيها، كالقضية الجنوبية والحرب العبثية في محافظة صعدة والإرهاب، وكنا في تشاور مستمر، وخصوصاً بسبب تخوف مصر من انهيار الدولة في اليمن الذي بدا ظاهراً للكثيرين، وتأثيره في حركة الملاحة في البحر الأحمر وقناة السويس وأمن مصر، وكان له موقف يشكر عليه حين رفض طلباً من الرئيس السابق علي عبد الله صالح بإخراجي من مصر حين زيارته لها، وقال إنه لن يدخل مصر إلا إذا خرجت منها، وهو بعض مما مورس بحقي من ضغوط من النظام السابق لتغيير موقفي السياسي من قضايا الوطن. وكان قد طلب الأمر نفسه من سورية إذ نقل لي الرسالة نائب رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء محمد ناجي عطري، وكذلك من دولة الإمارات التي رضخت لطلبه بسحب جوازات السفر والمنزل والسيارة الممنوحة لي من الدولة، وأبلغني بالرسالة وزير الدولة للشؤون الخارجية الدكتور أنور قرقاش. وإضافة إلى هذه الدول التي أقيم فيها، فقد مارس علي عبد الله صالح ضغطه على بقية دول الخليج والجزائر وليبيا التي كانت لي علاقات

(١) تقول بعض المصادر إنه توفي إثر تفجير مقر خلية إدارة الأزمة السورية بدمشق في مبنى الأمن القومي السوري حيث كان يحمل رسالة من الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم حاكم دبي، وتوفي معه في الحادث نفسه عدد من قادة خلية الأزمة السورية، وهم اللواء آصف شوكت صهر الرئيس بشار الأسد ونائب وزير الدفاع، واللواء هشام بختيار رئيس مكتب الأمن القومي، والعماد داوود راجحة وزير الدفاع السوري، والعماد حسن تركماني وزير الدفاع الأسبق مستشار نائب رئيس الجمهورية، وما يعزز هذه الرواية، تاريخ الوفاة ١٩ يوليو ٢٠١٢.

طيبة معها بعد خروجي من السلطة ومن الوطن. وهكذا كان ديدنه في ملاحقة الذين لهم رأي معارض له في الداخل والخارج.

في نهاية عام ٢٠١١م كان لي آخر لقاء عابر مع اللواء عمر سليمان في صالة الشرف في مطار القاهرة الدولي، حيث تحدثنا عن آخر التطورات في مصر وتونس وليبيا واليمن وسورية، وبدا متشائماً من هذه التطورات التي لا تخدم إلا القوى الإسلامية التي تطمح إلى السلطة منذ عشرات السنين، وقال: «إن ما بنيناه من علاقات إقليمية ودولية سينهار»، ويبدو أنه كان غير متوقع حدوث مثل هذه الثورات في مصر وغيرها. وتحدثت معه في ما جرى في مصر وتعيينه نائباً للرئيس، وقلت له إن تسلمه لهذا المنصب جاء بعد فوات الأوان بعد أن ظل شاغراً خلال فترة حكم مبارك. هزّ رأسه ولم يعلّق، وشعرت بأنه متفق معي. كان اللواء عمر سليمان قد ترك منصب رئيس جهاز المخابرات المصرية ومهمات نائب الرئيس، وهو من أعلن استقالة الرئيس مبارك في خطاب مدته لا تزيد عن ٦٠ ثانية بعد ٣٠ عاماً من حكم مصر و١٧ يوماً من أحداث ثورة الخامس والعشرين من يناير عام ٢٠١١م، وفي عام ٢٠١٢ انسحب من سباق الرئاسة المصرية رغم بوادر الترحيب العربي والعالمي استناداً إلى اقتناع «أنه يفهم مصر أكثر من أي شخص»، وقد وافته المنية في أميركا في يوليو من عام ٢٠١٢ جراء أزمة قلبية في مستشفى كليفلاند، وبدت قصة وفاته لغزاً ومفاجأة لمحبيه وأعدائه بالدرجة نفسها.



الفصل الثالث

اليمن الديمقراطية وسورية

في دمشق

سكان هذه المدينة التاريخية وهي إحدى أقدم مدن العالم، مع تاريخ غير منقطع منذ أحد عشر ألف عام تقريباً، باعتبارها أقدم مدينة – عاصمة مأهولة في العالم، دوخت الغزاة والحكام عبر التاريخ، وهزّت حكم الخلفاء الراشدين في المدينة المنورة بعد الصراع على السلطة والزعامة بين الهاشميين والعباسيين والأمويين الذين استقر لهم الحكم والقيادة في عاصمة «الدولة الأموية» الأكثر أمناً واستقراراً ورفاهيةً وحضارةً ومياهاً وأنهاراً، حيث وقف سكان بلاد الشام إلى جانب معاوية بن أبي سفيان الذي قال عنهم إنهم لا يفرقون بين الناقة والجمل في رسالة صريحة وواضحة إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الذي اتخذ من العراق مقراً موقتاً له من أجل استعادة الخلافة إلى عاصمة دولة الإسلام في المدينة المنورة، حيث انقسم المسلمون وتحاربوا في صفين وفي غيرها من المواقع، واستمرت هذه الخلافات الدموية على السلطة والحكم منذ سقيفة بني سعدة وحتى اليوم مهما اتخذت وارتدت أثواباً وأشكالاً وأقنعةً مختلفة.

كان من ضمن وقود هذه الصراعات والحروب اليمانيون الذين دخلوا في دين الله

أفواجاً، أسهموا بقسط وافر في إقامة الدولة الإسلامية وفتوحاتها نحو الشرق والغرب، ومات بعضهم على أرض بلاد الشام. ومنهم الصحابي عمّار بن ياسر والأشتر النخعي وأبو موسى الأشعري وغيرهم من الذين قاتلوا ونصروا الإسلام والمسلمين، وبعضهم استقرّ في بلاد الشام، وخصوصاً حمص التي دفنت فيها لاحقاً والدتي عام ١٩٩٦ بناءً على وصيتها رحمها الله.

وفي الصراع على السلطة في اليمن الحديث رحل القاضي عبد الرحمن الإرياني من صنعاء إلى دمشق عاصمة الأمويين بعد استيلاء إبراهيم الحمدي على السلطة في ما سُمّي «الانقلاب الأبيض» عام ١٩٧٤ ورحل قبله المشير عبد الله السلال إلى بغداد عاصمة العباسيين عام ١٩٦٧م بعد عزله وتسلم القاضي عبد الرحمن الإرياني حكم الجمهورية العربية اليمنية.

كان عليَّ أن أختار بين «الغساسنة والمناذرة»، بين دمشق وبغداد، فاخترت الأولى بحكم العلاقات التاريخية التي كانت تربطني بالرئيس حافظ الاسد، لما عرف عنه من وفاءٍ لأصدقائه وحلفائه. كما إنني كنت قد تأثرت بزياراتي لمدينة دمشق التاريخ والحضارة منذ زيارتي الاولى لها عندما كنت وزيراً للدفاع عام ١٩٧٠م وحتى الاستقرار فيها عام ١٩٨٦م. لا تشعر بالغربة في هذه المدينة لما تحيطك به من مشاعر قومية وانسانية، وهذا شعور كل الناس العرب الذين استقبلتهم دمشق من مختلف العواصم العربية وفي مقدمتهم الفلسطينيين الذين يفوق عددهم النصف مليون في دمشق وحمص واللاذقية وغيرها من المدن السورية...

هذه المدينة تصنع الرجال، في السياسة والتجارة والبراعة، وتصنع الحكام، فمنها وبها تعلم معاوية الدهاء والمكر والسياسة، وتحول إلى مدرسة وفلسفة في السياسة، وهو القائل: «لو كان بيني وبين الناس خيط أو شعرة لما قطعتها. إن شدوها أرخيتها وإن أرخوها شددتها». وأنجبت هذه المدينة عدداً من الحكام، وإن كان معظم حكامها يأتون إليها من خارجها، مثلها مثل القاهرة وصنعاء، وعدن وبغداد وطرابلس والجزائر ومعظم المدن العربية، شهدت سلسلة من الأحداث والتطورات والحروب والدماء عبر تاريخها المتواصل الذي لم تنقطع فيه الحضارة والحياة كبعض المدن العربية، ولكنها كانت تتجاوز

المحن والمؤامرات والانقلابات بالصبر والتأقلم مع الحاكم الجديد، بيد أن ذلك له علاقة بعمق الحضارة ووعي سكانها الذين عصرتهم الحروب والصراعات وتجارب الحكام والحكومات. فقد شهدت دمشق في القرن العشرين سلسلة من الانقلابات العسكرية قبل الوحدة المصرية السورية وبعدها[1] ولم تتوقف إلا بعد وصول الرئيس الراحل حافظ الأسد إلى الحكم، وكنت قد تعرفت إليه في زيارتي الأولى لدمشـق في ٢٥ مارس ١٩٧٠ م. تلك المدينة العربية أصبحت محطة رئيسة في كل زياراتي للعالم الخارجي.

في كل زياراتي الخارجية لا بد من المرور بدمشـق. ذهبت إلى عشرات العواصم، عرفت العديد من البلدان العربية والأجنبية، لكن لا مدينة احتلت مكانها في قلبي كهذه المدينة المشبعة بعبق التاريخ، عدا القاهرة، وقبلهما بكل تأكيد عدن الحبيبة التي لا تنافسها أية مدينة عرفتها في العالم.

ربما كان قدري المرسـوم منذ تلك اللحظـة... يحدد ما هو قادم في المجهول من حياتي، وهو أن تصبح دمشـق جزءاً من مستقبلي، فتصبح «منفاي» الاختياري... رغم أنني لا أحب كلمة منفى، ولا تنطبق على أي بلد عربي شقيق، وعلى دمشق بالذات، التي تعطيني وتعطي كل مواطن عربي حياة دافئة من الدرجة الأولى.

دمشق تعني لي شيئاً خاصاً يشفع لي حبها منذ تلك اللحظة في زيارتي الأولى التي تنفست فيها رئتي هواء الشام وهواها. كانت تلك هي المرة الأولى التي أشاهد فيها أضواء

---

(١) كان أولها انقلاب حسني الزعيم في ٣٠ آذار ١٩٤٩، وبعده انقلاب سامي الحناوي في ١٣ آب ١٩٤، وبعدها سلم السلطة رسمياً لهاشم الأتاسي في تشرين الثاني ١٩٤٩م. أما الانقلاب الأبيض فحصل برئاسة أديب الشيشكلي في تشرين الثاني ١٩٥١م، وعاد هاشم الأتاسي في ٢٤ أيلول ١٩٥٤، وفي ١٨ آب ١٩٥٥ انتخب شكري القوتلي رئيساً للجمهورية حتى قيام الوحدة في شباط ١٩٥٨م، وفي ٢٨ أيلول ١٩٦١م قام عبد الكريم النحلاوي بالانقلاب على الوحدة، وفي ٨ آذار ١٩٦٣ قام الضباط البعثيون بالانقلاب على الحكومة الانفصالية، وتولى أمين الحافظ رئاسة الجمهورية، وبعده انفجر الصراع الحزبي العلني في حركة حزبية عسكرية ضد القيادة القومية سميت حركة ٢٣ شباط ١٩٦٦م وعين نور الدين الأتاسي رئيساً للجمهورية، وفي ١٦ تشرين الأول ١٩٦٧م قامت الحركة التصحيحية بقيادة الفريق الجوي حافظ الأسد وزير الدفاع الذي حكم سورية حتى وفاته ١٠/ ٦/ ٢٠٠٠م.

مدينة دمشق وطائرتنا تستعد للهبوط في مطارها، وحوله برك مياه من بقايا مطر ربيعي، وكانت دمشق تودع الشتاء وتستقبل فصل الربيع وضيوفها القادمين من عدن.



وزير الدفاع حافظ الأسد يستقبل وزير الدفاع علي ناصر محمد أبريل عام ١٩٧٠م

تتوقف الطائرة ويفتح بابها، وعند أسفل السلم يقف الفريق الجوي حافظ الأسد وزير الدفاع بقامته الطويلة وبملابسه العسكرية وسط جو معتدل جميل، وكان الأجمل هو اللقاء مع حافظ الأسد ومع دمشق وشعبها. في قاعة التشريفات احتسيت القهوة لأول مرة على الطريقة الشامية، ثم انتقلنا إلى استراحة أبو رمانة في الحيّ الدمشقي الجميل الذي عرفنا من مرافقنا أنها كانت مقر سكن المشير عبد الحكيم عامر في فترة الوحدة السورية المصرية وحتى يوم إعلان الانفصال عام ١٩٦١م. وبعدها التقيت الرئيس الدكتور نور الدين الأتاسي رئيس الدولة رئيس مجلس الوزراء، فنقلت له رسالة الرئيس سالم ربيع علي، وقمت بشرح الأوضاع في اليمن الديمقراطية، وحينئذ أكد الرئيس الأتاسي وقوف الجمهورية العربية السورية إلى جانب الثورة والسلطة في اليمن الجنوبية.

تطرق حديثنا إلى عدد من القضايا العربية المهمة وخصوصاً قضية الشرق الأوسط، وقد ناقشنا العلاقات الثنائية بين البلدين الشقيقين، وأكدنا أهمية تعزيزها وتطويرها. وكان ردّ الدكتور نور الدين الأتاسي إيجابياً على مجمل القضايا التي بحثتها معه، وكنا قد اتفقنا على عدد من الإجراءات، منها:

الحاجة إلى فتح سفارة لبلادنا في دمشق. وأبدى الرئيس استعداد الحكومة السورية بتجهيز المبنى كاملاً على نفقتهم نظراً لوضعنا الاقتصادي الصعب.

كما تم الاتفاق على أن يقوم رئيس مجلس الرئاسة «سالم ربيع علي» بزيارة سورية في منتصف شهر مايو من العام نفسه. وأبدى الرئيس عدم ارتياحه لموقفنا من رجال الدين والاحتفالات المبالغ فيها بالذكرى المئوية لميلاد لينين عام ١٩٧٠م، وقال وهو يضحك: إذا قلت: الله أكبر، فسيخرج حولك ومعك خمسون ألفاً، وإذا قلت: لينين، فلن يخرج معك أحد من سكان عدن! وقد سمعت مثل هذه الملاحظة بعد ذلك من معمر القذافي وأنور السادات أيضاً.

بعدها عقدتُ اجتماعات مع الفريق الجوي «حافظ الأسد»، وزير الدفاع السوري الذي أصبح فيما بعد رئيساً للجمهورية العربية السورية.

في الساعة الخامسة من مساء يوم وصولي ٣/٢٥ التقيته بحضور رئيس هيئة الأركان العماد مصطفى طلاس، شرحت الأوضاع الأخيرة في بلادنا، وحاجتنا إلى دعم سورية لإعادة تنظيم وزارة الدفاع، وإمدادنا بمعدات عسكرية وطيارين سوريين للعمل في القوات المسلحة اليمنية الجنوبية، وبحثنا كذلك مجمل الأوضاع في سورية والمنطقة العربية والشرق الأوسط عموماً.



مع حافظ الاسد ومصطفى طلاس في أبريل ١٩٧٠

في اليوم التالي التقيته مرة أخرى حيث أبلغني موافقة سورية على كل الطلبات التي تقدمت بها من الأجهزة والمعدات العسكرية، وجرى الاتفاق على إرسال كل هذا في غضون شهر إلى عدن. كذلك اعتمدوا لبلادنا خمسين منحة في الأكاديميات العسكرية السورية، إضافة إلى إرسال بعثة عسكرية من الطيارين السوريين والقانونيين والأطباء العسكريين.

هكذا كان... ففي غضون شهر شحنت سورية إلى عدن كل المعدات والتجهيزات في ٢٨ رحلة جوية، وبعثت بجميع الطيارين والمهندسين الجويين الذين باشروا مهمتهم على الفور في إعداد القوات الجوية اليمنية وتدريبها. ووصلت إلينا بعثة عسكرية تعليمية برئاسة اللواء إبراهيم يونس لتأسيس الكلية الحربية[١] وبعثة طبية برئاسة العقيد الدكتور ظافر البيطار، وبعثة قانونية برئاسة اللواء زهير غزال الذي أشرف على تنظيم وزارة الدفاع

(١) أصبح فيما بعد سفيراً لسورية في إيران.

والقوى والأسلحة والألوية في الجيش[1]. وقد سردت تفاصيل ذلك في الكتاب الخاص بالدولة.

كانت لقاءاتي بالمسؤولين السوريين إيجابية جداً ومؤثرةً، فسورية التي تمر بظروف صعبة نتيجة مواجهة العدوان الإسرائيلي، لم تبخل برغم ظروفها تلك أن تقدم إلى قطر عربي شقيق كل الدعم الذي تقدر عليه، في وقت هي في أمس الحاجة إلى كل ليرة لمواجهة العدوان وإزالة آثاره.

ربما استطعت أن أفهم العوامل التي ساعدت وساندت إنجاح مهمتي في دمشق. أولها استيعاب القيادة السورية لقومية المعركة، واقتناعها بأن أي سند يقدم إلى بلد عربي مهما بدا بعيداً عن خط الجبهة، فهو دعم لصمود سورية والمعركة القومية ضد العدو الصهيوني والتكالب الإمبريالي. والثاني أن سورية التي تتعرض للعدوان وجربت التآمر، وتتعرض للصعوبات والضغوط السياسية والاقتصادية، لا تحب أن ترى بلداً وشعباً عربياً آخر يتعرض للمحنة والأحزان نفسها. وأما الثالث، فقد كانت الرغبة الصادقة – وبلا أية شروط – في تقديم الدعم والمساعدة للثورة في جنوب اليمن. وقد سبق للسوريين أن قدموا دعماً صادقاً لا يُقدر بثمن لثورة شعبنا في الشمال خلال حصار الملكيين لصنعاء حيث شارك طيارون عسكريون سوريون في الدفاع عنها وفكّ حصارها، وكان السوريون ينطلقون من موقف قومي مبدئي. وتكررت بعد ذلك زياراتي الرسمية والودية الى سورية وتعززت علاقاتي الشخصية والرسمية بالقيادة السورية وفي مقدمتهم الرئيس حافظ الأسد منذ الزيارة الأولى وحتى مغادرتي للسلطة عام ١٩٨٦م.

بعد مغادرة السلطة عام ١٩٨٦م كانت دمشق العاصمة التي فتحت لي قلبها... وكان الرئيس حافظ الأسد أول من استقبلني والتقاني، ليس في مكتبه، ولكن في منزلي الجديد الذي هيأه لي في المزة فيلات غربية، وكانت مفاجأة غير متوقعة أن يقوم بزيارتي صباح اليوم الأول لقدومي إلى دمشق، بل كانت مفاجأة للجيران الذين شاهدوه والتفوا حوله وحيّوه بحرارة الأب والقائد.

---

(١) أصبح أميناً عاماً لرئاسة الجمهورية في ظل رئاسة الرئيس حافظ الأسد.

كان اللقاء مؤثراً وهو يحتضن ويقبل أولادي ليثبت لي ولهم أنهم سيحظون بالرعاية والاهتمام في وطنهم الثاني سورية، وقد جسّد ذلك قولاً وعملاً، وقد تركت تلك الزيارة الأخوية والإنسانية أثراً عميقاً في نفسي لا يمكن أن أنساه مدى الحياة.

كان عليّ أن أستقرّ في هذه المدينة، كما أشرت، لصداقتي مع الرئيس حافظ الأسد. وكنت واثقاً في حكمته وحزمه ودهائه وحمايته لي ولأسرتي من كل المحاولات التي كانت تستهدفني من قبل بعض حكام عدن آنذاك. طلب من الخارجية السورية أن تبلغ السفارة اليمنية الجنوبية بأن لا تمرّ أي سيارة في الشارع الذي أسكنه، وأن لا يسمح لأي موظف في السفارة بأن يسكن في الشارع الذي أسكنه، وكان حينذاك سفير عدن محمد الشطفة في دمشق يهدد بأني لن أعود إلى اليمن إلا في صندوق! وعندما علم الرئيس الأسد أبلغ المسؤولين في عدن أن أي محاولة تستهدف علي ناصر في دمشق فنحن لن ننتقم من الفاعلين المباشرين، بل سندكّ السفارة حتى آخر حجر، وسنقتل المخططين للعملية، وبحكمته وهيبته منع أي عمل معادٍ لي ولكل من سكن في هذه المدينة من المعارضين العرب من عراقيين وسعوديين وعمانيين ويمنيين وغيرهم، ككارلوس ومرتضى علي بوتو شقيق رئيسة وزراء باكستان بناظير بوتو، فزرع الأمن والأمان في الشام. عامل سكانها باللين في معظم مراحل حكمه، وبالحزم والقوة في بعض المراحل الصعبة التي مرّت بها سورية في الثمانينيات عندما حاول الإخوان المسلمون التمرد في حماة وحلب وبعض المدن الأخرى، فكشّر عن أنيابه حتى عاد المتآمرون إلى جحورهم في انتظار المستقبل الذي لم يصلوا إليه أو ينعموا به.

كنت واثقاً بأن البقاء خارج عدن وخارج صنعاء سيطول، فعملت بنصيحة الرئيس السلال الذي عاش في منفاه خارج الوطن ١٦ عاماً بالحفاظ على الصحة والتحلي بالصبر والتفاؤل، كما يقول الإمام علي بن أبي طالب في الصبر على المحن والمصائب:

فاصبر فلا ضيق إلا بعده فرج   بالصبر تبلغ ما ترجوه من أمل
وكل أمر له وقت وتدبير   اصبر قليلاً فبعد العسر تيسير

كنت قد غادرت صنعاء بعد أربع سنوات من الإقامة فيها إلى دمشق، وفي ١٢ يناير

١٩٩٠ هبطت طائرة الرئاسة التي كنت أستخدمها في رحلاتي الخاصة في مطار دمشق الفيحاء التي لا تختلف عن مدينة صنعاء من حيث عمق تاريخها وسكانها وحكامها عبر التاريخ. كان الرئيس الأسد وفياً في استضافتي، وقدّم إليّ كل أنواع التسهيلات، وعاملني وكأنني ما زلت في رئاسة الدولة. لقد أعطاني قصراً جميلاً في أرقى أحياء دمشق، ووضع تحت تصرفي السيارات والهواتف، وسمح بعلاج المرضى اليمنيين الذين يأتون ويتعالجون في مستشفيات القوات المسلحة، كذلك سمح بالتحاق الطلاب اليمنيين بالمعاهد والمدارس الثانوية والجامعات بتوصية مني على حساب الدولة السورية.

في اليوم الثاني من وصولنا إلى دمشق استقبلنا الرئيس حافظ الأسد في قصر تشرين الواقع في منطقة الربوة الجميلة التي يخترقها نهر بردى الخالد. يمتدّ القصر الذي أبدع المهندسون السوريون في بنائه وزخرفته على إحدى قمم جبل قاسيون التاريخي المليء بالأسرار والأساطير، ذلك الجبل الذي كلما رأيته يرنو بحنان إلى مدينة دمشق الرابضة في حضنه الدافئ، يذكرني بجبل شمسان الذي يقف هو الآخر بكل شموخ وكبرياء وكأنه الحارس الذي يحمي عدن الجميلة الحالمة. رحّب بنا الرئيس ترحيباً حاراً وأبدى استعداده لتقديم أشكال الدعم كافة خلال إقامتنا في وطننا سورية، وجسّد ذلك هو وكل المسؤولين، وتعاملوا معي وكأنني ما زلت في السلطة، وأمر باستخدامي طائرة الرئاسة في بعض الرحلات الخاصة إلى أديس أبابا وأبوظبي والجزائر وليبيا وصنعاء.

وقد التقيت خلال إقامتي في سورية بالمئات من اليمنيين، حتى الذين اختلفنا وإياهم ذات يوم، وقد كانت هذه اللقاءات تجري بعلم القيادة السورية، وفي المقدمة الرئيس حافظ الأسد الذي كان يستقبلني لإطلاعه على آخر التطورات والأخطار المتعلقة بمستقبل الوحدة اليمنية، وكان يحمل في قلبه قضايا الأمة العربية حتى وفاته، وعلمت أنه كان يتحدث مع الرئيس اللبناني إميل لحود عند إصابته بالجلطة.

وكان قبلها قد أبلغني أنه تعرض لجلطة وهو في مكتبه عند الساعة الخامسة صباحاً، وشعر حينذاك بتعرق وألم في الصدر، وكان يعتقد بأن ذلك بسبب السهر والإرهاق، ولم

يتصل بأسرته أو طبيبه، ولهذا فقد عالج نفسه بنفسه وتناول حبة فاليوم اعتقاداً منه أن ذلك قد يساعد على تخفيف الألم والخلود إلى النوم والراحة، ولكن الطبيب اكتشف بعد ذلك أنه بحاجة إلى علاج سريع، فنُقل إلى مشفى الشامي في أبو رمانة وبقي فترة بين العلاج والراحة في إحدى الاستراحات في ضواحي دمشق. وكنت قد تعرضت عام ١٩٩٧م لنوبة قلبية عندما صحوت وأنا أشعر بآلام في الصدر، رافق ذلك تعرق، فقمت على أثره من شدة الألم، وتذكرت حينذاك ما قاله لي الرئيس حافظ الأسد عند تعرضه للجلطة، وتناولت حبة فاليوم، وقد ساعدتني على تخفيف الضغط الذي وصل إلى ١٧٠/ ١٢٠، حتى جاء الطبيب أحمد حبيب الذي كان يعالج الرئيس حافظ الأسد فأجرى لي الإسعافات الأولية حتى جرى نقلي إلى بيروت. وفي بيروت اتصل بي الرئيس حافظ الأسد ليطمئن إلى صحتي، وأبدى استعداده لعلاجي في لبنان أو لندن أو في أي مكان آخر من العالم، واستمر الحديث أكثر من ساعة، وأخبرني خلاله أن أحد أصدقائه تعرض لنوبة قلبية، وقد حار الأطباء في علاجه، فبعضهم نصح بعملية جراحية، وآخرون نصحوا بغير ذلك خوفاً على حياته، ونصحني بعدم الاستعجال بإجراء عملية جراحية إلا إذا كان ذلك ضرورياً. وكان معي في غرفة الإنعاش طبيب القلب الدكتور سمير علم الذي كان يتابع حديثنا. وبعد إغلاق سماعة الهاتف قال لي: أنا أحترم رأي الرئيس حافظ الأسد، ولكن كطبيب أنصح بإجراء العملية، فعملية البالون وفتح بعض الشرايين قد لا تحلّ المشكلة مستقبلاً، فقد تتعرض لأزمة وأنت في رحلة سفر في البر أو البحر أو الجو، ولن تجد من يسعفك من أي نوبةٍ لا قدّر الله، ولهذا فالعملية هي الأضمن والأنجح في الحاضر والمستقبل، ومخاطرها ١٪ بسبب تطور العلم. شعرت حينذاك بأن الرئيس حافظ الأسد كان يتحدث عن نفسه دون أن يقول ذلك، ولو أجرى العملية كما حدثني بذلك الدكتور سمير علم لما خضع لنظام الحمية الصارم والعمليات الأخرى التي تُجرى له بين حين وآخر، كما فهم من أصدقائه، وفي مقدمتهم نائب الرئيس فاروق الشرع الذي أصيب هو الآخر بجلطة وأجريت له عملية جراحية في مستشفى الجامعة الأميركية في بيروت.

في يوليو من عام ٢٠٠٠ م كان موعدي مع الألم والذهول برحيل صديقي الرئيس حافظ الأسد. ألم وحزن لم أشعر بهما من قبل على رحيل صديق. كانت الفاجعة ثقيلة على قلبي كما كانت عظيمة في نفوس وقلوب أبناء الشعب العربي السوري بملايينه التي لفها الحزن على رحيل قائدها التاريخي، فزحفت إلى الشوارع بشكل عفوي وفطري صادق للمشاركة في تشييع الراحل ومبايعة خلفه الفريق بشار الأسد في موكب جنائزي حزين لم تشهده الأمة منذ رحيل القائد الخالد جمال عبد الناصر.

لم يكن رحيل حافظ الأسد فاجعة لعائلته فحسب، بل كان فاجعة وطنية وقومية في الوقت نفسه، فقد حمل الراحل العظيم هموم شعبه وهموم هذه الأمة بنكران ذات، وتحمل مهمات القيادة في ظروف بمنتهى التعقيد في سبيل إعلاء شأن أمته ورفعتها، وأسس خلال سنوات حكمه لسورية الشقيقة مدرسة وطنية راسخة شملت مختلف الميادين الفكرية والاجتماعية والسياسية والأخلاقية، ورسّخ خلالها الوحدة الوطنية، وأرسى الأمن والاستقرار في بلد لم يعرف في تاريخه الحديث قبل مجيئه إلا التوترات والانقلابات، وعمل بتفانٍ على بناء سورية حديثة أصبحت رقماً صعباً لا يمكن تجاوزه في قضايا الشرق الأوسط والوطن العربي.

ثمة أشخاص يصنعون التاريخ. حافظ الأسد كان من ذلك النوع الذي عبّرت قيادته عن إرادة الشعب وعمق موقع سورية ومكانتها في الجغرافيا والتاريخ اللذين كان الراحل الكبير يدركهما بوعي امتلكه منذ وقت مبكر وجسّده في كل مواقفه ونهجه وسياساته التي جعلت من بلاده عاملا مؤثراً في سياسات المنطقة، سواء في الحرب أو في السلام.

قلة من القادة هم الذين يتركون بصمات في حياة بلدانهم وشعوبهم. حافظ الأسد كان من ذلك الطراز من القادة التاريخيين. فقد ترك بصماته وآثاره على بلاده وشعبه، وهي تشكل اليوم المرتكزات الثابتة في حياة سورية واتجاهاتها وطموحها وأهداف شعبها.

عرف الراحل كيف يجعل من سورية قلعة حصينة للعزة والمنعة، والرفعة والهيبة، ولم

يفرّط في حق، فاستمدت منه سورية والأمة الكبرياء والعنفوان في زمن التردي، والصمود في زمن الاستسلام!

كان عهده حافلاً بالإنجازات التي كنت ألمسها في كل مكان وفي المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتعليمية والصحية كافة هذه الإنجازات تتحدث عن نفسها وعن مسيرة قائد نذر نفسه لشعبه وأمته، كما هو مجسَّد في حرب تشرين التحريرية التي استعادت فيها سورية أجزاءً من أرضها المغتصبة في الجولان، وفي صموده ووفائه ونضاله من أجل استعادة كل شبر من تراب الوطن الغالي.

الفصل الرابع

اليمن الديمقراطية ودول الخليج

عدن والكويت

فلسفة البقاء

في فبراير من عام ١٩٨١ م قام أمير دولة الكويت سمو الشيخ جابر الأحمد الصباح بأول زيارة له لعدن. لكن قبل أن أدخل في أجواء تلك الزيارة، لا بد لي من الولوج إلى تاريخ العلاقات اليمنية الجنوبية - الكويتية.

كان البحارة الكويتيون منذ القرن الثامن عشر يطوفون ويركبون البحار بسفنهم الشراعية التي تسمى «البوم» بحثاً عن الرزق واللؤلؤ، ويحطون في الموانئ اليمنية الجنوبية، ويُستقبلون بحب وهم يبيعون أشياءهم للسكان المحليين، وكان عدد منهم يعيشون في عدن.. كان ذلك قبل اكتشاف النفط، وقبل أن تصبح الكويت دولة غنية ومؤثرة في منطقة الخليج بالرغم من صغرها. عندئذ انعكست الآية، وصار اليمنيون الجنوبيون هم الذين يذهبون أو يهاجرون إلى الكويت، وخاصة الحضارم والمهريين، بحثاً عن أحلام الثروة. تلك هي لمحة وإشارة سريعة عن علاقة اليمن الجنوبي بالكويت التي اختارها المهاجرون اليمنيون مكاناً لإقامتهم

الجديدة قبل أن تقتلعهم من هناك حرب الخليج الثانية عقب الاجتياح العراقي لدولة الكويت الشقيقة كما لو كانت عاصفة تقتلع كل شيء، أو إعصاراً لا رادّ له.

الحقيقة أن علاقة اليمني بالكويتي لم تكن علاقة عامل بربّ عمله، بالرغم مما في ذلك من مصلحة للطرفين أفراداً أو جماعات، بل أصبحت ضرورة إنسانية حضارية لا يمكن إهمالها بتأثيرات الدين والثقافة والفن والسياسة وكل ما يمكن أن ينتج من ذلك من مشاركة. ولذلك ليس من الغريب أن يكون الشعب الكويتي أول من وقف إلى جانب الثورة المسلحة في اليمن الجنوبي، وشكل لجاناً لمناصرة ثورتنا. كان ذلك بتأثير من حركة القوميين العرب والنشاط القومي الدؤوب الذي مارسه الأستاذ أحمد الخطيب زعيم الحركة في الكويت، وكذلك بفعل وجود فرع للحركة في أوساط اليمنيين المقيمين فيها، بالإضافة إلى الفلسطينيين المقيمين في الكويت، والصحافة الكويتية التي اتخذت لنفسها منذ نشأتها منهجاً قومياً يتعدى في مراميه وتطلعاته الوطن الكويتي، حيث دعمت قضية الجنوب اليمني المحتل وقضايا التحرر في المنطقة، وبرزت في مجلس الأمة الذي تأسس عام ١٩٦١ عناصر كانت تساند القضايا العربية والفلسطينية ومنها قضية شعبنا في الجنوب. قدمت الكويت مساعدات قيّمة إلى الثورة أثناء حرب التحرير وحتى نيل الاستقلال. وبعد الاستقلال بدأت مرحلة جديدة من العلاقات بين البلدين الشقيقين. قدمت الكويت إلى الدولة الجديدة في البداية مساعدات سنوية مجاناً على هيئة مدارس ومستشفيات تمولها «الهيئة العامة للجنوب والخليج العربي» التي كان يرأسها الأستاذ أحمد السقاف[1]، وهي هيئة مستقلة مرتبطة بوزير الخارجية، مهمتها تقديم العون والمساعدة إلى اليمن شمالاً وجنوباً والبحرين والإمارات، إضافةً إلى السودان، كذلك أنشأنا علاقات تعاون مع «صندوق التنمية الكويتي» برئاسة عبد اللطيف الحمد. وأقيمت مشاريع زراعية وصناعية وطرقات ومشاريع سكنية على حساب دولة الكويت.

---

(١) ولد في الوهط في ما كان يسمى «السلطنة اللحجية» في ديسمبر عام ١٩١٩م، درس فيها ثم انتقل إلى العراق لإكمال دراسته، وبعدها التحق عام ١٩٤١م بثورة رشيد عالي الكيلاني، وجُرح في المعارك التي دارت بين المجاهدين وقوات الاحتلال البريطاني.

أذكر أنه عندما بدأ الإعداد لتطوير مطار الريان على ساحل المكلا بحضرموت، احتجّت السعودية على المشروع، مثيرة أن المطار يقع قريباً من حدودها ويشكل خطراً على أمنها. وقد طلبت منا دولة الكويت التي كانت تمول المشروع تفسيراً لهذا الأمر، وإلا فسوف تتوقف عن تمويل المطار. وأكدنا للكويتيين أن المطار يستخدم لأغراض مدنية ـ فضلاً عن أنه يقع على شاطئ بحر العرب، وهو بعيد عن حدود المملكة التي أثارت الاحتجاج على إقامته، فاستمرت في تمويل المشروع، وقدم «مطار الريان» كثيراً من الخدمات إلى المغتربين والاقتصاد الوطني.



من افتتاح مطار الريان

الزيارة الأولى

في الفترة ما بين ١١-١٤ مايو ١٩٧٤ م[١]، قمت بزيارتي الأولى لدولة الكويت... كنت حينذاك رئيساً للوزراء، وذلك بدعوة من سمو ولي العهد وقتذاك الشيخ جابر الأحمد الصباح قبل أن يصبح أميراً للبلاد. وقد ارتبطت به بعد ذلك بعلاقات رسمية وشخصية حين أصبح أميراً للكويت وأصبحت رئيساً لليمن الديمقراطية.

خلال الزيارة قابلت الشيخ صباح السالم أمير الكويت، وتدارسنا معاً الأوضاع العربية والدولية، خصوصاً ما يتعلق منها بالقضايا التي تهم البلدين، وأعربنا عن الأمل في أن تتجه الجهود العربية في سبيل استتباب الاستقرار في منطقة الخليج العربي، وإلى مواجهة الأطماع الأجنبية في هذه المنطقة وتحقيق أماني شعوبها في التقدم والرخاء، وأولينا كثيراً من الاهتمام في المحادثات للعلاقات الثنائية بين البلدين الشقيقين.

---

(١) كانت الكويت تشهد ما بين شهري مايو ويوليو الرمال الصحراوية التي تسمى في الكويت وبعض مناطق الخليج (طوز)، ولم أشهد في حياتي مثل تلك الرياح والتراب الذي يدخل العينين والأنف ويمنع الرؤية، حيث تظلم الدنيا، فلا يعود نور الشمس إلا ظلالاً، معتماً لا مكان يتسلل إليه، وشاهدت كيف كانت الرياح ترفع دشداشات الكويتيين وملابسهم وعُقُلَهم، وبعضهم يضع اليد على العقال وبالأخرى يمسك ثوبه ودشداشته، لذا بدأ الاهتمام في المراحل اللاحقة بتشجير الأراضي لتخفيف حدة الرياح وتثبيت الرمال.



مع الشيخ جابر الاحمد الصباح بحضور الشيخ سعد العبد الله ولي العهد ١٩٧٤

بنتيجة زيارتي تلك استقبلت في ٢٤ يوليو ١٩٧٤م الأستاذ أحمد السقاف السفير المتجول في وزارة الخارجية الكويتية، الذي أبلغني موافقة دولة الكويت على بناء دار للمكتبة الوطنية في عدن، وأن المشروع في بناء المكتبة سيبدأ بعد ستة أشهر من تاريخه. أصبحت المكتبة الوطنية التي حملت اسم الفقيد عبد الله باذيب من مجموعة الصروح التي تسهم في تنمية عناصر الثقافة وحفظ تراث الشعب وتاريخه وأعرافه وعاداته وتقاليده وآدابه... وعندما سألتني صحيفة (السياسة) الكويتية في عام ١٩٧٦م عن الدعم الكويتي أجبت بأن «بلادنا لن تنسى الدعم الأخوي الذي قدمته دولة الكويت، ولن ننسى كذلك ما قدمه الشعب الكويتي الشقيق من مساعدة لنضال شعبنا خلال مرحلة النضال من أجل الاستقلال الوطني».
وكنت في ٢١ أكتوبر ١٩٧٦م قد حضرت حفلة لتسلم عدد من المستشفيات التي أنشأتها الكويت على حسابها في كل من المنصورة والحوطة وطور الباحة ومودية. وجرى الاحتفال الرئيس في المنصورة بحضور سالم معدان مدير مكتب الخليج والجزيرة في عدن، وبلغ

عدد المشاريع التي أقامتها الكويت في اليمن الديمقراطية حتى قيام الوحدة عام ١٩٩٠م ١٧٤ مشروعاً، موّلتها وأشرفت عليها الهيئة العامة للجنوب والخليج العربي.

والملاحظة التي يمكن أن أبديها، أن العلاقات مع دولة الكويت كانت مريحة على الدوام، بالرغم مما كانت تتعرض له الكويت من ضغوطات من جيرانها الأقوياء لتخفيف حجم علاقاتها باليمن الديمقراطية المصنفة إقليمياً أنها دولة «شيوعية». لكن المسؤولين الكويتيين كانوا لا يلتفتون إلى هذا الطلب، وأحياناً كانوا يدعمون توجههم، قائلين «لو تركنا عدن بلا دعم فإن ذلك كفيل بارتمائها أكثر في أحضان موسكو والصين!»، وهذا ما شجع دولاً أخرى في الخليج على إقامة علاقات طيبة معنا فيما بعد، كدولة الإمارات العربية المتحدة والسعودية وبقية دول الخليج...

معاهدة وقلق

المرة الأولى، التي أثرنا فيها قلق الكويتيين، كانت في نهاية عام ١٩٧٩ م عندما وقعنا معاهدة الصداقة والتعاون اليمنية السوفياتية في موسكو، ووقعها عن البلدين كل من الرئيس عبد الفتاح إسماعيل والزعيم السوفياتي ليونيد بريجنيف.

بالنظر إلى الحساسية التي أثارتها هذه المعاهدة، حيث عدّتها دول المنطقة خطراً مباشراً عليها، فقد أوضحنا لإخوتنا الكويتيين عندما أثاروا معنا الموضوع أن المعاهدة لا تمسّ أمنهم ولا أمن المنطقة. وهو ذاته ما أكدناه للإخوة السعوديين. قلنا لهم: إن نصوص المعاهدة معلنة ومنشورة وليس فيها بنود سرية تستدعي تلك الضجة. وعندما أثارت صحيفة «السياسة الكويتية» تخوف دول المنطقة من المعاهدة، أشرت إلى أن الإمام يحيى ملك المملكة المتوكلية اليمنية وقّع اتفاقية مماثلة في عام ١٩٢٨م مع الروس، وأن دولاً عربية أخرى سبقت اليمن الديمقراطية إلى توقيع اتفاقيات مماثلة، في إشارة إلى تلك الاتفاقيات التي وقعتها مع الاتحاد السوفياتي كل من مصر والعراق، وأكدت أن اليمن الديمقراطية تنطلق في سياستها الخارجية من العلاقات الطبيعية والمتكافئة فيما بين الدول، وتقف ضد القواعد الحربية الاستعمارية والأحلاف العسكرية الإمبريالية، وكذا المحاور المشتبه فيها،

ونحرص على أن يكون الخليج العربي والبحر الأحمر والقرن الإفريقي والمحيط الهندي من المواقع الآمنة في العالم.

حمامة السلام

كان الكويتيون من القليلين في المنطقة الذين يتفهمون سياستنا ويقدّرون مواقفنا، وكنا على الدوام معجبين بالدبلوماسية الهادئة التي تتبعها الكويت في التعامل مع دول المنطقة، ومع القضايا والأحداث العربية والدولية. وفي الصراع من أجل البقاء، لم يكن في وسع دولة صغيرة وغنية مثل الكويت أن تحافظ على بقائها في الموقع المهمّ الذي وضعتها فيه الجغرافيا، وقياساً على الثروة النفطية التي حباها الله بها، إلا أن تحمي بقاءها بالتفاهم مع الجميع، والمشاركة في القضايا القومية العربية المصيرية باتباع الدبلوماسية الهادئة، وتوفير الدعم المالي حتى تتقي شر أعدائها الطامعين، أو أصدقائها المحتاجين...

على كل حال، إن الكويت التي دعمت الثورة في اليمن ونظاميها في عدن وصنعاء، كانت على الدوام، وفي وقت بروز الأزمات في علاقات النظامين في عدن وصنعاء، تقدم نفسها وسيطاً نزيهاً، وتمارس دور حمامة السلام ورسول الخير والمحبة. فبعد حرب ١٩٧٢م كان الكويتيون من أوائل من بادر إلى وقف نزف دم الأخوة، وكانت إحدى الدول التي رعت عملية وقف الاقتتال وبدء المفاوضات في القاهرة بيني وبين رئيس وزراء الجمهورية العربية اليمنية حينذاك الأستاذ محسن العيني والتي توجت بتوقيع أول اتفاق للوحدة. وفي عام ١٩٧٩م عندما اندلعت الحرب مجدداً بين قوات النظامين في شهر فبراير عام ١٩٧٢م، كان للكويتيين دور لا ينسى في وقف الاقتتال، وقاموا بدور الدولة الراعية لمباحثات قمة الرئيسين عبد الفتاح إسماعيل وعلي عبد الله صالح التي أثمرت اتفاقاً جديداً للوحدة. وكان هذا التفهم الكويتي لضرورة تحقيق الوحدة اليمنية، من المسائل الجوهرية التي تشكل أساساً للعلاقات اليمنية الكويتية، والعمل بما يمليه علينا الواجب والمصلحة الوطنية لتطويرها إلى الأفضل في المستقبل. الحقيقة أن الأشقاء الكويتيين كانوا من أكثر دول المنطقة تفهماً وحيادية تجاه سياساتنا. حتى في السبعينيات، حيث لازم التطرف الكثير

من سياسات اليمن الجنوبية، سواء المتعلقة بالسياسة الداخلية، أو تلك المتعلقة بالسياسة الخارجية، وخصوصاً العلاقة مع دول الجوار الخليجية. وكان في وسع الكويتيين أن يبلغونا بهدوء وكياسة بعض ما يزعجهم في هذه السياسة، أو ذلك الموقف، لكنهم لم يتورطوا قطّ في مواقف معادية للوطن والشعب في اليمن الديمقراطية.

على سبيل المثال، فقد أثارت حساسيتهم إطلاق «الجبهة الشعبية لتحرير ظفار» على نفسها اسم الجبهة الشعبية لتحرير عمان والخليج العربي، وكان معروفاً أن اليمن الجنوبية، كانت تدعم في تلك الأيام تلك الجبهة. التي تتخذ من عدن قاعدة سياسية وإعلامية، وحتى عسكرية لها. وقد عدّ الكويتيون ذلك تدخلاً في شؤونهم الداخلية، بحكم أن الكويت إحدى دول الخليج المستقلة، وأن تصرّف الجبهة غير مفهوم من قبلهم، خصوصاً أن الكويت كانت تحتفظ بعلاقات طيبة مع اليمن الجنوبية، وتقدم إليها مساعدات مهمة في عدة مجالات، وكانت من أوائل الدول التي اعترفت باستقلالها، بل ودعم شعبها وكفاحه المسلح من أجل الاستقلال من طريق لجان المناصرة. وأمكن تجاوز هذه الحساسية، عندما اقتنعت الجبهة الشعبية نفسها فيما بعد بعقم هذا النضال لتحرير الخليج العربي الذي كانت بلدانه قد استقلت عن الاستعمار البريطاني فعلاً، فغيرت تسميتها إلى الجبهة الشعبية لتحرير عمان واستطاعت الاستيلاء على مناطق من ظفار، إلى درجة أن الكويت اقترحت منح الاستقلال لإقليم ظفار مقابل أن تتخلى الجبهة عن تصعيد عملياتها المسلحة. وكانت الكويت تسعى إلى تحقيق الأمن والاستقرار للمنطقة وإبعادها عن دائرة التوتر والاضطرابات المسلحة، وقد رفضت الجبهة الشعبية ورفض النظام في عدن ذلك العرض في حينه.

وما حصل يومذاك تكرر مرة أخرى، إذ حاول الكويتيون إيجاد مخرج للصراع الإثيوبي الإريتري. وكانت إريتريا يومذاك تقاتل من أجل حق تقرير المصير، والانفصال عن إثيوبيا وإقامة دولتها المستقلة، وهو ما نجحت فيه لاحقاً. وقد عرضت الكويت حلاً يقوم على أن تمنح إثيوبيا الاستقلال لإريتريا مقابل إعطاء الإثيوبيين منفذاً على البحر الأحمر بمنحهم ميناء عصب. كان الكويتيون يرون في ذلك مخرجاً وحلاً لمشكلة الحرب والنزف الدموي

في القرن الإفريقي، بما يضمن الأمن والاستقرار في البحر الأحمر الذي كانوا يعدون الأمن فيه جزءاً مكملاً لأمن الخليج العربي.

وقد رفضت إثيوبيا ذلك على الدوام، رفضه الإمبراطور هيلا سلاسي، وفيما بعد رفضته الثورة الإثيوبية، لكن ما رُفض في الماضي تحقق أسوأ منه في غمرة شهر العسل بين الثنائي زيناوي - أفورقي والتحالف الذي قام بينهما لإطاحة حكم منغستو هيلا مريام. وعندما تحقق لهما ذلك، لم يدرك الرئيس الإثيوبي الجديد زيناوي، وهو يمنح الاستقلال لإريتريا ويتنازل عن منافذ إثيوبيا البحرية على البحر الأحمر، أنه يجعل إثيوبيا حبيسة هضبتها ويعزل نفسه وبلاده عن البحر. وكان لا بد أن يأتي اليوم الذي يكشّر فيه الأسد الإثيوبي عن أنيابه ويخرج إلى البحر. وهذا جهل كبير بحقائق التاريخ والجغرافيا وأسباب الصراعات بين الدول. وحين أدرك ذلك أخيراً بعد انفراط شهر العسل وبروز المصالح السيادية، سبّب الوضع نشوب الحرب بين البلدين وإراقة الدماء على النحو الذي نعرف.... إثيوبيا في هذا الوضع إذ تسعى للحصول على اتفاق يضمن لها منفذاً وحقوقاً في الموانئ الإريترية على البحر الأحمر، ستبدو كأسد جريح يحاول التكشير عن أنيابه بين الفينة والأخرى للإطلال من قفصه الحديدي، أو هضبته ليمدّ عنقه إلى البحر الأحمر..

وهكذا يتضح أن بقاء هذا الموضوع الحيوي المتعلق بإثيوبيا دون حل سيبقى مصدر تهديد مستقبلي لأمن البحر الأحمر والقرن الإفريقي.

وأتذكر حديثاً مع الدكتور عبد الكريم الإرياني وزير الخارجية في صنعاء، الذي عرض عليّ فيه مشروعاً للحلّ، بإعطاء إثيوبيا منفذاً على البحر الأحمر (عصب) مقابل قيام نظام فدرالي في إريتريا، وقال إن الأمير سعود الفيصل وزير الخارجية السعودية، قد طلب منه أن يقدم هذا العرض لإثيوبيا عبري بحكم العلاقات الشخصية والسياسية بيننا. وعندما عرضت على الرئيس منغستو هذا المشروع لوقف الحرب بين إثيوبيا والثوار الإريتريين رفض ذلك العرض السعودي اليمني الأميركي، وقال إذا كان الإمبراطور هيلا سلاسي قد رفض مثل هذه العروض في الماضي والتفريط في إريتريا، كيف تقبل الثورة الإثيوبية التنازل عنها.

بعد حرب استمرت من ١٩٦١ إلى ١٩٩١ بين النظام الإثيوبي بقيادة الإمبراطور هيلا

سلاسي والنظام الجمهوري بقيادة الرئيس منغستو هيلا مريام، توجت هذه الحرب المدمرة للطرفين بسقوط نظام الرئيس منغستو وانتصار الثوار الإريتريين وحليفهم الإثيوبي ملس زيناوي الذي أصبح رئيساً لإثيوبيا، وبعد عامين أعلن قيام الدولة الإريترية في أبريل ١٩٩٣ بقيادة أسياس أفورقي الذي كانت تربطه علاقة قرابة وصداقة مع ملس زيناوي، والذي سمح لأريتيريا بعزل إثيوبيا وقيادتها في الهضبة الإثيوبية بعد أن كانت مسيطرة على إريتريا وبحارها وميناءيها في مصوع وعصب. ولم يكن قد مضى على هذه الصفقة وشهر العسل إلا فترة قصيرة، حتى اندلعت الحرب بين النظامين الإثيوبي والإريتري، وفي سباق بينهما أقام النظامان علاقات مع إسرائيل.

الكويت.. زيارة جديدة

لأن الزيارات واللقاءات أفضل وسيلة لتحقيق التواصل والتفاهم، فقد تجاوزت الحذر في علاقات اليمن الديمقراطية بجيرانها عندما آلت إليّ مسؤولية رئاسة الدولة والأمانة العامة للحزب في نيسان/ أبريل ١٩٨٠م عقب استقالة عبد الفتاح إسماعيل من منصبيه السالفين. وقررت أن أقوم بزيارات لدول المنطقة، وأعتقد أن ذلك كان مهماً جداً لإرساء عوامل الثقة وبذر بذور الأمن والاستقرار في المنطقة التي عانت طويلاً الصراعات الإقليمية والدولية. وزاد من تفاؤلي، الجولة التي قمت بها إلى كل من السعودية والكويت ودولة الإمارات العربية المتحدة.

في يوليو ١٩٨٠ م بدأت زيارتي للكويت، وصلت إليها في الخامس من الشهر وعقدت الجولة الأولى من المباحثات صباح اليوم السادس، وفي مساء اليوم نفسه اختتمت مع الأمير الشيخ جابر الأحمد الصباح المباحثات التي تطرقنا خلالها إلى الأوضاع في منطقة الجزيرة والخليج العربي. وتم تأكيد أهمية الاستقرار والأمن وتعزيز الاستقلال والسيادة لجميع دول المنطقة. وقد أشدت في تصريح صحفي بالعلاقات اليمنية الكويتية المتطورة، وبالمساعدات التي تقدمها الكويت الشقيقة في المجالات الصحية والتربوية والاقتصادية منذ قيام الدولة في الجنوب. وعقدت جلسة مغلقة مع الأمير الشيخ جابر الأحمد الصباح تحدثنا فيها بمنتهى الصراحة عن مجمل القضايا التي تهم البلدين والشعبين الشقيقين، وما

اقترحته الكويت في حينه دليل على صحة رؤيتها في تفادي الحروب وويلاتها وآثارها المدمرة واستمرار العلاقات والروابط بين الدول الجارة.

الأمير في عدن!

حان الوقت الذي كان على أمير الكويت أن يكون في عدن. كان ذلك في فبراير ١٩٨١م. كان الجو لا يزال لطيفاً، ولمّا يبدأ صيف عدن القائظ جداً. أقيم للأمير الشيخ جابر استقبال رسمي وشعبي حافل، وبدا أنه سعيد بزيارته اليمن الديمقراطية. هي أول زيارة يقوم بها أمير كويتي، وقد جرت في وقت كنا بدأنا فيه بإرساء التفاهم الأخوي مع بقية دول المنطقة بفضل الجهود التي قامت بها الكويت. وكنا على الدوام نرى أن الكويت تمثّل أفضل جسر أو منطلق لمدّ العلاقات مع بقية دول الخليج والجزيرة، لما بيننا من علاقات مميزة، ومشاعر خاصة نكنها تجاه الكويت وحكومتها وشعبها الشقيق. وعرفاناً بهذا الدور، وتقديراً له ولإسهاماته في توطيد العلاقات بين الشعبين الشقيقين اليمني والكويتي، قلّدتُ الشيخ جابر الأحمد الصباح أمير الكويت، وسام الثورة «١٤ أكتوبر»، وهو أعلى وسام في جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية.



وصول رئيس دولة الكويت الشيخ جابر الاحمد الصباح الى عدن ١٩٨١م

سحر الساحل الذهبي

خارج نطاق الزيارة الرسمية، رتبنا للأمير برنامج زيارات وجولة حرة شملت عدداً من المناطق في عدن. بدا سموه مشدوداً إلى الساحل الذهبي لعدن، وشعر بانجذاب كبير نحو رماله الذهبية ومياه البحر الزرقاء الشفافة، وكانت الجبال السوداء المحيطة به، المتشحة بلون الصخور البركانية، تمنحه جمالاً فائقاً إلى حدّ جعل الأمير المأخوذ بهذا المنظر الساحر يقرر إنشاء طريق عدن الدائري، ليربط المدينة بشواطئها الجميلة الساحرة. والساحل الذهبي يبدو محشوراً داخل سلسلة جبلية، ولا يمكن الوصول إليه إلا عبر طريق وجسر ضيقين قديمين، ويبدو أن الأمير لاحظ ذلك ونحن في الطريق إليه، فلمعت في رأسه الفكرة، ولم يصارحني بها إلا في اللحظات الأخيرة ونحن في طريقنا إلى المطار لوداعه.

سألني الأمير: لماذا لا تقيمون طريقاً دائرياً حول عدن؟!

فأجبته بأنّ ذلك لا يأتي ضمن أولويات الخطة في وقتنا الحاضر.

فرد قائلاً: نحن سنتكفل بتمويل المشروع.

وبرغم ذلك فقد قلت له: شكراً جزيلاً...

وألح الأمير عليّ: ما رأيك لو تعلن في المطار رغبتنا في تمويل المشروع؟!

أجبته: من الصعب عليّ أن أعلن ذلك في حضورك، فأنت صاحب الفكرة وأنت ضيفنا، وأنت الذي ستموّل المشروع، ويجب ألّا يفهم المودعون أنني أقوم بإحراج سموك.

ابتسم الأمير وقال: ولكنكم لم تطرحوا علينا أي مشروع مثلما فعل إخوانكم في صنعاء، فقد طلبوا منا أن نمول لهم بعض المشاريع، ونحن وافقنا على ذلك.

ابتسمت بدوري وقلت له: سموكم، ضيفنا، وقد اتخذنا قراراً بألّا نطرح عليكم أي مشاريع.

وشكرته على المساعدات التي قدمتها الكويت منذ الاستقلال وحتى زيارته. في مطار عدن أعلن الشيخ جابر قرار إنشاء طريق عدن الدائري بنفسه على الصحفيين. وعقب عودته إلى الكويت بدأت الدراسات لإقامة المشروع، لكنه فيما بعد تعثر نظراً لارتفاع كلفته. وأخيراً، كان الاتفاق على تمويل المرحلة الأولى منه بإنشاء طريق إلى جولد مور عبر نفق

يشق في الجبل الواقع في حيّ الروضة (القلوعة)، وتحول التمويل للمشروع من هبة إلى قرض بلا فائدة يمنح من الصندوق الكويتي للتنمية.

أعرب الأمير عن سروره لزيارة عدن، وقال إن زيارته كانت ناجحة جداً وإن محادثاته معي كانت طيبة ومثمرة وستظهر نتائجها في المستقبل لمصلحة الشعبين والبلدين الشقيقين، وكانت الكويت قد قدمت عدداً من المشاريع في مجال الصحة والتربية والزراعة والطرقات وبناء مطار الريان بحضرموت، وأقامت وحدة سكنية بالمنصورة، وقدمت خمسين مليون دولار وديعة لمدة عشر سنوات.



صورة لمدينة كريتر

اتفاقية ثلاثية

بين عدن وأديس أبابا وطرابلس

مرة أخرى أبدت دول المنطقة تخوفها من سياسة اليمن الديمقراطية!! واستمر الخوف في الارتفاع حين وقّعت في عدن في أغسطس ١٩٨١م الاتفاقية الثلاثية اليمنية - الليبية - الإثيوبية. وأبدت دول المنطقة تخوفها من هذه المعاهدة.

وفيما أكدت صحيفة «الخليج» الظبيانية في ٢١/٨/ ١٩٨١م أهمية لقاء القمة الثلاثي

بيني وبين العقيد معمر القذافي والرئيس الإثيوبي منغستو، قالت الصحيفة إن هذه القمة تعنينا لأن اليمن الديمقراطية جزءٌ من منطقتنا، والجماهيرية الليبية إحدى دول الصمود والتصدي، وإثيوبيا تملك ناصية القرن الإفريقي... وهو موقع مؤثر في أمن المنطقة...

أما الصحفي مصطفى أبو لبدة مدير تحرير صحيفة «السياسة الكويتية»، فقد جاء إليّ وفي جعبته أسئلة قلقة. وأشار في أحد أسئلته تلك إلى تأزم الوضع في المنطقة وإلى أن توقيع اتفاقية عدن الثلاثية قد يزيد من حدة التوتر فيها. وقد نشرت «السياسة» حوارها معي في يوميتها الصادرة في ٢١/ ٨/ ١٩٨١ م، وكان جوابي عن سؤال الصحيفة هو الآتي:

«واقع الحال أن مفتاح الإجابة عن هذا السؤال يكمن في الاستهلال الذي تكرمت به عندما أشرت إلى ما يجري من رفع سريع لدرجة حرارة النفط في منطقة شبه الجزيرة والخليج...

إن توقيع معاهدة الصداقة مع الاتحاد السوفياتي ومع إثيوبيا وليبيا لا يمكن أن يكون خطراً على أمن المنطقة، كما يزعمون، لأن الاتحاد السوفياتي لم يسبق أن احتل جزءاً من أراضينا ولم يهدد باحتلال أي جزء في المنطقة، وأنا واثق أنك ستؤيدني إذا قلت لك إن المزاعم التي انتشرت مؤخراً حول ما يسمى الخطر السوفياتي على دول المنطقة ليست جديدة علينا، فقد سمعناها جميعاً منذ الخمسينيات والستينيات قبل إقدامنا على توقيع معاهدة الصداقة والتعاون مع الاتحاد السوفياتي، وقبل لقاء قمة عدن الثلاثية بين بلادنا وليبيا وإثيوبيا، ولا أبالغ في القول إنه في الوقت الذي كانت الدوائر الغربية تهدد باحتلال منابع النفط في المنطقة وتشكل قوات التدخل السريع المعدة لهذا الغرض، كان هناك من يتبرع مجاناً بالحديث عما يُسمى الخطر السوفياتي، لذلك فإننا لم نستغرب إطلاقاً أن تنشر غيوم الفزع والقلق عند بعض المتواطئين مع أميركا في أعقاب معاهدة الصداقة والتعاون مع الاتحاد السوفياتي، وكذا عقب عقد اتفاقية عدن الثلاثية مع كل من إثيوبيا وليبيا».

في الواقع، برز الخوف من علاقاتنا بالسوفيات لدى دول المنطقة في وقت مبكر. ففي اللقاء الأول الذي جرى بيني وبين سمو ولي العهد الكويتي جابر الأحمد الصباح في مدينة الكويت في شهر مايو ١٩٧٤م، برز هذا القلق، وأبرز ولي العهد قلقه حيال علاقات اليمن

الديمقراطية المتنامية بالاتحاد السوفياتي. وقال في ما يشبه النصيحة أو التحذير: «لسنا معكم إذا ارتميتم في أحضان السوفيات، ولسنا مع حكام صنعاء إذا ارتموا في أحضان السعودية والأميركان!».

كانت الكويت، تتبع سياسة مرنة ومتوازنة في المنطقة، ومع الشرق والغرب، وترى أن هذه السياسة تصنع لها الاستقرار وتحافظ على استقلالها. فكانت أول دولة في المنطقة تقيم علاقات دبلوماسية كاملة مع الاتحاد السوفياتي ومع بلدان أوروبا الشرقية. وتلتها الإمارات العربية المتحدة ومن بعدهما جاءت السعودية وقطر والبحرين. ولقد أثبت ذلك ضرورة العمل من أجل الاستقرار والتوازن في هذه المنطقة من العالم. وكان للسياسة الواقعية التي اتبعناها في الثمانينيات أثرها البالغ ودورها الكبير في إحداث انفراج في العلاقات مع دول المنطقة، الأمر الذي ساعد السوفيات على إقامة علاقات دبلوماسية مع دول المنطقة كلها لأول مرة في التاريخ.

المياه مقابل الجزر

بوبيان ووربه

ارتبطت بعلاقات شخصية ورسمية وودية بعدد من قادة دولة الكويت ورجالاتها، وعلى رأسهم الأمير الشيخ جابر الصباح، وقد تركوا جميعاً في نفسي أطيب الأثر، وكانت ثقتهم بي وبسياستنا كبيرة. ذات يوم طلب مني الأمير جابر خلال أحد لقاءاتنا المتكررة التوسط لدى العراق لمدّ الكويت بالمياه التي تذهب هدراً إلى شطّ العرب!

سافرت إلى العراق، وناقشت الموضوع مع الرئيس العراقي أحمد حسن البكر، ومع نائبه صدام حسين الذي كان يتصرف منذ ذلك الوقت كرئيس فعلي للعراق، والذي قال: «سنعطيهم الماء، لكن مقابل تسهيلات يمنحونها لنا في جزيرتي بوبيان ووربه». وبالطبع رفضت الكويت هذه المقايضة، وماتت الفكرة في مهدها برغم حاجة الكويت الماسة إلى المياه، إذ إنها تنفق أموالاً طائلة على تكرير مياه البحر. ولعل هذه الحادثة التي رويتها تختصر منهجية السياسة العراقية تجاه الكويت. مع أن الفائدة كانت ستعود بالنفع على الشعبين الشقيقين في الكويت والعراق.

العلاقات بالإمارات العربية المتحدة

هبطت طائرتنا في مطار أبو ظبي لأول مرة عام ١٩٧٥م، قبل أن تلامس عجلات الطائرة أرض المطار، شعرت بأنني في مدينة من نوع مختلف. فالمشهد الذي رأيته من الجو قبل الهبوط خلال تلك الزيارة الأولى لواحدة من مدن اللؤلؤ والنفط كان رائعاً. في طريقي من المطار أيقنت أنني أمام لوحة رائعة من الخضرة البديعة التي تتداخل مع رمال الصحراء، وزرقة البحر والسماء. وحين توغلت في المدينة، وجدت نفسي أمام الأبراج والعمارات الشاهقة والهندسة المعمارية الحديثة والشوارع الأنيقة المحاطة بالميادين والحدائق الخضراء. لقد كانت أبو ظبي في بداية نهضتها الجديدة.

كل مدينة لها سحرها وألوانها، بل ولها رائحتها ومذاقها الذي يبقى في الحواس مهما تباعدت السنون. وتروي لك أبو ظبي ببساطة تفاصيل الرحلة الطويلة من البداوة والخيام وتجارة اللؤلؤ التي كانت رائجة ذات يوم، إلى عصر النفط والعمارات الشاهقة والمدن العصرية التي تحاكي أرقى المدن الأوروبية إن لم تكن تفوقها جمالاً، وتروي لك المسافة الهائلة التي قطعت من دروب الصحراء إلى «الأوتوستراد»، ومن النوق إلى «الرولز رويس» وطائرات الجامبو العملاقة.

صحراوي عظيم..

أول اتصال بيننا وبين المسؤولين في دولة الإمارات كان في عام ١٩٧٤م، وحصل مصادفةً عندما كنت أرأس وفد بلادي إلى مؤتمر القمة الإسلامية الثاني، وهو ما سُمِّي «قمة لاهور»، حين تعرفت لأول مرة إلى الشيخ زايد بن سلطان، رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة على مائدة العشاء. بدا لي سمحاً، حادّ القسمات يشعّ بالطيبة ونبل الخلق وصفاء القلب، ويذكرك بعرب المناطق الصحراوية، في قسماته وسماته ولباسه، كل ذلك يؤكد أنه صحراوي عظيم. حين قرأ اسمي على بطاقة كانت موضوعة أمامي على مائدة العشاء، عرف أنني رئيس وزراء اليمن الديمقراطية... حيّاني بهدوء، ثم همس في أذني بالآتي:

يا أخ علي ناصر، لماذا أنتم ضدنا؟ ولماذا وقفتم ضد استقلالنا، مع أننا لا نكنّ لكم ولبلادكم سوى الخير؟ نحن أخوة لكم، ولسنا أعداءكم، ونعيش في منطقة واحدة، ونحن أقرب إليكم، وعندنا ثروة كبيرة، ونحن مستعدون لمساعدتكم.

قلت له:

يا شيخ زايد، نحن أخوة وأشقاء، لكن من الأفضل أن نناقش هذا الموضوع في غير هذا المكان.

وقال مازحاً: أنتم لا تريدون علاقة معنا لأننا أذناب الاستعمار كما يتحدث إعلامكم.

هكذا تعارفنا... وبسرعة توطدت علاقتي الشخصية والرسمية به، واستمرت لقاءاتنا في أثناء المؤتمر، وفي أحد تلك اللقاءات قال لي: نحن دولة غنية، ومن واجبنا أن نساعدكم، حددوا المبلغ الذي تريدون، ونحن جاهزون. وبعدها أرسل معالي الوزير أحمد خليفة السويدي لزيارتي وقال لي: أنا مكلف من الشيخ زايد الجلوس معكم، ولديّ أمر واضح منه بأن أحوّل لكم شيكاً بالمبلغ الذي تريدون، فأرجو أن تحددوا المبلغ.

وأخذ يحاول إقناعنا حتى وقت متأخر من الليل، ونحن نرفض قبول العرض المقدم إلينا من الشيخ زايد كبادرة حسن نية تجاه نظامنا..

وقلت له إننا نعتبر هذا اللقاء للتعارف مع الشيخ زايد ومعكم أهم من المال.

وردّ: لقد تعارفنا وتفاهمنا وعليكم أن تحددوا المبلغ لأن بلدكم محتاج للتنمية، وهذا الموقف لا يتعارض مع سياستكم مع الدول الاشتراكية، ونحن لا نطلب منكم اتخاذ أي موقف ضدهم.

وعندما سُدَّت كل الطرق أمام الوزير السويدي، قال: ما دمتم لا تريدون أن تقرروا الأمر، فأنا أقترح مبلغ عشرين مليون دولار، رغم أن عندي تفويضاً من الشيخ زايد بأن أحول لكم مبلغاً أكبر من هذا بكثير. وأضاف: أريد أن أقول لكم بصراحة، إنني اقترحت هذا المبلغ المتواضع، حتى لا يسبب لكم المتاعب هناك عندما تعودون إلى بلادكم.

فعلاً، فقد تحقق ما تنبأ به أو توقعه الوزير السويدي. فبعد أن تحول المبلغ، ووصل إلى مصرف اليمن عبر «البنك المركزي العراقي»، ارتفعت أصوات المزايدين صارخة: لماذا

تقبل أموالاً من دولة الإمارات؟ ولماذا قابلت الشيخ زايد وأجريت معه هذه المحادثات؟ محاولين تأكيد أن هذا اللقاء والمساعدات يتطلب قراراً مسبقاً من المكتب السياسي.

استهجنت هذا الطرح المفرط في التطرف، بينما شعبنا يحتاج إلى لقمة العيش والمساعدة من قبل جميع الأشقاء والأصدقاء بدلاً من الكلام، والتنظير الذي لن يُشبع أحداً.

هكذا كان لقائي الأول بالشيخ زايد بن سلطان في باكستان، ثم اللقاء معه في أبو ظبي عام ١٩٧٥. تصرفنا معاً ببساطة، ووجدنا لغة للتفاهم بسرعة، وتنامت معرفتي به، وملك كل منا مفتاح شخصية الآخر، وقد استطاع من اللقاء الأول أن يخلق انطباعاً مؤثراً فيّ، وبقي صديقاً وأخاً عزيزاً حتى وفاته رحمه الله. كان هذا اللقاء امتداداً للقائي الأول بالشيخ خليفة بن زايد ولي العهد في مدينة طرابلس في أثناء الاحتفالات بذكرى جلاء القوات الأميركية والبريطانية عن ليبيا في يونيو عام ١٩٧٠م، وأتذكر أن الرئيس جمال عبد الناصر قال لي إن الشيخ زايد هو أول زعيم عربي قدّم إلى مصر خمسة ملايين دولار بعد نكسة حزيران قبل أي دولة أخرى، رغم أنه كان لا يزال تحت الحماية البريطانية آنذاك، وقبل قيام دولة الإمارات المتحدة.

كان الشيخ زايد قبل أن يتولى المسؤولية الأولى في بلاده قد حاول مدّ جسور الأخوة إلى مصر عبد الناصر عام ١٩٦٦م، فقام بزيارة لمصر، وأقام في هلتون النيل بانتظار اللقاء مع الزعيم جمال عبد الناصر، ولكن جهاز دولة عربية خليجية منع مثل هذا اللقاء بتسريب معلومات مغلوطة إلى جهاز المخابرات المصرية، مدعياً أن الزيارة جاءت بإيعاز من المخابرات البريطانية، وبعد فترة انتظار لمقابلة الزعيم، لم تحصل المقابلة، بل جرت مع السيد أنور السادات الذي كان رئيساً لمجلس الأمة. وهنا تظهر حكمة الشيخ زايد وبعد نظره وتعاليه على المكايدات الصغيرة، إذ إنه بعد نحو عام من ذلك التاريخ إثر نكسة حزيران، بادر من تلقاء نفسه بتقديم ذلك المبلغ الذي كانت مصر تحتاج إليه آنذاك (كما حدثني بذلك عبد الناصر في لقائي معه بمدينة طرابلس الغرب)، وقد فعل ذلك دون أن يرتهن بردود الأفعال أو الشماتة، ولكن بموقف عروبي اتسم بالشهامة وتغليب منطق الإخاء والواجب. عندما سمعت هذه الحكاية شعرت بعظمة هذا الرجل وبُعد نظره وحكمته البالغة.

الزيارة الثانية

كان لزيارتي الثانية لأبو ظبي في مارس ١٩٧٨م دور أساس في تعرفي أكثر إلى الشيخ زايد واقترابي منه، والتعرف على دولة الإمارات ورجالاتها. أجريت مباحثات مستفيضة مع الشيخ مكتوم بن راشد المكتوم رئيس الوزراء في دولة الإمارات العربية المتحدة، وقمت بجولة مسائية في مدينة أبوظبي، شاهدت خلالها النهضة العمرانية التي تشهدها المدينة. كنت أتأمل وأحدق وأتساءل في ما أراه دليلاً على المعجزة التي صنعها الرجال والنفط، أشاهد صورة مجسمة للمدن التي تُخلَق من جديد، وغالباً ما كنت أخرج من حدود المشاهدة إلى عدن ومدن اليمن حيث كنا محرومين هذه الثروة، نحفر في الصخر لكي نحقق الحياة السعيدة لشعبنا الطيب.



مع الشيخ زايد عند زيارتي لدولة الامارات ١٩٧٤

الشيخ زايد في عدن

زار الشيخ زايد بن سلطان عدن في عام ١٩٧٦م في عهد الرئيس سالم ربيع الذي بدأ

قبل ذلك بعام واحد سياسة جديدة لبناء الجسور مع دول الخليج والجزيرة، وكنا قد رتبنا له جلسة قات على وقع رقصات يمنية حضرها عدد كبير من المسؤولين ورجال الدين والفنانين والشعراء، وفي مقدمتهم حسين المحضار الذي كتب قصيدة رائعة بمناسبة زيارته لعدن، وأثناء هذه الجلسة الودية ألقى قصيدته المشهورة (زايد الخير)، وأصبحت هذه التسمية حديث الكل، سواء في اليمن أو الإمارات يتداولها المسؤولون والمواطنون.



الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان في عدن
الرئيس سالم ربيع علي رئيس الوزراء علي ناصر محمد ١٩٧٦م



سالم ربيع علي – الشيخ زايد – علي ناصر –الشيخ عبدالله حاتم – محمد صالح مطيع



زيارة الشيخ زايد لمصنع الغزل والنسيج في المنصورة، ويبدو إلى جانبة الرئيس سالم ربيع علي

في أبو ظبي ١٩٨٠م

كثيرة هي المرات التي زرت فيها أبو ظبي، وفي كل مرة كانت تذهلني وتسحرني بشذا الحدائق التي تتناثر فيها الأضواء من كل لون، لتصنع من أضواء النوافير قصيدة حب ناعمة تحكيها الأساطير بهمس حالم. وقد عدت إليها في يوم من أيام يوليو عام ١٩٨٠م بعد أن أصبحت رئيساً لدولة اليمن الديمقراطية ضمن جولة قمت بها على عدد من دول المنطقة لشرح التطورات التي جرت في بلادنا في أبريل من ذلك العام، ولبحث العلاقات بين بلادنا وهذه البلدان. كان الشيخ زايد في استقبالي في مطار أبو ظبي.

الطريق من المطار إلى قلب المدينة يقع على جانبيه أشجار النخيل وكل أنواع الأشجار والورود من كل جانب. فور وصولي عقدت اجتماعاً مغلقاً مع الشيخ زايد، وناقشنا معاً العلاقات الثنائية بين البلدين، في ظل التطورات الأخيرة التي شهدتها اليمن الديمقراطية على مستوى التغيير في قيادتها السياسية التي بنتيجتها جئت الى سدة الحكم أميناً عاماً للحزب الاشتراكي اليمني ورئيساً للدولة. ولهذا قمت بزيارة دول الخليج لشرح آخر التطورات والمستجدات على الساحة اليمنية والدولية، ولطلب دعم هذه الدول لليمن الديمقراطية.

حُب اليمن

في اليوم الأول من يوليو عقدنا جلسة المباحثات الأولى بين الوفدين، أشدت في الكلمة الافتتاحية بحب الشيخ زايد وتقديره لليمن وتشريفها بالزيارة التي قام بها لعدن وصنعاء في عام ١٩٧٦م. وأكدت رغبة اليمن الديمقراطية الصادقة في تقوية العلاقات الأخوية وتعزيزها مع دولة الإمارات العربية المتحدة، وأشرت إلى أنني ألمس هذه الرغبة نفسها لدى الشيخ زايد. وعرضت الجهود التي نبذلها على مستوى قيادة النظامين في عدن وصنعاء والخطوات العملية التي نتخذها لتحقيق الأمن والاستقرار والتطور والتقدم لليمن باعتبار ذلك يقدم مساهمة مهمة في الأمن والاستقرار في المنطقة. من جانبه، رحب بي وبالوفد المرافق لي، وقدّر أهمية العلاقات بين البلدين، وأكد أهمية اللقاءات بين الأشقاء

من أجل تبادل الرأي ووجهات النظر بشأن العلاقات الثنائية والأوضاع في المنطقة. قدمت دولة الإمارات العربية المتحدة مساعدات عديدة إلى بلادنا، منها تقوية كهرباء عدن، وبناء عدة وحدات سكنية (٢٨٠ وحدة)، وغيرها من المشاريع التنموية.

وأثناء زيارتنا نصح الشيخ زايد بتحسين العلاقات مع دول المنطقة، ولاسيما الدول المجاورة للجنوب، كصنعاء والرياض ومسقط وتسخير الأموال التي تصرف للجيوش والحروب لمصلحة التنمية في الجنوب، وأكد أنه سيتصل برؤساء هذه الدول من أجل تطوير العلاقة معها. ومن جانبنا، رحبنا بهذه الأفكار البناءة انطلاقاً من حرصنا على أمن اليمن والمنطقة واستقرارهما، وقد بدأنا باتخاذ خطوات عملية مع النظام في صنعاء ووقف الحروب ونزع المظاهر المسلحة للجبهة الوطنية والدخول في حوار معها لمصلحة النظام والجبهة الوطنية، كذلك جرى تطبيع العلاقة مع المملكة لإيقاف الحملات الإعلامية من الطرفين وإغلاق المعسكرات المعادية للجنوب في كل من الشرورة ونجران، وقد نقلت هذه المعسكرات لاحقاً إلى تبوك على الحدود مع الأردن لإثبات حسن نية المملكة مع عدن، وبدأنا باتخاذ خطوات عملية لتطبيع العلاقات مع سلطنة عُمان وترسيم الحدود معها لاحقاً.

فيما بعد نجحت جهود الإمارات في أن تكون «عرّاب» العلاقات بيننا وبين سلطنة عُمان التي لم يكن بيننا وبينها علاقات دبلوماسية من ١٩٦٧م وحتى ١٩٨٢م، وكان لها دور كبير في رعاية مُحادثات الحدود بين البلدين، وفي إقامة العلاقات وتقريب وجهات النظر. وتوجت هذه الجهود بتوقيع «اتفاق المبادئ» بين عدن ومسقط في دولة الكويت في شهر أكتوبر عام ١٩٨٢م.

صديق حقيقي

كشف لي الشيخ زايد في في أحد اللقاءات معه بعد خروجي من السلطة أن عبد الواسع سلام، وزير العدل الجديد في عدن، زارهم بعد أحداث يناير ١٩٨٦م، وأخذ يهاجمني أمامه، فما كان من الشيخ زايد إلا أن قاطعه قائلاً:

الرئيس علي ناصر أفضل قائد يمنيّ عرفته. وأضاف ناصحاً: الأفضل لك أن تتحدث معنا في العلاقات بين بلدينا، بدلاً من مهاجمة الرئيس علي ناصر؟

ومن المؤكد أن وزير عدل عدن أخفق في مسعاه لدى رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة، ولم يتحقق له ما كان يريد..

تداولنا، أنا والشيخ زايد، حديثاً مطولاً حول أحداث يناير والوضع الراهن في اليمن الديمقراطية، ونصحني بعدم التفريط في أصدقائي الإثيوبيين والسوريين والسوفيات، وطلب إليّ أن أحتفظ بعلاقات طيبة بالرئيس علي عبد الله صالح وإخوتي في الخليج. وأكد لي أن الإمارات مستعدة للقيام بكل شيء في سبيل حل مشاكل الجنوبيين «الذين نزحوا معي إلى صنعاء»، وقال: كل ما تطلبه نحن جاهزون له... بناء مدارس، مستشفيات، مزارع، بيوت. وأضاف: ثق أن دولة الإمارات وشعبها معك، وأهلاً بك في أي وقت لزيارتنا في أبو ظبي.

هذا الموقف النبيل كان يستوجب مني الشكر والتقدير للشيخ لكلماته الصادقة الطيبة، ولوقوفه هذا الموقف الشجاع والكريم، وقد فعلت ذلك بكلمات واضحة وبسيطة، لكن في ما يتعلق بالمساعدات التي يمكن أن تقدمها إلينا بلاده، فقد قلت من دون لبس: نحن شاكرون لسموكم، لكن أية مساعدة ترغبون في تقديمها إلينا نرجو أن تقدموها عبر الرئيس علي عبد الله صالح، لأنه يقدم إلينا كل شيء. وأضفت: المساعدة الحقيقية التي نطلبها من سموكم، أن تبذلوا جهودكم لدى الحكام في عدن من أجل تحقيق المصالحة الوطنية..

وعدني الشيخ زايد خيراً، وقام بمحاولات في هذا الشأن، وبذل جهوداً مشكورة لوقف تنفيذ أحكام الإعدام التي صدرت في عدن بحق خمسة من رجالنا الذين اعتقلوا بجريرة أحداث يناير ١٩٨٦م، وبعث الشيخ زايد مدير مكتبه خميس الرميثي إلى عدن في طائرة خاصة، في محاولة أخيرة لوقف تنفيذ تلك الأحكام، لكنه لم ينجح في مسعاه. فقد كان حكام عدن الجدد يتصرفون كالمقصلة في تعاملهم مع دول المنطقة، ويصمون آذانهم عن نداءات العالم ومنظماته الإنسانية وكأنهم سيحكمون إلى الأبد.

مرة أخرى في أبو ظبي

لقائي التالي مع الشيخ زايد كان في أبو ظبي في العشرين من شهر أبريل ١٩٨٩م بدعوة كريمة منه تلقيتها عبر سفير دولة الإمارات العربية المتحدة في صنعاء سيف المكتوم. كانت هذه أول زيارة أقوم بها لدولة من دول مجلس التعاون الخليجي بعد أحداث يناير ١٩٨٦م. أقلتني إلى أبو ظبي الطائرة الرئاسية الخاصة بالرئيس علي عبد الله صالح. كان يوماً من أيام شهر رمضان المبارك، عندما وصلنا إلى مطار أبو ظبي بعد الإفطار. كان في استقبالي وزير الصحة الإماراتي، وعدد من كبار موظفي وزارة الخارجية وسفير اليمن في أبو ظبي محمد الخاوي، وكل من السفراء: محمد هادي عوض، أحمد عوض حيدرة، طه غانم، علي عيدروس يحيى وعبد الله معطي. وكلهم كانوا سفراء لليمن الديمقراطية لدى عدد من الدول الشقيقة والصديقة، لكنهم خلال أحداث يناير ١٩٨٦م تركوا سفاراتهم وفضّلوا الالتحاق بالشرعية التي كنت أمثلها، وكانوا يقيمون آنذاك في دولة الإمارات العربية المتحدة بصفة موقتة، وكان معظم أفراد السلك الدبلوماسي قد التحق بالقيادة الشرعية.

تناولنا إفطار اليوم الأول في منزل السفير الخاوي، وحضره رئيس أركان جيش دولة الإمارات العربية المتحدة محمد سعيد البادي وناصر النويس رئيس صندوق أبو ظبي وسواهما. وفي المساء التقيت الشيخ سرور بن محمد رئيس الديوان... وفي اليوم التالي أقام الشيخ زايد على شرفي حفلة إفطار وعشاءً في دار ضيافة تقع بين العين وأبو ظبي.

الوحدة والمصالحة

في تلك الأمسية دار بيني وبين الشيخ زايد حديث طويل تناول الأوضاع في اليمن وأهمية تحقيق الوحدة اليمنية. وحدث أن كان اليمن الشمالي قد انضمّ إلى مجلس التعاون العربي في اللحظة الأخيرة قبل إعلان قيامه، وعلى غير توقع، وكان انضمامه باقتراح من العراق. وكانت فكرة المجلس قد ظهرت لأول مرة في العاصمة الأردنية عمّان في صيف عام ١٩٨٨م، ومنها انتقلت إلى بغداد، ثم وصلت مع الخطوة الثالثة إلى القاهرة[1].

---

(١) انظر محمد حسنين هيكل: حرب الخليج: أوهام القوة والنصر، الطبعة الأولى، ١٩٩٢م، (ص١٦٨).

ناقشت الموضوع مع الشيخ زايد، وقلت له إن انضمام صنعاء إلى مجلس التعاون العربي يجب ألّا يكون بديلاً للوحدة اليمنية. وعبّرت له عن رأيي الذي يتلخص في أن دخول الجمهورية العربية اليمنية إلى المجلس سيخلق مصاعب كبيرة لليمن مستقبلاً في علاقاتها بجيرانها في دول الخليج والجزيرة، وأن المستفيد الوحيد من المجلس الجديد هو العراق لتقوية موقفه التفاوضي مع إيران، وفي الضغط على دول مجلس التعاون الخليجي، ولعزل سورية عن دول المنطقة. وقلت له إن العراق بعد أن خرج من حربه مع إيران يسعى إلى أن يحوّل مجلس التعاون العربي إلى قوة ردع هائلة لإيران، وأداة تآمر على سورية وعلى دول الخليج، وفي نهاية الأمر اليمن لن تستفيد شيئاً من انضمامها إلى هذا المجلس، سواء من الناحية السياسية أو الاقتصادية أو العسكرية أو الأمنية. ويؤكد محمد حسنين هيكل رأيي هذا في كتابه حرب الخليج: أوهام القوة والنصر الذي صدر فيما بعد، قائلاً: «اليمن الذي انضم إلى الميثاق في اللحظة الأخيرة قبل إعلان قيامه كان يبحث عن داعٍ للاقتراب من القلب العربي، كما أنه كان يبحث عن مطالب أمن مبهمة، ومطالب اقتصادية لا تريد أن تعلن عن نفسها إلا عندما يأتي الأوان، وهو أوان غير محدد بأجل»[1].

وصلت في النهاية إلى جوهر الأمر الذي كنت أريد أن أقوله، وهو أنه في حال تعذُّر قيام الوحدة اليمنية، فلا بد من أن يُبذَل المزيد من المساعي مع حكام عدن لتحقيق المصالحة الوطنية في الجنوب، التي كنت أراها عاملاً مهماً يؤدي إلى تحقيق الوحدة اليمنية. وكانت هذه المسألة واضحة تماماً أمامي، حيث قلت له: إنني لا أشترط عودتي الشخصية إلى الحكم في عدن لتحقيق هذه المصالحة... وطلبت من الشيخ زايد بذل المزيد من الجهود مع الأشقاء والأصدقاء للضغط على حكام عدن لكي يقبلوا المصالحة الوطنية، وإيجاد حل شامل لمشاكل آلاف اليمنيين (الجنوبيين) الذين خرجوا من الجنوب إلى الشمال. وذكرته بوعده الذي قطعه لنا في ديسمبر سنة ١٩٨٦م عندما كان يزور صنعاء حيث أبدى استعداده لبناء مدارس ومستشفيات وتعاونيات زراعية ومنازل لاستيعاب (النازحين) الجنوبيين

---

(١) المصدر السابق، ص ١٦٨.

في الشمال. وأكدت له أن انشغالهم بالمشاريع والإنتاج أفضل من انشغالهم بالمشاكل والتوترات على الأطراف. ومرة أخرى طلبت من الشيخ زايد مساعدة الرئيس علي عبد الله صالح (مالياً) للتغلب على مشاكل النازحين. رحب بي الشيخ زايد، وقال لي: «الإمارات بلدك، ويمكنك أن تأتي لزيارتنا في أي وقت تشاء، ولست في حاجة لطلب الإذن أو الموافقة من أحد».، ثم تحدث عن الوحدة اليمنية فأكد قائلاً: «نحن مع الوحدة، نسعى مع الأخوة في صنعاء وعدن لتحقيقها، وإذا وجدنا أن ذلك متعذر الآن فسنطرح عليهم المصالحة الوطنية التي تطالبون بها»، وسألني الشيخ زايد: هل تملكون مشروعاً محدداً لتحقيق المصالحة الوطنية؟ وأجبته: نعم، لدينا مقترحات محددة بهذا الشأن. وقدمت إليه مشروعنا للمصالحة في رسالة وجهناها إليه قبل مغادرتنا دولة الإمارات العربية المتحدة.

مجلس التعاون العربي

بعد ذلك تطرق الشيخ زايد في حديثه إلى إنشاء «مجلس التعاون العربي»، وفوجئت بأنه متحمس لقيامه ولوجود اليمن فيه، بعكس المملكة العربية السعودية التي حركتها حساسيتها المعهودة، فاعتبرت قيام المجلس وانضمام اليمن إليه في اللحظة الأخيرة تطويقاً لها من الشمال ومن الجنوب، واعتبرت ذلك عملاً موجهاً ضدها، كما قدرت أن ذلك كان قصداً مقصوداً[1].

قال الشيخ زايد: إن الرئيس علي عبد الله صالح محق في انضمامه إلى مجلس التعاون العربي، وعليك ألّا تختلف معه بشأن ذلك. لأن في «الاتحاد» الجديد قوة لليمن ولدولة الإمارات والمنطقة.

انتهى اللقاء، وافترقنا، وغادرت إلى أبو ظبي حيث التقيت في الليلة نفسها الاستاذ أحمد خليفة السويدي. وفي اليوم الأخير للزيارة التقيت الشيخ مبارك بن محمد وزير الداخلية، وحمد بن محمد نائب رئيس الوزراء.

لكن الفصل الثاني من الزيارة بدأ في صنعاء فور عودتي إليها. كانت الزيارة مهمة

(١) محمد حسنين هيكل: المرجع السابق، ص ١٧٧.

وناجحة، وأثارت ضجةً على عدة مستويات سياسية. لكنها أزعجت حكام عدن وكانوا يخشون تحركاتي السياسية في وقت كانوا يعانون فيه العزلة.

التضامن العربي ومبادرة زايد

هناك نقطة مهمة في زيارتي أحب أن أنوه إليها. فخلال عرضنا للوضع العربي العام وما آلت إليه أحوال التضامن العربي، أبدى الشيخ زايد استعداده للقيام بدور الوسيط بين سورية والعراق والأردن، في محاولة منه لبناء جسور الثقة بين الدول العربية الثلاث، وأبدى استعداده لمساعدة سورية على حلّ مشكلة لبنان. وكان رأي الشيخ زايد أن سورية إذا استطاعت التحرر من أعباء وجودها في لبنان، واستطاعت تصحيح علاقاتها بالعراق والأردن، فإن ذلك يمكّنها من التفرغ للقضايا الكبيرة، كقضية فلسطين، وتحرير الأراضي العربية المحتلة. ومع أن نيّات الشيخ زايد كانت طيبة وسليمة في القيام بمسعى من هذا النوع، إلا أنه لم يكن يدرك أنه كان من بين الأهداف الفكرية والسياسية التي طُرح بموجبها مشروع مجلس التعاون العربي هدف أساسي، هو عزل سورية براً وجواً عن دول المنطقة، وعن آسيا وإفريقيا إلا عن طريق البحر[١] وكان العراق والأردن كلاهما عضوين مؤسسين في هذا المجلس.

طلب مني الشيخ زايد أن أنقل هذه الرغبة شخصياً إلى الرئيس السوري حافظ الأسد، وكان وزير الخارجية السوري فاروق الشرع يزور حينذاك أبو ظبي، فاقترحت على الشيخ زايد أن يناقش هذه الفكرة معه، لكن الشيخ زايد كان يفضل أن يحصل ذلك عبري شخصياً، فوعدته خيراً.

وفعلاً ناقشت الموضوع مع الرئيس حافظ الأسد في أول لقاء حصل بيننا في دمشق، وأبدى ترحيبه بالفكرة، وقدّر جهود الشيخ زايد من أجل القضايا العربية، ولكن الرئيس الأسد العارف بحقيقة ما يحاك ضد سورية، والتركيبة المعقدة للعلاقات والوضع العربي من جميع جوانبه، قال لي: «الوضع معقد جداً ولا يمكن حله بسهولة». وهذه النصيحة تذكرني

---

(١) محمد حسنين هيكل حرب الخليج: أوهام القوة والنصر، مصدر سبق ذكره، ص١٧٣.

بحديث الشيخ زايد معي في العلاقة مع الدول المجاورة لليمن الجنوبية، فقد نصح بحل المشاكل مع النظام في صنعاء وتطبيع العلاقة مع السعودية وإقامة علاقات مع سلطنة عمان حتى نتمكن من التفرغ لحل مشاكلنا الداخلية والاهتمام بالتنمية في الجنوب وتسخير كل الإمكانات التي تصرف للدفاع من أجل مشاريع التنمية.

ثم جاءت حرب الخليج الثانية، واحتلال العراق الكويت في الثاني من أغسطس سنة ١٩٩٠م حيث اتضحت نيّات صدام حسين الحقيقية من وراء إنشاء مجلس التعاون العربي. وقد ذكّرت الشيخ زايد بالحديث الذي دار بيننا في أبريل سنة ١٩٨٩م عندما التقيته مجدداً، فقال: «إنك كنت على حق».

الشيخ زايد: موقعك في اليمن

اللقاء هذه المرة جرى في العاصمة السورية دمشق، في التاسع عشر من شهر سبتمبر سنة ١٩٩١م. فحين رنّ في الساعة السابعة صباحاً جرس الهاتف في منزلي، كان المتحدث على الطرف الآخر عبد الله الأحمر، الأمين العام المساعد لحزب البعث العربي الاشتراكي في سورية، وكان يبلغني في هذا الوقت المبكر من صباح دمشقي جميل بموعد لقائي بالشيخ زايد الذي كان يزور العاصمة السورية. كانت زيارته الأولى لسورية بعد أن وضعت حرب الخليج أوزارها.

في الساعة الثامنة والدقيقة الخامسة والأربعين توجهت إلى «قصر تشرين» الواقع على تلة من تلال جبل «قاسيون» حيث أقام الشيخ زايد. وجدته مع أعضاء وفده الرسمي في استقبالي، وكان من بينهم نجله عيسى، الاستاذ أحمد خليفة السويدي وزير الخارجية، وناصر النويس، ومدير مكتب الشيخ زايد خميس الرميثي، وسواهم. كان اللقاء بيننا حاراً وودياً، وبعد أن تصافحنا انسحب أعضاء الوفد المرافق للشيخ وبقينا منفردين.

بدأ حديثه معي معاتباً، لأنني لم أقم بزيارة الإمارات بعد زيارتي لها في سنة ١٩٨٩، لكنه في الوقت نفسه اعتذر لي عمّا سمّاه تقصيراً من جانبه، وعزا ذلك إلى الظروف الصعبة التي مروا بها بسبب حرب الخليج.

أبديت له شكري للاهتمام الذي يبديه نحوي، وقلت له: «إنني أقدر ظروفكم وانشغالكم،

وإن الأحداث الجسيمة التي مرت بها المنطقة جعلت الكل في حال انشغال فعلاً». وأعربت له عن تقديري لرغبته في لقائي للتشاور في الأوضاع في اليمن والمنطقة.. وذكرت الشيخ زايد بالحديث الذي دار بيني وبينه في أبو ظبي في أبريل ١٩٨٩م حول «مجلس التعاون العربي» الذي أُنشئ تحت رعاية الرئيس العراقي صدام حسين في بداية سنة ١٩٨٩م، وكنت يومذاك قد حذرت الشيخ زايد من مخاطر قيام هذا المجلس، وقلت إنه لن يُستَخدَم وسيلةَ ضغط عراقية وقوة ردع ضد إيران فقط، بل وورقة ضغط ضد دول مجلس التعاون الخليجي، وللتآمر على سورية وعلى المنطقة. وذكّرته بموقفي من إنشاء المجلس وانضمام النظام في صنعاء إليه. عبّر الشيخ زايد عن ارتياحه للقائنا ولحديثي الصريح معه، وأكد صحة تحليلاتي بشأن قيام مجلس التعاون العربي عند لقائنا في أبوظبي في سنة ١٩٨٩م حيث توضحت أهدافه الحقيقية في الثاني من أغسطس سنة ١٩٩٠م باحتلال العراق دولة الكويت.

بعد ذلك تفرع الحديث إلى قضايا خاصة، وأعرب الشيخ زايد عن استعداده وبلاده لتقديم المساعدة، وعندما لاحظ أنني لا أولي هذه المسألة الاهتمام، قال: اعتبرني أخاً لك، وسألني: لماذا لا تطلب المساعدة منا؟ فقط عليك أن تحدد ما تريده شهرياً أو سنوياً ونحن مستعدون.

أجبته: أنا لا أطلب مساعدة شخصية لنفسي، وأنتم تعرفون جيداً أنني عندما كنت في عدن لم أطلب منكم شيئاً لشخصي، كذلك عندما التقينا في صنعاء في نهاية ١٩٨٦م، وفي أبو ظبي في ١٩٨٩م لم أطلب مساعدة خاصة بي، بل كنت أقول لكم دائماً ساعدوا الرئيس علي عبد الله صالح من أجل تحقيق الوحدة.

قال الشيخ بإصرار: لا تخجل، نحن إخوة لك، والإمارات بلدك، عليك أن تطرح أمورك ومشاكلك الشخصية بصراحة، ونحن جاهزون.

قلت له: قدمتم ٥٠ مليوناً في عام ١٩٨٩م عندما كنت أزور الإمارات، وتذكرون أنني طلبت من سموِّكم تحويل المبلغ إلى الرئيس علي عبد الله صالح.

سأل الشيخ زايد باندهاش: ألم يعطكم شيئاً منه؟

فأجبته على الفور: أنتم تعرفون أننا لا نسعى إلى المال، وقد حرصنا طوال وجودنا في

صنعاء على تسليم كل أموال المساعدات التي كانت تأتينا للرئيس علي صالح، باعتبار أنه تكفل بكل نفقات أنصارنا وقواتنا في الشمال، وكان قد تسلّم من السعودية والكويت وعمان وليبيا والجزائر أموالاً من أجل مساعدة النازحين من الجنوب تفوق ما صرف على القيادة الشرعية خلال إقامتنا في صنعاء ١٩٨٦ - ١٩٩٠.

عند هذا انتهى لقاؤنا، وودعني الشيخ زايد بمثل ما استقبلني به من ودّ وحفاوة. وكان آخر ما قاله لي وهو يشدّ على يدي بحرارة: مع السلامة. موقعك في اليمن.

مجدداً في أبو ظبي

في عام ١٩٩٢م كانت معطيات كثيرة محلية ودولية مهمة تتفاعل داخل اليمن وحولها. فالوحدة اليمنية التي تحققت قبل عامين في ٢٢ مايو ١٩٩٠م، حتى وإن حظيت بمباركة إقليمية ودولية، إلا أنها قد دفعت إلى إعادة تنظيم التحالفات داخل اليمن نفسها، وفي المنطقة المحيطة بها، وتحديداً بعد غزو العراق الكويت، والموقف اليمني من حرب الخليج الثانية ومن التحالف الدولي لتحرير الكويت وإخراج القوات العراقية منها. وقد أدت هذه الحرب إلى القلق وعدم الاستقرار وإلى انفراط التضامن العربي، ما دفع البعض في دول المنطقة إلى النظر إلى الوحدة اليمنية باعتبارها أحد عوامل عدم الاستقرار في اليمن والمنطقة بعكس ما كان يفترض الأمر. وساعد على هذا أن شهر العسل بين أفرقاء الوحدة في القيادة اليمنية انفرط عقده بأسرع مما كان متوقعاً، فبرز الخلاف بين الرئيس علي عبد الله صالح ونائبه علي سالم البيض. وسرعان ما سحب هذا الخلاف نفسه على بقية القيادة في المؤتمر الشعبي العام والحزب الاشتراكي اليمني، وبينهما وبقية القوى السياسية اليمنية التي استبعدت من المشاركة نتيجة ما حدث من تقاسم للسلطة والثروة في أثناء الفترة الانتقالية التي كانت حافلة بالعديد من الأخطاء الاستراتيجية والتكتيكية. وقد مارس الحزبان الحاكمان ومعهما حزب الإصلاح درجات متفاوتة من التأثير في الأوضاع، وفي استقطاب القوى السياسية والقبلية والشارع اليمني، وصولاً إلى البحث عن حلفاء يمنيين من القوى الوطنية المستبعدة في الخارج، وكذلك عن حلفاء إقليميين ودوليين لكسب معركة السلطة.

كان هذا الخلاف هو الدافع للحزبين الاشتراكي والمؤتمر إلى إعادة اتصالهما بي

للعودة إلى صنعاء، بعد أن قضت مصلحتهما المشتركة في نوفمبر ١٩٨٩م بإخراجي من اليمن، وهو ما امتثلت له حينذاك بدافع من حرصي الشديد على تحقيق الوحدة اليمنية حتى لا تكون هناك ذريعة أمام أحد للتنصل من إتمام هذا الهدف الاستراتيجي العظيم الذي ناضلنا جميعاً من أجله، ودفعنا وشعبنا في الجنوب والشمال التضحيات الغالية في سبيله. أما الآن، فقد كنت أدرك دافع الطرفين إلى المطالبة بعودتي، ولم يكن مما يخفى عليّ أن كل طرف يسعى لاستغلال هذه العودة ضد خصمه وتوظيفها في الصراع السياسي المحتدم. وكنا وما زلنا قوة سياسية مؤثرة في الساحة اليمنية، والطرفان كانا يدركان هذه الحقيقة.

لأنني كنت أدرك مخاطر الصراعات السياسية في اليمن وفي غيره من البلدان، ولأننا في اليمن اكتوينا بنار الصراعات من هذا النوع أكثر من غيرنا، ولأن تاريخنا السياسي القديم والحديث حافل بالعديد منها، والتي سرعان ما تتحول إلى صدامات مسلحة وعنف دموي نتيجة انعدام الديمقراطية وقلة مساحة الحرية المتاحة للتعبير عن الآراء المختلفة، وتعقد الأوضاع القبلية والاستئثار بالقرار، فقد حذرت الطرفين من مغبة هذا الصراع ودعوتهما إلى جانب العديد من القوى الوطنية الخيّرة إلى حلّ مشاكلهما بالحوار وعبر الطرائق السلمية.

كانت قوى أخرى إقليمية ودولية تتابع أزمة اليمن من منطلقات تأثيرها في الأمن الإقليمي وفي علاقاتها ومصالحها في اليمن. بعض هذه القوى كانت تسعى لحل الأزمة بين الطرفين لكي يحافظ اليمن على وحدته، وقوى أخرى تسعى لاستغلالها لتحقيق أهدافها الخفية والعلنية. وكل هذا لم يكن مما يخفى عليّ ولا على كثير من القوى السياسية اليمنية. في مثل هذه الظروف المعقدة والمتسارعة، كان عليّ التشاور مع العديد من القوى السياسية داخل اليمن وخارجها، بما في ذلك القوى الإقليمية التي كانت تتابع أوضاع اليمن عن كثب... وكانت جهات عدة تتصل بي لمعرفة حقيقة ما يدور في اليمن وموقفي مما يحدث هناك...

في الخامس والعشرين من يوليو سنة ١٩٩٢، كنت موجوداً في باريس حين تلقيت اتصالاً هاتفياً من الأخ خميس الرميثي مدير مكتب صاحب السمو الشيخ زايد بن سلطان، وكان هذا ثالث اتصال يجريه معي خلال وقت قصير، وقد استفسر عن الأوضاع في اليمن

وما طرأ من جديد عليها؟ وقد أجبته بأن هناك أموراً كثيرة جداً ومهمة تتطلب أن ألتقي صاحب السمو الشيخ زايد مباشرة لمناقشتها معه في أبو ظبي أو مع من يختاره ويوفده إليّ في دمشق. وقد وعدني خميس الرميثي بالرد خلال أسبوع، لم يتأخر الرد كثيراً فقد خابرني الرميثي صباح يوم الأربعاء التاسع والعشرين من يوليو، أي بعد أربعة أيام فقط من آخر مكالمة هاتفية، وأبلغني بأن صاحب السمو الشيخ زايد يرحب بزيارتي للإمارات غداً الخميس وأن سموّه سيقابلني يوم الجمعة مباشرة، وطلب ردي وإشعاره بموعد الرحلة في مساء اليوم نفسه، وقد اتصل بي مرة أخرى في المساء ليسألني عن موعد الرحلة، فأشعرته بأنني سأصل غداً إلى أبو ظبي بإذن الله، وطلبت منه أن ينقل تحياتي لصاحب السمو.

في حضرة حكيم العرب

صباح يوم الجمعة الواحد والثلاثين من يوليو استقبلني صاحب السمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، كان ودياً للغاية كعادته. وقد أدركت من تحديد موعد الزيارة واللقاء بهذه السرعة، أن سموّه قلق جداً حيال الأوضاع في اليمن، كما كان تعبيراً عن مدى ما يكنه لي من مودة خاصة، ورغبته في التشاور معي. وقد بدأ حديثه معي بالسؤال عن صحتي وأحوالي، وعن احتمالات عودتي إلى اليمن. وقال لي: نحن نسمع كثيراً عن رغبتكم في العودة إلى اليمن، وسمعت أنك ترغب في التشاور معنا. وقال لي: نحن أخوة لك ولن ننصحك إلا بما يصلح لك ولليمن وللمنطقة، وليس لنا في ذلك مصلحة خاصة، ويعلم الله بذلك. ونصحني سموّه بالتريث، وقال: إنني خائف عليك، لأن الوضع في اليمن غير مستقر، وكل واحد يتآمر على الثاني، ويمكن أن يخدعوك ويقتلوك! وقال: سيأتي يوم تعود فيه إلى وطنك معززاً مكرماً، فالكل كما أعرف يحبك في اليمن وخارج اليمن.

نصائح الشيخ زايد

كان من بين ما نصحني به سموّه، تحذيره لي من المشايخ في اليمن. وقال: صحيح أنهم مختلفون مع الرئيس علي صالح، ولكنهم لا يستطيعون مواجهته علناً، ولهذا فهم يريدونك واجهة لهم. وذكر بعض هؤلاء المشايخ بالاسم. وسألني صاحب السمو الشيخ

زايد عن العلاقة بالسعوديين والكويتيين والعُمانيين، وقال: إذا كانوا راغبين في مساعدتك بلا شروط فاقبل مساعدتهم، أما إذا كانوا سيشترطون عليك، فارفض ذلك. وأبدى سموّه استعداده لتقديم المساعدة لي بلا شروط وقال لي: أنت أخ عزيز وشريف، ونحن نتمنى لك كل الخير والتوفيق. وتطرق الحديث تفصيلاً إلى العديد من الأوضاع. وفهمت من حديثه معي أنه على إلمام بما يدور هناك، وأن مدير مكتبه خميس الرميثي قد لخص له أهم ما دار بيني وبينه فساعدني على التمهيد لهذا اللقاء...

قدمت صورة الأوضاع في اليمن، وشرحت له الاتصالات بالقوى السياسية اليمنية وبالأخوة في السعودية وعُمان وقطر وسواها من اتصالات عربية ودولية. وقلت لسموّه إنني بحاجة إلى التشاور المستمر معه وإلى دعمه السياسي والمعنوي. وأعربت له عن تقديري لنصيحته بعدم الاستعجال في العودة وانتظار ما تؤول إليه الأمور في اليمن. واتفقنا على إجراء مزيد من المشاورات مع أعضاء مجلس التعاون الخليجي والدول الأوروبية واستجلاء الموقف.

بعد ذلك قمت بعدة زيارات أخرى لدولة الإمارات والتقيت خلالها بالشيخ زايد، لكن علاقاتنا الأخوية شابها بعض الفتور نتيجة الأحداث التي جرت في اليمن قبل وبعد حرب الاقتتال ومشروع الانفصال الذي أعلنه البيض في ٢١ مايو ١٩٩٤، والذي أيدته دول الخليج لكنها لم تستطع الاعتراف به بسبب الموقف الأميركي المؤيد لعلي عبد الله صالح. حينذاك، رفضت كل العروض والإغراءات المالية لتأييد الانفصال ومساندته انطلاقاً من موقفي الوحدوي، فأنا أول من وقع اتفاقية الوحدة عام ١٩٧٢م، وفي فترة رئاستي (١٩٨٠م – ١٩٨٦م) أنجزت أهم الخطوات الوحدوية، وفي مقدمتها دستور دولة الوحدة الذي وقّع عليه فيما بعد علي عبد الله صالح وعلي سالم البيض، ومن أجل الوحدة دفعت الثمن وغادرت اليمن بناءً على طلب علي سالم البيض ورغبة علي عبد الله صالح في ذلك الوقت. وأتذكر أن عدداً كبيراً من المسؤولين الخليجيين زاروني في دمشق لإقناعي بالوقوف إلى جانب الشعب في الجنوب، قائلين: إنهم أهلك وإخوانك، فقلت لهم: إن هذا صحيح، ولكن الإخوان في عدن لم يميزوا بين الوحدة وعلي عبد الله صالح واستهدفوا الوحدة في شخص

علي عبد الله صالح، وإن هذا المشروع ليس له مستقبل بعد أن وافق علي سالم البيض على الوحدة عام ١٩٩٠م، وانتهت بقيام الوحدة دولتي اليمن السابقتين اللتين كان معترفاً بهما عربياً ودولياً، وأخشى أن هذا القرار سيدمر الجنوب، وأن إخواننا في صنعاء لا يمكن أن يتخلوا عن الوحدة، بعضهم من منطلق الإيمان بها، وآخرون لأطماعهم بأرض الجنوب والنفط الذي يسعون للسيطرة عليه، أو ما سمّاه البعض «وحدة الحقول»، وقال لي أحدهم: قد تخسر حكام الخليج، فقلت له: المهم ألّا أخسر تاريخي، وإنني سأتصالح معهم بعد شهر أو شهرين أو سنة أو سنتين، لكن من الصعب أن أتصالح مع نفسي إذا اتخذت مثل هذا القرار. وبعد دخول ما سُمّي قوات الشرعية أو قوات الزمرة أنصارنا عدن في ٧/ ٧/ ١٩٩٤، كلف علي عبد الله صالح من يهاجمني في صحيفة (١٤ أكتوبر) مكافأة لي على موقفي، لأن المواطنين رفعوا صوري عند دخول القوات الشرعية إلى عدن.

في نهاية عام ١٩٩٤م التقيت الشيخ زايد لأول مرة منذ حرب الاقتتال والانفصال وعاتبني يومذاك سائلاً:

هل أنت مع الشمال أم الجنوب؟

فأجبت: أنا مع اليمن.

سأل: هل أنت مع علي عبد الله صالح؟

قلت له: أنا مع الوحدة.

وقال: لابد من ردّ الاعتبار للجنوب وأبنائه.

قلت له: أنا معك.

سألني: ما الحل؟

أجبته: نريد وحدة على طريقة الإمارات.

قال: أنا تعبت كثيراً من أجل وحدة الإمارات، فأنا صرفت مالاً وكسبت رجالاً، وعلي عبد الله صالح ضيع الرجال من أجل المال، فهو لا يريد إلا بترول الجنوب فقط. كان زايد مستاءً من موقف علي عبد الله صالح ووقوفه إلى جانب صدام عند احتلال الكويت ومحاولة احتلال الخليج.

قال إنّ علي عبد الله صالح يريد أن تصبح الإمارات إحدى محافظات صدام حسين وإنه يشتمني بالتلفونات.

قلت له: أنت كبير والكبير يبقى كبيراً.

انتهى الجفاء بيني وبين الشيخ زايد، وعادت الأمور إلى مجاريها، ولم تنقطع الاتصالات واللقاءات بيننا حتى وفاته (رحمه الله).

الإمارات بعد زايد

تسلّم نجله الشيخ خليفة بن زايد رئاسة الدولة بعد وفاته مباشرة، وليس كما نص عليه الدستور، أي بعد ستين يوماً من وفاة الرئيس، وذلك بعد التشاور بين حكام الإمارات والموافقة عليه بالإجماع، ولم تستغرق العملية أكثر من ٣٠ دقائق، كما حدثني بذلك الشيخ حميد النعيمي عضو المجلس الأعلى للاتحاد حاكم إمارة عجمان. كان الانتقال سلساً بفضل الأسس التي أرساها زايد في هذه الدولة الفتية والغنية، فقد ترك بلاده بلا ديون وبلا أعداء، وهم ينعمون بالأمن والاستقرار بفضل سياسته وحكمته وعدله، ولم تتعرض الدولة لأي هزة كما يحدث في كثير من البلدان عند انتقال السلطة من حاكم إلى آخر، بل إن الحنين من الشعب مواطنين ووافدين بقي إليه وإلى ذكراه.

بقيت على اتصال مع الدولة وحكامها وعدد كبير من الأصدقاء فيها، وقد مارس الرئيس السابق علي عبد الله صالح ضغوطاً ضد بقائي فيها، خصوصاً بعد وفاة الشيخ زايد الذي كان يرفض الضغوط التي كان يمارسها علي عبد الله صالح ضدي، وكان يسأل عني باستمرار، سواء كنت في الدولة أو خارجها. وأتذكر أنه في آخر لقاء معه، وهو بمنزلة لقاء الوداع، طلب من المراسم ترتيب لقاء غداء، وعندما كنت متوجهاً للسلام عليه، طُلبَ مني ألّا أشدّ على أصابعه وألّا أتحدث معه طويلاً، لأن وضعه الصحي لا يسمح بذلك، وعندما شاهدني وقف وهو مبتسم متكئاً على عصاه ويتحدث بأعلى صوت مازحاً: لماذا تقاطعنا ولا تزورنا؟ سأضطر إلى إرسال البوليس لإحضارك، فسلمت عليه وقبّلته وقلت له: إنني لا أريد أن آخذ من وقتكم، وأعرف مشاغلكم الكبيرة والكثيرة، فقال: لا شيء يشغلني عنك، وطلب مني أن أجلس إلى جانبه قبل أن أسلّم على الواقفين عن يمينه، وفي مقدمتهم وليّ

عهده خليفة، بعد أن شدني جلست إلى يساره والكاميرات مسلطة علينا وقال لي: أريدك أن تتحدث معي اليوم بصراحة وتهمس بأذني عندما أسألك، فقلت له: حاضر.

السؤال الأول: هل منح أولادك الجنسية، فأجبته بنعم، فقال: هل أنت صادق معي؟ قلت له: نعم.

السؤال الثاني: هل تسلمتم البيوت والمزارع؟ فأجبت بنعم.

السؤال الثالث: هل أُعطي لك برج في أبوظبي كما وعدتك؟ لأنني سأرفع رأسك ولن تحتاج وأولادك إلى أحد، فقلت له: لقد وعدوني، ونأمل أن يكون خيراً. قال: أرجو أن يكون كلامك صحيحاً.

كان هذا الحديث بحضور أولاده وفجأة أشار بيده إلى أحد أولاده، وجاء إليه وجلس إلى ركبتيه وابتعدت عنه قليلا وشعرت بأنه كان يتكلم عن البرج الموعود، وحقيقة الأمر أنني كذبت عليه، لأنني لا أريد أن أفسد عليه فرحة يوم العيد فهو يستقبلني ويستقبل الآخرين في هذه المناسبة.

هذه هي المرة الثالثة التي سألني فيها عن الجنسية للأولاد. وعند الانصراف سار إلى جانبي أحد أولاده، وسألني: ماذا دار بينك وبين الوالد؟ فقلت له: إنه سألني عن هذه الأمور التي أشرت إليها، وقلت له إنني لم أخبره بالحقيقة، لأنني لا أريد أن أزعجه بهذه الأشياء الصغيرة.

وبعد وفاة الشيخ زايد بفترة، بدأوا بسحب الجوازات، وأعطونا إنذاراً بالخروج من الشقق السكنية في أبوظبي والمنزل الذي أسكنه في شارع الخليج العربي بالقرب من منزل مانع سعيد العتيبة وزير البترول. وقد جاءت هذه الإجراءات بضغط من الرئيس علي عبد الله صالح الذي قال لي في آخر مكالمة لي معه، إنه سيلاحقني في الإمارات وسورية ومصر.

وقد رددت عليه قائلا: إذا حاصرتني في الإمارات فسأحاصرك في صنعاء، وإذا حاصرتني في دمشق فسأحاصرك في قصر الرئاسة، والبادي أظلم، ولن أتحدث معك بعد الآن إلّا بعد خروجك من السلطة.

وهذا ما حصل وتحدثنا بعد خروجه من السلطة وفتحنا صفحة جديدة من العلاقات

بيننا. وفعلاً طلب من القيادة المصرية إبعادي، كما حدثني اللواء عمر سليمان مدير المخابرات السابق، وقال إنه لن يدخل مصر وأنا موجود فيها عام ٢٠١٠م ولكنهم لم يستجيبوا لطلبه، ولم أكن لأصدق أن الأمر وصل به إلى هذا الحد.

توالت الضغوط على الإمارات لإخراجي من هذه الدولة والحد من نشاطي وعلاقاتي مع كثير من المسؤولين فيها، وخصوصا بعد أن تحركت الساحات الجنوبية وبعض مناطق الشمال ضد نظام علي عبد الله صالح، وتعاظم الحراك الجنوبي ضده، وبعد أن رفع شعار التغيير لإسقاط نظامه.

العلاقات مع السعودية

علاقة اليمن بالجزيرة العربية علاقة تاريخية قديمة بحكم الموقع والجوار الجغرافي، وبحكم التاريخ الذي شهدته أزمنة وعصور قديمة كانت فيها اليمن مهداً لحضارة إنسانية عريقة أسست عدداً من الممالك والدول التي كانت مصدراً للرخاء والسلام وللعلم أيضاً.

في فجر الإسلام توافد اليمانيون إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة حيث دخلوا في دين الله الجديد أفواجاً وجماعات، ما استدعى فيهم قول النبي محمّد (ص): «أتاكم أهل اليمن أرق قلوباً وألين أفئدة. الإيمان يمان والحكمة يمانية»، منشرحاً ومستبشراً خيراً بدخول اليمنيين واعتناقهم الدين الحنيف من غير غزو ولا قتال، موقناً أن اليمنيين الذين هم أصحاب حضارة ومدنية وأولو بأس شدشد وقوة (كما جاء في القرآن الكريم) سيكونون مصدر قوة ومنعة للإسلام. وهم الذين نصروه في مكة واستقبلوه في المدينة هارباً من قريش. وكان اليمنيون في طليعة الجيوش الإسلامية التي حملت لواء الدعوة إلى أرجاء المعمورة حتى وصلت بها إلى الأندلس غرباً والصين شرقاً. واليوم لا تزال اليمن تُعَدّ عنصراً جغرافياً وبشرياً وسياسياً مهماً وأساسياً لاستقرار أمن المنطقة وسلامها وهم الذين وسّعوا رقعة الوطن العربي من المحيط إلى الخليج، وكما قال زايد عنهم (إنهم أصل العرب).

أما العلاقات اليمنية – السعودية فقد نحت نحواً بعيداً عن الاستقرار بعد أن تأسست في اليمن والجزيرة ثلاثة كيانات سياسية متنافرة: المملكة اليمنية والمملكة السعودية والجنوب

المحتل من قبل بريطانيا. ونتيجة للوضع المعقد، الذي نشأ مع انسحاب العثمانيين من اليمن في عام ١٩١٨م، ظهر ثلاثة منتصرين، هم: بريطانيا في الجنوب، بحكم نتائج الحرب العالمية الأولى، والملك عبد العزيز آل سعود الذي توسعت سلطته من نجد إلى الحجاز، ورغب في المزيد، لأنه لم يكن هناك في الجزيرة أي دولة أو كيان سياسي بالمقاييس الجيوسياسية، والإمام يحيى حميد الدين كان المنتصر الثالث الذي نجح بعد خروج الأتراك العثمانيين في فرض سلطته على ما سُمّي فيما بعد «المملكة المتوكلية اليمنية». وبغية تثبيت سلطات الدولتين الجديدتين ودعائمهما، خاض الإمام يحيى وابن سعود الصراع من أجل توسيع نفوذهما: ابن سعود بعد أن استقر له الأمر في نجد والحجاز (١٩٢٤-١٩٢٦م) وتوسع في البحر الأحمر وخليج العقبة والخليج العربي طمح في التوسع باتجاه اليمن. والإمام يحيى لم يرغب في التخلي عن الأراضي اليمنية لخصمه تحت أية ظروف. وكانت النتيجة حرب عام ١٩٣٤م التي تمكن السعوديون فيها من هزيمته. واضطر الإمام يحيى تحت ضغط الإنكليز في الجنوب، وضغط المتواطئين من الزعماء في المناطق اليمنية الشمالية مثار الخلاف (عسير وجيزان ونجران) إلى توقيع اتفاقية الطائف في ٢٠ مايو ١٩٣٤م التي تنازل بموجبها الإمام يحيى عن المناطق الثلاث لابن سعود وفق شروط تسهيلية غير ذات قيمة منها حرية انتقال المواطنين اليمنيين وحرية تسليم الخصوم السياسيين، إلخ...

لعل أهم ما في الاتفاقية شرط تجديدها كل عشرين عاماً. ووفقاً لهذا الشرط جددت الاتفاقية في عام ١٩٥٤م. وفي عام ١٩٧٤م طلبت السعودية تثبيت الحدود بين البلدين والانتهاء من مسألة تجديد الاتفاقية كل عشرين عاماً. ورغم أن القاضي عبد الله الحجري رئيس الوزراء اليمني حينذاك قد أبدى بعض التنازل أمام السعوديين، لكن الاتفاقية بشروطها الجديدة لم تنل تصديق الحكومة اليمنية في صنعاء عليها. وقد اغتيل القاضي الحجري بعد ذلك في لندن، وأيضاً اغتيل محمد أحمد النعمان وزير خارجيته في بيروت. ولم ترسَّم الحدود البرية والبحرية بين المملكة واليمن إلا مؤخراً في ١٠ يونيو ٢٠٠٠م، حين اتُّفق على الترسيم بموجب معاهدة وقعها الرئيس علي عبد الله صالح مع القيادة السعودية، وهو

ما لم يفعله الإمام نفسه أو من أتى بعده، كما قال لي ذلك الشيخ سنان أبو لحوم، وأضاف أن الموقعين قبضوا ثمن هذا الترسيم.

مرت العلاقات اليمنية السعودية طوال الفترات السابقة بسنوات قاسية، شابها التوتر في معظم الأحوال باستثناء أوقات قليلة سادها ودّ متبادل على حذر، كان لا يدوم طويلاً.

ورغم أن بعض القيادات في «اليمن الديمقراطية» قد أساءت بموقفها إلى العلاقات مع الجيران عموماً، إلا أن للسعوديين أيضاً دورهم وأسبابهم الخاصة التي أثرت وتؤثر على الدوام في سياستهم تجاه اليمن. وشكك البعض في وصية الملك عبد العزيز بن سعود لأولاده، التي مفادها:

«خيركم وشركم من اليمن».

قرأت عن هذه الوصية لأول مرة من أحد المستشارين الأميركيين الذين عملوا مع الملك عبد العزيز الذي نشر مذكراته فيما بعد، وقد أورد فيها الرواية السابقة. وصدر في حينه نفي سعودي قاطع عبر أجهزة الإعلام لرواية المستشار الأميركي، وصورت المسألة بعد ذلك على أنها نوع من المبالغات الإعلامية.

غير أن القاضي عبد الرحمن الإرياني رئيس المجلس الجمهوري اليمني (١٩٦٧-١٩٧٤م)، حدثني أنه أيضاً كان يعتقد أن المسألة لا تتعدى ذلك حتى شاءت الظروف أن يجتمع إلى الملك فيصل في عام ١٩٧٤م على هامش قمة «لاهور» بباكستان. ودار بين الزعيمين حديث طويل تناول العلاقات بين البلدين الجارين. وأحسّ القاضي الإرياني بأن الملك فيصل كان يتحدث بقلق وانفعال ويحذّر من الخطر الشيوعي القادم من عدن وصنعاء. وقال له: «إن في اليمن سوفيات وصينيين وناصريين وحركيين وبعثيين سوريين وعراقيين، وإن ذلك يشكل خطراً كبيراً علينا وعليكم». ويضيف لي القاضي الإرياني: «حاولت أن أهدئ من روع الملك فيصل، وأوضحت له أن كل هذا الذي يشير إليه موجود في كثير من الدول العربية، وليس في اليمن وحدها، وأن نشاطهم في اليمن محدود ولا يشكل أي خطر على الأوضاع عندنا». لكن الملك فيصل صرخ بعصبية وقال للقاضي الإرياني: «أنا لا أخاف عليك، بل أخاف على نفسي، وقد حذرنا الوالد رحمه الله بقوله: خيركم وشركم من اليمن!»

وأضاف القاضي عبد الرحمن الإرياني: «لحظتئذ أيقنت أن الوصية حقيقية».

وهكذا يبدو لي أن الخوض في العلاقات اليمنية السعودية طويل ومعقد، وقد كتب الكثير في هذا الموضوع الحساس. وما زال الكثير طي الكتمان. والمهم في هذا الحيز أنني سأتناول كيفية سَير العلاقات بين جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية والمملكة العربية السعودية..

بالرغم من أن السعودية انشغلت بالأحداث في شمال اليمن بعد قيام ثورة ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢م وسقوط النظام الإمامي الملكي هناك، حيث استشعرت الخطر على النظام السعودي نفسه من امتداد الأفكار التحررية القومية التي كانت تجتاح المنطقة العربية في تلك الفترة تحت تأثير ثورة يوليو المصرية وزعيمها جمال عبد الناصر ونشوء دول قومية تحررية في كل من العراق وسورية والجزائر، والتهديدات التي أطلقها في الهواء نائب الرئيس اليمني عبد الرحمن البيضاني[١] بضرب قصور الرياض، إلا أن عيون السعودية لم تكن بعيدة عما يجري في عدن والمحميات، حيث أيدت قيام حكومة الاتحاد في عام ١٩٥٩م التي أنشأها البريطانيون، وقدمت إليها مساعدات من ضمنها مشروع طريق عدن – امعين – المكلّا الذي أُنجز إلى منطقة أمعين فقط، واستكمله الصينيون بعد الاستقلال إلى المكلّا عاصمة محافظة حضرموت.

مفاوضات الاستقلال وكمال أدهم

أرسل السعوديون، الذين كانوا يترقبون بقلق وخوف أحداث الثورة المسلحة على الإنكليز وحتمية خروجهم من عدن وبقية مناطق الجنوب، وفداً إلى جنيف ليراقبوا من كثب محادثات الاستقلال بين بريطانيا ووفد الجبهة القومية، وكان هذا الوفد برئاسة الشيخ كمال أدهم مدير المخابرات السعودية، الذي نزل في فندق «هيلتون» حيث كان ينزل الوفد الجنوبي في المباحثات. وعلى هامش المؤتمر عقد الوفد السعودي مباحثات مع

(١) عبد الرحمن البيضاني: سياسي ودبلوماسي يمني ولد عام ١٩٢٦م. أصبح نائباً لرئيس مجلس قيادة الثورة وتولى رئاسة الوزراء وعدة حقائب وزارية بعد ثورة ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢م في الجمهورية العربية اليمنية.

بعض العسكريين الجنوبيين، منهم محمد أحمد السياري وعبد الله صالح سبعة، وأبدى السعوديون لهم استعدادهم لتقديم المساعدات، لكن بعض الضباط البريطانيين والجنوبيين نصحوا السعوديين على ما يبدو بعدم الاستعجال في دعم النظام الجديد، على أساس أنه لن يصمد طويلاً، وسيسقط تحت تأثير الأزمة الاقتصادية والمالية التي سيواجهها حتماً بعد أن تسحب بريطانيا الدعم المالي الذي تعهدت به لحكومة الاستقلال، وقد أكد ذلك الشيخ كمال أدهم لوزير خارجيتنا محمد صالح مطيع فيما بعد. ويعود سبب لقاء الشيخ كمال أدهم الضباط إلى رفض قحطان الشعبي رئيس وفد الجنوب إلى مباحثات جنيف لقاءه والتحدث إليه خشية المزايدات، وفضل ترك الموضوع لتعالجه الحكومة القادمة.

وأعتقد أنه كان من الممكن والمفيد الاستفادة من العرض السعودي، خصوصاً أنه لم تكن بين الجبهة القومية والسعودية حينذاك أية خلافات أو مشاكل من أي نوع بعكس علاقاتها مع النظام في صنعاء والمصريين والتي كان يشوبها كثير من التوتر. وفي مرحلة لاحقة سيطر التطرف على اتجاهات الجبهة القومية ابتداءً من المؤتمر الرابع ١٩٦٨م، مروراً بما جاء في وثيقة «جماعة حضرموت»، وبلغ هذا التطرف ذروته في نص برنامج الجبهة القومية المُقر في المؤتمر الخامس عام ١٩٧٢م، الذي دعا صراحة إلى إسقاط الأنظمة (الرجعية في الخليج والجزيرة)، ما جعل السعودية تعطي نفسها المسوّغ والحق في محاولة إسقاط النظام في عدن لأنه أعطى نفسه الحق في إسقاط أنظمتها، ونصح حينذاك السوفيات بمراجعة البرنامج وشطب فكرة إسقاط الأنظمة، لأن هذا يشكل خطراً على النظام في عدن، إلا إذا كنتم أكثر ثورية منا فهذا شأنكم وسبق أن نصحت القيادة الصينية بمثل هذا الكلام، لكن علي عنتر قال لهم إننا سنسقط الأنظمة الملكية في الخليج، فعلّق نائب الرئيس الصيني، قائلاً: «يبدو أنكم أكثر ثورية منا، وعليكم أن تحذروا السلاطين الجدد في عدن»[١].

غير أن العلاقات بين عدن والرياض كانت قد ساءت حتى قبل هذا التاريخ والإعلان،

---

(١) ورد ذلك في محضر بين وفد اليمن الجنوبي الى الصين برئاسة فيصل عبد اللطيف ونائب الرئيس الصيني ونشر هذا المحضر في كتاب للسيد هانئ الهندي عن العلاقات الصينية العربية.

إذ بدأت السعودية تدريجاً، ومنذ ما بعد استقلال اليمن الجنوبية، وخصوصاً في أعقاب خطوة ٢٢ يونيو ١٩٦٩م، تناصب النظام الجديد في عدن العداء، حين شرعت في احتضان المعارضة الجنوبية: السلاطين والمشايخ وبعض العسكريين الذين اختلفوا مع السلطة الجديدة في أحداث ومناسبات مختلفة.

لم يقف الأمر عند حدود الدعم السياسي للمعارضة الجنوبية، بل تطور إلى حدّ تشكيل «جيش الإنقاذ» لدولة حضرموت الكبرى، كما سمي حينذاك، وإلى دعم أعمال التخريب داخل أراضي اليمن الجنوبية، ومنح المعارضة إذاعة ناطقة باسمها موجهة إلى الجنوب تسمى «صوت الجنوب الحر». وشكلت معركة «الوديعة» بين السعودية واليمن الجنوبية بداية للكثير من التعقيدات الحدودية والسياسية في علاقات البلدين الجارين. وقد تحدثت عن تفاصيل هذه المعركة والظروف التي أدت إليها ونتائجها في مكان آخر من مذكراتي هذه حول الدولة «العنف والعنف المضاد».

في عام ١٩٧٠م كنت وزيراً للدفاع، وقد استجابت بلادنا لوساطة «الهلال الأحمر»، وبناءً على ذلك أفرجنا عن الأسرى السعوديين الذين أسرتهم قواتنا في معركة الوديعة كبادرة حسن نية من جانب حكومتنا تجاه المملكة العربية السعودية، غير أن هذه الخطوة لم تؤد إلى تحسن العلاقات بين البلدين، بل إن حرب الوديعة أدت إلى تحسين العلاقة بين صنعاء والرياض خوفاً من الخطر الشيوعي كما كانوا يسمونه، ومصائب قوم عند قوم فوائد (كما يقال)، وكان علي سالم البيض وفيصل العطاس ووزير الدفاع محمد صالح عولقي وقائد الجيش علي عبد الله ميسري قد ناقشوا موضوع استعادة الوديعة مع الرئيس سالم ربيع علي بحضوري في نوفمبر ١٩٦٩م، وكنت حينها وزيراً للإدارة المحلية، وكان البيض يطالب بتحرير الوديعة واستعادة جزر كوريا موريا التي كانت سلطنة عمان تدعي أنها أهدتها إلى الملكة فكتوريا وأعادتها بريطانيا إلى عُمان عند انسحاب الاستعمار البريطاني من عدن، وقد وافق الجميع على تأجيل الحديث حول جزر كوريا موريا الى وقت لاحق واتُفق على تحرير الوديعة، ما أدى إلى نشوب حرب بين الجنوب والسعودية، أدت إلى القطيعة بين البلدين.

نصيحة القاضي...

شرّ لا بد منه

أفادت السعودية من تحسين علاقاتها مع النظام في صنعاء على أثر المصالحة التي عُقدَت بين الجمهوريين والملكيين عام ١٩٧٠م، حيث ركزت جهودها آنذاك على اليمن الديمقراطية. ازداد تمويل معسكرات المعارضة الجنوبية في الشرورة والبلق ووادي عبيدة والجند، وبلغ تصعيدها للأمور إلى حدّ دفع حكومة الشمال إلى شنّ حرب على الجنوب في سبتمبر ١٩٧٢م وللأسف، فإن الحكومة الليبية أيضاً دعمت هذه الحرب، وإن كان ذلك تحت شعارات وحدوية وبتنسيق مع حكومة صنعاء التي كان يرأسها في ذلك الحين الأستاذ محسن العيني. وكان يقف وراءها اتجاهان: اتجاه يسعى لإسقاط النظام في عدن وتسليمه للمعارضة الجنوبية الموالية للسعودية ولبعض المسؤولين في صنعاء. واتجاه آخر يسعى أيضاً لإسقاط النظام، ولكن مع ضم الجنوب إلى الشمال بالقوة، أي إعادة الفرع إلى الأصل كما كانوا يدعون ويرددون، وقد أخفق كلا الاتجاهين في تحقيق الأهداف التي كانا يسعيان إليها، وكانت عدن عصيّة كعادتها على كل من يحاول غزوها أو احتلالها.

رغم الحرب العسكرية والإعلامية والسياسية والاقتصادية التي خاضتها السعودية ضد بلادنا، إلا أن إمكانية تطبيع العلاقات كانت واردة. وأشير إلى الحديث الذي دار بيني وبين القاضي عبد الرحمن الإرياني الذي كان وقت إجراء هذا الحديث في عام ١٩٧٠م رئيساً للمجلس الجمهوري في صنعاء، (وقد تناولت هذا الحديث في مكان آخر) لكن لا بأس من تكراره هنا أيضاً، حيث قال لي القاضي الإرياني:

ننصح بتطبيع العلاقات مع السعودية، وعليكم أن تفعلوا ذلك الآن، وختم حديثه قائلاً: «إذا أردتم ذلك، فنحن جاهزون للوساطة بينكم وبين السعوديين. وقد جربنا محاربتها قبلكم وتعبنا، وفي الأخير اضطررنا إلى تسوية العلاقات معهم. فعليكم ألّا تفوتوا الفرصة والوقت». «والسعودية شرٌّ لا بد منه». وابتسم وسكت، وانتهت المقابلة بهذه الكلمة، وحينئذ دخلت صنعاء في شهر عسل وفي علاقات غير متكافئة مع الرياض، وكان المتضرر من ذلك تجار الحروب والنظام في عدن، بعد أن نقل بعضهم بنادقهم من الحدود مع السعودية إلى

الحدود مع عدن، ورغم ذلك لم نكن ضد المصالحة والسلام في شمال اليمن بعد حروب الجمهوريين والملكيين التي أتت على الأخضر واليابس.

اتجاهات نحو المصالحة

بين عدن والرياض

في السعودية نفسها، كان هناك اتجاه يسعى لإجراء المصالحة مع النظام في اليمن الديمقراطية، وقد مثله في ذلك الوقت الأمير فهد بن عبد العزيز الذي كان وزيراً للداخلية، وقد حاول الاستعانة بالعقيد معمر القذافي الذي سعى للقيام بدور الوساطة بين الرياض وعدن، من منطلق اقتناعه بروابط الأخوة التي تجمع بين البلدين الشقيقين. لكن الأمور في عدن كانت تسير في اتجاه معاكس لفكرة المصالحة، إذ إن هذه المرحلة كانت المرحلة التي سادت فيها وتغلبت الشعارات المتطرفة على سياسة اليمن الديمقراطية وأدائها. وكان الصراخ يملأ كل مكان: «دمروا الإمبريالية!» «دمروا الرجعية!». هذه الشعارات لم يصنعها المناخ العام المحيط فحسب، بل انزلقت إليها الحكومة وأصبحت موقفاً فكرياً وسياسياً ملزماً دون أدنى تمييز بين الخط السياسي والموقف المبدئي، فضلاً عن القدرة على تحقيق ذلك وإمكانيته.

في اليمن الديمقراطية أيضاً كان يتبلور مع الوقت اتجاه لتطبيع العلاقات مع السعودية ومع بقية الجيران في الخليج العربي. ولعل مرد ذلك إلى أسباب عديدة منها عوامل داخلية كانت آخذة في التبلور في التنظيم السياسي الموحد الحاكم «الجبهة القومية»، ومنها ما أملته الصعوبات الاقتصادية التي كانت في ازدياد مستمر، كذلك كان لبعض العوامل الخارجية، خصوصاً حرب اكتوبر ١٩٧٣م بين العرب وإسرائيل تأثير في تبلور هذا الموقف الداعي إلى المصالحة بين عدن والرياض. وظهر في القيادة اتجاه يمثله رئيس الدولة سالم ربيع علي، ووزير الخارجية محمد صالح مطيع، يرغب في تطبيع العلاقة مع السعودية. لكن قبل الدخول في تفاصيل هذه العملية الشائكة التي أدت إلى العلاقات الرسمية بين البلدين الجارين، والتي دارت معظم أدوارها خلف الكواليس وسببت نتائج غير سارة لأبطالها، كما سيرد بعد قليل، قبل ذلك أحب أن أشير إلى تفاصيل أول لقاء حصل بيني وبين الملك

فيصل، وكنت حينذاك رئيساً للوزراء وأحضر على رأس وفد بلادنا مؤتمر لاهور الإسلامي، بينما كان الملك فيصل على رأس وفد بلاده. وقد جرى اللقاء مصادفة، لكنني لم أنسه على الإطلاق، رغم مرور كل هذه السنين.

بعد انتهاء المؤتمر، انتقل الملوك والرؤساء إلى مطار لاهور للمغادرة إلى بلدانهم، ومنها وفد بلادنا. وكان ضمن الوفود المغادرة في اليوم نفسه، الوفد السعودي برئاسة جلالة الملك فيصل الذي استغرق في حديث مع الرئيس الباكستاني بينما اندمجت أنا في حديث مع رئيس الوزراء ذو الفقار علي بوتو.

بعد مرور فترة، أعلن المذيع الداخلي أن طائرة الملك فيصل جاهزة للإقلاع، فتهيأ للمغادرة، لكن الوفد السعودي عاد بعد قليل إلى صالة التشريفات بعد أن اكتشفوا خللاً في طائرتهم، وجلس الملك فيصل قريباً من باب الخروج، وكانت الوفود التي ينادونها للتحرك إلى طائراتها تمرّ وتسلّم على الملك فيصل ووفده.

وبعد مرور وقت قصير، أعلن المذيع أن طائرتنا جاهزة للإقلاع.

نهضت وأعضاء الوفد المرافق لي مع رئيس الوزراء علي بوتو، وحسبما يقتضي الواجب، كان عليّ أن أصافح الذين يجلسون في الطريق إلى الباب الخارجي لقاعة التشريفات، وعندما اقتربت من أعضاء الوفد السعودي نهضوا جميعاً لتحيتي ما عدا الملك فيصل، فبدأت بمصافحة أعضاء وفده، وكنت في قرارة نفسي أفكر، قد ينهض عندما أقترب منه، واقتربت منه بعد أن انتهيت من مصافحة الجميع قبله، ووقفت قبالته. لكنه ظل جالساً على مقعده، وهو مطرق برأسه إلى الأرض ويعبث بخيوط عباءته الذهبية (كعادته عندما لا يود الحديث مع أحد). وسمعت الأمير سلطان بن عبد العزيز وهو يتحدث مع الملك قائلاً: «إن الرئيس علي ناصر يودّ أن يودعكم»، ولم يلتفت إليه ولا إليّ، لأن الملك فيصل كان يعتبر أننا شيوعيين في عدن وأن الشيوعية هي بنت الصهيونية والصهيونية هي بنت الشيوعية، والصهيونية هي من قتلته في الأخير عندما كان يصرّ على الصلاة في المسجد الأقصى. ولهذا انصرفت دون السلام عليه.»، وتكرر معي مثل هذا الموقف عام ١٩٨١ في قمة الطائف للدول الإسلامية، وكان السلطان قابوس يجلس في نهاية صالة التشريفات، وعندما طلبت من التشريفات أن نتحرك، كان عليّ أن أسلّم على السلطانـ إذا وقف وتقدم

خطوة أو خطوتين فسأتقدم ثلاث خطوات، وعندما شاهدني وقف وتقدم أكثر من خطوة والتقينا في المنتصف وتبادلنا السلام بطريقة ودية، وكان هذا اللقاء العابر بداية لتطبيع العلاقة بيننا وبين السلطان والسلطنة بعد قطيعة استمرت من ١٩٦٧ حتى ١٩٨٢. كان الملك فيصل يمثل القوة والجاه، وتبوأ خلال السنوات الأخيرة بعد عزل الملك سعود مركزاً مكّنه من اكتساب نفوذ واسع داخل بلاده وخارجها، وأصبح مرهوب الجانب وتحت إمرته إمكانات السعودية الواسعة، بينما كنت قادماً من عالم الفقر والثورة. عالمان مختلفان، لكن المفروض كسياسيين أن نبذل جهداً خارقاً للتقريب بين هذين العالمين. وكان الملك فيصل مشهوراً بعدائه للشيوعية جهاراً، وكان يوازي بين الحركة الصهيونية والشيوعية، وله قول اشتهر عنه يقول فيه: «الشيوعية بنت الصهيونية!»(١). وانطلاقاً من ذلك، كان يحارب النظام في اليمن الديمقراطية ويعتبر نظاماً شيوعياً. كنا بمرور الزمن نحسّ بأن هناك شيئاً ما يبقي مسافة بيننا، ورغم أنه في وقت لاحق وجدنا وسيلة للتفاهم مع أشقائنا السعوديين، وتبادلنا التمثيل الدبلوماسي، وطبّعنا العلاقات بين البلدين الجارين، إلا أنها لم تتحول في يوم ما إلى وئام. وظلت هناك على الدوام أشياء تباعد بيننا.

وساطة السادات

لم يكن ممكناً استمرار العداء والقطيعة بين عدن والرياض إلى الأبد، فلكل شيء ظرف وتاريخ وأشخاص. وقد مرّ البلدان بظروف وعلاقات كان العداء فيها هو السائد، لكنهما في الأخير وجدا طريقهما الحقيقي المعبّر عن اللحظة المواتية. وقد مرّت هذه العملية بتجربة معقدة جداً حددتها جملة من العوامل الذاتية والموضوعية. والمهم أنهما استطاعا أخيراً في اللحظة المواتية تجاوز خلافاتهما التي بدت لبعض الوقت وكأنها أزلية ولن تجد الحل. وفي هذه الفترة أخذ خطان يتبلوران في عدن والرياض داخل القيادة السياسية لمصلحة تطبيع العلاقات بين البلدين.

---

(١) إن موقف الملك فيصل المعادي للشيوعية على نحو واضح، وربطه بينها وبين الصهيونية أرهق الأميركان وغالى كثيراً، واستخدم ما اعتقد أنه حق صحيح حول هذه العلاقة لجعل العداء لإسرائيل كالعداء للشيوعية دينياً. وبسبب هذا واستخدامه النفط في حرب تشرين ١٩٧٣م جرى التخلص منه.

اندلعت حرب أكتوبر ١٩٧٣، وشهدت العلاقات بين مصر واليمن الديمقراطية، بحكم دور هذه الأخيرة في تلك الحرب، فترة انتعاش. وكانت اليمن الديمقراطية كجزء من واجبها القومي، قد قدمت تسهيلات إلى السفن الحربية المصرية ووضعت تحت تصرفها جزيرة بريم (ميون)، ما مكن من سدّ مضيق باب المندب الاستراتيجي أمام السفن الإسرائيلية. اهتمت مصر بهذا الموقف وقدرته، وأظهرت حسن نية تجاه الرئيس سالم ربيع علي الذي أخذ ينسج هو الآخر علاقات مودة مع الرئيس المصري أنور السادات، كان من نتائجها السريعة الزيارة التي قام بها الرئيس ربيع للقاهرة ثم الإسكندرية واجتماعه بالسادات في يوليو ١٩٧٤م، وفي أعقاب هذا اللقاء تبادل الرئيسان الاتصالات والرسائل، ولعل أهم ما أثمرته هذه العلاقة، الوساطة المصرية لتحسين العلاقات ما بين اليمن الديمقراطية والمملكة العربية السعودية، وقد قام بها الدكتور أشرف مروان ممثلاً السادات.

دارت محادثات اتسمت بالسرية بين وزير خارجية اليمن الديمقراطية محمد صالح مطيع والشيخ كمال أدهم وممثلين ووسطاء سعوديين عديدين، ولعل المأخذ عليها أنها كانت تجري من غير إطلاع كامل للقيادة السياسية في عدن، واستخدمت فيما بعد سلاحاً ضد الرئيس ربيع ووزير خارجيته مطيع عندما حان وقت تصفية الحسابات السياسية والشخصية!

في إحدى الرسائل التي كُشف عنها فيما بعد والتي بعثها وزير الخارجية محمد صالح مطيع إلى الرئيس سالم ربيع علي من جدة بتاريخ ١٢/ ٧/ ١٩٧٥م حين كان يحضر مؤتمر وزراء خارجية الدول الإسلامية السادس جاء ما يأتي:

«اتصلنا اليوم بالشيخ كمال[١]. لا يزال يطرح نفس الموضوع السابق نفسه على أساس أهمّيته بالنسبة إليهم. شرحت له صعوبة الموضوع وقلت له بأنه يمكن أن نخطو خطوة خطوة، وأننا نحتاج إلى وقت للتحول[٢]، وعند حديثنا عن الموقف بيننا وبينهم قال رداً عليّ بأن هذا الموضوع يحتاج إلى وقت لأننا لا بد أن نهيئ الأجواء أكثر. وقال إنه سيبدأ لقاءاته مع العناصر المضادة ليعرف منهم (من) يمكن أن يقبل العمل معنا! طلبت منه لقاءات مع

(١) المقصود الشيخ كمال أدهم رئيس المخابرات السعودية حينذاك.

(٢) المقصود طرد السوفيات من عدن على غرار ما فعل الرئيس أنور السادات ـ ومن بعده سياد بري في الصومال.

المسؤولين الآخرين وقال إنه سيرتب ذلك، وكلف الأخ أحمد باكدم[١] صاحب خالد [٢] ليتصل بي ويكون واسطة بيني وبينه».

«اتصل بي الأخ أحمد باكدم الليلة وأعطاني أرقام تلفوناته واتصل بخالد وتحدث إلى خالد لألتقيه غداً عند أحمد باكدم رأيي بأن يكون خالد وسيطاً بيننا وبينه وسيكون رسوله دائماً ورأيه أن تستمر الصلة الثنائية وأيضاً عبر مصر الوسيلتان تستمران معاً. ورأى أحمد باكدم أن حل المشكلة ثنائياً يجب أن يكون الأول، ولكنه أكد أهمية (الموضوع الآخر) بالنسبة إلى الجماعة. قابلت الأخ أحمد السويدي وشرحت له الموضوع وقال بأنه سيبذل جهده معهم، ونصح بأن أقابل فهد لأنه أكثر تفهماً. وبينما كنا نتحدث حضر الأمير سعود لمقابلة أحمد السويدي وقطعت الحديث مع الأخ أحمد ليستمر مع الأمير سعود».

طرد الروس

يمكن أن نتوقف قليلاً عند هذه النقطة التي كان السعوديون يولونها كل هذه الأهمية، والتي أصبحت عقبة في وجه نجاح المحادثات التي كان يديرها في الكواليس محمد صالح مطيع، الرجل المحنك والدبلوماسي المجرب. كما كشف عنها فيما بعد، كان السعوديون يلحّون على الرئيس ربيع أن يتخلص من السوفيات أولاً كشرط يسبق تحسين العلاقات مع الرياض، وقد نصح الرئيس أنور السادات صراحة في لقاء لاحق مع وزير خارجيتنا مطيع في لقاء حصل بينهما في القاهرة في نيسان/ إبريل ١٩٧٦م بضرورة التخلص من السوفيات أسوة بما فعله هو بهم حين طرد الخبراء الروس في عام ١٩٧٢م. ورد في إحدى رسائل مطيع للرئيس ربيع والمؤرخة في ١٢/ ٤/ ١٩٧٦م التي بعثها من الكويت كتقرير مختصر عن زياراته لكل من القاهرة وبغداد والكويت ما يأتي[٣]:

«قابلني الرئيس السادات وشرح لي مشكلته مع السوفيات ونصحنا بأن لا نعطي

(١) أحمد باكدم، موظف في جهاز المخابرات السعودية.

(٢) خالد بن محفوظ، مدير البنك الأهلي.

(٣) هذه الرسائل حصلنا عليه من سالم صالح محمد الذي خلف محمد صالح مطيع في الخارجية ليثبت ولاءه للوطن وللقيادة، وقد تفاجأنا بهذه المعلومات لأنها تمت دون عليم القيادة وخصوصاً فيما يتعلق بتنويع مصادر السلاح وطرد الخبراء السوفييت.

السوفيات أي تسهيلات بحرية، وأنه ألغى اتفاقه معهم حول التسهيلات البحرية. كما نصحنا بأن لا ننجرّ وراء التصنيفات السوفياتية التي طُرحت في تقرير بريجنيف ووضع اليمن الديمقراطية ضمن الدول التقدمية التي لها علاقة ممتازة مع الاتحاد السوفياتي، وأشار أنه لا يمانع بأن نستفيد من السوفيات وأن نتعاون معهم لمصلحتنا الوطنية».

وبعد ذلك قام الجنرال محمد سياد بري بطرد الخبراء السوفيات وإيقاف التسهيلات التي كانت تقدمها الصومال إلى البحرية السوفياتية في موانئها.

أدى أشرف مروان[١] دوراً فعالًا في تبادل الرسائل بين عدن والرياض والقاهرة، حيث زار عدن غير مرة في زيارات سرية التقى خلالها الرئيس سالم ربيع علي[٢]، وكان أشرف مروان محل ثقة السادات الذي عينه سكرتيراً لشؤون المعلومات بناءً على نصيحة من كمال أدهم رئيس جهاز الاستخبارات السعودية حينذاك.

«وقد تمخضت جهود أشرف مروان في تقريب وجهات النظر بين عدن والرياض وتقديم شيكين بقيمة ١٠٠ مليون دولار كمساعدة مجانية ومبادرة لإثبات حسن نية الرياض تجاه النظام في عدن على طريق التطبيع.»

بداية التمثيل الدبلوماسي

بين عدن والرياض

المحادثات السرية جزئياً والعلنية فيما بعد أثمرت بعض النتائج، إذ ابتداءً من ٧ إبريل ١٩٧٦م بدأت شركة طيران اليمن الديمقراطية (أليمدا) بعد اتفاق مع شركة الطيران السعودية

(١) أشرف مروان (الملاك أو بابل أو الصهر) وهي أسماؤه الكودية، زوج ابنة الرئيس جمال عبد الناصر، صاحب الحياة الحافلة بالأسرار الذي سلّم الإسرائيليين ملفاً مليئاً بالوثائق المصرية الحكومية، وكذلك أبلغ الإسرائيليين بموعد حرب أكتوبر عام ١٩٧٣م. المصدر: الصحفي الأميركي هوارد بلوم، (محمد ثروت، «أشرف مروان الحقيقة والخيال»، مكتبة مدبولي ص ٩٩).

(٢) كان السعوديون قد قدموا مساعدات بمبلغ مليوني دولار نقداً وبعثوها مع أحمد باكدم الذي ورد ذكره في رسالة وزير الخارجية محمد صالح مطيع للرئيس سالم ربيع علي. وبما أن زيارة باكدم لعدن كانت سرية ولم تشعر بها الأجهزة الأمنية، فقد تعرض للتفتيش في المطار وضبط المبلغ معه.

بتسيير رحلات إلى جدة لأول مرة. وفاوض وزير الخارجية مطيع رسمياً في المملكة العربية السعودية، وبالنتيجة أُعلن في ٥ مايو ١٩٧٦م في كل من عدن والرياض تبادل التمثيل الدبلوماسي بين البلدين. وجاء في البيان الرسمي:

«انطلاقاً من روح الأخوة العربية والإسلامية وتنفيذاً للمبادئ التي تضمنها التصريح المشترك بإقامة العلاقات الطبيعية بين المملكة العربية السعودية وجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية، وحرصاً على تطوير أواصر التعاون بينهما، فقد قررت حكومتا البلدين الشقيقين تبادل التمثيل الدبلوماسي على مستوى السفارة».

النقاط الست

تضمنت النقاط الست التي اتُّفق عليها بين البلدين أساساً للعلاقة بينهما الآتي:

١- وقف الحملات الإعلامية.

٢- إغلاق المعسكرات.

٣- إقامة علاقة حسن جوار مع سلطنة عمان.

٤- إقامة علاقات دبلوماسية بين البلدين.

٥- عدم التدخل في الشؤون الداخلية للبلدين.

٦- العمل من أجل التعاون المثمر لصون الأمن والاستقرار والازدهار لشعوب المنطقة.

على أثر ذلك شهدت علاقات الرياض وعدن انفراجاً لم يسبق له مثيل، وخُفِّفَت اللهجة الإعلامية العدائية التي كانت سائدة، بما في ذلك حذف كلمة (رجعية) من قاموس إعلام اليمن الديمقراطي، وجرى تبادل الزيارات والوفود التي توجت بزيارة الرئيس سالم ربيع علي للسعودية في أغسطس ١٩٧٧م حيث وعده السعوديون بمساعدات عديدة لم ينفذوا شيئاً منها، ككهرباء مدينة عدن، وتكرير النفط السعودي في مصفاة عدن، وبناء طرقات ووحدة سكنية (نفذ مشروع الوحدة السكنية فيما بعد).

هكذا حصلت السعودية على التمثيل الرسمي لأول مرة في عاصمة اليمن الديمقراطية

عدن، وافتتحت لها سفارة في حيّ الدبلوماسيين في خور مكسر، وافتتحت عدن لها سفارة في الرياض.

الخط الساخن

بين ربيع وفهد

في أعوام ١٩٧٦، ١٩٧٧، ١٩٧٨م أدى الوضع الداخلي للرئيس سالم ربيع إلى إحباطات عززها شكوك السوفييت تجاهه واعتباره موالياً للصين، إلى آخر هذه التصنيفات التي غذتها عناصر عديدة إضافة إلى الاستخبارات السوفياتية، وقد استسلم لها الرئيس ربيع بعد أن فقد الأمل في الصينيين الذين رفضوا صراحة دعم جبهة تحرير عمان باعتبارها كما قال شو إن لاي رئيس وزراء الصين المحنك «جبهة وقيادات بلا أرض يقفون عليها أو ينطلقون منها»، وذلك خلال لقائه عبد الفتاح إسماعيل عام ١٩٧٢م. كان الموقف السوفياتي غير المفهوم من الانقلاب العسكري الشيوعي في السودان بقيادة هاشم العطا في عام ١٩٧١م، ودعم السوفيات نظام النميري ضد الحزب الشيوعي السوداني، وتخليهم عن زعيمي الحزب الشيخ الشفيع ومحجوب اللذين أعدمهما النميري، هذه الأمور مجتمعة دفعت ربيع إلى البحث عن بدائل وأصدقاء جدد...

غير أن السعوديين لم يقدموا إلى الرئيس ربيع في زيارته في يوليو ١٩٧٧م سوى وعود بمساعدات اقتصادية لم ينفذوا منها شيئاً. وأجرى الرئيس ربيع، من دون احتراز من المرامي السعودية، اتصالات مباشرة مع السعوديين دون علم القيادة خوفاً من رفضها لهذه العلاقة، وذلك بفتح خط ساخن بينه وبين ولي العهد الأمير فهد بن عبد العزيز الذي كان يتصف بالمرونة والذكاء والدهاء، وعبر هذا الخط الساخن ربما تم تبادل معلومات مع السعوديين عن لقاء عدن الذي جرى بين القيادة اليمنية الجنوبية وكل من الرئيس الكوبي كاسترو[١] والإثيوبي منغستو[٢] والصومالي سياد بري.

---

(١) كاسترو، فيديل: قائد ثوري فذ ورجل دولة كوبي ولد عام ١٩١٧م.

(٢) منغستو هيلا مريام: رجل دولة إثيوبي، والرجل القوي في السلطة.



زيارة فيديل إلى عدن

ووصل الأمر بالسعوديين إلى حد أنهم لم يكتفوا بالمعلومات الموجزة التي قُدمت إليهم، بل طالبوا أن تُرسل إليهم محاضر الجلسات!!! وكان هذا طلباً وسابقةً خطيرة في تاريخ العلاقات السياسية والدبلوماسية بين الدول، لكن السعوديين كما يبدو كانوا يسيرون على طريق تكبيل الرئيس ربيع وإجباره على تنفيذ سياستهم في البلاد، حتى قبل أن يتحققوا من مدى مقدرته على ذلك.

التنسيق بين صدام والسعودية للقيام بعملية عسكرية في عدن

الجدير بالإشارة أن السعوديين بعثوا خلال أحداث يونيو ١٩٧٨م عندما كانت تداعياتها لاتزال دائرة في عدن بوفد برئاسة الأمير تركي الفيصل إلى بغداد لمقابلة نائب الرئيس العراقي صدام حسين الذي كانت علاقتهم به ممتازة في ذلك الوقت. وطلب السعوديون من الرئيس

صدام تقديم دعم عسكري إلى الرئيس ربيع، لكن الحسم السريع للأحداث وتعييني رئيساً لمجلس الرئاسة لم يشجعا صدام الذي كانت تربطني به علاقة صداقة طيبة على التدخل وتنفيذ المطلب السعودي، كما حكى لي الرئيس صدام الذي أكد أن السعوديين قد اقتنعوا بوجهة نظره.

استمرت القطيعة بين اليمن الديمقراطية والسعودية حتى مؤتمر القمة العربي في بغداد في نوفمبر ١٩٧٨م حين نظّم الرئيس صدام حسين لقاءً بيني وبين الأمير فهد الذي كان ولياً للعهد في عهد شقيقه الملك خالد بن عبد العزيز.

كان اللقاء ودياً وبحضور صدّام حسين. طلب فهد فتح صفحة جديدة في العلاقة بين بلدينا، وأعرب عن سعادته لوجودي على رأس السلطة، وقال: صحيح، أنه كانت لنا علاقات طيبة مع الرئيس المرحوم سالم ربيع، وكانت وفاته خسارة لنا.

وأذكر أنه قبل لقاء قمة بغداد هذا بيني وبين الأمير فهد، قام كل من ياسر عرفات وخالد الحسن بتكليف سعودي بمهمة وساطة بين عدن والرياض. وقالا لي عندما اجتمعت بهما إن السعوديين يعترضون فقط على وجود القواعد السوفياتية والكوبية والفيتنامية عندكم. قلت لهما:

خذوا طائرة، وإذا أردتم، خذوا معكم مندوباً سعودياً ومندوباً يمنياً، واختاروا أي مكان تريدون في اليمن الديمقراطية واذهبوا إليه، وإذا وجدتم أي قوات مما ذكرتم، أترك الحكم لكم.

حينئذ ابتسم خالد الحسن وقال: يا أخ علي نحن وهُمْ ندرك عدم صحة هذه المزاعم. وبصراحة هم يخافون نهجكم السياسي لا أكثر وليس القواعد الوهمية.

عبد الفتاح يرفض!

في أواخر عام ١٩٧٩م وجه الملك خالد دعوة إلى عبد الفتاح إسماعيل الذي كان يشغل في هذه الفترة منصب الأمين العام للحزب ورئيس الدولة معاً، لزيارة المملكة العربية السعودية، على أمل استمرار العلاقات كما كانت أيام الرئيس ربيع. وعلى أي حال، فإن

تطورات الموقف في اليمن الديمقراطية سارت بسرعة كبيرة لم يتمكن معها عبد الفتاح إسماعيل من تلبية الدعوة حيث قدم استقالته في أبريل ١٩٨٠م وسافر إلى موسكو.

كان أول شيء وضعته ضمن أولوياتي السياسية بعد تسلمي مسؤوليات رئاسة الدولة والحزب، اتباع سياسة واقعية مع دول المنطقة، باعتبار أن المنطق إضافة إلى التجربة السابقة، أثبتا أن أي حديث عن تطوير البلد اقتصادياً واجتماعياً لن يحصل ما لم يتوافر الاستقرار السياسي والأمني أولاً بين دول المنطقة التي يؤثر بعضها في بعض، وكان من الصعب الحديث عن أي استقرار من غير تطبيع العلاقات بين بلدان المنطقة، وفي المقدمة السعودية بوابة الخليج العربي ومفتاح العلاقة مع الغرب والمنظمات الدولية.

زيارتي الأولى للسعودية

أصبح الحديث عن العلاقة مع العربية السعودية لا يثير الحساسية كما كان في الستينيات وبداية السبعينيات بعد أن تحسنت العلاقة بين صنعاء والرياض وبين القاهرة والجزائر ودمشق والرياض، وموسكو ودول الخليج. لكن مصلحة اليمن الديمقراطية كانت تكمن في إقامة علاقات طيبة بجيرانها في المنطقة لإنهاء حالة التوتر والاستنفار على حدودها الشرقية والشمالية. كانت السعودية سبّاقة في توجيه الدعوات إلى الرؤساء سالم ربيع علي وعبد الفتاح إسماعيل، وكاتب هذه المذكرات لزيارة الرياض بعد تطبيع العلاقة بين عدن والرياض، ولكن عقدة الماضي كانت تقف حائلاً في طريق تطوير العلاقة والتقدم بخطوات إلى الأمام على هذا الطريق، وكان لا بدّ من جدة، ولو طال الطريق أو صعب.

تطبيقاً لهذه السياسة، قمت بعد تسلمي مهمات الحزب والدولة بزيارة للمملكة العربية السعودية، في ٢٩ يونيو ١٩٨٠م، حيث كان في استقبالنا قادة المملكة العربية السعودية، وفي مقدمتهم الملك خالد بن عبد العزيز وولي العهد الأمير فهد بن عبد العزيز ووزير الدفاع الأمير سلطان بن عبد العزيز وعدد من الأمراء، كان أبرزهم الأمير محمد الكبير الملقب بـ «أبو الشرين» و«أبو الخيرين» الذي نادراً ما يحضر مثل هذه المناسبات، كما علمت. كان هذا الاستقبال الحافل يعكس الاهتمام باليمن الديمقراطية وبرئيسها الذي يزور المملكة لأول

مرة. وفور وصولي إلى مطار جدة أدليت بتصريح قلت فيه: «في سياق البحث مع أشقائنا قادة المملكة سنتطرق إلى قضايا مهمة تتطلب مناقشات صريحة ومستفيضة، ذلك أن هناك الكثير مما يجمع شعبينا الشقيقين اللذين يرتبطان بوشائج الأخوة والقربى، ونحن نشعر بأن تحسين العلاقات بين بلدينا الشقيقين المتجاورين وتعبئة جهودنا وطاقاتنا في هذا الإطار لا يفيد شعبينا فحسب، بل يسهم في تثبيت دعائم الأمن والاستقرار في المنطقة».



مع الملك خالد ملك المملكة العربية السعودية في زارتي ١٩٨٠

حين شرعنا في المفاوضات التي عقدت بالديوان الملكي، ركزنا على العلاقات الثنائية، وعلى الوضع في الشرق الأوسط. في البداية شكرت للملك خالد دعوته الكريمة، وأكدت أهمية العلاقات الأخوية بين البلدين الشقيقين، وحرصنا على إقامة علاقات تعاون أخوي مثمر ومتكافئ لمصلحة الشعبين. وجددت حرص بلادنا الدائم والأهمية التي توليها لتوفير الأمن والاستقرار في منطقة الجزيرة والخليج العربي، والأهمية التي تحتلها إقامة علاقات طيبة وأخوية بين شعوب المنطقة، لما لذلك من تأثير كبير في ترسيخ دعائم الأمن والاستقرار.

كانت الزيارة على العموم أخوية وودية، وقد أبدى الجانب السعودي استعداداً لتقديم الدعم لبلادنا في اليوم الأول للزيارة، ولكن في النهاية لم تتمخّض الزيارة عن أية نتائج إيجابية، خصوصاً في ما يتعلق بتقديم المساعدات إلى اليمن الديمقراطية.

بشكل عام، فإنني لم أطلب من السعوديين أية مساعدات جديدة لبلادنا. وكل ما طلبته منهم هو تنفيذ الوعود التي قطعوها على أنفسهم للرئيس سالم ربيع علي عندما زارهم في آب/ أغسطس ١٩٧٧م، وهو ما لم يستطيعوا الإيفاء به، وكل ما استطاعوا قوله لي أنهم طلبوا مهلة شهر للرد على طلبي وعودة وزير خارجيتنا لتسلّم ردهم. وهذا الرد سمعته من بلدان الخليج الأخرى التي زرتها بعد ذلك.

سُبحة الأمير فهد

في مطار جدة حدث لي موقف طريف، ففي اللحظات الأخيرة، وعند سلم الطائرة، تقدم مني الأمير فهد بن عبد العزيز مودعاً، وكان ولياً للعهد حينذاك، ودسّ في جيبي سُبحة على سبيل الذكرى، ولم أُولِ المسألة أية أهمية، واعتبرتها حركة تلقائية وبادرة حسن نية لولا أن الكاميرات كانت مسلطة عليّ، وسجلت هذه اللقطة التي رآها الرئيس علي عبد الله صالح عبر شاشات التلفزيون، وعندما عدت إلى عدن اتصل بي هاتفياً وبادرني بالسؤال:

كم المبلغ الذي حوله لك الأمير فهد في الشيك الذي وضعه في جيبك؟!

ابتسمت ورددت عليه: دعنا نقتسم ما عندنا وما عندك!

بعد زيارتي للسعودية، ثارت تكهنات عديدة عن مساعدات سعودية ضخمة تلقتها اليمن الديمقراطية، وربما أشاع ذلك عَمْداً بعض الدوائر المتخصصة في الدعاية ضدنا. المهم أن هذه الإشاعات انتشرت في اليمن الديمقراطية محدثة بعض البلبلة. ورداً على هذه الإشاعات تحدثت إلى صحيفة «١٤ أكتوبر» اليومية لوضع الرأي العام المحلي والخارجي في صورة الوضع الحقيقي، وقلت:

«استهدفت زيارتنا للمملكة العربية السعودية تأكيد خطنا الثابت والمبدئي في سياستنا الخارجية إزاء دول المنطقة القائمة على أساس التعايش السلمي بين الأنظمة الاجتماعية

المختلفة والاحترام المتبادل للسيادة الوطنية، وعدم التدخل في الشؤون الداخلية، والعمل من أجل التعاون المثمر تجاه صيانة الأمن والاستقرار وتحقيق الازدهار لشعوب المنطقة. وهي الأسس نفسها التي تم الاتفاق عليها في بيان النقاط الست الذي وقعت عليه بلادنا والسعودية في عام ١٩٧٦م بصدد إقامة العلاقات الطبيعية..سعينا في زيارتنا للسعودية لأن يتجاوب معنا الأخوة المسؤولون في السعودية في مساعينا الرامية إلى وضع أسس الاحترام المتبادل في العلاقات الثنائية، والعمل من أجل التصدي للمخططات والمؤامرات الإمبريالية التي تستهدف خلق أجواء التوتر وعدم الاستقرار في المنطقة». وأذكر أن الصحيفة سألتني يومذاك عن مدى صحة أن السعودية قدمت مبلغ مئتي مليون دولار معونة لليمن الديمقراطية، ورددت على سؤال الصحيفة:

«لا صحة لذلك على الإطلاق، ولم يكن ذلك هدف زيارتنا، نحن لم نبحث معهم مثل هذا الموضوع، لأن السعودية لم تنفذ حتى الآن ما سبق أن اتفق عليه بشأن تمويل بعض المشاريع منها مشروع الكهرباء للعاصمة عدن، لذلك كان من الطبيعي جداً ألا نبحث مع الأخوة في السعودية مثل هذا الموضوع لأن هناك مشاريع وعدت بها المملكة ووافقت على تنفيذها عام ١٩٧٧م ولم تنفذها حتى الآن». وأضفت: «نحن صرحاء وواضحون في تعاملنا مع الآخرين، ولا نتحرك في الظلام، ولن نتحرك في الظلام مستقبلاً، فكل ما توصلنا إليه وما هدفنا إليه من زيارتنا السعودية ودولة الإمارات والكويت أعلناه لشعبنا وعمّمناه على أعضاء حزبنا وقلنا إننا في زيارتنا للسعودية أردنا أن نقيم علاقات متكافئة تسهم في توفير الأمن والاستقرار لشعوب المنطقة».



مع الملك فهد في مطار جدة

عصابة تخريب

في بداية عام ١٩٨١م اكتشفت أجهزة الأمن بتعاون وثيق من المواطنين عصابة تخريب بتمويل سعودي وتدريب وإشراف من قبل وكالة المخابرات الأميركية (CIA) بقيادة فرانك كارلوتشي نائب مدير وكالة المخابرات المركزية الأميركية حينها. وكان في خطتها إحراق العاصمة عدن عبر القيام بأعمال تخريب وتفجيرات واسعة من أبرزها:

١- تفجير محطات التكرير في عدن الصغرى وميناء الزيت.

٢- تفجير جميع الخزانات التي تحتوي على المشتقات النفطية.

٣- تفجير جميع دكات ومراسي ميناء عدن.

٤- تفجير محطات توليد الكهرباء.

٥- الهجوم بصواريخ وقذائف على مساحة الطائرات وصالات مطار عدن الدولي.

اعترف أعضاء تلك العصابة باشتراك السعوديين والأمريكان في الإعداد وتمويل للأعمال التي كان مقرراً أن ينفذوها داخل اليمن الديمقراطية لو لم يكتشف أمرهم في الوقت المناسب. كذلك اعترفوا بتواطؤ بعض الدوائر في صنعاء من أجل تسهيل عبور المتفجرات والأموال إلى داخل اليمن الديمقراطية.

وجرى محاكمتهم على مدى أكثر سنة قضى الحكم بإعدام بعضهم وقد صودق على الحكم من قبل هيئة رئاسة مجلس الشعب الأعلى بتاريخ ١٢ أبريل ١٩٨٢م والذي قضى بالمصادقة على الحكم الصادر من المحكمة العليا للجمهورية بتاريخ ٦ أبريل ١٩٨٢م، بحق المتهمين بالاشتراك بتجمع معادي لارتكاب جريمة التخريب وهم:

١- علي عبد الله دهمس.

٢- حسن ناصر محمد.

٣- ناصر فضل ناصر.

٤- مهدي سعيد باعوضة.

٥- عباس سعيد محمد.

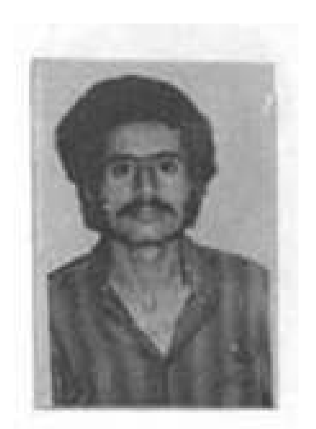
٦- عبد علي أحمد.

٧- همام هادي سعيد.

٨- سعيد الخضر باهميل.

٩- صالح سعيد الكازمي.

وحكم على آخرين غيابياً.



علي عبد الله دهيس



مهدي عوض باعوضة



سعيد الخضر باهميل



همام هادي سعيد



عباس سعيد الأغبري



ناصر فضل ناصر

وكانت المحاكمة تعرض على تلفزيون عدن بشكل متتابع كالمسلسلات، وكانت الناس تتابعها، ويتذكر البعض قول المحامية راقية حميدان المشهور أثناء الجلسة لموكلها دهمس: دهمس، ركز معي!

فرد عليها: قدني مركز معك من أبش (الصباح).

كان دهمس حديث الأحداث وعلامة فارقة وتم استخدام اسمه في ماركات الملابس النسائية (عيون دهمس) التي كانت من أكثر الماركات إقبالاً للشراء من قبل النساء.



صورة من محاكمة دهمس

وفي ما يأتي شهادة أحد قادة هذه العمليات خلال لقاء حصل بيني وبينه في إحدى العواصم العربية بعد أكثر من ٢٠ عاماً، لكون هذه المعلومات قد أصبحت جزءاً من التاريخ، وقد أوردتها بالتفصيل في الجزء الخاص بالدولة في المذكرات.

شهادة علي يسلم باعوضة

يُعَدّ علي يسلم باعوضة من أبرز المعارضين العسكريين للنظام في الجنوب وأذكاهم، وقد حارب النظام منطلقاً من معسكرات القوى المعادية لعدن في بعض البلدان المجاورة، وخطط هو وعبد الله سالم الحميري لعمليات تستهدف عمق عاصمة اليمن الجنوبية – عدن، بالتعاون مع وكالة المخابرات المركزية الأميركية والنظام السعودي والنظام في صنعاء.

درب باعوضة مجموعات عسكرية في جدة وضواحيها بإشراف ضباط أميركيين

وتحت إشراف وكالة المخابرات الأميركية، ونفذ (بروفة) عمليات على الأراضي السعودية كجزء من التدريب في سفح بعض الجبال بين جدة والطائف دون علم بعض السلطات السعودية، وجرى تصوير هذه الانفجارات الضخمة وألسنة الدخان والسحب البركانية المتولدة منها والمتصاعدة في عنان السماء.

وهتف باعوضة والمدربون الأميركان سعداء:

علينا تنفيذ ذلك في مصفاة عدن وخزاناتها وفي ميناء عدن ومنشآته، وتدمير محطات الكهرباء والمحطات الحيوية في عدن.

حذر الأميركان باعوضة والمجموعات التي معه من تسرب أي شيء عن هذه التدريبات النظرية والعملية إلى السلطات، لأن ذلك سيضرّ بعملهم وبالعلاقات السعودية، حيث لا يعلم عنها أحد سوى الأمير فهد بن عبد العزيز والأمير سلطان بن عبد العزيز.

وكان الهدف من هذه العمليات زعزعة استقرار النظام في عدن، وإسماع صوت المعارضة للعالم، ومحاولة إسقاطه أو إجباره على الحوار معها، وكان من أهدافه أيضاً الدفاع عن النظام في صنعاء الذي كان يحتضر، حيث سقطت مناطق كاملة من أراضيه بيد الجبهة الوطنية المناوئة له.

قدمت أجهزة المخابرات الأميركية والأجهزة الأمنية في صنعاء كل أشكال الدعم المالي والعسكري والمعنوي من أجل القيام بهذه المهمة.

حذّر الأميركان المجموعات التي دُرِّبَت وسُلِّحَت وسُرِّبَت إلى عدن من إفشاء هذا السرّ، لأن النظام في عدن وأجهزته الأمنية، بمساعدة المخابرات الروسية والألمانية الشرقية سيكتشفونها، وقالوا لهم محذرين: سيسجنونكم ويشدون «يضغطون» على «كعالكم» أي خصيكم ويجبرونكم على الاعتراف.

انتقلت المجموعات إلى عدن، ووصل السلاح على الجمال عبر الحدود إلى منطقة الصبيحة أولاً ثم إلى عدن، وبعضه عبر منافذ أخرى بالسيارات.

أعطيت لهم التعليمات بأن التوجيهات ستصلهم عبر الإذاعة نن طريق أغانٍ محددة تبث في جدة بجهاز إلى محطة تقوية، وفي ضوء ذلك يتحركون في الوقت المقرر نحو الأهداف المحددة سلفاً لتفجيرها.

كانوا في قمة فرحهم وهم يتخيلون الآن هول الحرائق التي سيشعلونها في المدينة الآمنة.

كان هذا بمنزلة اختراق للسور الحديدي... عدن. وكانوا يمنّون النفس بأن يسمعوا العالم صوتهم من العاصمة عدن بعد أن سكتت وفشلت مدافعهم وبنادقهم في محافظات حضرموت وشبوة وأبين ولحج طوال السنوات الماضية.

.. ولكن هذه العصابة التي سُمّيت «عصابة دهمس» وقعت في الفخ، واعتُقل بعض أفرادها، وهرب البعض الآخر، وجرت محاكمتهم التي استمرت أكثر من ستة أشهر، وحكم على بعضهم بالإعدام. مع الأسف أن هذه المحاولات التخريبية بدأت بعد تطبيع العلاقة مع صنعاء والرياض ومسقط في الثمانينيات من القرن العشرين.

تقدمت اليمن الديمقراطية بشكوى إلى السعودية وإلى وزير داخليتها نايف بن عبد العزيز الذي التقاه وزير داخلية اليمن الجنوبي محمد عبد الله البطاني في الرياض، حيث قدم إليه كل الوثائق عن التورط السعودي، لكن الأمير نفى علمه بها وبتفاصيلها إلا حين سمعها من وزير الداخلية اليمني البطاني، وطلب فوراً اعتقال علي يسلم باعوضة ومن معه. لكن الأميركان أعطوا توجيهات سريعة لباعوضة بالهرب فوراً من السعودية إلى فرانكفورت[1] .

---

(١) بعض المراجع التي تؤكد تورط المخابرات الأميركية في العملية:
المرجع الأول بوب وودوارد – الحروب الخفية للمخابرات الأميركية (سي أي آي) ١٩٨١–١٩٨٧. ترجمة عيسى طنوس، موسى الزعبي – الطبعة الأولى. دمشق ١/ ١٩٨٩ إصدار دار الشيخ ص ٢٢٩– ٢٣٠.
فهم وليام كيسي في نهاية آذار عام ١٩٨٢ إلى أية درجة أفسد قطاع العمليات في الوكالة. فقد ألقي القبض على مجموعة يمنية مؤلفة من ثلاثة عشر شخصاً، شكلت من وكالة المخابرات المركزية وأرسلت بمهمة تخريب في اليمن الجنوبي – وجرى تنظيم العملية بمشاركة أجهزة المخابرات السعودية – إحدى العمليات النادرة للدعم شبه العسكري تسمح به إدارة كارتر وكانت تعد منذ ذلك العهد. اعترف اليمنيون نتيجة التعذيب بأنهم دُربوا على أيدي وكالة المخابرات المركزية، فماذا ستصبح عليه قابلية وكالة المخابرات المركزية للتصديق إذا قامت بالكذب؟ هذا ما تساءل به كيسي، وماذا سيحدث لقدرتها على توفير الأمن العملياتي التام؟ من الناحية النظرية، كان اليمنيون موجهين إلى ألا يتعاطوا إلا مع الوسطاء، ويتجاهلوا حتى وجود وكالة المخابرات المركزية عند أي =

داهمت الأجهزة السعودية منزله واعتقلت بعض أقاربه، لكن باعوضة طلب من الأميركان بعد شهر التدخل لدى السلطات السعودية للإفراج عنهم، فكان له ما أراد بحكم الصداقة والعلاقة التي تربطهم معاً.

علم وزير داخليتنا أن الأمير نايف ومدير المباحث الجنائية في السعودية وآخرين كانوا مستائين من هذه العملية لأنها نفذت دون علم أجهزة الداخلية السعودية، ولهذا فقد طلب من علي سالم باعوضة أن يتوجه إلى صنعاء للإقامة فيها تحت رعاية رئيس جهاز الأمن

= تطور للوضع. لكن الوسيلة الوحيدة لجعل العملية قابلة للتصديق في نظر المتطوعين اليمنيين، هي الكشف عن دور وكالة المخابرات المركزية.

وجب سحب مجموعة يمنية ثانية كانت قد أُعدّت من قبل في اليمن الجنوبي، من البلاد، كذلك وجب وضع حد لعملياتها، وأعلنت اليمن الجنوبي بعد عدة أسابيع أن الثلاثة عشر رجلاً من المجموعة الأولى اعترفوا بإدخالهم متفجرات إلى البلاد سراً، وهي مخصصة لتدمير المنشآت البترولية وأهداف رئيسة أخرى، واعترفوا أيضاً بعلاقاتهم بوكالة المخابرات المركزية، حكم على ثلاثة منهم بالسجن مدة خمسة عشر عاماً مع الأشغال الشاقة، أما الآخرون فقد أعدموا.

المرجع الثاني: بوب وودوارد، الحجاب: الحروب الخفية لوكالة المخابرات المركزية الأميركية C I A ١٩٨١– ١٩٨٧، دار المناضل ودار الحرف. الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م بيروت لبنان ص ١٧٩.

في آخر مارس ١٩٨٢ أرسلت وكالة المخابرات المركزية فريقاً يمنياً مؤلفاً من ١٣ شخصاً إلى اليمن الجنوبية، وهي دولة في شبه الجزيرة العربية تقع تحت هيمنة السوفيات ونفوذهم، وذلك للقيام بأعمال تخريب، إلا أن سلطات اليمن الجنوبية ألقت القبض عليهم. وكانت واحدة من العمليات شبه العسكرية التي سمح بتنفيذها الرئيس كارتر، وكان الإعداد لتنفيذها قد بدأ في عهد كارتر. وتحت التعذيب اعترف عناصر الفريق بأنهم تدربوا بإشراف وكالة المخابرات المركزية الأميركية. تساءل كايسي لماذا لم ينكروا دور وكالة المخابرات المركزية؟ أين كانت خلال الحيطة العملية؟ لقد ورد في الأوراق التحضيرية للعملية الخفية أنّ من المفترض أن يتعامل عناصر الفريق مع وسطاء بحيث لا يشعر أحد بأن وكالة المخابرات المركزية متورطة. ولكن الطريقة الوحيدة لكسب ثقة المتطوعين اليمنيين كانت اطلاعهم على دور وكالة المخابرات المركزية.

ثم سُحب فريق ثانٍ من اليمنيين كان قد دخل إلى جنوب اليمن وأوقفت العملية. أدان المدعون العامون في اليمن الجنوبية الثلاثة عشر جميعهم بإدخال المتفجرات بطريقة غير مشروعة لتفجير منشآت البترول وبعض الأهداف الحساسة، واعترف هؤلاء برعاية وكالة المخابرات المركزية لهم. وحكم على ثلاثة منهم بالسجن مدة ١٥ سنة وأعدم الآخرون.

السياسي وحمايته، غالب القمش، شريكه وصديقه في هذه العملية التي نُفِّذَت لمصلحة الرئيس علي عبد الله صالح الذي كان على صلة بوكالة المخابرات الأميركية.

ورغم هذه الحادثة لم تنقطع اتصالاتنا مع السعودية ومشاركتنا في مؤتمر الطائف وزيارتنا مع علي عبد الله صالح عام ١٩٨٢ أثناء الاجتياح الاسرائيل لبيروت.. واستمرت الزيارات المتبادلة حتى أحداث ١٩٨٦م.

موقف السعودية من أحداث ١٩٨٦

ورغم هذه الحادثة لم تنقطع اتصالاتنا مع السعودية ومشاركتنا في مؤتمر الطائف وزيارتنا مع علي عبد الله صالح عام ١٩٨٢ أثناء الاجتياح الاسرائيل لبيروت.. واستمرت الزيارات المتبادلة حتى أحداث ١٩٨٦م.

لكن السعوديين فيما بعد، وفي أثناء الأحداث التي شهدتها اليمن الديمقراطية في يناير ١٩٨٦م، تصرّفوا بنوع من الاتزان مع تلك الأحداث، فأظهروا موقفهم مع الخط المعتدل الذي كنت أمثله والذي أعطى نتائجه في تطبيع العلاقات في المنطقة. وفي أثناء الأحداث استقبل الملك فهد بن عبد العزيز وزير الزراعة محمد سليمان ناصر الذي نقل إليه رسالة مني لشرح التطورات، وقد أكد الملك استعداده لتقديم الدعم المادي لنا، وبعد الاتصال معي ومع الرئيس علي عبد الله صالح من الرياض أكدت له أهمية الدعم السياسي والمعنوي أولاً، ولكن الرئيس علي عبد الله صالح طلب عودة الوزير فوراً للتشاور في صنعاء، وعندما التقيناه طلب الرئيس علي عبد الله صالح أن نطلب من السعودية ريالات «ماريتريزا» الفضية وبعض الذهب والدنانير اليمنية الجنوبية التي توجد في المصارف ولدى الصيارفة في السعودية، ولكنني اعترضت على هذا الأسلوب في التعاون والعلاقة معهم، لأن هذه المساعدات التي أشرت إليها ستذهب إلى النظام في صنعاء، ونحن سنحصل على التهم بالتآمر مع المملكة في ما جرى في عدن. انزعج الرئيس والوزير من موقفي هذا وعدّاه نوعاً من المزايدة، لأن السعوديين يملكون الثروة والمال، فلماذا لا نأخذ منهم ولا نعطيهم شيئاً؟ أجرى الرئيس اتصالات مباشرة مع المملكة لطلب المساعدة قبل وصولنا إلى صنعاء، وأرسلت إليه أكثر

من ١٠ ملايين دولار بحجة شراء السلاح ومئات السيارات اللاند كروزر لنقل المقاتلين من الشمال إلى الجنوب لدعمنا في هذه المعركة، حسب زعمهم، لكن هذه المساعدات بقيت في المستودعات ومخازن السيارات في صنعاء، كما حصل على بعض المساعدات من بعض الدول العربية والأجنبية! كليبيا والجزائر والامارات وعُمان والكويت يفوق ما قدمه لنا خلال إقامتنا في صنعاء! ولكن هذا لا يعني أننا نتنكر لموقف الرئيس علي عبد الله صالح الذي احتضن الآلاف من المدنيين والعسكريين في صنعاء وبقية المدن..

وتعبيراً عن موقفهم هذا، تلقيت أكثر من دعوة سعودية وأنا في صنعاء لزيارة المملكة، لكنني لأسباب عديدة لم أستطع تلبية هذه الدعوات. كان عندي ما يسوّغ موقفي ذاك، ولعل من أهم هذه الأمور أن كثيراً من التهم وجهت إلى السعودية بأنها كانت وراء أحداث يناير ١٩٨٦م، وذلك دون وجه حق هذه المرة.

كنت حريصاً على عدم تأكيد تحميلهم مسؤولية ما حدث، ومن هنا جاء اعتذاري عن عدم القيام بزيارة المملكة بعد تلك الأحداث، لكن السعوديين أساؤوا فهم موقفي ذاك وانتقلوا بكامل ثقلهم إلى جانب الطرف المنتصر الذي أصبح على رأس السلطة في عدن والذي كان يتهم السعودية والإمبريالية الأميركية بأنهما وراء تلك الأحداث، بل كان يتهمني بأنني ارتميت في أحضان القوى الرجعية والإمبريالية وأنني أتنقل بين الرياض وصنعاء، وأنا حتى كتابة هذه المذكرات لم أعرف الرياض[(١)]، لأن الزيارات التي قمت بها قبل أحداث عام ١٩٨٦م كانت لجدة والطائف وكانت زيارات رسمية.

ودار دولاب الزمن، وجاءت حرب عام ١٩٩٤م، وانتقل الطرف الذي كان يحكم في عدن بعد عام ١٩٨٦م إلى السعودية وعُمان والإمارات وبعض دول المنطقة للإقامة فيها والحصول على الدعم الإنساني منها.

---

(١) لكنني في نهاية ديسمبر من عام ٢٠٠٧ زرت الرياض لتقديم العزاء إلى أولاد الشيخ عبد الله بن حسين الأحمر الذي توفي في مستشفى الملك فيصل، وعدت بعدها إلى الإمارات التي وصلت إلى الرياض منها، وتلقيت إثر ذلك عشرات المكالمات (السوقية والبذيئة) التي تهاجمني، وتأكد لي أن علي عبد الله صالح يقف وراء تلك الأعمال، لأنه يرى أن أية علاقة مع السعودية أو الأميركان خط أحمر، ولهذا دفع جار الله عمر الثمن عندما زار السعودية للحج والعلاج، وأقام علاقة مع بعض المؤسسات الأكاديمية في الولايات المتحدة الأميركية.

لقاء مع الأمراء

خلال إقامتنا في صنعاء التقينا عدداً من الشخصيات العربية والخليجية، وأبرزها من المسؤولين السعوديين، الأمير عبدالله ولي العهد، والأمير سلطان وزير الدفاع والأمير نايف وزير الداخلية وقد تحدثنا معهم جميعاً عن المصالحة الوطنية والحوار الوطني، وناشدناهم بذل جهودهم مع الحكام في عدن لإقناعهم بالحوار لحل مشاكل عشرات الآلاف من الذين لجأوا إلى صنعاء وإلى دول أخرى من أجل تسهيل عودتهم إلى أعمالهم وإلى أهلهم وإلى منازلهم. وكان اللقاء الأول مع الأمير عبدالله، وعُقد في القصر الجمهوري بصنعاء في سبتمبر ١٩٨٦م، وقد شكاني الأمير عبد الله إلى الرئيس علي عبد الله صالح، إذ إن السعوديين كانوا ينتظرون مني أن أمرّ بالمملكة في طريقي من دمشق التي كنت في زيارتها، ولكنني سافرت مباشرة إلى أديس أبابا، وهو ما أثار حفيظة السعوديين. وكان خطأهم، إذ لم يستطيعوا تمييز الموقف الذي دعاني إلى عدم زيارة المملكة في تلك الظروف. وكان الأستاذ عبد الحليم خدام نائب الرئيس السوري، قد أبلغ المسؤولين في المملكة أنني في طريقي إليهم، اعتقاداً منه بأنني ذاهب إلى المملكة، بينما توجهت الطائرة التي كانت تقلني إلى أديس أبابا.

في البداية، رحبت بالأمير عبد الله في وطنه الثاني، وشرحت له آخر التطورات والمستجدات في اليمن الديمقراطية، وأكدت رغبتنا في المصالحة الوطنية، وقلت إنه لا حلّ إلا بإجراء المصالحة الوطنية في الجنوب. وبادرت إلى شرح الأسباب التي جعلتني أعتذر عن عدم زيارة المملكة بعد أحداث يناير ١٩٨٦، وقلت إن ذلك كان لمصلحتنا جميعاً، لأنكم والأميركان والرئيس علي عبد الله صالح كنتم جميعاً متهمين بتفجير الأوضاع في اليمن الديمقراطية، وحتى لا أحمّلكم تهمة وأحداثاً لا علاقة لكم بهما قررت عدم زيارة بلادكم. أكدت له أن ما حدث صراع داخلي، ونحن جميعاً في اليمن الديمقراطية مسؤولون عنه.

أبدى ولي العهد السعودي ارتياحه للحديث الذي سمعه مني، وخصوصاً في ما يتعلق بالأسباب التي جعلتني أحجم عن زيارة المملكة، وبادر إلى القول:

لا أخفي عليكم أن خادم الحرمين مستاءٌ كثيراً منكم و«آخذ على خاطره»، ولكن ما دمت أوضحت لنا موقفك الآن فنحن نقرك على صحة القرار الذي اتخذتموه ونقدر الحكمة من ورائه. ونحن نتفهم وضعكم جيداً وسوف نبلغ أخاكم الملك فهد بذلك. وسألني الأمير عبد الله عن علاقتي بكل من إثيوبيا وليبيا وسورية والجزائر، فأخبرته أنها علاقات طيبة، وقلت له: إن من مصلحتنا ألا نفقد أحداً ولا نعادي أحداً. أبدى الأمير ارتياحه لهذا الموقف، وشدد على التمسك به. وأشار إلى ضرورة الاهتمام بالعلاقة مع سورية بصورة أكثر. وقد خرجت بانطباعات طيبة من لقائي مع ولي العهد السعودي الأمير عبد الله ومواقفه من القضايا القومية، والموقف تجاه إثيوبيا. وقال إنه سينقل إلى الملك فهد كل ما سمعه مني خلال هذا اللقاء، وحضر اللقاء معالي الشيخ عبد العزيز التويجري، وأتذكر أنه قدم إليّ هدية ثمينة، عبارة عن كتاب للكاتب المصري عصمت سيف الدولة، وطلب مني بطريقته الودية أن أقرأه وقـال: «لن أقول لك وداعاً، ولكن إلى اللقاء» لنناقش الكتاب ومحتوياته في لقاء لاحق، وسألت نفسي آنذاك: «أين ومتى نلتقي؟»، ولكنني تركت ذلك للزمن، فلكل منا ظروفه ومشاغله وبرامجه وتنقلاته وتحركاته. ومرت الأيام والأشهر والسنون، ثم التقيته وتعرفت إليه أكثر من خلال قراءتي ومطالعاتي لكتبه، وفي مقدمتها الكتاب القيّم والثمين «لسراة الليل هتف الصباح»، الذي وصفه الأستاذ محمد حسنين هيكل بأنه «قصيدة حب... لمؤلف عاشق لبطله»، وشبهه رياض نجيب الريس بأنه «صهيل خيول وصليل سيوف»، وهو يستحق مثل هذا الوصف والتقدير من قبل هذين الكاتبين الكبيرين.

لقائي الأمير سلطان

لقائي التالي جرى في نهاية عام ١٩٨٧ في صنعاء مع الأمير سلطان بن عبد العزيز، النائب الثاني لرئيس الوزراء السعودي. شرحت للأمير آخر التطورات والمستجدات في اليمن الديمقراطية، وشرحت له ما سبق أن قلته لولي العهد السعودي الأمير عبد الله عن الأسباب التي دعتني إلى عدم زيارة المملكة، ثم انتقلت بعد ذلك إلى الحديث عن الأوضاع في عدن، وقلت له: لا تراهنوا كثيراً على الأخوة في عدن وتقفوا ضد إرادة الشعب هناك،

وتدعموا المجموعة الحاكمة، وتنحازوا وتقدموا المساعدات إليهم. وأضفت موضحاً: نحن لسنا ضد المساعدات إذا كانت حقاً للشعب، ولكننا ضد دعم عناصر بذاتها، وضد الترويج من قبل أجهزة إعلامكم لأحكام الإعدام التي صدرت بحق أنصارنا في عدن، والتطبيل والتزمير للكونفرنس الحزبي، بحيث إنني لا أستطيع أن أميز بين ما تنشره «الشرق الأوسط» ومجلة «المجلة» وصحفكم الأخرى وما تنشره صحف عدن وأجهزة إعلامهم. وسألته:

من الذي تحول؟ أنتم؟ أم عدن؟! وأضفت إلى الأمير سلطان:

لا أخفي عنكم أننا مستاؤون من موقفكم المنحاز إلى حكام عدن والمعادي لنا ولشعبنا هناك..

وأضفت: نحن لا نطلب شيئاً منكم غير الضغط على حكام عدن قبول المصالحة الوطنية بحكم ما نراه ونلمسه من العلاقات المتطورة فيما بينكم. كما نطلب منكم وقف التحضير والتطبيل للمحاكمات وأحكام الإعدام.

اتسم الحديث مع الأمير سلطان بالسخونة والجفاء بعض الشيء من كلينا، فالأمير سلطان من أكثر العناصر الذين يلمّون بشؤون اليمن، ولديه مكتب خاص مهتم بشؤون اليمن واليمنيين من العناصر الذين اشتركوا في حروب الملكيين والجمهوريين من الطرفين، أو كما عبّر الرئيس علي عبد الله صالح عندما منحه وسام الوحدة: إنه العين التي يرى بها في السعودية، والأذن التي يسمع بها، وقال الأمير سلطان بدبلوماسية إنه ينفذ توجيهات خادم الحرمين.

كان الأمير تركي الفيصل الذي يحضر اللقاء يسألني بين الحين والآخر أسئلة استخبارية عن محسن الشرجبي ومدى تأثيره في السلطة، وعن آخرين، فأجبته: اسألوا عنهم الرئيس حيدر العطاس وسيجيبكم.

ضحك الأمير وقال: نحن لسنا منحازين إلى عدن، ولا أجهزة إعلامنا منحازة إليهم، ونحن نشرنا لكم مقابلة في مجلة «المجلة» وكان يشير إلى مقابلة أجراها معي رئيس تحرير المجلة عثمان العمير، استغرق إجراؤها معي أربع ساعات كاملة، ولكنها لم تنشر.

علقت على كلام الأمير قائلاً: لم أقرأها، ولم أشاهدها.

أجاب: إنها على مكتبي وأنا قرأتها. قلت: يجوز أنها في مكتبك.

ولم أشر إلى موضوع عدم نشر المقابلة، وعنيت بذلك أنه قد قرأ مقابلتي والأفكار التي تضمّنتها في مكتبه فعلاً، لكنها لم تنشر ولم تر النور.

كانت هذه هي المرة الأولى التي ألتقي الأمير تركي، أما الأمير سلطان فقد كان هذا لقائي الثاني به، إذ التقيته في عام ١٩٨٠م عندما كنت أزور المملكة في زيارة رسمية. وأذكر أن حديثه معي دار في ذلك الوقت حول تنويع مصادر السلاح حين قال لي: لماذا لا تطلب من السوفيات أن يساعدونا على تطوير القوات المسلحة السعودية وتزويدنا بأسلحة متطورة؟! وأجبته: إن علاقتكم بالسوفيات أقدم من علاقتنا بهم، فلماذا لا تتصلون بهم وتبحثون هذا الموضوع معهم مباشرة، بما في ذلك إعادة العلاقة معهم بدلاً من حصر علاقتكم بأميركا والغرب؟! وقد كان لجلالة الملك الوالد عبد العزيز علاقات قديمة معهم.

أذكر أنني قبل أن ألتقي الأميرين سلطان وتركي، سألت الرئيس علي عبد الله صالح عن القضايا التي يمكن مناقشتها معهما، فكان رده: ناقش ورأسك مرفوع، وأي كلام تريد أن تقوله فأنت حر في اختيار الطريقة والأسلوب الذي تختاره للحديث معهما.

اللقاء مع نايف

اللقاء الثالث كان مع الأمير نائف بن عبد العزيز في سبتمبر ١٩٨٨م، وجرى في صنعاء أيضاً، ولم يعطني الأمير فرصة للحديث عن أوضاعنا، إذ إنه استرسل في الشكوى من إيران والخطر الإيراني، وموسم الحج القادم، والمصاعب التي يتوقعونها من قبل الحجاج الإيرانيين الذين حسب قوله سيعكرون صفو أمن حجاج بيت الله الحرام، ويهددون استقرار المملكة. وفي الدقائق الأخيرة من اللقاء تحدثت بإيجاز شديد عن الأوضاع في اليمن الديمقراطية، وأكدت موقفنا السابق، وتمنيت له الصحة والسعادة والتوفيق.

الرئيس منغستو
جئت بعد فوات الأوان

بعد هذا العَرض للعلاقات مع المملكة العربية السعودية وزياراتي الرسمية لها،

سأتحدث عن زيارات أخرى قمت بها للمملكة. فقد قمت بزيارات خاصة عام ١٩٩١م بناءً على طلب الصديق منغستو هيلا مريام الذي رتب بدوره هذه الزيارة بالتعاون مع سفير المملكة العربية السعودية في أديس أبابا عبد الرحمن الطعيمي. كانت هذه الزيارة امتداداً لسلسلة الزيارات التي قمت بها لعدد من البلدان العربية، لشرح التطورات على الساحة الإثيوبية والبحر الأحمر بناءً على طلب الرئيس منغستو عندما كان يواجه أخطر المعارك في إريتريا وعلى مشارف العاصمة أديس أبابا. كان رأي الجانب السعودي أننا تأخرنا وجئنا بعد فوات الأوان، وشعرت حينذاك بأن قرار الكبار قد اتخذ بشأن إسقاط النظام في أديس أبابا، وهو ما حدث فعلاً عندما طلب من الرئيس منغستو مغادرة أديس أبابا وتسليم الحكم لنائبه وإجراء مصالحة مع قوى المعارضة في لندن تحت رعاية أميركا وبعض الدول الأخرى. طلب منغستو مقابل انسحابه الحفاظ على وحدة إثيوبيا ووقف الحرب التي توقفت بعد الاتفاق على تقسيم إثيوبيا بين إسياس أفورقي وملس زيناوي. كانت هذه هي النهاية الموقتة لحرب استمرت أكثر من ثلاثين عاماً أتت على الأخضر واليابس ونهاية لحكم منغستو هيلا مريام.

قمت بزيارة أخرى للسعودية لأداء مناسك العُمرة عام ١٩٩٨م وشاهدت التطورات والتوسعات التي شهدها الحرم المكي والمسجد النبوي بفضل الاهتمام والرعاية من قبل خادم الحرمين فهد بن عبد العزيز، الذي لُقِّب بخادم الحرمين الشريفين عام ١٩٨٦ بدلاً من لقب جلالة الملك. وهذا التوسع استمرار للتوسعات التي شهدها هذان المكانان المقدسان لاستيعاب ملايين الحجاج الذين يزورون بيت الله الحرام وقبر الرسول عليه الصلاة والسلام في المدينة المنورة. في هذه الزيارة قمت بزيارة المسجد النبوي وأدينا الصلاة، وعندئذ شعرت بالرهبة في هذه الأماكن المقدسة حيث قبر الرسول وقبور بعض الصحابة، وكان الآلاف من المسلمين من كل أنحاء العالم يقفون في صفوف منتظمة بثبات وسكون يرددون بصوت واحد بعد الإمام «الله أكبر»، وبعد الصلاة وقبلها يشربون من ماء زمزم الذي يوزع مجاناً في مسجد الرسول الأعظم. وزرنا أيضاً المعالم التاريخية الإسلامية في المدينة المنورة، وحولها شاهدت في ضواحي المدينة ومكة وجدة بعض الأحياء الفقيرة والمباني

المتواضعة التي شبهها البعض من المرافقين معي ببعض الأحياء في ضواحي مدينة عدن. وأعتقد أن القيادة السعودية قد أدركت ذلك أخيراً وبدأ الملك عبد الله بن عبد العزيز بزيارة بعض هذه الأحياء الفقيرة في الرياض وجدة، وطالب المسؤولين في المملكة بالرعاية والاهتمام بهذه المناطق الفقيرة في بلد يتربع على ربع احتياطات العالم من النفط. والمواطن اليوم، وفي ظل انتشار الوعي ووسائل الإعلام، لا يمكن أن يقتنع بأن الفقراء لهم الجنة فقط، لأن من حقهم أن يعيشوا عيشة كريمة في بلد يزخر بالثروات والخيرات والمقدسات، لأن البديل لذلك انتشار الفقر والبطالة والإرهاب في أوساط الشباب، فاستقرار المملكة استقرار لدول المنطقة جميعها، فهي كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحُمّى. لكنّ ما يحدث في اليمن بعد حرب عام ٢٠١٥ أصبح يهدّد هذا الجسد الذي بدأت تشتعل فيه هذه النيران في كل مكان، ما يُوجب على الحكماء في المنطقة الإسراع إلى إطفائها. لكن يبدو أننا في زمن اختفت فيه الحكمة والكبار والكبرياء.

العلاقات مع سلطنة عُمان

لا يمكن فهم العلاقات بين اليمن الديمقراطية وسلطنة عُمان إلا على خلفية علاقتنا بالجبهة الشعبية لتحرير عُمان. وهذا ما سأحاول الحديث عنه.

في ٩ يونيو ١٩٦٥م أعلن فرع حركة القوميين العرب، الثورة المسلحة في إقليم ظفار باسم «جبهة تحرير ظفار» التي تعدّ جزءاً من أراضي سلطنة عُمان التي كان يحكمها السلطان سعيد بن تيمور، والد السلطان الحالي قابوس[١]. وأعتقد أن ذلك الإعلان كان بتأثير من نجاحات الثورة المسلحة التي كانت تخوضها الجبهة القومية لتحرير جنوب اليمن المحتل

(١) ظفار ليست مدينة، بل هي أكبر ولاية في سلطنة عُمان، تمثل ثلث مساحة البلاد الإجمالية، أي نحو مئة ألف كيلومتر مربع، تحدّها من الغرب جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية.٩٠٪ من مجموع أرض ظفار صحراوية، والجبال تحتل ٩٪ والباقي أي ١٪، سهل ساحلي. وتهطل الأمطار بمعدل خمس بوصات على الساحل و٣٠ بوصة على جبال ظفار الثلاثة: القمر، وقارة، وسمحان. ومناخها لا يختلف عن مناخ المنطقة الشرقية، من محافظة المهرة، وأهلها بشكل عام طيبون، وتنتج ظفار التي كانت قديماً جزءاً من مملكة حضرموت أجود أنواع اللبان.

المتاخم لحدود عمان، إضافة إلى السبب الرئيس، وهو تردي الأوضاع في عُمان إلى أسوأ درجاتها مع الانغلاق الذي كان يفرضه السلطان عليها، على الرغم من دراسته في لندن، وكان يجيد عدداً من اللغات، ما جعل البلاد في حالة من التخلف، حيث سيطر الثالوث المرعب الفقر والجهل والمرض على أرجاء السلطنة كافة [١]. طالب البيان الأول جماهير ظفار والخليج العربي بدعم الثورة وإسقاط النظام وإلحاق الهزيمة بالخونة والمستعمرين حتى ترتفع راية الحرية في سماء ظفار. كان أبرز قيادات الجبهة حينذاك سعيد أحمد الجاعدي ومحمد سعيد قطن ومحمد أحمد قرطوب وبخيت سعيد حنسون وحامد مسلم الأعور ويوسف بن علوي...

بعد أن حقق الجنوب استقلاله الوطني في عام ١٩٦٧م، وبتأثير يسار حركة القوميين العرب والجبهة القومية، دعت جبهة تحرير ظفار وبعض الشخصيات الوطنية من الكويت والبحرين والإمارات إلى مؤتمر حمرين في المنطقة الوسطى حضره قرابة ستين مندوباً أعلنت فيه قيام «الجبهة الشعبية لتحرير الخليج العربي المحتل» في ١٠ - ١١ عام ١٩٦٨م. وبذلك الإعلان جعلت من منطقة الخليج العربي كلها مسرحاً لعملها السياسي والعسكري المنشود، وليس إقليم ظفار وحده، وقد أقصي لاحقاً التيار المعتدل الذي كان يمثله يوسف بن علوي الذي أصبح فيما بعد وزيراً لخارجية سلطنة عُمان، وانتخبت قيادة من ٢٥ عضواً برئاسة محمد أحمد الغساني.

في عام ١٩٧١م أُعلن قيام «الجبهة الشعبية لتحرير عُمان والخليج العربي» من اتحاد جبهتين، هما: الجبهة الشعبية لتحرير الخليج العربي، والجبهة الوطنية لتحرير عمان والخليج العربي. وكان هذا المشروع تطرفاً غير مقبول محلياً وإقليمياً ودولياً، ولذا جرى التراجع عنه تحت تأثير قوى داخل الجبهة وخارجها. فكان لا بد من إجراء وقفة في مؤتمرهم الذي

(١) ولم يكن هناك مفرّ من اندلاع ثورة ظفارية على هذا الواقع الفاسد، وحظيت الثورة بتأييد داخلي وخارجي شامل، حتى السلطان قابوس الذي أطاح والده سعيد بن تيمور في ٢٣ تموز/ يوليو ١٩٧٠م قال بعد توليه الحكم: «كانت مطالب الثوار معقولة، وكان الجميع، بمن فيهم أنا، مع الثورة عند انطلاقها عام ١٩٦٤م، ولقد كان الأمس ليلاً مظلماً وفي الغد تشرق الشمس».

عقد في الحوطة بلحج صيف ١٩٧٤م، لفكّ الارتباط بين هذه القوى التي اجتمعت من ظفار ومسقط والإمارات والبحرين والكويت، والتي برغم مسمياتها الكثيرة كانت امتداداً لحركة القوميين العرب التي كانت في أوج مدّها القومي والسياسي قبل أن تصيبها لعنة الانشقاقات والخلافات. فأُعلن حلّ الجبهة بمسماها السابق وقيام الجبهة الشعبية لتحرير عُمان، والجبهة الشعبية في البحرين التي أعلن قيامها بعد عدة أشهر. وتحول بعض قيادات هذه الجبهة من الكويت والإمارات إلى جماعة المنبر الديمقراطي في الكويت، والآخرون إلى جبهة تحرير عُمان.



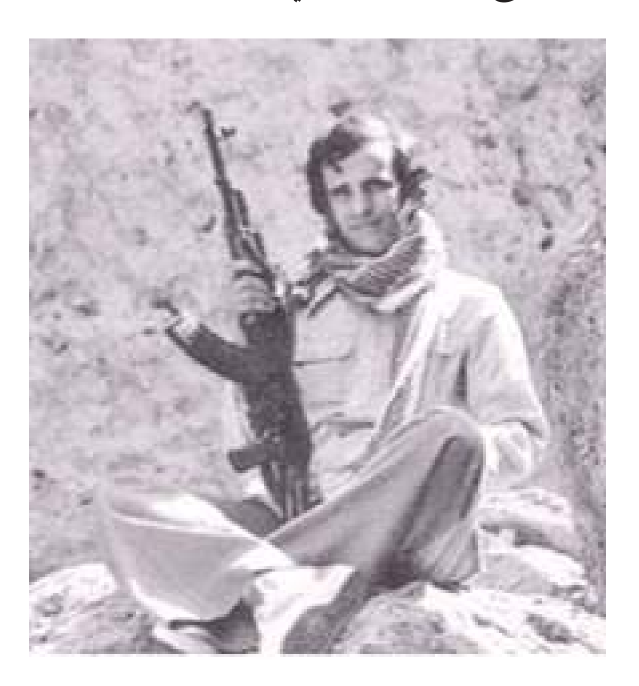
الجبهة الشعبية لتحرير الخليج العربي

العد التنازلي

الجبهة التي حققت في أوج مشوارها بعض الانتصارات العسكرية، بدأت العد التنازلي بعد استعانة قوات السلطان قابوس بالقوات الإيرانية التي خاضت معارك متفوقة ضد قوات الجبهة التي لم تكن مستعدة لمجابهة عسكرية كبيرة من هذا النوع. منيت الجبهة بهزيمة عسكرية على أيدي قوات السلطان والقوات الإيرانية التي استعان بها. لكن كان الأهم من ذلك هزيمتها السياسية بفضل الإصلاحات الجذرية والسريعة التي أقدم عليها السلطان قابوس الذي تسلم السلطة في السلطنة عام ١٩٧٠م. وللأسف الشديد، فإن الجبهة لم تلتقط هذا التطور المهم في الأحداث، واستمرت في اتباع سياستها السابقة نفسها، معتبرة هذا التغيير الجوهري ومجيء السلطان قابوس «تمثيلية استعمارية» كما رددت في بياناتها. ولكن السلطان، بسبب هذه الإصلاحات التي حولت عُمان خلال زمن قصير من مجتمع متخلف إلى دولة عصرية ومجتمع حديث، سحب البساط من تحت أقدام قادة الجبهة، حيث بدأ كثير من أعضائها بالانسحاب منها والعودة إلى عُمان، ما مثّل هزيمة كبرى للجبهة وطروحاتها، حيث جرى استيعابهم في الوزارات والمؤسسات والسفارات، وآخرون قدمت إليهم تسهيلات للقيام بأعمال خاصة. وهذه أول تجربة عربية ناجحة في التعامل مع المعارضة.

لم يكن ذلك وحده ما أثر في الجبهة، بل إن النزاعات والانشقاقات التي اندلعت داخل الجبهة قد أثرت فيها سلباً، حيث تعرضت لأخطر المعارك، لكن من داخلها هذه المرة، داخل قياداتها، وقواعدها وجماهيرها. فجرت تصفيات باسم «اليمين» وباسم «الصراع الطبقي»، وفقدت الجبهة أكثر من (١٥٠) مقاتلاً من قياداتها، بالإضافة إلى عناصر سياسية ذات خبرة وكفاءة. ولم يكن ذلك أيضاً بعيداً من تأثيرات موجة التطرف والمزايدات والتنظير للصراعات التي سادت الساحة اليمنية الجنوبية والمنطقة العربية. وقد اضطر كثير من قادة الجبهة وعناصرها إلى الهروب إلى عُمان وبعض بلدان الخليج العربي، كعلي محسن – رحمه الله – الذي كان يُعَدّ من أنضجهم، وقد وصفوه آنذاك بالبرجوازي واليميني. وعندما زارني عام ١٩٨١م أبلغني بأنه سيعود من الكويت حيث كان يقيم إلى عُمان. وعاد د. أحمد

الربعي بعد اعتقاله إلى الكويت، وكان يُعَدّ من أبرز القيادات الكويتية التي التحقت بالجبهة وأعلنت ذلك رسمياً، وأصبح بعد ذلك وزيراً في الكويت.



أحمد الربعي

أما القائد الحركي أحمد سيف بلحصا، فقد عاد إلى دبي بعد الإفراج عنه، وعمل بالتجارة وأسس هناك مجموعة شركات بلحصا الناجحة وانتخب رئيساً للمجلس الوطني، وبعد ذلك رئيساً لاتحاد رجال الأعمال العرب.



احمد سيف بلحصا

دب الخلاف داخل قيادة ظفار التي أسست الجبهة، وأبرزهم محمد أحمد الغساني، وأحمد عبد الصمد، ومحمد صالح الغساني، وعبد العزيز القاضي الذي كان يحتفظ لنفسه بجيب داخل الجبهة الشعبية لتحرير عُمان باسم «الأمين العام للحركة الثورية»، وهو ما يشبه تنظيم «الحزب الطليعي» على غرار التنظيم المصري الذي أسسه الرئيس جمال عبد الناصر بعد نكسة حزيران ١٩٦٧م، وترأسه ضياء الدين داوود وشعراوي جمعة.

على الجانب العسكري، لحقت بالجبهة هزائم أخرى بعد تفجر الخلاف الحاد داخلها، ما أدى إلى اعتقال قيادة الجبهة برئاسة عبد العزيز القاضي وأحمد عبد الصمد من قبل القواعد وقيادات الجبهة ومقاتليها في الغيضة عاصمة محافظة المهرة المتاخمة لعُمان. وكنت حينذاك أقوم بزيارتها. وبعد حوار طويل أجريته مع عبد الحافظ جمعان وآخرين، أقنعتهم بالإفراج عن رفاقهم وضمان بعض مطالبهم، ونقلت القاضي وأحمد عبد الصمد معي بالطائرة إلى عدن عبر مديرية ثمود التي قمت بزيارة خاطفة لها. كل هذه التطورات كانت تعني تراجع المشروع السياسي الذي أعلنته الجبهة عند قيامها وإخفاقه وقبل فكّ

الارتباط بين هذه التنظيمات أي النضال من أجل توحيد الخليج العربي (باستثناء السعودية)، والكفاح حتى طرد البريطانيين وإسقاط حكام السلاطين والشيوخ والأمراء. وكما أسلفت، أدت العناصر المتطرفة في «الجبهة القومية» عندنا دوراً مهماً في دفعها لارتكاب حماقات وأخطاء قاتلة بتبني هذا المشروع غير الواقعي. فقد ارتفعت أصوات في الجبهة تطالب بتحرير الجزيرة العربية والخليج العربي وتوحيدها في دولة واحدة. وكانت الهتافات في عدن ومحافظات الجمهورية تطالب بتوحيد شعوب هذه المنطقة في دولة واحدة تحت شعارات حادة وكاسحة: «من عدن إلى البحرين شعب واحد لا شعبين»، و«سالمين قود المسيرة – سالمين نحو الجزيرة»[1].

مدّ الثورة بشمولية	يا شعب الخليج الثائر
كلّ الشعب لازم يصمد	نظّم كل قواك واتوحد

من ظلكوت للشامية[2]

إشارة إلى ضاحية الشامية في الكويت، وقرية ظلكوت بظفار.

دولة في ظفار

يجب الاعتراف، والإعلان الآن، بعد فوات الأوان ومرور نصف قرن من الزمان أن الشيخ صباح الأحمد الصباح، وزير خارجية الكويت حينذاك، والسيد أحمد السقاف قد التقيا الرئيس سالم ربيع علي عام ١٩٧٢م، بحضوري وحضور علي سالم البيض وعرضا حلاً لمشكلة ما سُمّي «الجبهة الشعبية لتحرير الخليج العربي» والتي كانت تحظى بدعم عدن وبكين وموسكو وليبيا والجزائر وكوبا وبعض البلدان العربية. كان الحل الذي اقترحاه منح الاستقلال لإقليم ظفار مقابل حلّ الجبهة الشعبية لتحرير الخليج العربي، ووضع حدّ لمشاريعها التي أصبحت تشكل مصدر قلق وخطر على المنطقة كلها، وقد جاءت زيارتهما

(١) سالمين: هو الاسم الحركي الذي عرف به سالم ربيع علي الرئيس الثاني لجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية.

(٢) من كتاب ذاكرة الوطن والمنفى للكاتب عبد النبي العكري ص١٠٤.

لعدن بعد زيارة لمسقط بغية الوساطة بين البلدين. أبدى الشيخ صباح الأحمد استياءه من موقف اليمن الديمقراطية من هذا النشاط الذي تقوم به الجبهة والمعادي للكويت، وقال إن الكويت شعباً وحكومة وأميراً لم يقصّروا في يوم من الأيام تجاه اليمن الجنوبي منذ قيامها عام ١٩٦٧، وما زلنا نقدم إليها المشاريع، رغم اعتراض بعض دول المنطقة... وقد وعد الرئيس ربيع بدراسة هذا المقترح مع قيادة الجبهة الشعبية التي كانت ترفض أي لقاء مع قيادات دول الخليج. وأذكر أن علي سالم البيض قال بعد هذا اللقاء تعليقاً على عرض الجانب الكويتي: «إن هذه مؤامرة بريطانية كويتية لتحطيم الثورة الشعبية في الخليج التي يجب أن تدعم حتى النصر». وكان البيض في موقفه المتشدد هذا ينطلق من رد الفعل على الكلام الذي سمعه من الوفد الكويتي عن تأييد الصين والروس والكوبيين والتروتسكيين في العالم لهذه الجبهة، حيث حضر مع محمد سالم عكوش مؤتمر الجبهة التوحيدي عام ١٩٧١م الذي انعقد في الممر الذي أطلقوا عليه اسم ممر هوشي منه (الزعيم الفيتنامي) وهو الممر الذي يصل المنطقة الغربية بالمنطقة الوسطى في عُمان. وكان لعكوش ملاحظات على الأسلوب الذي تمارسه القيادة تجاه الأعضاء والقواعد، وأن ذلك سيؤدي إلى هزيمة الجبهة، ولذلك صنف بأنه يميني وبرجوازي يختلف موقفه عن علي سالم البيض الذي كان صديقاً للجبهة ووزيراً للخارجية. وكان قد صدر في مارس عام ١٩٧٠م بيان باسم وزير الخارجية اليمنية الجنوبية يرفض فيه الاعتراف بدول الخليج في الأمم المتحدة.

حين طُرح العرض المقترح من الكويت، رفضته قيادة الجبهة الشعبية، ورفض محمد أحمد الغساني المشروع جملةً وتفصيلاً. وبدا أن هؤلاء القادة، بقدر ما كانوا مثاليين كانوا ساذجين أيضاً، ولا يعرفون من السياسة ودهاليزها غير ما يسمعه بعضهم من بعض، أو ما يسمعونه من العناصر المتطرفة في عدن، وتحديداً أولئك الذين كانوا ينادون بتحرير الخليج والجزيرة وتدمير الإمبريالية العالمية!! وتشييد الاشتراكية في العالم! كما كانوا متأثرين بعناصر اليسار الجديد الذين زاروا المناطق المحررة من ظفار، أمثال فواز طرابلسي، وعبد الله الأشطل، والكاتب البريطاني ألفريد هوليداي، وهيلين ليكنر، وأحمد بابامسكي

الموريتاني وبوسادس الأرجنتيني، وكان الرئيس ربيع يحذر من هؤلاء لأنهم مرتبطون بمخابرات أجنبية مهما تظاهروا ولبسوا ثياب التروتسكية والثورة الدائمة، وتحديداً كان يعتقد أن فواز طرابلسي مرتبط بالمخابرات الأميركية وألفريد هوليداي مرتبط بالمخابرات البريطانية وأحمد بابامسكي مرتبط بالمخابرات الفرنسية.

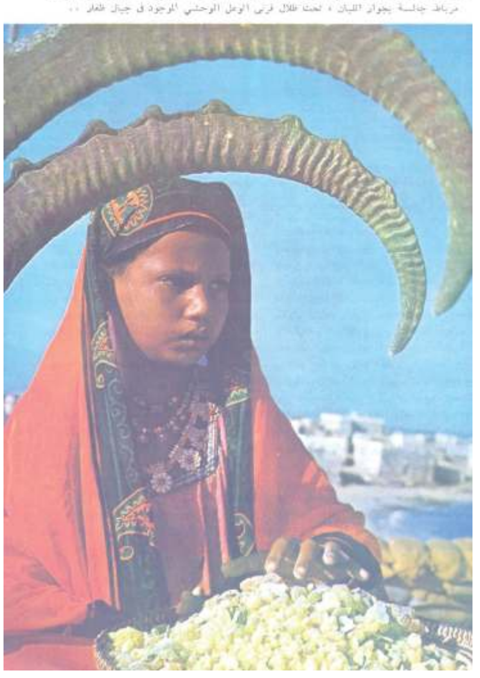
المهم أن الوفد الكويتي عاد وهو مستاء جداً من موقفنا، وبالذات من صالح مصلح الذي أطلق اسم «النجمة الحمراء» على مدرسة شيدها الكويتيون في لحج! ما كان يبدو مماحكة غير لائقة. فقمنا بتغيير اسمها إلى مدرسة أبناء البدو الرحل، وهي إحدى المدارس التي أقامها النظام لأبناء البدو الرحل في الجمهورية، وكانت تجربتها ناجحة في تعليم هؤلاء وتأهيلهم وإعدادهم لدمجهم في المجتمع الحضري، كما جرى تعميم مثل هذه التجربة في بقية المحافظات.

فليعذرني الآن الشيخ صباح الأحمد إن أنا أفشيت سرّ مقترحه بعد ٤٥ عاماً، ولكن ذلك مهم من وجهة النظر التاريخية، ولو كنت محله حينذاك لاتخذت مثل هذا الموقف لحماية الكويت ودول المنطقة من الخطر الذي كانوا يرون أن الثورة في ظفار، المدعومة بقوة النظام في عدن والحركة اليسارية في العالم تشكله على المنطقة بأسرها.

هذه حقيقة يجب الاعتراف بها.. فقد كان نظامنا في عدن، بصرف النظر عن عدم قدرته على ذلك، يدعو في تلك المرحلة إلى تحرير الخليج وإسقاط صنعاء وتحرير جيبوتي من الحكم الفرنسي والسودان من حكم النميري، وإسقاط نظام هيلا سلاسي في إثيوبيا، ومحاربة الولايات المتحدة وحلفائها في المنطقة... وكأننا مسؤولون عن تحرير العالم كله وتدمير الإمبريالية وتشييد الاشتراكية فيه!

بعد زيارة الشيخ صباح الأحمد، تحدثت إلى الرئيس سالم ربيع، وقلت له إن هذه هي فرصتهم الذهبية لكي يقبلوا دولة في ظفار، لكن هذا مرهون بموافقة السلطان قابوس واقتناعه بهذا المشروع الكويتي. وذكّرتُ الرئيس بأن الجبهة عندما قامت في ٩ يونيو عام ١٩٦٥م سُميت جبهة تحرير ظفار، وإذا تحقق لها هذا تكون قد توصلت إلى الهدف الذي أنشئت من أجله. كذلك ذكّرته حينذاك بما دار بين رئيس مجلس الدولة الصيني، رئيس

الوزراء شوان لاي، والأمين العام عبد الفتاح إسماعيل عندما طلب هذا الأخير دعم الصين للجبهة الشعبية. وكان رد شوان لاي بأن هؤلاء مجموعة من المقاتلين لا قاعدة يستندون إليها على الأرض. وأعلن الصينيون في النهاية أنهم سيقيمون علاقات دبلوماسية مع سلطنة عُمان، وهو ما فعلوه بعد ذلك. وذكّرت الرئيس بأن مظفر النواب الذي يتحدث عن دعم الجبهة الشعبية والنظام في عدن من حقول نفط الرميلة وكركوك بالعراق مثله مثلنا لا يملك من الأمر شيئاً. وقلت له إن عندنا ما يكفينا من المشاكل الداخلية والخارجية مع الجيران في عُمان والرياض ومع إخوتنا في صنعاء ودول المنطقة، ولكن الرئيس لم يقتنع بكلامي، وكان رأيه ضرورة استمرار النضال ما دام الموقف الكويتي مع قيام دولة في ظفار، فإن مزيداً من تشديد النضال سيجبرهم على تحقيق ما هو أكثر من ذلك. وسأل: ماذا لو نقنعهم بدولة في عُمان بدلاً من منطقة الخليج العربي كلها كنوع من المقايضة؟! وكان يهدف من ذلك إلى قيام دولة للعمال والفلاحين في عُمان على حدودنا، مع أن عُمان لايوجد فيها لا عمال ولا فلاحون وصيادون ولا مدارس ولا مستشفيات ولا طرقات ولا كهرباء ولا ماء ولا تلفزيون، وأهم ما ينتجه سكان ظفار هو اللُّبان حتى عام ١٩٧٠.



امرأة ظفارية تجلس إلى جانب سلة من اللبان

كان الرئيس ربيع مناضلاً وثورياً، وكان لا يزال متأثراً بحرب التحرير الشعبية في الجنوب التي كان من عناصرها القيادية المعروفة، حتى بعد أن أصبح رئيساً للدولة في اليمن الديمقراطية. كان مقتنعاً بجدوى هذا الأسلوب حتى بعد أن اختلفت الظروف والمعطيات السياسية، فظروف حرب التحرير التي جرت في اليمن الجنوبي كانت في ظل مقاومة الاحتلال البريطاني ولإجباره على الجلاء. أما الظروف التي تتمسك بها «الجبهة الشعبية» لتحرير الخليج، فمختلفة جذرياً. إذ هي حرب مع دول مستقلة ذات سيادة كعمان والإمارات والبحرين والكويت. ونحن لسنا مسؤولين عن تحرير هذه البلدان وإسقاط أنظمتها ما دامت شعوبها مقتنعة بها وبشرعية وجودها. وفضلاً عن ذلك، كانت هذه الأنظمة تتطور بسرعة، بينما كنا نحن نسير ببطء، مقارنة بهذه الدول التي تمتلك إمكانات هائلة للتطور بسبب امتلاكها النفط والمال والاستقرار الذي لم يكن يعكره ربما إلا برامجنا الإذاعية من عدن،

والبيانات التحريضية التي كانت الجبهة الشعبية تبثها من الإذاعة والتي كانت مصدر إزعاج للجميع في المنطقة تقريباً.

كان الجيران يرقبون ما يحدث عندنا، وما يصدر عنا. كانت تصرفاتنا، أو أقله بعضها، توحي لهم أن عدن أصبحت قاعدة متقدمة للسوفيات والكوبيين، وتحولت إلى قلعة للتمردات ودعمها في المنطقة. وكانت عدن بحكم نظامها السياسي والاجتماعي تحتضن كل الهاربين من أنظمتهم في الوطن العربي والعالم وتحطّ فيها الطائرات المختطفة من قبل الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، وجماعة وديع حداد، وكارلوس وجماعة بادر منهوف وغيرها من المنظمات في إيطاليا واليابان والفيليبين. وكانت عدن تجد بعض القوة في التعاون مع حركة التحرر العربية والعالمية، لكن دعم الإرهاب والإرهابيين حسب التصنيف الغربي كان ينعكس سلباً عليها. وامتلكت أيضاً يداً طويلة في بعض مناطق العالم، ولكن ليس إلى الحد الذي يشكل خطراً على الإمبريالية وحلفائها في المنطقة. وكانت الولايات المتحدة بحكم إمكاناتها ورصدها تعرف كل ما يدور في عدن ومياهها، وتعرف مواقع الضعف وحدود قوة النظام في اليمن الجنوبية، بصرف النظر عمّا قيل من اتهامات ومبالغات في خلال الحرب الباردة بين المعسكرين عن وجود قواعد.

جهود صومالية وليبية

«لم يكن الكويتيون وحدهم الذين حاولوا إصلاح العلاقة فيما بين عدن ومسقط، بل إن أكثر من طرف قام بهذه المهمة. وهنا أذكر لقاءنا الرئيس الصومالي محمد سياد بري الذي كان عائداً من زيارة لسلطنة عُمان عام ١٩٧٣م، وقد نقل عن السلطان قابوس استعداده لإقامة أفضل العلاقات مع عدن، وإقامة علاقات دبلوماسية بين البلدين، واستعداده لتقديم الدعم للنظام في اليمن الديمقراطية. ولم يشترط السلطان لذلك، حسبما أبلغنا سياد بري، سوى وقف الحملات العسكرية والإعلامية. وقد علَّق أحد المسؤولين عندنا والمكلف بالعلاقة مع الجبهة الشعبية، بأن الرئيس بري الذي كان يدّعي أنه ماركسي قد خان القضية وتحول إلى رجعي بعد هذه الزيارة. وقد رُفض العرض الذي حمله، بالطبع، لأن هناك من

كان لا يزال يعتقد حتى ذلك الوقت بإمكانية انتصار الثورة المسلحة في عُمان. وبعدها بزمن، زارنا وفد ليبي برئاسة الرائد عبد السلام جلود وطلب منا إقامة علاقات مع سلطنة عُمان التي قبلت -حسبما نقل لنا جلود- أن تستبدل بالخبراء البريطانيين خبراء ليبيين مقابل وقف ليبيا الدعم عن الجبهة الشعبية، ومقابل استعداد عُمان لإقامة علاقات دبلوماسية كاملة مع عدن لكنّ هذا العرض رُفض أيضاً في حينه. وقد استاء القائد الليبي من وجود القوات الإيرانية في عُمان لمحاربه الثوار في ظفار، وحذّر من الخطر الإيراني، وطالب بطردهم، وذكّر السلطان قابوس باحتلال الفرس لليمن في أيام سيف بن ذي يزن قبل الإسلام، ولذلك فقد تراجع الليبيون عن موقفهم هذا، الداعي إلى إقامة علاقات مع السلطان، إلى دعم كلي للجبهة الشعبية واليمن الديمقراطية، إلى درجة أنهم عرضوا تشكيل تسعة ألوية من قوات الجبهة واليمن الديمقراطية. وأبدوا استعداد ليبيا لتحمّل نفقات هذه القوة وكلفة الحرب كاملة حتى تحقيق النصر. وشرعت لجنة عسكرية ليبية في الإشراف على تجميع وتجنيد هذه القوة. ووقع الاختيار على صالح مصلح قاسم، وزير الداخلية وصديق القائد الليبي معمر القذافي للقيام بالإشراف على هذه القوة. وفعلاً سجّل صالح مصلح مجموعة ألوية على «الورق فقط»، وبأسماء وهمية. وأرسل الكشوفات إلى القيادة الليبية. وعندما علمت بالأمر حذرت صالح مصلح من اتباع هذا الأسلوب، وقلت له إن الليبيين إذا عرفوا بأنك تخدعهم سيتحول عداؤهم ضدنا! فقال لي: إنهم غير جادين، وكذبة بكذبة. وفعلاً لم يحدث شيء من ذلك.»

كان صالح مصلح - رحمه الله - صديقاً لليبيين، وتربطه علاقات بالعديد من القياديين، وعلى علاقة وثيقة بالقائد معمر القذافي[١]. وكان من ضمن ما طلبه من الليبيين (الكتاب الأخضر) لتوزيعه على المقاتلين اليمنيين والعمانيين الذين سيقاتلون قوات السلطان، مزوّدين بفكر القائد والمناضل الثائر معمر القذافي، حسبما قال لهم! وبالفعل،

(١) «وكان القذافي يحب مزاح صالح مصلح الذي كان يقول مرّة للقائد القذافي، نحن ضد سياسة الخطوة خطوة التي كان يطالب بها السادات. ويرد عليه القذافي: ممتاز. ويعيد صالح مصلح القول للقائد: نحن ضد سياسة الخطوة خطوة. ويرفع القذافي يده ويقول: ممتاز. ولكن صالح مصلح قال له مازحاً: إذا لم تساعدونا وتدعمونا فنحن مع «الركض نحو الاستسلام». وضحك القائد.»

فقد أرسل الليبيون عشرات الآلاف من الكتاب الأخضر الذي احتفظ به صالح مصلح في المستودعات. وعندما سأله جلود عن مصير الكتب قال له: «هذا الكتاب لا يمكن استيعابه إلا بحق السليط»، والسليط باليمنية تعني الزيت، أي بالدعم المالي المكثف. وأضاف: «لن نقاتل، وسنكفر كما كفر بوكاسا بعد أن أسلم على أيديكم!»[1].

للأسف، لم تفهم الجبهة الشعبية مقتضيات المرحلة!! ولهذا تقلص نشاطها وأضاعت كثيراً من الفرص التي أتيحت لها بفعل عمليات الإصلاح السياسي وتجديد المجتمع على يد السلطان قابوس، والضغط السياسي العسكري الذي تعرضت له على يد القوات الإيرانية - العمانية المشتركة، وتراجع الثوار عسكرياً إثر حملة يناير ١٩٧٤، وأرسلت الأردن في ٢ مارس ١٩٧٥ كتيبة مقاتلة الى ثمريت شمال جبال ظفار، بحيث أصبحت الجبهة نفسها في وضع صعب ومعقد. وإزاء هذه الحالة، طلبت الجبهة منا التدخل وتصعيد العمليات العسكرية في ظفار، وفكّ الحصار عن بعض قواتها التي كانت في حالة تراجع مستمر. وأذكر أن أحد قادة الجبهة العسكريين، واسمه أحمد «سهيل» طالب الرئيس سالم ربيع علي بإرسال قوات يمنية جنوبية إلى ظفار، وهدد يائساً:

«... وإلا فإننا سننهزم وننسحب إلى المهرة[2] وستتحملون مسؤولية الهزيمة!».

---

(١) بوكاسا، جان بيدل: رئيس دولة إفريقيا الوسطى منذ عام ١٩٦٦م، ولد في عام ١٩٢١م. أعلن إفريقيا الوسطى إمبراطورية، وعين نفسه إمبراطوراً في كانون الأول/ ديسمبر عام ١٩٧٦م اعتنق الديانة الإسلامية، وأُطلق عليه اسم صلاح الدين بوكاسا. وأسلم بعده رئيس جمهورية بنين وقد سموه أحمد، وأسلم الأول مقابل ١٠ ملايين دولار، والثاني مقابل خمسة ملايين دولار وختن في مطار طرابلس، بينما ختن الأول في طرابلس، وقد حضرنا حفلة بهذه المناسبة تبادل فيها القائدان الليبي معمر القذافي وضيفه بوكاسا الأوسمة. وبعد حضورنا ذلك الحفل التقينا مع القذافي في اليوم الثاني وكان القذافي منتشياً أنه أسلم على يديه رئيسين، أما صالح مصلح فقد كان تعليقه للقذافي: نحن مسلمين جاهزين وكان الأحرى بك أن تساعدنا نحن وإلا سنكفر ولن نعود للإسلام الا بعشرات أضعاف ما قدمته للافارقة. واستشهد بيهودي ذمار أنه حاول أن يسلم وطلب امام المسجد أن يتبرعوا لليهودي وقام أحد الحاضرين في المسجد ورفع يده وقال: أنا مسلم جاهز فساعدوني بدلا عن اليهودي. وضحك القذافي.

(٢) لمهرة: هي المحافظة اليمنية المحادة لظفار.

وهكذا وبكل أسف ان الجبهة والنظام في عدن خسرا العرض الكويتي بقيام دولة في ظفار على حدودنا، ولم يحصلا على ظفر أو ظفار في عمان.

بداية النهاية

شعر الرئيس بالانزعاج، وكان يجلس إلى جانبي في السيارة في طريقنا إلى معسكر صلاح الدين. وقال لي تعليقاً على ما سمعه: لن تحرر ظفار من عدن وبقواتنا...

حينذاك فقط، أدركت أن الرئيس قد أدرك بدوره استحالة تحرير الخليج العربي انطلاقاً من عدن، وأن دوافع المرحلة الجديدة ومقتضياتها تتطلب سياسة جديدة غير تلك المعلنة. وأعتقد أنه منذ تلك اللحظة بدأ يفكر في تحسين علاقات اليمن الديمقراطية بجيرانها الخليجيين، تلك العلاقات التي بدأها مع الأشقاء في السعودية والتي شرحت تفاصيلها سابقاً.

تركنا ذلك القائد العسكري وراءنا وهو مستمر في صراخه، وكنت قادراً على سماع كلماته من بعيد: «ستتحملون مسؤولية الهزيمة يا رفاق السلاح!!».

انسحبت قوات الجبهة من ظفار إلى المهرة، بعد أن لحقت بها الهزيمة مع سرية من قواتنا التي كانت تقاتل معهم وتؤمن انسحابهم إلى حوف. كانت هذه بداية النهاية للجبهة الشعبية ولقيادتها ولمشروعها تحرير الخليج العربي الذي تحطم على بوابة صلالة، حيث ولد وتربى السلطان قابوس. وتوقفت المساعدات الألمانية والكوبية والسوفياتية تدريجاً، لكن المساعدات اليمنية الجنوبية العسكرية والمالية لم تتوقف، ولم تكتف قوات السلطان والقوات الإيرانية بطرد قوات الجبهة من ظفار، بل لاحقتها إلى داخل حدودنا، وبدأ القصف الجوي بطائرات «الفانتوم» على حوف ومستودعات الجبهة فيها، ومدارسها ومعسكراتها، وعلى قرانا ومواطنينا في هذه المنطقة. وخلق ذلك حالة من الرعب والإحباط لدى الجبهة وقياداتها، ولدى قادتنا ومواطنينا في شرق المهرة في نوفمبر١٩٧٣م. وقد تطلب الأمر منا، حمايةً لمواطنينا وسيادتنا، أن نشدد الدفاعات الجوية والأرضية في حوف ومرتفعات صرفيت، وقد تمكنت من إسقاط بعض الطائرات الإيرانية المغيرة، وأسر بعض الطيارين الإيرانيين. وكان ذلك يعني أن هذا خط أحمر لن نسمح بتجاوزه، فتوقفت الغارات الجوية على حدودنا مع سلطنة عُمان. وأتذكر أنني زرت مرتفعات صرفيت لتفقد قواتنا هناك،

وشاهدت موقعاً عسكرياً لقوات السلطان قابوس في هذه المنطقة القاحلة، وهي امتداد للأراضي الرملية التي تمتدّ حتى حدود السعودية، وبين قمة مرتفعات صرفيت والبحر تقع قرية حوف الخضراء، ولا يزيد الارتفاع بين الصحراء والبحر والأرض الخضراء إلا نحو ٦٠٠م.



مع الرئيس سالم ربيع علي اثناء زيارتنا لمنطقة حوف





تقع محمية حوف الطبيعية في محافظة المهرة على بعد ١٨٠٠ كم تقريباً من عدن على مساحة جبلية تزيد عن ٠٠٠ , ٣٠٠ هكتار يبلغ أعلى ارتفاع فيها نحو ٤٠٠ , ١ متر عن سطح البحر، وحوف تقع بمحاذاة السواحل الجنوبية على امتداد يقدر بنحو ٦٠ كم من جبل رأس فرتك. وتتميز الحياة الطبيعية فيها بمحتواها الغني من النباتات، حيث تضم العديد من الأصناف النباتية تمثل - بحسب المسوحات الأولية - ٢٣ عائلة نباتية و٤٣ نوعاً نباتياً.

بعد الوساطة السعودية التي قام بها الشيخ كمال أدهم، مسؤول المخابرات في المملكة الذي ارتبط بعلاقة صداقة مع الرئيس سالم ربيع واللقاءات التي جرت بينه وبين الرئيس المصري أنور السادات في القاهرة عام ١٩٧٤م، اتخذت العلاقات مع سلطنة عُمان منحى آخر. وكانت هذه بداية النهاية لذلك الصراع الطويل.

بدأ تطبيع العلاقات بين عدن ومسقط يؤخذ بجدية من الطرفين. في البداية، كان الحوار يجري عبر السعودية، وتحديداً بين الأمير سعود الفيصل وزير الخارجية السعودي، ووزير خارجيتنا محمد صالح مطيع بالتنسيق مع وزير خارجية عُمان قيس الزواوي. وكان أحد بنود الاتفاق بين السعودية وعدن أن تقوم العلاقات بين البلدين مقابل ٣٥٠ مليون دولار تدفعها السلطنة تعويضاً عن الأضرار الناجمة عن الحرب والقصف الإيراني العماني لحوف الواقعة على الحدود بين البلدين. وجرت عدة لقاءات بين وزراء خارجية الدول الثلاث في الطائف والرياض، رفضت خلالها عُمان تقديم أي تعويض إلى اليمن الديمقراطية، وفي المقابل رفضت عدن إقامة علاقات معها. وبسبب الخلافات التي برزت داخل القيادة في عدن بعد تطبيع العلاقة مع السعودية عام ١٩٧٦م وزيارة الرئيس ربيع للرياض عام ١٩٧٧م، تعطلت عملية التطبيع الكامل بين عدن والرياض، وتأخر التطبيع وإقامة العلاقات الدبلوماسية مع سلطنة عمان. وتطور الموقف بنحو سلبي بعد النقد الذي تعرض له الرئيس بسبب هذه العلاقة قبل أن يمنح الفرصة الكافية لاختبار مدى صحتها ونجاحها. وقد دفع الرئيس سالم ربيع ثمن هذه السياسة العقلانية التي بدأها، كما دفعتُ أنا بدوري ثمن السياسات الواقعية التي اتبعتها مع دول الخليج بعد ذلك.

تعطلت الاتصالات المشار إليها عندما ارتكبت حماقات لا معنى لها عام ١٩٧٨م قبل أحداث ٢٦ حزيران/ يونيو وإقصاء الرئيس ربيع، حيث نظمت مهرجانات في مدينة زنجبار تطالب بدعم الثورة في عُمان.

ارتبك الوضع كله في عدن، وعمان، والرياض، وتعطلت عملية التطبيع التي بدأها الرئيس ربيع حتى عادت من جديد على استحياء في فترة حكم الرئيس عبد الفتاح إسماعيل الذي حاول القيام بزيارة السعودية عام ١٩٧٩م، على طريق تطبيع العلاقات مع عُمان، ولكنه تراجع عن هذه الزيارة بعد إعلانها.

لم يكن ممكناً، ولا منطقياً، أن نستمر في سياسة سلخ جلدنا عن محيطنا الإقليمي والقومي العربي، فكان علينا أن نستأنف العلاقات مع الأشقاء في السعودية التي تُعَدّ بوابة العلاقة مع دول الخليج العربي ومع سلطنة عُمان، رغم ما بينهما من تباين بسبب السياسة الاستقلالية التي يمارسها السلطان قابوس والتي تتميز أحياناً عن سياسة بقية دول مجلس التعاون الخليجي بعد قيامه. كذلك كان علينا أن نقيم علاقات مع سلطنة عُمان. مارست دولة الإمارات العربية المتحدة ودولة الكويت الشقيقتان دوراً مقبولاً ومميزاً في الوساطة وفي إقامة العلاقات مع سلطنة عُمان في عام ١٩٨٢م، وفي التوصل إلى إعلان المبادئ الذي اتُّفق عليه في ٢٨ تشرين الأول/ أكتوبر من العام نفسه. وقد ذكرت تفاصيل ذلك سابقاً.

كادت عملية التطبيع وإقامة العلاقات تتعطل بسبب موضوع الحدود. وقد حاول الشيخ جابر الأحمد الصباح، أمير الكويت، أن يربط عملية التطبيع بعملية ترسيم الحدود، وذلك في اتصاله الهاتفي معي يوم ٢٧ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٨٢م، أي قبل يوم واحد من التوصل إلى اتفاق مبادئ. وأذكر أنني قلت له إن الترسيم يحتاج إلى وقت وثقة متبادلة من الطرفين، وعندما نتوصل إليهما فلن نختلف بعد ذلك. وقد حاول إقناعي بضرورة الإسراع في الترسيم، ولكنني رجوته أن يؤجل ذلك إلى وقت لاحق. وكان من رأيه أن تأجيل الترسيم سيؤدي إلى إخفاق لقاء الكويت وعملية التطبيع المرجوّة. وقد رددت عليه بأننا لسنا مستعجلين، ولسنا ضد الأشقاء في عُمان، وأن المشكلة بدأت عام ١٩٦٥ و١٩٦٧م وليست وليدة اليوم، وتستطيع أن تنتظر وقتاً آخر، وأبديت له حرصي على حلّ هذه القضية بما يرضي الطرفين ويحفظ لكل طرف حقوقه السيادية. بعد ذلك تراجع الطرفان الكويتي والعُماني عن تمسكهما بشرط ترسيم الحدود، وجرى التوقيع على اتفاق المبادئ.

في الوقت الذي كنت أرى فيه أن انفراج العلاقات مع السلطنة والسعودية تحول إيجابي لمصلحة النظام في اليمن الديمقراطية والعلاقة مع الجيران، كان لبعض العناصر المتطرفة في نظامنا رأي آخر.

سببت لنا سياستنا هذه كثيراً من المتاعب الداخلية، فقد كان هذا العام ١٩٨٢م، عام تطبيع العلاقة مع النظام في صنعاء بعد اتفاق تعز وإيقاف المظاهر المسلحة للجبهة الوطنية

في المنطقة الوسطى في الجمهورية العربية اليمنية، وعام تطبيع العلاقة مع دول الخليج الأخرى، وخصوصاً بعد الزيارة التي قمت بها لكل من الإمارات والكويت والبحرين وقطر. ولم تكن هذه العلاقة على حساب السيادة الوطنية والقرار الوطني المستقل.

لكن من وجهة نظر البعض عندنا، كان هذا العام بداية «التآمر والتفريط بثورة عُمان وبيعها للسلطان قابوس»، كما قال علي البيض للحاج صالح باقيس، وصالح باهديلة. وعام «بيع الثورة في شمال اليمن للرئيس علي عبد الله صالح» كما كان يردد المزايدون في عدن.. كانوا يقولون إن اكتشاف شركة (أجيب) الإيطالية للنفط في (شرمة) هو الثمن الذي دفعه السلطان قابوس والإمبريالية، مقابل التفريط في الثورتين اليمنية والعُمانية ... وإلا فلماذا لم يخرج النفط في عهد الرفيق المناضل عبد الفتاح إسماعيل، كما كان يردد المزايدون؟! ولذلك لم أُعِر اهتماماً لما كان يقال في هذا الموضوع، ولا ما يقال عن بناء فندق عدن الذي عدّوه «قلعة للرأسمالية». كما هاجموا تجميل مدينة عدن، والنوافير التي بدأنا نزين بها التقاطعات، باعتبارها إهداراً للمياه... وهاجموا ما أسموه «النمط الاستهلاكي الخليجي» عندما افتتحنا متاجر كبيرة «سوبر ماركت» لأول مرة في عدن. لم أُعِر كبير اهتمام لذلك. ما كان يهمني هو النهج الواقعي المتفهم لحقائق السياسة والواقع بما يخدم مصالح بلادنا وشعبنا، ويعزز العلاقة مع الأشقاء في المنطقة، ويحقق مزيداً من الأمن والاستقرار اللذين تحتاج إليهما اليمن الديمقراطية والمنطقة، وقد حدثت بعض الخلافات في هذا المسار لبعض الوقت، سواء عندما قامت المناورات العسكرية الأميركية – العُمانية المشتركة على حدودنا مع السلطنة بعد التطبيع، أو عندما أعلنت حالة الاستعداد المصطنعة في وزارة الدفاع على الحدود بين البلدين بعد إعلان اتفاق المبادئ بأسبوع، وكنت آنذاك أقوم بزيارة موسكو للمشاركة في تشييع جثمان زعيم الكرملين ليونيد برجينيف.

أتذكر أنني نصحت السوفيات بإقامة علاقة دبلوماسية مع سلطنة عُمان عندما طلب رأيي السفير السوفياتي في عدن، بعد أن سعى جلالة الملك حسين لإقامة علاقة بين الاتحاد السوفياتي وسلطنة عُمان، لأن هذه العلاقة ستُسهم في تعزيز الأمن والاستقرار بيننا وبين الكبار بعد أن بدأت الحرب الباردة تختفي تدريجاً في منطقتنا الاستراتيجية ومياهها الدافئة،

التي كانت تشكل أحد أهم مصادر التوتر على مستقبل الثروات النفطية والممرات والمضايق والبحار والمحيطات الاستراتيجية. لا يهمني هنا إن كان السوفيات قد عدّوا ذلك انتصاراً لسياستهم الرامية دوماً إلى الوصول إلى «المياه الدافئة» في الخليج العربي، والتي حلم بها «الروس» منذ أيام بطرس الأول في أواسط القرن السابع عشر كجزء من سياسة الإمبراطورية الروسية الهادفة إلى الوصول إلى البحر الأسود وبحر قزوين والخليج العربي. ما كان يهمني أن إقامة علاقات سياسية ودبلوماسية بين دول المنطقة والاتحاد السوفياتي مؤشر إيجابي على حصول تطورات إيجابية في التوازن في المنطقة التي ظلت حكراً على الأميركان والغرب.

الاستقرار هو الأهم

لم نطلب من عُمان ٣٥٠ مليون دولار كما طلب الرئيس سالم ربيع علي مقابل الأضرار التي لحقت باليمن الديمقراطية، كما أشرت، بل طالبنا بأمن واستقرار حقيقيين لدول هذه المنطقة وشعوبها بعيداً عن تأثير الدول الكبرى. وأعتقد أن السيد علي سالم البيض الذي تسلّم مقاليد السلطة والشراكة في الحكم في عدن بعد عام ١٩٨٦م سار على طريق الرؤساء الذين سبقوه، كقحطان الشعبي وسالم ربيع علي وعبد الفتاح إسماعيل وكاتب هذه السطور بشأن العلاقة مع عُمان ودول المنطقة، وهو الذي كان من أكثر المتشددين تجاه السلطنة والسلطان وحكام الخليج. ولكن السلطة والمسؤولية والمصالح الوطنية هي التي تعلم الجميع، ويبدو لي أن لعبة السياسة وإدارة الصراعات لا يفهمها البعض إلا بعد فوات الأوان.

رغم خروجي من السلطة، فقد أكدت مرة أخرى في صنعاء عند لقائي السفير العُماني عام ١٩٨٨م حرصي على الأمن والاستقرار في المنطقة، بما في ذلك أمن اليمن الديمقراطية واستقرارها، برغم خلافاتي حينذاك مع الجناح الذي يحكم عدن. حكى لي السفير أنه التقى أحمد مساعد حسين، وعلي منصور رشيد، وعبد ربه منصور الذين طلبوا منه دعماً مالياً وعسكرياً لفتح جبهة عسكرية ضد النظام في عدن، وكان ذلك بحضور السيد صالح الجنيدي الذي رتّب اللقاء في منزله وفي منزل السفير العماني في صنعاء. وعندما جاء السفير يستشيرني بشأن طلبهم، قلت له: إننا لا نريد مالاً ولا سلاحاً، ولا فتح جبهة ضد إخوتنا في

عدن. وأنتم تعرفون أنني الذي أغلقت أبواب العمل المسلح ضدكم في عام ١٩٨٢م، فكيف أفتح جبهة مسلحة ضد بلادي في عام ١٩٨٨م؟! وأكدت له أن كل ما أطلبه هو مساعدتنا على حلّ الخلافات مع إخوتنا في عدن لتحقيق المصالحة الوطنية وتحقيق الأمن والاستقرار في عدن كما حققتم أنتم الأمن والاستقرار والمصالحة الوطنية في عُمان. واتفقت مع السفير على إرسال وفد منا إلى عُمان برئاسة أحمد مساعد حسين وعضوية عبد الله أحمد غانم وعبد ربه منصور لشرح وجهة نظرنا للأشقاء في السلطنة، وقد جرت الزيارة فعلاً في العام نفسه. ولم تنقطع الاتصالات بعد ذلك مع الأخوة في عمان.

أما قيادة الجبهة الشعبية، فقد اتخذت بعد التطبيع موقفاً سلبياً ومعادياً لي بعد أحداث يناير ١٩٨٦م في منشوراتهم وبياناتهم وزياراتهم، بزعم أنني فرطت في الجبهة الشعبية لمصلحة النظام في مسقط، ولكنهم كانوا غير صادقين مع أنفسهم ومع رفاقهم ومع شعبهم، فالصراعات بينهم قد أجّجت الخلافات وعجّلت بنهايتهم وهروب معظم قياداتهم إلى عُمان وغيرها كما ذكرت سابقاً.

أما عن مصير من بقي من هؤلاء الشباب الطيبين الذين ضحوا من أجل عُمان قبل الحركة التي قادها السلطان قابوس بن سعيد عام ١٩٧٠م وبعدها، فلم يبقَ منهم إلا عبد العزيز القاضي، الأمين العام للجبهة الشعبية الديمقراطية العمانية منذ عام ١٩٨٣م وعدد قليل من رفاقه. ويبدو أنه يطبق نظرية قباطنة البحار: «الرُبان آخر من يغادر السفينة الغارقة» في بحر عُمان!

حديث طويل مع القاضي

كان عبد العزيز القاضي طالباً في جامعة القاهرة، وفي عهد السادات طُرد لأنه كان يُعَدّ من العناصر المتطرفة التي وقفت ضد سياسة «الخطوة خطوة»، والتحق بالثورة وأصبح الرجل الأول في الجبهة. وكان يُعَدّ بمثابة المرشد للثورة والثوار، فكان يلقِّن الشباب المقاتلين أفكار ماو تسي تونغ وغيفارا وكاسترو ولينين وستالين، وكان معجباً بالتجربة الصينية. وألّف كتاباً صغيراً جعله دليلاً للمناضلين، وقد تفوق بثقافته على قيادات الجبهة الأخرى، مثل محمد الغساني وعبد الله حفيظ وعلي محسن وأحمد عبد الصمد وغيرهم،

ليصبح أميناً للجبهة في مؤتمر اهليش عام ١٩٧١م. وكان يميل إلى التنظير، مع قدرة عجيبة على الحديث الطويل والتحليلي المستند إلى ما يعتقد أنه منهج علمي ماركسي. لكنّ التنظير شيء، والواقع كان شيئاً آخر.

فيما بعد جاء عبد العزيز القاضي لزيارتي في دمشق. جاء إليّ مهنئاً بعيد الأضحى المبارك، وكان ذلك في مايو ١٩٩٥م. لم يعد ذلك الرجل الذي كان في يوم من الأيام ينادي بتحرير عُمان والخليج العربي. كان الآن واهناً وضعيفاً يتنقل بين عدن ودمشق بعد أن ضاقت به المهرة والمكلا.. ولم يعد هناك وجود للخط الأحمر، ولا ممر هوشي منه، ولا حتى الثورة العُمانية، أو الجبهة التي كانت تقودها، وبعد أن عاد معظم قيادات الجبهة وقواعدها إلى عُمان بقي عبد العزيز القاضي ونفر قليل معه عاجزين عن استيعاب ما حدث، وعن استيعاب التطورات الجديدة في المنطقة والعالم. عين القاضي اليوم لم تعد على تحرير عُمان وبقية الخليج، بل على مجرد الإقامة في ظفار. وهو يريد أن يكون ذلك بالتفاوض والحوار مع السلطة في السلطنة التي لا تحتاج إلى ذلك، لأنه لا يمثل قوة سياسية يمكن التفاوض معها، ولكنها لا تمانع في عودته. دار بيني وبينه حديث طويل حول الماضي والحاضر، بدأ الحديث حول أوضاعهم في الجبهة، أخبرني أن معظم عناصرهم عادوا إلى عُمان ما عدا مجموعة صغيرة لا يزيد عددها على العشرة. وقال إن الذين عادوا يتعرضون للملاحقة والمراقبة من قبل قوات الأمن في السلطنة، وتحدث عمّا أسمّاه «الكبت والقمع»، طالباً ممارسة مزيد من الضغط على السلطان قابوس للقيام بمزيد من الإصلاحات. وتعرض في حديثه لليمن، وقال إن القيادة التي جاءت بعد أحداث كانون الثاني/ يناير ١٩٨٦م أصيبت بالعمى السياسي، وقال إنها أدارت عملية الوحدة بطريقة خاطئة، وكذلك أدارت الصراع مع الرئيس علي عبد الله صالح عام ١٩٩٣ و١٩٩٤م. ورغم أن القاضي كان من أشدّ المتحمسين لتلك القيادة ومؤيداً لمواقفها خلال أحداث يناير ١٩٨٦م وبعدها، إلا أنه جاء الآن معتذراً عن مواقفه تلك، واعترف بأنهم أخطأوا بحقي في الماضي، قائلاً إن الحزب الاشتراكي فقد البوصلة منذ عام ١٩٨٦م. وأشار إلى مواقفي الأخيرة من الصراع الدائر في اليمن بين الرئيس ونائبه قائلاً: لقد تابعنا تصريحاتك ومواقفك المتوازنة والمسؤولة، ولقد حظيت بتقدير كبير من

كل المراقبين والمتتبعين والحريصين على الوحدة وعلى الحزب، ونرى ضرورة أن نلتقي ونتشاور. وفي الختام طلب مني أن أتوسط لهم لدى الأخوة في سلطنة عُمان.

الجزيرة بيد السلطان لا بيد الثوار

كان القاضي يتحدث بصوت هادئ، ويتوقف عن الحديث بين الجملة والأخرى، ولو لم أكن أعرفه لاعتقدت أنه قد أنهى حديثه بعد كل جملة. لكنني تركته يواصل حديثه، يتحدث ويسكت ثم يواصل كلامه. حاولت ألّا أقاطعه حتى توقف عن الكلام من تلقاء نفسه. وحين جاء دوري في الحديث، شكرته على الزيارة وعلى تهنئته لي بالعيد السعيد، وتمنيت له الصحة والسعادة. وشكرته أيضاً على حديثه عن الأوضاع في اليمن وعُمان. وذكّرته بأنه قد مرّ على آخر لقاء بيننا سنوات عديدة، جرت خلالها أحداث وتطورات يشيب لها الولدان، إذ انهار الوضع في عدن وتحققت الوحدة، وجرت محاولة للانفصال وحرب طاحنة، وخلال هذه السنوات انهارت أنظمة مجاورة، انهار النظام في إثيوبيا، وانفصلت إريتريا، وجرت حرب الخليج التي دمرت التضامن العربي ومزقت الأمة أكثر مما كانت ممزقة. كذلك انهارت المنظومة الاشتراكية والدولة العظمى الثانية في العالم الاتحاد السوفياتي، وغير ذلك من الأحداث الكبرى، حتى لم تعد الخريطة السياسية اليوم كما كانت أمس. وقلت له وبالنسبة إليكم فقد عاد رفاقكم إلى عُمان، سواء بموافقتكم أو من دونها. وذكّرته باللقاء الساخن الذي جرى بيني وبينه في أكتوبر ١٩٨٢م في عدن، قبل إعلان اتفاق المبادئ بين اليمن الديمقراطية وسلطنة عُمان في الكويت، وكيف اختلفوا معي بشأن تطبيع العلاقات مع السلطنة، وكيف نصحتهم دون أن يسمعوا نصيحتي بضرورة عودة أنصارهم إلى الداخل بالاستفادة من العلاقة الجديدة مع عُمان في فترة التطبيع والمصالحة، وكيف أن السلطنة أبدت استعدادها ورحبت بترتيب أوضاعهم. وزدت قائلاً: إن ما رفضتموه أمس قبلتموه متأخرين وبعد أن تغيرت الظروف والوقائع، وأدركتم أن العودة أمر مهم وضروري. وقد استوعبت السلطنة الجميع حسب علمي، وعليكم أن تدركوا أن الثورة قد حققت أهدافها في التغيير، فما جرى في عُمان من تطور وتحديث يعود الفضل فيه إلى الثورة التي

كانت أحد العوامل الرئيسة في تسريع الإصلاحات التي جرت في البلد، بصرف النظر عمّا إذا أدى ذلك في الأخير إلى سحب البساط من تحت أقدام الثورة والثوار، وبصرف النظر عمّن حقق تلك الإصلاحات، المهم أن التقدم الذي كنتم تنشدونه لشعبكم قد تحقق، ولم يكن من المهم أن يتحقق ذلك على أيديكم بالرغم من شكوكي الكبيرة في ذلك. والتفتُّ نحوه وقلت له: أنا أعني كل كلمة أقولها، إن حكم السلطان قابوس أفضل للشعب العُماني اليوم من حكمكم لو وصلتم إلى الحكم. لقد تقاتلتم في المهرة حتى قبل أن تدخلوا إلى صلالة، وصفّى بعضكم بعضاً باسم الصراع الطبقي حتى قبل أن تصلوا إلى السلطة، تماماً كما حدث معنا في الجبهة القومية، ومن بعد ذلك في الحزب الاشتراكي اليمني، وأحمد الله الذي جنّب عُمان تكرار تجربتنا المرة. وأضفت: يا صديقي، لقد تخلفنا نحن في اليمن، بينما تبنى اليوم في عُمان دولة عصرية بمعنى الكلمة. وضربت له مثلاً في الفارق الذي حدث بين البلدين والتجربتين، قائلاً له: إن المواطن في اليمن يخرج في الصباح من منزله يحمل معه رشاشاً ومسدساً وقنبلة وخنجراً قبل ركوبه السيارة في طريقه إلى عمله أو إلى أي مكان لأنه لا يشعر بالأمان، وحياته في خطر في كل لحظة. أما المواطن في عُمان فيصعد إلى سيارته ويربط حزام الأمان إلى كتفه ولا يحمل معه أي سلاح سوى خنجر يتمنطق به كنوع من الزينة والحفاظ على التقاليد، وذلك الخنجر لا يخرج من غمده ويلزم به من يعمل أثناء الدوام الرسمي فقط. يفعل ذلك امتثالاً للنظام الذي أرساه السلطان وأخذ الناس يتعودونه. أليس ذلك هو ما كنتم تحلمون به وتريدونه وتناضلون من أجله؟ يجب ألّا تشعروا بالندم مما حدث لكم كأفراد، لأن الثورة، وإن لم تنتصر ولم تصلوا إلى السلطة، إلا أن الأحلام تحققت في أفضل صورها. ولا أخفي عليك شيئاً إذا قلت لك إنه لم يكن في وسعكم أن تفعلوا أفضل مما فعله السلطان قابوس لبلاده. لقد أصبح صمام الأمان لعُمان ولهذه الإصلاحات، وإذا كانت هناك بعض المضايقات للعائدين منكم، كما تقول، فهذا أمر بسيط مقارنة بما يحدث في اليمن وما يحدث في بلدان أخرى للمعارضة من تصفيات جسدية، وسجون ومتابعات. أرجعت عدم توفق بعض الدول في سياساتها إلى غياب الرؤية الاستراتيجية، وضربت له مثلاً باليمن التي لا يمكن أن تتحول إلى دولة قوية ومؤثرة في المنطقة في ظل غياب مثل هذه

الرؤية الاستراتيجية والديمقراطية والتداول السلمي للسلطة. ونصحته بالعودة مع من بقي من زملائه. وقلت له إن المتغيرات في المنطقة والعالم ستفرض على الجميع إعطاء مزيد من الحريات والهامش الديمقراطي. وقلت للقاضي الذي كان ينصت إلى حديثي باهتمام: أنا لا أدافع عن مسقط، ولكنني أتحدث معك من موقع الصديق، ومن منطق المراقب والمتتبع المحايد لما يجري في منطقتنا. وفي نهاية اللقاء أكد عبد العزيز القاضي موضوع الوساطة مع عُمان. وبدوري شكرته وتمنيت وما زلت أتمنى أن يحظى في وضعه الحالي بالاهتمام اللائق مهما كانت الخلافات معه، أو سلبياته. وأنا على يقين أن أحضان بلده وقلب سلطانها سيتسعان له كما اتسعا للجميع واحتضنهم. وعلمت بعد ذلك أنه قد عاد إلى عُمان.

في عام ١٩٩٦م قمت بزيارة عُمان لتقديم التعازي إلى أحد كبار المسؤولين في السلطنة، الفريق علي ماجد المعمري وزير القصر بوفاة والده، وشاهدت الإنجازات الكبيرة التي تحققت في العاصمة مسقط وغيرها من المدن العمانية، وشعرت حينذاك بأن الثورة انتصرت... على نفسها. وانتصر السلطان قابوس لها... لكن المنتصر الأول كان الشعب العماني. وتلك كانت زيارتي الثانية لمسقط، أما الأولى فلها قصة تستحق أن تروى.

الزيارة الأولى لعُمان

التقيت أحد الأصدقاء العُمانيين الذين تعرفت إليهم في صنعاء، وهو السيد عبد الله الراشد، الذي لامني على عدم زيارة السلطنة التي يكنّ مسؤولوها الكثير من الاحترام لشخصي، وأبدى شخصياً مشاعر طيبة نحوي، وقد وعدته خيراً... مرّ زمن على ذلك اللقاء، وإذا به يتصل مساء الثلاثاء أغسطس ١٩٩٢م، قائلاً: لقد شاهدناك بالملابس العربية في تلفزيون أبو ظبي وعرفناك، وكان يشير إلى حضوري سباق الزوارق الذي ذكرته في ما سبق، وسأل: ما رأيك لو قمت بزيارة بلدك الثاني عُمان ما دمت قريباً منا الآن؟!، وافقت على الزيارة، وفضلت السفر عبر العين للتعرف أولاً إليها... ومن العين انتقلت برفقته إلى واحة البريمي. لم أصدق أننا انتقلنا بهذه السرعة بين بلدين ما إن تجاوزنا جزءاً من الشارع حيث لا توجد نقطة أو إشارة تدلّ على أننا قد انتقلنا من الإمارات إلى سلطنة عُمان. وهناك أقلّتنا طائرة عمودية «هليكوبتر» حديثة، جيدة التجهيز، شعرت فيها بأننا في طائرة من طائرات

الركاب الفخمة التي كانت مجهزة بالمقاعد والتكييف والأحزمة، ولم ينسَ مضيفونا العُمانيون الضيافة العربية الأصيلة، التمر والقهوة. قطعنا المسافة بين البريمي ومسقط في نحو ساعة، وكانت الرحلة ممتعة ومريحة وسط مشاعر أخوية صادقة وأحاديث ودية شعرت بها صادرة من القلب إلى القلب. شعرت بأنني قد انتقلت إلى اليمن، وأنني أحلّق في السماء اليمنية، لأن كل من في الطائرة كان يشعرني بأنني جزء منهم وأنهم أهلي وإخوتي.

الطائرة تحلّق على ارتفاع منخفض، بينما كنت أُحلّق بتفكيري وأشرد أحياناً على الرغم من ضجيج المروحية... الحديث مع مرافقي عبد الله راشد وديٌّ للغاية، وكان يبتسم طوال الوقت، وأشعرني بلطفه بأنه قريب مني وأنني أعرفه منذ عشرات السنين. تذكرت وأنا أُحلّق فوق الأراضي العُمانية تاريخ العلاقات بين اليمن الديمقراطية وسلطنة عُمان، الخصام والوئام، الحرب والسلام، الحقيقة والأوهام. تذكرت الحرب بين الطرفين. تذكرت حوف وصرفيت وجاذب وتمريت. تذكرت عبد العزيز القاضي، زعيم الجبهة الشعبية لتحرير عُمان، وعلي سالم البيض الذي كان يتبنى الثورة في عُمان وتحرير الخليج العربي، والشخصيتان مارستا دوراً كبيراً في القطيعة بين البلدين طوال السنوات الماضية. تذكرت تلك الأوهام بتحرير السعودية وبقية الخليج، بينما لم يكن نشاطهم يتجاوز أحلام الجلسات الخاصة. تذكرت التصفيات الجسدية لكل من يعارضهم في الرأي أو يختلف معهم في الرؤية بحجة الصراع الطبقي، وتذكرت هزيمتهم في ظفار وعودة المقاتلين إلى عُمان بعد أن سبقتهم الإصلاحات والتحديث وبناء الدولة في عُمان... وتذكرت اعتقال أعضاء القيادة في المهرة، وفي مقدمتهم أحمد عبد الصمد، والقيادة اليمينية كما كانوا يطلقون عليها... وتذكرت الجهود التي بذلناها لتطبيع العلاقات بين البلدين والشعبين وكيف وضع ذلك حداً للحرب وأسهم في صنع الأمن والاستقرار والتنمية في اليمن وعُمان والمنطقة. كانت بعض الذكريات تمر كالسحاب أو كالشريط السينمائي الآن، ولكنها في تلك الأيام كانت وقائع وأحداثاً ومواقف، وفي بعض الأحيان ربما كادت تؤدي إلى الحرب مجدداً.

أخذت الطائرة تقترب من مطار مسقط، وكنت أستطيع من هذا العلوّ رؤية المزارع والطرقات والقصور والفيلات الواقعة بالقرب من المطار في مسقط الجديدة، حيث

هبطت طائرتنا المروحية في مهبط خاص بالقرب من دار الضيافة الذي نزلنا فيه، واستقبلنا المسؤولون من وزارة القصر السلطاني.



قصر السلطان في مسقط آذار/ مارس ٢٠١١

مع رئيس الديوان ووزير القصر

بعد نحو ساعة من وصولنا، التقيت الفريق علي بن ماجد المعمري[(١)] رئيس الديوان ووزير القصر، ودار بيننا حديث ودي حول الماضي والحاضر، وامتدّ الحديث إلى المستقبل أيضاً. واستأثرت العلاقات عن الماضي بجزء من اللقاء وخصوصاً القطيعة التي استمرت منذ عام ١٩٦٧م حتى عام ١٩٨٢م، عام تطبيع العلاقات بين البلدين. قلت له إننا جميعاً نتحمل المسؤولية عن ذلك، وتطرق الحديث إلى الصعوبات التي واجهت عملية التطبيع، لأن هناك قوى كثيرة كانت ضد هذا التقارب بين البلدين، ولم يكن من مصلحتها أي انفراج في علاقات دول المنطقة لأنها كانت مستفيدة من حالة التوتر، سواء في اليمن أو خارجه. وجرى الحديث أيضاً حول أحداث يناير ١٩٨٦م والتطورات الأخيرة في اليمن، وقدّرتُ لهم مبادراتهم هذه، وأكدت ضرورة استمرار هذه الاتصالات والصلات الأخوية.

---

(١) علي بن ماجد المعمري: عزل من منصبه في عام ٢٠١١م مع ثمانية وزراء إثر احتجاجات شعبية في ولاية صحار وبعض المناطق في السلطنة، وكان لعزله أثر إيجابي لدى الشارع العماني، مما خفف من حالة الاحتقان، وجرى احتواء التظاهرات تدريجاً، لأن المتظاهرين احتلوا دوار صحار أكثر من ٣ أشهر، وطالب السلطان قابوس بالحوار معهم، وليس العنف لمعالجة المشاكل العامة والشخصية.

النصر والهزيمة في المتحف

رتب لي الأخوة العُمانيون زيارة المتحف العسكري الذي يعكس تاريخ عُمان وعراقتها منذ ما قبل الإسلام وبعده وحتى اليوم... إنه يلخّص تاريخ هذه البلاد العريقة التي حكمت ذات يوم جزءاً من شرق إفريقيا. أخذ الدليل الشاب يقدم إليّ شرحاً مستفيضاً عن كل جناح من الأجنحة التي يضمها المتحف. ولكنني لاحظت عندما أصبحنا في جناح ظفار أنه أخذ يتحدث بنوع من الحذر والخجل عن الانتصارات العسكرية التي حققتها القوات السلطانية على الجبهة الشعبية لتحرير عُمان، مشيراً إلى أسلحة الجبهة التي استولت عليها تلك القوات والتي كانت الآن معروضة في المتحف كجزء من التاريخ العسكري القريب لعُمان. وكان معظم هذا السلاح قد خرج من مخازن اليمن الديمقراطية أو دخل عبر أراضيها مقدماً من السوفيات ومن الليبيين. وبعد أن لاحظت الحرج الذي شعر به الضابط، ربما حرصاً منه على مشاعري، قلت له:

لا عليك. لا تستعجل. استمرّ في الشرح كما كنت تفعل في بقية الأجنحة! ضحك مرافقي الذكي واللمّاح عبد الله راشد، ولكنه لم يعلّق بشيء. استجاب الضابط لرغبتي، فأخذ يشرح بتؤدة، وأنا أتابع شرحه وأشاهد الأسلحة المعروضة، وأشعر بالألم، ليس بسبب الاستيلاء على هذه الأسلحة وهزيمة الجبهة الشعبية ومشروعها بتحرير عُمان والخليج العربي، بل لأنّ الصراع فيما بينهم أدى إلى هزيمتها، ولم يسمعوا نصائحنا بشأن العلاقة مع عمان بعد زيارة الشيخ صباح الأحمد الصباح وزير خارجية الكويت. وتذكرت أن الصينيين كانوا أكثر واقعية من بعضنا عندما رفضوا تقديم الدعم إلى هذه الثورة قائلين: لا يمكن أن نساعد مجموعة من المقاتلين الذين لا يقفون على أرضهم! وكانت تلك إشارة إلى أن الجبهة تقف وتقاتل من داخل أراضي اليمن الديمقراطية، وليس لها موطئ قدم في عُمان، بعد عام ١٩٧٥، كذلك فإنها لا تستند إلى قاعدة شعبية هناك، وهذا سر هزيمتها بعد الإصلاحات التي قام بها السلطان قابوس بعد عام ١٩٧٠.

يوسف بن علوي والوساطة العمانية

في دمشق في العاشر من يناير ١٩٩٤م التقيت وزير الدولة للشؤون الخارجية العمانية السيد يوسف بن علوي. كان ذلك لقائي الأول به بعد أن أصبح وزيراً، وقد جرى بناءً على طلبه. ودار الحديث حول الأوضاع في اليمن والمبادرة العمانية التي نقلها بن علوي إلى الرئيس علي عبد الله صالح ونائبه علي سالم البيض لتحقيق المصالحة إثر الخلاف الذي نشب بينهما. شدد بن علوي على أهمية بقاء الوحدة اليمنية، وقال: المهم أن تبقى الوحدة، ولا يهم بعد ذلك إن كان نظام الحكم فيدرالياً أو حكماً محلياً متطوراً. المهم أن تبقى الوحدة، وأن نجنب اليمن الحرب والانفصال. وكان رأيه أن في بقاء اليمن موحدة قوة لعُمان وللمنطقة ولليمن نفسها. وتحدث عن الوضع هناك، فقال إنه صعب وخطير. ونقل عن الرئيس علي عبد الله صالح أنه عرض عليّ أن أتحمل رئاسة الحكومة بدلاً من رئيس الوزراء حينذاك حيدر العطاس، وطلب رأيي في عرض الرئيس. شكرت السيد يوسف بن علوي على الزيارة واللقاء، وكذلك على الدور الذي تقوم به السلطنة للحيلولة دون تفجر الأوضاع في اليمن. وأثنيت على دور جلالة السلطان قابوس وحرصه على الوحدة اليمنية وعلى أمن المنطقة استقرارها. وأكدت بدوري أهمية الحفاظ على الوحدة وضرورته وقلت إننا ندعم الجهود التي يقوم بها جلالته والسلطنة والسيد بن علوي لرأب الصدع وتقريب وجهات النظر بين الطرفين، الرئيس ونائبه والحزب الاشتراكي والمؤتمر الشعبي، وأكدت لبن علوي في نهاية اللقاء أنني لا أفكر في العودة إلى السلطة، رداً على العرض الذي نقله إليّ من الرئيس علي عبد الله صالح بترؤس الحكومة. وأخبرته بأن اهتمامي ينصبّ في الوقت الحالي على إنشاء مركز للدراسات الاستراتيجية، وقد وعد بأن بلاده ستساعد على إنشاء هذا المركز، نظراً إلى أهميته للوطن العربي، ولكن لم يفوا بشيء من ذلك، كغيرهم من العرب. واستعدت مع يوسف بن علوي بعض ذكرياتنا في القاهرة عندما كان مديراً لمكتب جبهة تحرير ظفار قبل انسحابه منها، والتحاقه بالنظام العماني في السبعينيات. أحسست بأنه قد نضج كثيراً خلال هذه السنوات، وتطور مع تطور ونمو مكانة السلطنة وسياستها الاستراتيجية المتوازنة في المنطقة تجاه الصراعات الإقليمية والدولية، فلم تقاطع السلطنة

نظام السادات في مصر بعد توقيع اتفاقية كامب ديفيد كما فعلت بقية الدول العربية في قمة بغداد عام ١٩٧٨م، وقد اتخذت مواقف متوازنة من إيران، بينما دول الخليج تتأثر بالموقف السعودي من الصراع مع إيران. كذلك اتخذت مواقف متوازنة من التطورات والصراعات في المنطقة، وآخرها عاصفة الحزم التي انطلقت عام ٢٠١٥، ووقفنا نحن ضدها وطالبنا بالاحتكام إلى لغة الحوار بدلاً من السلاح، فقد خلفت هذه الحرب الآلاف من الشهداء والجرحى، وشردت الملايين ودمرت القدرات الاقتصادية والعسكرية لليمن، ولم يستفد منها إلا تجار الحروب.

كنا بزيارة للبنان وطهران لشرح التطورات في اليمن والمبادرة التي تقدمنا بها لوقف الحرب، وقد تحدثنا عن ذلك في مكان آخر، وبعدها انتقلنا على الطائرة العمانية (بوينغ ٧٣٧) إلى مسقط عاصمة سلطنة عُمان، وقد سبقها اتصال مع المسؤولين لترتيب الزيارة. وبالفعل وصلنا إلى مسقط مساء يوم ١٩ أبريل ٢٠١٥م على شركة الخطوط الجوية العمانية، وانتقلنا من المطار مباشرة إلى وزارة الخارجية العمانية للقاء الصديق يوسف عبد الله بن علوي وزير خارجية عُمان، وقد حضر الاجتماع معي محمد علي أحمد وجابر محمد، ومن الجانب العُماني، إضافة إلى وزير الخارجية، حضر كل من القنصل سالم الكثيري والسادة هلال وخالد السلتي المكلفون متابعة الملف اليمني.

وقد علمنا قبل اللقاء مع السيد يوسف بن علوي أنه سيغادر في اليوم التالي، ولهذا حددوا لنا اللقاء في هذا الوقت المتأخر، وبعد وصولنا من السفر مباشرة.

رحب بنا السيد يوسف بن علوي وبزيارتنا في السلطنة، وأشاد بالجهود التي نبذلها لوقف الحرب، وهذا ينسجم مع الموقف العُماني المتوازن من الصراعات في اليمن والمنطقة.

شرحنا للوزير الجهود التي بذلناها مع الأطراف اليمنية والإقليمية والدولية كافة لوقف الحرب وآخرها جهودنا في إيران، وقدمنا إليه أفكاراً لوقف الحرب وانسحاب أنصار الله وصالح من الجنوب وإحلال قوات جنوبية بدلاً منهم حتى لا يحدث فراغ سياسي وأمني في عدن وباقي المناطق الجنوبية وتحلّ بالجنوب فوضى أمنية لا يمكن السيطرة عليها نتيجة وجود السلاح و«القاعدة» والقوى الإرهابية الأخرى.

أشاد بن علوي بالمبادرة، وأكد دعمهم لها، ولكنه أشار إلى أنه يخشى في حالة الانسحاب المفاجئ أن تحتل «القاعدة» عدن كما احتلت المكلا وزنجبار وشبوة وبعض مناطق لحج.

وأكدنا له أنه في حالة استجابة دول المنطقة لهذه المبادرة فإننا قادرون على ملء الفراغ وحماية الجنوب من القوى الإرهابية، وعبر الحوار سنتجاوز المشاكل كافة ونوقف الدمار والدماء.

بارك السيد بن علوي كل مساعينا، وطلب من الدبلوماسيين المعنين بالملف اليمني أن يستمر التشاور معهم، سواء في عمان أو دبي أو أي مكان آخر. وقد استمرّ التواصل مع الفريق المعني بالملف اليمني، في أكثر من ١٠ لقاءات في مسقط ودبي.

ومن تجربتنا مع الأخوة في السلطنة شعرت بأنهم يتصفون بالأدب والتواضع والحرص على أمن اليمن والمنطقة واستقرارهما، بل ينطبق عليهم قول أحد الأصدقاء إن «الحكمة عمانية» بعد أن فقد اليمنيون الحكمة اليمنية التي وردت في الحديث النبوي لأبي موسى الأشعري.

لم يتمكن وفد أنصار الله من اللقاء معنا في مسقط حسب الاتفاق بسبب الحصار العسكري المفروض على اليمن من الجو والبحر والقصف والعمليات العسكرية وبعد الحدود العمانية عن صنعاء وخطورة الطريق، وخصوصاً بعد سقوط المكلا عاصمة محافظة حضرموت (كبرى محافظات اليمن وأغناها بالنفط) بيد تنظيم القاعدة بتاريخ ٣ أبريل ٢٠١٥م بعد أسبوعين من انطلاق عاصفة الحزم، وحكموها سنة تقريباً، وانسحبوا منها في يوم واحد فقط!! وهذا يدعونا إلى التساؤل كيف دخلوا وكيف خرجوا؟ وهو ما ينطبق على سيطرة «القاعدة» على محافظات أخرى من اليمن.

وفي وقت لاحق أرسلت القيادة العمانية طائرة خاصة إلى صنعاء لإحضار وفد من أنصار الله (الحوثيين) إلى مسقط، الذين التقيتهم هناك في ٢٥ مايو ٢٠١٥م برئاسة الأستاذ صالح الصماد ومحمد عبد السلام وعلي القاحوم، وناقشت معهم المبادرة التي تقدمنا بها مع الأخ محمد علي أحمد رئيس مؤتمر شعب الجنوب، وتوصلنا إلى مسودة اتفاق غير معلن من ثماني نقاط، باركها الجانب العماني الذي كان حاضراً هذا اللقاء، وهي:

العمل على وقف إطلاق النار بالتنسيق والتعاون مع الدول الإقليمية والأمم المتحدة.

تجهيز قوة عسكرية وأمنية وتسليحها قوامها (٢٠ ألفاً) بإشراف وزارة الدفاع، لتصبح هذه القوة جزءاً لا يتجزأ من وزارة الدفاع.

انسحاب اللجان الشعبية من المدن الجنوبية بعد استيعاب أفرادها في المؤسسات العسكرية والأمنية وفق مخرجات مؤتمر الحوار الوطني، وذلك بعد استتباب الوضع، حتى لا يحصل فراغ تستفيد منه «القاعدة» والمنظمات الإرهابية.

التعاون والتنسيق المشترك لمواجهة عناصر «القاعدة» والعناصر الإرهابيين المتحالفين معها في أي مكان، وتحرير الأراضي الموجودة فيها كحضرموت وغيرها.

العمل على وجه السرعة لإيصال الإغاثة الإنسانية إلى مختلف المحافظات اليمنية.

العمل على إعادة النازحين إلى قراهم ومدنهم بأسرع وقت.

التواصل مع القوى السياسية اليمنية والإقليمية والدولية كافة للعودة إلى الحوار اليمني – اليمني في المكان والزمان المتفق عليهما بين الأطراف كافة، والتشديد على قيام دولة اتحادية بإقليمين بحدود ٢١ أيار/ مايو ١٩٩٠م بفترة مزمنة، وتشكيل مجلس رئاسة، وحكومة انتقالية بالمناصفة.

تشكيل لجنة «تنسيق ومتابعة» من الأطراف الموقعة على هذا الاتفاق للإشراف على تنفيذ بنوده والتشاور بشأن أي مستجدات لاحقة.

لكنّ هذه المبادرة لم يكتب لها النجاح كغيرها من المبادرات، لأن تجار الحروب لا يريدون نهاية لهذه الحرب التي تحولت إلى مصدر للارتزاق والثراء على حساب دماء الشعب اليمني ودماره ودموعه وهو الذي لا ناقة له في هذه الحرب ولا جمل.

العلاقات مع قطر

كانت زيارتي الأولى لقطر عام ١٩٨٢م، في إطار جولة قمت بها إلى بعض دول المنطقة، التقيت خلالها أمير قطر الشيخ خليفة آل ثاني، وولي عهده حمد، قبل أن ينقلب على والده ليصبح حاكماً مع شريكه حمد بن جاسم وزير الخارجية. أتذكر أننا اختلفنا مع

الوالد في موضوع العلاقات مع المعسكر الاشتراكي ومع إثيوبيا، ولكننا اتفقنا مع ابنه حمد الذي كان متفقاً معنا في كثير من القضايا، فانزعج والده منه وضحك، وقال: لقد اتفقتم عليّ. شعرت حينذاك بالتباين في وجهات النظر بينهما، ولكنني لم أتصور أن تصل الأمور إلى ما وصلت إليه، فالسلطة تفرق ما بين الأب وابنه والأخ وأخيه، وهذا لا ينطبق على قطر وحدها، فالخليج والمنطقة مرّا بمثل تلك الأحداث.

حينذاك كانت قطر قد بدأت استثمار ثرواتها وخيراتها، وانعكس ذلك على النهضة التي شاهدناها في العاصمة وخارجها وغيرها من المشاريع، وكان الأمير وابنه مهتمين بالمها التي جرى تجميعها من الصحراء من ثمود في حضرموت، وطلب مني الأمير حمد أن نقوم بزيارة المحمية التي كانوا يعتزون بها وعملوا من رأسها شعاراً لطائراتهم وغيرها. لكن والده لم يكن مقتنعاً بهذه الزيارة مع وليّ عهده بعد تطابق وجهات النظر بيني وبينه في القضايا الإقليمية والدولية، ولهذا أجّلت الزيارة لهذه المحمية نزولاً عند رغبة والده، لكن العلاقات الرسمية والشخصية بيني وبين وليّ العهد استمرت منذ عام ١٩٨٢ وحتى مغادرتي للسلطة وما بعدها، وكنا نتبادل الهدايا في المناسبات وعند زيارة الوفود لنا أو لهم. بعدها لم أزرها منذ مغادرتي السلطة عام ١٩٨٦م إلا عام ١٩٩٤م.

في عام ١٩٩٤م، طلب مني الرئيس علي عبد الله صالح التوجه إلى الدوحة بعد إخفاق الوساطة العمانية في صلالة بينه وبين نائبه علي سالم البيض الذي التقيته في أبو ظبي قبل لقائه علي عبد الله في صلالة بساعات. كان حكّام قطر يقفون سياسياً وإعلامياً إلى جانب الرئيس علي عبد الله في صراعه مع نائبه علي سالم البيض. فقد حضرت لقاءً يمنياً قطرياً مشتركاً وطلب الرئيس مني أن أتحدث عن أوضاع اليمن وحكام عدن، وحين تحدثت أكدت أهمية استمرار الوحدة والحفاظ عليها، وقلت إن الحوار والحلّ يجب أن يأخذا في الاعتبار الحفاظ على الوحدة اليمنية، لأنني أرى الأمور الآن تسير نحو الاقتتال والانفصال. قاطعني الرئيس وقال إننا لا يمكن أن نكون البادئين للحرب، وإننا متمسكون بوثيقة العهد والاتفاق والدفاع عن الوحدة مهما كلفنا ذلك من ثمن.

كان أمير قطر الشيخ خليفة يسأل ونحن نجيب، وابنه الشيخ حمد يعلّق على حديثنا

ويؤكد مساندته للوحدة. بعد الجلسة حاول الرئيس إقناعي بالذهاب معه إلى صنعاء لتحمّل مسؤولية نائب الرئيس بدلاً من البيض، ولكنني قلت له إنني لا أفكر في العودة إلى السلطة، وألحّ الرئيس عليّ للسفر معه، وقال: «إن الطائرة الرئاسية تحت تصرفك، وعند وصولنا إلى صنعاء إذا أحببت واقتنعت بقيت... وإذا رغبت في التخزين والمبيت يوماً واحداً، فهذا راجع لك!!! وإذا رغبت في مواصلة رحلتك بعد وصولنا إلى صنعاء فعلى بركة الله». كان أمير قطر ووليّ عهده وحمد الجاسم يسمعون الحديث، ولكنني ودعته في مطار الدوحة وطلبت منه أن يصطحب معه مدير مكتبي حسن عليوه ليشرف على ترتيبات افتتاح فرع المركز العربي للدراسات الاستراتيجية الذي سيكون في حالة تجهيزه مناسبة لقدومي إلى صنعاء لافتتاحه، وقبل ذلك المقترح على مضض!!!! بعد إقلاع الطائرة توجهنا إلى قاعة التشريفات مع الأمير وابنه حمد بن خليفة، وسألني الشيخ حمد: ما رأيك في الوضع اليمني؟ فنحن نتابع تصريحاتك ومواقفك المتوازنة وحرصك على حقن الدماء والحفاظ على الوحدة، قلت لهما: إن الجميع يستعد للحرب والانفصال وأنا شخصياً ضد الاقتتال والانفصال. قاطعني الشيخ خليفة وقال إن الرئيس أكد أنه لن يحارب ولن يبدأ... قلت: طبول الحرب تقرع في كل مكان من اليمن، وتجار الحروب منتشرون في كل مكان فيها وخارجها، بعضهم لشراء السلاح والاستفادة من العمولات، وبعضهم من أجل الحصول على السلاح وبيعه، وآخرون من أجل الحرب التي يراها البعض مصدراً للارتزاق الدائم، فقد عاش البعض من الحروب والصراعات منذ قيام الثورتين في الشمال والجنوب. ابتداءً بحروب الملكيين، وهم ينتقلون من حاكم إلى حاكم ومن دولة إلى دولة أخرى، وجاهزون لنقل بنادقهم من كتف الاشتراكي إلى المؤتمر الشعبي، كما كانوا ينقلونها من كتف عبد الناصر إلى كتف السعودية، ودوماً كان اليمنيون وقوداً في هذه الصراعات والحروب، وندفع الثمن دماءً ودموعاً والآخرون يغذونها بالمال والسلاح. نحن اليوم بحاجة إلى مساعدتكم ومساعدة كل الأشقاء لوقف الانهيار في الوضع اليمني، فالبلد يقف على حافة الحرب، وقلت له إنني أتوقع أن يحدث هذا الانفجار خلال شهرين من الآن لا أكثر! وهو ما حدث في مايو من العام نفسه.

سألني الشيخ خليفة: أأنت متيقن مما تقول؟ لكن الشيخ حمد قال: أنا أعتمد على

تقييمه للوضع، وأتوقع حدوث الحرب بين الطرفين كما أكد الرئيس علي ناصر. والتفت نحوي الشيخ خليفة وقال: نحن سنساعدك في إنشاء مركز الدراسات إذا كنت لا ترغب في العودة إلى اليمن والسلطة... (وكان وعداً بم يفوا به). غادرت قاعة التشريفات، وكان في انتظارنا الشيخ حمد بن جاسم وزير الخارجية الذي طلب مني أن أبقى بعض الوقت، ولكني أصررت على السفر إلى دمشق. وسألني الشيخ حمد: أين طائرتك؟ وكان الهدف من السؤال توديعي، فأجبته: سأسافر عبر طيران الخليج. لكنه أصر على ترتيب إحدى طائرات الديوان الأميري لنقلنا إلى دمشق دون أن يستأذن الأمير أو ولي عهده في هذا القرار، وشعرت بأنه صاحب قرار... وغادرت الدوحة إلى دمشق على متنها.

بعد هذا تغيرت الأمور في قطر. رحل أمير قطر الأب، وحلّ محله ابنه الشيخ حمد، ومارس الشيخ حمد بن جاسم دوراً مهماً في هذه التغييرات، وفي السياسة الداخلية والخارجية، وأصبح صاحب اليد الطولى في القرار في هذا البلد الشقيق، وفي المنطقة أخذت قطر تؤدي دوراً أكبر من حجمها جغرافياً وبشرياً. حاول الشيخ خليفة استعادة عرشه بالتعاون مع بعض الدول وسماسرة السلاح في بعض الدول العربية واشترى الأسلحة من وادي عبيدة في الجمهورية اليمنية، وكلّف هذه المهمة وغيرها من المهمات المتعلقة بالحصول على السلاح الشيخ حمد بن جاسم وزير الاقتصاد في حكومته السابقة، وهو ابن عم الأمير، ويدعي أن والده هو الذي كان يجب أن يكون حاكماً، ولكنهم تآمروا عليه وأبعدوه ليحلّ محله الشيخ خليفة وابنه حمد، وقامت المحاولة الانقلابية الفاشلة، وأكد لي الشيخ حمد بن جاسم بعد هذا الانقلاب الفاشل أنهم خدعوه وتآمروا عليه (يقصد الأب والابن) وعرضوا كل أنصاره في الداخل والخارج لهذا المصير الذي آلوا إليه في السجون والتشرد بين الدول العربية. وشكا لي تجارَ السلاح في وادي عبيدة والحكومةَ اليمنية التي سلّمت بعض الضباط الهاربين لحكومة قطر، وشكا موقف بعض الدول الخليجية التي تحالفت معه ومن بعد خانته، وشكا أن الشيخ خليفة أيضاً تخلى عنه واستولى على كل أموال قطر ومساعدات بعض الدول. كان محبطاً يكيل الاتهامات يميناً وشمالاً. تحدثت كثيراً مع قائد هذا الانقلاب الفاشل في عديد من المرات، ونصحته بالتوقف عن هذه الأحاديث، والتوقف

عن حديث السلاح والانقلابات، ونصحته بإجراء حوار مع أمير بلاده والعودة إلى وطنه... ولكنه كان يرفض الحديث عن ذلك، وشرحت له كيف أننا في تجربتنا في عدن كنا نطالب بالحوار مع النظام بالرغم من حكمه علينا بالإعدام.

حمد بن جاسم هذا شخص صادق وبريء، جريء وسطحي، ولا يخفي أي أسرار أو معلومات شخصية أو غيرها، وأخيراً استقرّ به المقام في دمشق في قرى الأسد، وحاول أن يبني له قرية سكنية في مرتفعات جبال الديماس التي تطلّ على الصبورة ويعفور وقرى الأسد، واشترى قطعة واسعة من الأرض تقدَّر بألف دونم لبناء منازل له ولزوجاته وأولاده وأخواته ووالدته. وقد زرت هذه الأرض التي حدد فيه مواقع السكن والخيام والخيول والغنم، وشكا أنه وقع ضحية مجموعة من النصّابين ساعدته على شراء الأرض، وكان أكثر من ٤٠٠ دونم منها أراضي دولة وليست للبائعين مما اضطره إلى الشكوى، وقد تدخل مدير مكتب الرئيس الأسد واحتُجِز النصّابون، وسُجِّلَت الأرض باسمه حسب توجيهات من الرئيس الذي أبدى تفهماً لحالته، لأنه كما شرح لي كان يقاتل مع الفدائيين الفلسطينيين في لبنان قبل تحمله مسؤولية شرطة قطر ووزارة الاقتصاد...

فيما بعد وهو في زيارة للبنان، جرى اختطافه وتخديره وترحيله ونقله ومحاكمته وسجنه في قطر، حيث قضى فترة العقوبة، ودفع ثمن أخطائه وعفويته واستهتاره وعدم حرصه على أمنه. وقد تألمت كثيراً لما جرى له. ومن المؤسف أن الشيخ خليفة تخلى عنه وعن أنصاره الذين نقل بعضهم إلى قطر للمحاكمة. وبالمصادفة، قابلت بعد ذلك الشيخ خليفة في أبو ظبي، وكان ينزل مع أنصاره ومرافقيه وحرسه الفرنسيين والطباخين في الأنتركونتيننتال، وكان عددهم لا يقل عن ١٠٠، معظمهم من الأجانب، وقد نصحته بالحوار مع ابنه الشيخ حمد والعودة إلى الوطن، فالسلطة انتقلت من اليد اليمنى إلى اليسرى ولم تخرج خارج أسرته، وشرحت له أن «حياة الغربة كربة» كما يقول المثل، وقلت له: «صدقني أيها الأمير، جربنا الحياة خارج الوطن منذ ١٩٨٦م، ونأمل أن يأتي اليوم الذي يلتئم فيه لمّ شمل أسرتكم، فأنت أولاً وأخيراً أبٌ للجميع». ولكنه صمت طويلاً ولم يُعَلِّقْ على حديثنا عن العودة والسلطة والغربة، وربما لم يقتنع بحديثي وكان لا يزال يفكر في الجاه والسلطان.

لم أزر قطر مجدداً إلا عام ١٩٩٨م، إثر عودتي من زيارة لطهران، وقد شاركنا في ندوة نظمها وكيل وزارة الخارجية الأستاذ عبد الرحمن العطية الذي رتب لنا موعداً للقاء الأمير حمد بن خليفة... وفي اللحظة الأخيرة قبل لحظات من الموعد ونحن نستعد للذهاب إلى المقابلة جرى الاتصال بي وإشعاري بأن موعد الأمير قد تأجل، وأنهم حددوا لي بديلاً من ذلك موعداً مع رئيس وزراء قطر (شقيق الأمير). قلت لهم إنني لم أطلب موعداً مع رئيس الوزراء، والمقابلة مع الأمير هي للمجاملة ولأنني أعرفه، وقد رتبت المقابلة وأبلغت بذلك رسمياً وأنا أتأهب الآن للذهاب إليه، وأعلم أن وزير الشباب اليمني عبد الوهاب راوح ذاهب لمقابلة الأمير بعدي، وقد حددوا له موعداً عند الساعة العاشرة والنصف صباحاً، ولن أذهب لمقابلة أحد في قطر إذا تعذّر اللقاء مع الأمير.



من اليمين الوزير عبد الوهاب راوح والسفير عبد السلام العنسي

حاولوا كثيراً إقناعي، بمساعدة من السفير اليمني الأستاذ عبد السلام العنسي، بالعدول عن قراري، ولكنني أوضحت موقفي بصورة جلية قائلاً: ما داموا هم الذين اعتذروا عن مقابلتي للأمير حمد، فأنا أعتذر عن عدم اللقاء مع رئيس الوزراء، لأن مقابلتي للأمير لقاء مع صديق عرفته منذ عام ١٩٨٢م. أما رئيس الوزراء، فأنا لا أعرفه، وليست لدي أية قضايا يمكن مناقشتها معه.

بدا لي قرار الاعتذار وكأنه ليس قراراً قطرياً، بل حصل نظراً إلى تدخل جهات أخرى كانت تراقب تحركاتي وتخشى حركتي، بالرغم من أنني جندت كل نشاطي لخدمة اليمن وشعبه، ومع الأسف إن الرئيس علي عبد الله صالح لم يتصرف بطريقة ودية، وأنا متيقن من أنه لن يعترض على مقابلة أي شيخ من الذين يتنقلون ويقفون على أبواب حكام الخليج. وهكذا قررت مغادرة الدوحة دون لقاء أحد، خلافاً لرجاءات القطريين والسفير اليمني، وقد كان لي ما أردت، حيث غادرت إلى دبي، وكان في استقبالي في مطارها صديقي الشيخ طالب بن صقر القاسمي قائد شرطة رأس الخيمة، الذي أقلني بسيارته إلى مقر إقامتي.



الفصل الخامس

اليمن الديمقراطية والعراق

من عاصمة الأمويين
إلى عاصمة العباسيين

في عام ١٩٧٠ بعد وداع رسمي من قبل الفريق حافظ الأسد، وزير الدفاع، أقلعت بنا الطائرة في طريقنا إلى بغداد، في رحلة استغرقت أكثر من ساعة، حيث شاهدنا من الجو لأول مرة نهري الفرات ودجلة وشريطاً أخضر تمتد عليه مدينة بغداد عاصمة الرشيد التي ترتبط بسلسلة من الجسور المعلقة. ومرّ أمامي شريط من المعلومات عن تاريخ بلاد الرافدين وعن بغداد التي شيدها الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور بين سنتي ٧٦٢ – ٧٦٦م [١]، لا تزال بغداد تعيد بشيء من التكرار كل الأدوار التي مرت بها حضارة بلاد الرافدين عبر التاريخ، بدءاً ببعث حضارة الآشوريين والبابليين، مروراً بمجيء الحَجّاج الذي حصد رؤوس العراقيين، إلى تحولها إلى إحدى الحواضر الإسلامية... إلى اجتياح المغول والتتار لها

(١) بقي الخلفاء العباسيون يحكمون تلك العاصمة حتى سنة ١٢٥٨م، وذُكر عن المنصور أنه استخدم مئة ألف رجل في بناء هذه المدينة المعروفة وأسوارها المزدوجة. لكن الفساد قد نخر هذه الدولة، وكان المال يذهب إلى الخدم والحشم وإلى الموظفين

وحرق حضارتها ومكتباتها. توقفت عن استرجاع المعلومات بينما كانت عجلات الطائرة ترتطم بمدرج المطار. كان في استقبالنا على أرض المطار الفريق الركن الطيار حردان التكريتي، رجل الانقلابات، وهو رجل ذو بنية ضخمة وملامح قاسية. بعد مراسم الاستقبال انتقلنا إلى فندق بغداد، وبعد استراحة قصيرة حضرنا حفلة العشاء بنادي الصيد الذي أقامه نائب الرئيس صدام حسين بمناسبة توقيع اتفاق ١١ مارس مع الأكراد في شمال العراق، شارك فيه عدد من المسؤولين والفنانين من العراق والجمهورية العربية المتحدة (مصر). وفي اليوم الثاني قمت بزيارة الرئيس «أحمد حسن البكر»[1] بحضور نائب رئيس مجلس قيادة الثورة العراقية «صدام حسين»، والفريق «حردان التكريتي» وزير الدفاع. وكان هذا لقائي الأول بالقيادة العراقية.

شرحت لهم الأوضاع والتطورات الأخيرة في بلادنا، وفي المناطق المحيطة، والمصاعب التي تواجهها الثورة في اليمن الديمقراطية من جراء التآمر الخارجي وتخلي بريطانيا عن دعمها للجنوب وفقاً لمفاوضات الاستقلال بجنيف عام ١٩٦٧، وطالبت بفتح سفارة لليمن الديمقراطية في بغداد.

ردّ الرئيس البكر على ما قلته، فأكد ضرورة افتتاح سفارة لبلادنا في بغداد، وأبدى استعداد الحكومة العراقية لتجهيزها بكل ما يلزم، ووجّه الدعوة إلى الرئيس سالم ربيع علي رئيس مجلس الرئاسة لزيارة القطر العراقي في الوقت الذي يراه مناسباً.

أما نائبه «صدام حسين»، فقد تحدث عن ضرورة تعزيز الجبهة الداخلية في اليمن الجنوبية، وفهمت من ذلك أنه يشير إلى ضرورة استيعاب «البعثيين العراقيين» في السلطة، أو السماح لهم بالنشاط العلني. وكانت كل نشاطات الأحزاب الأخرى محظورة (ما عدا التنظيم الحاكم) بموجب قرار صدر بعد الاستقلال مباشرة يعتبر الجبهة القومية التنظيم السياسي الشرعي الوحيد في البلاد (اليمن الجنوبي)... ودعانا إلى تعزيز علاقاتنا بالجمهورية العربية

(١) أحمد حسن البكر: مناضل ورجل دولة وعسكري (مهيب) ورئيس الجمهورية العراقية منذ ١٧ تموز ١٩٦٨م حتى عام ١٩٧٩م ونائب الأمين العام لحزب البعث العربي الاشتراكي. ولد في تكريت عام ١٩٣٩م.

اليمنية... حيث وصل «البعثيون العراقيون» إلى السلطة في صنعاء عبر انقلاب ٥ نوفمبر ١٩٦٧م الذي أطاح بحكم الزعيم المشير عبد الله السلال، وكان «صدام حسين» يشير صراحة إلى ضرورة التعاون معهم مباشرة من خلال ما سمّاه ضرورة تعزيز علاقة اليمن الجنوبية بصنعاء. وفي إشارة أخرى إلى تعزيز علاقتنا ببغداد لمّح صدام إلى ضرورة تعزيز علاقتنا بالدول العربية «التقدمية».. وقد وعدته بأن أرفع تلك القضايا إلى القيادة السياسية فور عودتي إلى البلد.

ظهر لي من حديثه أن له من السلطة أكثر مما كان يبدو في ذلك الوقت. وكان الإعلام العراقي يلمّعه ويدعوه بالسيد النائب، وسرعان ما انتزع لنفسه كل السلطة بعد أن أحال الرئيس أحمد حسن البكر على التقاعد وأجبره على الاستقالة فيما بعد.

في صباح اليوم التالي ٢٨ مارس التقيت الفريق «حردان التكريتي» وزير الدفاع في مكتبه، وناقشت معه التعاون العسكري بين البلدين.

كانت القضية التي تلحّ عليّ أكثر من سواها هي الطائرات الحربية التي خلفتها لنا بريطانيا عند انسحابها من عدن، وخصوصاً بعد القرار غير المدروس الذي اتخذه وزير الدفاع علي سالم البيض بطرد الطيارين البريطانيين من سلاح الجوّ ما أدى إلى توقف الطائرات عن القيام بأي مهمة، بينما بقي الفنيون الأرضيون البريطانيون في السلاح، وكان علينا أن نبحث عن حلّ لمشكلة الطيارين وصيانة الطائرات، ولهذا فقد لجأنا إلى طلب مساعدة الأشقاء العراقيين الذين يملكون مثل هذا النوع من الطائرات البريطانية «جت بروفست»، فشرحت لوزير الدفاع العراقي حاجتنا الملحّة إلى خبرات فنية عراقية لصيانة هذه الطائرات. وكان هذا يتفق مع توجهاتنا لإنهاء العقد مع الإنكليز وإنهاء مهمة خبرائهم العسكريين في سلاح الطيران. وقد أبدى وزير الدفاع العراقي موافقته على إرسال عدد من الفنيين العراقيين إلى عدن... لكني طلبت منه تحديد أسمائهم على الفور وإبلاغهم بذلك حتى أتمكن من اصطحابهم معي على الطائرة نفسها، وقد وافق وأعطى تعليماته بذلك.

أما في يتعلق ببقية القضايا التي تطرقنا إليها، فقد أبلغني أنهم سيدرسونها. واستنتجت من ذلك أننا لن نحصل على كل ما نريده بسهولة، وليس ذلك لأنها غير متوافرة، أو أن

ظروف العراق لا تمكنه من مساعدتنا، بل لأن العراقيين كانوا يمارسون علينا نوعاً من الضغوط غير المرئية، ويربطون حصولنا على المساعدات ببعض الشروط. كنت أعوِّل على أن المسؤولين العراقيين سيعيدون النظر في موقفهم في الأخير، لكنني لم أكن أعرف متى بالضبط، في أثناء الزيارة أو بعدها.

في الساعة التاسعة صباح اليوم الأخير من شهر مارس زارني الفريق صالح مهدي عماش، وزير الداخلية العراقي، في مقر إقامتي بفندق بغداد، وكان يرافقه السيد صلاح عمر العلي عضو مجلس قيادة الثورة وزير الإعلام الذي تعرفت إليه في الخرطوم في عام ١٩٦٩م بحضور صديقنا المشترك جورج حبش، وأتذكر أنني وجهت إليه الدعوة لزيارة عدن، وقد استجاب لها مشكوراً، وقام بالزيارة يوم ٦ فبراير١٩٧٠م وفي الطريق إلى عدن، أجبر الطيارين السعوديين، وعلى رأسهم الأمير بندر بن سلطان طائرته على الهبوط أثناء مرورها في أجواء السعودية فوق خميس مشيط، وكادت أن تسقط وتتحطم عندما هوت إلى الأرض بسبب تأثير مرور طائرتين عسكريتين سعوديتين عن يمينها ويسارها، لكنّ الطيارين العراقيين الماهرين استطاعوا أن يمنعوا هذه الكارثة، وهبطوا في المطار بسلام وأجبر الوفد برئاسة صلاح عمر العلي على الخروج من الطائرة من أجل تفتيشها، لكن السيد صلاح العلي رفض النزول من الطائرة، وأصرّ على الإقلاع ومواصلة رحلته إلى عدن، وأمام إصرارهم على تفتيش الطائرة، بزعم أنها تحمل أسلحة إلى عدن، استجاب لهم في التفتيش، لكنه رفض الخروج من الطائرة، ومن ثم سُمح له بمواصلة رحلته. وقد بادر من جهته بإقناع القيادة في العراق بتقديم الدعم إلى النظام في عدن، وجرت الموافقة على اعتماد مبلغ ١٥ مليون دولار لتمويل مشروع تعميق ميناء عدن، يُدفع على مدى عشرين سنة بلا فوائد.



مع السيد صلاح عمر العلي في بيروت ٢٠١٨م الذي اختلف مع النظام عام ١٩٧٠ واتفق معه مرة أخرى واختلف معه بشكل نهائي في نهاية الثمانينات وتنقل من بلد الى آخر حتى استقر به وبنا مؤقتا المقام في بيروت

وبمجرد رؤيتهما أحسستُ بأن هذا اللقاء هو الذي سيحدد الموقف النهائي للعراقيين من القضايا التي أثرناها معهم. ولم يخب حدسي، فقد طلب الفريق «عماش» مزيداً من الإيضاح لموقف بلادنا من قضايا عديدة تدخل في نطاق استراتيجية العراق، وخصوصاً الأوضاع في الخليج العربي. لم يكن العراقيون يراهنون على دور «الجبهة الشعبية لتحرير عُمان والخليج» كما كانت تسميتها حينذاك، بل كانت لهم حساباتهم الأخرى التي لم يفصحوا عنها لتحقيق أهدافهم في هذه المنطقة إلا عام ١٩٩٠م. ولذلك أخفق وفد من الجبهة زار بغداد في وقت سابق في مقابلة أيّ مسؤول عراقي. وفي المقابل، كانوا يتبنون جماعة «المجلس الثوري» في «جبهة التحرير الأريترية». وقد طلب منا الفريق «مهدي عماش» تسهيلات لإدخال السلاح إلى أريتريا، ولم يقل إن المساعدات التي طلبناها تتوقف على هذا الشرط، بل أبلغني بموافقة العراق على تخصيص منح عسكرية لبلادنا أكثر مما طلبناه.

لم أنسَ أن أصطحب معي على الطائرة الفنيين الجويين الذين وافقت الحكومة العراقية على إعارتهم لبلادنا بناءً على إلحاح مني، لكنني أخفيت أمرهم ومهمتهم عن أعضاء الوفد المرافق لي. زعمت أنهم أطباء وسيعملون في المستشفى العسكري للقوات المسلحة بعدن. كنت حريصاً على ألا يتسرب أي شيء عنهم، حتى لا يكتشف ذلك الإنكليز، فيسارعوا إلى سحب خبرائهم في القوى الجوية قبل أن نوفر البديل، وقبل أن ندرب كادرنا. وكاد السر ينكشف ونحن لا نزال في القاهرة. فجأة شعر أحد أعضاء الوفد المرافق لي بوعكة صحية، فلجأ فوراً إلى أحد المهندسين العراقيين[1] واسمه عبد المجيد السعدون لاعتقاده بأنه طبيب حسبما أخبرته، وكاد يسقط في يد المهندس، فهو ليس طبيباً، ومهنته في صيانة الطائرات الحربية أبعد ما تكون عن الطب وعلاج المرضى، لكنه استطاع التخلص من الحرج بادعاء أنه طبيب أمراض نسائية، وبذلك تخلص من المأزق الذي كاد يكشف السر الذي كنت حريصاً على إخفائه، اتصل بي علي عيدروس وكيل وزير الزراعة عضو الوفد المرافق، وشكا إليّ «الطبيب العراقي» الذي رفض أن يكشف عليه ويصف له دواء لمرضه، فأفهمته وأنا أخفي ضحكتي أنه قد يكون متعباً من رحلة الطائرة، كذلك أخبرته بأنه لا يحمل دواءً معه. وحولته على خدمات «فندق شبرد» الذي يقع على ضفاف النيل، فاستدعوا له طبيباً لمعاينته.

فور عودتي إلى عدن رتبت عمل الفنيين العراقيين دون أن يكتشف البريطانيون مهمتهم، وكانوا ينجزون أعمال صيانة الطائرات سراً ليلاً... وهكذا بعد أن أنجزوا مهمتهم بصورة نهائية أمكننا إلغاء العقد مع الخبراء الإنكليز في الطيران.

في عام ١٩٧٢م زار العراق عبد الفتاح إسماعيل، الأمين العام للتنظيم السياسي للجبهة القومية. وزاره أيضاً رئيس مجلس الرئاسة سالم ربيع علي في عام ١٩٧٤م، واستمرّ تبادل الزيارات والاتصالات بين البلدين الشقيقين. وقمت بزيارة بغداد مرة أخرى لحضور مؤتمر القمة العربية التاسعة، وبالرغم من ذلك، لم يقم أي من الرؤساء العراقيين بزيارة اليمن الديمقراطية.

---

(١) بعد ذلك قابلته في دمشق عام ٢٠٠٥ م، بعد أن أصبح رئيساً للجامعة السورية الدولية الخاصة بريف محافظة درعا، وقد تابع دراساته العليا ونال شهادة الدكتوراه.

الطريق إلى فلسطين
يمرّ بسقطرى

أثناء زيارتي بغداد في يوليو ١٩٧٧م قدم العراق إلى بلادنا مساعدة تقدر بعشرين مليون دولار مع أسلحة وذخائر، ولكن المساعدة قدمت إلينا في ظروف صعبة مالياً وسياسياً وعسكرياً. بعد ذلك طلب منا العراقيون أن نمنحهم قاعدة بحرية وجوية في جزيرة «سقطرى» ذات الأهمية الاستراتيجية، وكان الهدف من ذلك الخروج بالبحرية العراقية من شط العرب ومضيق هرمز الذي يبعد عن شط العرب أكثر من ٥٠٠ ميل، وقال لي نائب الرئيس العراقي صدام حسين، وهو يعرض عليّ الأمر: «نحن بحاجة ماسة لهذه القاعدة، لأن البحرية العراقية تحت رحمة الشاه والدول العظمى ودول الخليج الذين يجب اقتلاعهم!» حسب تعبيره. وفي السياق أضاف صدام: «إن إقامة هذه القاعدة ستسهم في الخلاص من هذه الأنظمة. كذلك إن الطريق إلى تحرير فلسطين يجب أن يمرّ عبر اقتلاع هذه الأنظمة في الخليج وإسقاط نظام حافظ الأسد في سورية». وأكد ضرورة قيام دولة قوية ومهابة في شبه الجزيرة العربية وبلاد الشام، تسيطر على النفط والممرات الاستراتيجية في مضيق هرمز وباب المندب وخليج العقبة، وقيام هذه الدولة هو الطريق الوحيد لتحرير فلسطين، وغير ذلك من الأحلام. أتذكر أنني نصحته في أحد اللقاءات في نهاية السبعينيات بأن هذه المشاريع والطموحات غير واقعية، وأنه من غير المسموح حتى الحديث عنها، وعلقت مازحاً: «إلا في أغنية بساط الريح من بغداد إلى تطوان»، وفي الشعارات التي رفعها البعث «أمة عربية واحدة»، وأن القوى الكبرى لن تسمح حتى بالتفكير في ذلك، وضحك حينذاك وقال: «إن الغرب لا يريد من منطقتنا إلا النفط، ونحن مستعدون لبيعه لهم بأقل من السعر العالمي». وكان حينذاك يحلم بدور قومي وإقليمي أكبر من دور الرئيس جمال عبد الناصر بعد غيابه معتمداً على الثروة الهائلة من النفط في العراق وعلى رابع جيش في العالم، كما كان البعض يصورونه آنذاك.

بصراحة مطلقة، أدهشني تفكير صدام حسين، ولكنني قلت له: «إن الخلافات العربية يجب ألّا تصل إلى هذا الحد، وفوق ذلك إن مثل هذا العمل غير مسموح به، فللغرب مصالحه التي سيحميها». ومنذ ذلك الوقت اكتشفت أنه يخطط لشيء ما، ولكن لم يخطر على بالي حدود ما يفكر فيه، ولم أعد إلى ذلك اللقاء الغني بالمؤشرات والذي لم أتفهمه قط إلا بعد أن اجتاح صدام حسين بقواته دولة الكويت الشقيقة والتفكير نحو مضيق هرمز، حين اعتقد أن الساحة خالية – كما تصور – وما عليه إلا أن يتقدم خطوة قد تكون فاتحة لخطوات أخرى عديدة. وقد حاولت أن أوضح لصدام حينذاك عندما طلب منا منحه قاعدة بحرية وجوية في جزيرة سقطرى، أن إقامة مثل هذه القاعدة ستلحق الضرر باليمن الديمقراطية، وزدت قائلاً: «إننا متهمون أصلاً دون أساس، بمنح قاعدة للاتحاد السوفياتي في الجزيرة، ما أدى إلى تآمر الدول الغربية وبعض دول المنطقة على اليمن الديمقراطية، ولسنا على استعداد لنفتح على أنفسنا باباً آخر للمشاكل». وأخبرته بأنني مع ذلك سأعرض الأمر على القيادة السياسية في عدن.

وفعلاً ناقش «المكتب السياسي» الطلب العراقي، وكان أول تعليق قاله رئيس مجلس الرئاسة سالم ربيع: «إنهم إذا دخلوا سقطرى فلن يخرجوا منها»، باعتبار أن اليمن الديمقراطية لا تملك أسطولاً بحرياً أو طائرات بعيدة المدى لاستعادة الجزيرة. واقترح الرئيس ربيع بدلاً من ذلك منحهم قاعدة بحرية في قرية بئر علي على بعد ٣٠٠ كيلومتر تقريباً إلى الشرق من عدن، وكان رأيه أنّ بالإمكان مراقبتهم هناك، وإذا تطلب الأمر إخراجهم منها.

قدم إلى عدن الفريق الركن عبد الجبار شنشل، رئيس الأركان العراقي، للاستماع إلى ردّ القيادة، وقد أطلعناه على مقترحنا، مستبعدين فكرة منحهم قاعدة في سقطرى من الموضوع نهائياً، لكن العراقيين الذين كانوا قد وضعوا في مخططهم الجزيرة رفضوا كل البدائل الأخرى.

كرسي صدام حسين!

أتذكر أن زيارتي لبغداد في يوليو ١٩٧٧م تأجلت عدة مرات بسبب كرسي صدام،

حيث كان الرئيس صدام يجلس على كرسي يعلو كراسي ضيوفه! كان صدام مريضاً، مصاباً بمرض في عموده الفقري، وقيل لي إنه لن يستطيع استقبالي في المطار أو الجلوس في أثناء المفاوضات معي على كرسي عادي، وعندما رفضت ذلك، أشعرونا بالموافقة على الزيارة، وقالوا إنهم حلوا مشكلة الكرسي! إذ سيجلس معك على كرسي عادي وقت التصوير ليعود إلى كرسيه بعد ذلك.

في زيارة أخرى للعراق في عام ١٩٧٨م تحدثت مع صدام حسين بمنتهى الصراحة، مشيراً إلى أن العلاقات التي بيننا لا تمتّ بصلة إلى العلاقات التي يجب أن تقوم بين دولتين شقيقتين. قلت له: إنكم والإخوة الليبيين تعدون وتوقعون اتفاقيات معنا ولكنكم لا تنفذون منها شيئاً!

انزعج صدام لهذه الصراحة ورد مستاءً أو مستفزاً: إذن نحن نكذب؟!

قلت له: لا أقصد أنكم تكذبون، ولكنكم لا تنفذون ما تعدون به! في عام ١٩٧٥م وعدتم الرئيس سالم ربيع علي في قمة الرباط بتقديم معونة مالية إلى اليمن الديمقراطية بمبلغ عشرة ملايين دولار لمواجهة ارتفاع أسعار النفط بعد حرب ١٩٧٣م، وقبل ذلك وعدتم الأمين العام عبد الفتاح إسماعيل بمبلغ مماثل في أثناء زيارته لبغداد عام ١٩٧٢م، ولكنكم لم تنفذوا هذا ولا ذاك، وها نحن صرنا في عام ١٩٧٨م.

وأضفت:.. الليبيون بالمثل، وعدونا بتقديم مساعدات وصَدقناهم وأدرجناها ضمن خططنا الاقتصادية، ولكنهم تراجعوا عن وعودهم، وسبّب لنا ذلك إرباكات لا حد لها، وتعطلت مشاريع مهمة كانت مدرجة في خطة التنمية، واضطررنا إلى ترحيلها من سنة إلى أخرى.



صدام حسبن نائب الرئيس العراقي يلتقي رئيس الوزراء علي ناصر محمد في بغداد ١٩٧٨م بحضور علي عنتر وزير الدفاع

حين انتهيت نهض صدام ورفع سماعة الهاتف وطلب رقم عدنان حسين، الصديق والأخ المدلل لصدام كما يطلقون عليه في بغداد. وكان عدنان حسين يشغل منصب وزير التخطيط في الحكومة العراقية، وأصدر إليه أمراً بتحويل مبلغ عشرين مليون دولار فوراً إلى اليمن الديمقراطية. وكان صدام يقول له في أثناء إصدار الأمر: «دزوا عشرين مليون دولار للأخ علي ناصر، إنه هنا عندي وزعلان ويتهمنا بالكذب وأننا نوقع ولا ننفذ». وسمعت على الجانب الآخر صوت عدنان حسين وهو يجيب: «أمرك سيدي»، وبعد ذلك قابلت الصديق عدنان حسين الذي أكد لي أنه سيحول المبلغ، وكان يتردد باستمرار إلى عدن ودول المنطقة، وقد تعززت علاقاتنا الشخصية والرسمية معه حيث كان يعتبر رجل المهمات الخاصة إلى دول المنطقة، وهو محل تقدير واحترام المسؤولين فيها.

وبالفعل حُوِّل المبلغ إلى عدن بعد أسبوعين فقط. شعرت حينذاك بأنني لم أخطئ في صراحتي مع صدام، وبأنه صاحب القرار ورجل الدولة القوي في بغداد في فترة رئاسة أحمد حسن البكر.

الشيوعيون على الخط

هذه الفسحة من الوئام لم تدم طويلاً. فقد دخل الشيوعيون العراقيون عنصراً في العلاقات بين عدن وبغداد. كان «الحزب الشيوعي العراقي» عضواً مشاركاً في الجبهة الوطنية التي شكلها الحزب الحاكم في العراق بعد استيلاء البعثيين على السلطة هناك. ويبدو أن بعض قيادات «الحزب الشيوعي العراقي» قد أساءت تقدير الموقف من حزب البعث العربي الاشتراكي في العراق. وبسبب بعض طروحات صدام حسين التي كانت الصحافة تروجها في تلك الأيام، خُيِّلَ إلى بعض قياديي الحزب الشيوعي، بطريقة ساذجة، أن صدام يتجه نحو مواقع اليسار والمواقف الأقرب إليهم وإلى معتقداتهم، واعتماداً على هذا الاستنتاج الخاطئ كان بعضهم، من غير احتراز، يتبادلون الحديث بينهم خلال مكالمات هاتفية عن هذه الفكرة ويروجونها، بل وكما يبدو، إن البعض تمادى إلى حد الحديث عن يسارية صدام ويمينية رئيس الجمهورية أحمد حسن البكر!

لم تكن أجهزة المخابرات العراقية نائمة، بل كانت ترصد كل شيء، وقد سجّلت تلك المكالمات الهاتفية، كما فهمت فيما بعد منهم، واطلع عليها نائب الرئيس صدام حسين، فثارت ثائرته وغضب غضباً شديداً. وفي أحد لقاءاتنا في بغداد فاتحني قائلاً: «إن الشيوعيين يزرعون الفتنة بين القيادة، ويزعمون أن صدام يساري والبكر يميني، ونحن لا نتفق مع تقييمهم، وعليهم أن يفهموا أننا لسنا تلاميذ لهم، مهما كانت الوثائق التي يرسلونها إلينا بهدف التأثير فينا وكسبنا إلى أيديولوجيتهم!».

غير أن السهام لم تكن موجهة إلى الشيوعيين وحدهم، فقد كانت هذه بداية النهاية للجبهة الوطنية في العراق التي لم يكتب لها النجاح والاستمرار طويلاً.

رغم أنني حاولت التوسط وإصلاح العلاقة بين صدام والشيوعيين العراقيين بناءً على طلبهم، إلا أن ذلك كان من غير جدوى، بل إن ذلك – ويا للأسف – أثر في علاقاتنا مع العراق. وبالنتيجة، أوقفت الحكومة العراقية تمويل مشروع الكهرباء في عدن. وهذا المشروع تعرض لسوء الحظ عدة مرات. وعدت السعودية بتنفيذه في عام ١٩٧٦ عقب إقامة العلاقات الدبلوماسية بين عدن والرياض، لكنها سحبت موافقتها بعد أحداث ٢٦ يونيو

١٩٧٨، وقتل الرئيس الشمالي أحمد الغشمي، وتعليق عضوية اليمن الديمقراطية في جامعة الدول العربية في يوليو ١٩٧٨م فتكفل العراق بتنفيذه وسحب هو الآخر موافقته بتمويل المشروع، بسبب الوساطة بين الحزب الشيوعي العراقي والنظام. ومن هنا يمكن القول بكل أسف إن السياسة والعلاقات العربية تخضع غالباً، إن لم يكن دوماً، لردّ الفعل التي يعبّر عنه في وضع معين، في لحظة معينة، وليست علاقة قائمة على التفاهم والمصالح المشتركة والرابطة الأخوية والوصول إلى اتفاقات ترضي الجميع، ومن هذا المنطلق الأخير الذي كنت أؤمن به وبإمكانية التوصل إليه، ولو في حدوده الدنيا بذلت جهوداً لتسوية العلاقات بين بغداد ودمشق على النحو الذي سأذكره عند الحديث عن مؤتمر القمة العربية التاسع في بغداد. وأذكر أنني عندما عرضت فكرة الوساطة بين البلدين الشقيقين على صدام، قال لي: أنت لا تعرف صديقي وصديقك حافظ الأسد كما أعرفه. إن عنده غطاساً ومن الصعب أن تقيس أعماقه»! وقال صدام بشكل أكثر وضوحاً: «إذا اقتربنا بعضنا من بعض أو اتحدنا فان أحدنا سيسقط حتماً». في الأخير قال: «ولكن جرب ونحن جاهزون!».

لا أظن أن صدام كان يستنتج أو يستبق إخفاق أية علاقة وحدوية أو علاقة وئام طبيعية بين دمشق وبغداد، بقدر ما كان يعبّر عن العناصر الرئيسة في الصراع بين العاصمتين، أي ما يمكن أن نطلق عليه نزعة (المستقبلية) المبنية على تجارب تاريخية في الماضي. ولذلك فإن العلاقة بين دمشق وبغداد لم تشهد إلا فترة قصيرة جداً من التحسن بعد تلك الوساطة، حيث قام الرئيس حافظ الأسد بزيارة بغداد، أثمرت توقيع (ميثاق العمل المشترك) بين البلدين والحزبين، ولكن سرعان ما تدهورت العلاقات بينهما. أما الشيخ صباح الأحمد، فنصحني بعدم بذل أي جهود لتقريب وجهات النظر بين البلدين، لأن قيام الوحدة خط أحمر بين العراق وسورية. ولكن صدام حسين بدلاً من العمل على توحيد بلاد الشام والعراق توجه إلى العمل على ضم الدول الخليجية بدءًا بالكويت، وهو ما أدى إلى سقوطه.

سقوط بغداد

في ٩ أبريل ٢٠٠٣م سقط نظام البعث في العراق الذي حكم مدة ثلث قرن، حيث قامت الولايات المتحدة الأميركية بقيادة التحالف الدولي بشنّ الحرب على العراق بحجة السلاح

النووي، بقوة عسكرية مؤلفة من ٣٠٠ ألف عسكري و٩٢٠ دبابة و٩٠٠ قاذفة و٥٠ طائرة بلا طيار تدعمهم ٦ حاملات طائرات. بينما قاتل العراقيون بـ٢٣ ألف صاروخ دقيق و٧٥٠ صاروخاً من طراز كروز و١٧٥٠ قنبلة انشطارية. وبعد أربعة أسابيع انهار الجيش العراقي وقتل آلاف العراقيين، وبلغت خسائر العراق أقله نحو ١٠٠ مليار دولار، بينما تكلفت واشنطن ٤٥ ملياراً، وهو رقم ارتفع إلى ٦٦٦ مليار دولار بعد خمس سنوات في حرب كانت تكبّد الأميركيين ٥ آلاف دولار في الثانية[1]. واختفى قادته، من القنوات الفضائية، ومن شوارع بغداد، ومن القصور والجسور في لحظة مهيبة ورهيبة، وبدأ البعض بإنزال صور الرئيس صدام من المنازل والمحال التجارية، شعوراً منهم بأنها فقدت وظيفتها حين كانت تستعمل لحمايتهم من جواسيس النظام، والاحتماء بها أمام الزوار غير المتوقعين. كان هذا الردّ المنطقي للشارع العراقي على القيادة المهزومة التي توعدت بنحر الأميركان على أبواب مدينة بغداد وشبهتهم بالتتار، وتوعدتهم بقوات القدس والحرس الجمهوري وفدائيي صدام، وتمزيق العلوج كما كان يردد وزير الإعلام محمد سعيد الصحاف... إلى آخر تلك الأسطورة التي انهارت دون أن يُرَى لها أثر في القوات الغازية، وسقطت معها أسطورة صدام حسين، عندما هوى تمثاله في قلب مدينة بغداد بطريقة مذلة للعراق والعرب وسقطت تماثيله الأخرى في كل ساحة وطريق في العراق. وهوت معه كبرياء الأمة العربية وهي تشاهد الدبابات الأميركية والقوات الأميركية تعبر جسور بغداد وتجرّ التمثال ليسقط على الأرض، بعد أن تسلق الجنود الأميركان ووضعوا العلم الأميركي عليه.

عجز الكثيرون من المراقبين والمحللين الاستراتيجيين السياسيين والعسكريين عن تفسير هذا الانهيار السريع والاختفاء المفاجئ لصدام والقيادات التي استبدلت ملابسها العسكرية بأخرى مدنية، وتنبأ البعض أنه اختفى ليقود حرب عصابات، وقد يكون هذا صحيحاً، ولكن كيف يمكنه استعادة حكمه بعد خراب البصرة، وسقوط بغداد قلعة الأسود كما يسمونها، وسقوط كل مؤسسات الحزب والدولة أيضاً واعتقاله وقتل أولاده، فماذا يفيد بعد خراب البصرة.

---

(١) المرجع: سمير عطا الله/ «من بغداد إلى دارفور» – صحيفة الشرق الأوسط ٢٤/ ٣/ ٢٠١٠.

قامت الآلة الإعلامية الأميركية والغربية الجبارة بدور كبير وخطير في التمهيد لاجتياح العراق، حيث صورت أن العراق يمتلك أسلحة دمار شامل يهدد بها العالم، وأنه رابع جيش في المنطقة، وأن صدام أهم وأخطر شخصية تهدد مصالح الغرب في المنطقة، وأنه يمتلك أكبر احتياطي من النفط الخام في العالم، حتى وصلوا بالأمر إلى تصويره كأسطورة وبعبع أمام الرأي العام العالمي من أجل إطاحته هو ونظامه. وهكذا أصيب المواطن العربي باليأس والإحباط من هذه القيادة، ولكن يجب أن نعترف بأن الرئيس صدام قد صمد أثناء محاكمته، وكان شجاعاً لا يهاب الموت حتى اللحظة الأخيرة لإعدامه على حبل المشنقة.

نشرت وسائل الإعلام في يوليو من عام ٢٠١٥ رسالة من جندي أميركي كان من أحد القليلين الموجودين أثناء إعدام الرئيس العراقي الراحل صدام حسين بعثها إلى زوجته يصف لها ما رآه ويتعجب من اللحظات الأخيرة التي سبقت تنفيذ حكم الإعدام بصدام حسين لتماسكه إلى درجة تشبه المعجزة، حيث كان مبتسماً على منصة الموت.

وقد حدثني وزير الإعلام محمد سعيد الصحاف الذي يقيم في أبو ظبي في دولة الإمارات العربية المتحدة في مارس ٢٠٠٤م عن تلك اللحظات الصعبة، وكيف اختفت القيادة، بمن فيها صدام حسين، وكيف توزعت في المدن والقرى والأرياف، وقال إنه فقد الاتصال بها بعد المؤتمر الصحافي الذي عقده لآخر مرة. وقال إنه تسلّم بياناً من صدام حسين بخط غير واضح حاول مراجعته وإعادة صوغه وبثه، ولكن كان كل شيء قد انتهى وهو يشاهد الدبابات على جسور بغداد، فحمل نفسه واختفى كالآخرين مدة شهرين، وانتقل بعد ذلك إلى الإمارات العربية في ضيافة الشيخ زايد بن سلطان.



علي ناصر محمد –محمد سعيد الصحاف – عبد العزيز الدالي

أكد لي أن أحد أسباب الانهيار في بغداد خيانة بعض القادة العسكريين الذين مَدُّوا خيوطاً مع الأميركان، ولم يقاتلوا كغيرهم من القيادات العسكرية في بعض المدن العراقية الأخرى، كذلك لم يكن بعض القادة العسكريين مؤهلين لقيادة العمليات العسكرية، وفي مقدمتهم قائد الحرس الجمهوري قصي صدام حسين، حيث اعتمد الرئيس صدام حسين على القيادات العسكرية الحزبية أكثر من اعتماده على القيادات العسكرية المجربة والمحترفة، وكان المقياس في اختيار القيادات العسكرية هو الولاء الحزبي والعائلي والعشائري، حيث لم تصمد هذه القيادات في وجه الجيش الأميركي والبريطاني الذي كان متفوقاً في السلاح والعتاد والخبرة والقيادة بحراً وبراً وجواً، واستخدم أحدث أسلحة الدمار والخراب التي تجرب لأول مرة في هذه الحرب التي خلقت حالة من الرعب بين صفوف المسؤولين العسكريين والمدنيين والمواطنين. وقال إن المتطوعين العرب وفدائيي صدام هم آخر من

بقي يقاتل في بعض أحياء مدينة بغداد، لأن معركتنا واحدة، وقال إن الرئيس صدام حسين كان قد شكّل تنظيمات ومجموعات سرية للقيام بحرب عصابات في حالة سقوط النظام في بغداد تحت قيادته وقيادة بعض الرفاق الحزبيين المؤمنين بالنضال ضد قوات الاحتلال، وستستمر في عملياتها العسكرية حتى في غياب الرئيس صدام وبعض القيادات.

تحدث الصحاف عن مبادرة الشيخ زايد بشأن خروج الرئيس صَدام من العراق تحت رعاية الجامعة العربية والأمم المتحدة، حرصاً على العراق ومستقبله وعلى أمن أسرته وحياته وتجنيب المنطقة ويلات الحروب والتدخل الأجنبي، وخصوصاً أن دولة الإمارات ليس لها حدود أو مشاكل أو مصالح مع العراق، وقال: مع الأسف إن الظروف والضغوط التي كان يمرّ بها الرئيس قد حالت دون ذلك.

وقد أخبرني الصديق الفريق عتيق جمعة، مستشار سموّ الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم حاكم دبي، في أحد اللقاءات، أن صاحب السمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان رئيس الدولة كلفه الذهاب إلى بغداد، وحمل منه رسالة شفوية إلى صدام حسين «ينصحه فيها بترك السلطة حرصاً منه على العراق وعلى أسرته وعلى نفسه، وأن دولة الإمارات على استعداد لاستقباله وأسرته وهي بلاده مثلها مثل العراق».



مع الفريق عتيق جمعة

وقال لي الفريق عتيق جمعة، إنه بمجرد أن سمع ما يطلبه منه الشيخ زايد اجتاحه القلق، إذ كيف له أن ينقل مثل هذه الرسالة إلى صدام حسين، وصارح الشيخ زايد بصعوبة هذه المهمة.

قال له الشيخ زايد: هل أنت خائف؟

أجابه: لا أخفي عليك يا طويل العمر، نعم المهمة صعبة، فأنت تعرف من هو صدام حسين. وأضاف: أرجو أن تعفيني من هذه المهمة وتختار لها أحداً سواي.

لكن الشيخ زايد أصرّ على أن أنقل إلى صدام رسالته المشار إليها.

وهكذا ذهبت إلى بغداد، وأخبرت المسؤولين العراقيين أني أحمل رسالة شفوية للرئيس صدام حسين من صاحب السموّ رئيس الدولة الشيخ زايد بن سلطان، وأريد مقابلته لإبلاغه هذه الرسالة، ولكنهم أرادوا أن يعرفوا فحوى الرسالة قبل أن يرتبوا لي موعداً مع صدام حسين، ولكنني رفضت ذلك، وقلت لهم إنها رسالة من رئيس دولتي إلى رئيس العراق، وليس من اللائق أن يطلع عليها أحد غيره... ولكنهم أصروا على موقفهم وأصررت على موقفي.

قلت لهم إنني سأغادر بغداد ما لم يمكنوني من مقابلة الرئيس، وإزاء هذا الموقف طلبوا مني البقاء حتى يخبروا صدام شخصياً، وفي الأخير حددوا لي موعداً معه... وهكذا تحركت في الموعد الذي حددوه لي، ومررت بأغرب ما يمكن أن يمرّ به رسول، فقد نقلوني في أكثر من سيارة، وأدخلوني في أكثر من قصر في المنطقة الخضراء، وفي كل قصر حرس يحملون الحراب ويلبسون الملابس العربية كأنك في أحد قصور الأمراء العباسيين، وفي كل قصر أجتاز ممرات ومكاتب وحرساً وسط جو من المهابة، وفي كل قصر أو مكتب أمر به أقول في نفسي إنني سأقابل صدام حسين الآن... وفي القصر الأخير دخلت إلى بهو كبير، ثم سلطت على وجهي أضواء شديدة وفي نهاية المكتب رأيت صدام حسين واقفاً بمهابة ببذلته العسكرية ومسدسه يتدلى من خاصرته، صافحته وأنا أشعر برهبة الموقف وخطورة اللحظة، فقد وضعني الشيخ زايد رحمه الله في موقف صعب لا أحسد عليه، لكنني استجمعت ما

بقي لدي من شجاعة، فأطلعت صدام، فحوى رسالة الشيخ زايد ولكن بلغة دبلوماسية لا أدري كيف أسعفت بها في تلك اللحظة، مع أنني رجل عسكري.

قلت له إن صاحب السموّ الشيخ زايد يحبه ويقدره ويحب أسرته وأولاده، وإن سموّه يوجه إليه الدعوة لزيارة دولة الإمارات العربية المتحدة، وإنه سيسعده أن يتشاور معه في الوضع الذي يعيشه العراق الآن... والأوضاع في المنطقة.

لكن لغتي التي حرصت على أن تكون دبلوماسية وأنا أنتقي كل كلمة وكل جملة تفوهت بها حتى لا أثير حساسية صدام وغضبه، لم تنطل عليه، فقد فوجئت به يقول:

شنو أهرب!!

وكررها عدة مرات...

أجبته وأنا أحاول أن أمتصّ غضبه: لا يا فخامة الرئيس... بل إن صاحب السمو الشيخ زايد يدعوك لزيارة الإمارات للتشاور معك.

لكنه قال بحسم: بلغ الشيخ زايد شكري الجزيل. لكنني لن أهرب إلى أي مكان، وأنا لا أخشى على حياتي من الأميركان، وسأصمد أو أموت في بغداد والعراق، وليس في أي مكان آخر.

وعودة إلى حديث الصحاف معي، فإنه قال:

حزّ في نفوسنا ما جرى للرئيس وأن نشاهد البعض يقوم بنهب الوزارات والمؤسسات والبنوك والمتاحف والوثائق والمحالّ التجارية، فيما اتجهت القوات الأميركية لحماية وزارة النفط والاستيلاء على الوثائق الخاصة بالنفط والكوبونات.

تذكرنا هذه الأحداث والنهب والتدمير والحرائق بما تعرضت له بغداد عند دخول التتار إليها، بل لا يقل فظاعةً عنها، فالغزاة هم الغزاة مهما ارتدوا من ألوان وشعارات. وذاكرة التاريخ لن تنسى مثل هذه الأعمال الهمجية والوحشية، حتى وإن رفعوا على رؤوسهم شعارات الحرية والديمقراطية كما يَدَّعُون.

بعد ثلاث سنوات عرف العالم أن نظام الرئيس صدام حسين لم يكن يملك أسلحة الدمار الشامل، وهو ما اعترفت به أميركا ووزير خارجيتها كولن باول الذي اعتذر عن الخطأ

والتضليل اللذين أوقعته فيهما أجهزة المخابرات الأميركية CIA التي وصفها بأنها «غير دقيقة وخاطئة، وفي بعض الأحيان مضللة بشكل متعمد»، ومن ثم اعترف ممثل بريطانيا السابق في الأمم المتحدة بوقوعهم في الخطأ نفسه، وتوالت بعد ذلك تصريحات من كان لهم بشكل أو آخر دور في غزو العراق تحريضاً وإعداداً أو تنفيذاً، يقرون فيها بأن غزو العراق كان خطأً جسيماً، وأن وعود الانتصار ليست إلا وهماً، ومنهم العقيد الأميركي تيم كولينز، وبول بريمر (الحاكم المدني للعراق) وزلماي خليل زادة (السفير الأميركي في العراق) وجاك سترو (وزير خارجية بريطانيا الأسبق وأحد رموز الحرب) وريتشارد بيرل (أحد عرّابي الحرب) ودونالد رامسفيلد وخلفه في وزارة الدفاع روبرت غيتس. كذلك اعترف الرئيس بوش بخطورة الوضع في العراق، وكذلك وزيرة الخارجية السابقة كوندوليزا رايس، والتي أكدت أن المعركة ستكون طويلة جداً.

عرف العالم كله أن بغداد ودمشق وطهران والفلسطينيين لم يشاركوا في أحداث واشنطن ونيويورك، ولم يساعدوا على تنفيذها، وهذا ما كشفه تقرير أعدته لجنة خاصة عن أحداث ١١ أيلول ٢٠٠١، حيث اتهمت هذه الأنظمة بالإرهاب وإيواء الإرهابيين في المنطقة والعالم، وأطلق على بعضها «محور الشر». أنا هنا لا أدافع عن صدام حسين ونظامه، فقد اختلفت معه قبل احتلال الكويت وبعده بسبب اغتيال الأستاذ الأكاديمي العراقي توفيق رشدي الذي سبق أن تحدثت عنه. شعرت وأنا أسمع خبر احتلال الكويت في ٢ أغسطس ١٩٩٠ بأنّ هذا النظام وقع في فخ نصب له بعد خروجه من الحرب مع إيران وأظن أن الفخ كان بتدبير إما من بعض دول مجلس التعاون العربي الذي تأسس في بغداد عام ١٩٨٩م، وإما بضوء أخضر من قبل السفيرة الأميركية ببغداد أبريل غلاسبي، وإما أنه قراءة مغلوطة لموقفها آنذاك، حيث كان يمثل العراق من وجهة النظر الأميركية سمك القرش وحوله أسماك صغيرة، وكان لا بد من اصطياده، وكان من السهل اصطياده بالصنارة الأميركية والطعم الكويتي.

خاض صدام بما كان يوصف رابع جيش في العالم معارك في شمال العراق وجنوبه وحرب الخليج الأولى والثانية (إيران والكويت)، ومع الأسف فإن الجيش العراقي والحرس

الجمهوري قد خذلاه وانسحبا بدلاً من هزيمة القوات الأميركية على أسوار بغداد وجسورها كما كان يردد بعض قادته العسكريين والإعلاميين، وكان أحد أسباب هزيمة هذا الجيش تسليم القيادة لمجموعة من المقربين والحزبيين التي أخفقت واختفت وتركته وحيداً في الحصار والأسر، إضافة إلى تخاذل بعض القادة، كما أخبرني بذلك وزير الإعلام العراقي في عهد صدام محمد سعيد الصحاف. وهذا ما يذكرنا بهزيمة الجيش المصري وقيادته عام ١٩٦٧م.

بعد أكثر من ثلاث سنوات على احتلال العراق، جرت أحداث وصراعات ونزاعات دموية، بعد القرار بحلّ مؤسسات الجيش والأمن والحزب والإدارة واجتثاث كل ما له علاقة بحزب البعث كما نَظر لذلك الذين كانوا يسعون إلى تدمير النظام بأي طريقة، تحت ذريعة الإرهاب تارة أو بحجة امتلاك أسلحة الدمار الشامل أو بحجة علاقته مع القاعدة (أسامة بن لادن) وارتباطه بأحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ في أميركا، وعلى هذا الأساس اتخذوا القرار بإسقاطه، ومن ثم محاولة اجتثاث حزب البعث ومؤسساته في العراق. ولو لم يتخذوا مثل هذا القرار الأحمق واكتفوا فقط بإبعاد القيادات، والمحافظة على المؤسسات لحكموا العراق بواسطتها وعبرها، لأن هذه المؤسسات ورثها وتوارثها حكام العراق السابقون من عبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف وعبد الرحمن عارف وأحمد حسن البكر إلى صدام حسين، فضلاً عن الأسرة الهاشمية في بغداد التي أسست هذه الدولة في عشرينيات القرن العشرين، ما دفع المنتسبين إلى هذه المؤسسات إلى اتخاذ الموقف الهجومي ضد الاحتلال وحكومة بريمر، وهنا ينطبق القول المعروف «قطع الأعناق ولا قطع الأرزاق»، وهذا يذكرنا بما جرى في عدن بعد حرب عام ١٩٩٤م عندما حلّ نظام علي عبد الله صالح الجيش والأمن والإدارة في الجنوب، وأدى ذلك إلى ما جرى من حراك سياسي سلمي وعصيان مدني ضد النظام في صنعاء، بل المطالبة بفكّ الارتباط واستعادة الدولة الجنوبية وإسقاط النظام.

وكان صدام حسين قد وقع في الأسر وفي الحفرة التي وجدوه فيها، وفي ذلك يقول علاء نامق: «أنا الذي حفرت له الحفرة»، التي يعرفها العالم باسم «حفرة العنكبوت»، التي

كانت غرفة صغيرة تحت الأرض في مزرعة نامق حيث عثرت القوات الأميركية على صدام حسين في ١٣ ديسمبر ٢٠٠٣.

كذلك وقع الرئيس بوش وقيادته في مستنقع العراق حيث ظن في البداية أن الشعب العراقي سيخرج لملاقاته بالورود والرياحين، ولكنهم ودعوه بالأحذية كما فعل الصحفي منتظر الزيدي حين قذفه بحذائه عندما كان يلقي كلمة وداع في بغداد في نهاية رئاسته وتركوا العراق ممزقاً بين الأديان والمذاهب والأعراق.



اللحظة عندما رمى منتصر الزيدي الرئيس بوش بحذائه

لم ينفع الحديث عن أسلحة الدمار الشامل، وإسقاط صدام حسين ونشر الديمقراطية والحرية في العراق نموذجاً لتعميمه في منطقة الشرق الأوسط، لإخفاء نيته ومآرب صقور إدارته، حيث كانت تهدف إلى السيطرة على المنطقة وثرواتها وممراتها الاستراتيجية، وتحقيق أطماع إسرائيل في كسر شوكة الأمة العربية، وإلحاق الهزيمة النفسية بالجماهير العربية التي كانت ولا تزال تبحث عن بطل وطني وقومي.

وقد تُوِّجت هذه الأعمال بإعدام الرئيس صدام حسين مع أول أيام عيد الأضحى ونُفذت عملية الإعدام، وقد اعترض على هذا القرار الاتحاد الأوروبي والفاتيكان وبعض الأطراف الدولية انطلاقاً من حرصهم، على استقرار العراق، وهو ما أدى إلى استمرار العنف والحقد والكراهية وتصعيدها ضد الإدارة الأميركية.

أثبتت الأيام أن القيادة الأميركية لا تتقن فن التعامل مع الدول والشعوب التي تحتلّ بلدانها أو تقيم قواعد فيها، وخصوصاً أن الرئيس (بوش) لا يعرف تاريخ هذه المنطقة ولا جغرافيتها (إلا في ما يخصّ آبار النفط) ويريد أن يغير عالماً لا يعرف عنه شيئاً، على عكس أسلافه البريطانيين الذين كانوا يحكمون إمبراطورية لا تغيب عنها الشمس بعدد قليل من الجنود بأقل الخسائر في الأموال والأرواح.

إن ما أنفق في حروب اليمن وأفغانستان والقرن الإفريقي وحرب الخليج الأولى والثانية والحرب الأخيرة على العراق وهو ما يزيد عن ٥٠٠ مليار دولار يكفي لتحويل هذه المنطقة إلى جنة خضراء والقضاء على الفقر والتخلف واجتثاث الإرهاب، ولإكساب الولايات المتحدة وحلفائها في المنطقة السمعة والصدقية في العالم بدلاً من الكراهية والنقمة التي سببتها لها هذه الحروب. وهذا ما ثبت بعد أن غادرت معظم القوات الاميركية العراق في شهر ديسمبر من عام ٢٠١١ بعد ٨ سنوات كلفت الولايات المتحدة أكثر من ٤ آلاف من القتلى وعشرات الآلاف من الجرحى ومليارات الدولارات وأكثر من ٣٠٠ ألف قتيل من الشعب والجيش العراقيين وبقي العراق يرزح تحت نار العنف والطائفية.

الفصل السادس

اليمن الديمقراطية والجماهيرية الليبية

في ١٨ يونيو ١٩٧٠م كان عليّ أن أغادر عدن وأتوجه إلى ليبيا لحضور احتفالات الشعب الليبي الشقيق بعيد الجلاء. كانت الدعوة موجهة في الأساس إلى رئيس مجلس الرئاسة «سالم ربيع علي»، لكنه اعتذر عن عدم المشاركة بسبب وضعنا الداخلي، وكان الاتفاق على أن أقوم بالمشاركة نيابة عنه.

وصلت إلى طرابلس من طريق القاهرة، وفي المطار استقبلني الرائد الخويلدي الحميدي، عضو مجلس قيادة الثورة، وممثل عن وزارة الخارجية والوحدة الليبية.

بعد وصولي إلى فندق (الودان) الذي خصص لإقامتي، تبادلت مع الخويلدي الحميدي الحديث عن أسباب عدم مشاركة «الرئيس» شخصياً في الاحتفالات، وأخبرته بأنه مشغول باحتفالات (٢٠ و٢٢ يونيو) التي كانت وشيكة. وتوجهت إليه بطلب لتحديد موعد لمقابلة الأخ «معمر القذافي» قائد ثورة الفاتح الليبية.

طوال يوم ١٩ يونيو لم أتمكن من مقابلة أي من أعضاء مجلس قيادة الثورة، وفوق انشغال الليبيين في الإعداد للاحتفالات واستقبال الرؤساء والملوك العرب وبقية الوفود، كان لديهم انطباع سيئ عن النظام في عدن، وعمَّق هذا الإحساس عندهم عدم مجيء

«الرئيس» للمشاركة في احتفالاتهم، غير أن كل ذلك لم يمنعني من طلب مقابلة أكبر عدد ممكن من المسؤولين الليبيين، وفي مقدمتهم «معمر القذافي».

توجهنا يوم ٢٠ يونيو حسب البرنامج إلى قاعدة «عقبة بن نافع» الجوية لمشاهدة الاستعراض العسكري الذي أقيم بالمناسبة.

في يوم ٢١ يونيو تغير البرنامج فجأة بسبب عقد اجتماع طارئ لرؤساء وفود دول المواجهة العربية مع إسرائيل، وحضرته طبعاً مصر وسورية والأردن باعتبارهم دول المواجهة المعنية، وحضرها من الوفود العربية الأخرى رؤساء وفود العراق والجزائر وليبيا والسودان الذي عقد على مستوى الرؤساء.

يوم ٢٣ يونيو أتيحت لي فرصة مقابلة عدد من رؤساء الوفود العربية، فقابلت الرئيس المصري «جمال عبد الناصر»، ورئيس المجلس الجمهوري «القاضي عبد الرحمن الإرياني»، رئيس الجمهورية العربية اليمنية، و«مأمون عوض أبو زيد» من السودان، والفريق أول «محمد فوزي»، وزير الحربية المصرية، والزعيم الليبي «معمر القذافي»، والرئيس السوري «نور الدين الأتاسي» الذي كان أول من قابلته.

تحدثنا عن العلاقات الثنائية بين سورية واليمن الجنوبية، وعن عدد من القضايا العربية والدولية المهمة. وشكرت له موقف بلاده من الثورة والدعم الذي قدمته سورية إلى بلادنا.

كان الرئيس السوري صريحاً معي وهو يخبرني بأن الجو ملغوم بالنسبة إلى اليمن الجنوبية، وأن الطريق التي تسير فيها ستعزلها عن بقية الدول العربية... وأن الكل يركز عليها ويتهمها بالشيوعية!

وقال إن احتفالاتكم بالذكرى المئوية لميلاد «لينين» قد أضرت بكم، واستغلت ضدكم وأكدت لدى الآخرين ما يتهمونكم به! وسألني: أهذا ممكن؟ ألم يكن بإمكانكم أن تفعلوا ذلك بصمت وبلا ضجة إعلامية وتوزيع صور؟!

وكان يعبّر عن رأي كثير في بلادنا وفي الخارج، لأن بعض القادة في بلادنا آنذاك كانوا لا يهتمون كثيراً بالعلاقات ببعض الدول العربية والإسلامية التي كانت تناصبنا العداء، بل إن

البعض كانوا يهتمون بالعلاقات مع الاتحاد السوفياتي والصين الشعبية أكثر من هذه الدول، وكانت الهتافات في ذروتها تطالب بإسقاط الإمبريالية والصهيونية وتشيد بالاشتراكية غير مهتمين بما يجري حولهم في ذروة الحماسة الثورية.

عودة للحديث عن علاقاتنا الثنائية، أخبرته بالخطوات التي اتخذناها لتطوير علاقات «الجبهة القومية» ببقية فصائل العمل الوطني لتعزيز الجبهة الداخلية. وعبّر لي عن ارتياحه لوجود «أنيس حسن يحيى» في السلطة، واستدرك بأن هذا لا يعني أن يجري التعامل بيننا وبينكم من خلال الرفاق البعثيين في عدن. وأكد المزيد من التعاون بين البلدين الشقيقين. ولم ينسَ أن يستفسرني عن وصول المساعدات السورية التي وعدنا بها خلال زيارتي السابقة لبلاده، فأخبرته بوصولها وشكرته مرة أخرى لوقوف سورية الشقيقة إلى جانب الثورة والنظام في اليمن الجنوبية.

قررت أن أستطلع الموقف الليبي قبل أن أقابل العقيد «معمر القذافي»، فسألت الرئيس الأتاسي، فأجاب: عند زيارة العقيد معمر القذافي دمشق في وقت سابق، قلت له إن الحكم في اليمن الجنوبية الشعبية حكم تقدمي يحتاج إلى مساعدتكم ومساندتكم لكن القذافي ردّ عليّ: إنهم «ماركسيون». تصور أنهم احتفلوا بميلاد لينين ولم يحتفلوا بميلاد الرسول محمد! كانت المعارضة قد استغلت الاحتفالات بالذكرى المئوية لميلاد لينين، وضخمت ما قمنا به وحاولت استثارة الدول العربية ضدنا.

ومرة أخرى نصحنا بضرورة التحرك السريع لتصفية الأجواء والعمل بمرونة مع الآخرين، ووافقته على ذلك. وشرحت له كل الأوضاع التي تحيط ببلادنا، وطلبت منه أن يساعدنا على إقناع الليبيين بتنفيذ وعدهم السابق لنا بتقديم معونة مالية وعينية كانوا قد وعدوا بها في زيارة رئيس الوزراء محمد علي هيثم، فوعدني بذلك. وعلمت فيما بعد أن الرئيس الأتاسي تحدث مع العقيد معمر القذافي في الموضوع.

مع القذافي لأول مرة..

في مساء يوم ٢٣ يونيو حدد لي موعد اللقاء مع العقيد القذافي وعدد من أعضاء مجلس

قيادة الثورة الليبية. في مقر قيادة القوات المسلحة، ولكني لم أجد هناك سوى المقدم «أبو بكر يونس»، رئيس هيئة الأركان.

كان المقدم «أبو بكر يونس» رجلاً ودوداً ودمث الأخلاق، وقد أصبح صديقي فيما بعد وتوطدت صلاتي به وبالعديد من القادة الليبيين الشبان. وبعد أن لاحظ انزعاجي لغياب العقيد القذافي الذي جئت للقائه حسب الموعد، رحب بي بطريقة ودية. سررت بأن هذا العسكري يتمتع برقة وخصال دبلوماسية، وكنت سعيداً لأنني وجدت أخيراً من يمكنني الحديث والتفاهم معه. وهكذا دخلت في حديث مباشر معه، شرحت له أوضاعنا الراهنة الصعبة وحاجتنا الماسّة إلى دعم ليبيا لمواجهة الصعوبات التي تتعرض لها ثورتنا..



مع الرئيس معمر القذافي

كم كان سروري عظيماً عندما قال المقدم أبو بكر يونس: «سنجهز لكم غرفة عمليات متكاملة للمستشفى العسكري في عدن وسنحاول شراء بعض الذخائر لكم من الجمهورية العربية المتحدة وإرسالها إليكم»، وأضاف: «إن قواتنا المسلحة هي الآن في طور البناء، وليس لدينا مخزون كافٍ من الذخائر والسلاح».

وأثناء ذلك دخل العقيد معمر القذافي إلى حيث كنا مجتمعين أنا والمقدم أبو بكر يونس.

في البداية نقلت له تحيات الرئيس سالم ربيع علي وتهانيه بعيد الجلاء واعتذاره عن عدم المشاركة، على أمل أن يزورهم، وتوجهت بالحديث مباشرة إليه قائلاً:

نحن نقدّر مشاغلكم، لكن يهمنا أن نتبادل وإياكم الحديث بشأن آخر التطورات في اليمن والمنطقة. وشرحت له باختصار أوضاعنا السياسية والعسكرية والمشاكل الاقتصادية والمالية التي تواجهنا، والصعوبات التي خلّفها لنا الاستعمار في مجال الجيش والأمن.

هنا تذكر العقيد القذافي صلاته ببعض ضباط القوات المسلحة في بلادنا، الذين جمعته بهم الزمالة خلال الدورات العسكرية التي كانوا يحضرونها معاً في بريطانيا قبل استقلال اليمن الجنوبية وقبل قيام ثورة الفاتح من سبتمبر، ووصف كل الضباط الذين عرفهم في تلك الدورة بأنهم رجال ممتازون. وأشار إلى وجود الملازم «عوض صالح الجبواني» عندهم في ليبيا الذي كان أحد زملاء تلك الدورة، ووصفه بأنه ضابط ممتاز وأنه – أي العقيد القذافي – مستعد ليضمنه ... وسألني: «ما سبب إخراجكم له من الجيش؟!».

عندما وجدت العقيد معمر القذافي يهتم بأمره إلى درجة أنه يتذكر اسمه ويثير موضوعه معي خلال أول جلسة مباحثات رسمية أكثر من اهتمامه بالنظام والعلاقة مع عدن، وجدت أنّ عليّ أن أشرح الأمر، فأخبرته بأن «الملازم عوض صالح طلب التقاعد بمحض إرادته، وقد دفعنا له كامل حقوقه، ومنحناه شهادة خروج من القوات المسلحة، وعندما علم أنكم قائد الثورة التي قامت في ليبيا، وهو صديق لكم فكر في المجيء إليكم لعله يجد عملاً مناسباً عندكم».

سألني العقيد معمر القذافي:

هل تستطيع توظيفه في سفارتكم هنا؟

أجبت بأنني سأدرس موضوع توظيفه في السلك الدبلوماسي بعد العودة الى عدن. وهز رأسه ولم يعلق.

هنا اعتذر القذافي عن عدم مواصلة الاجتماع، وبرر ذلك بانشغاله، ولكنه حدد موعداً في اليوم التالي.

وفي اليوم التالي ٢٤ يونيو اجتمعت بالعقيد معمر القذافي ثانية، وحضر اللقاء من الجانب الليبي الرائد عبد السلام جلود، نائب رئيس مجلس قيادة الثورة، والمقدم أبو بكر يونس والرائد الخويلدي الحميدي.

وبدأ العقيد القذافي حديثه بالنقاط الآتية:

إن الأخبار تصلنا باستمرار أنكم تنتهجون الخط «الماركسـي اللينيني» الذي يتعارض مع ديننا الإسلامي الحنيف وتراثنا وخطنا القومي. ولقد سمعت في الآونة الأخيرة أنكم احتفلتم بعيد ميلاد لينين، بينما لم تحتفلوا بذكرى مولد الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام، وصور لينين تغطي ساحاتكم بشكل يثير مشاعر المواطنين...

إن علاقتكم بالجمهورية العربية المتحدة ليست طيبة، وإنكم لا تحبون قائد الأمة العربية جمال عبد الناصر... ونحن لا نقبل أي كلام يقال عن مصر وقائدها، ولا نقبل كذلك أن تكون علاقة أية دولة سيئة مع القاهرة مهما كانت هذه الدولة.

الوحدة اليمنية للبلد الواحد ضرورة حتمية، ولا بد أن تتم الوحدة بينكم وبين الشمال اليمني، وإذا كانت هناك خلافات بينكم وبين الأخوة في صنعاء فعليكم حلها، لأن الوحدة اليمنية هي الطريق نحو الوحدة العربية الشاملة.

وطلب مني أن أنقل هذه القضايا التي أثارها إلى المسؤولين في عدن. بعد ذلك تحول حديثه إلى القضايا المالية، فقال:

«الدول العربية كلها تنظر إلى ليبيا وكأنها دولة غنية، بينما لا نزال في ليبيا فقراء وحفاة، وفي طرابلس العاصمة ما زال السكان يعيشون في أكواخ من الصفيح، وآخرون من المواطنين ما زالوا يشحذون في الشوارع... وإلى جانب ذلك لدينا بطالة... وبالنسبة إلى قواتنا المسلحة فقد كانت ميزانيتها في السابق ٨٠ مليون جنيه إسترليني، ورفعنا ميزانيتها إلى ١٥٠ مليون جنيه حتى نستطيع بناء جيش حقيقي وحديث، ومع ذلك كله تطلب منا كثير من الدول العربية مساعدات». وأخذ يعطي الأمثلة وهو يشير إلى مشكلته:

أنتم تطلبون مساعدات، وأخوكم القاضي الإرياني ذكر أن بلاده تعاني جفافاً أدى إلى مجاعة السكان. وأضاف: وأرسل إلينا وزير التربية والتعليم يطلب مساعدات.

السودان قدمنا إليه مساعدة، ولكنه ما زال يطلب المزيد.

العراق بلد غني، وفيه أيضاً بترول، إلا أن صالح مهدي عماش طلب عدة مرات مساعدة العراق، ونحن نستغرب ذلك، بالرغم من أننا ساعدناهم أول الأمر.

تونس ولبنان (شارل الحلو) يطلبان مسـاعدات.

الثورة الفلسطينية تطلب مساعدات.

وعندما وصل إلى هذه النقطة سأل كالحائر: «ولا ندري ماذا نعمل؟!».

قلت له:

إن الحديث عن اتهامنا بالشيوعية ليس له أساس من الصحة وأريدكم أن تتذكروا أنه عندما قامت ثورة ٢٣ يوليو في مصر، اتهمتها الدوائر الغربية المعادية بأنها شيوعية... وعليكم ألّا تستغربوا أنه في يوم من الأيام سيوجّهون إليكم وإلى ثورتكم هذه التهمة ذاتها إذا وقفتم موقفاً معادياً للمصالح الإمبريالية والاستعمارية... كنت أنطلق في حديثي من تجارب عديدة في بلادي وغيرها، فعندما اندفع بعض أوائل المناضلين في بلادنا، وحملوا بنادقهم لمقاومة الاحتلال الإنكليزي، وصفهم الاستعمار بالشيوعيين، مع أن كثيراً منهم كانوا أميين لا يجيدون القراءة والكتابة، ولم يسمعوا في حياتهم عن الشيوعية ولا يعرفون ماذا تعني... والشيء ذاته الذي توقعته حدث للثورة الليبية، إذ سرعان ما وصفتها دوائر الغرب والبلدان المعادية لها بأنها شيوعية.

وقد انتهى اللقاء بإعطاء توجيهاته للسيد عبد السلام جلود بالموافقة على تقديم القرض الذي وافق الليبيون عليه عند زيارة رئيس الوزراء «محمد علي هيثم» لليبيا والبالغ (خمسة ملايين) جنيه إسترليني.

وأجاب جلود:

أمرنا بإرسال «مليون جنيه، وسنراجع الاتفاقية ونعمل بما جاء فيها.

وعن المساعدات العسكرية، تولى الإجابة المقدم أبو بكر يونس، رئيس هيئة الأركان، فقال إن الفريق فوزي (وزير الحربية المصري) يقترح إرسال المعدات العسكرية عبر طريق صحراوي إلى السودان (الخرطوم) ومن ثم إلى ميناء بور سودان بسبب إغلاق قناة السويس، إلا أن الطريق غير معروف.

وذكرته بظروفنا الصعبة، وألححت على سرعة إرسال المعدات بالجو. وتدخل القذافي فقال:

عندنا طائرات كبيرة يقودها طيارون أميركان، هل تقبلون نزولها في عدن؟! وأخبرني أن الطيارين الليبيين لن ينهوا تدريبهم قبل ثلاثة أشهر.

وأجبت:

ما دامت الطائرات ليبية، فلا يهمنا من يقودها.

وكان هذا نهاية للاجتماع مع العقيد معمر القذافي وزملائه في مجلس قيادة الثورة.

وبعد هذه الزيارة جرى تبادل للزيارات بين المسؤولين في كل من عدن وطرابلس، ولعل أهمها كان زيارة العقيد معمر القذافي لعدن للمشاركة بالتوقيع على معاهدة عدن الثلاثية.

معاهدة عدن الثلاثية

لعل المدخل الأولي لتوقيع «المعاهدة الثلاثية» بين اليمن الديمقراطية وليبيا وإثيوبيا، كان الأحداث التي تمرّ بها المنطقة في خليج عدن والبحر الأحمر والخليج العربي والقرن الإفريقي والشمال الإفريقي. وكانت أساطيل القوى الاستعمارية الحربية تجوب المنطقة، رافعةً هراوتها، مهددة بالقمع، بدعوى حماية مصالحها.

وجاء الآن وقت توقيع المعاهدة، وحسب الاتفاق في أديس أبابا، اختيرت عدن مكاناً لتوقيعها، وحضر الزعيمان العقيد معمر القذافي، قائد ثورة الفاتح الليبية والرئيس الإثيوبي منغستو هيلا مريام، واستقبلتهما عدن بالحب والترحاب. ولبست المدينة أزياء الفرح في انتظار القادم الجديد.

بدأت القمة الثلاثية أعمالها صباح ١٧ أغسطس ١٩٨١ م، وتمخضت المعاهدة عن الاتفاق على تشكيل قوات عسكرية مشتركة من إثيوبيا واليمن الجنوبية وليبيا، وتتحمل ليبيا تكاليف تجهيز هذه القوات بالمال والسلاح، وتقدم اليمن الجنوبية الخبرة في تاهيل هذه القوات وتدريبها، التي ستتخذ من إثيوبيا مقراً لها. ومهمة هذه القوات ستكون الدفاع عن سيادة هذه البلدان في حالة التعرض لها من قبل أي دولة، وليست لها مهمات هجومية على أي دولة أخرى. كذلك اتُّفق على إقامة شركات مختلطة في مجال الزراعة والصناعة تقدم فيها ليبيا الإمكانات المالية للاستثمار في مجال استخراج الرخام والمعادن، والدعم للاستثمار في مجال الزراعة لإنتاج السكر في الأراضي التي تقع على نهر هواش. وفي بداية

الاتفاق قدمت ليبيا مبلغ ١٥٠ مليون دولار للبدء بتمويل هذه المشاريع، وتوقفت وتعطلت هذه المشاريع، لأن الليبيين وقّعوا ولم ينفذوا كعادتهم نتيجة التزاماتهم وتعهداتهم مع كثير من الدول العربية والإفريقية، وهذا ما أدى إلى أزمة بين السودان وليبيا عندما طالب القذافي باستعادة المبالغ التي قدمها إلى السودان، وطالب الرئيس السوداني جعفر النميري الشعب بالتبرع بالمال، وطالب النساء بالتبرع بمجوهراتهم من أجل إعادة الأموال الليبية، في ردٍّ مهين على القيادة الليبية.

طز طز يا أميركا! برع برع يا استعمار!

أُقيم مهرجان كبير في مدينة «كريتر» بمناسبة لقاء عدن التاريخي عصر يوم ١٨ أغسطس ١٩٨١م، أُلقيت كلمة في الجماهير المحتشدة التي كانت تملأ الملعب أعلنت فيها المعاهدة الثلاثية والمهمة النضالية الجديدة التي ستضطلع بها بلداننا الثلاثة، وصفق الناس طويلاً. وتحدث الرئيس الإثيوبي منغستو هيلا مريام عن عمق العلاقات بين إثيوبيا وشعبها وكل من اليمن وليبيا وشعبيهما، وعن أهمية معاهدة عدن. وشدّ الخطاب الذي ألقاه الزعيم الليبي معمر القذافي الجماهير. وكان لهتافه «طز طز يا أميركا» معانٍ مؤثرة بعد كل ما عانته ليبيا من مصاعب ومحن من الولايات المتحدة الأميركية. وزحفت الجماهير نحو المنصة، وأخذت تهتف معه متجاوبة: «طز طز يا أميركا!».

تحدث العقيد القذافي بحب وعاطفة عن نضال الشعب اليمني ضد الاستعمار، وشدد على دور مدينة كريتر والأعمال الفدائية والبطولية لأبنائها، ولم يكن خطابه تقريراً رسمياً جافاً، بل حديثاً صريحاً وصادقاً، خاصة وهو يتذكر الشعر والأغاني الحماسية التي كان لها دور كبير في إذكاء روح النضال والمقاومة الشعبية ضد الاستعمار في تلك الأيام. وقد ذكر أغنية الفنان محمد محسن عطروش التي غناها خلال الكفاح المسلح: «برع يا استعمار برع/ من أرض الأحرار برع/ »، وقد علقت هذه الأغنية في ذاكرة القذافي مذ كان طالباً في بريطانيا، ولا ينفك يستشهد بها في العديد من المناسبات القومية. كذلك ترددها الإذاعة الليبية بين الفينة والأخرى.

بيان معاهدة عدن

البيان المشترك لدول معاهدة عدن الثلاثية، جاء فيه:

«... انطلاقاً من الإيمان العميق بأهمية تعزيز وتطوير العلاقات بين البلدان الثلاثة، وإدراكاً للحاجة إلى إيجاد موقف موحَّد ضد الإمبريالية والصهيونية والعنصرية والرجعية وتعزيز التضامن والتعاون في كل المجالات... فقد اتفق قادة اليمن الديمقراطية وإثيوبيا الاشتراكية والجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية على توقيع معاهدة للصداقة والتعاون بين البلدان الثلاثة، بهدف تنسيق العلاقات في مختلف المجالات السياسية والاقتصادية والمجالات الأخرى وتشكيل مجلس أعلى من قادة البلدان الثلاثة، ولجان وزارية لمتابعة أحكام معاهدة الصداقة والتعاون... وفي إطار تطوير التعاون الاقتصادي والفني بين البلدان الثلاثة، كان التوقيع على عدة اتفاقيات». وفي مساء اليوم ذاته، أعلن في كل من عدن وطرابلس وأديس أبابا نص تلك المعاهدة.

وُقِّعَت المعاهدة وأقرَّها مجلس الشعب الأعلى في ٢٩ أغسطس ١٩٨١م. غير أنها في الواقع كغيرها من المعاهدات لم تنتقل إلى حيِّز التنفيذ والتطبيق، وأصبحت سجينة الأدراج...

القذافي في الضالع

في اليوم التالي، نُظِّم مهرجان جماهيري آخر في مدينة الضالع، حيث استُقبل القذافي استقبالاً حاراً من قبل المواطنين الذين حملوا أعلاماً خضراء ووضعوا عمائم خضراء[١]، وهم يهتفون بحياة الزعيم معمر القذافي، وكان الرصاص يلعلع من كل بندقية فوق رأسه، وبدا على مرافقيه الانزعاج خوفاً من رصاصة طائشة. هنا أيضاً، ألقى القذافي خطاباً حماسياً

(١) كان صالح مصلح هو صاحب فكرة الاعلام الخضراء نسبة لعلم ليبيا والكتاب الأخضر، وقد تم شراء كل الأقمشة الخضراء في كل من الضالع والشعيب وأيضاً قعطبة في شمال اليمن. وكان القذافي في قمة السعادة وهو يشاهد هذه الاعلام التي كانت تتغطي السيارات والتلال والجبال ومنصة الاحتفالات.

صريحاً، وتركّز خطابه في ذلك المهرجان على ضرورة تحقيق الوحدة اليمنية. وقد طالب الجماهير بأن تزحف لتحقيق الوحدة إلى حدود الشمال وتحطيم الحدود، وقال: «لا بد من صنعاء، وإن طال السفر». وأشار إلى أن أصوله من قبيلة بني هلال في محافظة شبوة.

أميركا تردّ في سرت

في أثناء حضورنا مهرجان الضالع، اخترقت الطائرات الحربية الأميركية المجال الجوي الليبي، وأسقطت طائرتين ليبيتين فوق «خليج سرت». وكان هذا أول ردّ أميركي على معاهدة عدن. ووصل خبر إسقاط الطائرتين ونجاة الطيارين بعد المهرجان، واعتذر القائد معمر القذافي عن عدم تناول الغداء مع الضيوف والمضيفين، وبقي في جناحه بفندق الضالع حتى نظم صديقه صالح مصلح زفّة بالطبل والمزمار والرقص اتجهت إلى جناحه حتى قبل بالخروج ومشاركتنا الغداء والقات، بحضور الفنان محمد محسن عطروش الذي كان يعرفه القذافي ويردد أغانيه الحماسية ضد الاستعمار البريطاني، مثل أنشودته التي استشهد بها في مهرجان ميدان الحبيشي في عدن.

وبعد توقيع المعاهدة في عدن، تابعت وكالة المخابرات المركزية في عهد «كيسي» العمليات الخفية ضد بلادنا وتقديم الدعم شبه العسكري إلى المعارضة، الذي بدأ في عهد الرئيس الأميركي جيمي كارتر.

يشير كتاب الحجاب إلى أنّ القذافي وعد حلفاءه بدفع نحو ٨٥٥ مليون دولار ودفع ١٥٠ مليون دولار منها كبادرة لإظهار جديته، ما أثار قلق كايسي ومحلليه الذين توصلوا في تقريرهم الاستخباري عن المعاهدة الذي انتهوا منه في ٤ نوفمبر ١٩٨١م إلى أن «هدف الدول الثلاث هزيمة سياسة الولايات المتحدة في تلك المنطقة»[1]. وتمكنت الوكالة من الحصول على بضعة ملحقات عسكرية سرية لمعاهدة التعاون بين ليبيا وإثيوبيا واليمن الجنوبية، فحواها أنّ الدول الثلاث وافقت على إنشاء قوة من خمسة آلاف ليبي، وخمسة آلاف يمني جنوبي، وخمسين ألفاً من الاحتياطيين الإثيوبيين على نفقة ليبيا، وعلى أن

(١) المصدر السابق نفسه.

يذهب عشرون ألف جندي إثيوبي إلى ليبيا. وأفادت تقارير الوكالة أيضاً بأن الدول الثلاث اتفقت على تنسيق عمل الثورة في الصومال إلى الجنوب الشرقي من إثيوبيا. وأظهرت الاستخبارات أن كوبا لديها ما بين ١١ و١٣ ألف شخص في إثيوبيا. وكان هناك نحو ٥٠٠ مستشار كوبي في جنوب اليمن[1]. ولم يكن هذا الرقم صحيحاً، فقد كان عدد المستشارين أقلّ من ذلك بكثير، ومن بينهم مدربون للميليشيات الشعبية وأطباء وأساتذة يشرفون على كلية الطب وتسييرها في مراحلها الأولى.

غير أن علاقتي بالقذافي تطورت كثيراً بعد ذلك وتوثقت بعد تركي للسلطة وسأسرد إحدى زياراتي الى ليبيا..

من اللاذقية إلى طرابلس

لا أحد يمكنه التكهن أين ومتى سيلتقي الزعيم الليبي معمر القذافي. ومثلما هو الرجل اللغز الذي حَيّر الدول شرقاً وغرباً، فإن مواعيد لقائه أيضاً تضفي عليه مزيداً من الغموض، فبعد انتظار استمر أكثر من ١٠ أيام منذ وصولنا إلى طرابلس بحراً قادمين من ميناء اللاذقية السوري، استطعنا أخيراً مقابلته يوم الأحد ٣١ يناير ١٩٩٣م في مدينة طرابلس التي عاد إليها بعد جولة شملت بنغازي وإثر زيارة قام بها لمصر. وقبل اللقاء كان الكل في حالة استنفار وانتظار أين سيتم اللقاء، ومتى، ولا أحد يستطيع الإجابة متى يكون بالتحديد... وأين. لا مراسم القيادة، ولا مراسم الخارجية، ولا مرافقنا ميلاد. الكل يجهل مكان اللقاء وموعده. هل سيكون في بنغازي، في سرت، في الصحراء، في البحر، في وادٍ تحت شجرة أو خيمة بين طرابلس وسرت، في الهيشة حيث التقيته في أبريل عام ١٩٨٩م؟ لا أحد يستطيع تحديد أي من الاحتمالات إلا الله... وعبد الله السنوسي... ومعمر القذافي.

الكل مستنفر، والأعصاب مشدودة، والجميع في وضع استعداد وانتظار إلى جانب الهاتف، والسيارات مجهزة بالوقود لنقل الوفود حين تأتي تلك الإشارة التي ينتظرونها بفارغ الصبر وكثير من الملل. والحقائب والملابس بداخلها مغلقة، فلا ندري أين سيحصل اللقاء

(١) المصدر السابق نفسه.

ولا كم من الوقت سنقضيه، وعليك في خضمّ ملل الانتظار أن تحاول فك أسرار هذا اللغز الليبي.

طرابلس، لا لون، ولا طعم، ولا رائحة لها من غير القذافي، بل ليبيا كلها لأنه مصدر كل القرارات والسلطات، بالرغم من أنه يرفض أن يُسمي نفسه أو يناديه أحد بالرئيس. ورغم أن ليبيا دولة نفطية غنية، وعدد سكانها محدود، وكان بإمكان شعبها أن يعيش في مستوى معيشي أفضل كالذي تعيش فيه دول النفط الخليجية، إلا أن الصورة في طرابلس وغيرها من المدن الليبية التي زرتها لا توحي بأي مظهر من مظاهر الرخاء، بسبب الحصار الأميركي والعربي لليبيا بعد حادثة (لوكربي)، ونظراً إلى تحمُّل ليبيا أعباء مناصرة حركات التحرر العربية والعالمية ودعمها، ما يضيف مسؤوليات وتبعات مثل هذه المواقف الثورية... في زيارتي هذه لمست بعض الانتعاش في الأسواق التجارية والمحال الخاصة التي أخذت في التنفس تدريجاً، ولكني كما علمت، فإن هذا الانتعاش النسبي ليس بسبب سياسة جديدة للدولة، ولكن يعود إلى ازدهار تجارة «الشنطة» والتهريب بعد أن أفلست المتاجر والأسواق الشعبية وأغلقت أبوابها ولم توفق الدولة في إدارة التجارة...

أحسست بأن البلاد مقبلة على انفراج تدريجي، أو أقله كان ذلك هو الانطباع الذي خرجت به من تفاؤل الناس الذين التقيتهم في أثناء وجودي بطرابلس، في انتظار موعد اللقاء مع القائد القذافي الذي جاء بعد طول انتظار.

عند الساعة الحادية عشرة والنصف رنّ جرس الهاتف، وهرع الجميع إليه. كان المتحدث السيد موسى سليمان، مدير مكتب العقيد أبو بكر يونس، الذي طلب أن نصل فوراً إلى مكتب العقيد أبو بكر في القيادة، وأرسل ضابطاً لمرافقتنا إلى هناك... تنفس الجميع الصعداء، وتحرك موكبنا بسرعة البرق إلى مقرّ القيادة. مكثنا بضع دقائق في مكتب العقيد أبو بكر يونس، ثم طُلب إليّ بمفردي أن أرافق مدير مكتبه، وحتى هذه اللحظة لا أدري إلى أين، بينما بقي سائر أعضاء الوفد المرافق لي، مع سائر المرافقين في المكتب، والسيارات التي أقلتنا من الفندق منتظرة خارجه.

مع العقيد في خيمته

أقلتني سيارة المراسم العسكرية، التي انطلقت بنا حيث مررنا بأكثر من حاجز عسكري حتى توقفت أخيراً، وترجلنا منها فلقينا أنفسنا أمام خيمة القذافي المنتصبة أمامنا. كان العقيد في انتظاري، ويبدو في أحسن حال، وصحة جيدة، وبكامل أناقته ولباسه الجميل، تعلو وجهه ابتسامة واسعة وهو يرحب بي ترحيباً حاراً... بعد أن جلسنا، بدأ العقيد حديثه بالاعتذار عن تأخر موعد اللقاء. وقال إنه هو الذي وجه إليّ الدعوة لزيارة ليبيا وأمر بالبقاء فيها حتى عودته من زيارة مصر وجولته الداخلية في المدن الليبية طبرق وبنغازي وسرت، وأنه على علم بانزعاجي لطول انتظاري كل هذا الوقت دون تحديد موعد، وعلم أنني فعلاً قررت السفر إلى تونس، ولكنه طلب من المرافقين أن أبقى حتى عودته. وقال إنه حرص على لقائي لأن هناك أموراً وهموماً تتعلق باليمن يريد أن يتداول الرأي بشأنها معي. أبدى القذافي قلقه بشأن الوحدة اليمنية، وقال إنها في خطر، وكذلك اليمن في خطر، ولم يستبعد احتمال أن تتقسَّم اليمن إلى أكثر من دولة. ونقل أنه سمع في مصر من بعض المحللين السياسيين أن اليمن والوحدة يتعرضان للخطر، وأن دولاً تخطط لتقسيمه. وأكد أنه يريد أن يعرف رأيي شخصياً في ما يدور هناك، باعتبار أن أهل مكة أدرى بشعابها، وباعتباري رجلاً وحدوياً وقومياً ضحى من أجل الوحدة، حسب تعبيره، مؤكداً أنه لولا أحداث يناير ١٩٨٦ لما كان للوحدة أن تتحقق.

قلق القذافي بشأن الوحدة اليمنية

حدثني العقيد القذافي عن الزيارة الأخيرة التي قام بها إلى اليمن عام ١٩٩٠م بعد مؤتمر القمة العربي في بغداد الذي قال عنه إنه لا يدري لماذا انعقد!! وقال إن طائرة واحدة أقلته مع الرئيس علي عبد الله صالح ونائبه علي سالم البيض إلى صنعاء، وإنه التقى عدداً كبيراً من الشخصيات اليمنية في لقاءات متعددة، بما فيها جلسات القات، وآخر في معسكر للقوات المسلحة، وإنه خرج بانطباع جيد بأن الوحدة اليمنية بخير، وعاد من صنعاء وهو متفائل. ولكنه فوجئ بالخلافات الأخيرة بين فريقي الوحدة، بين الرئيس ونائبه، وبين المؤتمر

الشعبي العام والحزب الاشتراكي اليمني، وقد أثار ذلك عنده المخاوف! وأخبرني أنه اتصل بالرئيس علي صالح بعد أحداث تعز وصنعاء الذي طمأنه إلى أن الأمور طيبة ولا تدعو للقلق. وأخبرني أيضاً أنه وجه دعوة إلى علي البيض لزيارة طرابلس، ولكنه اعتذر عن عدم تلبيتها، وأن علي عبد الله صالح عندما عرف بالدعوة انزعج لذلك، وقال لي القذافي إنه كان حريصاً على التشاور مع البيض والوقوف منه شخصياً على أسباب خلافه مع الرئيس، كذلك كان يرغب في أن يتشاور معه في الأوضاع في اليمن. وكان انطباعه أن البيض تطور كثيراً، وأنه الآن أكثر تعقلاً واتزاناً، بعكس ما كان عليه من الشطحات والمزايدات والفوضوية. وقال إن القيادة اليمنية ليست أمينة على الوحدة، وإنها استبعدت الجميع من المشاركة في السلطة وبناء الدولة الجديدة. وأضاف: «إن اليمن في انتظارك. وإن الوحدة أمانة في عنقك، وإنك جدير بأن تتحمل مسؤوليتك في اليمن، وعليك أن تعود إليها وإلى جماهيرك، لأنْ ليس لك بعد الوحدة موقع خارج اليمن». دار بيننا حوار حول ضرورة الحفاظ على الوحدة باعتبارها إنجازاً تاريخياً، ليس لليمن وحدها، بل للأمة العربية كلها. قدرت للقذافي قلقه وحرصه على هذه الوحدة من منطلق إيمانه العميق، ونضاله الدائم من أجل تحقيق الوحدة العربية. وتطرق حديثنا إلى الفترة الانتقالية والأخطاء التي ارتكبت فيها، وما تركته من آثار سلبية، وخلافات وأزمة ثقة بين الحزبين الحاكمين، وبينهما وبين بقية الأحزاب والقوى الوطنية، وحتى مع دول المنطقة. وتحدثنا عن عودتي إلى اليمن، فأخبرته بأن المسؤولين طلبوا مني العودة فعلاً، وكذلك العديد من الأحزاب والشيوخ والقوى السياسية. صارحته بأنني أخشى أن يكون الباعث لهذه الدعوات التي جاءت في وقت اشتداد الأزمة، استخدام ورقتي في الخلافات والصراعات السياسية، وهو ما لا أرغب فيه، ولا أن تستخدم عودتي في الصراع على السلطة ولو كنتُ متيقناً من أن هذه العودة ستصب في مصلحة تعزيز الوحدة الوطنية والوحدة اليمنية لاستعددتُ للقيام بخطوة كهذه. وأضفت أنني أفكر في العودة إلى اليمن ولكن كمواطن وليس كمسؤول. وأخبرته أنني انشغلت في الماضي بكتابة مذكراتي عن الأحداث والقضايا التي عشتها وعاصرتها داخل السلطة وخارجها حتى أسجل تجربتي

للأجيال القادمة، وأنني منشغل الآن بإنشاء مركز للدراسات الاستراتيجية التي تهمّ الوطن العربي.

النظرية الثالثة والكومونات

دار حديث مع القذافي حول تجربة الحزب الواحد، وإخفاق هذا الخيار وانهيار أنظمة الحزب الواحد في العالم. لكن القذافي في الوقت نفسه لم يكن مع التعددية، وكان من رأيه أن لها مضارّ على الوحدة الوطنية، وأن العالم الثالث لا يمكن أن يتقبلها بحكم تخلف المجتمع، وقال إن الأحزاب تحولت إلى قبائل! وتحدث بحماسة عن تجربة المؤتمرات واللجان الشعبية في ليبيا، وقال إنّ الانتصار سيكون لها في المستقبل، وإنها الخيار الأمثل، ليس للعالم الثالث فحسب، بل للعالم كله. وقال إنه بشّر بعصر الجماهيرية، وإن الرأسمالية إلى زوال كما زالت الشيوعية! وتحدث عن الكومونات التي بلغ عددها ١٥٠٠ جماهيرية في ليبيا، وكانت له في ذلك فلسفته، فبدلاً من الصراع على كرسي واحد، فإن المشاركة الشعبية توسّع من مجال التنافس على المقاعد العديدة في هذه الكومونات. وفي رأيه أن اليمن أصلح بلد يمكن أن تطبق فيه هذه التجربة الجماهيرية، ويمكن أن تكون مقبولة من شعوب دول المنطقة الذين يخافون من خطر الحزبية. وهاجم القذافي الأصوليين والمتطرفين بشدة، واصفاً إياهم بالقوة المعادية للتطور والتقدم، ولكنه في المقابل أشاد بالجبهة الإسلامية في الجزائر والنهضة في تونس، وقال إن الأنظمة هناك هي التي دفعتهم إلى العنف والنشاط السري... وبعد انتهاء حديثنا ذاك ودعني بطريقة ودية حتى باب السيارة، على أمل أن نلتقي مجدداً.

في الطريق إلى تونس الخضراء

عند الساعة العاشرة من صباح الثاني من فبراير غادرت طرابلس في طريقي إلى تونس الخضراء. وفي السيارة كنت أدندن بمقاطع من أغنية «بساط الريح» للشاعر عصمت عبد العظيم، وتحديداً المقطع الذي يقول فيه:

غزلانك البيضاء تصعب على الصياد تونس أيا خضراء يا حارقة الأكباد

التي لحمها وغناها المرحوم الفنان فريد الأطرش، خصوصاً تلك المقاطع الجميلة التي يتغنى فيها بالطبيعة الساحرة والخضرة الأبدية في تونس، وغزلانها البيضاء! وكنا ونحن في ريعان الصبا قد تعرفنا إلى تونس عبر شاعرها العظيم الذي مات في ريعان شبابه، بعد أن خلدها وخُلد من بعدها بشعره، وأقصد الشاعر أبا القاسم الشابي الذي ذهب بيت من قصيدته (إرادة الحياة) مضرب الأمثال، وكان ذات يوم يشعل جذوة النضال في وطنه العربي، ويستشهد بشعره الوطنيون والثوار العرب والشعوب العربية في كل مكان. فمن منا لم يردد مع الشابي:

إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر
ولا بد لليل أن ينجلي لا بد للقيد أن ينكسر

وعرفنا تونس عبر نضال شعبها ضد الاستعمار الفرنسي في سبيل الحرية والاستقلال الذي كان يقوده في تلك الأيام المحامي الذي أصبح فيما بعد أول رئيس لجمهورية تونس حتى أدركته الشيخوخة، وارتبط اسمه بالاستقلال وبتونس لسنوات طويلة. أقصد الحبيب بورقيبة.

كل شيء يُهَرَّب حتى النفط

(أبي كماش) هي النقطة الحدودية بين ليبيا وتونس، وتتجمع فيها أكثر من ١٥٠٠ سيارة محملة بكل أنواع البضائع متوجهة من ليبيا إلى تونس. تشعر وأنت تشاهد هذا المنظر وكأن الشعب الليبي كله في حالة انتقال أو في طريقه إلى الخارج هارباً من حرب، أو مجاعة، أو خوف أو شيء ما. ومثل هذه الطوابير الطويلة من السيارات يمكنك مشاهدتها على حدود ليبيا مع تشاد ومصر والسودان، وما خفي في الصحارى الليبية أعظم وأخطر، لأن التهريب والمهربين هنا يظهرون أكثر من أي مكان في العالم. فالمهربون من دول الجوار وحلفاؤهم من الليبيين يقومون بعملية تفريغ منظمة لمعظم السلع في الأسواق الليبية دون رقيب أو

حسيب بعد أن حطم معمر القذافي النقاط الجمركية على طول حدوده مع جيرانه مصر، تونس، الجزائر، وبقية البلدان الأخرى، حيث امتطى العقيد ظهر «بلدوزر» ودكّ تلك النقاط في واحدة من هبّاته التاريخية بتحطيم الحدود بين أجزاء الوطن العربي الواحد. ولكن هذا القرار الذي اتخذ من طرف واحد، ألحق الأضرار بالشعب الليبي ومعيشته وأمنه، وخلق كراهية بينه وبين جيرانه الذين ينهبون كل السلع من سوقه في الوقت الذي هو في أمسّ الحاجة إليها. وهذا ما أحسست به ولمسته من كل الذين شاء لي الحظ أن ألتقيهم. فكل شيء يهرَّب، بما في ذلك النفط، إلى خارج الحدود، نظراً إلى رخص أسعار البضائع في ليبيا، وخصوصاً المواد الغذائية التي تُعَدّ الأرخص في العالم بسبب دعم الدولة لها، حيث تشكلت مصالح بين المهربين والقائمين على حراسة هذه النقاط التي أقيمت أساساً لمراقبة التهريب والحيلولة دونه. وكما علمت، فإن المهربين وحراس الحدود والمسؤولين عن الأسواق الشعبية يشتركون جميعاً في هذا الاستنزاف الكبير الذي حوّل المحالّ التجارية في طرابلس وبنغازي وبقية المدن الأخرى إلى أماكن فارغة ومهجورة ينظر إليها المتسوقون بحسرة وألم.

«اذهب إلى برقة وقابس»

تونس من الباب الخلفي

بعد أن قطعنا طريقاً صحراوياً طويلاً، وصلنا إلى النقطة الحدودية «أبي كماش»، وتوقفنا حتى تمّ لهم التحقق من هويتنا، وسمحوا لنا بالعبور إلى تونس، ولكن عبر النقاط الجمركية المهدمة التي تحولت إلى أطلال وأرض خراب دكّتها البلدوزرات الليبية بتوجيهات من القائد. ومنها انتقلنا إلى النقطة الجمركية التونسية، حيث يوجد جهاز قوي من الإداريين ورجال الأمن الذين يراقبون كل صغيرة وكبيرة، شاردة وواردة... ولا يتركون شيئاً للمصادفة. وحتى عندما حاولنا التقاط بعض الصور التذكارية على الحدود، قالوا لنا إن ذلك يخالف أنظمة الأمن التي تمنع التصوير في مثل هذه الأماكن الحدودية، مع أن كل ما فيه كان مبنى جميلاً يرفرف عليه العلم التونسي، وقد أرادوا مصادرة «الكاميرا» أو سحب الفيلم،

ولم يقتنعوا بكل ما قلناه إلا بعد أن جاءتهم التعليمات من المركز بالسماح لنا بالدخول بعد أن هددنا بالعودة إلى طرابلس، حينئذ فقط رحبوا بقدومنا إلى تونس الخضراء.





النقطة الحدودية بين تونس وليبيا

ورغم ما شعرت به من انزعاج لهذا التشدد الأمني الذي لم أجد له ما يسوّغه، فقد تمنيت لو أن مثل هذه الإجراءات طبقت في الإجراءات الأمنية والحراسة على المناضلين الفلسطينيين أبو جهاد[1] وأبو إياد اللذين اغتالهما الموساد وعملاؤه وهما في ضيافة تونس.

عبر طريق متعرج أخذت السيارات تتقدم بنا إلى تونس، في طريقنا مررنا بقابس

---

(١) اغتيال أبو جهاد: اغتيل عام ١٩٨٨، وجاء اغتياله لإحداث صدمة وإحباط في صفوف الفدائيين المشاركين في الانتفاضة الأولى التي بدأت نهاية عام ١٩٨٧م نتيجة دوره المعروف في قيادة القطاع الغربي، وحملت اسم الشيفرة لعملية الاغتيال (عرض الغاية) وأشرف على العملية وحدة العمليات الخاصة في الموساد المعروفة باسم (قيساريا)، ونفّذتها وحدة النخبة التابعة لهيئة الأركان العامة (سيرت متكال)، وقد شاركت قوة من الكومندوس البحري المعروفة باسم (شييطت ١٢)، وتفيد المعلومات التي نشرتها صحيفة يدوعوت في تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠١٢ بأن ناحوم ليف، قائد فرقة سيرت متكال، هو من قاد هذه الوحدة عند هبوطها على شاطئ العاصمة التونسية في ١٥ نيسان/ أبريل عام ١٩٨٨م.

والقيروان، حيث تذكرت التاريخ المجيد لهذه المدينة، وجامعها المشهور، ومعاهدها في عصر الازدهار الإسلامي. أما قابس، فقد كنا نسمع ونحن صغار أن الرجل عندما يغضب من شخص يقول له: «اذهب إلى برقة وقابس[1]».. لأنها تقع في أقصى الدنيا بمعايير ذلك الزمان، ولكن العلم والطيران حلا هذا اللغز، وما كان يبدو بالأمس بعيداً أصبح اليوم قريباً وفي متناول اليد، وها نحن اليوم نصل إلى قابس متتبعين خُطى أجدادنا في هجراتهم الهلالية القديمة.

أبو جهاد وأبو إياد

أخيراً، وفي الساعة السابعة مساءً وصلنا إلى تونس. كانت تبدو جميلة وهي تسبح في محيط من الأضواء والألوان... لا أدري وأنا أمرّ بأحياء تونس وشوارعها وأزقتها، لماذا سيطرت عليّ بشكل ملحّ صورتا «أبي جهاد» و«أبي إياد» اللذين اغتيلا هنا. وتخيلت كيف تسلل القتلة إليهما وأزهقوا روحيهما. كانت تربطني بالبطلين الفلسطينيين علاقة صداقة حميمة، فقد كانا من أنبل من عرفتهم. قرأت على روحهما الفاتحة في سري، ودعوت لهما بالخلود والرحمة... واستذكرت آخر كلمة قلتها لأبي إياد في صنعاء عام ١٩٨٩م، «اهتم بأمنك» وكان ردّه عليّ، «ولكني أخاف عليك أكثر من الخوف على نفسي»، وكانت تلك كلمة الوداع الأخيرة.

---

(١) هي أسماء قبيلة هلالية عامرية من أصول يمنية يعود نسبها إلى بني زغبة بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر بن صعصعة، عاشت في أرض تسمى أعالي شعاب مرخة،ويلحق بها أرض العليهين ووادي جيشان ووادي عدمر وظلامة آل عرول، وهي جبال وشعاب خورة وضرى وعبدان وحطيب، وقبائل العليهين تنتسب إلى بني هلال.



غلاف صحيفة يديعوت وتحمل صورة ناحوم ليف الذي اغتال أبو جهاد عام ١٩٨٨م

نزلنا في فندق «هيلتون الذي يقع فوق ربوة تطل على جزء من مدينة تونس حيث تمتد أمامها تلك الخضرة التي اكتسبت منها تونس بهاءها وزهوها كبساط أخضر جميل.

إلى ليبيا مرة أخرى

مرة أخرى ومجدداً ذهبت إلى ليبيا في يونيو ١٩٩٦م، بعد زيارتها في عام ١٩٩٣م، وعلى عكس الأولى فقد وصلتها براً... انطلقت قافلتنا الصغيرة من (شيراتون) القاهرة الذي انعقد فيه المؤتمر الأول للمركز العربي للدراسات الاستراتيجية تحت عنوان: «إعداد الوطن العربي للقرن الواحد والعشرين» الذي شارك فيه نحو مئة وخمسين من المفكرين والباحثين العرب من أنحاء الوطن العربي كافة.

قائد رحلتنا هو الأخ والصديق العميد صالح الدروقي الذي أصرّ أن يقود السيارة بنفسه.. وهو أحد الضباط الأحرار، وكان قائداً لمنطقة طبرق، وقام بعدة مهمات في لبنان والسودان وفلسطين... الطريق الصحراوي الذي سلكناه، تغير فيه كل شيء تقريباً: الطريق والأرض والناس والحياة والمزارع. كانت آخر مرة سلكته عام ١٩٦٨م حينما كان مهجوراً، أما الآن فآلاف السيارات تتزاحم عليه. وسيارتنا «المرسيدس» تنطلق بسرعة تفوق (١٨٠) كيلومتراً

في الساعة. في قصر المتنزه الجميل بالإسكندرية بحدائقه وموقعه على البحر، اقترح صالح الدروقي أن نمشي على الشاطئ ونحن في طريقنا إلى مطعم الأسماك «قدورة»، وكانت تهبّ علينا نسمات من هواء البحر العليل، وتصادفنا وجوه الإسكندريين الذين نمرّ بهم، وبنات بحري. آلاف الناس يهربون في مثل هذا الوقت من الصيف من حرّ القاهرة وزحامها وينتشرون على طول الشاطئ الطويل الممتد إلى ما لا نهاية، أو يسبحون في المياه المنعشة.

توقفنا عند بائع الذرة الشامي، وابتعنا منه ونحن في الطريق إلى المطعم، وعلّق صالح الدروقي، وهو يمضغ حبات الذرة: «إنه لحم وشحم الفقراء!». وأثار ذلك في نفسي الذكريات البعيدة عن الأيام التي قضيتها في القاهرة عندما كنت في دورة الصاعقة، كنت أشتري الذرة وأتسلى بأكلها في الطريق من السكن وإليه، ولم أكن أملك أجرة الباص، وكان ركوب التاكسي بعيد المنال في معظم الأوقات. وكان من الصعب أيضاً، بل من المستحيل، أن نأكل السمك، أو نقضي سهرة في أحد مطاعمها. كان دخلي حينذاك نحو عشرين جنيهاً، بالكاد يكفي لإيجار المنزل والطعام، لكن مع ذلك كان للحياة طعم خاص لم يعد موجوداً الآن...

معركة العلمين

رومل ومونتغمري

من الإسكندرية إلى مرسى مطروح، فالسَّلوم، آخر نقطة حدودية بين مصر وليبيا. صعدنا مرتفعاً جبلياً وكان علينا أن نقطع مسافة ٦٥٠ كيلومتراً بالسيارة التي كان يقودها صديقي الدروقي الذي يعشق السرعة. كان اتفاقي معه ألّا تزيد سرعة السيارة على ١٦٠ كيلومتراً في الساعة، ولكنه كان يخالف هذا الاتفاق دائماً ويتجاوزه برغم تنبيهي المتكرر، وتذكيره باتفاقنا على حدود السرعة... في طريقنا مررنا بالعلمين حيث دارت المعارك الطاحنة في الحرب العالمية الثانية بين القوات البريطانية والألمانية، بين رومل ومونتغمري، في واحدة من المعارك التي غيرت وجه تلك الحرب وموازينها.

حظيت معركة العلمين باهتمامات رجال الحرب والسياسة والمؤرخين، وهي من

المعارك الكبرى الفاصلة في تاريخ الحرب العالمية الثانية، وقد وصفها ونستون تشرشل رئيس وزراء بريطانيا بأنها «بداية النهاية»، حيث خسرت قوات المحور ما يزيد على عشرة آلاف من القتلى والجرحى و٣٠ ألفاً من الأسرى و٥٠٠ دبابة، وأدت إلى تدمير قوات المحور، فاضطر الجنرال فون أرينم الذي خلف رومل في قيادة قوات المحور إلى الاستسلام عام ١٩٤٣، وكانت حصيلة الأسرى في شمال إفريقيا ٩٠ ألفاً من قوات المحور بكامل أسلحتهم ومعداتهم، فيما خسر الجيش الثاني البريطاني ١٣ ألفاً من القتلى والجرحى ونحو ٤٥٠ دبابة. لم يبقَ من آثار تلك الحرب اليوم إلا بعض الدبابات والمدافع والأسلحة وطائرة، ومقابر الجنود الألمان والإنكليز والإيطاليين، وعشرات الآلاف من الألغام التي زرعت في تلك الصحراء. لا أحد يهتم الآن بمصير أولئك الجنود الذين جاؤوا من وراء المحيط وقضوا نحبهم هنا بعد أن أصبحت الحرب ذكرى من الماضي وجزءاً من التاريخ المأسوي للبشرية...

وفي مدينة العلمين زرنا «متحف العلمين الحربي» الذي ضمّ عدداً من الأسلحة والمعدات التي استُخدمت في معركة العلمين الشهيرة، إضافة إلى تماثيل لأبرز قادة هذه المعركة، ومنهم رومل ومونتغمري، وهو يضمّ أربع قاعات للعرض مخصصة لكل من المصريين والألمان والإيطاليين والبريطانيين، إضافة إلى مخطط حربي للمعركة، وقد افتتح هذا المتحف الرئيس جمال عبد الناصر في ١٦ ديسمبر ١٩٦٥م.



أمام متحف العلمين الحربي



مع ثعلب الصحراء رومل



صالح الدروقي

الناس على طول هذا الساحل الجميل تركوا الصحراء والحرب خلفهم ووجهوا اهتمامهم إلى بناء القرى السياحية الجميلة من الإسكندرية حتى مرسى مطروح، حيث بنيت مئات الفنادق، وآلاف الفيلات والشاليهات التي أطلقت عليها أسماء عربية وأجنبية مثل: ميامي، فلوريدا، الكروان، مراقيا، ومارينا وغيرها. الطريق من الإسكندرية إلى السلوم بساط مريح وواسع، والإشارات المرورية تحدد السرعة، وتحذر من المنعطفات والمنخفضات، وتعلن وجود رادارات تراقب حدود السرعة، وبعض الإشارات تقول محذرة: «لا تسرع فالموت أسرع، ولكن الدروقي لا يعيرها اهتماماً، ولا يهتم بتلك التحذيرات، التي لا تدفعه إلى تهدئة سرعته.. ولكنه اضطر في الأخير إلى أن يتوقف في المنطقة الجمركية في السلوم، آخر نقطة حدودية بين مصر وليبيا. إنها نقطة شديدة التعقيد بسبب تداخل الأجهزة والأشخاص والمصالح التي تمتصّ دماء العمال العائدين إلى مصر، حيث تفتح حقائبهم وتفتش جيوبهم وأمتعتهم باسم القانون والنظام، وهو ما يحصل في غير مصر من البلدان والنقاط الجمركية العربية. علّق رفيق رحلتي الدروقي على هذه الإجراءات قائلاً: «هؤلاء الذين ينتظرون ويفتشون ليس لهم علاقة بالتهريب أو التخريب، فالمهربون لا يعبرون هذه النقطة الحدودية، فلهم منافذهم الخاصة، وحمايتهم الخاصة، وحتى أمنهم الخاص». كان

يقول ذلك بألم وهو يقف إلى جانب السيارة يدخن بنهم وينفث الدخان من فمه وأنفه لتأخذه الرياح الشديدة بعيداً مع زفراته وغيظه. بعد إتمام الإجراءات وتسلّم جوازاتنا، انطلق بنا العميد صالح إلى المركز الليبي المقابل (أمساعد) حيث تمت الإجراءات بسرعة، وانطلقنا إلى طبرق التي كان العميد الدروقي قائداً لها بعد قيام ثورة الفاتح لمدة عام.

العميد صالح أحرق مذكراته!

العميد رجل هادئ، قليل الكلام، يحب المزاح أحياناً ويضحك، يفتح زجاج نافذة السيارة ليطرد الدخان ويسمح بدخول الهواء النقي. حاولت أن أعرف منه بعض تجاربه في لبنان والسودان والعلاقات مع الفلسطينيين في السبعينيات والثمانينيات، فحدثني بمرارة عن علاقاته باللبنانيين، والسودانيين، والفلسطينيين، وقال لي إنه مزق مذكراته عن هذه المرحلة بعد أن أصيب بجلطة في القلب، وإنه فعل ذلك حتى ينسى كل شيء يُذَكِّرُهُ بهذه المرحلة. فقد عاش في قلب الأحداث... عايش الحرب اللبنانية (الأهلية) والحرب اللبنانية – الفلسطينية، والحرب الفلسطينية – الفلسطينية والحرب الإسرائيلية ضد الجميع في لبنان عام ١٩٨٢م. وقال إنه عرف بعض هؤلاء الذين يتقمصون رداء الثورة واحداً واحداً وهم يتآمرون عليها في الوقت نفسه. كان في حديثه كثير من المرارة وهو يتحدث عن مآسي هذه الأمة، وشعرت بالأسف معه لأن تلك النماذج السيئة اغتالت في الرجل روحه النبيلة، وأحبطت عزيمته رغم أنه مازال يحتفظ بقلب ينبض بالحسّ والشعور القومي والألم لما آلت إليه حال أمته العربية.

وقد التقيت معه أكثر من مرة بعد مغادرة السلطة وسقوط نظام معمر القذافي وعلمت منه أن الكثير ممن كانوا يترددون الى منزله ومكتبه من القيادات الفلسطينية واللبنانية والعربية لم يعودوا يزورونه أو يسألون عنه. وأعتقد أنه كان محقاً بالحديث عن إحراق مذكراته فالعالم هو عالم مصالح وليس مبادئ.

اختفت اللوحات التي تحمل تلك العناوين الجميلة الموشّاة بالألوان والظِّلال. «الكروان»، «فلوريدا»، «ميامي» إلخ... والتي كانت تمتدّ على طول الشاطئ الشمالي

والطرق الساحلية والقرى السياحية في مصر، والتي سمّاها العقيد صالح «مظاهر انتعاش البرجوازية»، وظهرت شعارات أخرى مغايرة ومتناقضة معها.

حدود العرب للعرب.

نفط العرب للعرب.

نعم للوحدة العربية.. لا للحدود الوهمية.

اللجان في كل مكان.. ومن تحزب خان.

الشعارات تقابلك أينما سرت أو اتجهت، بدءاً بدخولك الحدود الليبية. إنها اللون الوحيد في هذه الصحراء. اختفت من أذهاننا الشعارات الثورية والإشارات المرورية، وبقينا مع الذكريات الشخصية والإنسانية ونحن في سباق مع الشمس بين جمرك مساعد ومدينة طبرق.

عرفنا أن الليبيين خلعوا الإشارات المرورية في عام ١٩٧٧م في أثناء الحرب بين مصر وليبيا، وذلك حتى يتمكنوا من تضليل الجيش المصري في الأراضي الليبية والقضاء عليه، ولكنهم نسوا إعادتها إلى أماكنها حتى بعد انتهاء تلك الحرب بعشرين عاماً، وعليك وحدك أن تحدد مسارك وسرعتك، وتخمّن أماكن وجود المطبات، والمنعطفات. لكن رفيق رحلتنا وقائد سيارتنا كان خبيراً محنكاً بهذه الدروب، وهو الذي كان قائداً لمنطقة طبرق، ويعرف هذه الطريق بالتفصيل ولا يحتاج إلى إشارات مرور، وهو الآن يمارس هوايته في السرعة، حتى أوصلنا إلى طبرق.

فندق الخليج

فندق الخليج أو المسير.

كنت وأنا أقرأ تاريخ طبرق أتعرّفها باعتبارها أول محطة للإسلام والمسلمين وهم في شمال إفريقيا. وكانت المدينة مسرحاً لواحدة من معارك الحرب العالمية الثانية التي أشرف عليها تشرشل، رئيس الوزراء البريطاني. وكان فيها للبريطانيين قاعدة عسكرية أُجلوا منها بعد قيام ثورة الفاتح من سبتمبر.

مدينة جميلة ترتاح على شاطئ المتوسط ويغسلها الموج، هادئة رتيبة. رأيت بعض

التجار يراقبون السيارات التي كنا نستقلها بتجوالنا في شوارع طبرق، وكان البعض يضع يده تحت ذقنه والحسرة تكسو وجهه. لم يكن صعباً أن أخمّن السبب، فالحركة التجارية مشلولة، حيث أثّر الحصار في التجارة، وفي الحياة عموماً. ولم يكن الحصار وحده السبب، فالفوضى الإدارية والتنظيمية والتموينية وغياب المسؤولية والمحاسبة تسهم بنصيبها في هذا الوضع، إضافة إلى الاعتماد الكامل على الدولة التي رفعت شعارات كثيرة، كالمركوب لراكبه، والسكن لساكنه... إلخ.

معركة طبرق

اغتنمت فرصة وجودي في طبرق للتعرف على المسرح الذي دارت فيه بعض معارك الحرب العالمية الثانية، باعتبارها إحدى محطاتها المهمة. بقايا دبابات قديمة وصدئة من تلك الحرب التي مضى عليها نحو نصف قرن، والتي مات أو قتل معظم أبطالها. بعض المدافع البحرية ومدافع الميدان، بعض أجزاء من طائرة أميركية عملاقة ذات أربعة محركات، هذا كل ما بقي من تلك الحرب التي حصدت الأرواح وروَّعت العالم وغيَّرت الموازين، والتي اشتعلت بدءاً من أوروبا وامتدّت نيرانها إلى كل مكان. وتحت الساحة التي كانت تنتشر فيها هذه البقايا في ما يشبه المتحف المفتوح، كانت غرفة العمليات التي أدار منها ثعلب الصحراء رومل معاركه قبل أن يلقى هزيمته المرة في العلمين على يد مونتغمري.

كان لا بد أن نغادر طبرق التي لم تكن سوى محطة على الطريق. وسنستقل هذه المرة الطائرة إلى طرابلس، فالطيران الليبي يعمل على الخطوط الداخلية بين المدن الليبية بعد أن منعه الحصار من تسيير رحلاته على الخطوط الخارجية. بعد طول انتظار في المطار وصلت طائرة البوينغ ٧٢٧ التي ستقلنا إلى طرابلس. كان الحر شديداً، ودرجة الحرارة في هذا اليوم نحو ٤١ درجة. أقلعت الطائرة وسط ازدحام العائدين إلى طبرق ومغادريها، كان المحظوظ من يجد له مقعداً فيها. حلّقت الطائرة بنا فوق الجبل الأخضر وبنغازي في الطريق إلى طرابلس التي وصلناها مُنهكين لأننا لم نتمكن من النوم في الفندق الذي كانت مكيفاته معطلة، فتحنا الشبابيك ولم نستطع النوم يومها بسبب الناموس. كان في انتظارنا بعض المسؤولين وأعضاء المراسم. لم يكن يهمنا في تلك اللحظة من يكون في استقبالنا

بقدر ما كان يهمنا الوصول في أسرع وقت ممكن إلى مقر إقامتنا، الذي كان فندق «المهاري» الجميل، وهو يطل على ميناء طرابلس.

من شرفة جناحي رأيت السفن والمراكب الداخلة إليه والخارجة منه ناقلة الركاب والبضائع بين طرابلس ومالطا وقبرص والإسكندرية وتونس وتركيا حيث نشطت الحركة البحرية بسبب الحصار الجوي.

صادف وصولنا احتفالات الشعب الليبي بمرور ٢٥ عاماً على جلاء القوات البريطانية والأميركية. شاركت في المناسبة وحضرت الاحتفالات في قاعدة عقبة بن نافع التي يطلق عليها اليوم «امعتيقة»، وتذكرت مشاركات الزعماء جمال عبد الناصر والحبيب بورقيبة وهواري بومدين ونور الدين الأتاسي والقاضي عبد الرحمن الإرياني وأحمد حسن البكر وشارل الحلو وجعفر النميري وخليفة بن زايد وفاروق القدومي (أبو اللطف) وعدد كبير من الزعماء في الاحتفالات السابقة. كذلك تذكرت ما مرّ بالمنطقة من صراعات وحروب، وانهيار أنظمة، وسقوط رؤساء وملوك وحلول آخرين محلهم، كما قضت بذلك سنن الحياة..!

انتحار رائد الفضاء

آلية التعامل في ليبيا لا تتغير، ففي كل مرة أذهب إلى طرابلس على مدى عدة سنوات أجدني في انتظار مملّ، أنتظر موعدي مع القائد معمر القذافي الموجود خارج طرابلس. تبدو الحياة مُمِلَّة، رتيبة، أجلس في جناحي بالفندق أتأمل البحر من الشرفة. وكثيراً ما كنت أحسد الأمواج على حريتها وحركتها الدؤوب، ماء يعلو ويندفع يحاول أن يزحزح الشاطئ، يفعل ذلك دون أن يتوقف أو يشعر بالملل، أو يدرك أن لا أمل له في ذلك كما لا أمل في أن تتغير عادات الليبيين هذه. يدعونك إلى زيارتهم، ثم يجعلونك تنتظر في الفندق تمضغ الانتظار، فلا برنامج للزيارة، ولا تحديد للمواعيد، وكذلك لا يمكننا السفر والمغادرة إلى تونس ومنها إلى دمشق، مقرّ إقامتنا، إلا بموافقة المضيف. ليس هذا حالي وحدي، فقد سمعتُ قصصاً عجيبة عن ضيوف عرب وأجانب جاؤوا إلى ليبيا بدعوة من مسؤولين ليبيين، وأنزلوهم في

هذا الفندق أو غيره من فنادق طرابلس، ثم نسي أمرهم، منهم من طال به المكوث شهراً أو شهرين وغادر بعد أن ملّ الانتظار دون أن يحقق الهدف الذي جاء من أجله. ومنهم من أخذ مفتاح غرفته معه ليعود بعد عدة شهور أو سنين فيجد الغرفة ما زالت محجوزة باسمه... ويمنيون تعلموا لعب الشدّة أو «البطة» كما نسميها في عدن ليقتلوا الفراغ لعدم توافر أيّ من وسائل الترفيه، كالسينما والمسرح والمتنزهات والملاهي الليلية والفضائيات، وكان عليهم أن يتابعوا التلفزيون الليبي والتظاهرات والمسيرات الجماهيرية، وأنا على يقين بأنهم لا يتعمدون ذلك، ولكن كثرة الوفود والمدعوين مع غياب جهاز قادر على الاهتمام بالضيوف وترتيب مواعيدهم ومتابعة نتائج تلك الزيارات إضافة إلى الضغط الشديد على المرافقين الذين يتحملون أكثر من طاقتهم، كل ذلك يسهم في خلق تلك الإرباكات واستمرارها.. ويبدو أن الإدارة تحسن تدريجياً بعد عام ٢٠٠٠م، إذ تطورت الحياة هناك في السنوات الأخيرة بعد الانفتاح التدريجي في العلاقات مع الولايات المتحدة والدول الأوروبية.

أتذكر قصة رواها السيد محسن إبراهيم عن مفتي لبنان الذي التقى الرئيس عبد الناصر في حفلة رسمية في الستينيات، وعندما طلب لقاءه أجابه الرئيس، حاضر انتظر وما تسافرش وحشوفك. وبقي نحو ثلاثة أشهر في انتظار المقابلة التي جرت فيما بعد. وعندما قابله عبد الناصر سأله: أين سكنت كل هذه المدة؟

ردّ: في هيلتون النيل، ولكنني تأخرت كثيراً فخامة الرئيس.

علّق عبد الناصر بطريقته المازحة: وكم خلفت عيل؟

ضحك المفتي وقال: أستغفر الله فخامة الرئيس.

أما أنا، فقد استثمرت الوقت في قراءة بعض الكتب كما قرأت المجموعة القصصية التي أصدرها العقيد القذافي والتي ألّفها خلال بعض تأملاته الفلسفية التي يعتكف من أجلها في الصحراء، وهي قصص قصيرة بعناوين مثل «الأرض الأرض»، و«القرية القرية»، و«انتحار رائد الفضاء». وكنت قد تابعت ندوة في القاهرة حضرها بعض الأدباء والصحفيين والنقاد لمناقشة القيمة الفنية والأدبية لتلك القصص، وقد أشاد البعض بها كثيراً، وأعتقد أن بعض الآراء لا تخلو من النفاق.

جاكوب والإمام يحيى!

في انتظار موعدي الذي لم يتحدد بعد مع العقيد القذافي، تذكرت عند إطلالتي على البحر المستر (جاكوب) مندوب الحكومة البريطانية إلى الإمام يحيى بن حميد الدين في الثلاثينيات من القرن العشرين، الذي وصل إلى اليمن بموافقة الإمام وأخذ ينتظر في مدينة الحديدة حتى يأذن له الإمام بالحضور إلى صنعاء ويسلّمه الرسالة التي يحملها من حكومة صاحب الجلالة. لكن انتظار جاكوب طال نحو ثلاثة أشهر دون أن يحظى بمقابلة الإمام أو يأذن له بالعودة من حيث أتى إلى عدن التي كانت مستعمرة بريطانية حينذاك... كنا الآن في وضع مماثل، فالسماء مغلقة بسبب الحصار، والسفر بالبر إلى تونس يتطلب موافقة الحكومة التونسية، وقبلها موافقة الليبيين، وحتى لو أردنا السفر من غير موافقتهم، فجوازاتنا معهم، وما علينا إلا الانتظار ضيوفاً في واحد من أحدث فنادق طرابلس وأجملها إطلالة على البحر إلى أن يشاء الله. من الشرفة رأيت الشمس وهي تغيب في قلب البحر، تاركة وراءها شفقاً أحمر وخيوطاً ذهبية، وكانت تختفي وراء المياه والأفق الصافي حيث لا وجود للسحاب أو الضباب، وها نحن نودع اليوم الرابع لوجودنا ونستقبل اليوم الخامس: الأربعاء ١٤/ ٦/ ١٩٩٥ من شهر الصيف كما أسماه العقيد، بعد أن قرر تغيير أسماء الأشهر الميلادية بأسماء جديدة هي:

شهر يناير: النار، شهر فبراير: النور، شهر مارس: الربيع،

شهر أبريل: المطر، شهر مايو: الماء، شهر يونيو: الصيف،

شهر يوليو: ناصر، شهر أغسطس: هنيبال، شهر سبتمبر: الفاتح،

شهر أكتوبر: التمور، شهر نوفمبر: الحرث، شهر ديسمبر: الكانون.

كانت القيادة الليبية قد استبدلت بأسماء عدد من الرؤساء والقيادات والمدن أسماء جديدة، فتم تسمية جيورج حبش «الخضر»، وسمي وزير خارجيته المقهور «المنصور»، وسُمّي النميري «ذيل الكلب المقطوع»، وتل أبيب – «التل الأخضر»، seven up «سبعة فوق» وكامب ديفيد إسطبل داوود... وهكذا دواليك.

أخيراً، وبعد طول انتظار، التقيت العقيد معمر القذافي، وجرى اللقاء على شاطئ

البحر الأبيض المتوسط في واحدة من استراحات القذافي. وفوجئت بمراسم الاستقبال التي أعدّها لي بما في ذلك حرس الشرف، حيث وجدته في استقبالي في نهايته، وقال لي وهو يبتسم ويرحب بي: «نحن نتعامل معك كرئيس شرعي وحقيقي لأنك ضحيت من أجل اليمن والوحدة أكثر من الآخرين»، وأخذ بيدي إلى الخيمة التي نُصبت خصيصاً هنا للقائنا الذي يُعَدّ امتداداً لعشرات اللقاءات بيني وبين القذافي عندما كنت في السلطة وبعدها. المعروف عن الزعيم الليبي أنه مثير للانتباه، ويحب أن يستثير انتباه الآخرين، ويعطي بذلك مدلولات وإيحاءات يريد إيصالها كرسائل. وهكذا كان عندما لبس القفاز في قمة الجزائر عام ١٩٨٨م، ورفض مصافحة الزعماء العرب حتى يصدروا قراراً بإدانة أميركا لعدوانها على ليبيا عام ١٩٨٦م، وذلك بمناسبة مرور عامين على هذا الاعتداء (!)

وجدت العقيد القذافي أنيقاً كعادته، لكن الزمن والسن والإرهاق، كل ذلك ترك بصماته على وجهه، وظهرت التجاعيد تحت عينيه. كان ودوداً ولطيفاً معي طوال اللقاء، وتناولنا أموراً كثيرة، من الماضي والحاضر والمستقبل، وناقشنا انهيار الاتحاد السوفياتي والمعسكر الاشتراكي، وتأثير ذلك في أوضاع الأمة العربية والإسلامية، والتدمير الذي تتعرض له من قبل أعداء الأمة. قال: مثلما قضت الإمبريالية الأميركية والغرب على النظام الاشتراكي، فإنهم يسعون الآن للقضاء على الإسلام، لينطلقوا بعد ذلك لمحاربة ما سمّوه الكنفوشيوسية في الصين واليابان والهند القوى التي تهدد مصالح الولايات المتحدة في الشرق، حتى تصبح أميركا سيدة العالم سياسياً واقتصادياً وعسكرياً وثقافياً، وحتى دينياً، حيث تصبح المسيحية ديانة كل شعوب العالم، ولا يبقى هناك أحد يهدد نفوذ واشنطن. يبدو أن القذافي قرأ جيداً كتاب «نهاية التاريخ» للكاتب الأميركي الياباني الأصل «فرانسيس فوكوياما»، إذ شبّه القذافي الوضع الحالي بوضع الإمبراطورية البريطانية التي لم تكن تغيب عنها الشمس، وأكد ضرورة التفكير في مستقبل الوطن العربي والعالم الإسلامي وبلدان الشرق. وقال إنه التقى العديد من زعماء العالم لهذا الغرض، مثل نلسون مانديلا وأورتيغا وسكرتير اتحاد نقابات العمال العالمي، وهو من أصل روسي، وكان رئيساً لاتحاد الطلاب في الاتحاد السوفياتي السابق الذي انهار تاركاً وراءه فراغاً أخلّ بالتوازن الدولي، إضافة إلى

ضمور حركة عدم الانحياز التي أدّت في الماضي دوراً إيجابياً خلال الحرب الباردة بين المعسكرين. وقال إنه لا بد من البحث عن بديل على المستويين العربي والعالمي، ووضع استراتيجية على المستويين العربي والدولي.

يبدو في ظل هذه التطورات والعزلة المفروضة على ليبيا أن العقيد القذافي أخذ يفكر ويجتهد ويبحث عن مخرج، ويبدو أنه وجد ذلك أخيراً في القارة الإفريقية حيث يعمل الآن لقيام الوحدة وإعلان الولايات المتحدة الإفريقية، بدلاً من الدعوة لقيام الوحدة العربية. في نهاية اللقاء سألني العقيد القذافي عن الرئيس الإثيوبي السابق منغستو هيلا مريام، وعن المناضل اليمني سلطان أحمد عمر، فأخبرته أن الأول يعيش معزولاً في هراري بزمبابوي منذ خروجه من الحكم عام ١٩٩١م، والثاني كان مريضاً ومات وهو يطلب العلاج.

العشاء الأخير
في خيمة القذافي



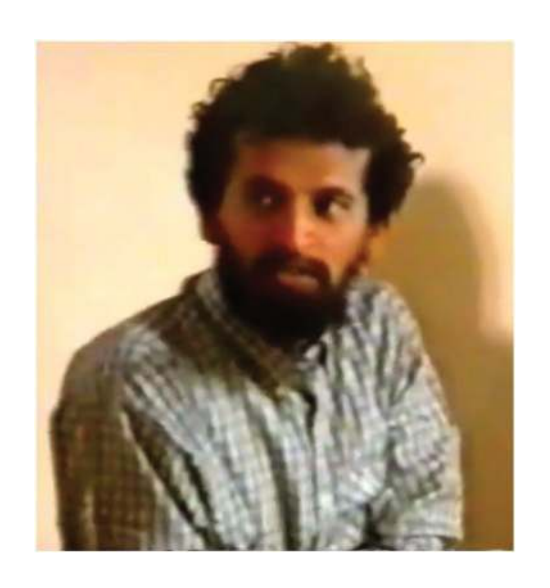
زرت ليبيا غير مرة، قبل الحصار وأثناءه وبعده بحراً وبراً وجواً، وكان آخر لقاء لنا في منتصف عام ٢٠٠٨م عندما طلبني القذافي لزيارته، وقد حدد لنا موعداً عند الساعة الثامنة

مساءً، واستمر حتى الساعة الثانية عشرة في خيمته بالعزيزية التي تقف أمامها الخيول والجمال وتنطلق ألسنة النار الملتهبة. وكانت معظم لقاءاته في الفترة الأخيرة تُعقَد في العزيزية بعد أن ضاقت به الصحراء ولاحقته الأقمار الصناعية وتسببت في الخوف على حياته، وكانت معظم لقاءاتي السابقة معه تجري في مناطق مختلفة من ليبيا، وكان من المقرر أن يكون لقاؤنا مدة ساعتين لأنه كان على موعد مع أحد الرؤساء الأفارقة، وعندما دخل مدير المراسم وهو يحمل ورقة بيده ويسلمها للقذافي ليشعره بوصول الضيف، طلب القذافي منه تأجيل الموعد إلى اليوم التالي، ولكنني اقترحت على العقيد أن يلتقي الرئيس الإفريقي وأن نلتقي معه غداً حتى لا نختلف معه، ولكنه رفض ذلك، وطلب منهم أن يجهزوا العشاء لنا الذي أُعِدَّ وطُبخ على النار، وخصوصاً الخبز الطازج الذي قُدم إلينا مع حليب الناقة التي كانت تقف أمام الخيمة، وبدا متمسكاً بالحياة البدوية التي اعتادها. كان عشاءً متواضعاً حوى عدداً قليلاً من الأصناف التي قدمت إلينا حيث أتوا بطاولتين صغيرتين عليهما عدد قليل من الأطباق لا تنمّ عن ترف أو سلطة في ظاهرها، قد حاول طوال فترة حكمه أن يظهر بهذا المظهر المتواضع الذي بدا جلياً من خلال خيمته التي كان يحملها معه في حلّه وترحاله داخل ليبيا وخارجها، وكان يعدّها رمزاً إحيائياً للبداوة التي يحملها في دمه. وسببت خيمته أحياناً بعض المشاكل والإرباكات للدول المضيفة، حتى أصبحت «خيمة القذافي» مثلاً أو قصة تحكى عند كل زيارة، وخصوصاً عندما ينقل النوق والمرافقات معه في سفرياته للخارج.

كان هذا هو اللقاء الأخير بيننا، ومن بعده جاءت نهايته عام ٢٠١١م بعد ثورات ما سُمِّي «الربيع العربي» التي جرت في تونس ومصر وليبيا واليمن والبحرين وسورية. سقط القذافي في هذه الثورات وهو الذي حذّر الحكام العرب في قمة دمشق العربية بتاريخ ١٠ مارس ٢٠٠٨م، وقال إن الدور عليكم واحداً تلو الآخر على أثر تقاعسهم تجاه عملية إعدام الرئيس العراقي صدام حسين.

وقد حضر لقاءنا هذا الدكتور عبد القدوس المضواحي وعبد الله السنوسي والدكتور رافع المدني وعبد الله منصور وبدأ الحديث عن الأوضاع في اليمن والوحدة اليمنية وعن جيش عدن أبين الذي ورد في حديث الرسول () أنه يظهر من عدن أبين جيش قوامه اثنا

عشر ألفاً ينصرون الله ورسوله والمسلمين، وقال القذافي: وإن هذا الحديث ينطبق عليكم، فأنتم من أبين وستقودون جيش عدن أبين بإذن الله، ومن جانبنا سنوفر لكم أشكال الدعم كافة وزيادة القوة إلى ٢٤ ألف مقاتل وستحققون نبوءة الرسول الكريم، وذلك بعد التدريب والتسليح وتجهيز الجيش بأحدث السيارات وأجهزة الاتصالات وسينطلق هذا الجيش عبر الربع الخالي والصحراء لتحرير مكة والكعبة من آل سعود، وستطهرون بلاد الحرمين بدءاً بالملك عبد الله بن عبد العزيز وأخوانه الخونة وتدمير قصورهم. أبديت عدم اتفاقي مع هذه الفكرة لأنها غير واقعية لتغيير النظام في المملكة، وقلت له حينذاك إنني لا يمكن أن أخدعك وأقبض المال والسلاح في مشروع غير قابل للتنفيذ على أرض الواقع، وسردت له قصة جيش عدن أبين الذي أنشأه «المحضار» في اليمن وما كان مصيره خلال أسابيع قليلة.



أبو الحسن المحضار قائد جيش عدن أبين الإسلامي

في عام ١٩٩٨م أعلن شخص اسمه زين العابدين المحضار، الشهير بأبي حسن، تأسيس جيش أبين عدن الإسلامي، في محاولة لاستثمار النزوع الديني لدى الشباب، بحثّهم على الجهاد، وذلك استناداً إلى الحديث النبوي المشار إليه والذي يبشّر بظهور جيش أبين عدن الإسلامي. والتحق بهذا التنظيم عدد من الشباب من ذوي التوجه الديني أو من

العائدين من أفغانستان، ونفذ هذا التنظيم عملية اختطاف لـ١٦ سائحاً أجنبياً من الأوروبيين القريبين من مديرية مودية في محافظة أبين، وقتل في هذه العملية ٤ من السياح عام ١٩٩٨م. وعندما قررت السلطات استخدام القوة لتحريرهم، اعتقلت عدداً من أفراد التنظيم وقدمت الحكومة خلال الأشهر اللاحقة أبو الحسن المحضار إلى جانب اثنين من معاونيه (أحمد محمد علي عاطف ٢٦ عاماً وأخوه سعد محمد علي عاطف ١٩ سنة) للمحاكمة، وحكمت على أبو الحسن بالإعدام.

التغيير في صنعاء وليس في الرياض

قلت له إن التغيير يجب أن يتم في صنعاء، وأنا أنصح بتقديم مثل هذا الدعم للحراك السلمي في الجنوب وللشباب والأحزاب في شمال اليمن والحوثيين في محافظة صعدة، فنحن معركتنا مع النظام في صنعاء وليس مع النظام في الرياض، والتغيير في المملكة يخصّ الشعب هناك. وعلّق الدكتور عبد القدوس المضواحي، وأكد أن التغيير في صنعاء بداية الطريق لتغيير النظام في الرياض وأكد ذلك السيد عبد الله السنوسي[١]، ولكن القذافي لم يقتنع بذلك، وشعرت بأنه مستاء من حديثي معه، وقال: أنت لا تريد إسقاط الملك عبد الله ونظام آل سعود، وعلقت بأن عبد الناصر بجيشه وإمكاناته وإعلامه لم يستطع تغيير النظام في المملكة من الخارج رغم تهديده وتأثيره الكبير في الشعوب العربية في المنطقة، ولكنه ساعد على تطويرها خوفاً من رياح التغيير، وبعد معركة طويلة معه في خيمته اتفقنا على ألا نتفق بشأن موضوع جيش عدن أبين والملك عبد الله وعلي عبد الله. وغادرنا إلى مصر، ولكن العقيد القذافي كان يتحدث في مجالسه قائلاً إنني رفضت العمل ضد الملك عبد الله رغم أنني لم أقابل الملك عبد الله إلا في صنعاء عام ١٩٨٧.

(١) عبد الله السنوسي عسكري ليبي، زوج أخت صفية فركاش الزوجة الثانية للعقيد معمر القذافي. ويوصف بأنه عين معمر القذافي وأذنه ويده اليمنى في إحكام السيطرة الأمنية على البلاد. قالت برقية دبلوماسية أميركية سرية نشرها موقع ويكيليكس إن عبد الله السنوسي ظِلّ الزعيم الليبي معمر القذافي والمشرف على كل ترتيباته الشخصية، بما في ذلك مواعيده الطبية، ووصفت البرقية الموجهة من السفارة الأميركية في طرابلس إلى الخارجية الأميركية السنوسي بأنه شخص مصاب بالخوف والرهاب الشديدين.

وكان سبب الخلاف بين القائد القذافي والملك عبد الله هو سوء الفهم الذي حصل بينهما في القمة العربية في الدوحة ٢٠٠٩م ولا أريد أن ندخل في تفاصيل ذلك الخلاف بعد أن أصبح الاثنان على ذمة التاريخ..

نهاية القائد

في بداية عام ٢٠١١ انطلقت الثورات العربية في تونس ومصر واليمن وسورية وكذلك الحراك في سلطنة عمان والبحرين.. ولم تنجُ من ذلك الجماهيرية الليبية حيث انتفضت الجماهير الليبية في فبراير ٢٠١١ ضد حكم العقيد معمر القذافي. واستغل هذا الحراك السياسي دول حلف الاطلسي للتدخل العسكري تحت غطاء جامعة الدول العربية التي أصدرت قراراً يجيز التدخل العسكري في ليبيا.

واستمرت المعارك العسكرية في ليبيا التي أنهكت قوات القذافي وكتائبه ودمرت قدراتها العسكرية، كما لوحقَت القيادات الليبية، وفي مقدمتها القائد معمر القذافي واللواء أبو بكر يونس الذي التحق بالقذافي قبل استشهاده بعد تعرضه للقصف من قبل قوات الناتو. وأكد الرئيس الفرنسي «ساركوزي» في حديث إلى القناة الفرنسية الثانية فقال: «لا توجد ثورة فى ليبيا، الليبيون لم يقوموا بأي ثورة، ما حدث فى ليبيا ثورة قامت بها فرنسا، نحن من صنع تاريخ ١٧/ ٢/ ٢٠١١ يوم الانطلاق، بل إن الاستخبارات الفرنسية هي التي حددت هذا اليوم لتسهيل التدخل فى ليبيا عسكرياً، نحن من أوقف رتل الجيش الليبي الذي كان متجهاً إلى بنغازي، طائرات فرنسا دافعت عن مصراتة ثمانية أشهر، كان بإمكان الجيش الليبي السيطرة على مصراتة منذ الشهر الأول، طائرات فرنسا دمرت ٩٠٪ من القوة العسكرية الليبية، طائراتنا أيضاً هي التي قصفت رتل القذافي بسرت وألقت القبض عليه عندما اختفى عن كتائب مصراتة، بعد تخديره سلّمناه لهم، دور الثوار كان لوجستياً، يتقدمون بعد أن نمهد لهم الطريق من خلال الطيران، وهذه كانت النهاية». وهكذا سيتضح أن الربيع العربي اختلط بالتدخلات الأجنبية والمؤامرات الخارجية ما أسهم في إخراج الربيع عن مساره وحرفه عن مبتغاه.

الفصل السابع

اليمن الديمقراطية وإيران

التوازن في زمن الحرب!

كان نظام الشاه يحتل المكانة الأولى أو الثانية من حيث قدرته المالية والعسكرية في المنطقة، وكانت له أطماعه المعلنة، ما كان يثير قلق ومخاوف الدول والشعوب العربية في الخليج. يضاف إلى أنه في إطار الاستراتيجية العامة للدول الغربية أُعطي الشاه دور (الشرطي) لحماية المصالح الغربية فيها، وكبح المدّ التحرري المتعاظم حينذاك. وقد دخلنا في مواجهة مع هذا الشرطي حيث نعيش في هذه المنطقة الحساسة من العالم، حين وقف شاه إيران إلى جانب سلطنة عُمان ضد الجبهة الشعبية لتحرير عُمان التي أُعلن قيامها عام ١٩٦٥ وبعد قيام الدولة في الجنوب تطور نشاطها السياسي والعسكري ضد السلطنة وأصبحت تشكل خطراً على سلطنة عمان والمنطقة، ولذا استعانت السلطنة بالقوات الإيرانية التي نقلت قتالها جواً وبراً على حدود اليمن الديمقراطية.

سقوط الفانتوم

في أكتوبر ١٩٧٥م أسقطنا طائرة عسكرية إيرانية فوق حدودنا، وأُسِر طيارها «بافيرز

علي أشرقيان أوزار» الذي أدلى بمعلومات تدين التدخل العسكري الإيراني على الحدود الشرقية لليمن الديمقراطية. وفي نوفمبر ١٩٧٦م أسقطت الدفاعات الجوية لليمن الديمقراطية طائرة عسكرية إيرانية من طراز (فانتوم) فوق محافظة المهرة على الحدود مع عُمان، وأُسر طيارها الإيراني الميجر «تاريوش جلالي» بينما قتل زميله الآخر في الحادث. وقد اعترف «جلالي» في حديث بثته «إذاعة عدن» بأن طائرته كانت ضمن سرب من عشر طائرات إيرانية من نوع (فانتوم)، وأنهم كانوا في مهمة تجسسية استطلاعية فوق أراضي اليمن الديمقراطية. وقد وجدت بحوزته خرائط لمواقع عسكرية في بلادنا. واعترف بأنه وغيره من الطيارين الإيرانيين قد زودتهم بهذه الخرائط السلطات العُمانية، وأنهم ينطلقون من قواعد عُمانية في صلالة وتمريت وحبروت، بعد وساطة سعودية سُلِّم الطيار الإيراني للحكومة الإيرانية، وحطت طائرتان عسكريتان سعوديتان في مطار عدن لأول مرة لنقل الطيار الأسير وجثمان رفيقه الذي قتل في أثناء إسقاط طائرتهما، وكانت علاقات السعودية وإيران في أحسن أحوالها أيام حكم الشاه، وكان الشاعر بو حمحمه قد ألقى قصيدة في زنجبار بعد إسقاط طائرة إيرانية على حدود المهرة عام ١٩٧٥م [١].

(١) بوحمحمه دي ماعرف قدري غبي — مايعرف اصناف الذهب والدر والياقوت

إنا الشعب يابن الشعب والشعب الأبي — للسم نا عندي الدوا والسم نا والموت

والكاتوش نا ونا السلاح المحربي — ونا صواريخ الخطر ومسابقات الصوت

واسمي قبل ما فرعون يخلق والصبي — ومن سبقهم قبل في صم الحجر منحوت

من له سولت نفسه عرب أو أجنبي — ولا تعدا من حدودي قدر واحد فوت

يلقا الموت بالمرصاد له متاهبي — من قاذفات الويل شرقي السهم والباروت

والختم صلى الله علا طه النبي — دي اطفا بنوره نار كسرا وخمد اللاهوت



الطيار الإيراني الأسير علي أشرقيان أوزارالطيار الإيراني الأسير علي أشرقيان أوزار

الثورة الإيرانية على الأبواب

في غضون ذلك، كانت التطورات والأحداث والتحليلات السياسية تؤكد أن الشاه يستعد للرحيل، وأن أيامه على عرش الإمبراطورية باتت معدودة. لم تكن هذه شائعات، بل كانت معلومات تتأكد يوماً بعد يوم بفعل التدهور السياسي والاقتصادي الذي لحق بإيران خلال الفترة الأخيرة من حكمه. وقد علّقت في حديث مع صحيفة «النهار» اللبنانية[١] على الأوضاع في إيران قائلاً: «إن أحداث إيران عبّرت عن وجود أزمة داخلية سياسية واقتصادية واجتماعية في إيران. وإنها عندما أرسلت قواتها إلى عُمان واحتلت بعض الجزر الإماراتية العربية، كانت تريد تصدير مشاكلها الداخلية وإلهاء الرأي العام الإيراني بقضايا أخرى، ولا

(١) أعادت نشره صحيفة (١٤ أكتوبر) في عددها الصادر يوم ١/ ١٠/ ١٩٧٨.

أعتقد أن هناك من يستطيع أن يقف ضد إرادة شعب يريد الخير والحرية. ونحن في المنطقة العربية نعرف علاقات النظام في إيران بإسرائيل، وإنّ من ينادي بالوقوف إلى جانب النظام في إيران لا يخدم مصالح شعوبنا العربية، بل يخدم إسرائيل والقوى الإمبريالية التي يرتبط النظام في إيران بمصالح مشتركة معها، وعلى أي حال هناك نهوض جماهيري واسع في إيران وسيحدث نتائج، وسننتظر إلى أين ستصل الأحداث».

ميلاد الجمهورية الإسلامية

كانت إيران تشهد حراكاً جماهيرياً واسعاً مناهضاً لحكم الشاه استمر ما يزيد على العام، وازدادت حدته منذ مطلع عام ١٩٧٩م حيث اشتدت موجة التظاهرات العنيفة ضد الشاه وسياسته. وقد قاد فساد النظام وسوء أحوال الشعب الإيراني بسبب المشاكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية الضخمة التي لم يجد علاجاً لها إلى المزيد من التسلح والقمع، الذي ووجه بمزيد من العمل التنظيمي والتحريضي الذي قاده آية الله الخميني من منفاه في بغداد وباريس، وهو ما أدى إلى إشعال نار الثورة في إيران. وأخيراً اضطر الشاه محمد رضا بهلوي إلى مغادرة البلاد للمرة الثانية والأخيرة في حياته، متوجهاً إلى أسوان محاطاً بسرية تامة حيث استقبله الرئيس المصري أنور السادات. كانت الأولى في عام ١٩٥٣م خلال ثورة مصدق عندما فرّ الشاه إلى العراق، لكنه استطاع استعادة عرش الإمبراطورية، أما هذه المرة فإنه سيموت في القاهرة بالسرطان بعد أن تخلى عنه حلفاؤه وتحديداً الولايات المتحدة الأميركية التي رفضت استقباله وعلاجه، لتؤكد بهذا الموقف أن لا صداقات دائمة، بل مصالح دائمة. في الوقت نفسه، كان الإمام الخميني يعود إلى بلاده بعد نفي دام خمسة عشر عاماً قضاها أولاً في العراق ثم بعد ذلك في باريس. ورغم إغلاق مطار طهران في وجه الخميني عدة مرات، لكنه تمكن أخيراً من الهبوط على الأرض في يوم الأول من شباط/ فبراير ١٩٧٩م، وكان في استقباله مئات آلاف المواطنين. في ١٢ فبراير ١٩٧٩م سقطت آخر حكومة عيّنها الشاه برئاسة شهبور بختيار، في محاولة منه لامتصاص النقمة الجماهيرية، وبدلاً منها ألّف آية الله الخميني حكومة ثورية جديدة برئاسة مهدي بازرجان.

في بداية نفي آية الله الخميني، كلّف الرئيس عبد الفتاح إسماعيل السفير محمد هادي عوض اللقاء به وتوجيه الدعوة إليه للإقامة في عدن بعد طلب بغداد منه مغادرتها. ولكنه لم يتمكن من مقابلته، فالتقى سكرتيره آنذاك الحسن بني صدر الذي شكر اليمن الديمقراطية على هذه الدعوة واعتذر عن عدم تلبيتها قائلاً: إننا سنعود قريباً إلى طهران.

الطريق إلى الحلم يبدأ بوضوح الرؤية... وبخطوات ثابتة نحو الهدف... وأما تحقيقها فيحتاج إلى قطع أميال من الكد والعرق... وهكذا تبلور حلم الإيرانيين بعد نضال شاقّ وعرفه العالم بأسره باسم «الجمهورية الإسلامية»، وصار ذلك اليوم «الثاني عشر من فبراير» عيداً قومياً لإيران تحيي ذكراه كل عام. في اليوم التالي مباشرة، أي في ١٣ فبراير ١٩٧٩م، بعثتُ ببرقية التهنئة الآتية إلى كل من الإمام آية الله الخميني ورئيس الوزراء مهدي بازرجان:

«على امتداد عام كامل تابع شعبنا بتفاؤل الانتفاضة الوطنية العارمة والتضحيات الشعبية البطولية لشعب إيران من أجل إزالة النظام الإمبراطوري العميل إلى الأبد وتصفية القواعد العسكرية الإمبريالية والعدوانية، والانعتاق التام من سيطرة الاحتكارات الأجنبية التي عاناها الشعب الإيراني وشعوب المنطقة... إذا كنا نقدّر عالياً قيادتكم الرشيدة للشعب الإيراني حتى وصوله إلى المرحلة الأولى للنجاح الباهر، فإن ذلك يعطينا الأمل الكبير لخلق علاقات ودية ومثمرة بين الشعب اليمني والشعب الإيراني».

في فبراير ١٩٨٠م انتخب أبو الحسن بني صدر رئيساً لجمهورية إيران الإسلامية وفي ٢٢ أبريل ١٩٨٠م صدر في كل من عدن وطهران بيان مشترك بإقامة العلاقات الدبلوماسية بين البلدين الصديقين.

رغم ما أثارته الثورة الإيرانية من مخاوف في الغرب، حيث فقدت واشنطن وحلفاؤها الحليف الذي كان يحمي مصالحهم في المنطقة... فإن التطورات كشفت عن وجود مخاوف عديدة في بعض الأوساط الاقليمية التي رأت في الثورة الإيرانية الإسلامية تهديداً خطراً لمصلحتها أكثر من ذلك الذي كان يشكله نظام الشاه في أوج قوته وازدهاره، وهو الذي سبق أن احتلّ الجزر الإماراتية العربية.

سرعان ما ارتفعت درجة التوتر في العلاقات العراقية الإيرانية بشكل ملحوظ، ففي

شهر أبريل ١٩٨٠م أقدم العراق على طرد (٥٠) ألف شيعي من العراق، بحجة أن أصولهم إيرانية، كما قيل حينها.

ردت إيران بإعلان حالة الطوارئ، فيما طلب وزير الخارجية الإيراني قطب زاده من الدبلوماسيين الإيرانيين مغادرة العراق. وفي منتصف الشهر نفسه أفادت أنباء من بغداد بأن السلطات العراقية أعدمت الزعيم الشيعي محمد باقر الصدر. وذكرت صحيفة «القبس» الكويتية «إن مجلس قيادة الثورة العراقي اتخذ قراراً بإعدام كل من ينتمي إلى حزب الدعوة الإسلامية».

حرب الخليج الأولى

أخذت العلاقات بين البلدين تتدهور بسرعة مخيفة. ففي سبتمبر ١٩٨٠م اندلعت الحرب بين بغداد وطهران. ولم يكن هذا بعيداً عن سياسة الاحتواء المزدوج، وضد التضامن العربي الإسلامي. الواقع أنه بعد سقوط إمبراطورية الشاه لم تعد الدوائر الإمبريالية المعادية تجد حلاً للقضاء على الثورة الإسلامية في إيران سوى إشعال نار الفتنة مع جيرانها، وإحياء الصراعات التاريخية القديمة بين الفرس والعرب، جاهدة في أن تجد في ذلك علاجاً سريعاً للحالتين معاً في ما عرف بسياسة الاحتواء المزدوج.

انطلاقاً من موقفنا الرافض للحرب، بعثتُ ببرقية مشتركة إلى كل من صدام حسين وآية الله الخميني أدعوهما فيها إلى وقف القتال، واللجوء إلى الحوار لحلّ الخلافات بين العراق وإيران، وقلت فيها إن القتال المسلح لا يخدم مصالح الشعبين العراقي والإيراني، بل يخدم الإمبريالية والصهيونية التي تتربص بكلا الشعبين. وناشدتهما ضبط النفس واللجوء إلى الحوار والمفاوضات وحلّ الخلافات بالطرائق السلمية... وكان هذا هو موقفنا منذ اليوم الأول لاندلاع الحرب العراقية – الإيرانية أو (حرب الخليج الأولى) كما سميت فيما بعد، ولم نتزحزح عن هذا الموقف قيد أنملة برغم ما تعرضنا له من مواقف تراوح بين الضغط والابتزاز، وتقديم المغريات كما سأكشف عنه في حينه.

في ردي على سؤال لصحيفة «الخليج» الظبيانية عن موقفنا من الحرب العراقية الإيرانية، أكدت هذا الموقف عندما قلت: «إن موقفنا لا يزال ثابتاً في أن هذه الحرب التي تدور اليوم فوق الأراضي الإيرانية والعراقية لا تخدم البلدين والشعبين في العراق وإيران، ولا تخدم أمتنا العربية. وفي رأينا أن العراق وإيران كان ينبغي أن يعملا على توظيف طاقاتهما وإمكاناتهما لصالح شعوبهما وشعوب المنطقة».

حرصت اليمن الديمقراطية على التزام هذا الموقف المتوازن حيال الحرب العراقية الإيرانية طوال السنوات الثماني التي استغرقتها تلك الحرب الطاحنة، وتعرضت بسبب سياستها هذه لغضب بعض الدول التي حاولت جرّنا إلى أتونها، معتقدة أن ظروفنا الاقتصادية الصعبة ستجبرنا على ذلك. أما نحن، بالإضافة إلى رفضنا حرب الأشقاء والجيران من الأساس، فقد كنا ندرك أنها ستجرّ علينا من المشاكل والهموم ما يستحيل معه أن نبني أوطاننا في مناخ الهدوء والاستقرار.

زيارة اللواء محمد الخولي لعدن لإمرار السلاح إلى إيران

اختلفت ردود الأفعال تجاه الحرب بين مؤيد للعراق ومؤيد لإيران، فقد وصل إلى عدن في نهاية عام ١٩٨٠م قائد القوات الجوية السورية اللواء محمد الخولي «في زيارة سرية» وطلب من حكومتنا أن تسمح بإمرار السلاح إلى إيران، عبر ميناء عدن. وقد أوضحت للمبعوث الموقف الذي تتخذه اليمن الديمقراطية من الحرب بين البلدين، والخطورة التي يمثلها ما يطلبه منا ونتائجه على علاقاتنا مع دول المنطقة التي اتخذت موقفاً مؤيداً للعراق، وكانت في شهر عسل مع بغداد. قلت له:

إن اليمن الديمقراطية بعد سنوات طويلة من القطيعة مع دول المنطقة قد بدأت تتبع سياسة تطبيع علاقاتها مع جيرانها، لما لذلك من أهمية للنظام ولتطوره السلمي وأمنه واستقراره ولأمن المنطقة عموماً، وإن إمرار السلاح إلى إيران عبر عدن سيدمر كل العلاقات والجسور التي حاولنا أن نبنيها، وسيضع بلادنا في وضع صعب ومحرج، ليس أمام دول

المنطقة، ولكن أيضاً أمام الدول الأخرى التي تؤيد بعض الأطراف في هذه الحرب، ومنها الدول العظمى.

حرب الخليج
والرئيس الشاذلي بن جديد

أثناء زيارتي للجزائر في فبراير ١٩٨١م تحدث معي الرئيس الشاذلي بن جديد في إمكانية التوسط لدى الاتحاد السوفياتي لشراء صفقة سلاح لإيران بمبلغ أربعة مليارات دولار تمر عبر عدن. وقال الرئيس إنه يعوِّل في هذا الأمر على العلاقات الممتازة بين اليمن الديمقراطية والاتحاد السوفياتي، وعلى مقدرتي شخصياً على إقناع القادة السوفيات بإبرام هذه الصفقة، ولما لاحظ الرئيس أنني غير متحمس للفكرة برغم المقدمات الجميلة التي قالها عني وعن علاقاتنا الممتازة بموسكو، فتح باب الإغراء هذه المرة قائلاً: إن الصفقة ضخمة جداً، وسيستفيد منها الجميع: السوفيات، والإيرانيون، واليمن الديمقراطية. السوفيات سيقبضون مبلغاً ضخماً بالعملة الصعبة، والإيرانيون سيسلمون السلاح الذي هم في أمسّ الحاجة إليه في حربهم مع العراق، وأنتم ستستفيدون من العمولة المجزية التي ستقبضها بلادكم، كذلك فإن هذا سيدفع إلى تطوير العلاقات مع إيران وتحسينها، وأنتم في أمسّ الحاجة إلى مثل هذه العلاقة للحصول على المساعدات وتمويل مشاريعكم الاقتصادية..

كنت خلال تلك الفترة أستعد للسفر إلى موسكو لحضور المؤتمر الـ (٢٦) للحزب الشيوعي السوفياتي، وبرغم أن الصفقة ضخمة والعرض مغر، واليمن الديمقراطية ذات الإمكانات المحدودة في حاجة إلى الفائدة التي ستجنيها من وراء صفقة كهذه، بالإضافة إلى المساعدات التي ستقدمها إليها إيران، لكنني لم أتحمس كثيراً أو قليلاً لهذا العرض، فقد كانت لدينا سياسة واضحة بهذا الخصوص، وهي رفض الحرب بين العراق وإيران وعدم الانحياز إلى أي منهما، وتجنب التعقيدات الكثيرة لهذه الحرب التي ستؤدي إلى دمار البلدين، ولهذا، من غير الدخول في تفاصيل صفقة السلاح التي يريدها الإيرانيون مع الاتحاد السوفياتي، دخلت في لبّ الموضوع، وكان مما قلته للرئيس: إن بلدكم أيضاً له

علاقات ممتازة مع السوفيات، وبإمكانكم طرح الموضوع مع القادة الروس مباشرة دون الحاجة إلى وساطتي. وفي ما يخصّ مرور السلاح إلى إيران عبر عدن، أوضحت له أن اليمن الديمقراطية لا ترغب في أن تكون طرفاً في الصراع القائم، بالإضافة إلى أننا نرفض هذه الحرب من حيث المبدأ، ولا نرغب في أن نستخدم في هذه الحرب، سواء بإمرار السلاح عبر عدن، أو التوسط لشراء صفقات سلاح، لا لإيران ولا لغيرها، وأكدت له أن المسألة ليست بالبساطة التي يصورها، وأننا في حالة موافقتنا على ذلك، فإن بلادنا لن تجني من الصفقة سوى المتاعب التي لن تنتهي مع دول المنطقة، في وقت نسعى، إلى تطبيع علاقاتنا معها لتجنب شرها، وهي دول كلها متعاطفة مع العراق وتموله بعشرات المليارات من الدولارات في هذه الحرب المجنونة. وأضفت قائلاً: على المدى القريب، قد تبدو هذه الصفقة مفيدة، لكن أضرارها ستكون كبيرة وفادحة، سواء في ما يخصّ علاقاتنا بجيراننا في الجزيرة والخليج، أو مع الدول الكبرى التي تؤيد العراق في حربها ضد إيران... وعلاقاتنا مع إيران تُعَدّ جيدة على الرغم من موقفنا المبدئي من الحرب العراقية الإيرانية، لكننا من حيث المبدأ ضد استمرار الحرب، وضد السماح بدخول أسلحة إلى إيران عبر عدن، لأن السماح بذلك سيشكّل تناقضاً صارخاً مع موقفنا المعلن ضد الحرب، ولأنه يعني تشجيع أحد الطرفين على الاستمرار فيها وإطالة أمدها، وهو ما لا نوافق عليه، وما لا ينسجم مع موقفنا من هذه الحرب.

وأضفت موضحاً: إننا لم نستطع بعد أن نتخلص من آثار تكريرنا النفط الإيراني، وهو موضوع تجاري بحت، ومع ذلك فإننا متهمون بتشغيل آلة الحرب الإيرانية، كما قال لي الرئيس صدام حسين في مؤتمر القمة الإسلامية بالطائف عام ١٩٨١، فكيف سيكون الأمر إذا سمحنا بمرور السلاح إلى إيران، أو توسطنا لشرائه؟ واختتمت حديثي قائلاً: إن مصلحة اليمن تقتضي ألّا نتدخل في هذه المشاريع الخاصة بتسليح إيران، وأظن أن الرئيس قد تفهم موقفي وقدّره. وكان من الممكن لهذه الأسلحة أن تمر مباشرة الى إيران عبر الاتحاد السوفيتي دون الحاجة الى المرور عبر ميناء عدن.

مؤتمر الطائف عام ١٩٨١ م
ودعوة إلى تصفية القواعد الأجنبية

لا شك في أن اتخاذ موقف من الحرب الطاحنة بين العراق وإيران كان يشكل أمراً مهماً لليمن الديمقراطية. وقد حرصت على أن أشرح هذا الموقف لأعضاء الوفود الإسلامية من الملوك والرؤساء الذين شاركوا في مؤتمر القمة الإسلامية الذي عقد في الطائف بالمملكة العربية السعودية في نهاية يناير عام ١٩٨١م، حيث أكدت في خطابي الذي ألقيته في المؤتمر أن «الأحداث المؤسفة التي تجري بين أشقائنا العراقيين والإيرانيين أضرّت بمصالح الشعبين الشقيقين المتجاورين، وأضعفت قدراتهما الاقتصادية والسياسية والعسكرية، وألحقت ضرراً بالنضال المشترك ضد الكيان الصهيوني. وإدراكاً من اليمن الديمقراطية لمخاطر هذه الحرب على البلدين وعلى المنطقة بأسرها، فقد نادينا منذ البداية بوقف القتال وحلّ النزاع بالحوار والطرائق السلمية انطلاقاً من علاقات حسن الجوار والاحترام المتبادل للسيادة والاستقلال». وعلى خلفية شاملة للأوضاع التي كانت تشهدها المنطقة، تقدمت بمبادرة على مستوى القمة، للبحث في قضية التصفية الشاملة للقواعد الأجنبية والأساطيل الحربية من المنطقة، ودعوة البلدان الأخرى المطلة على المحيط الهندي إلى الوقوف معنا لتصفية القواعد الأجنبية، وإنهاء وجود الأساطيل الحربية فيها لتصبح هذه المنطقة كلها منطقة أمن وسلام، وتوجهت بالدعوة مجدداً إلى أشقائنا العراقيين والإيرانيين للجوء إلى الحوار لمعالجة المشاكل بينهما، وقد رحبت السعودية ومعظم الدول بهذه المبادرة.

الحرب الأفغانية

وفي مؤتمر الطائف للدول الإسلامية طالبت الحكومة الأفغانية والمجاهدين الأفغان باللجوء إلى لغة الحوار بدلاً من لغة السلاح والحرب التي دمرت الشعب الأفغاني، وكانت امتداداً لتاريخ طويل من الحروب والصراعات التي مرّ بها الشعب الأفغاني منذ عصور ما قبل الميلاد وحتى وقتنا الحاضر بسبب الموقع والطبيعة القاسية التي صنعت من أبنائها مقاتلين أشداء لا يهابون الموت دفاعاً عن أرضهم ضد الغزاة منذ فجر التاريخ.

تحقق السلام في هذه البلاد[1] بعد هذه الحروب والصراعات في عام ١٩٧٣م، وقاد داوود خان انقلاباً عسكرياً عندما كان الملك في أوروبا وبقي في منفاه في إيطاليا حتى عام ٢٠٠٢م. في عام ١٩٧٨م قتل داوود خان وتسلّم اليساريون السلطة بقيادة نور الدين تراكي الذي أبرم معاهدة صداقة مع السوفيات وبدأ التدخل السوفياتي على إثرها عام ١٩٧٩م لمساندة نظام تراكي ضد المجاهدين المدعومين من أميركا وبعض الدول العربية والإسلامية، وقد خلفه بابراك كارمال الذي كان مقيماً في براغ، واستمر المجاهدون في نضالهم حتى تمكنوا من إخراج السوفيات عام ١٩٨٩م بعد أن خسروا أكثر من ٥٠ ألف جندي في مستنقع الحرب الأفغانية. في عام ١٩٩٢م استولى المجاهدون على كابول بدعم من أميركا وبعض الدول العربية والإسلامية، وأُعدم نجيب الله الذي كان رئيساً للبلاد حينذاك ولم تحمه الأمم المتحدة في مقرها في كابول، وبدأ بعدها الصراع بين المجاهدين وحركة طالبان التي تمكنت من الاستيلاء على الحكم حتى إسقاطها في نوفمبر٢٠٠١ من قبل القوات الأميركية بتهمة إيوائها زعيم القاعدة أسامة بن لادن الذي حارب السوفيات حتى هزمهم، ومن كابول انطلق من يُسمَّون «الأفغان العرب» لضرب برجي التجارة العالمي في نيويورك في سبتمبر ٢٠٠١ حسب الرواية الأميركية المعروفة، وكان الرد الأميركي عنيفاً وأدى إلى احتلال أفغانستان ليتجرع الأميركان الكأس نفسها التي تجرعها السوفيات في هذا البلد الذي ينتقل شعبه من حرب إلى حرب وبين كل حرب وحرب حرب أخرى.

---

(١) بدأت مأساة أفغانستان عندما استولى الفرس على معظم الأرض الأفغانية بين ٥٢٢-٤٨٦ ق.م، وحاول الإسكندر الأكبر فرض سيطرته على شمال أفغانستان بعد احتلاله معظم أجزاء الإمبراطورية الفارسية في الفترة ٣٢٩-٣٢٣ ق.م. وقد نشر العرب الإسلام فيها عام ٦٥٢م وغزاها جنكيز خان ودمر معظم قنوات الري فيها عام ١٢٢٩م، وغزاها أيضاً تيمورلنك في ١٣٧٠م، وفي ثورة أحمد شاه المنغولي في ١٧٥٠م، غُيِّر اسمها من خراسان إلى أفغانستان.في عام ١٨٣٦م غزاها البريطانيون وقام أكبر خان بثورة على الاحتلال البريطاني وخسر البريطانيون ٢٨ ألف جندي، وحصلت مجازر أخرى بين ١٨٧٨م و١٨٨٥م أدت إلى احتلال الجيش البريطاني، والحرب الثالثة بين البريطانيين والأفغان وقعت بين عامي ١٩٢١-١٩٢٣م. وقد حاولت بريطانيا قبل ذلك استعادة أفغانستان بمساعدة الملك حبيب الله ١٩١٩م، ولكن نادر خان استولى على السلطة، وقُتل الملك على يد طالب أفغاني، وورث العرش الملك ظاهر الذي حكم البلد أربعين عاماً.

النار تحرق الأخضر واليابس في هذا البلد المسلم، والشعب وقود هذه الحرب، والصراعات الإقليمية والدولية تتفاعل على الساحة الأفغانية طوال أكثر من عشرين عاماً. خلال هذين العقدين انهارت أنظمة ودول، وتغيرت زعامات وقيادات في المنطقة والعالم. انهار الاتحاد السوفياتي بكل جبروته وقوته وحلفائه في المعسكر الاشتراكي، وسقطت الأنظمة في كابول وأديس أبابا ومقديشو وعدن وغيرها من الأنظمة الحليفة لموسكو. وخاضت منطقتنا حروباً نيابة عن الدول العظمى ومصالحها الاستراتيجية، وامتدت من قوس الأزمات من أفغانستان مروراً بعدن وحتى شمال إفريقيا، وكنا وشعوبنا وقود هذه الحرب الساخنة الباردة.

في الصراع على أفغانستان استخدمت أميركا كل نفوذها وعلاقاتها وأسلحتها لتوريط الاتحاد السوفياتي هناك وإذلاله، وكذلك أسهمت منظمة المؤتمر الإسلامي في هذه المعركة، وأدانت النظام الشيوعي في موسكو والنظام العميل في كابول، وأتذكر مؤتمر الطائف للدول الإسلامية في بداية عام ١٩٨١م عندما ارتفعت الأصوات والخطابات والإدانات للأنظمة الشيوعية في أفغانستان وإثيوبيا والصومال، وكنتُ حاضراً وشاهداً على ما جرى في هذا المؤتمر من خطابات ساخنة لبعض المجاهدين الذين كانوا يعرضون قضيتهم على المؤتمر الإسلامي، ويهتفون الله أكبر والموت للشيوعية والشيوعيين في موسكو وكابول. كان الأغلبية يصفقون ويباركون ويؤيدون هذه الخطابات والإدانات والتشهير بأعداء الله الملحدين والكفرة. وفي نهاية أعمال المؤتمر صدرت بيانات وقرارات وإدانات عديدة، ولكننا تحفظنا عنها لأنها كانت تدعو إلى الحرب ولا تدعو إلى الحوار. كنا نصرّ على مناشدة أطراف الصراع ضرورة التمسك بالحوار السلمي لأن العنف لن يولد إلا المزيد من العنف، والدماء تستدعي المزيد من الدماء، وسيجيَّر ما اعتقدوا أنه دفاع عن دينهم وقيمهم لخدمة مصالح الدول الكبرى في لعبة الأمم باهظة التكاليف، حيث كانت الاستراتيجية الأميركية ترمي إلى تركيع الاتحاد السوفياتي رداً على هزيمتهم المذلة في فيتنام عام ١٩٧٦م.

لم يكن الصراع صراعاً أفغانياً داخلياً، ولكنه كان صراع كل دول المنطقة والإقليم، بل تجاوزه ليصبح إحدى الساحات الأساسية للصراع بين القطبين العظيمين. كانت المملكة

العربية السعودية طرفاً أساسياً في الحرب إلى جانب الولايات المتحدة الأميركية وباكستان. الأميركيون يمدون المجاهدين بأحدث الأسلحة، وبعض دول الخليج تفتح خزائنها لتمويلها، وباكستان تفتح حدودها ومطاراتها واستخباراتها وتجند إمكاناتها كاملة لتغذية الصراع، وشباب العرب يتحولون إلى وقود لهذه الحرب، كل ذلك تحت مسوّغ وقف الزحف الشيوعي المتقدم نحو مياه الخليج الدافئة ونفطها الاستراتيجي، ومحاولة لبناء سد لحماية مصالح الآخرين. وقد ارتدّ هذا السلاح فيما بعد على الولايات المتحدة الأميركية والسعودية ودول المنطقة حيث انقلب السحر على الساحر.

الزيارة الأولى لطهران

كانت العلاقة مع إيران قائمة على المصلحة والمنافع المتبادلة لمصلحة الشعبين والبلدين، ومع الأسف فإنهم أوقفوا كل الاتصالات معي بعد مغادرتي للسلطة في عدن عام ١٩٨٦م، وحتى عام ١٩٩٨م، وكان ذلك تأكيداً إضافياً لصحة المثل القائل أن لا صداقات دائمة ولا عداوات دائمة، بل هناك مصالح دائمة. وانطلاقاً من هذا المفهوم، فقد تجاوزت موقفهم السلبي مني بعد الأحداث وقمت بزيارة طهران في نوفمبر ١٩٩٨م، بعد الترتيبات التي قام بها السفير الإيراني في دمشق حسين شيخ الإسلام[١] الذي ربطتني به علاقة صداقة عندما كان نائباً لوزير الخارجية ومكلفاً ملف العلاقات اليمنية الإيرانية، حيث كانت عدن هي المعبر والمتنفس لهذا النظام بعد أن ضاقت عليه كل الساحات الإقليمية والدولية وارتفعت الأصوات في المنطقة تطالب بإسقاطه، وقد وقف الكل في الخليج مع صدام حسين وضُخت عشرات المليارات لدعم آلة حربه، وكانت صنعاء متهمة هي الأخرى بأنها وقفت إلى جانب العراق بالرجال، وصلى رئيسها خلف صدام حسين في قصر شيرين، كما كان يردد الإيرانيون ويشكون انحياز صنعاء ضدهم.

جاءت الدعوة لزيارة إيران في ظل الانفراج السياسي في طهران وفي العلاقة مع الجيران في الخليج، وقد تشاورت بخصوصها مع الشيخ زايد بن سلطان الذي رحب

(١) كان رئيس الطلبة الذين فرضوا حصاراً على السفارة الأميركية في طهران.

بالفكرة وقال إنه ليس لديه تحفظات، وإن عليّ أن أتحدث مع القيادة الإيرانية بقناعاتي التي يثق بها وأضاف: «إن إيران جارة إسلامية شقيقة وصديقة ونحن حريصين على العلاقة معها وعلى حل مشكلة الجزر بالطرائق الودية والسلمية استناداً إلى الوثائق والحقائق التاريخية لهذه الجزر»، وإذا لم تحلّ الآن، فسيحلها الزمن، كما قال الشيخ زايد.

أعطى الشيخ زايد توجيهاته بتخصيص طائرة لتقلني إلى اليمن وسورية في طريقي إلى إيران. في مطار طهران كان وكيل وزارة الخارجية السيد كمال خرازي في انتظارنا، وقد رحب بي وبدأ حديث مجاملة عن المذهب الزيدي والشيعي وقال: إنا ملتقون ومتفقون سياسياً وفكرياً وعقائدياً، وانطلاقاً من ذلك سنسعى للتعاون معكم ومع اليمن ورئيسها، ونحن نعرف أن الرئيس صالح وقف مع العراق وصلى خلف صدام حسين في قصر شيرين، ولكن ما يجمعنا أكثر من ذلك. لم أعلّق على حديثه حول الرئيس صالح والمذهبين الشيعي والزيدي، ولكني أكدت له أن العلاقة معهم بدأت بعد قيام الثورة وأن النظام في عدن رأى في قيامها انتصاراً للثورة اليمنية وللأمة العربية والإسلامية، ونحن جئنا بهذا الفهم ونسعى للتعرف إليكم وإلى تجربتكم عن قرب... وعدني بترتيب لقاءات مع هاشمي رفسنجاني رئيس مصلحة تشخيص النظام ورئيس إيران السابق[1]، وعلي أكبر ولايتي وزير الخارجية السابق ومستشار مرشد الثورة علي خامنئي وحسين موسوي رئيس الوزراء، ولم يُشر إلى آية الله خامنئي، ولا إلى الرئيس محمد خاتمي، وكان حاضراً معنا السفير اليمني عبد الله الرضي الذي يتكلم الفارسية، وساعدنا كثيراً على ترتيبات الزيارة وإنجاحها.

في طهران، في إحدى استراحات الشاه الخاصة التي تُعَدّ قطعة فنية بموقعها على سفح الجبل الذي كانت تغطيه الثلوج عند وصولنا، وأثاثها وفرشها ولوحاتها الجميلة، كان علينا أن نرتاح ونستعد ليوم جديد ورحلة جديدة في هذا البلد الذي كنا نزوره لأول مرة كما أشرت آنفاً.

بدت لي طهران منهكة بسبب الحروب التي خاضتها والصراعات والخلافات المتفاقمة بين مراكز القوى الإصلاحية والمحافظة، وبسبب الحصار غير المعلن على الثورة

---

(١) ترشح آية الله رفسنجاني لرئاسة الجمهورية عام ١٩٨٩، وانتخب رئيساً لإيران بنسبة ٩٥٪ من الأصوات، ثم فاز بولاية ثانية عام ١٩٩٣ فأبقته في منصبه حتى عام ١٩٩٧.

والشعب، واتهام القوى المعادية لهم بتصدير الثورة إلى المناطق الشيعية شرق السعودية والبحرين والعراق ولبنان وسورية وغيرها من البلدان، إضافة الى موقفهم من القضية الفلسطينية وإقامة الدولة الفلسطينية وعاصمتها القدس. أحسست بأن هذه الدعوات يرافقها منطق الدولة الإسلامية وسعيها لإقامة علاقات متوازنة مع دول المنطقة والعالم. أصبح للإصلاحيين تأثيرهم في التطورات التي تشهدها إيران بالنهج الجديد لرئيس الجمهورية السيد محمد خاتمي آنذاك، الذي يقف خلفه الجيل الجديد من الشباب والطلاب والنساء، وهو الجيل الذي ينشد التحرر من تأثير المحافظين في مختلف مناحي الحياة. عندما كنت هناك، كان طلاب جامعة طهران يطالبون الرئيس بمزيد من الإصلاحات وإرساء نظام دولة المؤسسات. بدأ هذا التيار يكتسح الجامعات والمعاهد والمساجد والمدارس. حدثني أحد الدبلوماسيين، وكان حاضراً في محاضرة للسيد خاتمي، أن أكثر من ثلاثة آلاف سؤال تم توجيهها إليه في اجتماع الجامعة، وكلها تطالب بمزيد من الإصلاحات.

كان أهم اللقاءات التي أجريتها في طهران مع السيد هاشمي رفسنجاني رئيس مصلحة تشخيص النظام والدستور الذي نصح بإدارة حوار هادئ مع دولة الإمارات لحلّ مشكلة الجزر بعيداً من الإعلام وردود الأفعال في هذه الأجهزة التي تدفع إلى التصعيد والتعقيد بين البلدين. هذا الموقف يختلف تماماً عن مواقف بعض المسؤولين الذين التقيتهم والذين كانوا يؤكدون أن الجزر إيرانية وأنْ لا جدوى من الحديث عنها، ويجب ألّا تسلَّم لأميركا، في اتهام موجه إلى دول الخليج التي يعدّونها تحت النفوذ الأميركي.

تحدثت في معهد وزارة الخارجية الإيرانية بحضور السلك الدبلوماسي الإيراني في الوزارة والسفراء العرب في طهران، وأوضحت أن الخلافات بين إيران ودول المنطقة بعد قيام الثورة الإيرانية من وجهة نظري تتحدد في القضايا الآتية:

الأولى– مشكلة الجزر الإماراتية التي احتلها شاه إيران عام ١٩٧١م.

الثانية– تصدير الثورة الإسلامية. ونحن مع خيار الشعب الايراني في الثورة ولسنا مع تصديرها إلى المنطقة.

الثالثة– رفض قرار الأمم المتحدة ٢٤٢ وغيره من القرارات الخاصة بالصراع العربي الفلسطيني والتي قبلها الفلسطينيون ومعظم الدول العربية أساساً لحل النزاع.

بعدما أنهيت محاضرتي بتحديد مسائل الخلاف واقتراحاتي لطرائق التعامل معها، وذلك في جمع من الخبراء الإيرانيين وكبار موظفي وزارة الخارجية والسفراء العرب وغيرهم من المختصين، أبدى كل من وكيل وزارة الخارجية الإيرانية ومدير معهد الدراسات الاستراتيجية الدولية في وزارة الخارجية ملاحظاتهما على الأفكار التي أشرت إليها. وبعد أن شكراني، قالا إنهما لا يتفقان كثيراً مع كل ما سمعاه مني في هذه المحاضرة... وعلّق أحد السفراء العرب فيما بعد قائلاً إن هذه هي المرة الأولى التي يسمع فيها الإيرانيون كلاماً واضحاً من شخصية عربية على عكس ما تطرحه بعض الوفود التي تتحدث معهم على استحياء، وتؤكد أنهم متفقون على كل شيء وأن وجهات النظر متطابقة مع هذا البلد الكبير والجار الذي يقف على الضفة الأخرى من الخليج.

خلال زيارتي لإيران زرت عدداً من المعالم التاريخية لمدينة طهران والمتاحف وتعرفت على الكنوز والمجوهرات الثمينة التي خلفها شاه إيران محمد رضا بهلوي، فزرت متحف ايران الوطني للمجوهرات والذي يقع في بناية البنك المركزي الايراني بطهران والذي يعود بناءه الى منتصف القرن العشرين، ويحتوي على ربع مجوهرات العالم ويصعب تقدير قيمة هذه المجوهرات التي لا مثيل لها واهم ما فيه (نموذج الكرة الارضية) المطلية بـــ ٣٤ كغ من الذهب ومزينة بـ ٢٧٠٠٠ جوهرة، وكذلك (تاج نور العيون) الذي استخدم لمرة واحدة في حفل تتويج الامبراطورة فرح ديبا واعيد للمتحف بعدها.



فرح ديبا أثناء تقلدها لتاج نور العيون

وزرتُ ضريح الإمام الخميني ومدينة قم المقدسة التي تشكل العمق الديني لإيران، بما تحتضنه من حوزات ومعاهد ومدارس وجامعات دينية، وزرت مدينة أصفهان التي تبدو كعروس فارسية تجذب الزائرين، وأصفهان «نصف جهان» كما يسميها الإيرانيون، وتعني نصف العالم، وهي من المدن الإيرانية العريقة بتاريخها ومعالمها العديدة التي حملت آثاراً من كل العصور التي مرت عليها، بحيث تبدو بمنزلة متحف أو لوحة فسيفساء حية تغطي كامل المدينة. أثناء تجوالنا فيها زرنا جسر «سي وسه بل» وترجمته «ثلاث وثلاثون قنطرة»، حيث أخبرنا مرافقنا أنه أحد أبرز المعالم السياحية الأثرية في مدينة أصفهان، واعتاد المسؤولون اصطحاب ضيوفهم لزيارة هذا المعلم التاريخي، إضافة إلى زيارة حديقة الزهور وحديقة الطيور، وشرحوا لنا أن كثيراً من الجسور والقصور أسهم في تصميمها المهندس اللبناني بهاء الدين عامر.



الرئيس علي ناصر محمد أمام ضريح الإمام الخمينيوقرأت لاحقا مذكرات فرح ديبا عن ايران وتاريخ البلد ومشوارها مع شاه ايران حتى سقوطه عام ١٩٧٩م وتحدثت بصراحة عن اسباب سقوط نظام الشاه والفساد ودور رجال الدين والشيوعيين وجنرالات الجيش وعن الحفل الذي اقيم بمناسبة ذكرى ٢٥٠٠ عام لإنشاء مملكة فارس القديمة. الحفل الذي أقامه الشاه في مدينة برسبوليس الايرانية عام ١٩٧١م وحضره ملوك وملكات، وأباطرة، وأمراء وأميرات، ورؤساء وحكام، ولكن الملكة اليزابيث اعتذرت عن الحضور واعتبرته خطأً فادحاً. تم إنشاء مدينة من الخيام في الصحراء كانت عبارة عن بيوت مصممة بإتقان عالٍ من مادة تشبه المادة المستخدمة في الخيام. وقدرت تكاليف هذا الحفل البازخ بـ ٥, ١ مليار جنيه استرليني.

بعدها بثماني سنوات، هرب من كان يُسمى بـ"ملك الملوك" للنجاة بحياته، وترك بلاده تحت حكم حكومة الامام الخميني.

وكان آية الله الخميني عدو الشاه يشاهد الحفل الكارثي من منفاه في الخارج قال في

غضب: «فليعلم العالم أن هذه الاحتفالات لا علاقة لها بالشعب الإيراني المسلم النبيل. كل من شاركوا في هذا الحفل هم خونة للإسلام وللشعب الإيراني».

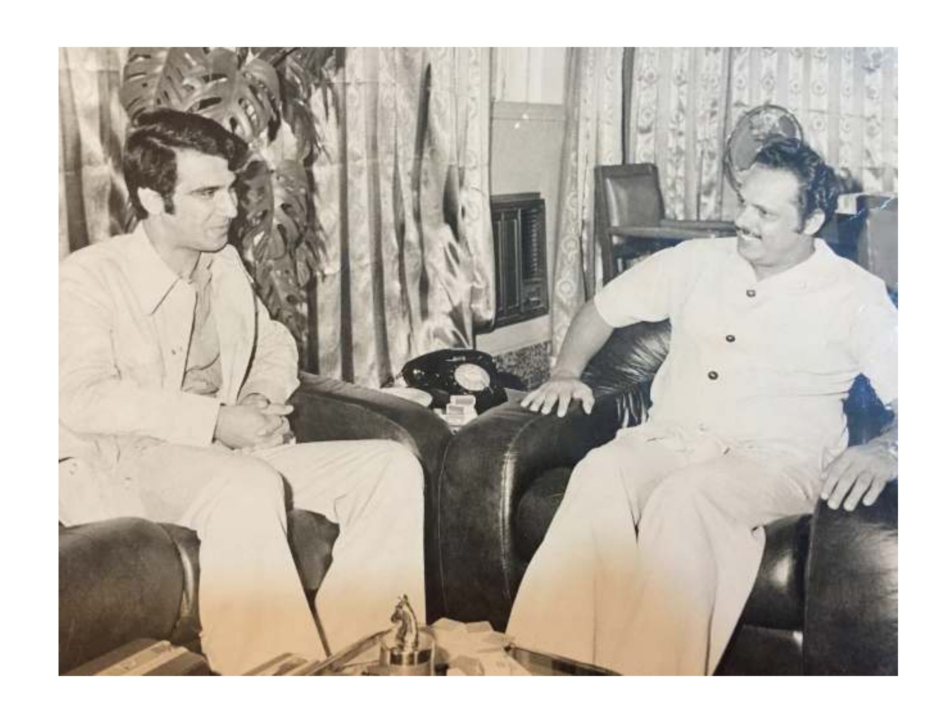
في أحياء المدينة التي تشتهر بصناعة السجاد المشهور عالمياً بـ«السجاد العجمي» حدثنا أحدهم بأن الرئيس رفيق الحريري اشترى سجاداً بثمن باهظ وأهداه إلى الرئيس الفرنسي جاك شيراك ونُقل بطائرة خاصة، حيث إنّ السجاد الإيراني من أجود أنواع السجاد في العالم، إن لم يكن أشهرها على الإطلاق، وهو يُحاك يدوياً، وأصبحت قصة حياكته تعبيراً عن طول الأناة والصبر اللذين يُعرف بهما الإيرانيون. وتتنافس المدن الإيرانية في مثل هذه الصناعة التقليدية والتاريخية، حيث يعيش ملايين منهم على هذه الصناعة. وإحدى الروايات الإيرانية تقول: إن بعض الأسر عندما يرزقها الله طفلة تبدأ بنسج سجادتها الخاصة التي يكتمل نسيجها مع يوم زفافها وتقدم هدية إليها، وهو ما يدلّ على الصبر.

وفي طهران، زارني السيد محمد صادق الحسيني الذي سبق أن زارنا في عدن مع بداية الحرب العراقية الإيرانية وهو من أول من نقل إلينا رغبة القيادة الإيرانية في تكرير النفط بمصافي عدن عام ١٩٨٢، وهنا أورد شهادته:

يقول الأستاذ محمد صادق الحسيني في هذا الصدد: في عام ١٩٨٢م، وأثناء الحرب العراقية - الإيرانية اتصل بي من طهران السيد أحمد الخميني نجل الإمام الخميني قدس الله سره، وكنت حينذاك في بيروت، وقال إن مصافي النفط في عبدان قد تعرضت للقصف من قبل الطيران العراقي، ولا يمكنهم في الوقت الحالي إصلاحها، وطلب مني أن أتوجه إلى عدن بصحبة أصدقائنا الفلسطينيين الذين تربطهم علاقات طيبة مع جمهورية اليمن الديمقراطية، حيث إن مصافي عبدان ومصافي عدن متشابهة وتستطيع أن تكرر النفط نفسه، إذ إن شركة BP البريطانية هي التي شيدت هاتين المصفاتين، وهما تتطابقان في المواصفات، وكان حينذاك الرئيس علي ناصر محمد هو رئيس الدولة.

وصلنا إلى عدن برفقة المناضل الكبير صلاح خلف (أبو إياد) واستقبلتنا القيادة اليمنية الجنوبية وتناقشنا في موضوع تكرير النفط الإيراني في مصافي عدن وقبلت اليمن الجنوبية طلبنا، وكلّف الرئيس بعض الوزراء لقاءنا وإقامة حفلة عشاء على شرفنا، وبحضور أبي إياد

أبلغنا الوزراء أن الرئيس موافق على تكرير النفط لأن تكريره يخدم مصالح البلدين والشعبين في عدن وطهران.



مع الأستاذ محمد صادق الحسيني ممثل الإمام الخميني أثناء زيارته لعدن ١٩٨٢م

بلغت كمية النفط المكرر ٣,٦٠٠,٠٠٠ طن سنوياً، بينما امتنع العراق ودول الخليج عن تلبية حاجتنا وتكرير النفط في مصفاة عدن، وكادت تتوقف ويتوقف معها آلاف عن العمل والحياة في مدينة البريقة من مدارس ومستشفيات ومحالّ تجارية ومناطق سياحية، ويتوقف معها مصدر دخل مهم للعملة الصعبة من الميناء والمطار آنذاك، وكذلك مستشفى المصافي، حيث أورد الدكتور عادل عولقي الذي كان مديراً لمستشفى المصافي ١٩٧٨ - ١٩٨٢ عن هذا الموضوع في شهادته ما يأتي: «أتذكر دور إيران في إبقاء عمل المصفاة من خلال تكرير النفط خلال عملي هناك، فلولا وجود النفط الخام من إيران لانتهت المصفاة وانتهى الدخل منها الذي كان أكبر مصدر للعملة الصعبة لميزانية الجمهورية آنذاك، حيث

صرفت المصفاة ميزانية ما لا يقل عن مليوني دولار سنوياً للقسم الطبي لعمال المصفاة الذي بدونه كان سيضطر العمال إلى زيارة مستشفيات أخرى، وستخسر المص
فاة آلافاً من ساعات العمل الضرورية.

المؤتمر الدولي الأول للصحوة الإسلامية ٢٠١١



مؤتمر الصحوة الإسلامية
عن يساري عبد الحافظ نعمان وعن يميني الدكتور
المضواحي، حسين الفضلي ومحمد عمر بحاح



من برج طهران ٢٠١١م

خلال الفترة من ١٧ إلى ٢١ سبتمبر ٢٠١١م قمت بزيارة للجمهورية الإسلامية الإيرانية، للمشاركة في المؤتمر الدولي الأول للصحوة الإسلامية الذي انعقد في طهران يومي ١٨ و١٩ أيلول/ سبتمبر ٢٠١١م.

شارك في المؤتمر حشد كبير من المفكرين وقادة المقاومة والشخصيات والناشطين في المجالات الثقافية والسياسية والإعلامية والأحزاب والتنظيمات الإسلامية من أرجاء العالم كافة.

أبرز الشخصيات المشاركة في المؤتمر: برهان الدين رباني، رئيس جمهورية أفغانستان الذي ألقى كلمة في المؤتمر، ولقي حتفه بعد عودته إلى بلاده في ٢٠-٩-٢٠١١م. الصادق المهدي، رئيس الوزراء السوداني السابق. إبراهيم الجعفري، رئيس الوزراء العراقي السابق.

أحمد الجلبي، مصطفى عثمان إسماعيل وزير خارجية السودان الأسبق، أحمد جبريل الأمين العام للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين القيادة العامة، وفد من حزب الله برئاسة نعيم قاسم، وفد من حماس برئاسة موسى أبو مرزوق، وفد من الجهاد الإسلامي برئاسة رمضان شلح، من مصر جمال البنا وفهمي هويدي. إضافة إلى عدد كبير من اليمن، من أبرزهم: إبراهيم الوزير، أحمد سيف حاشد، د. عبد القدوس المضواحي، د. عبد الحافظ نعمان، سلطان السامعي، حسين زيد بن يحيى، عدد من أعضاء مجلس الشورى، وفد من الحوثيين...



شخصيات من الوفد اليمني واللبناني

لقاء رئيس مجلس الشورى الإيراني السيد علي لاريجاني

أثناء هذه الزيارة التقيتُ في صباح ١٩/ ٩/ ٢٠١١م رئيس مجلس الشورى الإيراني علي لاريجاني وتناولنا فيه الأوضاع والتطورات في اليمن والمنطقة وثورات الربيع العربي في تونس وليبيا ومصر واليمن وسورية.

خلال الحديث مع السيد لاريجاني، شدّد على الوحدة اليمنية، وعلى أنه مع موقفنا

بقيام دولة اتحادية من إقليمين، وأنه ليس مع الانفصال الذي يتبناه البيض وأنصاره وقناته الفضائية التي تدعو إلى الانفصال، وقال إن الانفصال يؤدي إلى تصغير مكانة اليمن، وإنه سيتحدث مع المسؤولين في إيران بشأن هذا الموقف، ولم أعلّق على حديثه بشأن موقفه من بعض الشخصيات الجنوبية التي تقدم إليها بعض الجهات الإيرانية دعماً مالياً وسياسياً وإعلامياً.

كما أشار علي لاريجاني إلى الآتي:

إن القضية اليمنية معقدة وحساسة، لكنه أعرب عمّا لديهم في الجمهورية الإسلامية من أمل كبير في انتصار

الثورة في اليمن، اعتماداً منهم على الحضارة والثقافة العريقة الغنية والتاريخ النضالي الذي يتمتع به الشعب

اليمني العريق، والذي تعرض لظلم كبير، وعمل النظام عل تحويله إلى شعب متخلف.

وفي السياق أشار إلى أن الثورة الإسلامية الإيرانية قدمت أيضاً شهداء وتضحيات كثيرة واستمرت فترة

طويلة قبل أن تحقق الانتصار، وأن طول فترة الثورة والتضحيات العظيمة لا يدعو إلى اليأس.

وأعرب عن رفض بلاده للمبادرة الخليجية لحلّ الأزمة في اليمن ووصفها بالترقيعية، وأن نظام علي عبد الله

صالح هو الذي أفاد منها، وأنها ترمي إلى إلهاء الشعب بشكل أو بأخر، وقال إن السعوديين والدول الخليجية ليس لديهم استيعاب للثورة اليمنية، وإن الأمريكان ودول المنطقة يبحثون عن إلهاء الناس، ولا عن تقديم حلول لمشاكل الشعوب.



في منزل الإمام الخميني منطقة
جمران – طهران ٢٠١١



منزل ومكتب وقاعة استقبال الإمام الخميني التي
استقبل فيها عددا من زعماء العالم، ومن بينهم
ياسر
عرفات ووزير الخارجية الروسي إداورد شفرنادزة،
وهي عبارة عن شقة صغيرة مستأجرة، ولا تحوي
الغرفة
التي نشاهدها في هذه الصورة أي منتفعات، ولا
تحتوي إلا على هذه الكنبة والسجادة

الفصل الثامن

جبهة الصمود

البداية والنهاية



من اجتماع اللجنة السياسية للجبهة القومية للصمود والتصدي نوفمبر ١٩٨١م

في ١٩ نوفمبر ١٩٧٧م فاجأ الرئيس المصري أنور السادات العالم بزيارته التاريخية المثيرة والمشهورة لإسرائيل. كانت زيارة السادات للقدس قمة المأساة في تراجيديا الصراع العربي الإسرائيلي. كانت الزيارة تعبيراً عن حالة اليأس من الموقفين العربي والسوفياتي... وتجييراً لنتائج الحرب لمصلحة من قال عنه الرئيس السادات إنه يمتلك ٩٩٪ من أوراق اللعبة، وهي الولايات المتحدة التي بلا شك كانت تعمل لضمان المصلحة الإسرائيلية، ولا الحق العربي. وهكذا وضع السادات البيض كله في سلة واحدة، واستخدم كل الأوراق الإضافية في معركته المنفردة، ابتداءً بطرد الخبراء السوفيات وتنويع مصادر السلاح وفضّ التحالف معهم وإلغاء معاهدة الصداقة، مروراً بالتخلي عن الأنظمة التحررية ومنظمة التحرير الفلسطينية، ما خلق حالة من الإرباك والتخوف في الأوساط العربية وخللاً في ميزان القوى وارتياحاً وابتهاجاً لدى أميركا وحلفائها.

كان السادات شخصية غامضة ومتحدية، نجح إلى حدٍّ كبير في خلط الأوراق دون أي اعتبار لوحدة الصف العربي أو الهدف والمصير، سار وحيداً في مبادرته ومفاجأته. فاجأ العالم، وقبلهم فاجأ العرب وأقرب الأصدقاء والأشقاء إليه، ورغم أن الجميع كان يعرفه صاحب قرارات مفاجئة ودراماتيكية. إلا أن أحداً لم يكن يتوقع خطوة كزيارة القدس. فقد كانت رحلة طائرته بين القاهرة وتل أبيب صعبة التصديق إلى اللحظة التي هبط فيها، مطار القدس. واستحوذ ذلك على اهتمام العالم كله، وحبس أنفاس الناس وأثار ذهولهم ودهشتهم أكثر مما أثارتها رحلة رواد الفضاء بين الأرض والقمر وهبوطهم التاريخي على سطحه في أول مغامرة.

إذا كانت هذه الزيارة قد جعلت السادات يحصد الأضواء إلى درجة مذهلة، إلا أن هذه الأضواء لم تبهر جماهير الأمة العربية... ولم تصبهم بفقدان الذاكرة، فلا يمكن أن يؤدي محض كسر «الحاجز النفسي» إلى إنهاء صراع تاريخي وسياسي وحضاري بين العرب وإسرائيل استمرّ عدة عقود بقفزة في الهواء. ولا يمكن حذف هذا الصراع من ذاكرة الشعوب العربية بسهولة، لمجرد أن رئيساً عربياً أقدم على ما لم يقدم عليه أي زعيم دولة عربية أخرى، فزار القدس وصافح بيغن! لكن الزيارة قطعاً حققت أهدافاً مختلفة، هي إحداث تدهور

سياسي لحق بالتضامن العربي الذي سعى إلى توحيد كفاح العرب ضد العدو الصهيوني، ووجهت ضربة موجعة إلى الجبهة المعادية لإسرائيل، وتركت سورية حليفة مصر التاريخية في المصير القومي وفي الدفاع عن المصالح القومية العربية وحيدة في ساحة المواجهة مع إسرائيل، وأخرجت مصر من خندق النضال العربي بما لها من ثقل استراتيجي وسياسي وقومي. وأدت الزيارة إلى اختلال واضح في ميزان القوى لمصلحة إسرائيل ولمصلحة أعداء الأمة العربية، وما زالت آثارها وتداعياتها ماثلة أمامنا حتى اليوم. وإذا كانت زيارة السادات للقدس، وما تبعها من توقيع اتفاقيات «كامب ديفيد» قد أعادت إلى مصر أراضيها المحتلة، وهذا إنجاز لا يمكن التقليل من أهميته، فإنها لم تحلّ المشاكل الأساسية في الشرق الأوسط، وعلى رأسها قضية فلسطين التي هي لب الصراع وموضوعه وعقدته.

خلقت الزيارة الساداتية وضعاً جديداً ومعقداً في الوطن العربي، وكانت سبباً جوهرياً في بروز ما سُمِّي حينها «جبهة الصمود والتصدي» التي ضمت سورية والجزائر وليبيا واليمن الديمقراطية بالإضافة إلى «منظمة التحرير الفلسطينية».

المؤتمر الأول عقد في مدينة طرابلس الغرب في ديسمبر ١٩٧٧م، وكانت مهمته رسم استراتيجية عربية جديدة تتفق والأحداث التي نجمت عن زيارة السادات للقدس، وخروج مصر من الساحة السياسية العربية، وساحة الصراع مع العدو الإسرائيلي وتحديد نقاط الالتقاء التي تجمع الدول العربية التقدمية في مواجهة الأوضاع الخطيرة التي برزت نتيجة اختلال التوازن السياسي والعسكري في منطقة الشرق الأوسط.

تلقت اليمن الديمقراطية دعوة للمشاركة في قمة طرابلس باعتبارها دولة تدين سياسة الاستسلام للعدو، لكن المفاجأة كانت في رفض الرئيس سالم ربيع علي المشاركة في المؤتمر المذكور. ومع أنه لم يُبدِ أسباباً واضحة لرفضه المشاركة في الاجتماع الذي عقده مجلس الرئاسة لمناقشة الموضوع، إلا أنه كان مفهوماً لدينا أن الرئيس ربيع وضع اعتبارات الحفاظ على الصداقة الجديدة مع الرئيس السادات في مرتبة أعلى من القضية الخطيرة التي نحن بصددها، ومنها أنه كان يضع اعتباراً لعلاقته الجديدة أيضاً مع السعودية التي سهلت زيارته لها في أغسطس ١٩٧٧م عقب إقامة العلاقات الدبلوماسية بين الرياض وعدن، أي

قبل نحو أقل من ثلاثة أشهر من زيارة السادات لإسرائيل، كذلك فإنه كان يضع اعتبارات لعلاقته بالسعودية ويخشى أن يستفزّها ويستفزّ الأميركان الذين بدأ الاتصال بهم خلال الفترة الأخيرة، إذا هو اتخذ موقفاً معادياً لزيارة السادات لإسرائيل، ومن هذا المنطلق فإن الرئيس ربيع رفض المشاركة في مؤتمر طرابلس، ورفض إدانة زيارة السادات للقدس، كما رفض أيضاً أي هجوم على سياسة السادات، وكان يقول: لماذا نعادي السادات وهو يسعى لحل مشكلة بلاده واستعادة أراضيه المحتلة؟! واعتبرنا ذلك سوء تقدير من الرئيس ربيع للأمور، وخطأً قاتلاً لمستقبله السياسي، ما أدى إلى إضعافه داخلياً وخارجياً. وهكذا تنازل عن الدور الذي كان يمكن أن يقوم به، وحقق لخصومه فرصة للتشهير به واتهامه بالتفريط في قضايا الأمة العربية، وفي المقدمة قضية فلسطين، وهو حتماً لم يكن كذلك.

عبد الفتاح في القمة!

من يعرفون الرئيس ربيع عن قرب، وأنا واحد منهم، لم يستطيعوا استيعاب موقفه، خصوصاً أنه أضاع فرصة هذه المشاركة التي استفاد منها عبد الفتاح اسماعيل وتقدم بها الى الصدارة. ومهما كانت دوافعه الشخصية، فإن موقفه الرافض للمشاركة في قمة طرابلس كان خطأً حُسب عليه، وأثّر في وضعه المحلّي كرئيس للبلاد، وفي وضعه العربي والدولي. والغريب أنه فعل ذلك في وقت كان الصراع فيه على السلطة في عدن في ذروته، أي بعد الدورة السابعة للجنة المركزية التي قلّصت الكثير من صلاحيات الرئيس وأمرت بحلّ الكثير من المؤسسات التابعة للرئاسة من أجل إضعافه سياسياً.

المؤتمر الأول لجبهة الصمود

انعقد المؤتمر في طرابلس الغرب بحضور الرؤساء حافظ الأسد، وهواري بومدين، ومعمر القذافي، وعبد الفتاح إسماعيل وطه ياسين رمضان نيابة عن الرئيس أحمد حسن البكر، وياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية. وبعد مناقشات مستفيضة للقضايا العربية الملحّة، أصدر المؤتمر بياناً ختامياً قرر فيه إدانة زيارة الرئيس السادات للكيان الصهيوني،

لأنها تمثّل خيانة عظمى لتضحيات الشعب في مصر وقواته المسلحة ولنضالهما، ونضال الأمة العربية وتضحياتها ومبادئها. والمؤتمر وهو يقدر دور شعب مصر العظيم في النضال القومي للأمة العربية، أكد أن مصر ليست هي البداية ولا النهاية، فإذا كانت الأمة العربية كبيرة بمصر، فإن مصر لا تكبر إلا بالأمة العربية، وهي تصغر من دونها. وقرر العمل على إسقاط نتائج زيارة الرئيس السادات وتجميد العلاقات السياسية والدبلوماسية مع الحكومة المصرية ووقف التعامل معها عربياً ودولياً وتطبيق قوانين المقاطعة العربية وأحكامها وقراراتها على الأفراد والشركات والمؤسسات المصرية التي تتعامل مع العدو الصهيوني. أقر المؤتمر أيضاً عدم المشاركة في اجتماعات جامعة الدول العربية ومنظماتها التي تعقد في مصر، وإجراء اتصالات مع دول الجامعة العربية لدراسة موضوع مقرها والمنظمات التابعة لها، وموضوع عضوية النظام المصري فيها.

لكن أحداً آخر من الدول العربية كما هو معروف لم ينضم إلى هذه الجبهة، وظلت مقتصرة على الأطراف المذكورة. وفضّل العراق الذي شارك في مؤتمر طرابلس عدم الانضمام إليها لحسابات خاصة بالنظام العراقي، وكانت قمة طرابلس الوحيدة التي يحضرها.

عُقد على هامش أعمال قمة طرابلس «مؤتمر الشعب العربي»، شارك فيه ممثلون عن المنظمات الجماهيرية والاجتماعية التقدمية في الوطن العربي. وفي ختام أعماله اتخذ عدة قرارات، من أهمها: قرار طرد نظام السادات من الجامعة العربية، وقرار تحويل اللجنة التحضيرية إلى أمانة عامة دائمة يكون مقرها في طرابلس، وتضم ممثلين عن دول الصمود والتصدي وعن الحركة الوطنية اللبنانية والحركة الوطنية المصرية.

لكن رغم هذه القرارات الصادرة عن جبهة الصمود وقرارات مؤتمر القمة العربية في بغداد بمقاطعة مصر السادات ومحاصرتها، إلا أن بعض الدول العربية لم تقاطع مصر وظلّت على علاقات علنية معها وبعضها علاقات سرية، بما في ذلك العراق التي مدت جسور العلاقة مع الرئيس السادات ليمدّهم بالسلاح والذخائر السوفياتية. وكان قرار السادات لا

رجعة فيه نظراً إلى حالة الإحباط التي كان يعانيها بسبب الموقف السلبي للاتحاد السوفياتي ودول النفط العربية.

المؤتمر الثاني لجبهة الصمود

لم يعد عبد الفتاح إسماعيل ينتظر الآن موافقة الرئيس سالم ربيع، لحضور قمم الصمود العربية بعد أن بات متيقناً بتمسكه بموقفه الرافض. وبحضور عبد الفتاح إسماعيل القمة الثانية في الجزائر في فبراير ١٩٧٨م وغياب ربيع عنها، بات هذا الأخير في الظل، وانتقل عبد الفتاح إسماعيل إلى موقع الأضواء العربية والعالمية، منتهزاً فرصة حقيقية لتلميع شهرته السياسية والفوز بالمكانة الرئيسة، وتولّي قيادة الدور السياسي لسياسة اليمن الديمقراطية الخارجية التي كانت على الدوام من حق الرئيس سالم ربيع علي.

ابتدأت قمة الصمود والتصدي الثانية في العاصمة الجزائرية في الثاني من فبراير ١٩٧٨م، وشاركت فيها الدول العربية نفسها التي شاركت في قمة طرابلس ما عدا العراق. وبُحث الوضع العربي ومحاولات بعض الأنظمة لتغطية سياسة الرئيس السادات التي ترمي إلى عزل مصر وإبعادها عن موقعها الطبيعي والتاريخي في ساحة الصراع مع العدو الإسرائيلي والإمبريالي. وأدان المؤتمر سياسة الرئيس السادات، وعدّها هادفة إلى تقويض إمكانيات تحقيق الانسحاب الشامل من الأراضي العربية المحتلة، وضمان الحقوق الوطنية الثابتة للشعب الفلسطيني. وأعلن رفضه لكل اتفاق يتم على حساب المصالح العليا للأمة العربية، وإدانته لكل اتفاق يمسّ حقوق الشعب الفلسطيني وقضيته العادلة. وأكد أن الرئيس المصري لا يملك الصلاحية ولا الشرعية لكي يمثل أو يفاوض عن قضية شعب فلسطين الذي تمثله منظمة التحرير الفلسطينية.

كامب ديفيد

لم يقتصر الأمر على زيارة السادات لإسرائيل، بل تعداها إلى توقيع اتفاقيات «كامب ديفيد» مع مناحيم بيغن رئيس الوزراء الإسرائيلي تحت رعاية الرئيس الأميركي جيمي كارتر

يوم ١٨ سبتمبر ١٩٧٨م، حيث وقّع الاثنان اتفاقيتين. الأولى: «إطار للسلام في الشرق الأوسط»، والثانية: «إبرام معاهدة سلام بين مصر وإسرائيل». وحددت الأولى المبادئ التي قد تطبق في المفاوضات الخاصة بمعاهدة السلام بين إسرائيل وجميع جيرانها. والثانية نصت على انسحاب إسرائيل من سيناء على مرحلتين.

وقد أحدثت اتفاقيات «كامب ديفيد» ردود أفعال عنيفة في الشارع العربي، وكان اتخاذ موقف تجاه ذلك يشكل أمراً مهماً بالنسبة إلى نضال الأمة العربية، وكان المؤتمر الثالث لجبهة الصمود والتصدي الذي انعقد في دمشق في سبتمبر ١٩٧٨م بعد يومين فقط من توقيع اتفاق كامب ديفيد يرمي إلى بحث ما يمكن أن تفعله الأمة للخروج من تلك الأزمة والنظر في احتمالات المستقبل وآفاقه.

ماذا يجري في عدن؟!

في تلك الفترة وقبلها جرت وتغيرت أمور كثيرة في عدن!! فقد حدث في ٢٦ يونيو ١٩٧٨م تغيير في الموقع القيادي الأول. اختفى الرئيس سالم ربيع علي عن المسرح السياسي إثر أحداث ١٩٧٨م. لكن هذه الأحداث وإن قوّت من موقع عبد الفتاح إسماعيل وجناحه شكلياً، إلا أنها لم تهيئه لكي يكون الشخص الوحيد المرشّح لخلافته، إذ كانت هناك عوائق دستورية وتوازنات سياسية وعوامل عديدة معقدة لم تكن كل حساباتها لمصلحته. لكن ذلك لم يكن النقطة الحاسمة والمحددة لمستقبله السياسي أو طموحاته لدخول تاريخ اليمن الديمقراطية رئيساً، وسينجح في ذلك فيما بعد، لمدة قصيرة، بإجراء تعديلات في الدستور تتيح له الجمع في آن واحد بين منصبي الأمانة العامة للحزب ورئاسة الدولة.

وكنا في هذه الفترة نعمل بأقصى جهد لإعادة البلاد إلى توازنها السياسي الذي فقدته في أحداث يونيو ١٩٧٨م ومعالجة أسباب الصعوبات العديدة التي تمرّ بها الأوضاع الداخلية مما شرحته في مذكراتي في كتاب «عدن من الثورة إلى الدولة» بجزأيه.

المؤتمر الثالث لجبهة الصمود

كان عليّ بصفتي، وقد أصبحت رئيس مجلس الرئاسة، حضور القمة الثالثة لدول الصمود والتصدي التي انعقدت في دمشق خلال الفترة في ٢٠ سبتمبر ١٩٧٨م، وهي القمة الأولى التي أشارك فيها لهذا التجمع...

في دمشق، استُقبلت بحفاوة رسمية وشعبية، وكان الرئيس حافظ الأسد في مقدمة المستقبلين. وفي مساء اليوم نفسه اجتمعت به في مقر إقامتي، وبحثنا آخر التطورات في المنطقة العربية والنتائج التي خرج بها مؤتمر «كامب ديفيد» وردود الأفعال العربية تجاهه، والخطوات المطلوب اتخاذها لمجابهة مختلف الخطوات الاستسلامية في المنطقة.. وتناول البحث أيضاً الترتيبات الخاصة بمؤتمر الصمود والتصدي. حضر المؤتمر كل من الرؤساء حافظ الأسد، هواري بومدين، معمر القذافي والزعيم الفلسطيني ياسر عرفات.

قدَّم وفدنا مذكرة إلى المؤتمر في جلسته الأولى تناولت تطور الأوضاع في المنطقة العربية والدولية، وموقف اليمن الديمقراطية منها.

إدانة كامب ديفيد

بعد ثلاثة أيام من البحث والنقاش، توصلت القمة الثالثة لجبهة الصمود والتصدي إلى قرارات تؤكد فيها أن سياسة الرئيس السادات ونتائج كامب ديفيد تمثل امتداداً للتآمر على الأمة العربية وقضية فلسطين وحقوق شعبها، وأن موقف السادات يُلحق ضربة بالتضامن العربي حين أخرج مصر من ساحة الصراع العربي الإسرائيلي على الصعيد الرسمي وتخلّى عن المفهوم العالمي للسلام العادل في المنطقة الذي يقوم على أساس الانسحاب الكامل من جميع الأراضي الفلسطينية والعربية المحتلة والاعتراف بالحقوق الوطنية الثابتة للشعب الفلسطيني، وخصوصاً حقه في العودة وتقرير المصير وإقامة دولته المستقلة فوق ترابه الوطني وعاصمتها القدس.

أقرّ مؤتمر دمشق إعلان مبادئ الجبهة القومية للصمود والتصدي وأهدافها ومؤسساتها وقطع العلاقات السياسية والاقتصادية مع النظام المصري، بما في ذلك المؤسسات والأفراد

والشركات التي تتعامل مع العدو الإسرائيلي. وأكد ضرورة اتخاذ الإجراءات العملية لدعم قوى الصمود التي تشكل سورية قاعدتها الأساسية، والعمل على توفير جميع المستلزمات لإعادة التوازن الاستراتيجي إلى المنطقة بعد خروج النظام المصري من ساحة الصراع مع العدو..

المؤتمر الرابع لجبهة الصمود

قمة طرابلس كانت الرابعة، وقد أكدت استمرار الصمود والتصدي في مواجهة الأخطار المحيطة بالأمة العربية، وقد دعا بيانها الحكومات العربية إلى إعادة النظر في علاقاتها مع الولايات المتحدة الأميركية، ودعا الجماهير العربية الى تصعيد كفاحها ضد هذه القواعد. وأكدت القمة تشكيل مؤسسات الجبهة القومية للصمود والتصدي الواردة في إعلان دمشق وهي: القيادة العليا، اللجنة السياسية، اللجنة الإعلامية والقيادة العسكرية. وأكدت دعم مؤتمر الشعب العربي العام وإدانتها جميع المحاولات الهادفة إلى شقّه أو النيل من وحدته. وكانت هذه الإشارة موجهة إلى بغداد التي انعقد فيها «مؤتمر قومي للشعب العربي» آخر في مارس ١٩٨٠م، ورغم أن المؤتمر المذكور انعقد تحت شعارات قومية، لكنه في الواقع كان يهدف إلى التحرك في الاتجاه المعاكس لجبهة الصمود والتصدي، وفي اتجاه التنصل من قرارات مؤتمر القمة العربي الذي عقد في بغداد في نوفمبر ١٩٧٨م، كما جاء في ردّ الأمانة الدائمة لمؤتمر الشعب العربي على مؤتمر بغداد وبيانه القومي.

كلّف مؤتمر طرابلس العقيد معمر القذافي الاتصال بالاتحاد السوفياتي باسم الجبهة القومية للصمود والتصدي لبحث إمكانية تطوير العلاقات بين الاتحاد السوفياتي والجبهة، بما يؤدي إلى مزيد من الدعم العسكري والسياسي لجبهة الصمود وإعادة التوازن العسكري والسياسي إلى المنطقة، وكذلك توثيق العلاقات وتعميقها بين موسكو ودول الجبهة.

عاد عبد الفتاح إسماعيل من قمة طرابلس، وبعدها قدم استقالته (وهو ما تناولت تفاصيله في كتابي عن الدولة في اليمن الديمقراطية) من رئاسة الدولة والأمانة العامة للحزب الاشتراكي اليمني، وتوليت المنصبين بعد انتخابي من قبل «اللجنة المركزية» و«مجلس الشعب الأعلى».

في الدورة الثالثة عشرة لمجلس منظمة التضامن الأفرو - آسيوي التي انعقدت في عدن في شهر مارس ١٩٨١م، تحدثت في خطابي الذي افتتحت به المؤتمر عن جبهة الصمود والتصدي وعن رفض شعوبنا اتفاقية كامب ديفيد التي لم تؤد إلى السلام، ولم يكن ذلك هدفها، ولكنها فتحت المنطقة على مصراعيها للتغلغل الإمبريالي، وأدت إلى إحداث انشقاقات وانقسامات في جسم الوطن العربي. وبعدما انكشفت الحقيقة ووصل أطراف كامب ديفيد إلى طريق مسدود بالنسبة إلى قضية الشرق الأوسط، جرت محاولة ما يُسمّى «المبادرة الأوروبية» التي رفضناها. ولذلك فقد أكدت أن الحلّ العادل والشامل لا يمكن أن يتحقق إلا بالاعتراف بالحقوق الوطنية المشروعة للشعب العربي الفلسطيني الذي يناضل بقيادة منظمة التحرير الفلسطينية في سبيل تحقيق أهدافه الوطنية، بما في ذلك حقه في إقامة دولته الوطنية المستقلة وذات السيادة واستعادة الأراضي العربية المحتلة. وأشرت إلى أن المقترحات السوفياتية التي أعلنها ليونيد بريجنيف في المؤتمر الـ (٢٦) للحزب الشيوعي السوفياتي بشأن حلّ مشكلة الشرق الأوسط، تُعَدّ من وجهة نظرنا مقترحات واقعية وعملية لإيجاد حلّ عادل وشامل للوضع المتفجر والمتأزم في منطقة الشرق الأوسط. شارك في هذا المؤتمر عدد من الشخصيات العالمية، وقد تحدث عن ذلك السيد أحمد حمروش في كتابه لعبة السياسة:

أخيراً جاءت الفرصة.. المؤتمر الثالث عشر لمنظمة تضامن الشعوب الإفريقية والآسيوية، وكانت عودتنا من طريق موسكو، الطائرة تقترب من مطار عدن، والشمس تشرق عند الأفق.. ولكن المضيفة تعلن أن الطائرة لن تهبط لأعطال فنية وأنها متجهة إلى أديس أبابا.

أي حظ عاثر؟

يستمرّ حمروش في سرده:

لم يغمض لنا جفن طوال الليل.. والإرهاق غلب الأجسام وأخمد العقول. في أديس أبابا علمنا أن أمطاراً شديدة أحدثت سيولاً أثرت في ممرات الهبوط في عدن.. وانتظرنا ونحن لا نعلم متى سنصل إلى عدن، ومتى يبدأ المؤتمر.

أخيراً لامست عجلات الطائرة أرض اليمن، بعد أكثر من ١٢ ساعة منذ غادرت مطار القاهرة.

كم طال بي الزمن، وأنا في شوق إلى هذه الأرض؟

وكم بعدت بي الصلة عن بعض من عرفت؟

الطبيعة مختلفة تماماً.. الجبال شاهقة سمراء.. ومياه الأمطار ما زالت موجودة على جوانب الممرات.. حرارة اللقاء وحرارة الجو أجبرتنا على تخفيف الملابس.

لافتات الترحيب بالمؤتمر تقابلك في كل مكان.. في المطار وفي الطريق إلى المدينة.. في شوارع عدن.. وأخيراً وصلنا إلى فندق (الشاطئ الذهبي) أحدث فنادق اليمن، تحيط به الجبال ومياه المحيط ومعنا أعضاء وفود حضروا من مختلف دول العالم.

أذكر لقاءً تم مع الرئيس علي ناصر محمد في القاهرة عام ١٩٧١، وكان قد حضر للمشاركة في الاحتفال بالذكرى الأولى لوفاة جمال عبد الناصر.. وسمعته أمام اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي يخطب يوم ٢٨ سبتمبر قائلاً:

«إن شعبنا اليمني بأجمعه لن ينسى مدى التاريخ بأن ثورته لم تكن لتقف على قدميها لولا الزعيم الخالد جمال عبد الناصر والشعب المصري الشقيق».

فوجئت عندما وجدت أن الرئيس علي ناصر محمد يذكر هذا اللقاء الذي تم في القاهرة منذ عشر سنوات وأنه لم يضع في زحمة ما يضطلع به من مسؤوليات.. وقال لي ذلك وهو يستقبل أعضاء وفد اللجنة المصرية للتضامن ليلة افتتاح المؤتمر.

وهنا وقفة قصيرة فقد حرص علي ناصر محمد على أن يستقبل الوفد المصري وحده في منزله في الليلة الأولى يوم افتتاح المؤتمر، لم يستقبلنا في مدخل الدار علي ناصر محمد وحده، وإنما كان معه ياسر عرفات الذي كان قد وصل منذ أربع ساعات فقط للمشاركة في المؤتمر.

كان اللقاء حاراً امتدّ إلى ما بعد منتصف الليل.

أعود إلى قاعة المؤتمر الذي لم يحدث أن اجتمع فيه مثل هذا الحشد الكبير، ولا

المستوى الرفيع من التمثيل الشعبي، واقف عند لحظة اهتزت فيها قلوبنا نحن المصريين من الأعماق.

كانت هذه اللحظة عندما قرر المجتمعون من مختلف دول آسيا وإفريقيا والممثلون لحركات التحرر الوطني، والمنظمات العالمية غير الحكومية أن ينتخبوا بالإجماع عبد الرحمن الشرقاوي رئيساً للمنظمة.. وهذه أول مرة في تاريخ المنظمة منذ نشأت عام ١٩٥٧ يستحدث فيها منصب الرئيس ويتم الاختيار له من مصر دولة المقر. وقد شجعت شخصياً على استحداث هذا المنصب وعلى بقاء مقر المنظمة في مصر.

كانت هذه الانتخابات راحة نفس لمعانٍ كثيرة.. فهو في مضمونه انتخاب للقاهرة لكي تظل مقراً للمنظمة العالمية، وهو تأييد عالمي للجنة المصرية للتضامن وسكرتيرها العام عبد الرحمن الشرقاوي.

عندما وقف الرئيس المنتخب يلقي كلمته التي نسج فيها السياسة بالشعر والعاطفة تجسدت أمامي مصر التاريخ والحضارة والأصالة.. مصر العروبة.. مصر التضامن والسلام والتقدم.

وكان بعض المشاركين في المؤتمر قد طالبوا بنقل مقرّ المنظمة من القاهرة بعد المقاطعة العربية لمصر والمنظمات الموجودة فيها، وفي مقدمتها جامعة الدول العربية التي انتقلت إلى تونس، ولكنني تدخلت لإقناع البعض ببقاء المنظمة في القاهرة وانتخاب عبد الرحمن الشرقاوي رئيساً لها.

بعض نتائج كامب ديفيد

لم تقتصر آثار الصلح المنفرد مع إسرائيل على مصر وحدها، بل على الوطن العربي. ففي ٢٤ مايو ١٩٨١م قام الرئيس أنور السادات بزيارة قيل إنها ودية للخرطوم، واجتمع بالرئيس السوداني جعفر النميري. أكد الرئيسان تطابق وجهة نظرهما التام، وحرصا في مؤتمر صحفي على أن يقولا: «إننا سنقدم إلى الولايات المتحدة ما تريده لمساعدتها على الوصول إلى أي بلد، حتى إلى إندونيسيا، ورحبا بقوات التدخل السريع الأميركية وأكدا

أنهما سيقدمان لها التسهيلات كافة». وقال السادات إن الولايات المتحدة طلبت منه السماح بمرور طائرات «أواكس» طلبتها السعودية عبر الأجواء المصرية وإنه وافق على ذلك». وشنّ السادات ونميري هجوماً شديداً على دول جبهة الصمود والتصدي والثورة الفلسطينية لمعارضتها اتفاقيات كامب ديفيد.

في السابع من يونيو ١٩٨١م أغارت الطائرات الإسرائيلية على بغداد، فدمّرت المفاعل النووي العراقي، وقد نددنا بذلك في بيان أصدرته وزارة الخارجية يوم ١٠ يونيو. جاءت الغارة بعد عدة أيام فقط من زيارة رئيس الوزراء الإسرائيلي مناحيم بيغن لشرم الشيخ والاجتماع بالرئيس أنور السادات. وقد أثارت زيارته ردود فعل عنيفة في الوطن العربي والأراضي المحتلة.

القمة الأخيرة!

كان علينا أن ننتظر بضعة أشهر منذ أن أطلقت دعوتي إلى عقد قمة جديدة لدول جبهة الصمود والتصدي، لتأتي ظروف العدوان الأميركي على ليبيا، والعدوان الإسرائيلي على لبنان وعلى المقاومة الفلسطينية، ويصبح عقد مؤتمر قمة الصمود الخامسة أمراً لا مناص منه بعد أن تجاوزت الاعتداءات الأميركية والإسرائيلية كل الحدود المعقولة وتُوِّجت بإعلان التحالف العسكري بين واشنطن وتل أبيب. عقد المؤتمر بطلب من الجماهيرية الليبية تنفيذاً للمادة الرابعة من ميثاق جبهة الصمود والتصدي المُقَرّ في المؤتمر الثاني للجبهة بدمشق في سبتمبر ١٩٧٨م.

انعقد المؤتمر في مدينة بنغازي الليبية في الفترة بين ١٦ – ١٨ سبتمبر ١٩٨١م، وصدر بيان ختامي أكد أن التحالف الإسرائيلي الأميركي يرمي إلى تصفية القضية الفلسطينية وترسيخ الكيان الصهيوني، وإسقاط أية إمكانية لإقامة سلام عادل، وفرض الهيمنة الأميركية الإسرائيلية على المنطقة، وتعريض الوجود القومي للأمة العربية لخطر التصفية. ورمى أيضاً إلى جعل المنطقة العربية قاعدة أميركية متقدمة ضد سائر قوى التقدم والتحرر في العالم، خصوصاً في آسيا وإفريقيا.

اتخذ المؤتمر عدداً من القرارات، منها دعوة الدول العربية في مؤتمر القمة العربية القادم إلى اتخاذ إجراءات رادعة ضد الدول العربية المتعاونة مع نظام السادات والكيان الصهيوني، واعتبار الولايات المتحدة في حالة مواجهة مع الأمة العربية، ودعوة الحكومات العربية إلى إعادة النظر في علاقاتها بهذه الدولة. كذلك دعا إلى اعتبار التحالف العسكري الاستراتيجي الأميركي الإسرائيلي مشاركةً من جانب الولايات المتحدة في احتلال فلسطين والأراضي العربية المحتلة الأخرى، واعتبار الوجود العسكري الأميركي بكل أشكاله في الوطن العربي معادياً للأمة العربية، وضرورة العمل على محاربته وإزالته. وطالب بالعمل على استخدام جميع الإمكانات الاقتصادية العربية، بما فيها النفط والأرصدة العربية في المصارف الأميركية لمواجهة التحالف الجديد للولايات المتحدة والكيان الصهيوني. وأكد أن السلام الشامل والكامل هدف الأمة، وطالب بدعم وحدة لبنان واستقلاله وعروبته، وحماية المقاومة الفلسطينية ودعمها، وطالب بحشد جميع الإمكانات لمساندة الجماهيرية ضد العدوان.

كان من الصعب تنفيذ العديد من القرارات التي اتخذها المؤتمر، إذْ إنها لم تكن بيد الدول المكونة للجبهة، بل بيد الدول والحكومات العربية الأخرى التي كان أغلبها يرتبط بعلاقات شبه استراتيجية، وإن كان في الخفاء بالولايات المتحدة الأميركية، وبمصالح لا يمكنها التفريط فيها، وربما أيضاً تبارك من تحت الطاولة خطوة السادات وصلحه مع إسرائيل، وباتصالات سرية معه، لكن كان لابد من تأكيد المواقف والدعوة لفضح تلك الأنظمة وحكامها...

شارك في الجلسات العلنية للمؤتمر وزير خارجية إيران الذي ألقى كلمة تحدث فيها عن الوضع في إيران وعن الحرب الإيرانية العراقية وعن السياسة العدوانية للولايات المتحدة الأميركية تجاه إيران وتجاه الشرق الأوسط.

لم تكتب الحياة طويلاً لجبهة الصمود والتصدي، ففي كل الأحوال أملت ميلادَها الرغبةُ في مواجهة زيارة السادات للقدس، والرغبةُ في الوحدة والاندماج والمواجهة الجادة. ولكنها في الظروف الخطيرة التي نشأت فيها تُعَدّ خطوة متقدمة، ورغم ما اتخذته من قرارات

مهمة، لكنها مثل الجامعة العربية لم تكن تملك آلية منظمة لتنفيذها، ولا إمكانات لقيادة العالم العربي في مجال رفض سياسة السادات والصلح المنفرد مع إسرائيل.

على كل حال، فإن مهمة التصدي لهذه السياسة أو مواجهة أعباء الحرب مع العدو الصهيوني لم يكن بمقدور عدد ضئيل من الدول العربية لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة القيام بها، لكن يكفي هذه الدول أنها تحت ثقل تطورات الأحداث قالت (لا) لزيارة السادات لإسرائيل ولاتفاقيات كامب ديفيد، في الوقت الذي كان فيه الآخرون على الجانب الآخر يباركونها سراً! وفي النهاية اغتيل السادات في أكتوبر ١٩٨٠م، وعادت العلاقات بين مصر والعرب دون أن تُلغى اتفاقيات كامب ديفيد، لكن مصلحة استعادة مصر أو العودة إليها كان لها الأولوية على ما يبدو. وفي النهاية انتهت جبهة الصمود والتصدي من غير إعلان، ولم يُصرّ أحد على بقائها، إذ إن الجميع لا يريدون البقاء خارج النظام الإقليمي العربي الذي اعتادوه، ولم تكن هناك رغبة جادة، بالرغم من كل الانتقادات في الخروج من هذا النظام أو ابتكار نظام جديد لا توافق عليه كل الدول العربية، لأن ما ينتظرها خارجه كان مجهولاً.

انتهت جبهة الصمود من حيث بدأت في أرض الجماهيرية العظمى، ولم يتجاوز تأثيرها البيانات والتصريحات والخطب، لأن قيامها لم يرتبط برؤية استراتيجية وبموقف فعلي وجادّ في مواجهة كامب ديفيد وإسرائيل، وحتى على صعيد التعاون بين هذه الدول، لم يتجاوز نشاطها اجتماعات القمة وإصدار بياناتها الطنانة الرنانة، وتبادل القبلات أثناء الاستقبال والتوديع، وكلمات المجاملة على الطريقة العربية، وكانت جبهة الصمود بمنزلة الرعد والبرق بلا مطر.



زعماء جبهة الصمود والتصدي في اجتماعهم المنعقد في بنغازي ١٩٨١م
ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية
الرئيس الشاذلي بن جديد، رئيس جمهورية الجزائر الديمقراطية
الرئيس معمر القذافي، رئيس الجماهيرية الليبية
الرئيس حافظ الأسد، رئيس الجمهورية العربية السورية
الرئيس علي ناصر محمد، رئيس جمهورية اليمن الديمقراطية

الفصل التاسع

اليمن الديمقراطية والجزائر

تجربة الجزائر على المحك

كان هواري بومدين، طويل القامة، صارم القسمات، حتى إن البعض أطلق عليه في وقت ما صفة الرجل الذي لا يبتسم. لكنني كنت أجده إنساناً ودوداً، رغم ما يبدو عليه من صرامة. حالة نموذجية للمناضل الثوري، وأحد القادة العسكريين لجيش التحرير الذين سبقتهم شهرتهم، وواحد من قادة جبهة التحرير الجزائرية التي قادت النضال ضد الاستعمار الفرنسي حتى استقلال الجزائر، ثم حمله انقلاب على الرئيس أحمد بن بيلا إلى سدة الحكم، فأظهر قدرات غير محدودة في القيادة والمقدرة السياسية، وكان من أصحاب تيار التعريب والتحديث وإعادة الهوية العربية، تحدوه الرغبة في التخلص من واقع شديد التعقيد والعمل للانتصار عليه. يهتم بشؤون الوطن العربي ويحرص على أن يشارك في قضايا الأمة العربية المصيرية، ويعمل لأن يكون للجزائر دور متميز في قضايا العالم الثالث. وفي الوقت نفسه، كان يدرك الصراعات والارتباطات التي تستحكم في حياة هذا العالم. باختصار، كنت أحترمه، وكان يعجبني فيه ثباته على مواقفه، وإخلاصه لمبادئه ولقضايا أمته وعدم التهاون فيها، وفي المقدمة القضية الفلسطينية، وهو القائل: «نحن مع الشعب الفلسطيني ظالماً أو

مظلوماً». وفوق كل ذاك، كان مخلصاً في صداقته بنحو لافت، وهو الذي قال للرئيس جمال عبد الناصر بعد نكسة حزيران: «يجب أن يكون التراجع عن استقالتك مرافقاً للمقاومة ضد الهزيمة... وأي حلول تأتي من تلك الهزيمة نحن ضدها... والجزائر لن تقبل تلك الهزيمة أبداً».

أثناء انعقاد قمة الصمود والتصدي في دمشق ومساء الثالث والعشرين من سبتمبر عام ١٩٧٨م، طلبني الرئيس بومدين للتحدث على انفراد في جناحه الخاص. تحدثنا معاً، في العديد من الأمور. وكان بومدين وهو يتحدث عن الجزائر يتحدث بصدق وحرارة. حرص على أن يحدثني عن جوانب غامضة لم تكن معروفة لي عن تجربة الثورة الجزائرية، وتطرق في حديثه إلى الرئيس السابق «بن بيلا» عندما كان هذا على رأس حزب جبهة التحرير ورئيساً للدولة. قال لي بومدين إن أحمد بن بيلا اجتمع قبل سفره إلى موسكو بالسفير الأميركي في الجزائر، وقضى معه ساعتين كاملتين، ولم نكن نعرف ماذا دار بينهما. ولكننا فوجئنا به أثناء احتفالات العشاء مع القادة السوفيات يدلي بتصريحات معادية للولايات المتحدة!! وبعد أن حكى لي هذه الحكاية، أبدى تخوفه على مستقبل الثورة الجزائرية، وقال إنه يخشى أن يكون مصيرها شبيهاً بما حصل للثورة المصرية! وقال: «إننا نسعى إلى عقد مؤتمر لجبهة التحرير الجزائرية في نهاية هذا العام لانتخاب قيادة وضخّ دماء جديدة في الجبهة من أجل بناء دولة ديمقراطية لا تزول بزوال الحكام أو الحكومة»، وطلب مني ضرورة إنهاء أعمال المؤتمر اليوم، لأن وضعه الصحي لا يتحمل الاستمرار يوماً آخر. وكانت بعض الخلافات قد برزت بشأن دعم دول النفط لسورية، كالجزائر وليبيا من يدفع نقداً أو سلاحاً من السوفيات، ورفض القذافي حينذاك تقديم المال ما لم تقدم الجزائر مالاً بدلاً من السلاح.



مع الرئيس هواري بومدين ١٩٧٧م

أعلن بومدين أنه مستعد لأن يدفع نقداً أو نفطاً أو سلاحاً، المهم أن يصدر البيان الختامي الآن. وقال: لا أخفي عنك أنني مريض وأخشى على الثورة الجزائرية. ونصح بالتعامل مع محمد صالح اليحياوي، باعتباره رجلاً وطنياً وقومياً مخلصاً لوطنه ولقضايا أمته العربية، والإسلامية. قلت له: أتمنى لك طول العمر، وأتمنى أن تكون الوعكة عابرة، ونحن مستعدون للتعاون مع اليحياوي منسّق الحزب، ومع عبد العزيز بوتفليقة. ولكنه أكد مرة أخرى التعاون والتفاهم مع اليحياوي. لم أعلّق على حديثه حيث شاهدت في عينيه حزناً عميقاً وخوفاً حقيقياً على الجزائر ومستقبلها. نهضت عن الكرسي وأبلغت الرئيس الأسد والقائد معمر القذافي ما اتُّفق عليه مع الرئيس الجزائري، وبذاك انتهى المؤتمر، وغادر الجميع القاعة عند الساعة العاشرة مساءً. وفي الطريق إلى مقرّ الإقامة، وعند دخولنا إلى المصعد، طلب الرئيس بومدين الخروج منه والسفر فوراً إلى الجزائر، وطلب عدم إزعاج الرئيس السوري حتى لا يضطر إلى تجشم عناء وداعه.

بعد هذا اللقاء غادر الرئيس هواري بومدين دمشق في طريقه إلى الجزائر، وفي صباح

اليوم التالي استدعى الرئيس بومدين كلاً من عبد العزيز بوتفليقة وأحمد طالب الإبراهيمي إلى منزله وأخبرهما لأول مرة بحقيقة مرضه، وأنه مصاب بسرطان المثانة[1]، وطلب السفر إلى الاتحاد السوفياتي للعلاج في أهم المصحات الخاصة بالقيادة السوفياتية، ولكن الأطباء السوفيات عجزوا عن علاجه، ونصحوا بعودته إلى الجزائر، لأن المرض قد انتشر في جسمه، ووصل إلى موسكو بعد فوات الأوان. وبعد فترة من الزمن بدا أنه مات مسموماً، وهو ما جرى مع وديع حداد وياسر عرفات لاحقاً، وبقي موتهم لغزاً.

لكن الرئيس بومدين دخل في غيبوبة، ودخل معه القادة في الجزائر في حالة من الارتباك وبدأ العالم يتساءل: أين الرئيس بومدين؟ وماذا جرى، ولماذا اختفت أخباره؟ قبل انعقاد القمة العربية في بغداد اتصل بي الرئيس أحمد حسن البكر وطلب مني أن أقنع الزعماء حافظ الأسد ومعمر القذافي وهواري بومدين بالحضور، وقد تمكنت من إقناع الأولين بذلك، غير أن محاولاتي العديدة مع رئاسة الجمهورية بالجزائر للتحدث مع الرئيس بومدين تعذرت، بحجة أنه خارج العاصمة، ولم أكن أدري أنه في غيبوبة خارج الجزائر، كما أشرت إلى ذلك فيما سبق من الحديث، وقد علمت بذلك من وزير الخارجية عبد العزيز بوتفليقة الذي شارك في مؤتمر القمة العربية ببغداد على رأس وفد بلاده.

بعدها سمعت النبأ المفجع بوفاته. كانت وفاته خسارة للجزائر التي فقدت زعيمها وقائدها وباني الدولة الجزائرية وجيشها الوطني، وخسارة للأمة العربية والإسلامية ولحركة عدم الانحياز وبلدان العالم الثالث. كنت أفكر في كل ذلك ونحن نقترب من مطار الجزائر... وأفكر في مستقبل الجزائر، بعد بومدين.

وفاة القائد هواري بومدين

الطائرة البوينغ ٧٠٧ تهبط بنا في المطار عند منتصف الليل وسط ظلام دامس وحزن عميق... تبدو الجزائر لا لون لها ولا طعم ولا رائحة في غياب الزعيم بو مدين، وخصوصاً مع دخول المؤسسات في السُّبات. الحزن مخيم على كل مكان من أرض الجزائر، مواطنين

---

(١) حسب شهادة الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي عن الرئيس الراحل هواري بومدين.

ومسؤولين، البعض خائفون على مصير الجزائر بعد غياب القائد الصارم الحازم الذي صنعته حرب التحرير، فأصبح رئيساً لأركان جيشها ورئيساً للدولة، والبعض خائف على مصيره ومصير السلطة، فالرئيس لم يختر نائباً له قبل رحيله، ويبدو أنه كان يخشى انقسام القيادة حوله. وكان محمد صالح اليحياوي الذي أوصى به، منسقاً للحزب، وكان بومدين حريصاً على إبقائه في قيادة الحزب حتى تنضج الأمور ليحمّله فيما بعد مسؤوليات أكبر، ولكن يبدو أن الرئيس لم يدرك أن مرضه كان خطيراً وأنه سيعيش في غيبوبة طويلة ستستمر أكثر من شهرين بين الجزائر وبلاد السوفيات آنذاك، ولهذا لم يعد ترتيبات توزيع السلطات بين المحيطين به. وكان القادة العسكريون من معسكراتهم يصنعون الرؤساء ثم يعودون إلى ثكناتهم ولا يظهرون إلا في وقت الأزمات، وهذه الحقيقة تنطبق على الجميع هناك، ابتداءً بالرئيس بومدين، ومروراً بعد ذلك بالرؤساء الشاذلي بن جديد ومحمد بو ضياف وعلي كافي والأمين زروال، وقبلهم أحمد بن بيلا الذي جاء إلى السلطة بعد صراع بين الحكومة الموقتة والجيش الوطني الجزائري.

يُعَدّ الجيش المؤسسة الوطنية المتماسكة، وهو الذي ولد في غمار حرب التحرير، وفي كل المراحل التي مرت بها الثورة والدولة الجزائريتان، حيث لم يسمح الجيش بعد ذلك لجبهة الإنقاذ بقيادة عباسي مدني وعلي بلحاج بالوصول إلى السلطة بالطرائق السلمية، لأنهم يدركون أن الجبهة سيكون لها جيشها وأمنها الخاص والبديل عنهم، وتجربة الآخرين تؤكد ذلك، حيث إن الثورة الإيرانية حطمت الجيش القديم، وشكلت بديلاً منه حرسها الثوري الإسلامي.

بعد ذلك التاريخ وفي غياب بومدين، غاب عبد العزيز بو تفليقة عشرين عاماً عن السلطة والجزائر، وتنقّل بين سويسرا وأبو ظبي[1]، وأقام في فندق بينونة فترة طويلة في

---

(١) إضافة إلى وجود عبد العزيز بوتفليقة في أبو ظبي كان يوجد رئيس الوزراء الليبي عبد الحميد البكوش، ووزير الخارجية العراقي عدنان الباجه جي، ووزير خارجية تونس محمد المصمودي، ووزير الإعلام العراقي السابق محمد سعيد الصحاف، ووزير خارجية الصومال وآخرون من العرب الذين ضاقت بهم أوطانهم ووجدوا في قلب زايد وعاصمته ملاذاً لهم، بمن فيهم كاتب هذه المذكرات.

ضيافة صديقه أحمد خليفة السويدي. كنا نلتقي باستمرار ونتحدث ساعات طويلة عن الماضي والحاضر والمستقبل، وكان يشكو آلاماً في ظهره ويتردد إلى الدكتور سعيد بن عبد الله مدير مستشفى الجزيرة الذي حدثني عن حالة بوتفليقة وأنه يمر بحالة كآبة بسبب الفراغ والبعد عن وطنه، وليس لديه أية أمراض. اقترحت عليه أن يرأس المركز العربي للدراسات الاستراتيجية في أبو ظبي، فوافق وكتب بخطّ يده رسالة إلى الشيخ زايد بشأن الموافقة على ذلك، ورحب الشيخ زايد رحمه الله بالفكرة، وقال مازحاً. إنّ «عليه أن يتزوج ونحن سنتحمل تكاليف الزواج والسكن وإنني سأعتمده إضافة إلى ذلك مستشاراً في الديوان»، ولكنه رفض الحديث عن الزواج وقال إنه عُرض عليه ذلك بعد خروجه من السلطة ورفض وإن الشيخ صباح الأحمد الصباح، وزير الخارجية الكويتي، عرض عليه أن يشارك في إقامة شركة مع ابنه ناصر برأسمال قدره ١٠ ملايين دولار، وقال بوتفليقة لصباح إنه لا يملك مثل هذا المبلغ، وقال صباح: يكفي أن تشارك باسمك وليس بمالك، فنحن سنوفر لكما ذلك، ولكنه اعتذر وقال في نفسه: ستبيع نفسك في نهاية تاريخك بـ ٥ ملايين دولار، والتفت نحوي وقال: إنني واجهت صعوبات مالية في الفترة الماضية، ولو عرض علي اليوم مثل ذلك العرض لبعت اسمي واسم أبوي، وابتسم وتوقف الحديث عند ذلك. ولكنني شعرت بأنه ينتظر ما هو أكبر من ذلك. كان لديه من الصبر الكثير لكي يحصل على ما يريد للوصول إلى السلطة، ولم يغب وحده عن الساحة، بل غاب معه جيش من السياسيين في الداخل والخارج على مدى أكثر من عشرين عاماً، فقد خرج بن بيلا من سجنه الخاص، وغادر البلاد مع زوجته التي تزوجها في السجن وابنتهما، وحكت لي زوجته في بيروت قصتها معه وكيف أنها اختلفت معه وهو في السلطة، واتفقت معه وهو في السجن. في لقاء لي مع الرئيس الشاذلي بن جديد، وفي معرض تقييمه لتجربة الجزائر قال:

«إن أحمد بن بيلا لم يكن على مستوى الثقة التي منحه إياها بعد خروجه من السجن والبلاد، حيث كان يجول بين طرابلس، التي أطلقت اسمه على أحد فنادقها الذي كان يرتاده أثناء حرب التحرير، وبغداد وإيران والسعودية، ويتحدث تارة باسم الثورة الجزائرية

وضرورة إنقاذها من عملاء الإمبريالية، وتارةً يتحدث باسم الإسلام، وأحياناً باسم حزبه الجديد الذي لا لون ولا تأثير له إلا في الفرقعة الإعلامية، فقد ولد الحزب ميتاً».

كان الرئيس بن بيلا قد غادر أحد الموانئ الفرنسية في طريقه إلى الجزائر من منفاه مع بعض أعوانه، وركب البحر متفائلاً بأنه سيعود إلى الجزائر، وسيسعى إلى استعادة مجده، غير مدرك إنه جاء بعد فوات الأوان، وتغير الحقائق في الواقع الجزائري، ولم يميز بين عودته إلى الجزائر بعد خروجه من السجون الفرنسية بطلاً وطنياً قومياً اكتسح الجميع في طريقه إلى العاصمة الجزائرية وإلى كرسي الرئاسة، وبين عودته الثانية مبحراً من فرنسا إلى الجزائر، متناسياً أن العالم قد شهد تطورات هائلة، واختفى من المسرح السياسي قادة عظام كعبد الناصر ونهرو وتيتو وشوين لاي وغيرهم من زعماء العالم، وتحررت إفريقيا وآسيا وأميركا اللاتينية.

في ديسمبر عام ١٩٩٦م قابلته في عدن، ولم أصدق أن بن بيلا الذي كنا نعدّه أسطورة وقائداً قومياً وبطلاً وطنياً هنا في عدن، والشعب في عدن لا يعرف بوجود ذلك البطل التاريخي الذي طالما هبّوا مطالبين بالإفراج عنه من السجون الفرنسية، وتذكرت هنا تلك الأيام التي كنا فيها نتغنى باسم ثوار الجزائر: جميلة بوحيرد، والأحرار الخمسة الذين كانت تعتقلهم فرنسا أحمد بن بيلا، ومحمد بوضياف، وحسين آيت أحمد، ومحمد خيضر، ومصطفى الأشرف، والأغنية الشهيرة التي كنا نسمعها في المطاعم والشوارع تبثّها إذاعة صوت العرب: وحق الأحرار الخمسة... ما نسيبش الثار يا فرنسا»، لم أصدق أن الزعيم أحمد بن بيلا بهامته الطويلة، هو نفسه الذي أشاهده أمامي اليوم في فندق عدن يبحث عن وسيلة نقل من عدن إلى صنعاء ويضطر إلى أن يعود براً إلى صنعاء، لأن الطائرة كانت قد غادرت عدن عند الصباح. بعد عام آخر قابلته مع النائب عبد الرحيم مراد في مدينة بيروت، وحزنت لتاريخه المجيد، عندما سمعته يتحدث مع عدد من الناصريين والصحفيين عن الثورة والدولة الجزائرية وعن الرؤساء الذين جاؤوا بعده ويصف بعضهم بأنهم عملاء لأميركا.



مع الرئيس أحمد بن بيلا ديسمبر ١٩٩٦

تساءلت: هل يستحق أحد هؤلاء الذين يُعدّون أبطالاً في تاريخ الجزائر مثل هذه التهم الخطيرة، وتحويله في نظر الآخرين إلى عميل فقط لأنهم جاؤوا إلى الرئاسة بعد سقوطه من السلطة؟ قلت له: ألا تعتقد أنك ارتكبت خطأً تاريخياً عندما أسست حزباً وتحولت إلى رقم في الجزائر أنت الذي كنت فوق كل الأحزاب والأرقام؟ كان بإمكانك أن تحتفظ بتاريخك، حتى وإن كنت قد ظلمت في مرحلة تاريخية معينة في أثناء حكم الرئيس بو مدين، فيجب أن تكون اليوم حكماً وحكيماً في الجزائر، تُسهم من موقعك وبحكم تاريخك في حلّ الأزمة التي تعصف بالجزائر، والتي أدت إلى فقد أكثر من مئة ألف قتيل وما يقارب من مليون جريح ومشوَّه ومفقود في الأحداث الدموية في التسعينيات من القرن العشرين، لأنك إذا نجحت في حقن الدماء فسوف تدخل التاريخ مرة أخرى من أوسع أبوابه، وليس من باب السلطة التي يصعب الوصول إليها... ونصحته بألّا يوزّع الاتهامات على زعماء الجزائر حيث كان واحداً منهم. شعر بمرارة من هذه الأسئلة وقال: «شكراً وأرجو أن تطفئ السيجار لأنه يسبب

لي متاعب صحية»، واحتراماً له أطفأت السيجار، ولكنني لم أتراجع عن رأيي. شعرت بأنني ضغطت على الجرح الذي يبدو أنه لم يلتئم بعد، وأن مشاعر المرارة بالظلم لسجنه قد تمكنت منه. أشفقت عليه، وتمنيت له دوام الصحة والعمر المديد، وهو على مشارف الثمانين.

الصديق بو تفليقة

عرفت الصديق العزيز عبد العزيز بو تفليقة منذ أكثر من ٤٠ عاماً عند لقائي إياه في قمة بغداد، ثم في الجزائر عشية وفاة الرئيس بو مدين عام ١٩٧٨. كنا قد وصلنا مع عدد من زعماء العالم والعالم العربي، من بينهم الرئيس حافظ الأسد ومعمر القذافي وجعفر النميري وغيرهم للمشاركة في تشييع جنازة القائد الجزائري، وبينما كنا نستعد للتحرك نحو الضريح وصل الرئيس جعفر النميري، كنت جالساً بين الرئيس حافظ الأسد ومعمر القذافي الذي صرخ ما إن رأى النميري والشرر يتطاير من عينيه: وصل «العميل الخائن»، وطلب منا ألّا نقف للسلام عليه، ولكن الرئيس الأسد ابتسم ونظر نحوي ووقف للسلام عليه وقمت بدوري لتحيته، وذلك احتراماً للموقف والمناسبة، لكن القائد الليبي التفت إلى الخلف حتى لا يقف ولا يشاهده، وكان ذلك تعبيراً عن بلوغ الأزمة ذروتها بين مؤيدي كامب ديفيد ومعارضيه، إضافة إلى التعبير عن الانتقاد لدوره في ترحيل الفلاشا عبر السودان إلى إسرائيل.

تجمّع القادة حول قبر القائد لإلقاء النظرة الأخيرة عليه، وتقدم عبد العزيز بوتفليقة وتحدث عن القائد بومدين ومواقفه الوطنية والقومية والدولية، وقال: «وداعاً يا هواري بومدين، وداعاً يا من علمتنا كيف يموت الإنسان العظيم في صمت وكيف يحترق إلى النهاية كي يبدد الظلام». وأضاف أنه يشاهد بومدين في عيون الحاضرين وفي عيون الشعب الجزائري الذي سيقف وفياً للأهداف الكبيرة التي ناضل من أجلها هذا المجاهد الكبير، وكان يتحدث والعرق يتصبّب من جبينه وعيناه الزرقاوان تقطران بالدمع من شدة الحزن والتعب والإرهاق، واعتقد بعضنا أن إلقاءه الكلمة نيابة عن القيادة الجزائرية وعلى قبره

تعميد له ومباركة لقيادته للجزائر. وانصرف الجميع واعتبر المراقبون السياسيون أن خليفة بومدين قد أُعلِن.

الخلاف على الخلافة!

في مساء اليوم نفسه الذي أقيمت فيه مراسم الدفن، فوجئت ببوتفليقة يزورني في مقر إقامتي في الساعة الثانية صباحاً يشرح لي عن مرض الرئيس بومدين الذي أودى بحياته، وكيف فوجئوا بخبر وفاته في القيادة. وعاب على السوفيات أنهم أخفوا عن القيادة الجزائرية المعلومات عن حقيقة مرض بومدين، واكتفوا بإشعار زوجته فقط بذلك التي اتهمها بالعمل مع المخابرات الفرنسية وتسميمه، وقال إنها التي سببت قتل محمد صالح مدغري وزير الداخلية، وبدورها أخفت تلك المعلومات عن الآخرين! وقال إنها أدت دوراً سلبياً في إثارة الخلاف والشكوك بينه وبين الرئيس بومدين الذي كان يفتح له باب بيته في أي وقت. ومضى قائلاً: لو علمنا أن علاجه مستعصٍ، وأنه لن يتماثل للشفاء، لكان بإمكاننا فعل شيء ما، إلا أنه بسبب إخفاء السوفيات كل الحقائق عن مرضه لم نستطع القيام بأيٍّ من الإجراءات التي كان الموقف يتطلب القيام بها.

كان الجانب المهم في الحديث قوله: «يبدو أن السوفيات لديهم تحفظات تجاهي، ويعدّونني مع الغرب، لكنني في الواقع مع الجزائر». وأضاف: «أرجوك يا سي علي، أن تتصل بنائب رئيس هيئة الرئاسة السوفياتي «كوزنتسوف» المشارك في تشييع الجنازة... وأريدك أن تعرف منه تقييمهم لي».

وقبل أن يسمع رأيي، أخذ نفساً عميقاً من سيجاره الكوهيبا، وكان شعره الكثيف الأسود يتدلى على كتفه، وفاجأني بقوله:

أنا أعرف أن السوفيات منحازون إلى اليحياوي[1]، وعناصر أخرى في القيادة الجزائرية!

قلت له: إذا كنت تريد رأيي صراحة، فإنني أرى أن تُبحّث كل المشاكل التي ربما لم

---

(١) محمد صالح يحياوي: عسكري وسياسي جزائري ولد عام ١٩٣٢م. خاض حرب التحرير ضد الاستعمار الفرنسي ومنح رتبة كولونيل. أصيب بجروح في ١٩٦٢م، ورُقّي، بعيد ذلك، إلى رتبة نقيب، فرائد. شارك، في عام ١٩٦٤م، في أعمال مؤتمر «جبهة التحرير الوطني» بصفة عضو في وفد «جيش التحرير الوطني»، وانتُخب عضواً في اللجنة المركزية.

تفصح لي إلا عن جزء يسير منها، في إطاركم الداخلي، وبغضّ النظر عن تقييم الأطراف الخارجية لهذا أو ذاك من أعضاء القيادة، فالمسألة تبقى مسألة داخلية بحتة. وسأقول لك منذ الآن، ما الذي سيقوله السوفيات ومهما كانت تقييماتهم، سيقولون مثلما قلت لك الآن: هذه مسألة تخصكم أنتم، أعني الجزائريين، فهم لم ينفعوا ولم يشفعوا لعلي صبري الذي كان محسوباً على عبد الناصر وعليهم، فقد أبعده الرئيس السادات وأبعد كل المحسوبين عليهم بجرة قلم واحدة.

بالفعل، عندما تحدثت مع نائب الرئيس السوفياتي «كوزنتسوف» أثناء جولة في حديقة القصر بناءً على طلب عبد العزيز بوتفلقية حول الأمر قال لي: «نحن نحترم بوتفليقة، وليس لنا رأي في ما يتعلق بخليفة الرئيس الراحل بومدين. هذه قضية داخلية بحتة، نحن لا نفرض أحداً، وسنبارك أي قرار يتخذونه أو أية شخصية يتفقون عليها».

في اليوم التالي عندما زارني بو تفليقة نقلت له ما قاله لي في حديقة القصر المسؤول السوفياتي عندما كنا نسير في الحديقة، تحسباً للحديث داخل القصر نفسه. اتقاءً لأية أجهزة تنصت، قمنا بخمس جولات في الحديقة، حتى شاهدت العرق يتصبّب من وجه ذلك الرجل النحيف كوزنتسوف.

كذلك فوجئت أيضاً بمحمد صالح اليحياوي، يزورني هو الآخر في مساء اليوم التالي. في بداية اللقاء تحدث عمّا سبق أن حدثني عنه عبد العزيز بو تفليقة حول مرض الرئيس بومدين، وموته المفاجئ، وسرعان ما انتقل إلى الموضوع الذي يشغله والذي جاء من أجله عندما قال:

تناهى إلى سمعي أن بوتفليقة جاء إلى هنا وقابلك!

استغربت علمه بأمر الزيارة، واعتقدت أنهم ربما سجلوا المقابلة، وأنه يعرف ما دار فيها بيني وبين بوتفليقة، وأنه جاء فقط ليتحقق مني، فاكتفيت بالاستماع إليه دون أن أخبره بشيء مما دار بيني وبين بو تفليقة أو بيني وبين «كوزنتسوف». لم يكن من الصعب أن أكتشف أن هناك مشاكل وحساسيات فيما بين القيادة الجزائرية، وأنهم لم يستطيعوا أن يحسموا بعد من يخلف بومدين ويكون الرئيس. وبالطبع، فقد نصحته بمثل ما نصحت بوتفليقة من قبله، وهو

أن يحلوا مشاكلهم داخلياً، وألّا يسمحوا لغيرهم بالتدخل فيها، وخاصة ما يتعلق باختيار الرئيس الجديد.

ما إن ودعت اليحياوي، حتى جاءني كل من خالد مُحيي الدين وياسر عرفات، وفتحا معي نقاشاً في الأزمة الحاصلة داخل القيادة الجزائرية، واستمررنا نتحاور بشأنها حتى وقت متأخر من الليل. حينذاك عرفت أن مشاكل القيادة الجزائرية قد خرجت من إطارها الداخلي، وصارت في متناول الجميع. وخشيت أن يعطى هذا الحق لأكثر من طرف خارجي للعب على هذه المسألة، وأن يحدث للثورة الجزائرية ما كان بومدين يخشاه، أي أن يكون مصيرها كمصير الثورة المصرية! كان يحيرني ويعذبني ما أراه يحدث، وكان خالد مُحيي الدين وياسر عرفات يحدثانني بألم عن ذلك الذي يحدث داخل القيادة الجزائرية.. وكنا ثلاثتنا ننطلق من حرص شديد على الجزائر وثورتها وقيادتها... وفي الأخير، لا اليحياوي ولا بوتفليقة خلفا بومدين في رئاسة الجزائر، بل إن الذي جاء خليفة له كان أبعد من كل تصور، إذ جاء إلى زعامة الدولة الجزائرية الشاذلي بن جديد، قادماً من صفوف جيش جبهة التحرير، كما جاء قبله وبعده عدد من الرؤساء صنعهم الجيش أو هم محسوبون عليه، حتى وإن ارتدوا ملابس مدنية، وقد غادر الاثنان الحزب والسلطة وحلت محلهما قيادات جديدة، فلا مكان للفراغ في السلطة حتى ولو جيء بأصغر ضابط إلى الرئاسة.

شعرت وأنا أغادر هذا البلد الشقيق بأن الجزائر لا لون لها ولا طعم ولا رائحة لها في غياب الزعيم بومدين، وغياب المؤسسات، كما أشرت آنفاً، التي يمكن الاحتكام إليها. وقلت إن المؤسسة العسكرية هي الضامن للحفاظ على الجزائر وأصبحت هي التي تختار بعد ذلك الرؤساء الشاذلي بن جديد ومحمد بو ضياف وعلي كافي والأمين زروال، وقبلهم أحمد بن بيلا الذي جاء إلى السلطة بعد الصراع بين الحكومة الموقتة والجيش الوطني الجزائري، كما أشرت آنفاً.

وبعد الحرب الأهلية في الجزائر التي أنهكت الشعب الجزائري، والتي راح ضحيتها مئات الآلاف من القتلى والجرحى واستمرت سنوات، وأدت إلى إضعاف القوى كافة في السلطة والمعارضة وأمراء الحرب، كنت ألتقي في أبوظبي الصديق عبد العزيز بوتفليقة

وغيره من الشخصيات التي كانت تترد إلى الإمارات في منزل الصديق أحمد خليفة السويدي وزير خارجية الإمارات الأسبق الذي كانت تربطه علاقات بعبد العزيز بوتفليقة والأخضر الإبراهيمي وعدنان الباجه جي، وكنا نتحدث في ما يجري في الجزائر وحاجة البلد إلى عودته لإخراجها من دوامة الصراعات والحرب الأهلية. وأتذكر أنه عاد الى الجزائر رئيساً دون توديع بعض المسؤولين في دولة الإمارات، وذلك في نوع من العتاب على موقفهم السلبي منه أثناء إقامته في الدولة، حيث عاد عام ١٩٩٨ كمرشح للسلطة الحاكمة لرئاسة البلاد خليفة للأمين زروال الذي قرر الاستقالة في شهر أبريل ١٩٩٩.

بدأ بوتفليقة ولايته الأولى في شهر أبريل من عام ١٩٩٩، وأطلق مع وصوله، الحكم مشروعين بارزين: الأول للمصالحة الوطنية لحلّ أزمة أمنية وسياسية عاشتها البلاد خلال التسعينيات، وكان وراء نزول آلاف المسلحين من الجبال، والثاني إعادة البلاد التي كانت محاصرة بسبب الأزمة إلى الساحة الدولية. وهنا أستشهد بما أوردته بعض وسائل الإعلام عام ٢٠١٦ نقلاً عن رئيس الحكومة الجزائرية السابق علي بن فليس الذي قال ما يأتي:

الرواية يقصّها الدكتور سعيد، وهو الطبيب الخاص لرئيس الوزراء الجزائري السابق السيد علي بن فليس. فروى الطبيب ما يأتي:

كنت قبل فترة في زيارة عمل للجزائر، حيث دعانا إلى العشاء السيد بن فليس، وهو أحد المسؤولين الجزائريين الذين كانوا يتعالجون لدي.

كنا نجلس في أحد المطاعم الجميلة الواقعة على شاطئ البحر، وكان الجو لطيفاً والهدوء يخيّم على المنطقة، ما جعلني أتذكر وضع الجزائر خلال الفترة العصيبة التي مرت بها قبل عدة سنوات حين عمّتها الفوضى وكثرت فيها عمليات القتل وسفك الدماء التي أودت بحياة الألوف من أبناء الشعب الجزائري الشقيق، فسألت السيد بن فليس:

كيف تمكنتم في الجزائر من القضاء على ظاهرة العنف والقتل التي استمرت سنوات عديدة؟

نظر إليَّ السيد بن فليس وأخذ نفساً عميقاً مع تنهيدة بسيطة، قام عن مقعده وطلب مني أن نسير معاً بمحاذاة الشاطئ. قال، والحديث لبن فليس:

في أحد الأيام استدعاني الرئيس بوتفليقة إلى مقرّه، فوجدت عنده السفير الأميركي ومعه ثلاثة أشخاص آخرين، تبيّن أنهم من دائرة السي آي إيه الأميركية.

طلب مني بوتفليقة الاستماع إلى ما سيقولون. بدأ السفير الأميركي بالكلام قائلاً:

هل ترغبون يا سادة في أن تنتهي حالة العنف والقتل السائدة لديكم في الجزائر؟

فأجابه الرئيس بوتفليقة: طبعاً ومن دون شك.

استطرد السفير قائلاً: حسناً، نستطيع أن ننهي لكم هذا الوضع بسرعة، لكن حتى نكون واضحين، لدينا شروط واضحة يجب أن توافقوا عليها مسبقاً.

أشعره بوتفليقة بالموافقة وطلب منه أن يكمل.

قال السفير:

أولاً: عليكم إيداع عائدات مبيعاتكم من النفط لدينا في أميركا.

ثانياً: عليكم إيداع عائدات مبيعات الغاز في فرنسا.

ثالثاً: عدم مناصرة المقاومة الفلسطينية.

رابعاً: عدم مناصرة إيران وحزب الله.

خامساً: لا مانع من تشكيل حكومة إسلامية، على أن تكون شبيهة بما لدى تركيا.

وافق الرئيس بوتفليقة على هذه الشروط متأملاً إخراج الجزائر من حالة القتل والفوضى التي كانت تعصف بالبلاد.

استطرد السفير الأميركي:

حسناً، سنتحدث بدورنا مع الأطراف المعنية كافة لإعلامها باتفاقنا.

سأل بوتفليقة:

ومن هي تلك الأطراف؟

فأجاب السفير:

فرنسا وإسرائيل والسعودية!

صعقنا من ذلك وتساءل بوتفليقة: وما علاقة هذه الدول بما يجري لدينا؟

أجاب السفير والابتسامة الصفراوية على وجهه:

السعودية هي التي تموّل شراء السلاح من إسرائيل، وتقوم إسرائيل بإرساله إلى فرنسا، وفرنسا بدورها ومن طريق بعض ضباط الجيش الجزائري المرتشين الذين يتعاملون معها، يوصلونها إلى الجماعات الإسلامية المتطرفة.

واستطرد السفير وسط دهشتنا:

سنُبلغ فرنسا وإسرائيل باتفاقنا، وعليكم إرسال شخص من طرفكم للتحدث إلى الملك عبد الله ملك السعودية، حيث سيكون أسهل إبلاغه من طريقكم، نظراً إلى صعوبة التفاهم معه.

على أثر ذلك طلب مني بوتفليقة السفر إلى السعودية لأجل هذه الغاية.

وصلت إلى السعودية بعد ترتيبات مسبقة، والقول لبن فليس، والتقيت الملك عبد الله وشرحت له ما تمّ من اتفاق مع الجانب الأميركي، وأنهم أي الأميركان طلبوا من بقية الأطراف وقف الدعم للمسلحين، والآن على السعودية وقف تمويل السلاح.

استغرق حديثي مع ملك السعودية عدة ساعات دون أن يوافق، وأصرّ على موقفه. عندها اتصلت بالسفير الأميركي وأعلمته بتشدد الملك السعودي وعدم موافقته على هذا الاتفاق.

أجابني السفير:

لا بأس، انتظر قليلاً، سأهاتف الملك شخصياً. لم تمضِ بضع دقائق حتى استدعاني الملك وهو يربت صدره قائلاً:

ابشر ابشر.

بعد ذلك بعدة أيام توقف الدعم والتمويل للإرهابيين، وزوّد الأميركان قواتنا المسلحة بإحداثيات لمواقعهم وأماكن وجودهم، حيث قضت قواتنا المسلحة عليهم خلال فترة بسيطة من الوقت.

وبعد ذلك صدر قانون الوئام الوطني الذي بموجبه جرى تطبيع الوضع في البلاد واستتبّ الأمن والأمان.

فيما بعد أعيد انتخاب بوتفليقة في ٢٠٠٤ لولاية رئاسية ثانية، وفي عام ٢٠٠٩ بدأ ولايته الثالثة، قبل أن يفوز بولاية رابعة من على كرسيّه المتحرك في أبريل عام ٢٠١٤، بحسب نتائج أعلنها وزير الداخلية الجزائري، الطيب بلعيز، الذي قال إن بوتفليقة حصل على ٥٣ , ٨١ من أصوات المقترعين.

ويختصر وزير الخارجية الجزائري الأسبق، أحمد طالب الإبراهيمي، الذي عمل مع بوتفليقة في فترة السبعينيات مرحلة حكم الأخير في جملة واحدة: «لا ينكر أحد أن البلاد عرفت في عهده إنجازات في البنى التحتية والمنشآت، لكنها في المقابل عرفت انهياراً كبيراً في الأخلاق والممارسة السياسية»، في إشارة إلى انتشار الفساد وتمييع الساحة السياسية.

وبعد عشرين عاماً من حكم الرئيس عبد العزيز بوتفليقة رشح نفسه لولاية خامسة وهو مقعد على كرسيه وكان لا يستطيع تحريك يديه ولا رجليه ولا شفتيه وكان يتنقل بين سويسرا والجزائر للعلاج ويبدو أن قوى الفساد ودون علمه هي التي أصرت على ترشيحه مستفيدة من ضعفه وعدم قدرته على قيادة البلاد والاستفادة من أخيه سعيد الذي أصبح حديث المجتمع، مما أدى إلى خروج الشعب الجزائري الى الشوارع والساحات على مدى خمس جمع متتالية[1] للمطالبة برحيل بوتفليقة ورموز حكمه باعتباره عاجزا عن تسيير أمور البلاد وتعيين رئيس مجلس الأمة رئيساً مؤقتاً لفترة انتقالية حتى تجري انتخابات رئاسية، وكان دور الجيش الوطني الجزائري صانع الرؤساء حاسماً في هذا التغيير بقيادة الفريق الركن أحمد قايد صالح الى أن تم انتخاب الرئيس عبد المجيد تبون بتاريخ ١٢ ديسمبر ٢٠١٩.

---

(١) واستمر الحراك ٤٢ جمعة الى شهر ديسمبر ٢٠١٩م قبل إجراء الانتخابات، وهذا الاسلوب اسلوب جيد للحراك الشعبي السلمي ان يتم التظاهر كل جمعة حتى لا يتعطل العمل في الدولة ومؤسساتها. وفي اليمن تعوّد المواطنون وقادة الحراك على استمرار المسيرات والمظاهرات أكثر من ١٢ سنة منذ ٢٠٠٧م أدت الى احداث شلل في جهاز الدولة ومؤسساتها وبلغت المليونيات أكثر من ٢٢ مليونية بتمويل خارجي من الدول الاقليمية. والشعب هو من يدفع الثمن من دمه وعمله وأمنه واستقراره.



كانت تربطني بالصديق بوتفليقة علاقة اخوية وقد التقيت معه أكثر من مرة في أبوظبي التي كان يقيم فيها وقبل عشرين عاماً ودعته وهو في طريقه الى الجزائر لاستلام كرسي الرئاسة وهو في كامل صحته وقواه العقلية وقد حزنت لما آل اليه وضعه حيث تدهورت صحته وسمعته وهو في آخر مشواره الطويل.



الفصل العاشر

قمة بغداد

لم تفاجئ بغداد أحداً بقرار دعوتها إلى عقد مؤتمر القمة العربية التاسعة على أرضها، فمنذ زيارة الرئيس السادات لإسرائيل في عام ١٩٧٧م التي توجت باتفاقيات كامب ديفيد وظروف الوطن العربي تزداد سوءًا وتعقيداً. والواقع أن الشعب العربي الذي قال (لا) لزيارة السادات للقدس، وقال (لا) لاتفاقيات «كامب ديفيد»، كان ينتظر أن تظهر سياسة عربية جديدة توقف التردي العربي عند حدوده.

مهمة ناجحة في دمشق

حين تبنّت بغداد عقد مؤتمر القمة فيها، كان لها أهدافها، والتحليلات السياسية تؤكد ذلك. فقد اتخذت موقفاً غريباً من جبهة دول الصمود والتصدي، وإذ شاركت في قمة طرابلس الأولى، فإنها رفضت الانضمام إلى الجبهة، كذلك لم تشارك في أيٍّ من مؤتمراتها اللاحقة. ولم تتوقف محاولاتها لتزعُّم العالم العربي بعد انكفاء مصر عن هذا الدور. الذين يعرفون السياسة العربية عن قرب، يعرفون وضع العلاقات السورية العراقية وما بين العاصمتين من منافسة وحساسية تاريخية وسياسية، ورغم ما بينهما من وحدة في الشعارات التي ترفعانها إلا أنه لا يمكن أن تترك إحداهما مكانها للأخرى، وغياب إحداهما عن الساحة من شأنه

أن يفتح الطريق للعاصمة الأخرى. ولذلك، فإن المنافسة بينهما دائماً شديدة، وكذلك الخلافات، مع أن توافق سورية والعراق كان من الممكن أن يكون قوة عظيمة لصالح القضية الفلسطينية، ويسهم في تغيير كثير من موازين القوى الحالية في المنطقة بحكم الجغرافيا والتاريخ وحكم الحزب الواحد الذي يحكم البلدين.

في ظروف خروج مصر من ساحة المواجهة مع إسرائيل، فإن الحاجة إلى مثل هذا التوافق أو الاتحاد كانت تزداد أهمية. فهي كانت ستشكل بلا شك سداً بوجه مطامح القوى الأجنبية، وكان في وسعها أن توقف التدهور في العالم العربي، وتنقله من حالة الضعف والانكسار. وهذا ما كنت أفكر فيه بعد أن رأيت أن أسس التضامن العربي القديم قد تفككت عملياً، وتزداد تصدعاً في كل يوم، ما كان يستدعي البحث عن أسس جديدة لانتعاش عام وشامل، لتدعيم التضامن العربي. انطلاقاً من هذا المبدأ، قمت في سبتمبر ١٩٧٨م على هامش قمة الصمود الثالثة بمهمة في دمشق لرأب الصدع في العلاقات السورية العراقية.

في الاتصالات التي أجريتها مع الرئيس حافظ الأسد، أبلغته استعداد العراقيين لفتح صفحة جديدة في العلاقات بين البلدين الشقيقين. استجاب الرئيس الأسد لوساطتي، وردّ على المقترحات التي حملتها من بغداد برسالة من (١٧) صفحة إلى الرئيس العراقي أحمد حسن البكر، أوضح فيها وجهة النظر السورية من مجمل القضايا، وآفاق تطور العلاقات بين البلدين، واستعداد سورية لأيّ تفاهم أو تعاون أو أية خطوة اتحادية أو وحدوية لتدعيم الموقف العربي.

أثمرت وساطتي التي قمت بها بين بغداد ودمشق، وأدت إلى انفراج حقيقي في علاقات البلدين الشقيقين، وإلى تبادل الوفود والزيارات، وتوجت بالزيارة التاريخية التي قام بها الرئيس حافظ الأسد لبغداد يوم ٢٤ أكتوبر ١٩٧٨م، حيث استقبل في عاصمة الرشيد استقبالاً رسمياً وشعبياً يليق بمكانته. وكانت مصادر سورية قد أعربت عن الأمل في أن تساعد محادثات الرئيس الأسد في بغداد في فتح صفحة جديدة في العلاقة بين القطرين الشقيقين. كذلك أعلنت سورية يوم ٢٢ أكتوبر ١٩٧٨م إعادة فتح حدودها البرية والجوية مع العراق. وتُوِّجت الزيارة بتوصل البلدين إلى (ميثاق العمل المشترك) بينهما.

خلال الإعداد للقمة العربية التاسعة في بغداد، اتصل بي الرئيس العراقي أحمد حسن البكر، وطلب مني التدخل لدى الرئيس حافظ الأسد لإقناعه بحضور القمة. كذلك طلب مني الاتصال بالرئيس الجزائري هواري بومدين والليبي معمر القذافي للغرض نفسه. أجريت اتصالاتي بالرؤساء الثلاثة، ووافقوا جميعاً على المشاركة في قمة بغداد.

هكذا تهيأت كل الظروف والأجواء لبغداد ليعقد فيها أول مؤتمر قمة عربي في تاريخها، وكان ذلك أيضاً أول مؤتمر قمة عربي أحضره، ويعتبر المؤتمر العاشر بين مؤتمرات القمة لجامعة الدول العربية منذ أن عقد أول مؤتمر قمة عربي في القاهرة في عام ١٩٦٤م بدعوة من الزعيم الخالد جمال عبد الناصر.

في مساء الثاني من نوفمبر ١٩٧٨م، بدأت أعمال القمة العربية التاسعة، انتُخب الرئيس العراقي أحمد حسن البكر رئيساً للمؤتمر، وحضرت المؤتمر كل الدول العربية عدا مصر. في الجلسة الأولى نوقشت «ورقة العمل» التي أعدها وزراء الخارجية العرب والتي تحدد كيفية مواجهة العدو الصهيوني، وتوحيد الموقف العربي من اتفاقيات «كامب ديفيد».

دور الملك حسين

قبل نهاية جلسات مؤتمر بغداد، طالب الملك حسين ملك المملكة الأردنية الهاشمية، بإلغاء القرار الخاص بتعليق عضوية اليمن الديمقراطية في جامعة الدول العربية. كانت الجامعة العربية، إثر قتل رئيس الجمهورية العربية اليمنية المقدم أحمد محمد الغشمي في ٢٤ يونيو ١٩٧٨م، وبتأثير الدول المتشددة في جامعة الدول العربية، قد اتخذت في اجتماعها الطارئ في القاهرة يوليو ١٩٧٨م قراراً بتعليق عضوية اليمن الديمقراطية في عضوية الجامعة العربية، وتجميد علاقات الدول التي شاركت في المؤتمر الطارئ بنا. وكانت السعودية تسعى إلى استصدار قرار بفصل بلادنا من الجامعة العربية، إلا أن دولاً أخرى، منها الكويت، عارضت ذلك، فاكتفى بتعليق العضوية.. وقد اعترضت بلادنا على القرار في حينه. لأن تلك القرارات لا تخدم تضامن الشعوب العربية ووحدتها بقدر ما تشكل بادرة خطيرة لتمزيقها».

وأثناء المؤتمر جرى التشاور مع الرئيس العراقي ونائبه وولي عهد المملكة العربية السعودية فهد بن عبد العزيز والملك حسين وعبد الحميد شرف رئيس الديوان الملكي الأردني والشيخ جابر الأحمد الصباح أمير دولة الكويت ووزير خارجيته، وفي نهاية الجلسة الختامية بادر الملك حسين برفع يده وطلب الكلمة، وطالب بإلغاء قرار تعليق العضوية وبارك المقترح أمير دولة الكويت الشيخ جابر الأحمد الصباح، وصفق صدام حسين مؤيداً. أما ممثل حكومة صنعاء القاضي عبد الكريم العرشي فقد صاح بصوت عال معترضاً على قرار المؤتمر بإعادة عضوية اليمن الديمقراطية إلى الجامعة العربية وكان يصيح بأعلى صوته: نقطة نظام.. نقطة نظام! لكن أحداً لم يعر اعتراضه أي انتباه وضاع صوته وسط التصفيق. وكنت جالساً إلى جانبه ولفت إليه ووضعتُ يدي على كتفه بطريقة ودية، وقلت له: لقد حسم الأمر بالتصفيق الحار، وفات قطار العزلة والحصار.

الكلمة الختامية

لا شك في أن اتخاذ موقف في قمة بغداد يشكل أمراً مهماً لليمن الديمقراطية، وتقديراً لدورها في إنجاح مؤتمر قمة بغداد. وتعبيراً عن ذلك، طُلب مني إلقاء الكلمة الختامية لمؤتمر بغداد نيابة عن الرؤساء والملوك العرب.

قلت في الكلمة الختامية للمؤتمر: «إن قرارات المؤتمر الهامة ستمكننا من صدّ المؤامرات والمخططات الصهيونية والإمبريالية ودعم النضال الفلسطيني وحقه في تقرير مصيره على أرضه». توجهت بالشكر إلى العراق رئيساً وحكومةً وشعباً، لاستضافتهم أعمال هذا المؤتمر، كذلك توجهت بالشكر إلى الملك حسين ملك الأردن الذي تقدم في نهاية المؤتمر بمقترح إلغاء القرار الخاص بتعليق عضوية اليمن الديمقراطية في جامعة الدول العربية.

وفي مؤتمر القمة اتّخذ قرار بإنشاء صندوق لدعم دول المواجهة، ووعدت الدول العربية الغنية بتقديم مبلغ (١,٨) مليار دولار لسورية سنوياً ولمدة عشر سنوات، و(١,٢) مليار دولار للأردن و(١٥٠) مليون دولار لمنظمة التحرير الفلسطينية و(١٥٠) مليون دولار

أخرى للفلسطينيين في الأراضي المحتلة و(١٠٠) مليون دولار للبنان، وهي وعود لم يُوفَ بها إلا جزئياً.

في تلك الأيام الحافلة بالنشاط والعمل من أجل ترميم العلاقات العربية، اجتمعتُ بالعديد من رؤساء الوفود العربية المشاركة في قمة بغداد. وبالإضافة إلى الرئيس العراقي أحمد حسن البكر، اجتمعت بعبد العزيز بوتفليقة ممثل الرئيس الجزائري هواري بومدين الذي لم يتمكن من حضور القمة بسبب اشتداد المرض عليه، وحين اتصلت به لإقناعه بحضور المؤتمر، تلقيت رداً من الجزائر بأنه خارج العاصمة، بينما كان في الواقع في حالة غيبوبة دائمة، وكما عرفت في وقت لاحق في رواية عن أحد المقربين منه، أنه رفض العلاج في فرنسا التي لم تعتذر للشعب الجزائري، وقال مقولته الشهيرة «ادفنوني حياً ولن أعالج في فرنسا». كذلك قابلت رئيس الوفد الليبي العميد أبو بكر يونس، وياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية، ومصطفى ولد محمد رئيس اللجنة العسكرية للإنقاذ الوطني ورئيس الحكومة الموريتانية، والشيخ زايد بن سلطان رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة، وإسماعيل أبو بكر نائب الرئيس الصومالي، والرئيس اللبناني إلياس سركيس الذي شكر لي موقفي من القضية اللبنانية، ودعم الشعب اللبناني الذي فتح أرضه للمقاومة الفلسطينية وتحمّل أعباءً كبيرة وخطيرة بسبب هذا الموقف. وقد ناقشت القمة المشروع الذي تقدمتُ به لتقديم جزء من المساعدة المالية التي قدمت إلى سورية والأردن ومنظمة التحرير الفلسطينية وقدّرت آنذاك بثلاثة مليارات وربع مليار دولار... إلى لبنان أيضاً.



الفصل الحادي عشر

اليمن الديمقراطية وجامعة الدول العربية

ترافق خروج المستعمر البريطاني من عدن مع كارثة حرب ٥ يونيو ١٩٦٧ التي أدت نتيجة إغلاق قناة السويس إلى تحول السفن عن استعمال ميناء عدن، والتحول إلى طريق رأس الرجاء الصالح، كذلك أدت مقاطعة العمال العرب في الميناء للبواخر الأميركية والبريطانية والالمانية الغربية إلى اجتناب السفن المرور بميناء عدن.

وهكذا ورثت البلاد الخارجة من معركة التحرير أعباء وضع اقتصادي محطم ومنهار، وتركة ثقيلة من التخلف الاجتماعي والثقافي.

وكانت بريطانيا قد التزمت تقديم معونة مالية على مدى ثلاث سنوات، إلا أن تنصلها فيما بعد من هذا الالتزام قد ترك البلاد الحديثة العهد بالاستقلال مفلسة تقريباً. وكانت جمهورية اليمن الجنوبية الشعبية قد تقدمت بطلب انضمام إلى الجامعة منذ اليوم الأول للاستقلال، وتواصلت المساعي في هذا الاتجاه بإرسال وفد - وصل إلى القاهرة يوم ٩/ ١٢/ ١٩٦٧ - مخول التوقيع على كل ما يتطلبه موضوع انضمام الجمهورية المستقلة حديثاً إلى جامعة الدول العربية.

ولهذا سعت الجمهورية الوليدة إلى طلب العون المادي العاجل من حكومات الدول العربية الشقيقة، وتلقت بهذا الخصوص الأمانة العامة مذكرة بتاريخ ٢٩/ ٢/ ١٩٦٨ تتعلق

بالوضع المالي المتعسّر لجمهورية اليمن الجنوبية الشعبية، مع بيان تفصيلي عن الخسائر الاقتصادية الناجمة عن إغلاق قناة السويس وتعطل الصناعة البترولية قدرت بما يقرب من ١٦ مليون جنيه إسترليني، وكذلك خسائر تصفية القاعدة العسكرية البريطانية وتسريح نحو ثمانية عشر ألف عامل التي قدرت بمبلغ ١٦ مليون جنيه أخرى، وطالبت المذكرة بعرض الوضع على مجلس الجامعة لتقديم العون العاجل إلى اليمن الجنوبي أسوة بالدول المتضررة من أحداث ٥ يونيو ١٩٦٧.

وجهت الأمانة العامة مذكرة بهذا الشأن إلى المجلس، وتجاوب مجلس جامعة الدول العربية مع المذكرة، وأصدر القرار (ق٢٣٨٧/ د ٤٩/ جـ٤- ٧/ ٣/ ١٩٦٨)، حيث أوصى بإحالة الموضوع على حكومات الدول الأعضاء استطلاعاً لآرائها في ما تستطيع تقديمه من عون، وتمهيداً لإعادة النظر في الموضوع، وقد اعترض على هذا القرار رئيس وفد المملكة العربية السعودية فقط مع الأسف.

وبإعادة عرض الموضوع على المجلس الاقتصادي في دور الانعقاد الثالث عشر، أوصى بأن يعرض على حكومات الدول العربية الوضع الحالي في جمهورية اليمن الجنوبية الشعبية على أثر تخلي بريطانيا عن التزاماتها، وقد تحفظ على هذا القرار رئيس الوفد السعودي أيضاً.

وأُعيد عرض الموضوع مرة أخرى على المجلس الاقتصادي في دور الانعقاد الرابع عشر، وأوصى بإدراج هذا الموضوع على جدول أعمال مجلس جامعة الدول العربية في دور انعقاده المقبل، ولم يتحفظ عن هذه التوصية سوى رئيس الوفد السعودي للمرة الثالثة.

وتقديراً للأوضاع الاقتصادية الصعبة لجمهورية اليمن الجنوبية الشعبية، قررت جامعة الدول العربية إعفاءها من دفع حصتها في ميزانية الأمانة العامة (قُدِّرَت حصة اليمن الجنوبي بنسبة ١٪ من الميزانية)، وقد ظل هذا التقليد معمولاً به منذ عام ١٩٦٨ وحتى قيام الوحدة في عام ١٩٩٠.

وبعد أن هدأ القتال ضد إسرائيل على الجبهتين السورية والمصرية عقب حرب أكتوبر ١٩٧٣، تقلص الدعم المالي العربي لدول المواجهة لمصلحة الدول الناشئة الأكثر فقراً،

وفي عام ١٩٧٤ قرر مجلس جامعة الدول العربية الموافقة على تقديم عون اقتصادي إلى جمهوريتي اليمن الجنوبي والشمالي – (ق ق ٧٦ / د٧/ -٢٩/ ١٠/ ١٩٧٤)، وقد تحفظ وفدا السعودية وعُمان على هذه التوصية، وكان لهذا (التمنُّع) عن مدّ يد العون لليمن الجنوبي من الدول الشقيقة المقتدرة مالياً آثاره السلبية البعيدة المدى في التحالف العربي– العربي.

وكلنا نعلم أن مصر جمال عبد الناصر سعت في الستينيات من القرن الماضي إلى بناء السد العالي على نهر النيل، لوقاية الوادي الخصيب من الفيضانات، ولتوفير الطاقة الكهرومائية لشعب مصر، وسعى جمال عبد الناصر إلى طلب المساعدة الفنية والأموال لتمويل المشروع من الولايات المتحدة الأميركية، إلا أن طلبه قوبل بالرفض، ما اضطره إلى التقرب من الاتحاد السوفياتي والتحالف معه، وهو ما أحدث تغييرات سياسية عميقة في المنطقة العربية دامت عقوداً عديدة، وكان الدرس المستفاد أنه لا أحد يقدر على أن يلوي ذراع الشعوب، وأن الإرادة المصرية – رغم العراقيل الهائلة – نجحت في إنجاز مشروع السد العالي، وصار الحلم حقيقة واضحة للعيان.

وعلى المنوال نفسه سارت الأمور مع اليمن الجنوبي، فهذا البلد الخارج تواً من الاحتلال البريطاني، كان في طور تأسيس الدولة ومؤسساتها، ويبحث عن مخرج لأزمته المالية الناشئة عن أسباب خارجة عن إرادته – إغلاق قناة السويس وتضاؤل حركة الملاحة البحرية – وكان لرفض الدول العربية الشقيقة تقديم العون المالي إلى اليمن الجنوبي في هذه الظروف الحرجة دور كبير في الاتجاه نحو الكتلة الشرقية، وعقد تحالف استراتيجي وثيق مع الاتحاد السوفياتي. وبالتالي حدث شرخ سياسي عميق بين النظام في اليمن الجنوبي والأنظمة العربية الأخرى في شبه الجزيرة العربية، وهو ما أعاق بصورة مؤسفة أوجه التعاون الاقتصادي والسياسي والثقافي زمناً طويلاً، وخلق جواً من العداء لا مبرر له، وكان يمكن منذ البداية لو صَلُحت النيات أن تحلّ المشاكل داخل البيت العربي، وهو حل يضع التضامن العربي موضع التطبيق.

وعلى كل حال، لم تقتصر عضوية اليمن الجنوبي في جامعة الدول العربية على هذا الجانب فقط، فهي أيضاً أسهمت بفاعلية في الصراع العربي – الصهيوني المحتدم

عقب حرب ٥ حزيران/ يونيو ١٩٦٧، ويمكننا أن نسوّق مثالاً على ذلك المذكرة برقم د ٥٨/ ٢/ ١٢ وتاريخ ٢٣/ ٨/ ١٩٧٢ التي بعثت بها وزارة خارجية اليمن الديمقراطية الشعبية إلى الأمانة العامة لجامعة الدول العربية في القاهرة تنبه إلى خطورة الوضع في جنوب البحر الأحمر الناجم عن النشاط العدواني على الجزر اليمنية فيها، وتطلب إدراج الموضوع على جدول أعمال الدورة الثامنة والخمسين لمجلس الجامعة. وتجدر الإشارة إلى أن الموضوع سبق أن عرض على مجلس الجامعة خلال ثلاث دورات تحت عنوان: زيارة بعثات عسكرية إسرائيلية لبعض الجزر الإثيوبية جنوب البحر الأحمر، واتخذ المجلس عدة قرارات كان آخرها القرار رقم ٢٨٧٦ في الدورة السابعة والخمسين الذي يحثّ الدول الأعضاء ذات العلاقات الطيبة مع إثيوبيا على بذل مساعيها للعمل على الحدّ من تغلغل النفوذ الصهيوني في جزر البحر الأحمر، مع بيان خطورته على العلاقات الإثيوبية العربية.

مصرع الرئيس الغشمي

أثار مصرع الرئيس اليمني الشمالي (أحمد حسين الغشمي) بالحقيبة الدبلوماسية عام ١٩٧٨ عاصفة من الجدل العنيف في أروقة جامعة الدول العربية، وعلى خلفية تطورات الموقف الموشك على التفجر بين الجمهوريتين اليمنيتين، عقد مجلس الجامعة اجتماعاً طارئاً يومي ١ و٢ / ٧/ ١٩٧٨ وأصدر القرارات الآتية:

١- شجبه الشديد لاغتيال الرئيس أحمد حسين الغشمي.
٢- إدانته لكل من قام أو شارك في تخطيط جريمة الاغتيال وتنفيذها.
٣- تجميد العلاقات السياسية والدبلوماسية بين الدول الأعضاء وجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية.
٤- وقف العلاقات الاقتصادية والثقافية والمعونات الفنية التي تقدمها الدول العربية إلى جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية.
٥- أن يعيد مجلس الجامعة النظر في هذه الإجراءات عندما تقوم حكومة جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية باحترام أحكام ميثاق جامعة الدول العربية.

وبذلت الأمانة العامة لجامعة الدول العربية جهداً كبيراً في الاتصال بالأطراف المعنية على أمل معالجة الموقف المتدهور بين جنوب اليمن وشماله، وكانت التوترات وتصاعد الأحداث يصلان أولاً بأول إلى جامعة الدول العربية، ويمكننا رصد ذلك من خلال العديد من المذكرات التي رفعت من قبلنا إليها عن الحشود الشمالية تجاه بلادنا.

في ١٠/٧/١٩٧٨: بعثت منظمة التحرير الفلسطينية بمذكرة تضمنت قيام المنظمة بدور الوساطة بين الدولتين للحيلولة دون نشوب قتال بينهما، ورحبت بها بلادنا، فيما رفضتها صنعاء لأنها ترى أي وساطة بين البلدين أمراً غير وارد على الإطلاق من أية جهة كانت.

في ٦/٣/١٩٧٩: عقب نشوب الحرب بين النظامين في صنعاء وعدن عام ١٩٧٩ قامت الجامعة بدور حاسم في فضّ النزاع بين الشطرين، واستعرض مجلس جامعة الدول العربية المنعقد بالكويت في دورة استثنائية الوضع القائم بين الدولتين، وخطورة الأحداث المؤسفة بينهما، وما يمكن أن تلحقه من أضرار بالأمة العربية وكل من صنعاء وعدن، فكان أن أصدر المجلس القرار (ق ٣٧٩٦/ د ط / ج٣- ٦/ ٣/ ١٩٧٩) الذي تضمن ما يأتي:

١- الموافقة على الاتفاق الذي جرى التوصل إليه بين دولتي اليمن من طريق لجنة الوساطة العربية المؤلفة من ممثلي سورية والعراق والأردن.

٢- البدء فوراً بتنفيذ هذا الاتفاق وانسحاب القوات المسلحة للطرفين خلال مدة أقصاها عشرة أيام.

٣- الامتناع عن التدخل في الشؤون الداخلية من قبل أي فريق لدى الفريق الآخر ومن قبل أي طرف ثالث.

٤- وقف الحملات الإعلامية من قبل الطرفين.

٥- فتح الحدود بين البلدين وإعادة العلاقات الطبيعية بينهما، بما في ذلك العلاقات التجارية وانتقال الأفراد.

٦- تشكيل لجنة متابعة تشرف على تنفيذ هذا القرار، مؤلفة من وزراء خارجية الدول

الآتية: الأردن، الإمارات، الجزائر، سورية، العراق، فلسطين، الكويت، والأمين العام لجامعة الدول العربية.

٧- تشكيل لجنة إشراف عسكرية من ممثلي البلدين ودول لجنة المتابعة.

٨- للجنة المتابعة الحق في دعوة مجلس جامعة الدول العربية لعرض أي تطور يتعارض مع هذا القرار من أجل تحديد المسؤولية.

٩- تقدم لجنة المتابعة كما يقدم الأمين العام تقريراً في أول اجتماع لمجلس الجامعة يتضمن عرضاً لمراحل تنفيذ هذا القرار.

والجدير ذكره أن الجلسة التي اتخذ بها هذا القرار التاريخي رفعت قرابة الساعة الثالثة فجراً من صباح يوم ٦/ ٣/ ١٩٧٩ بعد جلسات طويلة جداً عُقدت خلال يومي - ٤ و٥ / ٣/ ١٩٧٩ - استهلكت في الجدل الصاخب والردود المتشنجة وتبادل الاتهامات، إطلاق الشائعات والتكهنات، إلا أن الجلسة الختامية شهدت أيضاً إلى جانب الاتفاق على صيغة القرار تسابقاً بين الدول الأعضاء لتقديم بعضها الاعتذارات لبعض، وعودة مياه المحبة والدفء الأخوي إلى مجاريها الطبيعية.

الفصل الثاني عشر

العمل الإسلامي الجماعي
بين قمتي لاهور والطائف

استقبل الرئيس سالم ربيع علي يوم الثلاثاء ١١ فبراير ١٩٧٤م، القائم بأعمال سفارة باكستان الإسلامية السيد حامد علي خان، الذي سلّمه رسالة من رئيس الوزراء الباكستاني ذو الفقار علي بوتو، تتعلق بدعوة للرئيس ربيع إلى المشاركة في القمة الإسلامية التي ستعقد في لاهور في ٢٢ فبراير من العام نفسه.

كانت أول دعوة توجه إلى اليمن الديمقراطية لحضور قمة إسلامية، إذ إن بلادنا لم تُدعَ إلى القمة الإسلامية الأولى التي عقدت في الرباط عام ١٩٦٩م إثر حريق المسجد الأقصى، رغم أن اليمن الديمقراطية كانت الدولة العربية والإسلامية الوحيدة التي قطعت علاقاتها الدبلوماسية مع الولايات المتحدة الأميركية بسبب ذلك الحريق!

عقد مجلس الرئاسة اجتماعاً لمناقشة موضوع حضور الرئيس ربيع مؤتمر القمة الإسلامي بلاهور، وكان رأيه ألّا نشارك في المؤتمر، لكنه لم يُبدِ أسباباً مقنعة تستوجب رفض الدعوة أو عدم المشاركة، وعندما أصرّ على موقفه، عرضنا أمر الذهاب على عبد الفتاح إسماعيل الأمين العام للجبهة القومية والعضو الثاني في مجلس الرئاسة، لكنه أيضاً

رفض، متذرعاً بأنه ليس رئيس دولة، وأن وجوده سيبدو غريباً! قلنا له إن العقيد القذافي يقول إنه ليس رئيس دولة ومع ذلك سيشارك في المؤتمر، لكنه أصرّ على موقفه.

وكان رأيي ضرورة مشاركتنا في المؤتمر الإسلامي، باعتبارنا جزءاً لا يتجزأ من الأمة العربية والإسلامية. وإن عدم الحضور سيكون خطأً وزيادة في عزلتنا، وحضورنا سيؤكد التزامنا الثابت والعميق والمنطقي بأننا جزء من الأمة العربية والإسلامية. لقد نشر اليمانيون على كاهلهم الدعوة الإسلامية، مقدمين للإسلام على امتداد تاريخه الرجالات الكبار في مجالات العلم والثقافة والدين والمقاتلين، ناشرين قيم الخير والعلم والأخلاق والتضحية... ولهذا من غير المنطقي أن نتخلف نحن عن حضور قمة إسلامية ستبحث في قضايا المسلمين وهمومهم في العصر الراهن.

في الأخير، اتخذ القرار بالمشاركة في مؤتمر لاهور برئاستي.

القمة الأولى

كان أول مؤتمر قمة في حياتي أحضره على هذا المستوى الرفيع. كانت تجربة مهمة بالنسبة إليّ على الصعيد الشخصي، إذ أكسبتني معرفة وخبرة جديدة لم تكن متاحة لي من قبل، كذلك هيأت لي فرصة التعرف على عدد من قادة العالم العربي والإسلامي وزعمائه لأول مرة، خصوصاً من دول الخليج العربي.

لأول مرة سألتقي الشيخ زايد بن سلطان رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة، والملك فيصل، ملك السعودية، وأمير البحرين، وحاكم قطر وذو الفقار علي بوتو رئيس وزراء الباكستان، ومجيب الرحمن رئيس جمهورية بنغلادش وغيرهم، وقد كانت المشاركة مهمة لبلادنا، التي طالما اتهمت بالشيوعية، وكان حضورنا يختزل مسافات من التشويهات التي لحقت ببلادنا ونظامنا الوطني.

حرصت في لاهور على أن ألتقي القاضي عبد الرحمن الإرياني رئيس المجلس الجمهوري في صنعاء، وخصصنا لقاءنا للأمور التي تهمّ اليمن ووحدتها وكذا القضايا التي سيناقشها مؤتمر القمة الإسلامي، واجتمعت أيضاً بالرئيس حافظ الأسد، وبأمير دولة

الكويت الشيخ صباح سالم الصباح، والرئيس الجزائري هواري بومدين، وتقي الدين الصلح رئيس وزراء لبنان، وسواهم.

الاهتمام الذي أبداه ذو الفقار علي بوتو بوفدنا كان كبيراً. فقد حرص على الاجتماع بي فور وصولي إلى لاهور، وبحث معي القضايا المتعلقة بإنجاح المؤتمر، بالإضافة طبعاً إلى علاقات البلدين. ومن وجهة نظري، يعود هذا الاهتمام إلى عدة أسباب، منها أن اليمن الديمقراطية كانت صديقة للصين الشعبية من وجهة نظره، وكانت باكستان أقرب في صداقتها إلى الصين مقابل صداقة الهند للاتحاد السوفياتي. أما السبب الأهم فقد كان يتعلق بأن الباكستان دولة مضيفة للمؤتمر، وكانت حريصة على ألّا تكون مشاركتنا سبباً في تعكير أجواء القمة، خصوصاً أن بوتو كان يعلم بالخلافات بين بلادنا والسعودية، ورجاني في اليوم الأول لوصولي، عندما التقينا، عدم إثارة أي شيء قد يفهم منه الإساءة إلى دول الخليج والجزيرة، ما قد يسبب تعكير الأجواء. وقد احترمت رغبة علي بوتو والدولة المضيفة، وألقيت في المؤتمر كلمة معتدلة على غير عادتنا في مهاجمة الإمبريالية والدول الرجعية.

حضر مؤتمر القمة الإسلامي الثاني وفود تمثل (٣٧) دولة إسلامية، وقد افتتح أعماله يوم الجمعة ٢٢ فبراير واختتم أعماله يوم ٢٤ فبراير ١٩٧٤، وألقى ذو الفقار علي بوتو كلمة نوّه فيها بأهمية التضامن الإسلامي في مثل هذه الظروف التي يجتازها العالم. وتحدث في الجلسة أيضاً الرؤساء العرب: حافظ الأسد وأنور السادات ومعمر القذافي. وفي كلمتي حيّيت رئيس المؤتمر والحكومة الباكستانية على الجهود التي بذلوها لعقد المؤتمر وإنجاحه، وأشدت بقرار الحكومة الباكستانية الاعتراف بدولة بنغلاديش، وجاء فيها:

«إن قراركم الحكيم والشجاع الذي ينمّ عن الروح الواقعية والشجاعة باعترافكم ببنغلاديش لقرار يستحق منا كل التقدير، وأكسب المؤتمر أهمية خاصة، وإنه لمن دواعي السرور أن يشاركنا الأخ مجيب الرحمن في مؤتمرنا التاريخي هذا... إن لقاءنا في مدينة لاهور يمثل ولا شك بداية جادة لنشاط إسلامي واسع يعزز وحدة الشعوب الإسلامية وحقها في الحياة الكريمة».

بعد ١٧ عاماً كاملة من زيارتي لاهور وحضور مؤتمر القمة الإسلامي والتقائي رئيس

وزراء الباكستان الراحل ذو الفقار علي بوتو بحضور السيدة زوجته نصرت بوتو وابنيه بنازير، ومرتضى، تجدد لقائي بأسرته هذه المرة في منزل ابنة مرتضى علي بوتو في مدينة دمشق وفي حيّ المزة مع أرملة السيد علي بوتو الذي أعدم بتدبير من خصمه ضياء الحق، حيث تفرقت أسرته بين عدة عواصم، واستقرّ بها المقام أخيراً في دمشق ضيوفاً على الرئيس السوري الراحل حافظ الأسد.

وقد استعدنا ذكريات لقائنا الأول في لاهور، والمحنة التي أصابت العائلة بعد إعدام ذو الفقار علي بوتو في ٣ أبريل ١٩٧٩، وصمود العائلة في وجه كل هذه العواصف التي لم تثن ابنته عن خوض المعركة والعودة إلى رئاسة الحكومة في باكستان عام ١٩٩٠م. استغرقت مشكلة كشمير حيّزاً كبيراً من حديث السيدة نصرت بوتو، حيث رفضت الهند التخلي عن جزء كبير من كشمير التي يعيش فيها أكثر من خمسة ملايين مسلم. وقد حاولت أن أشرح لها أن الظروف والوضع اليوم يختلفان عن عام ١٩٧١م من النواحي السياسية والعسكرية والاقتصادية والجغرافية، وأن الحل السلمي والحوار هما الأجدى في ظل هذه المتغيرات الدولية لحلّ النزاع الهندي - الباكستاني حول كشمير.

السيدة نصرت من أصل فارسي، وكانت تبلغ حين حصل هذا اللقاء الرابعة والستين من عمرها، قوية، وأنيقة، ومتحدثة لبقة، وكانت تبدو في ملابسها الوطنية وحركتها كأنها الطاووس.

وكان ابنها (مير) متزوجاً امرأة أفغانية، ولكنه طلقها. أما أخوه المتوفى، فقد كان متزوجاً أختها، وقد نصح بأن يطلقها بعد أن اكتشف أنها وأختها تعملان ضدهما لحساب جهات أجنبية. بعد ذلك بسنوات عاد مرتضى إلى باكستان ولقي مصرعه على يد الشرطة الباكستانية خلال فترة حكم أخته بنازير بوتو. ويبدو أن اللعنة قد حلّت بهذه الأسرة كما حلّت قبل ذلك بأسرة آل كينيدي وأسرة نهرو. واستمرت اللعنة تلاحقهم حتى نالت من بنازير بوتو رئيسة الوزراء السابقة في ٢٧/ ١٢/ ٢٠٠٧م، حيث ذهبت ضحية تفجير أودى بحياتها بعد عودتها من منفاها في الخارج.

قمة الطائف

القمة الإسلامية الثالثة التي شاركت فيها، عقدت بمدينة الطائف في المملكة العربية السعودية خلال الفترة من يناير ١٩٨١م. هذه المرة حضرتها بوصفي رئيساً لدولة اليمن الديمقراطية. ولم يثر أحد اعتراضات على الاشتراك هذه المرة، بعد أن نشأ وضع جديد في علاقتنا بالسعودية ودول المنطقة الخليجية بعد سياسة الانفتاح التي اتبعناها بدءاً من عام ١٩٨٠م عندما قمت بجولة سياسية شملت أهم دول المنطقة في الجزيرة والخليج. وكانت مكانة اليمن الديمقراطية قد بدأت تتوطد في أسرة الدول العربية الإسلامية.

كان مؤتمر الطائف وما حدث فيه مناسبة جيدة للتحقق من هذا الوضع. الأشقاء السعوديون استقبلونا بحفاوة وتكريم، سواء الملك خالد أو ولي عهد المملكة الأمير فهد. عقدت أولى اللقاءات بأمير دولة الكويت الشيخ جابر الأحمد الصباح، ورئيس دولة الإمارات العربية المتحدة الشيخ زايد بن سلطان، والرئيس الصومالي سياد بري، والرئيس علي عبد الله صالح، والرئيس الباكستاني ضياء الحق الذي دار الحديث معه حول الوضع في المنطقة وضرورة حلّ الخلافات بين بلاده وأفغانستان بالطرائق السلمية والحوار المسؤول بما يخدم مصلحة الشعبين. كذلك التقيت جوكوني عويدي رئيس الحكومة الانتقالية في تشاد، والرئيس الجزائري الشاذلي بن جديد والرئيس العراقي صدام حسين.

كان مؤتمر الطائف مثار اهتمام عالمي، بعد أن أخذت منظمة المؤتمر الإسلامي تمارس دوراً في الحياة الدولية، وفي خدمة قضايا العالم الإسلامي والدفاع عنها، ومنها قضية فلسطين.

ألقى كورت فالدهايم (الأمين العام للأمم المتحدة)- لأول مرة كلمة في المؤتمرات الإسلامية عرض فيها الأوضاع الدولية الراهنة، وأشاد بمساهمة منظمة المؤتمر الإسلامي في الحياة الدولية، وبدعم منظمة الأمم المتحدة. وأعرب عن القلق الشديد الذي تشعر به منظمة الأمم المتحدة تجاه تصعيد العنف والإرهاب في بعض مناطق العالم. وبذلك انتزعت منظمة المؤتمر الإسلامي التي أُنشئت في عام ١٩٦٩ في الرباط بالمغرب لنفسها اعترافاً دولياً بها. وألقى كلمة رئيس المؤتمر ولي عهد المملكة الأمير فهد، كذلك أدار أعمال المؤتمر،

واستمع المؤتمرون إلى خطاب الملك الحسن الثاني ملك المغرب بشأن «وثيقة القدس» التي تقدم بها إلى المؤتمر اجتماع وزراء خارجية الدول الإسلامية، باعتباره رئيس لجنتها.

وألقيتُ كلمة في اجتماع الملوك والرؤساء اختصرت فيها موقف اليمن الديمقراطية من القضايا المعروضة التي وألقيتُ في القمة الإسلامية الثالثة بالطائف، وقلت: «إن انعقاد مؤتمرنا يساير تطلعات شعبنا اليمني وجهوده نحو السلام والاستقرار والتعاون بين بلدان منطقتنا القائم على أساس الاحترام المتبادل للاستقلال والسيادة الوطنية وعدم التدخل في الشؤون الداخلية». ودعوت إلى عقد مؤتمر سريع على مستوى القمة لدول الخليج العربي والجزيرة العربية والقرن الإفريقي وكل الأطراف المعنية للبحث في قضية تصفية المنطقة تصفية شاملة من القواعد الأجنبية والأساطيل الحربية. كذلك وجهت الدعوة مجدداً إلى أشقائنا العراقيين والإيرانيين «باللجوء إلى الحوار لمعالجة المشاكل بينهما»... وأشرت إلى قضية أفغانستان التي كانت أيامها من القضايا الساخنة، وأكدت ضرورة البحث عن حلّ سياسي يضمن استقلال وسيادة أفغانستان وعدم انحيازها وعدم التدخل في شؤونها الداخلية.

لكن توجهات المؤتمر كانت غير ذلك، فقد اتخذت قمة الطائف قراراً يدين الحكومة الأفغانية في كابول والتدخل السوفياتي في أفغانستان، وأصدرت قرارين ضد إثيوبيا، أولهما يتضمن الوقوف إلى جانب الإريتريين ويناشد دعمهم في صراعهم مع الحكومة الإثيوبية في أديس أبابا. والثاني يدعم الصومال ويؤيدها في صراعها مع إثيوبيا.

غير أنني اعترضت على كلا القرارين ضد أفغانستان وإثيوبيا، معلناً تحفظي أمام المشاركين في المؤتمر جميعاً، ما أثار غضب البعض من قادة الدول الإسلامية وقادة المجاهدين الأفغان. فمن هذا الذي يجرؤ في الطائف وفي مؤتمر قمة إسلامي على أن يعترض ويقف موقفاً يبدو لأغلبية الحاضرين أنه إلى جانب غير المسلمين؟! غير أنني كنت أرى أن المشاكل من هذا النوع لا تحلّ بالقرارات والإدانات لهذا الطرف أو ذاك من أطراف الصراع، لأننا محكومون برؤية المشاكل من بعض الزوايا فقط، بينما الحوار والبحث

عن حلّ بالطرائق السلمية من الأطراف المعنية يكسر حدة الانفعالات ويساعد على رؤية المشاكل من جميع الزوايا، وبالتالي يصبح الحلّ ممكناً ومتاحاً مهما كانت المشكلات شديدة التعقيد.

وكان الموقف الذي اتخذته في «قمة الطائف» ضد قـرارات الإدانـة للسوفيات والإثيوبيين والأفغان أظهرني في موقف المعترض الوحيد على قرارات تلقى إجماع معظم المؤتمرين. غير أن الأمر لم يكن كذلك تماماً، فقد تحفظ عن القرارات نفسها رؤساء كل من سورية والجزائر وياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية، لكن بصورة غير معلنة، إذ قدموا تحفظاتهم «المكتوبة» إلى سكرتارية المؤتمر، بينما أعلنت أنا موقفي على رؤوس الأشهاد، ما أذهل المؤتمرين لأنهم عدّوه موقفاً غير معهود، أو أقله غير متوقع.

كان وفدنا قد أجرى أعمالاً تنسيقية مع بعض الدول العربية ورؤساء الوفود المشاركة وخصوصاً دول «جبهة الصمود والتصدي» بهدف التعاطف مع الحكومتين الأفغانية والإثيوبية، والوقوف ضد أية قرارات بإدانتهما، لكن طريقة كل منا في التعبير اختلفت. فبينما فضلوا هم السرية، اخترت أنا الطريق العلني.

وجد الرئيس علي عبد الله صالح ضالته في ذلك، فقال لي خلال الاستراحة: ألا ترى أنكم، التقدميين، يخذل بعضكم بعضاً، فلم يساندك أحد في موقفك، بينما نحن وأصحابنا ننسّق أفضل منكم؟!

في اليوم التالي، سبر حقيقة مشاعري الشيخ زايد بن سلطان، فقال لي بمشاعره الدافئة التي جذبتني إليه منذ أول لقاء لنا في لاهور: ها يا أخ علي، هل ما زالت عندك تحفظات أخرى؟!

أجبته: يا شيخ زايد، إذا كان هناك ما يستوجب التحفظ، فسأفعل ذلك من غير تردد، حتى ولو بقيت وحدي في هذا الموقف.

ردّ الشيخ زايد: أريد أن أقول لك بصراحة، لقد احترمتك أمس لأنك سجلت موقفاً من

الصعب أن يقف مثله شخص آخر في هذا المؤتمر، لأنك طالبت بالحوار وحلّ المشاكل سلمياً بين أفغانستان والمجاهدين وبين إثيوبيا وأريتريا وبين الصومال وإثيوبيا.

مرت السنون وانتصر المجاهدون على السوفيات وعلى نظام كابول، وشهدت كابول أخطر المعارك وأشرسها في تاريخ أفغانستان والتهمت الحرب الأخضر واليابس، وكان الحوار السلمي والحلّ السلمي الذي دعوت إليه قبل ١٧ عاماً هو الذي كان سينقذ أفغانستان من الدمار.

المهم أن هذه الحرب التي دارت رحاها على الأرض الأفغانية بقيادة وكالة المخابرات المركزية الأميركية أرادتها رداً على هزيمتها في فيتنام عام ٧٥م، وكان وقود هذه الحرب الشعب والجيش الأفغاني والجنود السوفيات والأفغان العرب، والمال العربي هو السلاح الذي استخدم في حسم المعركة.

وأكرر الآن أن هذه القوى من المجاهدين العرب والأفغان ومن يسمون اليوم بالإرهابيين خاضت هذه الحرب نيابة عن الولايات المتحدة الأميركية، واصطدمت بها فيما بعد، بعد احتلالها أفغانستان عقب أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م، وبعد أن أصبح صديق الأمس عدو اليوم!!

مواجهة ودية مع قابوس

أما آخر ما حدث لي في الطائف، فكان مناسبة جيدة تتعلق بأول لقاء بيني وبين السلطان قابوس، سلطان عمان. فبعد انتهاء أعمال المؤتمر، أخذ الرؤساء والملوك بمغادرة القاعة واحداً تلو الآخر، ولم يبقَ فيها سواي والرئيس علي عبد الله صالح، بالإضافة إلى الشيخ زايد والسلطان قابوس. بعد قليل غادر الشيخ زايد، وتبعه علي عبد الله صالح، لكنه قبل أن يخرج قال لي وهو يضحك: يظهر أنك ستبقى أنت وقابوس وحدكما!

حدث أن نادوني قبله، وكان يجلس في مكان لا أستطيع معه تفادي السلام عليه، فنهضت، وخطوت باتجاه الباب، محاولاً قياس ردّ فعله، وأصبحت قريباً منه. وقبل خطوة

أو خطوتين نهض السلطان قابوس من مقعده وتقدم نحوي خطوتين، مادّاً يده بالسلام، وتقدمت إليه. كان يقف مبتسماً، وتصافحنا. وبادرني بالسؤال:

أأنتم مسافرون الآن؟ فأجبته: نعم.

قال: أتمنى لكم التوفيق، وأرجو أن نلتقي عما قريب. قلت: إن شاء الله.

تصافحنا مرة أخرى قبل مغادرة القاعة. وكان هذا أول لقاء بيني وبين السلطان قابوس، وبداية تطبيع العلاقة بين اليمن الديمقراطية وسلطنة عمان.



الفصل الثالث عشر

الثورة الفلسطينية وحركات التحرر الوطني

كان من بين أبرز السياسات التي رسّختها جمهورية اليمن الجنوبية الشعبية بعد انتصار الثورة وقيام الدولة عام ١٩٦٧م، دعم حركات التحرر الوطني، وتبني قضاياها، واحتضان رموزها وأطرها وتقديم كل أشكال الدعم المعنوي والمادي والإسناد، والتضامن معها. وكانت الدولة الوليدة تنطلق في الأساس من إيلاء اهتمام خاص للحركة الوطنية في صنعاء ورفدها بكل أشكال الدعم.

أبدت الجمهورية الوليدة في هذا السياق الاهتمام بدعم قضايا الشعوب العربية بدءاً بالجوار، ثم اتسعت دائرة التضامن لتشمل سائر البلدان العربية في الخليج وبلاد الشام والقرن الإفريقي، مروراً بدعم حركات التحرر ومساندتها في جنوب إفريقيا وزامبيا، وانتهاءً بالحركات التحررية في البلدان الأبعد عن قوس البلدان المحيطة باليمن، زابو وزانو في روديسيا زيمبابوي، وحركات التحرر في نيكاراغوا والسلفادور، وحركة التحرر في الفيليبين وفيتنام. ولم تكن سياسة التضامن محض بيانات ولقاءات بروتوكولية في الصحافة ووسائل الإعلام، بل تجلت وتجسدت بتقديم كل أشكال الدعم الملموس وأكثرها فاعلية وتأثيراً، بدءاً بالمال وجوازات السفر، واستقبال الطلبة للالتحاق بمختلف مؤسسات التعليم والمعاهد العلمية للحزب، وإيواء الفارين من الإرهاب وتوفير مستلزمات عيشهم،

وتقديمهم إلى المحافل والمنظمات الدولية، وصولاً إلى تقديم السلاح وإقامة المعسكرات والتدريب فيها. لم تكن قيادة الحزب والجمهورية تدّخر وسعاً لحماية ضيوفها المناضلين والدفاع عنهم، حتى إذا أدى ذلك إلى الاختلاف مع أنظمتهم ودولهم، كما جرى في حادثة أستاذ جامعة عدن العراقي توفيق رشدي الذي تعرض للخطف والقتل على أيدي رجال المخابرات العراقية. ولم يكن ذلك بمعزل عن الهيبة التي اكتسبتها الجمهورية وقيادتها، التي كانت تكمن في التفاف جماهير الشعب حولها، وكذلك الدعم والتضامن والإسناد الذي حظيت به من قبل كل قوى التحرر والتقدم والاشتراكية في العالم.

فأصبحت عدن قبلة الثوريين والتقدميين العرب على اختلاف انتماءاتهم وميولهم السياسية والفكرية، ما حمّل الجمهورية الفتية أعباء كانت تفوق إمكاناتها وطاقاتها المحدودة. بهذا المعنى، كانت الجمهورية التي لم تكن بالمعيار والاستراتيجية التقليدية دولة تشكل وزناً استثنائياً، تتحول بفعل السياسة الثورية والدور الريادي، إلى دولة ذات موقع استراتيجي على الخريطة السياسية، يثير قلق الولايات المتحدة وحلفائها، ما دفعهم إلى العمل بكل الوسائل لمحاصرة الجمهورية وإثارة القلاقل حولها، وحبك النشاطات العدوانية، بما فيها العسكرية لوأد الجمهورية، وتصفية نظامها التقدمي. وغدت اليمن الديمقراطية، وفقاً لمنظور الولايات المتحدة، خطراً على منطقة مصالحها الحيوية في الخليج، حتى وصفها محمد حسنين هيكل بـ«الدولة المشاغبة» في المنطقة العربية والبحر الأحمر! وكذلك رأت فيها أنظمة عربية محافظة «دولة إرهابية» تهدد أمن المنطقة ومصالح الغرب في باب المندب والبحر الأحمر والمحيط الهندي وبحر العرب وجزيرة العرب ومخزونها النفطي الهائل.

وقد عبّر الملك فيصل مختزلاً ذلك كله: «إننا لن نسمح لهذا النظام بإشعال الحريق في خيمة شبه الجزيرة العربية»! وهددت أميركا بأنها لن تسمح هي الأخرى لعدن بتجاوز حدودها والتلاعب بأمن المنطقة والمصالح الحيوية للولايات المتحدة وحلفائها. وقد شهدت الأوضاع حول اليمن الديمقراطية المزيد من التأزم والتعقيد بعد الاعتراف بجمهورية ألمانيا الشرقية، حيث وجهت اتهامات صريحة بانخراط عدن في فلك الأنظمة الشيوعية، واتخذت هذه الاتهامات المشفوعة بالوعيد طابع نشاطات عسكرية على حدود

البلاد مع صنعاء والرِّياض وعُمان، حيث تكدست مخازنها بالسلاح وشرعت في تحركات عسكرية، وسُخِّر الإعلام المعادي من خلال وسائله للتحريض على الجمهورية وقيادتها والدعوة لزعزعة النظام وإطاحته، ومحاصرته اقتصادياً وسياسياً على المستويين العربي والدولي.

غير أن كل ذلك اصطدم بجبهة شعبية داخلية متماسكة في الجنوب التفّت حول قيادتها، وبالتضامن العربي الذي ضمّ كل القوى والأحزاب والأوساط السياسية المتعاطفة التي وقفت بحزم مع اليمن الديمقراطية وضد الهجمة الخارجية عليها، وتحولت حركات التحرر في شمال اليمن والخليج والمنطقة العربية عموماً إلى سياج وخط دفاع أمامي لها. لم تعد الجمهورية الفتية تخشى هذه القوى مجتمعة، بعد أن حصّنت نفسها داخلياً بالتفاف شعبي حولها، ووفرت خطوطاً دفاعية لها داخل البلدان المجاورة، وعززت تحالفاتها على الصعيد العربـي ومع حركات التحرر في آسيا وإفريقيا وأميركا اللاتينية، حيث أصبحت عدن مركز التقاء لطموحات هذه القوى، ومصدراً لقوتها وداعماً نزيهاً لها دون شروط وبلا مقابل أو تدخل في شؤونها، وكانت المساعدات المالية رمزية وفقاً لإمكانات البلد الشحيحة مقارنة بما تقدمه اليوم الأنظمة من المليارات للمعارضة لإفسادها وتدمير أوطانها وشعوبها.

خلال هذه المرحلة التي أصبحت فيها عدن مركز جذب وتضامن لكل القوى والأحزاب والمنظمات العربية والإفريقية المعارضة لأنظمتها، شهدت المنطقة العربية والإفريقية تغيرات عاصفة في العديد من البلدان العربية، فقبل كل شيء لم يكن هذا الدور الذي تمارسه عدن بمعزل عن غياب دور مصر عبد الناصر، وعزلتها التي فرضتها على نفسها بعد اتفاقية كامب ديفيد، وملاحقتها معارضي سياستها الجديدة من المثقفين والشخصيات السياسية البارزة الذين لجأ بعضهم إلى عدن وعمل في مؤسسات البلاد الإعلامية والمالية وغيرها. كان من بين هذه الشخصيات مصطفى طيبة وأحمد الرفاعي ومحمد أبو مندور وزكي عمر. واضطر آخرون إلى الانتقال إلى ليبيا والعراق وبلدان الخليج والبلدان الأوروبية كلندن، وفي مقدمتهم الولد المشاغب محمود السعدني الذي عمل في بغداد ولقي صعوبات جمّة هناك، وكان يردد مقولة توفيق الحكيم: «لقد انتهى عصر القلم، وابتدأ عصر القدم» في إشارة

منه إلى عدم الاهتمام بالكتاب والمثقفين والمفكرين الذين لا يحصلون إلا على الشيء البسيط من مؤلفاتهم، بينما لاعب كرة القدم يحصل على مئات الآلاف من الدولارات، بل الملايين.

معركة في القرن الإفريقي

وكانت الصومال على الضفة الأخرى من خليج عدن تطحنها حربها مع إثيوبيا لاستعادة منطقة أوغادين التي يطالب بها الرئيس محمد سياد بري، بحجة أنها صومالية وأنه ولد فيها، وتفاقم خلافه مع فرنسا حول مستقبل جيبوتي التي استقلت عام ١٩٧٧م، والتي كان يريد ضمها إلى الصومال لتشكيل الصومال الكبير ومشروعه لتحقيق وحدة بين الصومال واليمن وجيبوتي. وانتقل سياد بري في مجرى هذه الصراعات والحروب من أقصى اليسار الماركسي إلى أقصى اليمين، ومن موقع الحليف الاستراتيجي لموسكو إلى موقع المناوئ لها وللماركسية، فطرد الخبراء السوفيات على غرار السادات، ومزق صور ماركس ولينين التي كانت تغطي معسكراته، وأغلق ميناء بربرة في وجه الأساطيل السوفياتية وحرمها التسهيلات التي كانت تتمتع بها. وكان السفير الصيني في عدن قد تحدث معي، قائلاً إن الماركسية التي يتحدث عنها سياد بري جاءت بتوجيهات من الكرملين من أجل الحصول على المساعدات السوفياتية، ولا تعبّر عن موقف إيديولوجي للجنرال سياد بري.

وقع على عدن عبء احتضان معارضي سياد بري وتقديم الدعم العسكري لنظام منغستو هيلا مريام في حربه مع سياد بري، بعد إخفاق وساطات عدن وكوبا وموسكو. غير أن سياسته المغامرة تلك أدت إلى هزيمته وتقسيم الصومال، ووضع البلاد تحت رحمة تجار الحروب في الشرق والشمال والجنوب، واضطرت عدن للمرة الثانية إلى احتضان أكثر من أربعين ألف لاجئ من أبناء الصومال الهاربين من أتون حرب القبائل التي أكلت الأخضر واليابس.

علي عنتر وزابو وزانو

في هذا السياق أذكر أن وفداً من حركة زانو برئاسة موغابي زار عدن لتلقي الدعم بتوصية من منغستو، وكُلفَ علي عنتر بوصفه وزيراً للدفاع التباحث معهم في سبل المساعدات المطلوبة وحدودها، فطلب الوفد أسلحة ثقيلة، وطلب نقلها بالطائرات لإلقائها في أدغال روديسيا جواً وبالمظلات. فوجئ علي عنتر بهذا الطلب، فاتصل بي مبدياً استغرابه من طروحات الوفد وكيفية تلبية طلباتهم، فعدن ليست دولة عظمى وطائراتنا لا تستطيع تغطية أجواء البلاد، فكيف لها أن تصل إلى أدغال روديسيا! ثم سأل عن موقع زانو وزابو وفي أي قارة تقعان!

المنظمات الفلسطينية والحركة اللبنانية

تحولت عدن في أواسط الثمانينيات إلى قلعة لحركات التحرر، ولا بد من الإشارة هنا إلى أن عدن كانت تتعاطى مع حركات التحرر في كل شؤونها وفي أشكال دعمها عبر قيادة الحزب الاشتراكي اليمني وأجهزته، وليس عبر أجهزة المخابرات والأمن، كما هو قائم في البلدان الأخرى. ولم يكن مركز عدن التضامني المتقدم بمعزل عن علاقاتها وتحالفاتها المتينة بالاتحاد السوفياتي وبلدان المنظومة الاشتراكية وبلدان حركة عدم الانحياز.

هذه المواقف المبدئية في تاريخ جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية ومواقفها لم تقابل دائماً بالعرفان وبمستوى من التفاعل والفهم والتضامن ينسجم مع متطلبات تعزيز مسيرتها الثورية والارتقاء بدورها والإسهام في تطويرها وترسيخ مواقعها. فقد مارست بعض القيادات الفلسطينية أحياناً دوراً مسيئاً إن لم يكن تخريبياً في الحياة الداخلية وفي صفوف الحزب الاشتراكي وقيادته، وحاولت اللعب على الصراعات داخل القيادة اليمنية، والسعي لاستمالة هذا الطرف أو ذاك إلى جانبها لتحقيق غرضين متلازمين:

كسب مزيد من الامتيازات والمكاسب في عدن بوقوفها إلى جانب هذا الطرف في الصراعات أو ذاك.

إثقال اليمن الديمقراطية وقيادتها السياسية والحزبية بالصراعات الخاصة بهذه المنظمات فلسطينياً وعربياً وترجيح كفّة إحداها عبر كسب ولاء جزء من القيادة.

لقد أدت هذه التدخلات الفظة غير المبدأية من جانب بعض هؤلاء إلى تأجيج الصراعات داخل القيادة وتفجرها، مما أسهم في فقد قيادات متتالية: سالم ربيع علي، عبد الفتاح إسماعيل، كاتب هذه المذكرات، علي سالم البيض... إلخ.

احتفال الثورة الفلسطينية ١٩٨٣م

كان هناك دوماً عامل فاعل في تفكيرنا بالنسبة إلى المستقبل، وهو أن الثورة الفلسطينية ستكون ضعيفة مهما بلغت من القوة من غير محيط عربي سليم يؤازر نضالها، ويساعدها على تجاوز ما تمر به من آلام ومصاعب. وتحدثنا بهذا الشأن مع «ياسر عرفات»، قائد الثورة الفلسطينية في يناير عام ١٩٨٣م بمدينة عدن. كان عرفات يجلس إلى جانبي على المنصة الرئيسة في ساحة الاستعراضات بخور مكسر في الاحتفال الكبير الذي أقيم بمناسبة الذكرى «السابعة عشرة» لانطلاقة الثورة الفلسطينية. كان أول احتفال للثورة يحضره عرفات بعد خروج المقاومة من بيروت. وفي الطريق إلى المهرجان مع السيد ياسر عرفات تحدثت معه حول العلاقات مع سوريا الذين كانوا منزعجين من هذا الاحتفال ومن هذا الحشد الكبير ونصحته ان يشير في خطابه إلى العلاقات مع سوريا ولكنه كان متردداً بل منزعجاً من الموقف السوري بعد ان توزعت قواته في اليمن وتونس وغيرها من البلدان، وقال اكراماً لك سوف اتحدث عن العلاقة مع سوريا، واورد هنا بعضاً مما جاء في خطابه:

«هذا اليوم الذي نحتفل فيه في عدن الثورة عدن الشموخ عدن الكبرياء يا أخي علي ناصر أننا نجسد هذا المعنى الثوري وهذا التلاحم الثوري الذي يجمعنا ثوارٌ وأحرار على ارض اليمن على الشطر الجنوبي من اليمن..

يا أخي ويا رفيق دربي نحتفل الان وتحت هذه الرعاية وهذا القلب الذي ينبض ثوريةً ودفءً وشموساً ونوراً نحتفل لكي نرسلها من عدن الثورة إلى كل بقعة من بقاع وطننا العربي

قال عبدا لناصر وجدت لتبقى وجدت لتنتصر نعم أقول لهم هذا وان المعركة ما حدث في بيروت وما حدث في جنوب لبنان ما هي ألا بداية المعركة والمعركة سجال.

يا أخواني ما حدث في بيروت لم يكن معركة عادية وما حدث في لبنان وما هو جاري في لبنان وما يجري في لبنان أنما هي مؤامرة أميركية في الان وأكثر من أي وقت مضى علينا أن نكون حذرين وحريصين ومتنبهين لان المؤامرة مستمرة القوات الأميركية التي قرر ريجن زيادتها في لبنان هي جزء لا يتجزأ يا أخي علي ناصر من هذه المناورات للأسطول السابع والأسطول الخامس على شواطئ اليمن الديمقراطي أو في جوار شواطئ اليمن الديمقراطي هي حلقة متراصة وحلقة متتابعة وحلقة متصلة.

خرجنا من بيروت بدو المشيعين وما أكثرهم في المنطقة انه في خلاف فلسطيني سوري أنا بقول العلاقة السورية الفلسطينية ثابتة ثبوت هذه الجبال اللي أمامكم مافيش حاجه تهزها.

-ومن الخلف علق القيادي الفلسطيني عبد المحسن ابو ميزر وهو مقرب من النظام في سوريا بقوله « كلمة سوداء» وضحك البعض.



علي ناصر، ياسر عرفات، خالد الفاهوم، طلال ناجي، علي عنتر، عبدالمحسن أبو ميزر في عدن عام ١٩٨٢م

احتفالات الثورة الفلسطينية في عدن ١٩٨٣

اغنية تكتيك للفنان عبدالله حداد

وبعد المهرجان اقيم حفل فني على مسرح سينما بلقيس بكريتر حضرته القيادات اليمنية والفلسطينية وشارك فيه عدد من الفنانيين اليمنيين والفنان الفلسطيني عبد الله حداد الذي الهب حماس الحاضرين باغنيته التكتيك العربي وصفق له الحاضرون مراراً عند ذكر كلمة التكتيك وفسرها البعض انها تعني سياسة الرئيس ياسر عرفات ملك التكتيك في الثورة الفلسطينية الذي كان يقيم علاقات مع كافة الدول التقدمية والمحافظة ومع دول العالم لمصلحة القضية الفلسطينية بل انه كان بحق رمزا للثورة ورمزاً للوحدة الوطنية الفلسطينية.
وكانت كلمات الأغنية تقول:

وابتدى المشوار مع اخوته الثوار وبصحبة الاحرار حيكمل المشوار باسمك يابو عمار وباسم كل الثوار حغني غنوتي لعروبتي لقبيلتي لديرتي لخلتي اه ياخلتي

لازم تكون تكتكجي ابن تكتكجي ابن تكتيك يا متكتك

تكتك بتكتك كل المسائل يا خلتي

كل شي فهمتوا بيك يا معود إلا التكتيك -كل شي فهمتوا بيك ياعربي إلا التكتيك

انا راجع ارعى الغنم واحكي القصة للغنم بلكي ان

فهم الغنم وفهموني برجع ليك ويا معود إلا التكتيك



استقلالية القرار..

الحقيقة إن « أبو ميزر» كان ينطق بالواقع، عندما اشار في المهرجان بكلمته سوداء، فلم تكن علاقة الثورة الفلسطينية بسورية على ما يرام في تلك الأيام. وخاصة مع فتح وياسر عرفات شخصياً. وقد شغل هذا التعقيد في علاقة الثورة بالأنظمة العربية دائماً تفكيرنا وكنا نرى على الدوام أنه لا غنى للثورة الفلسطينية وفصائلها عن بلد كسورية.. تماماً مثلما لا غنى لسورية عن المقاومة الوطنية الفلسطينية. كلاهما يشكل أهمية استثنائية للآخر بسبب وحدة الأهداف والخطر الذي يستهدفهم معاً.. وفي تلك اللحظات فإن الحاجة للتنسيق والتفاهم كانت ضرورية أكثر من ذي قبل، بسبب حاجتهما لمواجهة التحديات والصعاب الجديدة الناشئة عن مواجهة العدو الإسرائيلي. ومع ذلك كنا على إدراك تام بالتعقيدات الجمة التي تواجهها الثورة الفلسطينية في علاقاتها العربية. فقد كان ذلك يتجاوز الساحة السورية ليمتد إلى الساحات اللبنانية والأردنية والمصرية وحتى الليبية. كانت القيادة الفلسطينية في «منظمة التحرير» التي تناضل من أجل استقلالية القرار الفلسطيني تشكو على الدوام من أنها لا تستطيع أن تمسك بزمام أمور ثورتها الخاصة.. وأن الأنظمة العربية تتخذ

من الدعم الذي تقدمه للثورة فرصة للتدخل في شؤونها. وكان هذا صحيحاً إلى حد كبير، وأعتقد أن هذا عائد بدرجة أساسية إلى الخلط بين المهام العربية والتزاماتها تجاه الثورة والقضية الفلسطينية. فالعرب كانوا يعتبرون على الدوام قضية فلسطين قضيتهم المصيرية الأولى، وقدموا من أجلها التضحيات وخاضوا الحروب في سبيلها وخاصة مصر وسوريا. لهذا لم يستطيعوا أن يقدروا أن معاناة الشعب الفلسطيني الطويلة سواء داخل الأرض المحتلة أو في الشتات كانت تدفعه إلى «تكريس» المزيد من خصوصيته التي تعني بالنسبة له وجوده ومصيره وحياته. وفي رأيي أن المسؤولية تقع على الطرفين. أما بالنسبة إلينا في اليمن الديمقراطية فإن علاقاتنا تعقدت حسب مستجدات الأحداث مع بعض التجمعات الوطنية العربية التي ربطتنا بها على الدوام روابط أخوة صادقة، بسبب الموقف من القضية الفلسطينية. وأتذكر هنا مثالاً على ذلك اجتماعاً كنا عقدناه في عدن (الصغرى) البريقة في نهاية ديسمبر وبداية يناير ١٩٨٣م.

عرفات – حبش– حواتمة في عدن الصغرى

حضر الاجتماع الذي عقد في دار الضيافة، ياسر عرفات وجورج حبش، ونايف حواتمة، من الفصائل الفلسطينية. كما حضره عبد الغني عبد القادر، مسؤول العلاقات الخارجية في حزبنا مندوباً مراقباً. ولم أحضر هذه الاجتماعات التي خصصت كما خطط لها لمناقشة أوضاع الحركة الفلسطينية الراهنة بعد المستجدات الناجمة عن خروج المقاومة من بيروت عام ١٩٨٢م.. وآفاق مستقبلها. وقد اتفقوا على أن يبقى هذا اللقاء سرياً.. وأكدوا لنا أنه إذا تطلب الأمر، فإننا في اليمن الديمقراطية يمكننا الحديث عن البيان الذي سيتفق عليه في ختام الاجتماع. وقد احترمنا رغبتهم. وكان أملنا أن الاجتماع سيدعم الخطوط العريضة لمستقبل العمل الفلسطيني، لهذا لم نسأل عن التفاصيل أو برنامجهم السري، وكان هذا نتيجة الثقة التي تولدت داخلنا واحتراماً للثورة الفلسطينية وخصوصيتها، بصرف النظر إذا ما كانت قراراتهم ومواقفهم توافقنا أو لا توافقنا.. كانت الجراح الفلسطينية العميقة تحثنا للدفع بكل الجهود الممكنة للتغلب على آلامها وتقوية لُحمتها، ولم نكن نهدف لتعميق هوة

الخلافات في صفوف حركة التحرير العربية، أو بين الأطراف الفلسطينية وأية دولة عربية شقيقة ولم نكن طرفاً في أي خلاف من هذا النوع.

مع أننا احترمنا طلب الأطراف المجتمعة.. بالإبقاء على الموضوع سراً، إلا أنهم أول من كشف عن ذلك للقيادة السورية وللسفارة السوفياتية في عدن. وقد قال لي السفير السوفياتي فيلكس فيتدتوف بأنه إذا أردت أن ينتشر خبر ما بشكل سريع فبح به إلى الفلسطينيين، وقل لهم إن هذا سر يجب عدم البوح به، ستجده في اليوم التالي منتشراً على كل لسان!

التزمنا الصمت حول الموضوع، إلا إنني عندما وصلت إلى دمشق بعد أسبوع من ذلك اللقاء والتقيت الرئيس السوري حافظ الأسد، وكان لقائي الأول بعد الاجتماع المشار إليه فاجأني بما لم يكن في حسباني. فقد كان يعرف تفاصيل ما دار في الاجتماع، وأخذ يحدثني عن المحضر السري الذي انبثق عنه ذلك اللقاء.

قلت له: ربما تقصد البيان؟

لكنه عاد وأكد: لا.. المحضر السري.

كررت: تقصد البيان.

لكن الرئيس الأسد حسماً للأمر، سلمني نسخة من المحضر «السري» وكانت القيادة السورية قد حصلت على كافة المعلومات الموثوق بها عن ذلك الاجتماع من إحدى تلك الأطراف الفلسطينية. كان الموضوع محرجاً لي. شرحت للرئيس الأسد، بأنني لم أكن مطلعاً على كافة تفاصيل الاجتماع أو المحضر السري لأنني اعتبرته شأناً فلسطينياً، وكانت تهمني بدرجة أساسية وحدة الفلسطينيين في نضالهم ضد العدو الصهيوني.

وقد وفرت لي علاقتي الطويلة بالرئيس الأسد على مدى سنوات، فرصة للتعبير عن آرائي بحرية وصراحة ووضوح. وكان هو من الصنف المنصت جيداً لآراء الآخرين، وكانت تربطني به دائماً علاقة صداقة ومودة. وقد حرص كلانا على تنمية العلاقات الطيبة بين البلدين.. وكان الرئيس الأسد يعرف مدى حرصي الشديد على علاقات طيبة ومتميزة بين سورية ومنظمات الثورة الفلسطينية، لهذا توقعت أن أجد تفهماً عنده لموقفي.

وأحسب أن الرئيس الأسد بحصافته ونظرته الثاقبة وإيمانه العميق بالقضايا العربية

قد قدر وتفهم حينها جهودي وموقفي ذاك.. والوضع الذي وضعتني فيه ظروف احترامنا للقضية الفلسطينية وحساسيتها الخاصة جداً. وكانت هناك مصداقية ألزمنا بها أنفسنا وثورتنا في التعامل مع الفلسطينيين بمختلف فصائلهم، وهي أن يعتبروا اليمن الديمقراطية بلدهم، يتحركون فوق أرضها بحرية، ويمارسون نشاطهم باستقلالية تامة. وكنا جادين وصادقين في هذا التعامل برغم تعقيداته بسبب ظروف المنطقة. ولم يكن هناك سوى استثناء وحيد أبلغناه لإخوتنا الفلسطينيين وهو ضرورة احترام علاقاتنا بالدول العربية، وعدم الإساءة إلى أحد انطلاقاً من اليمن الديمقراطية. وقد وثقنا بأنهم يحترمون ويقدرون ذلك. وكانت هذه العلاقة مع الجميع هي التي جعلتنا مقبولين للقيام بالدور التوفيقي، إذ لم تكن لنا خصومة سياسية مع أحد من فصائل الثورة الفلسطينية.

هذه الحادثة وغيرها، دلّت على أن القيادة السورية، كانت على دراية كبيرة بكيفية التعامل مع الأحداث، وخصوصاً القضية الفلسطينية، وقضية الشرق الأوسط، وأعترف هنا بأن الرؤية السياسية السورية، وخصوصاً رؤية الرئيس حافظ الأسد قد تميزت دوماً ببعد النظر. وقد قام بدور عظيم ونبيل في سبيل القضية الفلسطينية والقضايا العربية العادلة، وتعامل بصدق ومسؤولية مع تعقيدات أوضاع حركة المقاومة الفلسطينية وبإدراك وإطلاع واسعين. وكان على دراية كاملة بتفاصيل الأوضاع الفلسطينية وكيفية التعامل معها بحكم المعايشة اليومية، القريبة والمباشرة للأحداث، على نقيضنا نحن في اليمن حيث كان تعاملنا أقرب إلى المثالية المحكومة بعواطفنا غالباً باعتبارها قضية مقدسة، لكن هذا لا ينفي التعامل المبدئي الصادق والحريص على وحدة صفوف الحركة الوطنية الفلسطينية في الحالتين.. مع فارق الظروف، ظروف المعايشة والاحتكاك والجغرافيا التي لم تكن متاحة لنا في اليمن.

ما جاء في المحضر

سيفتح الباب إلى البيت الابيض

وكان من ضمن ما ورد في ذلك المحضر السري، إعطاء صلاحيات ومرونة حركة واسعة لياسر عرفات مع بعض الدول مثل اليابان، وكندا، والنمسا، وبعض البلدان الأوربية لتعزيز علاقات الثورة الفلسطينية بهذه الدول.. وذلك في مقابل تعيين بعض ممثلي الجبهة

الشعبية والجبهة الديمقراطية في مكاتب منظمة التحرير الفلسطينية في الخارج. بالإضافة إلى بعض الاتفاقات السياسية والتنظيمية التي جرى التوقيع عليها بين المنظمات التي شاركت في لقاء عدن الصغرى حسبما أبلغني به مسؤول العلاقات الخارجية لحزبنا عبد الغني عبد القادر الذي حضر الاجتماع بصفة مراقب..

وقد علق الرئيس الأسد على هذا المحضر قائلاً: - إن هذا الاتفاق، سيفتح أمام عرفات الباب واسعاً للتحرك حتى البيت الأبيض وتل أبيب !!

لعل ما حدث بعد ذلك في « أوسلو « يفسر المخاوف المشروعة التي كان يراها الرئيس الأسد منذ ذلك الحين.. وهو ما يسوّغ الاستياء السوري من ذلك الاتفاق.. وأتذكر أن الرئيس الأسد علق فيما بعد على اتفاق أوسلو السري، بأن كل بند في هذا الاتفاق بحاجة إلى اتفاق آخر.

فالشيء المنطقي في علاقة تكون سورية أحد أركانها الأساسية في منطقة حساسة كالشرق الأوسط، وفي القضية الفلسطينية على وجه الخصوص، أن تتم معالجة الأمور بالتشاور والتفاهم والتنسيق معها، وإخضاع كل المتغيرات لصالح القضية المشتركة التي يعمل الجميع من أجلها.

معروف عن سورية أنها تقف في صدارة الدول العربية التي تعمل من أجل القضية الفلسطينية، وتتصدى لكل محاولات تصفيتها، كما أنها من جانب آخر تتصدى لحل تعقيدات المسألة اللبنانية، وتقف في مواجهة إسرائيل على أكثر من جبهة، وتسعى لتحقيق التوازن الاستراتيجي معها، وكنت واثقاً أنه من غير سورية يستحيل حرب أو سلام. ولذلك كانت قناعتنا أن أي تحرك لا تشترك فيه سورية والمقاومة الوطنية الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية يلحق ضرراً بهذه القضية. ولأن ذلك كان مفهوماً لنا تماماً، ولم يكن غائباً عنّا، وكنا في اليمن الديمقراطية نمارس دورنا على أساس من تلك القاعدة. ولكن الآخرين ممن لم يدركوا هذه الحقيقة كادوا يرغموننا على دفع ثمن عدم الإدراك هذا لولا حكمة القيادة السورية.

القذافي والقيادة البديلة لياسر عرفات

كان نداء الواجب تجاه القضية الفلسطينية ينادينا دائماً. ففي منتصف عام ١٩٨٣م

حدثت انشقاقات مؤسفة في حركة فتح، وأعلنت مجموعة من قادتها تشكيل ما سمّوه حينذاك «فتح الانتفاضة». تلقيت اتصالاً هاتفياً من الزعيم الليبي معمر القذافي وأخذ يقنعني بفكرة استوحاها من أحداث ذلك الانقسام، هي تغيير القيادات الفلسطينية «المشتبه فيها» حسب تعبيره، وصهر المنظمات الفلسطينية جميعاً في منظمة واحدة، وتحت قيادة واحدة. بذل جهده لإقناعي بذلك، وقد حاولت إفهامه بخطأ هذه الفكرة وقلت له: «إنني ضد هذا التفكير، وأعدّ هذه النظرة خطيرة ومؤثرة في منظمة التحرير». وأفهمته أنْ «ليس من حق أي أحد تدمير ما يعتبر إنجازاً تاريخياً لكفاح الشعب الفلسطيني على مدى سنوات عديدة»، وكنت أعني بها منظمة التحرير الفلسطينية التي أصبح لها صفة دولية معترف بها على المستوى العربي والعالمي. وقد تحقق ذلك الاعتراف عبر سنوات طويلة وبجهود كبيرة. قلت للقذافي: «إننا لا نقدم بذلك أية خدمة إيجابية للشعب الفلسطيني وقضيته في حال تدخُّلنا غير المشروع في شؤون منظمات تمتلك الشرعية.. وقياداتها منتخبة هي الأخرى بصورة شرعية. حاول العقيد القذافي أن يستفزني قائلاً: «وماذا يعني ذلك؟ فقد كانت حكومة الاتحاد في عدن أيضاً شرعية». وقد أجبته بهدوء: «لا. لا أجد أي مجال للمقارنة هنا. فشرعية عن شرعية تختلف.. ثم إنه ليس من حقنا التدخل في الشؤون الداخلية للمقاومة الفلسطينية»، وأكدت له أن أي انشقاق جديد، حتى ولو كان على الطريقة التي تدعو إليها لن يكون سوى رقم جديد يضاف إلى قائمة المنظمات الفلسطينية القائمة. وعودة إلى تاريخ كل الانقسامات التي حدثت في الماضي جميعها تؤكد بالفعل أن كل انقسام لا يضيف سوى المزيد من التشرذم والتفرق، وأخبرته بأن من مصلحة القضية الفلسطينية الحفاظ على وحدتها، وإذا كان هناك حقاً نية جادة ومخلصة في إجراء أي تغيير أو تجديد يجب أن يكون ذلك داخل أطر حركة المقاومة نفسها، لأن أهل مكة كما يقال، أدرى بشعابها». وأضفت: «إن مثل هذه الأمور الخطيرة لا تناقش عبر التلفون، فضلاً عن أن هذا ليس وقت الحديث عنها، ونحن لا نملك حتى الحق في مناقشته نيابة عن الشعب الفلسطيني». عندئذ قال لي القذافي: «سأبعث لك بطائرتي الخاصة، أو تعال بطائرتك»، واعتذرت. فقال القذافي: «سوف أصدر بيان تأييد باسمي واسمك». فقلت له: «إذا فعلت فسوف أصدر بياناً في المقابل وأنفي علمي ببيانك أو المشاركة فيه. استشاط القذافي غضباً من ذلك، وأوقف بعدها مباشرة المساعدات التي

كانت بلاده تقدمها إلى اليمن الديمقراطية وهي مبلغ ثلاثمئة مليون دولار لتمويل مشاريع مختلفة، منها كلية الطب، وترميم مستشفى الجمهورية، وبناء مطار في الغيضة ووحدة عمر المختار السكنية التي ارتبط اسمها باسم المجاهد الكبير عمر المختار ولم يحترموا اسمه ولا تاريخه ولا العلاقات النضالية بينه وبين رفيقه اليمني في الجهاد علي بن مبارك[1] الذين كانوا يشيدون بنضالهما دائماً ضد الاستعمار الايطالي، وحتى لا تتوقف هذه المشاريع بسبب هذا القرار الليبي الأحمق اضطررنا إلى تغطية نفقاتها من ميزانيتنا، إلى حد أننا سحبنا مبالغ من احتياطي الدولة من العملة الصعبة، وما ذاك إلا نموذج واحد فقط لما كنا نعانيه نظراً إلى ثبات مواقفنا، وكيف أن التمسك بالمواقف التي نعتقد بصحتها تضطرنا في أغلب الأحيان إلى دفع ثمن باهظ لها. والمثير في الأمر أن موقف «العقيد القذافي» قد تغير بعد مرور سنة من تلك المكالمة التي استمرت بيني وبينه نحو ساعة كاملة.



المجاهد علي مبارك

---

(١) المجاهد اليمني علي مبارك بن ظافر الحباني: وقد اشتهر بليبيا وهو من مواليد محافظة شبوه هاجر في العشرينات من القرن الماضي إلى ليبيا سعيا وراء الرزق وصادف وصوله هناك الغزو الإيطالي لليبيا فالتحق بالمجاهدين الليبيين وشارك في عده معارك ضد الاستعمار الإيطالي برفقة الشهيد المجاهد عمر المختار، حصل على وسام الشرف من الدولة الليبية توفي في عام ١٩٨٢م في ليبيا ووري جثمانه هناك.

القذافي.. وعرفات

اتصل بي «القذافي» مرة أخرى. وهذه المرة طلب مني تحديد موقف إلى جانب ياسر عرفات ضد سورية. كان ذلك خلال «حرب المخيمات» في منتصف عام ١٩٨٤م، وقد أوضحت له أن علينا أن نتجنب ردود الأفعال، وأن الأمور لا تحل بالهجوم على سورية، ولا يمكن حلها إلا بالتفاهم والحوار وتقديم التنازلات من قبل كل الأطراف، وأنه لا بديل لسورية، وخصوصاً في مسائل تضطلع هي فيها بالمهمات الصعبة والعبء الأساس في المعركة مع العدو الصهيوني. كنت وأنا أحدثه أتعجب كيف تغيرت مشاعره فجأة هكذا من الهجوم قبل عام فقط على القيادة الفلسطينية، بمن فيهم ياسر عرفات وجورج حبش، إلى التعاطف الكلي معهم واعتبارهم «مناضلين» حسب وصفه إياهم هذه المرة، وهم كذلك فعلاً.

عندما رفضت مقترحه، انفعل العقيد القذافي وقال: يبدو أنك لم تعرف القيادة السورية تماماً؟

لكني أجبته: يبدو أنك لا تعرف سورية والسوريين، وتتجاهل تعقيدات الوضع في المنطقة، وليس بالضرورة إن يكون هناك تطابق في وجهات النظر في بعض القضايا، وخصوصاً في ما يتعلق ببعض القيادات الفلسطينية في منظمة التحرير.

كان المهم لي أن نظل على موقفنا المبدئي من القضية والثورة الفلسطينية، فلا نغيره أو نبدله حسب الظروف والأحداث. ولهذا كانت آراؤنا ومواقفنا تلقى التفهم والقبول عند مختلف الأطراف الفلسطينية. وهذا لا يعني التقليل من دور الزعيم الليبي الذي قدم الكثير من الدعم والمساندة إلى الثورة الفلسطينية، لكن المشكلة أنه سريع التقلب في مواقفه.

كانت عدن على الدوام محطة للمناضلين الفلسطينيين، يجدون فيها الدعم والمساندة بقدر ما تستطيع. وكان لقاؤهم التالي في عدن مرة أخرى لتأكيد ذلك، عندما انعقدت فيها أعمال «الدورة الثالثة» للحوار الوطني الفلسطيني الذي بدأ في الجزائر، وقد سادنا جميعاً شعور بالاعتزاز والثقة بأن تجاوز الخلافات في صفوف الثورة لن يكون على حساب علاقتهم بسورية، وهو ما كنا نحرص عليه.

بعد عدد من جولات الحوار في العاصمة الجزائرية التي بدأت في ١٨ مارس ١٩٨٤،

انتقل المتحاورون إلى اليمن الديمقراطية لاستكمال الحوار الوطني الفلسطيني. افتتحت «الدورة الثالثة» في عدن في التاسع من يونيو ١٩٨٤م وشارك فيها إلى جانب ممثلي المنظمات الفلسطينية ممثلو الحزب الاشتراكي اليمني، وممثل حزب جبهة التحرير الوطني الجزائرية محمد شريف مساعدية، وقد مثّل حركة فتح خليل الوزير «أبو جهاد». فيما مثل الجبهة الديمقراطية ياسر عبد ربه، والجبهة الشعبية عبد الرحيم الملوح والحزب الشيوعي الفلسطيني سليمان النجاب وجبهة التحرير الفلسطينية «أبو العلاء». وقد أقمت للمشاركين في الدورة حفلة استقبال وإفطار، حيث كنا في شهر رمضان المبارك. أبديت ثقتي بقدرة المشاركين على إنجاح الحوار الوطني الفلسطيني، بما يكفل وحدة منظمة التحرير الفلسطينية على أساس برنامجها السياسي المُقَرّ في الدورة السادسة عشرة للمجلس الوطني الفلسطيني ودوراته اللاحقة.

اتفاق عدن – الجزائر

بعد أسبوع من النقاش تمكن المشاركون من إقرار وثيقة سياسية وتنظيمية لتحديد مسيرة «منظمة التحرير الفلسطينية» واستراتيجيتها، واتخذوا هذه الوثيقة أساساً للحوار الوطني الشامل لتعزيز وحدة المنظمة وضمانها، وتنشيط مؤسساتها الشرعية.

في الجزائر، خلال مؤتمر صحافي في يوم ١٨ يوليو ١٩٨٤م، أعلن البيان النهائي لاتفاق عدن التاريخي الذي كان بحق اتفاق الوحدة الوطنية الفلسطينية. أثار الاتفاق الارتياح والترحيب الجادين داخل الأراضي المحتلة، وعبّر عن ذلك مناضلون وطنيون من أمثال «بسام الشكعة» رئيس بلدية نابلس، الذي عدّه اتفاقاً «طال انتظار جماهير شعبنا له، وسيعزز العمل الوحدوي على مختلف الصعد، ويوطد تحالفاتنا العربية والعالمية، وخصوصاً إعادة تصحيح العلاقات الفلسطينية السورية اللبنانية الوطنية»، وعبّرت الهيئات والمؤسسات الوطنية الفلسطينية في الأراضي المحتلة عن غبطتها بالاتفاق، وقالت في بيان أصدرته في صحيفة «الشعب» المقدسية:

«إن اتفاق الوحدة في عدن أعاد لمنظمة التحرير وحدتها، وسيمكن مؤسساتها الشرعية

من استعادة دورها وفاعليتها». وكان مندوبون عن أكثر من عشرين مؤسسة قد عقدوا اجتماعاً تمثيلياً في القدس أشادوا من خلاله بالاتفاق، وأكدوا تمسكهم بمنظمة التحرير ممثلاً شرعياً ووحيداً للشعب الفلسطيني.

في دمشق وقبرص وقّع أكثر من مئة وعشرين كاتباً وصحافياً وأديباً فلسطينياً، منهم الشاعر الكبير محمود درويش، بياناً أعربوا فيه عن تأييدهم لاتفاق عدن، ما عنى أن الاتفاق قد امتلك القاعدة الشعبية التي ستشكل له الضمان والحماية ليصبح قاعدة يلتزمها الكل. في الواقع كنت سعيداً بتلك النتيجة. وكنت من موقعي وتجربتي وتجربة ثورتنا أدرك مخاطر الانشقاق عن الثورة، وهو ما لم نكن نرضاه للثورة الفلسطينية العظيمة.

اتفاق أوسلو

في عام ٢٠١٠ قمت بزيارة لبعض البلدان الأوروبية والإسكندنافية، وفي هذه الزيارة التقيت السيد عمر كتمتو الذي حدثني طويلاً عن اتفاقية أوسلو التي كان له دور كبير في التنسيق والإعداد لها. اتفاقية أو معاهدة أوسلو هي اتفاق سلام وقعته إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية في مدينة واشنطن الأميركية في ١٣ سبتمبر١٩٩٣، وسمي الاتفاق نسبة إلى مدينة أوسلو التي جرت فيها المحادثات السرّية عام ١٩٩٣م.

اتفاقية أوسلو أول اتفاقية رسمية مباشرة بين إسرائيل ممثلةً بوزير خارجيتها آنذاك شمعون بيريز، ومنظمة التحرير الفلسطينية، ممثلة بأمين سر اللجنة التنفيذية محمود عباس رئيس السلطة الوطنية الفلسطينية الحالي والذراع اليمنى للرئيس الراحل ياسر عرفات.

ورغم أن التفاوض بشأن الاتفاقية حصل في أوسلو، إلا أن التوقيع كان في واشنطن، بحضور الرئيس الأميركي السابق بيل كلينتون، والرئيس الراحل ياسر عرفات ورئيس وزراء إسرائيل الراحل إسحق رابين، ووزير خارجيته شمعون بيريز، ووزير خارجية روسيا أندريه كوزيريف.

وتنص الاتفاقية على إقامة سلطة حكومة ذاتية انتقالية فلسطينية (أصبحت تعرف فيما بعد بالسلطة الوطنية الفلسطينية)، ومجلس تشريعي منتخب للشعب الفلسطيني، في الضفة

الغربية وقطاع غزة، لفترة انتقالية لإتمامها في أقرب وقت ممكن، بما لا يتعدى بداية السنة الثالثة من الفترة الانتقالية.

ونصت الاتفاقية على أن هذه المفاوضات ستشمل القضايا الباقية، بما فيها القدس، اللاجئون، المستوطنات، الترتيبات الأمنية، الحدود، علاقات التعاون مع جيران آخرين.

ولحفظ الأمن في الأراضي الخاضعة للسلطة الفلسطينية، نصت الاتفاقية على إنشاء قوة شرطة فلسطينية قوية، من أجل ضمان النظام العام في الضفة الغربية وقطاع غزة، بينما تستمر إسرائيل في الاضطلاع بمسؤولية الدفاع ضد التهديدات الخارجية.

في إسرائيل نشأ نقاش قوي بخصوص الاتفاقية؛ فاليسار الإسرائيلي دعمها، بينما عارضها اليمين. وبعد يومين من النقاشات في الكنيست حول تصريحات الحكومة بشأن الاتفاقية وتبادل الرسائل، جرى التصويت على الثقة في ٢٣ سبتمبر ١٩٩٣، حيث وافق عليها ٦١ عضو كنيست، وعارضها ٥٠ آخرون، وامتنع ٨ عن التصويت، كان من بينهم رئيس الوزراء الأسبق الذي رأس الوفد الإسرائيلي في مؤتمر مدريد في أكتوبر ١٩٩١م.

كانت المواقف الفلسطينية منقسمة أيضاً، فـ«فتح» التي مثلت الفلسطينيين في المفاوضات قبلت إعلان المبادئ، بينما اعترض عليها كل من حركة حماس والجهاد الإسلامي والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين (المنظمات المعارضة) لأن مواثيقها الداخلية ترفض الاعتراف بحق إسرائيل في الوجود في فلسطين.

كان هناك على كلا الجانبين مخاوف من نيات الطرف الآخر، وفهموا تلك المقولات على أنها محاولة لتبرير توقيع الاتفاقية باتفاقيات مرحلية للوصول إلى الهدف النهائي. وكذلك عارض الاتفاقية فلسطينيون، ومنهم مثقفون مثل الشاعر الكبير المرحوم محمود درويش، والمفكر الكبير المرحوم إدوارد سعيد.

بناءً على ادعاء حكومة إسرائيل، فُقدت ثقة الإسرائيليين بالاتفاقية لأن الهجمات على إسرائيل تكثفت بعد توقيع الاتفاقية، الأمر الذي فسره البعض على أنه محاولة من قبل بعض المنظمات الفلسطينية لإفشال عملية السلام. آمن آخرون بأن السلطة الفلسطينية

لم يكن لديها رغبة في إيقاف تلك الهجمات، بل كانت تشجعها. وكدليل قالوا إنه عندما تفجرت الانتفاضة عام ١٩٩٦، أدارت الشرطة الفلسطينية أسلحتها باتجاه الإسرائيليين في الصدامات التي أدت إلى سقوط ٥١ فلسطينياً و١٥ إسرائيلياً.

خشي العديد من الفلسطينيين أن إسرائيل لم تكن جادة بخصوص إزالة المستوطنات من الضفة الغربية وقطاع غزة، خاصة من المناطق المحيطة بالقدس، وخشوا أنهم حتى قد يزيدون من وتيرة البناء على المدى الطويل ببناء مستوطنات جديدة وتوسيع الموجود منها، وهو ما حدث فعلاً.

بدأت القصة في السنوات السابقة لتوقيع الاتفاقية...

يقول السيد عمر كتمتو: في منتصف عام ١٩٩١ حدث أن كنت في تونس حاملاً معي بعض الأفكار الخاصة بالعلاقة الثنائية الفلسطينية النرويجية بصفتي سفيراً للمنظمة في أوسلو، وخصوصاً أن النرويج بدأت تتعامل معنا بنشاط واضح ومنذ شهر فبراير ١٩٨٩ في أعقاب الزيارة التي قام بها السيد تورفالد ستولتينبيرغ Thorval Stoltenberg وزير الخارجية حينذاك، والتقى الرئيس أبو عمار في العاصمة التونسية، وشهدت أول مباحثات رسمية فلسطينية نرويجية.

في عام ١٩٩١ كنت مع الرئيس أبو عمار في منزل السيد حكم بلعاوي[١]، وقررت أن أطرح على الرئيس ما يجول في فكري من رغبة قوية لنقل دور الوساطة السويدية بيننا وبين إسرائيل إلى النرويجيين، إذ إن السويديين، بنشاط ملموس، أدوا دوراً ممتازاً في السعي إلى بدء محادثات سرية أو علنية بين منظمة التحرير وإسرائيل، لكنها جميعها لم تصل إلى النتيجة المرجوة.

وكان أبو عمار سعيداً ومرتاحاً للدور السويدي، لأن السويد كانت دولة حيادية، وهي لم تشارك في حربين عالميتين، فضلاً عن أن «أولاف بالمه»، رئيس وزرائها الراحل، كان أول من دعا عرفات إلى زيارة رسمية للسويد بعد خروجه الثاني من لبنان.

خلال تلك الجلسة في مقرّ سفيرنا في تونس، وبوجود السيد خالد الحسن رحمه الله،

(١) سفير فلسطين لدى تونس.

أفضيت بما لدي للرئيس عرفات، ثم طلبت منه أن يسعى لدى النرويجيين كي يدخلوا وسطاء بيننا وبين الإسرائيليين، لكن الجواب الذي حصلت عليه من عرفات كان الآتي:

«إيه يا عمر، أنا بعرفك تفهم سياسة، وإنما اللي بتقوله ده هو سذاجة سياسية».

شعرت حينذاك بامتعاض – والكلام لعمر كتمتو – وصمتُّ عن الكلام أو أقله أحجمت عن الاستمرار في طرح وجهة نظري، وما هي إلا دقائق ليست طويلة، حتى بادرني الراحل (أبو السعيد) خالد الحسن بسؤال أعادني إلى ما كنت أودّ أن أوصله إلى عرفات، حينما قال:

يا أخ عمر، لماذا تقترح النرويج؟

قلت: لأسباب كثيرة، أولها:

النرويج دولة صديقة لإسرائيل، وقادتها الآن أصدقاء للرئيس عرفات، وهي عضو في حلف الناتو، أي إنها حليفة لأميركا، بينما السويد (لا)، وبالتالي فمثل هذا الدور سيحصل على مباركة أميركية.

النرويج لم تكن قط دولة احتلال، بل كانت دائماً دولة محتلة كما نحن عليه الآن.

النرويج ليست دولة عظمى، لأن الدول العظمى لن تستطيع أن تكون حيادية إذا ما دخلت وقامت بدور الوسيط.

النرويج دولة غنية ومستعدة بتقديري للقيام بهذا الدور، بل ومستعدة أيضاً لتمويل عملية السلام المنشود.

ساد الغرفة صمتٌ عميق، وكان أبو عمار يستمع، بل وكله آذانٌ مصغية إلى ما أقول، أما خالد الحسن فقد هزّ برأسه إيجاباً دون أن يقول شيئاً.

هذا اللقاء كان قد حصل قبل أكثر من عام على اجتياح الكويت عام ١٩٩٠، ونجم عنه وضع صعبٌ جداً للمنظمة، بحيث إنها أصبحت غير قادرة على توفير احتياجات مؤسساتها، وخصوصاً الدبلوماسية، وفي صيف عام ١٩٩٢ خلال شهر أغسطس وصل الأخ بسام أبو شريف إلى العاصمة النرويجية دون أن يخبرني كي أستقبله في المطار، ثم اتصل بي بعد أن استقرّ في الفندق الذي شهد فيما بعد المحادثات السرية.



مع الصديق عمر كتمتو أمام فندق راديسون
الذي عقدت فيه المفاوضات الفلسطينية الإسرائيلية للمرة الأولى سراً، ومن دون علم الأطراف الأخرى في النزاع، حتى الولايات المتحدة ومخابراتها لم تعلم بأمر هذه الاجتماعات التي أفضت بالنهاية إلى توقيع اتفاقية أوسلو

ويضيف السفير عمر كتمتو: اتصل بي بسام، وكنت في طريقي بالسيارة عائداً من مدينة اسمها «درامين» Drammen إلى أوسلو، فقلت له: أنا في طريقي إليك الآن، إذ كانت المسافة بين أوسلو ودرامين (٤٠) كم فقط. لدى وصولي إلى غرفة بسام في الفندق أخبرني مباشرةً بأنه مكلف مهمة من الرئيس تستدعي ذهابنا معاً للقاء وزير الخارجية السيد «ستولتينبرغ» ولما سألته عن السبب، أجابني بأن الرئيس يرغب في استخدام النرويج وسيلة محادثات فلسطينية إسرائيلية، مستجيباً لما طرحته عليه قبل أكثر من عام.

عندئذ قلت لبسام: إذاً دعني أتصل بالرئيس، وبمجرد ما طلبته جرى إيصالي به، وسمعته يقول: «دلوقت يا عمر يمكن أن نمضي بالفكرة التي حدثتني عنها العام الماضي، وعلى بركة الله أنت وبسام».

اتصلت مباشرة بوزارة الخارجية وطلبت الحديث مع الوزير، وجرى إيصالي به. بعد

السؤال لماذا أريد لقاءه، أجبت بأنني أحمل له رسالة شفوية مع أحد مستشاري الرئيس ياسر عرفات، وجاءني صوت الوزير قائلاً: أهلاً وسهلاً بكما في الساعة الثالثة بعد الظهر، وكانت الساعة حينذاك الواحدة والنصف ظهراً، وهكذا أخذت النرويج دورها التاريخي في الصراع العربي الإسرائيلي...

اتفاقية أوسلو السرية التي وقّعها الزعيم الفلسطيني الراحل ياسر عرفات مع إسرائيل، هي الاتفاقية التي قال عنها الرئيس السوري الراحل حافظ الأسد إن كل بند فيها يحتاج إلى اتفاق... وكان صادقاً في رأيه وفي رفضه لها..

هل أخطأ عرفات؟

التاريخ وحده س يحكم على ذلك....

يكفيه أنه اجترح شرف المحاولة، وقاد النضال الفلسطيني منذ انطلاقة الكفاح المسلح في ١/ ١/ ١٩٦٥م وحتى استشهاده على يد الموساد، وحمل قضية فلسطين في قلبه من منبر إلى منبر، ومن ساحة إلى ساحة، ومن معركة إلى معركة، ومن عاصمة إلى عاصمة، وأوصلها إلى الأمم المتحدة، وحتى أوسلو... وحتى غزة وأريحا... وعلى ذكر أوسلو، يقول دبلوماسي فلسطيني إن قضية فلسطين أسهمت بشهرة هذه المدينة النائية بعد توقيع اتفاقية أوسلو عام ١٩٩٣م.

لقد أثمر الجهد الفلسطيني وسوف تؤدي عاجلاً أو آجلاً إلى دولة فلسطين! لقد عاد المناضل أبو عمار إلى جزء من وطنه وفق اتفاق (غزة – أريحا) بسلاحه ورجاله لأول مرة منذ عام ١٩٤٨م، ونقل المعركة إلى قلب إسرائيل بدلاً من المعارك التي كانت تدور من خارج حدود فلسطين... من لبنان... والأردن... أو بواسطة الجيوش العربية من مصر وسورية... والأردن... والعراق أو عبر العالم... نيويورك، جنيف، لندن، باريس، وغيرها. المهم أن عرفات مات وهو يناضل في سبيل حلم الفلسطيني باستعادة وطنه المسلوب، وإقامة سلطته المستقلة على جزء من تراب أرضه الغالية... مات دون أن يحقق كل الحلم الذي أفنى عمره وهو يناضل من أجله... مات دونه شهيداً كما كان يتمنى ويقول دائماً... لا أسيراً... بل شهيداً، شهيداً... شهيداً... ودفن في جزء من أرض فلسطين، ولم يقبر في بلاد غريبة كغيره

من القادة الفلسطينيين الذين طاولتهم أيادي العدو الإسرائيلي في منافيهم وبلدان الشتات مثل غسان كنفاني، وكمال ناصر، وكمال عدوان، وأبو إياد، وأبو جهاد... وسواهم العشرات أو المئات بل الآلاف الذين ماتوا في الشتات ودفنوا فيه بعيداً من «فلسطينهم» ومنهم المناضل الكبير «الحكيم» جورج حبش، زعيم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

الفصل الرابع عشر

وديع حداد وكارلوس واختطاف الطائرات

إذا عدنا بذاكرتنا إلى أوائل السبعينيات، فإن اليمن الجنوبية حملت في تلك المرحلة اللافتات والشعارات الثورية الأكثر تطرفاً، مثل تحرير الخليج العربي والجزيرة. ومع الأسف، كان الشارع الثائر مصدرها، وكانت كلفة ذلك مرتفعة. بالإضافة إلى ذلك، فقد قدمنا الدعم إلى منظمات وحركات وطنية مثل «منظمة التحرير الفلسطينية» والعديد من فصائلها المناضلة، وبحدود استطاعتنا، بالإضافة إلى دعمنا منظمات تحرير وطنية في مختلف قارات العالم في آسيا وإفريقيا وأميركا اللاتينية، ومنظمات في إريتريا، والصومال، وجيبوتي، وزيمبابوي، والسودان وجنوب إفريقيا، وفي العراق، وعمان، والبحرين، ولبنان، والفيليبين، وفي تشيلي، وسلفادور ونيكاراغوا.

احتضنت اليمن الديمقراطية العديد من المنظمات الثورية من قارات العالم كافة، كما أشرنا آنفاً، كنا نرى فيها حركات تناضل في سبيل حقوق شعوبها، وفي الوقت نفسه تمثل تلك العلاقة قوة لنظامنا. إذ كانت اليمن الديمقراطية تعاني العديد من المصاعب التي كانت الدول الغربية السبب فيها، حيث فرضت حصاراً سياسياً واقتصادياً على نظامنا، وقدمت دعماً ناشطاً للأعمال العسكرية المناوئة لنا، سواء على الحدود، أو من خلال العصابات المنظمة المرسلة إلى داخل البلاد للقيام بأعمال التخريب، كتلغيم الطرقات، وتسميم الآبار، وقتل

الأطباء والمدرسين. وكانت أخطر تلك المحاولات العصابة المسلحة التي دربتها وكالة المخابرات المركزية الأميركية وأرسلتها إلى داخل حدودنا في عام ١٩٨٢م ضمن عملياتها الخفية التي نفذتها في عهد رئيسها «كيسي»، وبأمر من الرئيس كارتر قبل وصول ريغان إلى السلطة. ويمكن مراجعة تفاصيل ذلك في كتاب «الحجاب» لبوب وودورد. كذلك فإنني قد تحدثت عنه في الفصل الخاص بالعلاقات مع السعودية، وكان ضمن أهدافها تفجير أهم المنشآت الاقتصادية في العاصمة عدن، بما فيها مصفاة النفط، لكن تلك العصابة التي كانت تسمّى عصابة «دهمس» وقعت في أيدينا، وقُدِّم أفرادها إلى العدالة، ونالوا العقاب الذي يستحقونه. وكان ذلك يعني أننا أيضاً كنا عرضة للإرهاب ولعمليات الابتزاز بتشجيع وتمويل من بعض الدول الغربية.

ولم يكن هذا هو النشاط الوحيد الذي نظمته أجهزة المخابرات الغربية والأميركية ضد بلادنا، بل إنها توغلت داخل جهازنا الدبلوماسي، وجنّدت بعضاً من دبلوماسيينا العاملين في سفارتينا في الخرطوم ولندن.

وبرغم أنني كنت أعرف، وعلى اطلاع على النشاط المعادي لنا حتى قبل أن يكشف عنه كتاب (الحجاب)، فلم نشأ اتهامهم بذلك، حتى لا يؤدي ذلك إلى مزيد من تدهور العلاقات بين بلدينا، خصوصاً أننا كنا نتطلع إلى يوم تعود فيه العلاقات الدبلوماسية التي كانت مقطوعة بين عدن وواشنطن. في ذلك الوقت كانت واشنطن والعديد من الدول الغربية توجه إلينا تهمة مساعدة الإرهاب. وكان هذا أحد أسباب الجفاء بين بلادنا وتلك البلدان. وفي الحقيقة كنا في بداية عقد الثمانينيات بحاجة إلى استلهام سياسة تنبع من روحنا الوطنية وتخدم ما تقتضيه مصالحنا في المجالين الداخلي والخارجي. وهكذا فإنني عندما أصبحتُ رئيساً في أبريل عام ١٩٨٠م. قمنا بمراجعة مواقفنا من بعض الحركات الخارجية التي كانت تتدخل في شؤوننا الداخلية، ويقودها هذا التدخل إلى الانقسام وفقاً لصراعاتنا الداخلية التي لم تكن معنية بها.

وكان بعضهم يرفع شعارات متطرفة لم تكن لتجدي أو لتتحقق في أي يوم من الأيام. فقد وجدت نفسي ذات يوم أزور الشاعر العراقي مظفر النواب الذي كان يتلقى العلاج في

المستشفى العسكري في عدن، للاطمئنان إلى صحته، وكنت عائداً لتوّي من موسكو بعد أن حضرت أحد مؤتمرات الحزب الشيوعي السوفياتي. وقد سألني بعد أن اطمأننت إليه: كيف كانت الزيارة؟

أجبته: ممتازة!

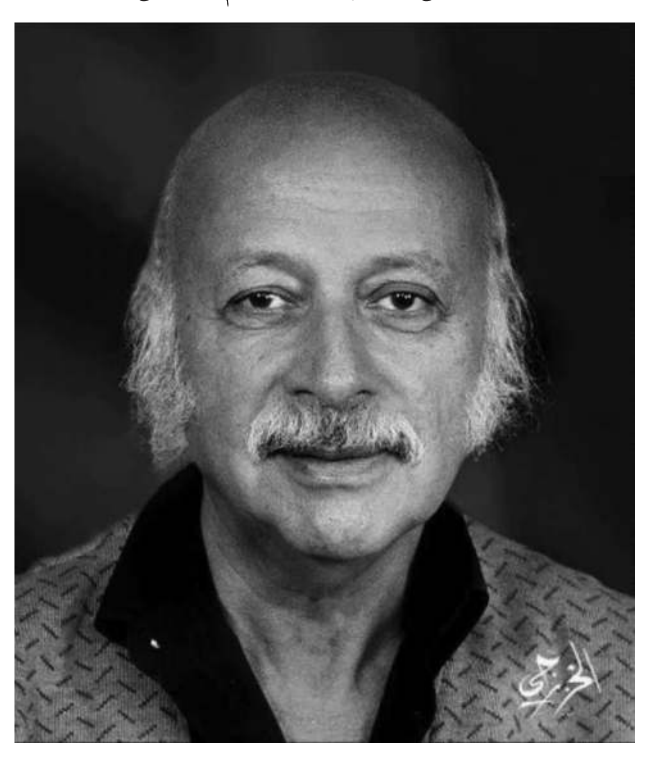
فعلّق: أمر مؤسف أنكم متأثرون كثيراً بالإمبريالية السوفياتية. أنصحكم بقطع العلاقة معهم والاعتماد علينا.

نظرت إليه مندهشاً وقلت له:

ومن أنتم؟!

لم يتأخر في الإجابة قائلاً: نحن، والجبهة الشعبية لتحرير عُمان، قريباً سنُسقط النظام في العراق، وهم سيُسقطون النظام في عُمان، وسنقدم لكم كل ما تطلبون.

قلت له: كنت أظنك عاقلاً لكن ما تقوله هذا كلام مجانين(!)



مظفر النواب

فعلاً كان كلام مجانين. كنت أخشى أن يصل هذا الكلام إلى البعض عندنا ممّن لم يكن ينقصهم شيء لتصديق مثل هذا الكلام والتأثر به. وكان يكفينا أننا استعدينا العالم كله بمشاريع مثل هذه غير قابلة أبداً للتحقّق. لم يتأخر الوقت ليثبت الزمن خيبة هذه الأحلام المغامرة، فلقد تعرضت الجبهة الشعبية لتحرير عُمان لأشد الضربات إيلاماً في نهاية السبعينيات، ووصل بها الأمر إلى خسران كل الأراضي التي كانت قد استولت عليها في وقت سابق في إقليم ظفار، وإلى عودة غالبية قياداتها الرئيسة إلى السلطنة، حيث سلّمهم السلطان قابوس مسؤوليات مهمة في حكم البلاد.

وجاء عام ١٩٨٢م وقمنا فيه بتطبيع العلاقة مع سلطنة عُمان، آخر دولة في المنطقة التي لم نقم معها علاقات دبلوماسية حتى ذلك الوقت.

استدعيت الأمين العام للجبهة الشعبية لتحرير عُمان المقيم في عدن وقلت له: نحن جادون في تطبيع علاقاتنا مع سلطنة عُمان، وإذا كنتم ترغبون في تسوية أوضاعكم مع السلطة في مسقط، فنحن على استعداد لإدراج مشكلتكم بنداً في المباحثات لإيجاد حلّ سياسي للمشكلة بالحوار.

كان كل رده الذي أذهلني أنه أخرج من جيبه «شريط كاسيت» وقال لي: أممكن أن نستمع إليه!

قلت له: على ماذا يحتوي؟!

قال: آخر أغنية. هل استمعت إليها؟

بالفعل، وضع الشريط في جهاز التسجيل وأداره على أغنية يمنية لاقت شهرة آنذاك، وكان اسمها على ما أذكر «صبوحة خطبها نصيب»، في إشارة إلى أننا نحاول بيع الثورة للجيران ولو أن شاعرها فريد بركات لم يقصد هذا المعنى تحديداً.

كان هذا مثالاً فقط لنوع «الثوار» الذين نسوا القضايا التي يجب أن يهتموا بها. ومثال آخر على هؤلاء، وكان من حركة تحرر وطنية أخرى، كان من أكثر الناس انتقاداً لسياستنا الاقتصادية الجديدة بعد عام ١٩٨٠. وكان يقول في كل مكان يذهب إليه إننا حوَّلنا اليمن الديمقراطية إلى مجتمع استهلاكي على النمط الخليجي، وسمحنا للناس بامتلاك

تلفزيونات، وأجهزة فيديو، وتكييف وثلاجات، في الوقت الذي تراجعنا فيه عن دعم حركات التحرر الوطني!!

شاءت المُصادفة أن أدخل بيته. إذ دعاني إلى تناول الغداء أنا و«صالح مصلح قاسم» وزير الدفاع و«محمد سليمان ناصر» وزير الزراعة. للوهلة الأولى كنت أعتقد أنني سأدخل منزل ثائر متقشف، وأننا لن نجد مكاناً نجلس فيه. لكن المفاجأة أذهلتني بعد دخول منزله في أحد أحياء مدينة عدن. فقد لفح هواء المكيف البارد وجهي ما إن دخلت الصالة المؤثثة بأثاث فاخر، واعتقدت أنه الوحيد الذي يملكه، لكنه قادنا إلى غرفة أخرى كانت الصالون الحقيقي، وكانت هي الأخرى مكيفة الهواء. واكتشف وزير الزراعة وجود مكيف هواء في غرفة ثالثة عندما فتحها خطأً بينما كان في نيته الذهاب إلى الحمّام!

الحقيقة التي يعرفها الجميع أننا في تلك الأيام كنا قد حظرنا على مواطنينا استخدام مكيفات الهواء، في محاولة لترشيد الاستهلاك، لأن البلد كان يمرّ بنقص حادّ في الطاقة الكهربائية، بينما كان هذا الرجل الذي يكثر من النقد لسياستنا الاقتصادية يستعمل المكيفات في كل غرف منزله طوال ساعات اليوم.

انزعجت عندما عرفت نوعية الحياة التي يعيشها هو وأمثاله الذين يرفعون شعارات متطرفة في الاجتماعات العامة، بينما ينطبق عليهم المثل: «يناصرون الفقراء نهاراً ويعاشرون الأغنياء ليلاً».

خطف الطائرات

كان الفلسطينيون أول من دشن عملية خطف الطائرات في أوائل السبعينيات من القرن العشرين المنصرم، في مرحلة ساورهم فيها اليأس، فأرادوا لفت أنظار العالم إلى مأساة شعبهم الفلسطيني، وكان وديع حداد صاحب فكرة خطف الطائرات، لكنهم تخلوا عن هذا الأسلوب من ذات أنفسهم في زمن متأخر، عندما اكتشفوا ما يجره عليهم هذا النوع من النشاط من نتائج عكسية تؤذي نضالهم وتشوهه، وتلحق الضرر بقضيتهم العادلة أكثر مما تفيدهم.

كان المرحوم وديع حداد، الذي مات مسموماً في أحد مستشفيات ألمانيا الشرقية عام ١٩٧٨ (حسب كتاب أهارون كلاين الذي كشف أن الموساد الإسرائيلي وضع مادة سامة بيولوجية في شوكولا من النوع البلجيكي الذي كان يفضله المرحوم وديع بواسطة عميل فلسطيني) هو العقل المدبر والمهندس لعملية خطف الطائرات في العالم. وقد دشن هذه العملية على ما يبدو عندما اختطف فدائيون، على رأسهم الفدائية ليلى خالد، تابعون للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين اختطف إحدى الطائرات في ٦ سبتمبر ١٩٧٠م.

منذ ذلك الحين وخطف الطائرات يثير عاصفة من الاتهامات: أهو عمل مشروع، أم هو عمل إرهابي وقرصنة جوية؟ وقد اقتاتت الصحافة وأجهزة الاستخبارات الغربية بهذه المادة، موجهة الاتهامات الغامضة من غير دليل إلى العديد من الدول في العالم النامي، ومنها اليمن الديمقراطية تارة، والاتحاد السوفياتي تارة أخرى، دون أن تملك دليلاً مادياً على ذلك.

وديع حداد

كان لليمن الديمقراطية علاقة بالدكتور وديع حداد وبالجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، لكن قطعاً لم تكن لها علاقة بالعمليات التي خطط لها أو نفذها....

أما كيف نشأت هذه العلاقة ومن أين جاءت، فإن الدكتور حداد هو أحد القادة التاريخيين لحركة القوميين العرب، وأحد القادة البارزين للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. وكانت «الجبهة القومية» التي تحكم اليمن الديمقراطية أحد فروع الحركة. وبعد الصراع الذي نشأ داخل مركز الحركة في بيروت أعلنت استقلالها عنها، لكنها كانت متأثرة بجناح «جورج حبش» الذي استقلّ هو الآخر عن حركة القوميين العرب وأسس «الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين». ومن هنا نشأت علاقتها بالدكتور وديع حداد.

في ذلك الحين كان الدكتور حداد ينفذ سياسة الجبهة الشعبية، وكان مسؤولاً عن الفرع الخارجي للجبهة، وقد ارتبط اسمه باختطاف الطائرات وعمليات ميونيخ عام ١٩٧٢، وسنغافورة وكورال سي وغيرها من العمليات. وبعد أن انشقّ عنها، يبدو أنه استمر في القيام

بعملياته العسكرية ضد الأهداف الإسرائيلية والغربية في العالم بالتعاون مع بلدان عربية، ومع شخصيات دولية مثل «كارلوس» والألوية الحمراء. كذلك نظم شبكة علاقات واسعة مع منظمات دولية أخرى تساعده على تنفيذ عملياته الجريئة. وكان يتمتع بعقل جبار ومقدرة تنظيمية عالية تشهد بها نوعية العمليات التي خطط لها ونفذها في العديد من البلدان في العالم، حتى إن عملياته وصلت في يوم من الأيام إلى «سنغافورة» حيث قامت مجموعة تابعة له بتفجير مستودعات للنفط.

اختطاف الـ «لوفنتهانزا» (بوينغ ٧٤٧)

اتجهت عيون العالم مرة أخرى إلى عدن في ٢٢ فبراير عام ١٩٧٢م عندما سمحنا لطائرة «لوفتهانزا» مخطوفة من نوع بوينغ ٧٤٧ تابعة لألمانيا الغربية بالهبوط، وعلى متنها جوزيف كندي نجل السيناتور الأميركي «روبرت كندي» بالإضافة إلى ١٧٢ راكباً. يومذاك كنت رئيساً للوزراء ووزيراً للدفاع. ذهبت إلى المطار فور علمي بالموضوع، إذ كان الوضع في غاية الحساسية، وكان يحتاج إلى معالجة جدية. فقد كنت أخشى أن يرتكب الخاطفون حماقة ما فوق أرض اليمن الديمقراطية، كأن ينسفوا الطائرة أو يقتلوا الرهائن، فتتحمل بلادنا تبعات ذلك الموقف دون أن تكون لها يد فيه.



الطائرة المختطفة في ٢٢ شباط/ فبراير ١٩٧٢





ليلى خالد

فاوضت الخاطفين[1] عدة ساعات، في محاولة لإقناعهم بالإفراج عن الركاب مقابل ضمان حياتهم، وتلبية جميع طلباتهم التي لم نكن نعرفها. ولكنهم أفرجوا عن الأطفال والنساء والعجزة، ولم يفرجوا عن الطائرة وباقي الركاب، ومنهم جوزيف روبرت كندي الذي عُدَّ صيداً ثميناً، إلا عندما تلقوا إشارة وكلمة السر التي كانوا ينتظرونها من مركزهم في بيروت الذي كان يتفاوض مع الألمان الغربيين بعد أن دفعوا للجبهة خمسة ملايين دولار لقاء الإفراج عن الطائرة وركابها.

علمت فيما بعد بوقت طويل أن الجبهة وجهت رسالةً بالبريد إلى الشركة تطالبها بدفع هذا المبلغ موزعاً على عدد من العملات ومن فئات مختلفة، بشرط أن يحمله مبعوث خاص بطائرة خاصة من ألمانيا إلى بيروت، وستكون في انتظاره سيارة «فولكس واغن» خارج المطار، وعليه أن يفتحها ويضع الحقيبة في الخلف ويفتح باب السيارة الأمامي وسيجد التعليمات في «التابلو» ومفتاح السيارة التي سيقودها بنفسه وفقاً للخريطة حتى المكان الذي حدد له خارج بيروت بالقرب من أحد الفنادق في مدينة صيدا، وعند المكان المحدد عليه أن يتوقف وينتظر حتى يتسلم توجيهات أخرى. وهكذا كان، ففي المكان المحدد وثب إلى السيارة أشخاص من الجبهة تسلموا المبلغ واصطحبوا الشخص ونقلوه إلى مطعم لتناول العشاء في مدينة صيدا، بينما كانوا يعدون المبلغ، وبعد أن تحققوا من صحة الرقم أعادوه بسيارة أخرى إلى مطار بيروت وأعطوه كلمة السر (أبو طلعت) التي بلغت إلى الخاطفين عبر شركة الطيران، وأصبح للجبهة الشعبية رصيد إضافي قيمته خمسة ملايين دولار!

العمليات السرية الأميركية

لكن بعض الدول الغربية لم تستطع أن تتراجع عن موقفها المناوئ لنظامنا، وتحديداً الولايات المتحدة الأميركية، حيث دخل رجال الـ (C.I.A) في عمليات سرية كشفنا عنها في وقتها لإحراق عاصمة اليمن الديمقراطية، كما ذكرت سابقاً. وكان لا بد أن يؤدي ذلك

---

(١) من بين الخاطفين السيدة ليلى خالد.

الموقف إلى بعد الشقة بيننا وبين واشنطن التي لم تتخلّ عن موقفها العدائي طوال سنوات عديدة.

لم يكن الحق يقع علينا وحدنا في استمرار القطيعة بيننا وبين الإدارة الأميركية، فقد كان من الصعب قبول متابعة واشنطن نشاطاتها المعادية لبلادنا، والحديث في الوقت نفسه عن علاقات طيبة وطبيعية بين البلدين. وهذا ما صارحت به المستشرق الأميركي الذي التقيته في صنعاء عام ١٩٨٨م عندما سألني عن أسباب عدم إقامة علاقات مع بلاده.

قلت له: لم يبادر أحد إلى تحريك علاقاتنا مع الولايات المتحدة الأميركية، رغم أنه في عام ١٩٧٦ وعام ١٩٧٧ لاحت بادرة ما، عندما قام النائب الأميركي «بول فندلي» بزيارة لليمن الديمقراطية والتقى الرئيس سالم ربيع علي في مكتبه مساء اليوم الذي سبق رحيله، وقال في كتابه من يجرؤ على الكلام: «استقبلني الرئيس سالم ربيع علي داخل مقره المحاط بحراسة شديدة، وهو يضمّ منزله ومكاتبه. وقد أدخلوني إلى قاعة استقبال مستطيلة تزينها طنافس زرقاء مشجرة وستائر ذهبية تغطي جدرانها الثلاثة، أما الجدار الرابع فينفتح على فناء فسيح وراء المقر، وعلقت بالسقف المراوح في صفين متقابلين. وفي وسط القاعة مجموعة وحيدة من الأرائك والمقاعد المذهبة التنجيد، وما إن بلغت دائرة المفروشات حتى دخل الرئيس بصحبة وزير خارجيته ومترجم من الباب الذي دخلت منه. ولم أكن بحاجة إلى من يعرِّفني بالرئيس العدني، إذ رأيته في الصور المعلقة في أماكن عديدة من عدن، إلا أن تلك الصور والحق يقال لم تكن منصفة له، فهو رجل مديد القامة قوي البنية وهو في الأربعين من عمره، وقد خالط شعره الأسود بعض البياض، أسمر البشرة جليل في مشيته ومجلسه. وكان يتكلم بصوت ناعم، وتلمع سنّاه الذهبيتان كلما انشقّ فمه عن ابتسامة رقيقة. وكان ينتظر كتاب «كيسنجر» الذي يدل على الوزن الذي تعلقه الولايات المتحدة على مهمتي. وعندما سلمته إياه، حاولت أن أتوسع في شرح أهميته. قلت: لعل فخامتكم تسمحون لي بالإدلاء ببعض الشروح. إن هذا الكتاب يعرض بصفة رسمية رغبة الولايات المتحدة في إعادة العلاقات الدبلوماسية.. وهذا شيء مهم. وحكومتنا بحاجة إلى هذه العلاقات لتفهم سياسات عدن ومشكلاتها، غير أن رئيس الولايات المتحدة ووزير الخارجية لا يستطيعان

تجاوز حدودهما في السياسة الخارجية، ولا يفعلان إلا ما يؤيده الكونغرس، ولذلك فمن المهم أيضاً أن يتفهم أعضاء الكونغرس على نحو أفضل أوضاع عدن والعالم العربي عموماً».

فردّ علي الرئيس: «إن عدن هي مثل متألق للجمهورية. أما المناطق الأخرى من بلادنا فوضعها مختلف جداً، وسكانها أكثر فقراً». وهنا كنت أغصّ بريقي. إذ لم أشاهد غير عدن، وقد هالني الفقر المدقع الذي يعيشه هذا (المثل المتألق) الذي ضربه الرئيس علي، فكيف تكون الحال في الأماكن الأخرى؟

وصارحني الرئيس بسبب حالة التوتر بين بلاده والولايات المتحدة حيث قال: «إن شعبنا يعتقد أن كل المآسي وكل الأضرار الناجمة عن أعمال المخربين هي في الحقيقة من فعل الحكومة الأميركية، فجميع العتاد الذي صادرناه من صنع أميركي»، وأردف قائلاً: «إنني أحبذ إقامة علاقات مع الولايات المتحدة، ولكن يجب أن تكون ذات صلة بالأمور التي يشكو منها شعبي الآن، وإن عدن لا ترغب في الانعزال عن الولايات المتحدة».

أما بخصوص السجين «فرانكلين» فحالما علم باهتمامي به، أكد أنه يلقى معاملة تفضيلية وقال عند توديعه لي: «بوسعك الآن أن تأخذه وقت تشاء». لم أكد أصدق ما سمعت «وبوسعك الآن أن تأخذه وقت تشاء». وقد غمرتني الفرحة، حتى أنني عثرت أثناء خروجي من القاعة وبالفعل وجدته بانتظاري في شقتي. وفي الساعة السادسة من صباح اليوم التالي كنا معاً على متن الطائرة المتجهة إلى بيروت، فنيويورك، فسانت لويس حيث رحبت أسرة فرنكلين بعودته إلى بيته.

وأنا على يقين أن السبب الرئيس في الإفراج عن فرانكلين، كان اتجاه حكومة عدن نحو البحث بكل حذر عن علاقات فضلى مع الولايات المتحدة. وفي وزارة الخارجية الأميركية كان بعض (الخبراء في الشؤون العربية) ما زالوا غاضبين من النظام في عدن واعتبروا عدن (مجرد مكان لتدريب الإرهابيين من منظمة التحرير الفلسطينية)، بينما يرى آخرون، مثل وزير الخارجية هنري كيسنجر، خلاف ذلك، غير أن الحكومة الأميركية تلكأت وتهربت من الجواب وتأخرت ثلاث سنوات. وحلّ جيمي كارتر محل جيرالد فورد في البيت الأبيض، وأصبح سايروس فانس وزيراً للخارجية. وقد رفضت حكومتنا طلب عدن شراء القمح

بالدين، ثم رفضت عرضها لشراء ثلاث طائرات أميركية مستعملة، ومضت تؤجل حتى المحادثات التمهيدية.

وعند اجتماعي الثاني بالرئيس العدني سالم ربيع علي في سبتمبر ١٩٧٧ في نيويورك حيث ألقى خطاباً في الأمم المتحدة، أعرب من جديد عن رغبته في تجديد العلاقات مع الولايات المتحدة، واقترح أن أرفع تقريراً عن محادثاتنا إلى وزير الخارجية سايروس فانس، ففعلت. وكانت النتيجة اتفاق فانس ووزير خارجية اليمن السيد مطيع، على عقد محادثات استطلاعية، فبدا ذلك لي خطوة تقدمية رائعة. وكان المفروض أن تبدأ المحادثات في عدن خلال أسابيع قليلة، ولكن يا للأسف حدث تسويف في الموضوع!

ولم يكن قد تحدد موعد لهذه المحادثات عندما عدت إلى الشرق الأوسط مع عدد من أعضاء الكونغرس الآخرين في يناير ١٩٧٨، وأجريت تعديلاً في برنامجي ليتسنى لي القيام بزيارة جانبية لعدن.

وقبل أن أترك الفريق اجتمعنا إلى وزير الخارجية فانس الذي حدث أن تقاطعت رحلاته مع رحلاتنا، واجتمعنا إلى وليّ العهد السعودي الأمير فهد، وهو شخص ضخم البنية، مثير للإعجاب، يتكلم الإنكليزية بفصاحة، وأصبح فيما بعد عاهل المملكة العربية السعودية.

وأبدى الأمير فهد (يومذاك) تحبيذاً لجهودي في عدن، وطلب إليّ أن أبلغ المسؤولين فيها أن المملكة العربية السعودية مستعدة لاستئناف مدهم بالمساعدات الاقتصادية.

عندما وصلت إلى عدن كان الوضع فيها قد تحسن، إذ تبادلت اليمن الجنوبية السفراء مع عدوتها اللدود السابقة العربية السعودية، على الرغم من استمرار المنازعات الإقليمية بينهما.

وكانت عدن قد وافقت حينئذ على إقامة علاقات دبلوماسية مع الأردن. وتوقفت الإذاعة المحلية عن بثّ التعليقات المعادية (للاستعماريين) الأميركيين والسعوديين. وقد رافقتني هذه المرة زوجتي لوسيل، فخصص لنا قصر الضيافة الذي حللت به في المرة السابقة، إلا أن التغيير الوحيد الذي طرأ وجود براد مليء بأصناف شتى من المأكولات والمشروبات.

واستقبلنا الرئيس علي في القاعة الرحبة إياها مع ثلة من حرس الشرف.

ومع أنه تجنب التعليق على عرض المساعدة السعودية، فقد تحدث بحماسة عن وليّ العهد فهد، ومضى يقول: «إننا بانتظار وصول الوفد الأميركي من الولايات المتحدة قبل نهاية الشهر الحالي». عندئذ ذبت خجلاً، إذ كنت أعلم أن الوفد لن يأتي في ذلك الشهر، بل إن سفره أرجئ إلى أجل غير محدد. وقبل أيام قليلة أبلغني فانس هذا الخبر السيئ، ولكنه لم يوضح السبب، فقلت عسى أن يكون الرئيس العدني قد أشعر بهذا التأخير.

فأجاب فانس: «سأتحقق من ذلك». ولكن، يا للأسف، لم يتحقق شيء من هذا القبيل!

وهكذا ظل ربيع علي ينتظر الوفد يوماً بعد يوم، إلا أن الوفد لم يحضر. ولم أجرؤ على مصارحته بالتغيير، فرحت أستمع وأحاول التظاهر بالتفاؤل.

وكنت أدرك أنني لو أبلغته النبأ السيئ لتعزز جانب منتقديه الذين كانوا يعارضون المصالحة مع أميركا.

وهنا غيرت الموضوع فقلت: «يقول بعض خبرائنا الاستراتيجيين إنكم سمحتم للسوفيات بإقامة قاعدة بحرية هنا، فما تعليقكم على هذا الكلام؟». فاعترض بشدة قائلاً: «هذا غير صحيح. فنحن لا نسمح للسوفيات أو أية دولة أجنبية أخرى بإقامة قاعدة عسكرية على أراضينا إلا أننا نتعاون مع السوفيات لأنهم يساعدوننا». وختم الرئيس حديثه بأن حمّلني رسالة إلى واشنطن يقول فيها:

«أرجوك أن تبلغ تحياتي الحارة إلى الرئيس كارتر، وتعلمه أننا تواقون إلى الاحتفاظ بعلاقات ودية بين اليمن الديمقراطية والولايات المتحدة. ونحن نعلم أن الرئيس كارتر مهتم بالاحتفاظ بعلاقات ودية مع جميع البلدان، وندرك أن هذه سياسة إيجابية. ونعتقد أنه ينبغي زيادة تدعيم علاقاتنا».

وبعد شهر تمكنت من عرض هذا الطلب على الرئيس جيمي كارتر شخصياً في البيت الأبيض وقال لي إنه «دهش ومسرور» برسالة الرئيس العدني.

وشكرني كارتر وقال، مثل ما سبق أن قال فانس: «سأهتم بهذا الموضوع».

وقد صدق كارتر في وعده، فبعد خمسة أشهر من آخر لقاء لي مع الرئيس علي، رتب فريق من وزارة الخارجية زيارة إلى عدن في ٢٦ حزيران/ يونيو ١٩٧٨ لإجراء (محادثات

استطلاعية) والبحث (بطريقة غير ملزمة) في استئناف المفاوضات الدبلوماسية. وكان المفروض أن يستقبل الرئيس علي الفريق يوم وصوله، إلا أن أحداث عام ١٩٧٨م حالت دون ذلك، واتصل بي السفير عبد الله الأشطل عبر الهاتف من نيويورك ليخبرني أن الوفد سيكون موضع ترحيب من قبل القيادة الجديدة، إلا أن الرحلة كانت قد ألغيت. وقد غمَّني جداً إعدام سالم ربيع علي، فطلبت من الأشطل تفسيراً لذلك، فأجابني بأنها «مسألة داخلية لا دخل للعالم الخارجي بها». وقد حرصت على إضافة هذه الفقرة من كتاب فندلي «من يجرؤ على الكلام» لأهميتها وأعود لمتابعة حديث المستشرق الأميركي.

لكن الاتصالات توقفت على الرغم من أننا كنا ننتهج سياسة سلمية، وطبّعنا علاقاتنا مع الدول المجاورة، ودعونا الجميع إلى تطبيع علاقاتهم مع بلدنا، [لكن وكالة المخابرات المركزية الـ(C.I.A) أرسلت فرق الموت إلى داخل أراضينا لإحراق عاصمة بلادنا في عام ١٩٨٢م]. وكنا نعرف هذه الحقيقة من واقع اعترافات أفراد العصابة التي ألقينا القبض عليها، وذلك قبل أن يكشف عنها «بوب وودورد» في كتابه «الحجاب» الذي يتحدث فيه عن العمليات السرية للـ (C.I.A). وفي الوقت نفسه كانت إدارتكم تجند عدداً من دبلوماسيينا في البلدان العربية والأوروبية للتجسس على بلادهم، وتجري قواتكم مناورات عسكرية استفزازية على الحدود العمانية اليمنية.

علّق المستشرق الأميركي: هذه فعلاً حماقات!

وأضاف: لقد طلب العمانيون أن يبقى أمر المناورة سراً، لكن الأجهزة المختصة في الولايات المتحدة أصرت على أن تكون المناورة علنية إمعاناً في الاستفزاز.

قلت له: هل رأيت؟! أظن أنك تفهم الآن مجمل الأسباب، ومع ذلك لو تمت بادرة حُسن نية من قبلكم لما رفضناها.

عزا ألفرد هاليداي «تأزم العلاقات بين عدن وواشنطن في كتابه الذي سبقت الإشارة إليه، إلى الحرب بين صنعاء وعدن في عام ١٩٧٩م، وبروز قضية لها دور في زيادة تأزم العلاقات بين البلدين، وهي قضية الإرهاب، حيث هاجم الكونغرس والصحافة الأميركية اليمن الجنوبي واتهماه بالإرهاب، وأصبحت هذه القضية في صلب اهتمام السياسة

الأميركية والقوانين الأميركية. واستناداً إلى وثائق متبادلة بين الخارجية الأميركية والسيناتور «جاكوب جافيش» اتضح أن الخارجية الأميركية قد سمّت اليمن الجنوبي إضافة إلى العراق وليبيا والصومال دولاً داعمة للإرهاب، وفرضت حظراً على توريد الأسلحة إلى الدول الموضوعة على هذه القائمة، ووقفت في وجه شراء اليمن الجنوبي طائرات البوينغ المدنية لشركة الخطوط الجوية اليمنية (اليمدا)». وأضاف هاليداي: «وقد أصبح علي ناصر محمد رئيساً لليمن الجنوبي عام ١٩٨٠م واتسم عهده بمرونة واضحة في السياسة الخارجية، إلّا أن ذلك لم يؤدِّ إلى تحسين العلاقات مع واشنطن».

اللقاء مع صبري البنا[١] (أبو نضال) في طرابلس

انشقّ أبو نضال عن منظمة فتح بعد أن كان ممثلاً لها في الخرطوم وبغداد، وشكّل منظمة فتح (المجلس الثوري)، كما انشقّ أبو صالح وأبو موسى وخالد العملة وشكلوا منظمة فتح الانتفاضة. فرّخت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين منظمات أخرى، كالجبهة الديمقراطية والجبهة الشعبية القيادة العامة، والجبهة الثورية، وجرت انقسامات بين هذه المنظمات المنشقة، سواء التي انشقت عن فتح أو الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، والأخطر أن هذه المنظمات لجأت إلى استخدام السلاح بدلاً من الحوار لحلّ المشاكل السياسية والفكرية والتنظيمية، ولتصفية بعضهم بعضاً سواء في لبنان أو تونس أو اليمن وخارج الوطن العربي.

---

(١) صبري البنا: ولد في يافا في أيار/ مايو عام ١٩٣٧م.



صبري البنا (أبو نضال)

لهذه الأسباب قتل عدد من مسؤولي منظمة التحرير خارج الوطن العربي، وخصوصاً بعض الممثلين للمنظمة: سعيد حمامي وعلي ياسين والدكتور عصام سرطاوي ونعيم خضر، وفي المقابل حكمت فتح على أبو نضال بالإعدام، واتهم بالعلاقة مع الموساد، وبدوره اعترف بأن الموساد قد اخترقتهم، كما أكد ذلك لي المناضل أبو إياد الذي كان أحد ضحاياه.

استُخدم أبو نضال في هذه التصفيات ونقل المعركة خارج الساحة الفلسطينية ضد رفاقه في السلاح بدلاً من توجيه السلاح إلى العدو الصهيوني، وقدم خدمات عظيمة وجليلة إلى إسرائيل وأعداء الثورة الفلسطينية، ولم ينج من تهديداته ومحاولات الاغتيال كاتب هذه المذكرات عندما كنت أدافع عن وحدة فتح ووحدة منظمة التحرير الفلسطينية ورفعت شعار «لا للانقسام ولا للاستسلام ونعم لوحدة منظمة التحرير الفلسطينية». فقد خطط أبو نضال بالتعاون مع النظام في عدن بعد عام ١٩٨٧م لاغتيالي بعد لقاءات ومفاوضات ومساومات

ومكافآت للقتلة وقادتهم من قبل جهاز أمن الدولة ودائرة العلاقات الخارجية في الحزب الاشتراكي اليمني... وجرى تدريب مجموعة من العناصر في عدن، تدربوا وسكنوا في إحدى البنايات التي تطل على ساحل أبين بخور مكسر، وعندما انكشف أمرهم حذّرتُ قائدهم بأننا سنردّ عليهم الصاع صاعين. لأسباب عديدة انتهى شهر العسل بين حكام عدن وجماعة أبو نضال، فقد مارست بعض الدول الكبرى، ولا سيما السفارة البريطانية الضغط على حكام عدن لوقف نشاط هذه المنظمة وإغلاق مكتبها، ووقف التعامل معها كما أكد لي ذلك عاطف أبو بكر الذي انشقّ عن مجموعة أبو نضال فيما بعد.

بعد ذلك، وفي ١٩٨٨م، طلب أبو نضال أن يلتقيني في ليبيا، وقد كلف القذافي العقيد أبو بكر يونس ترتيب لقاء بيننا في إحدى القرى السياحية على شاطئ طرابلس حيث التقيته، بعد أن ضاقت به كل الساحات العربية والدولية، حضر اللقاء أحمد عبد الله الحسني وحسين عرب وحسين صالح حسين، شعرت بأنه يريد أن يكسر حاجز التوتر والخلاف، ويكفّر عن أخطائه وحماقاته وأن يثبت لي أنه أصبح صديقاً وأنه على استعداد لعمل أي شيء من أجلي، بما في ذلك اغتيال من اقترح هو اغتيالهم، علي سالم البيض، حيدر العطاس ومحمد سعيد عبد الله محسن. كان يتحدث بحقد وكراهية عميقة عن هؤلاء الأشخاص الذين وصفهم بالعناصر المشتبه فيهم والعملاء للمخابرات البريطانية منذ فترة طويلة.

لم أعلّق على حديثه ومعلوماته عن هؤلاء، ولكنه كان يحاول تأكيد ذلك كلما واصل حديثه، ويردد أن التاريخ سيكشف من هم هؤلاء الذين يرفعون شعار الثورية والأممية. وعندما سألته عن المجموعة التي تدربت في عدن وكُلِّفت اغتيالي، قال: إن ذلك صحيح، ولكنهم خدعوني عندما قالوا إنك تعمل لمصلحة الرجعية والإمبريالية وإنك تنتقل بين العواصم الرجعية صنعاء، الرياض، أبو ظبي». وأضاف: غير أن القائد معمر القذافي أكد لي أن هذه المعلومات غير صحيحة، ونصح بالتعاون والتفاهم معك باعتبارك رجلاً قومياً ومناضلاً وحدوياً، ونحن الآن جاهزون للتعاون معك وتحويل المجموعة التي تدربت في عدن لتنفيذ أي مهمة تطلبها، ولكن لنا طلبان:

القيام بعمليات داخل السعودية، وتحديداً ضد خالد بن محفوظ والبنك الأهلي

السعودي أو أي هدف آخر، وذلك للاستيلاء على عشرات الملايين وسيكون لكم نصيب الأسد... عليكم إدخال السلاح ونحن علينا التنفيذ في جدة. ابتسم ونظر نحوي وقال: كنتُ أعمل محاسباً في البنك الأهلي، وملم بأوضاع البنك. ولكنني لم أعلّق على عمله أو علاقته بابن محفوظ.

– القيام بعملية مشتركة في تل أبيب وسنُدخل مجموعة من الضفادع البشرية إلى هناك بواسطة زورق، وهذه العملية سترفع من سمعتكم على المستوى الفلسطيني والعربي والدولي ولديكم مقاتلون مؤهلون لذلك، كما أكد لي ذلك القائد معمر القذافي والعميد أبو بكر يونس. شعرت بأن هذه الأفكار التي طرحها معي قد درس أبو نضال جيداً، وأنه يتوقع منا أن نوافق عليها تحت تأثير تلك الشعارات القومية والثورية، لا أدري أي نوع من السياسيين كان يعتقدني أبو نضال وهو يعرض عليّ أفكاره أو مخططاته تلك، وأعتقد أن أوهاماً قد ساورته بأنني سأوافق عليها. بدت لي أفكاره مجنونة لا يمكن لعاقل أن يتقبلها لهذا.

قلت له: إن الأولوية بالنسبة إلينا هي العمل مع كل الأشقاء في اليمن وخارج اليمن للضغط على حكام عدن لقبول مشروع المصالحة الوطنية في جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية، وإن عيون قياداتنا وضباطنا تتجه الآن إلى عدن فقط... ومن الصعب التفكير في شيء آخر خلاف ذلك، وسيعتبر رجالنا أي عمل من هذا النوع هرباً من مشروع الوحدة الوطنية والوحدة اليمنية. وفي حديثٍ طويل بيني وبين عاطف أبو بكر عندما كان ممثلاً لفتح في براغ، وصف أبو نضال بالخطر على الثورة الفلسطينية، ثم طرح بعض مشاريعه التجارية لخدمة مشاريعه السياسية كفتح سوبر ماركت في صنعاء يستفيد منه سياسياً وأمنياً ومالياً، وحاجته إلى المساعدة على إقناع السلطات اليمنية في صنعاء بذلك وأنهم بحاجة إلى جوازات سفر لأبو نضال ولعاطف أبو بكر الذي كان ممثلاً للمنظمة في براغ والذي حمل في السابق جواز سفر يمنياً، رفضت السلطات اليمنية تجديده.

كان أبو نضال يبدو متوتراً، بالرغم من أنه كان يحاول إخفاء ذلك، غير أن تجاعيد وجهه تظهر انفعالاته وتفضحه، وذلك عندما يحاول رفع حاجبيه إلى أعلى، وتبدو صلعته التي كانت تلمع كثيراً حيث هرَّ شعره ولم يبقَ منه إلا القليل الذي تناثر على أكثر من مكان في

مؤخرة رأسه وأذنيه. لم أشعر وأنا ألتقيه لأول مرة بأنه ذلك الشخص المهيب والخطر كما تصوّره أجهزة الإعلام التي نفخت فيه وحوَّلته إلى بعبع وإرهابي يخيف الجميع، بل شعرت بأنه لم يكن ذلك الشخص الذي هدد في يوم من الأيام باغتيالي لأنني رفضت الانقسامات في فتح ومنظمة التحرير. لم أخرج من لقائي معه بالانطباع نفسه الذي خرجت به عند لقائي بالمناضل وديع حداد وكارلوس وأبو إياد وجورج حبش الذين تحدثت أجهزة الإعلام عنهم كثيراً، فأعطتهم هالة يستحقونها، لأن أيديهم لم تلطخ بدماء رفاقهم في الثورة الفلسطينية، بل عاشوا أوفياء للثورة ومات وسجن بعضهم من أجلها ولا يزالون حتى اليوم.

انتحار «أبو نضال» في بغداد

بعد ١٤ عاماً من لقائي أبو نضال في طرابلس ١٩٨٨م أعلن رئيس المخابرات العراقية طاهر جليل الحبوش أن «أبو نضال» انتحر بطلقة واحدة بعد أن توجه رجال أمن عراقيون إلى منزله في بغداد لإبلاغه أنه دخل العراق بنحو غير مشروع، وأن عليه أن يصحبهم للتحقيق معه، فرحّب بذلك في بادئ الأمر، ثم استأذن من رجال الأمن ودخل إلى حجرته وأغلق الباب وحينئذ سمع صوت إطلاق نار من مسدس، نُقل على أثره إلى غرفة عمليات للعناية الفائقة في أحد المستشفيات حيث توفي هناك.

كان أبو نضال قد خطّط لاغتيالي مع أحد ضباط جهاز أمن الدولة في عدن، ووضع خطته للتخلص مني من طريق السيجار المسمّم أو القداحات المتفجرة مع استعمال عصا تطلق رصاصاً قاتلاً كاحتياط في حالة إخفاق الخطة الأولى، وذلك مقابل فتح مكتب لأبو نضال في عدن، وقد افتتح عام ١٩٨٧م مكتباً سرياً للجماعة، كما روى ذلك السيد عاطف أبو بكر في مذكراته في صحيفة الحياة[1] حيث قال: «إن أبو نضال حَوّل وبدّل موقعه وانقلب على عدن في عام ١٩٨٧م- ١٩٨٨م وصار جاهزاً لمدّ جُسور مع خصومهم، وقد رتبنا له في ليبيا لقاءً مع علي ناصر محمد، حيث عرض على مجموعة علي ناصر أن يوفر لها غطاءً في بيروت وأن يدرب لها عناصر في معسكره في ليبيا». وعاطف هنا لم يقل الحقيقة بالنسبة

(١) ولد عاطف أبو بكر في عام ١٩٤٦م، في لواء جنين - فلسطين.

إلى الأشياء التي أدت إلى طردهم من عدن كما روى لي أبو نضال بحضوره وذكرته في الصفحات السابقة، ويضيف عاطف في مذكراته: «كان كثير الشكوك وعصبياً وكان باطنياً وانطوائياً إلى درجة أنه حتى عام ١٩٨٣م لم يقف أمام ندوة مفتوحة ولم يحاور الجمهور، يجلس في مكتبه وأمامه ستارة وملفات، تذكر اسماً أمامه فيسحب ملفاً ويقول: هذا ملف الشخص، ليوهمك أنه يعرف كل شيء، اعتقدت عندما غبت عنه سنوات أنه تغير، لكنه ظل كما هو، تحدثه في السياسة فيحدثك دقيقتين ثم يدفع الموضوع إلى المستوى الأمني أو الاستخباري أو إلى إطلاق الاتهامات، شخصية غريبة، عصبي لكنه يتهرب من المواجهة المباشرة، حقود ولا ينسى، كلما تعامل مع شخص بنعومة يكون ذلك مقدمة لعمل ما ضد ذلك الشخص».

هذا هو أبو نضال كما عرفته وسمعت وقرأت عنه من أصدقائه وأعدائه، وقد انطوت أسطورته وأسراره مع الرصاصات التي اخترقته في بغداد!

كارلوس... إرهابي أم ثوري تراجيدي؟!

كارلوس مناضل عالمي من أصل فنزويلي ولد في ١٢ أكتوبر من عام ١٩٤٩م، وبث الرعب في أوساط أجهزة الأمن الغربية نظراً لارتباطه وتحالفه مع العديد من الحركات الثورية المتطرفة في عدائها للإمبريالية والاستعمار، كالألوية الحمراء، وجماعة بايدر-ماينهوف، والجيش الأحمر الياباني، وجيش تحرير الشعب التركي. أما في المنطقة العربية، فكانت علاقاته قوية أساساً مع أجنحة الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، جماعة وديع حداد.

ولد كارلوس[1] واسمه الحقيقي (إيليتش راميريز سانشيز) في كاراكاس عاصمة فنزويلا من أسرة شيوعية. وهو ابن لمحامٍ ثري يدعى التاغراسيا راميريز انشقّ عن الحزب الشيوعي الفنزويلي دون أن يتنكر لمبادئ الماركسية اللينينية، وقد سمّى أولاده الثلاثة إيليتش،

---

(١) كارلوس، هو الاسم الحركي الذي أطلق على إيليتش بعد إرساله من بيروت إلى الأردن لتدريبه هناك وضمه إلى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، وعلى الأغلب إن من أطلق عليه هذا الاسم إحدى رفيقاته. وكان يتحرك أثناء إقامته في دمشق باسم عبد الله بركات، منتحلاً صفة رجل أعمال لبناني.

وفلاديمير، ولينين، تيمناً بقائد الثورة البلشفية الروسية. انضمّ إيليتش إلى الحزب الشيوعي عام ١٩٦٤م، ولما بلغ الخامسة عشرة من عمره أنهى دراسته الثانوية عام ١٩٦٦م، وأخذ يجول في بعض بلدان أميركا اللاتينية، جزر الكاريبي والمكسيك. عاد بعد ذلك إلى فنزويلا حيث شارك في الحركة الطالبية الجامعية ضد النظام القائم، ثم سافر إلى لندن حيث كانت تقيم والدته. وفي عام ١٩٦٨م، التحق بجامعة باتريس لومومبا في موسكو حيث تعرف لأول مرة إلى القضية الفلسطينية التي قُدِّر لها فيما بعد أن تستحوذ على معظم نشاطاته السياسية اللاحقة. أُبعد عام ١٩٧٠م عن موسكو بسبب سلوكه الفوضوي وعدائه للسوفيات، بعد ذلك تعرف كارلوس إلى (محمد بوضيا) الشاب الثوري الجزائري الذي انخرط في صفوف الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، وهكذا نشأت علاقة حميمة بين كارلوس ومحمد بوضيا، وأعجب كارلوس بأفكار بوضيا واتجاهاته وخصوصاً أنه يشاطره الأفكار والرأي نفسيهما. وانضم كارلوس إلى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، وعمل تحت إمرة الدكتور وديع حداد في العمليات الخارجية. وشارك في أحداث أيلول الأسود ١٩٧٠م في الأردن، وجرح أثناءها. وبعد خروج المقاومة من عَمّان سافر إلى أوروبا حيث استقر بشكل رئيس في باريس بصفته عضواً قيادياً ناشطاً في الجبهة الشعبية، قسم العمليات الخارجية، في وقت كانت المخابرات الإسرائيلية تقوم فيه بحملة تصفية لرموز المقاومة الفلسطينية. نسب إليه القيام بعدة عمليات ضد المؤسسات الصهيونية أو المتعاملة مع إسرائيل في أوروبا: محاولة اغتيال أحد أصحاب مخازن ماركس أند سبنسر في لندن في ديسمبر١٩٧٣، إلقاء متفجرات على بنك صهيوني في لندن أيضاً في مطلع ١٩٧٤م، المشاركة في نسف ثلاث صحف فرنسية صهيونية هي: «مينيتا والأورور والأرش» في ٣ آغسطس ١٩٧٤ بوساطة سيارة ملغومة، الإشراف على احتلال سفارة فرنسا في لاهاي يوم ١٣ سبتمبر ١٩٧٤ بهدف الضغط على فرنسا لتحرير مناضلين يابانيين من الجيش الأحمر الياباني، وعندما أخذت المفاوضات تطول، عمد كارلوس إلى إلقاء المتفجرات على مقهى الدراغستور في حيّ سان جرمان يوم ١٥ سبتمبر ١٩٧٤م، ما دفع الحكومة الفرنسية إلى الإفراج عن اليابانيين المعتقلين.

وفي شهر ديسمبر ١٩٧٥م كان وزراء نفط أوبيك مجتمعين في فيينا حين وقع الهجوم

الذي هزّ العالم حيث قاد كارلوس بنفسه عملية خطف وزراء نفط الأوبيك التي انتهت بالإفراج عن الوزراء في الجزائر بعد أن هدد الرئيس بومدين بضرورة الإفراج عنهم، وإن أي محاولة لاغتيال أحمد زكي اليماني وزير النفط السعودي أو غيره، ستؤدي إلى مقتل كارلوس ومن معه، وجرت العملية بسلام في مطار الجزائر بعد الجهود التي قام بها عبد العزيز بو تفليقة وزير الخارجية الجزائري مع الخاطفين، وعلى رأسهم كارلوس وأنيس النقاش. كان اليماني قد كتب وصيته في عشرين دقيقة ظهر يوم الاختطاف في فيينا، بعد أن هدده كارلوس بالموت، وانتهت العملية بقتل ثلاثة أشخاص والإفراج عن الوزراء مقابل مبلغ ٢٠ مليون دولار اقترحه بوتفليقة لدعم الثورة، ما أدى إلى خلاف بين الخاطفين وبين كارلوس والدكتور وديع حداد. وفي عام ١٩٧٦م قررت الجبهة الشعبية إيقاف عملياتها الخارجية، فانفصل كارلوس عنها واختفت بذلك آثاره، رغم أنه ظلّ يتنقل في بعض العواصم العربية بعد أن أصبح اسمه شبه أسطورة «مرعبة» للبلدان الغربية ولإسرائيل. هكذا ارتبط اسم كارلوس بالإرهاب الدولي، وأصبح العديد من مخابرات العالم تبحث عنه وتطارده، خصوصاً بعد عملية فيينا، وكان مجرد ذكر اسمه يثير الرعب، ويستنفر أجهزة المخابرات في أكثر من مكان.

وبحكم أن اليمن الديمقراطية كانت تساعد حركات التحرر الوطنية العربية والعالمية، وخصوصاً المنظمات الفلسطينية من موقع التأييد والدعم لقضيتهم والعداء للإمبريالية والصهيونية، فقد وجد كارلوس طريقه إلى عدن عبر هذه النافذة الفلسطينية التي ارتبط بها ونذر حياته ونضاله في سبيلها، وتحديداً عبر الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين والدكتور وديع حداد.

ليست لدي تفاصيل حول أول زيارة قام بها كارلوس لعدن، لكنه منذ بداية السبعينيات وحتى نهاية الثمانينيات كان يتردد إليها. واستطاع خلال هذه السنوات إقامة علاقات وثيقة مع أجهزة الأمن في عدن، وفيما بعد طور علاقته مع الأجهزة الاستخبارية في صنعاء. واتخذ من عدن منطلقاً لتحركاته، وفي منطقة (حلين) التي تقع إلى الشمال من مدينة جعار في محافظة أبين أنشأ مركزاً سرياً لتدريبات عناصره، حيث أقيم معسكر تدريب لهذا الغرض

بعيداً عن أنظار أجهزة المخابرات المعادية. ومن هذا المعسكر أخذ عناصره ينتشرون إلى مختلف بلدان العالم لتنفيذ عملياتهم ومهماتهم الفدائية، مزودين بأسماء وجوازات سفر يمنية. وكان الاسم المستعار لكارلوس نفسه هو (سالم، برغم أن شكله ولونه وشخصيته لا تنسجم مع هذا الاسم. لكن كان لدى كارلوس، كما هو معروف قدرة فائقة على التنكر وتضليل أعدائه، بحيث لا يكتشفون شخصيته الحقيقية.

كانت مثل هذه الجوازات تمنح للعديد من قيادات المنظمات الفلسطينية والعربية وعناصرها، التي اتخذت من عدن مركزاً لها في ذروة النضال ضد الإمبريالية والصهيونية، وفي سني الحرب الباردة بين المعسكرين.

كارلوس واغتيالي!

بعد عام ١٩٨٠م، وبعد أن توليت رئاسة الدولة في أبريل عقب استقالة عبد الفتاح إسماعيل، اتخذنا قراراً بإغلاق كل المعسكرات الخاصة بتدريب الاجانب، سواء ذلك الذي كان يدرب فيه كارلوس عناصره، أو تلك التي كانت تابعة للجماعة التي كان يطلق عليها في ذلك الحين (جماعة أبو محمد)، وأعطينا عناصر المجموعتين حرية الخيار بين البقاء أو المغادرة إلى الخارج.

نقل كارلوس نشاطه ومعسكراته إلى خارج اليمن الديمقراطية كما فعل الآخرون، وتحديداً إلى لبنان وبعض البلدان العربية الأخرى، كما أكد لي ذلك كارلوس فيما بعد (سأتطرق إلى ظروف تعرفي إليه بعد قليل) حيث كشف لي عن علاقاته بالقيادة الليبية، والجزائرية، والعراقية وخصوصاً مع المسؤول عن الأمن برزان التكريتي، الأخ غير الشقيق للرئيس العراقي صدام حسين، ومع القيادة في الجزائر وفي سورية، حيث كان يتنقل متنكراً بين دمشق والبقاع والأردن والسودان وألمانيا والمجر وبلدان أخرى.

بعد أحداث يناير ١٩٨٦م وخروجي من السلطة، استأنف كارلوس علاقاته مع المسؤولين الجدد في عدن، الذين طلبوا منه أن يغتالني، وهو ما طلبوه أيضاً من أبو نضال. وقد حاولوا إقناعه بأن قرار إغلاق معسكره في اليمن الديمقراطية اتخذته أنا حينذاك بضغط

من إحدى الدول العربية. ورغم أننا أغلقنا المعسكرات، لكننا لم نقطع علاقاتنا بحركات التحرر، ولا حتى بجماعات الجبهة الشعبية ووديع حداد، حرصاً على مصالح الثورة الفلسطينية من حيث استمرار دعمنا لهم سياسياً ومالياً ومعنوياً، إضافة إلى المنح الدراسية التي كان يحصل عليها الفلسطينيون في عدن، وكذلك لم نسترجع منهم المنازل التي منحت لهم أو جوازات السفر كما فعل البعض.

بعد أن طلبوا من كارلوس أن يغتالني، حددوا له ثلاثة خيارات ليختار أحدها لعملية التنفيذ: إما بالرصاص، وإما عبر دسّ السُّم في الطعام، وإما عبر دسّ السُّم لي في «القات». عرفت هذه المعلومات من الرئيس علي عبد الله صالح شخصياً الذي أبلغني إياها، وطلب مني التحري عنها والتيقن من صحتها، كلّفتُ أحد ضباط الأمن الخارجي الذي كان على علاقة سابقة به لتحري الموضوع، وذلك بالاتفاق مع الرئيس ورئيس الأمن السياسي غالب القمش، حيث أُوفِد إلى دمشق... وبعد سلسلة من اللقاءات التي أجراها معه اعترف له كارلوس بتفاصيل الخطة التي وضعت في عدن.

من ناحية أخرى، وجّه جهاز الأمن السوري الذي علم بما جرى في عدن بين كارلوس والمسؤولين تحذيراً صريحاً إلى كارلوس، مفاده (أن أمن الرئيس علي ناصر هو من أمن سورية)، وكان من الصعب على كارلوس ألّا يأخذ تحذيراً كهذا على محمل الجد، كذلك كان يصعب عليه أو على سواه القيام بعملية اغتيال على الأرض السورية، لأنهم ما كانوا ليسمحوا بأية محاولة تمسّ أمن بلادهم أو أمن ضيوفها. وبعد إقامتي في دمشق عام ١٩٨٦م وُجِّهَ إنذار إلى سفير اليمن الجنوبي آنذاك بعدم القيام بأيّ عمل ضدي ومُنعوا حتى من المرور في الشارع الذي كنت أسكن فيه في حيّ المزة: الفيلات الغربية. ومن المعروف أنه منذ أن تحمّل الرئيس السوري حافظ الأسد قيادة البلاد عام ١٩٧٠م، لم تجرِ أية محاولة اغتيال أو اختطاف من هذا النوع. كذلك كانت آخر محاولة اغتيال سياسي في سورية كانت تلك التي ذهب ضحيتها عدنان المالكي رئيس أركان الجيش السوري في عام ١٩٥٤م.

بعد الحصول على هذه المعلومات التي جاء بها مندوبنا من كارلوس شخصياً بعد تحذيري من قبل الرئيس علي عبد الله صالح منها، اتفقنا على أن ألتقيه. في اللقاء الأول

اعترف لي كارلوس بأن المسؤولين في عدن فاتحوه فعلاً بفكرة اغتيالي. وكشف لي عن أن الساحات بدأت تضيق أمامه، سواء في المنطقة العربية، أو في المعسكر الاشتراكي الذي كان يُحتَضر في انتظار النهاية التي لم تتأخر كثيراً! وأبدى رغبته في زيارة صنعاء، واللقاء مع المسؤولين هناك، بهدف الحصول على جوازات سفر يمنية له ولبعض عناصره. وفعلاً زارها والتقى الرئيس علي عبد الله صالح وغالب القمش في دار الرئاسة، وجرى اتفاق بينهما على أمور كثيرة وخطيرة لم يحن الوقت للحديث عنها. عرفت بذلك من أحد المقربين للطرفين عندما اختلفوا بشأن المبالغ الباقية التي اتُّفق عليها مع الرئيس ومسؤول الأمن السياسي غالب القمش بشأن تصفية خصوم الرئيس في الداخل والخارج. وعلمت فيما بعد أنه مُنع من دخول اليمن وأُعيد من المطار. وأكد لي صديقنا المشترك في لقائه الأخير معه أنه كان منزعجاً ومتوتراً جداً بسبب وضعه المضطرب والصعوبات المالية التي يمرّ بها. وقال له إن الصديق هو مَن يكون في وقت الضيق، وأخرج من جيبه ثلاثة جوازات سفر دبلوماسية عراقية خضراء، وقال له إن برزان التكريتي أرسلها إليه، طالباً منه الوصول إلى بغداد، وإنه وعده بتقديم كل أشكال الدعم له. لكنه حسبما قال له رفض هذا العرض، وقال له: «لا أريد أن أكسب العراق وأخسر سورية مهما كان الثمن الذي يمكن أن تقدمه إليّ بغداد في الظرف الصعب الذي أمر به». وطلب منه أن يبلغني بذلك، ولكنني لم أعلق على العرض الذي تلقاه من بغداد، ولا على خياراته وتحركاته وعلاقاته، إذ اعتبرت أن ذلك شأنه وحده. كان آنذاك كالغريق الذي يحاول أن يتمسك بأية قشة بعد أن وجد كل الأبواب أمامه مغلقة، وتخلى عنه حتى أولئك الذين قدم خدماته إليهم من موقع إيمانه بالقضية الفلسطينية وعدالتها وعدالة القضايا التي نذر نفسه لها مهما كانت الوسائل التي اتبعها غير مقبولة، خصوصاً تلك التي ذهب ضحيتها مدنيون أبرياء.

لم تكن صورته بعيدة عن تصوراتي عنه، إذ كانت لدي الكثير من المعلومات عنه، وعن شخصيته، ومواقفه قبل أن ألتقيه. ولم أجده يختلف كثيراً عن الصورة التي كانت في ذهني. فهو رجل ربعة، أميل إلى القصر، غير بدين، ذكي جداً، شجاع وجريء، متواضع وطيب، وهو رجل متماسك، يدرس خطواته بتأنٍّ، وكان متزوجاً وله ابنة واحدة. وزوجته طاهية

ممتازة تجيد طهو كل أنواع الطعام الفنزويلي، ويحب أن يطهو بعض الأصناف لضيوفه بنفسه، وكان يمازح زوجته أمامي وأمام السيدة نصرت بوتو وابنها مرتضى ويقول إن طهوه أفضل من طهو زوجته!

كان كارلوس على ارتباط وصلة صداقة حميمة بأسرة رئيس الوزراء الباكستاني الأسبق ذو الفقار علي بوتو، ويحب ابنه مرتضى بصفة خاصة، ويعامله كأنه ابنه. وكان في مرتضى هذا بعض الصفات من كارلوس، ولهذا ربما كان يوليه عناية خاصة، فهو يشبهه في عدة أمور، مثل الكرم والشجاعة إلى حدِّ التهور، وربما هذه الصفة الأخيرة هي التي أودت بحياته في كراتشي... وكان كارلوس على صلة وثيقة بالسيدة نصرت بوتو، وابنتها بنازير، ويعطف كثيراً على أسرة بوتو، ويحقد بالقدر نفسه على رئيس الوزراء الباكستاني السابق الجنرال ضياء الحق بسبب إعدامه والدهم الزعيم علي بوتو... وعايش كارلوس عن قرب تجربة زواج مرتضى بوتو بالسيدة اللبنانية (غنوة).



مع نصرت بوتو وابنها مرتضى بوتو في منزلهم بدمشق ١٩٩٠

قبل أن أختم موضوعي عن كارلوس، لا بد لي من التساؤل، بعد أن انتهت أسطورة الرجل الذي أرهق مخابرات العالم، وأذهلها بجرأة عملياته ودقتها، وانتهى به الأمر إلى المحاكمة والسجن في باريس، أكان كارلوس إرهابياً خطراً، أم أنه بطل أسطوري ضلّ طريقه، رغم إيمانه بنبل القضية التي نذر حياته لها؟!

كان الرجل ثورياً، ولكن على طريقته، في زمن لم يعد فيه للثوريين مكان، بعد أن تبوأ العديد من الثوار السابقين السلطة، أو تخلوا عنها في مقابل المال، أو تعبوا من النضال

وتصالحوا مع أنظمتهم السابقة، حيث جرى تسليمه في صفقة غامضة بين باريس والخرطوم في ١٤ أغسطس ١٩٩٤ بعد عقدين من المطاردة والملاحقة من قبل أجهزة الاستخبارات الأوروبية والأميركية والإسرائيلية!!!

كانت نهايته التراجيدية متوقعة بعد أن انهار الاتحاد السوفياتي والمنظومة الاشتراكية، وبعد أن سقط خيار الكفاح المسلح في فلسطين وأصبح السلام خيار العرب الاستراتيجي كما كان يردد بعض الزعماء العرب، ومنهم ياسر عرفات الذي كان يتكلم عن سلام الشجعان.

الفصل الخامس عشر

سقطرى خرافة القواعد السوفياتية!

لم يسبق أن استأثرت مسألة من مسائل الدعاية التي وجهت إلى نظامنا بقدر من الاهتمام والمتابعة من الدوائر السياسية والأجهزة الاستخبارية والإعلامية الغربية، كما كان الحال تجاه ما سُمِّي القواعد السوفياتية في عدن في ذروة الحرب الباردة.

نفت حكومة اليمن الديمقراطية هذه الادعاءات في وقتها جملة وتفصيلاً في ما أصدرته من بيانات رسمية وما صدر على لسان مسؤوليها من تصريحات.

المسألة في حقيقتها لم تكن سوى لعبة كاملة من الابتزاز السياسي والاقتصادي والعسكري تجاه أطراف في المنطقة انطلاقاً من قاعدة حماية المصالح الأميركية والغربية.

نفيتُ أي وجود لقواعد سوفياتية في بلادنا من موقعي في السلطة رئيساً للدولة ورئيساً للوزراء، ونفيتُه كذلك بعد خروجي من السلطة، لأن هذا السؤال كان يطرحه عليّ بإلحاح شديد السياسيون والصحافيون على السواء، بل كان السؤال الأكثر أهمية الذي ظل يطاردني في الحالتين.

في عام ١٩٨٩م بعد خروجي من السلطة في عدن بثلاث سنوات واجهت هذا السؤال من صحافيين غربيين، أحدهما بريطاني والآخر ألماني غربي.

سألاني عن حقيقة القواعد السوفياتية في اليمن الديمقراطية. وعندما نفيت وجود أية

قواعد أجنبية في اليمن الديمقراطية، نظرا إليّ باندهاش. وفهمت سبب دهشتهما على الفور، فقلت:

من الممكن أن أقول لكما الكلام الذي يرضيكما، أو يرضي الدوائر الغربية... لكن حقيقة الأمر أنه لا وجود لتلك القواعد على أرض اليمن الديمقراطية، وكان قصد تلك الاتهامات إيهام الشعوب الغربية بخطورة النظام في عدن.

قالا مُندهشين:

الحقيقة أنك أول معارض نقابله لا يهاجم النظام، بل يدافع عنه! أليس هذا غريباً بعض الشيء؟

أجبته:

لأنه أصلاً لا وجود لتلك القواعد المزعومة! وإذا كان لي ثمة مأخذ على السوفيات، فهو أنهم لم يقدموا إلينا أي شيء لتطوير جزيرة (سقطرى). السوفيات بكل أسف لم ينفذوا حتى الاتفاقية السمكية التي وقعوها معنا. تلك هي الحقيقة، وإذا قلت لكم غيرها، فإني أكذب عليكم وعلى نفسي وعلى بلدي!

أرادا أن يسمعا مني أيّ شيء ضد النظام في عدن، مما كانت تردده المعارضة السابقة بوجود قواعد للروس في عدن، ولكنني رفضت لأن ذلك كان يجافي الواقع والحقيقة. قلت لهما:

أنا آسف، لن أكذب!

الحقيقة أن أجهزة الاستخبارات الغربية هي التي أطلقت موضوع القواعد العسكرية السوفياتية في عدن، وكان لها مصلحة سياسية واضحة من ذلك:

فرض مزيد من العزلة السياسية والاقتصادية على اليمن الديمقراطية، ومنع حصولها على أية مساعدات تقدم إليها من دول المنطقة، واستعداء دول المنطقة ضد النظام في عدن وتصويره بأنه مصدر إزعاج لها.

إعطاء غطاء شرعي لوجودها العسكري في بعض دول المنطقة، بما في ذلك وجود أساطيلها الحربية في البحر الأحمر والمحيط الهندي والخليج العربي، ضمن معركة

الولايات المتحدة الأميركية الصامتة والخفية للحفاظ على مصالحها في منطقة الشرق الأوسط وتسويغ أعمالها العدوانية أمام الرأي العام العالمي.

اضطرتنا الحملة الغربية المكثفة على القواعد السوفياتية في بلادنا في عام ١٩٧٦ إلى إعداد برنامج زيارات للدبلوماسيين المعتمدين في عدن لجزيرة (سقطرى)، وكان يشار إليها بأنها تحولت إلى قاعدة عسكرية سوفياتية عائمة في الإعلام الغربي. أخذناهم في طائرة إلى الجزيرة. قلنا لهم إن الزيارة للاستطلاع والسياحة، لكن الهدف الحقيقي لنا كان أن يشاهدوا كل شيء على الطبيعة، ليتأكدوا بأنفسهم من عدم وجود أية قواعد على أرض الجزيرة للسوفيات أو لغيرهم. جالوا على أرض الجزيرة بكامل الحرية، وكانت النتيجة أنهم لم يجدوا شيئاً.

المارشال جريشكو

نحن نعرف ما بداخل جحور الثعابين في الربع الخالي

ومع ذلك لم تتوقف الحملة. كان الأميركان والبريطانيون والفرنسيون يعرفون أنه لا توجد قواعد عسكرية سوفياتية في سقطرى، فهم يعرفون ما يدور ويجري في البحر والجو من سفن وأساطيل وغواصات، وحتى عدد الدلافين وأسماك القرش في خليج عدن والمحيط الهندي، وذلك عبر الأقمار الصناعية وطائرات الاستكشاف وغير ذلك. وفي المقابل، كان الاتحاد السوفياتي يعرف ما يجري في البحر والجو والبر، كما حدثني وزير الدفاع السوفياتي المارشال غريشكو، حين قال لي: «إننا نعرف ما بداخل جحور الثعابين في الربع الخالي». للأسف، كنا هدفاً لصراع القوى العظمى في ذروة الحرب الباردة بين المعسكرين الاشتراكي والرأسمالي آنذاك!

تسهيلات التزود بالوقود في ميناء عدن

لم تكن عندنا قواعد للسوفيات في جزيرة (سقطرى) ولا في أي مكان آخر.

السوفيات طلبوا منا أن نقدم تسهيلات في ميناء عدن إلى أسطولهم العامل في المحيط الهندي: زيارات لقطع الأسطول الحربي، والتزود بالتموين من مياه وغيره، واستئجار خزانات وقود، مما يمكن أن تقدمه أية دولة إلى أسطول دولة صديقة بحسب الاتفاقات بين الدول.

طرحوا هذه المسألة بوضوح في وقت مبكر بعد نيلنا الاستقلال، وتحديداً ما بين عامي ١٩٦٩-١٩٧١م. ففي تلك المرحلة قبل تطور العلاقات بين بلدينا، كانت موسكو ترفض تقديم أي دعم إلينا ما لم نقدم إليهم هذه التسهيلات التي لا تتجاوز زيارة قطع أسطولهم الحربي وتقديم التسهيلات إليه من النوع الذي ذكرتُه. وقد أعطت الجهات السياسية عندنا موافقتها الكاملة على هذه التسهيلات على أعلى المستويات، لكنها لم ترق قطّ إلى مستوى القواعد أو البقاء الدائم في أي يوم من الأيام.

لا شك في أن جزيرة (سقطرى) تشكل أهمية استراتيجية، وتشكل موقعاً في غاية الأهمية لإقامة منشآت أو قواعد عسكرية في هذه الجزيرة الآمنة، ولهذا واجهنا إلحاحاً من عديد من الدول، وليس السوفيات وحدهم، للحصول على الموافقة لإقامة قواعد أو منشآت عسكرية. لكننا كنا نرفض مبدأ منح القواعد أصلاً لتعارضه مع مبدأي السيادة الوطنية والاستقلال، وهما ما لم نكن مستعدين للتفريط فيهما مهما كان الثمن. ولا سيما بعد تجربتنا المريرة مع الاستعمار البريطاني الذي احتلّ بلادنا ١٢٩ عاماً. وقد كانت القاعدة البريطانية في عدن من أكبر القواعد الأجنبية شرقي السويس. لم يكن ممكناً التساهل مع أي نوع من الوجود الأجنبي على أراضي بلادنا. وكان الناس في السنوات الأخيرة يضيقون ذرعاً بالخبراء والمستشارين الروس الذين كانوا يدربون قواتنا المسلحة على السلاح الحديث معتقدين أنهم السبب وراء أية أزمة في تموين السوق والسكان بالأسماك، فكيف سيكون الأمر بوجود قواعد لهم؟

أما في ما يختص بجزيرة (سقطرى)، فبالرغم من أهميتها الاستراتيجية وموقعها الفريد، إلا أنها في وضعها آنذاك لم تكن تصلح لأي شيء، لانعدام وسائل الحياة العصرية فيها، فلم يكن فيها كهرباء ولا مياه ولا مطار ولا ميناء مما يلزم أية قوة عسكرية ولو صغيرة، حتى

حاميتنا العسكرية الصغيرة هُناك كنا نجد صعوبة كبيرة في إيصال التموين إليها، خصوصاً في بعض الأشهر التي تنقطع فيها الجزيرة عن العالم بسبب تعرضها لعواصف ورياح موسمية شديدة يستحيل معها الوصول إليها.

في محاولة لتطوير الجزيرة وقّعنا اتفاقية مع الاتحاد السوفياتي بإقامة ميناء للصيد ومنشآت وثلاجات للأسماك بقصد استغلال الثروة السمكية الهائلة في شواطئ الجزيرة، لكن السوفيات لم ينفذوا الاتفاقية إطلاقاً...

وفي عام ١٩٧٥م وقّعنا اتفاقية للتنقيب عن النفط في جزيرة (سقطرى) مع شركة (سيابينس) الكندية. بعد عام مكثته هُناك بحثاً عن النفط انسحبت منها، ويبدو أنها لم تكن تبحث عن النفط بقدر ما كانت مهتمة بالتحقق من وجود أو عدم وجود قواعد سوفياتية في الجزيرة، ولما لم تجدها قررت الانسحاب!

بعد حرب أكتوبر عام ١٩٧٣م بين العرب وإسرائيل، أبدى السوفيات اهتماماً بمسألة القواعد، ولكن هذه المرة انصبّ اهتمامهم على جزيرة (بريم) التي تتحكم في مضيق باب المندب. كذلك اهتم بها المصريون، وطلبوا مرابطة بعض سفن أسطولهم الحربي البحري فيها. طرح الروس تطوير جزيرة (بريم) من الناحية الدفاعية بإقامة منشآت عسكرية فيها، وأخذوا في كل لقاءاتهم معنا يلمّحون إلى الجزيرة، إلى درجة أن رئيس هيئة الأركان العامة لقواتنا المسلحة «صالح أبو بكر بن حسينون» تضايق من هذه المسألة في عام ١٩٧٤م، إذ جاءني وقال لي: «الروس يتحدثون عن جزيرة (بريم) وكأنها خارج اليمن. إيش حكايتهم بالضبط؟»، وأضاف بهدوء وسخرية معهودة فيه: «إذا كان وجودها سيسبب لنا المشاكل فسوف نربطها بحبال ونسحبها!!».

وبعدما طرد الرئيس الصومالي «سياد بري» الروس من «بِرْبرة» والتخلص من كل خبرائهم في عام ١٩٧٧ إثر هزيمة الصومال في حرب «أوغادين» مع إثيوبيا، أضحت المطالب السوفياتية شديدة الإلحاح، وقد طلبوا منا نقل منشآتهم العسكرية في ميناء «بربرة» إلى عدن، وإنشاء أحواض عائمة لإصلاح سفنهم الحربية.

لم نتوصل إلى أي اتفاق، فتعثرت المفاوضات بشأن المسألة. وكان السوفيات قد نقلوا

منشآتهم من ميناء (بربرة) الصومالي إلى جزيرة (دهلك) الإثيوبية بعد أن توصلوا إلى اتفاق بشأن ذلك مع الحكومة في إثيوبيا.

السوفيات، على ما يبدو، لم ينسوا الأهمية الاستراتيجية لعدن، فعادوا في الثمانينيات يطرحون علينا مرة أخرى قضية التسهيلات وإقامة منشآت عسكرية في مدينة البريقة. وحددوا منطقة محددة بعينها تقع بين البريقة والحسوة في العاصمة عدن لكي يقيموا فيها محطة رصد للأقمار الصناعية. كانوا قبل ذلك في عام ١٩٧٨م قد طلبوا منا السماح لطائرتين استطلاعيتين بالقيام بأعمال الرصد والتصوير والمراقبة للأسطول البحري الحربي الأميركي في المحيط الهندي.

وبينما كنت في زيارة لجمهورية الهند الصديقة، وصل إلى عدن في ٢٣ مارس ١٩٨٣م نائب وزير الدفاع السوفياتي، القائد العام لقوات الأسطول البحري الحربي السوفياتي أدميرال البحر «جورشكوف»، وقد استقبله في غيابي «علي عنتر» بوصفه نائباً لرئيس الوزراء. وبحث الاثنان موضوع التسهيلات والمنشآت التي يريد الروس إقامتها في عدن. أبدى «علي عنتر» حماسة للموضوع بمنح الروس التسهيلات التي كانوا يلحّون في طلبها. في تقديري كان ذلك نوعاً من المزايدة السياسية لاستمالة السوفيات في صفّه وصفّ عبد الفتاح بعد التقارب بينهما وبروز الخلاف بيني وبينه إثر إقالته من منصبه كوزير للدفاع في عام ١٩٨٢م.

بينما كانت المباحثات في طور الإعداد عدت إلى عدن، وعلمت بموضوع الزيارة، كذلك علمت بحماسة «علي عنتر» لمنح الروس تسهيلات عسكرية والسماح لهم بإقامة منشآت في عدن، متجاهلاً موقفنا المبدئي من ذلك، وتعقيدات المسألة والمرحلة السياسية التي تمرّ بها البلدان العربية التي لا يسمح فيها بمزيد من الأخطاء السابقة.

استقبلت قائد الأسطول الحربي البحري السوفياتي على الفور في ٢٧ مارس وتطرقت معه إلى موضوع التسهيلات والمنشآت العسكرية التي يسعون لإقامتها والحصول عليها.

قلت له: أياً كانت الأسباب التي تجعلكم تلحّون في هذه الطلبات، فليس من مصلحتكم أن تستفزوا مشاعر الناس. مهما حاولنا أو حاولتم إخفاء الأمر، فسوف يعلم كل الناس به وبوجودكم، وذلك ليس في مصلحة بلادنا. ليس من مصلحتنا أن تخلقوا المصاعب في

طريقنا بعد الانفراج الذي حدث في علاقاتنا بدول المنطقة... وإذا أصررتم على هذه المسألة، فإن هذا سيؤثر على الصداقة بين بلدينا.

وأضفت:

إن الخبرة التكنولوجية متوافرة لكم بشكل كامل للقيام بما تريدون، ومراقبة الأميركان وغير الأميركان، دون أن تكونوا في حاجة لإقامة تلك المنشآت على أراضينا.

هكذا حسمت الموضوع. ولتخفيف وقع رفضي عليه، منحته وسام الصداقة بين الشعوب في حفلة أُقيمت في دار الرئاسة، وعاد إلى بلاده والوسام الوطني يلمع فوق صدره بدلاً من التسهيلات العسكرية التي جاء للحصول عليها!



مع المارشال جريشكوف

والعراقيون أيضاً يريدون قواعد

لم يكن السوفيات وحدهم الذين تفتحت عيونهم على الأهمية الاستراتيجية لعدن وجزرها، بل طرح علينا الرئيس العراقي صدام حسين في عام ١٩٧٧م فكرة إنشاء قاعدة جوية وبحرية للعراق مُقابل دعم مالي ليس له حدود يقدمه إلى بلادنا. بعد مداولات

استغرقت عاماً كاملاً، عرضت القيادة على العراقيين منحهم تسهيلات في ميناء (بئر علي) التاريخي المشهور، شرقي عدن.

أصرّ العراقيون على جزيرة (سقطرى)، ومقابل إغرائنا بالموافقة عرضوا علينا سرب طائرات «ميغ» وكتيبتي دبابات، وأبدوا استعدادهم لتقديم دعم مالي بلا حدود مقابل منحهم الجزيرة لاستخدامها قاعدة بحرية وجوية، لكننا رفضنا ذلك، فلم نكن واثقين في سياستهم وأغراضهم من وراء ذلك، وقد ساءت علاقتنا بالعراق فترة من الوقت بسبب هذا الرفض.

كانت معظم الأسباب التي استند إليها العراقيون لطلب تلك التسهيلات في بلادنا، وتحديداً في جزيرة (سقطرى)، كما شرحوها لنا، تتعلق بوجود خطر إيراني على العراق ودول الخليج الأخرى ومضيق هرمز. كان عدم امتلاك العراق لمنفذ بحري، لا يعطيه وضع الدولة الفضلى في أية مواجهة مستقبلية على صعيد معادلات الصراع الإقليمي، وتزعّم منطقة الخليج العربي.

يبدو أن العراق كان يراقب عن كثب التسلح الإيراني الهائل أيام الشاه، وكان ذلك يثير مخاوفه ومخاوف دول الخليج الأخرى، خصوصاً مع ازدياد الادعاءات الإيرانية بفارسية الخليج واحتلالهم عدداً من الجزر العربية الإماراتية: «طمب الصغرى، طمب الكبرى، وأبو موسى» في عام ١٩٧١م، وصمت دول الخليج حينذاك. وسرعان ما نشبت الحرب العراقية- الإيرانية المعروفة بحرب الخليج الأولى عام ١٩٨٠م بعد انتصار الثورة الإسلامية في إيران، وما أعقبها من محاولات تصدير الثورة وتعميم النموذج الإسلامي الثوري الإيراني في المنطقة، وهي الحرب التي استغرقت قرابة ٨ سنوات وأنهكت قوى كلتا الدولتين. ولم يكن هذا بعيداً عن سياسة الولايات المتحدة الأميركية القائمة على ضرب الدولتين الكُبْرَيَيْن وإضعافهما في منطقة النفط، في حرب خاسرة لا منتصر ولا مهزوم فيها، بما عرف بسياسة الاحتواء المزدوج.

الخلاصة أن موضوع وجود قواعد سوفياتية في أراضي اليمن الديمقراطية كان ترويجاً إعلامياً سيئاً بثته أجهزة المخابرات ووسائل النشر الغربية، وأصبحت محط اهتمام العالم الذي وجه إلينا الانتقادات المُرة دون أن يتبين الحقيقة.

اتهام بلا دليل

كان إخوتنا في بعض دول الخليج أول المتأثرين بتلك الدعاوى. قال لي أمير البحرين ذات يوم: نسمع أن عندكم قواعد سوفياتية!

أجبته: نحن أيضاً نسمع أن عندكم قواعد أميركية!

قال: عندنا بعض قطع البحرية الأميركية، وليس عندنا قواعد.

أجبته: نحن أيضاً متهمون مثلكم!

في عام ١٩٧٨م استقبلت في عدن الزعيم الفلسطيني ياسر عرفات، ومعه خالد الحسن. كان الاثنان قادمين من السعودية. أخذا يتحدثان عن قلق الإخوة السعوديين بشأن وجود قواعد جوية وبحرية وبرية للروس في اليمن الديمقراطية، وحدثاني عن مخاوف أخرى لديهم مما سمّوه وجود قوات روسية وكوبية وإثيوبية على حدودنا مع السعودية وعُمان.

قُلت لهما:

اسمعا ما سأقوله لكما جيداً، وبلّغا ذلك إلى الإخوان في الرياض. نحن على استعداد لاستقدام وفد منهم ومن الأخوة العُمانيين ومن الفلسطينيين طرفاً محايداً، وليستقلوا طائرة تطوف بهم على حدودنا معهم دون تدخل منا، وإذا وجدوا القواعد والقوات التي يزعمون وجودها عندنا، فنحن على استعداد لإخراجها فوراً، لكنني واثق تماماً، أنهم لن يجدوا شيئاً على الإطلاق.

ضحك خالد الحسن الذي كان وثيق الصلة بالسعوديين وقال:

كلام الأخ الرئيس علي ناصر صحيح! هم أيضاً يعرفون أن لا وجود لتلك القواعد، لكنهم يخافون أساساً من نهجكم السياسي. والأفضل أن تعملوا على تحسين علاقاتكم بالدول المجاورة.

كان بوسع الأميركيين والغرب عموماً الحصول على المعلومات التي يريدونها عن بلادنا في أي وقت يشاؤون. فقد كانت عندهم الإمكانات، والأقمار الصناعية، ووسائل التجسس الحديثة الإلكترونية، وأيضاً مصادرهم الدبلوماسية والاستخبارية التي تستطيع أن

تكتشف أي شيء، ولو اكتشفوا وجوداً لقواعد سوفياتية عندنا لما سكتوا ولأقاموا الدنيا دون أن يقعدوها.

الحقيقة أن المشكلة لم تكن في وجود قواعد للروس في عدن، فقد كان الأميركان أعلم الناس بعدم وجود تلك القواعد، بل في طبيعة النهج السياسي الذي كنا نتبعه، الأمر الذي كان يخالف الأهداف الأميركية والغربية، فقرروا محاربتنا بكل الوسائل المتاحة لديهم.

حاولت المعارضة خارج البلاد في صحفها ووسائل ترويجها استثمار هذه المسألة، لكنها لم تكن تجد من يصدقها لافتقارها إلى الموضوعية، ولأن الناس كانوا يعرفون الحقيقة ويستطيعون التمييز بين الحقيقة وتصدير الأكاذيب. وهكذا فإن الدعاوى الأميركية والغربية بوجود قواعد سوفياتية في عدن ملأت آذان العالم للتغطية على أعمال أخرى كانت السياسة الأميركية تنفذها في المنطقة لحماية مصالحها حتى تجد مسوغاً لوجودها المستمر.

في دبـــي التقيت في ٢١ فبراير ٢٠١٥ السيد ديفيد الذي كان ملحقاً عسكرياً في السفارة الأميركية بصنعاء بحضور زوجته السيدة أبريل المستشرقة والباحثة في شؤون اليمن والمنطقة وبحضور السفير حسين الفضلي، وصادف ذلك يوم هروب الرئيس عبد ربه منصور هادي من صنعاء إلى عدن، وكانا يتابعان تحركاته وتنقلاته حتى وصوله إلى عدن، وقد دهشت من اتصالاتهما الكثيرة بعدد كبير من القيادات اليمنية شمالاً وجنوباً، وكنت أعرفهم جميعاً وتحدثت مع بعضهم، وتساءلت مع نفسي: هل هذه صداقة شخصية مع هاتين الشخصيتين الأميركيتين فقط؟!

تحدث معي السيد ديفيد عن الجنوب وعن زيارته لجزيرة سقطرى، فسألته عن مخلفات القاعدة السوفياتية فيها، فأجاب: لا توجد قاعدة سوفياتية.

فسألته: كيف كنتم تخوفون الشعوب بهذه القواعد الوهمية؟

أجاب: لا توجد قاعدة سوفياتية.

فقلت: كيف كان الإعلام الغربي والقيادات في الغرب تروّج لوجود تلك القواعد الوهمية حيث لا يوجد في الجزيرة ماء ولا كهرباء ولا طرقات ولا موانئ ولا مطارات؟

قال: الزمن زمن الحرب الباردة، وهذه هي القصة كلها.

الفصل السادس عشر

البحر الأحمر والقرن الإفريقي

لعل حقائق الجغرافيا الثابتة التي لا يمكن تغييرها هي التي أوجدت اليمن الديمقراطية الشعبية عند أهم موقع استراتيجي في باب المندب، وجعلته أهم مرتكز على البحر الأحمر والقرن الإفريقي والمحيط الهندي، وذلك ما أعطاها عبر التاريخ أهمية استراتيجية ودوراً غير تقليدي في تجارة العالم، وفي تحريك أحداث هذه المنطقة الحيوية منذ عهد الرومان إلى العصور الحديثة حين بدأت المنافسة التجارية بين البرتغاليين والهولنديين والبريطانيين.

هذا الموقع على الطريق بين الشرق والغرب هو الذي قاد خُطى الأطماع الدولية للسيطرة على موقع عدن الاستراتيجي وإخضاعها بالقوة. وقد أخفقت في ذلك قوى أجنبية كثيرة، حتى نجح البريطانيون في احتلالها وإخضاعها لسيطرتهم التي استمرت مئة وتسعة وعشرين عاماً بدءاً من عام ١٨٣٩م.

على أثر الانسحاب البريطاني الفرنسي من السويس في عام ١٩٥٦ نقلت بريطانيا مقر «قيادة الشرق الأوسط» إلى ميناء عدن عند الرأس الجنوبي لشبه الجزيرة العربية، ما يدلّ على أهمية عدن الاستراتيجية، لكن الاعتراف البريطاني بحتمية التنازل عن موقع القيادة الإقليمية للقوة الغربية الصاعدة الولايات المتحدة الأميركية، وانحسار الدور الاستعماري التقليدي والاتجاه العالمي نحو تصفية الاستعمار، اضطرا بريطانيا إلى الانتقال من سياستها

العالمية الدفاعية إلى سياسة إقليمية، وأخذت قيمة قاعدتها العسكرية في عدن تتراجع من الناحية الاستراتيجية، حتى اضطرت في عام ١٩٦٧م إلى الانسحاب منها بعد هزيمتها المُرة أمام الثوار ورغبتها في الانسحاب من عدن بأقل الخسائر الممكنة، كما وثقوا ذلك في فيلم نهاية إمبراطورية.

شهدت المنطقة ظهور قوى جديدة خلال السنوات السابقة واللاحقة، حيث تمّ القضاء على النظام الإمامي الملكي في شمال اليمن في عام ١٩٦٢م وحصول الصومال على استقلالها في عام ١٩٦٠ من الاستعمارَين البريطاني والإيطالي، وأُطيح نظام هيلا سلاسي في إثيوبيا عام ١٩٧٤، ونالت جيبوتي الاستقلال عام ١٩٧٧، كذلك نالت دول الخليج العربي الغنية بالنفط استقلالها الوطني بدءاً من عام ١٩٧١م، كل ذلك أدى إلى انعطاف في مصير المنطقة.

لا يخفى أن العلاقة بين اليمن ودول الخليج والقرن الإفريقي ذات خصوصية. فهناك ارتباط متعدد الأوجه بين شعوب المنطقة لمدى تاريخي طويل، والقرن الإفريقي يُعَدّ امتداداً سكانياً وجغرافياً واستراتيجياً لليمن، ودول الخليج والجزيرة، بالإضافة إلى وحدة المصالح ووقوعها على شواطئ البحر الأحمر والمحيط الهندي. من القدم أُرسيت هنا حضارة وعلاقة تعاون وثيقة بين شعوب هذه المنطقة يمكن أن تجعلها في شبه وحدة.

لكن ويا للأسف الشديد، لم تستوعب دول المنطقة قطّ حجم المصالح التي تجمع بين شعوبها بسبب التباين في أنظمتها السياسية والاجتماعية، أو بسبب الأطماع والتدخلات السياسية والأجنبية في شؤون دولها سعياً نحو أسر إرادتها والسيطرة على مواردها، أو بسبب النظام الدولي السابق المحكوم بصراع قوتين عظيمتين هما الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي.

لم يمض وقت طويل حتى سادت التوترات المنطقة، إذ لم يكن بوسع القوى الأجنبية الطامعة التسليم بإرادة شعوب المنطقة التي أخذ أغلبها ينتهج طريقاً مستقلاً، فقد كان لها مصالح واسعة يصعب التخلي عنها، كذلك كانت لها طموحات كبيرة في المنطقة، لا سيما

في البحر الأحمر والقرن الإفريقي والمحيط الهندي. وقد استخدمت دول الغرب النزاعات الإقليمية أداة لتحقيق هذه الأهداف.

شدّد مساعد وزير الخارجية الأميركي «آرثر هارتمان» في بيان وزعته الخارجية الأميركية في يونيو ١٩٧٧م على مصالح الولايات المتحدة في القرن الإفريقي. ومن ناحية أخرى، أكد الجنرال «جورج براون» رئيس الأركان المشتركة للولايات المتحدة أهمية القرن الإفريقي البالغة لموقف بلاده في الشرق الأوسط.

من هنا عملت واشنطن على إثارة الصراع بين بلدان القرن الإفريقي. وهذا التكتيك يدخل في نطاق التكتيكات الاستعمارية الجديدة الناشئة عن استراتيجيتها السياسية العامة الهادفة إلى إحباط، أو أقله، إبطاء عملية التحولات المعادية للغرب وتقوية مواقعها في تلك المنطقة من العالم الحيوية استراتيجياً.

ما أرغب في قوله، أن الاستعمار ترك لشعوب القارة الإفريقية، ومن بينها شعوب القرن الإفريقي، تركة ثقيلة وجملة قضايا معقدة من جميع الأنواع، بما في ذلك قضية الحدود، وقد استخدمت هذه المشاكل لتوتير العلاقات بين بلدان هذه المنطقة وتصعيد النزاعات الانفصالية والإقليمية. لم يكن الهدف بذر الشقاق بين دول القرن الإفريقي وإشعال فتيل حرب محلية في هذه المنطقة فحسب، ولكن أيضاً شلّ الاتجاهات التقدمية في تطورها الاجتماعي.

ما كان يحدث في تلك المنطقة كان يهمنا جداً، ويؤثر فينا. وقد سعينا إلى تسوية الخلاف بين الصومال وإثيوبيا فور بروزه. وكنا نرى ضرورة تسوية المشكلة التي ظهرت بين البلدين الجارين بالتفاهم والطرائق السلمية ولكن دون جدوى.

العلاقة مع الصومال

ارتبطت اليمن عبر التاريخ بعلاقات ووشائج قربى بدول الجوار الإفريقية، وخصوصاً الصومال وجيبوتي وإثيوبيا. كان للصومال قنصلية في عدن لرعاية مصالح جاليتها الكبيرة قبل الاستقلال ورفعت إلى مستوى السفارة بعده. كذلك افتتحت اليمن الجنوبية سفارة لها

في مقديشو، وقد تطورت العلاقات الثنائية والدبلوماسية بين البلدين، وخصوصاً بعد ثورة ٢١ أكتوبر الصومالية عام ١٩٦٩م التي أطاحت بالنظام الصومالي، وكانت الجمهورية قد تأسست من شمال الصومال وجنوبه في نهاية يونيو وبداية يوليو عام ١٩٦٠ بعد استقلالهما عن بريطانيا التي كانت تحتل الصومال الشمالي (أرض الصومال) وإيطاليا التي كانت تحتل القسم الجنوبي منذ عام ١٩٠٥ بعد أن تنازلت عنها سلطنة عُمان لإيطاليا، وقد اتخذ الرئيس سياد بري طريقاً جديداً بالنسبة إلى توجهات الصومال نحو جيرانها، وأقام علاقات مع الأنظمة التقدمية والدول الاشتراكية.

توترت العلاقات بين اليمن الديمقراطية والصومال، وخصوصاً بعد سقوط نظام الإمبراطور «هيلا سلاسي» في إثيوبيا وقيام النظام الثوري في أديس أبابا بقيادة الرئيس منغستو هيلاميريام وتأييدنا لهذا النظام الجديد ووقوف الصومال ضده.

قامت اليمن الديمقراطية بمحاولات جادة في عدة مراحل من النزاع للتوسط بين الدولتين، داعية إياهما إلى حلّ مشاكلهما الحدودية بالطرائق السلمية وعبر الحوار الأخوي ووفقاً لميثاق منظمة الوحدة الإفريقية الذي ينصّ على عدم تغيير الحدود الموروثة عن الاستعمار في القارة، غير أن التعنت الصومالي وإصرار سياد بري على تحرير أوغادين، وأحلامه بإقامة ما سمّاه «الصومال الكبرى» كان السبب في تفجّر حرب القرن الإفريقي.

ضمن جهودنا هذه استضفنا في عدن في ١٦/ مارس ١٩٧٧م لقاءً للمصالحة حضره كل من الرئيس الإثيوبي منغستو هيلا ميريام، والرئيس الصومالي محمد سياد بري، والزعيم الكوبي فيديل كاسترو، بالإضافة إلى رئيس مجلس الرئاسة سالم ربيع علي والأمين العام عبد الفتاح إسماعيل وكاتب هذه المذكرات.

أكدنا في اللقاء أن العلاقة بين الصومال وإثيوبيا ذات خصوصية بالغة، ومصالحهما واحدة، وينتهجان الخط السياسي والاجتماعي نفسه تقريباً. ولهذا، فإن الخلاف ليس من مصلحتهما على الإطلاق، بل يضرّ بهما معاً وبدول المنطقة.

ثم انتقلنا إلى الحديث عن مشكلة أوغادين. قلنا إنها لا يمكن أن تكون مثاراً للنزاع على الإطلاق، فالحدود بين الصومال وإثيوبيا واضحة تماماً طبقاً لميثاق منظمة الوحدة

الإفريقية الذي يعترف بحدود كل الدول الإفريقية الموروثة عن الاستعمار، ويرفض إجراء أي تعديل فيها أو المسّ بالحدود القائمة، إلا أن الرئيس الصومالي كان يصرّ على إعادة إقليم «أوغادين» (الغني بالنفط الذي لم يُستخرج) إلى سيادة الصومال، بينما كان الرئيس الإثيوبي مستعداً للتفاهم، وكان يقول: «نحن نمثل ثورتين شقيقتين وعلينا أن نتفاهم». خلال اللقاء اقترح تشكيل لجان من البلدين لحلّ المشكلة بالطرائق السلمية، لكنه في الوقت نفسه حرص على تمسكه بميثاق منظمة الوحدة الإفريقية التي تتخذ من «أديس أبابا» مقراً دائماً لها منذ تأسيسها في عام ١٩٦٥م، والذي يؤكد على عدم المسّ بالحدود القائمة بين الدول الإفريقية الموروثة عن الاستعمار.

أذكر أننا بذلنا جهوداً مضنية مع الرئيس سياد بري، لكن تلك الجهود لم تثمر معه. وأبدى تشدداً غير متوقع خلال اللقاء الذي استغرق اثنتي عشرة ساعة كاملة أي من الساعة ٧ مساءً وحتى الساعة ٧ صباحاً، حتى إن «كاسترو» علّق في نهاية اللقاء بأنه «أطول اجتماع في التاريخ!»، وأتذكر أنني رافقته إلى دار الضيافة وكان يردد أننا أخفقنا مع سياد بري ويجب أن ندعم منغستو. وفي الطريق علمنا باغتيال السيد كمال جنبلاط في لبنان وحزنّا كثيراً لهذا النبأ ونحن نستقبل يوماً جديداً بعد المعركة التي دارت بين الرئيسين الصومالي والإثيوبي.

يبدو لي أن «أوغادين» كانت تشكل شيئاً خاصاً لسياد بري باعتباره مولوداً فيها، كذلك فإنه كان يعتقد أنه سيحصل على دعم مزدوج من بعض الدول العربية ومن الاتحاد السوفياتي الذي كانت علاقته به ممتازة في الوقت نفسه. لكنه لم يحصل على هذا ولا ذاك، وكان ذلك خطأً قاتلاً في الحسابات الصومالية. وكانت النتيجة أنه خسر حرب أوغادين، ولم يستطع فيما بعد الحفاظ على وحدة الصومال نفسه. ولعله قد تعلم بعد فوات الأوان أن اللجوء إلى الحرب لا يحسم أي خلاف، وأن الحسم العسكري نصر مؤقت.

ضاع الجهد الدؤوب الذي بذلناه مع الرئيس الصومالي للعدول عن اللجوء إلى القوة في حلّ المسائل الخلافية مع إثيوبيا عبثاً. وما لبث أن تغير مجرى الحرب، وباتت القوات الصومالية في وضع لا يحسد عليه. حينئذ فقط جاءنا سياد بري طالباً وساطتنا لوقف الحرب. أذكر أنني في فبراير من عام ١٩٨١م، بينما كنت أحضر مؤتمر القمة الإسلامي في

السعودية، جاءني كل من الشاذلي القليبي، الأمين العام لجامعة الدول العربية، ومعه الرئيس الصومالي سياد بري بعد انضمام الصومال إلى جامعة الدول العربية بهدف الحصول على المساعدات التي لم يحظَ بها.

وصل الاثنان إلى مقر إقامتي في الطائف، وطلبا مني أن أقوم بدور الوسيط بين الصومال وإثيوبيا. وإذ أعربت لهما عن شكري لثقتهما، أبديت لهما الاستعداد للقيام بهذا الدور، بشريط أن يؤكد الرئيس الصومالي اقتناعه الأكيد بالسعي إلى تحقيق السلام بينه وبين جارته إثيوبيا، واستعداده للتخلي عن خططه للاستيلاء على أرض أوغادين. قلت لسياد بري إن الجزء الأساسي من وساطتي يكمن في تهيئة الأجواء بما يمكنكم من بحث تلك المسائل مثار الخلاف مع الطرف الإثيوبي مباشرة. وحلّ الخلاف عبر الاحتكام إلى الحوار بينكما، بيد أن الرئيس الصومالي لم يكن مقتنعاً كل الاقتناع بما قلت، بل أخذ يقنعني بالظروف الخاصة التي أملت عليه قرار الحرب مع إثيوبيا لاستعادة إقليم أوغادين، ومنها أنه شخصياً مولود هناك.

كان موقفه يبعث على الدهشة كونه تصرّف بدافع ذاتي بأوسع ما في الكلمة من معنى، وبناءً على هذه الفكرة الجريئة التي اعتبرها سياد بري كافية لشن الحرب على دولة أخرى ذات سيادة.

وحسب المعطيات المتوافرة لدي، كان الجنرال محمد سياد بري يخطط، أو أقله يفكر، في شنّ الحرب منذ زمن على إثيوبيا، لكنه كان ينتظر الوضع السياسي والعسكري المناسب.

في عام ١٩٧٦م قمت بزيارة لجمهورية الصومال بدعوة من نائب الرئيس محمد علي سمنتر حينذاك، وكنت رئيساً للوزراء وأتولى أيضاً حقيبة وزارة الدفاع.



في زيارة للكلية الحربية في مقديشو في الصومال يظهر في الصورة: اللواء محمد علي سمنتر نائب الرئيس الصومالي ووزير الدفاع، والسفير محمد بانافع، والعميد أحمد حاجب، العقيد عمر العطاس، الصحافي عبد الواسع قاسم، وآخرون

كنت قد عقدت محادثات معه لتعزيز علاقات بلدينا السياسية والاقتصادية التي كانت لا تزال جيدة، قبل أن يدخل عليها العامل الإثيوبي ويدفعها إلى التراجع. كنت على وشك المغادرة عندما فوجئت بالرئيس الصومالي سياد بري يطلبني للقاء قبل المغادرة. كنت في الطريق إلى المطار بعد زيارة استمرت ثلاثة أيام زرت خلالها مقاديشو ومعالمها ومدارسها وقياداتها وبعض معسكراتها، وزرت أيضاً مدينة كسمايو (تقع على منتصف خط الاستواء وتبعد عن مقديشو ٥٢٨ كم، وكانت الرحلة على الطائرة الروسية أنتونوف ٢٤ حيث هبطت الطائرة وسط مطبات وأمطار غزيرة في مطار كسمايو الذي يبعد نحو ٢ كم عن البحر، وكان

في استقبالنا قائد القاعدة الجوية والبحرية ورئيس الأركان محمد فاضل الذي ينحدر من أصول يمنية تعود إلى محافظة رداع شمال اليمن) في يوم شديد الحرارة والرطوبة والأمطار والعواصف الرعدية، وكان معي في هذه الزيارة نائب الرئيس، وزير الدفاع محمد علي سمنتر الذي كان يحدثني طوال الرحلة عن تاريخ هذه المدينة من احتلال العثمانيين لها والبريطانيين والإيطاليين، وأصبحت المدينة عاصمة لإقليمها ضمن الصومال الإيطالي حتى استقلال الصومال عام ١٩٦٠.

وحدثني أيضاً عن العلاقات التاريخية بين الصومال واليمن، وقال إن رئيس أركانه من اليمن الشمالي واسمه الجنرال محمد فاضل، وكان هذا الحديث مقدمة للحديث مع الرئيس محمد سياد بري الذي طرح عليّ موضوعاً مهماً استغرق نقاشه بيننا نحو ثلاث ساعات قبل مغادرتنا إلى عدن بحضور سمنتر.



رئيس الوزراء علي ناصر محمد في كسمايو على خط الاستواء
في الصومال على الحدود الكينية عام ١٩٧٦م

بدأ سياد بري حديثه المسهب عن العلاقات العربية – الصومالية، وتاريخ الصومال وارتباطه بتاريخ اليمن الحضاري والثقافي والأمة العربية، وقال: «إن قبائل سامية من جنوب الجزيرة العربية عبرت البحر الأحمر وانصهرت ونتج من ذلك حضارة أكسوم وغيرها من الحضارات في القرن الإفريقي، وقد استطاعت أن تعبر مضيق باب المندب وتكتشف البلاد الواقعة إلى الجنوب من هذا المضيق، وإن أكثر من ٥٠٪ من اللغة الصومالية عربية، وهجرة اليمنيين باتجاه شرق إفريقيا، وتحديداً إلى الصومال، وهجرة الصوماليين إلى اليمن، وتحديداً إلى مدينة عدن حيث أقام البعض منهم حياً فيها سموه القلوعة (الروضة)»، ما كان يراها أشياء جوهرية في علاقات البلدين والشعبين الشقيقين. وبعد هذا الحديث التمهيدي دخل في صلب الموضوع الذي كان يريده وطلب من أجله لقائي، فقال:



الرئيس علي ناصر محمد مع الرئيس الصومالي محمد سياد بري ونائبه محمد علي سمنتو

حان الوقت لكي نعبّر عن تلك الروابط التاريخية بين الشعبين الصومالي واليمني بطريقة عملية. اقترح سياد بري الذي يبدو أنه فكر في الموضوع جيداً، أن يجري العمل على تحقيق الوحدة بين الصومال واليمن (شمالاً وجنوباً) وجيبوتي، مؤكداً أن تلك الدول مجتمعة يمكنها أن تصبح أكبر دولة في المنطقة، بحكم موقعها الاستراتيجي، والكثافة

البشرية والثروات التي بحوزتها. وذكر أنها بذلك ستصبح أكبر قوة عسكرية في المنطقة لمواجهة ما سمّاه يومذاك «الأخطار والأطماع» المحدقة بهذه البلدان. حينذاك كانت العلاقات الصومالية السوفياتية في ذروتها بعد معاهدة الصداقة بين البلدين وصور ماركس ولينين وإنجلز تغطي الساحات ومباني المعسكرات الصومالية والكل يهتف: «ماركسية، لينينية» قبل أن ينتقل من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين!

كلام سياد بري كان يدخل ضمن الأحلام الرومنسية الثورية الجميلة، وينطلق من مصالحه السياسية ومخططاته المستقبلية، ولكن دون أن يأخذ في الاعتبار أنه وفق المعادلات الإقليمية والدولية السائدة لم يكن من الممكن قيام مثل هذه الدولة، لأن ذلك يخلّ بالتوازنات القائمة، ويؤدي إلى نشوء عوامل جديدة تؤدي إلى ظهور قوى إقليمية جديدة ما يهدد أسس الاستقرار التاريخي الذي ظلت قائمة عليه منذ سنين طويلة. بالإضافة إلى أننا لم نكن ننظر إلى إثيوبيا كدولة صديقة فحسب، بل كعمق استراتيجي مهم للعرب ولليمن، ولا يمكن استبعادها من المشاركة في تحديد مصائر المنطقة. ولم يكن في ذلك أي موقف عدائي تجاه الصومال.

للأسف الشديد لم يكن هدف سياد بري من مشروعه الوحدوي مصلحة اليمن والصومال الحقيقية، ولكن كان الهدف منه التأثير بمعطيات معينة في الأوضاع في منطقة القرن الإفريقي. وبالطبع، كان صراعه مع إثيوبيا هاجسه الأساسي، وليس من مصلحة الدول أن يتدخل بعضها في شؤون بعض. لكن كما يبدو، فإن النظام في مقديشو كان يريد تصدير أزماته الداخلية إلى الخارج عبر شعار استعادة إقليم أوغادين.

مضت الأيام، وأدركت مغزى كلام بري عن الوحدة عند اندلاع الحرب بين بلاده وإثيوبيا، وربطت حديثه بأهداف أخرى لم يوضحها في حديثه ذاك، ومنها أنه كان يسعى لضمّ جيبوتي، التي كانت ستنال استقلالها عن فرنسا في يوليو عام ١٩٧٧ م، بالإضافة طبعاً إلى رغبته الدفينة في شنّ الحرب على إثيوبيا «لاستعادة» إقليم أوغادين. وكان هدفه من توحيد اليمن، والصومال جرّ اليمن إلى معركته لضمّ جيبوتي، والفرنسيون لن يقبلوا ولن

يسمحوا بمثل ذلك، فهي وإن أعطيت استقلالها، فستبقى قاعدة عسكرية فرنسية في القرن الإفريقي لأهميتها الاستراتيجية.

رغم أنني لم أدرك الأمر يومذاك بهذا الوضوح، ولم تتكشف لي غايات الرئيس الصومالي المقبلة إلا فيما بعد، إلا أن حماسته الوحدوية المفاجئة كانت مدعاة لاستغرابي، ولهذا فإن كل ما استطعت أن أعده به أنني قلت له: «سأطرح الموضوع على المكتب السياسي، وسندرس الموضوع»، ولم أزد على ذلك. وهذا المشروع لا يختلف عن مشروع صدام حسين، إقامة دولة في شبه الجزيرة العربية يكون فيها الرئيس عراقياً ونائب الرئيس يمنياً كما أشرت إلى ذلك في مكان آخر من هذه المذكرات.

بخسارة الصومال الحرب، خرج من الحلف الشرقي الذي كان يقوده الاتحاد السوفياتي إلى الحلف الغربي الأطلنطي بقيادة الولايات المتحدة الأميركية. ومنح سياد بري القاعدة الروسية في ميناء بربرة للأميركان بعد طرد الخبراء الروس من الصومال.

أدت نتائج هذه الحرب إلى تدمير القوات الصومالية وإضعاف قدرات الصومال الاقتصادية واشتداد المعارضة داخل الصومال وخارجها، وداخل القيادة وخارجها، وسبّبت انقسامات خطيرة في الجيش والشعب، وأدت لاحقاً إلى إنهاك الطرفين وسقوط النظامين والرئيسين في كل من مقديشو وأديس أبابا في عام ١٩٩١م، وكان من نتائجها أيضاً انفصال أريتريا عن إثيوبيا وعزلها وعزل قيادتها عن البحر وحصرها في الهضبة الإثيوبية. منذ ذلك التاريخ شهد الصومال صراعاً بين أمراء الحرب طوال أكثر من خمسة عشر عاماً، وآخرها الحرب بين المحاكم الإسلامية والحكومة الصومالية الموقتة برئاسة عبد الله يوسف وتدخل القوات الإثيوبية في الصومال لحسم المعركة لمصلحة الحكومة الموقتة في بداية عام ٢٠٠٧. ومع الأسف، فإن الصومال يكرر الخطأ نفسه الذي ارتكبته حكومة الجنرال سياد بري منذ ثلاثين عاماً في حربها ضد إثيوبيا عام ١٩٧٧. وكأن قادتها الجدد لم يتعلموا شيئاً من دروس تلك الحروب ولا من التاريخ.

العلاقة مع إثيوبيا

ترتبط إثيوبيا بعلاقات تاريخية مع اليمن، وكان لها قنصلية في عدن قبل الاستقلال لرعاية مصالح الجالية، وكان لليمن الجنوبي جالية كبيرة في إثيوبيا، فافتتحت قنصلية عامة في أديس أبابا لرعاية مصالح الجالية هناك. ولم يسمح الحكم الإمبراطوري لهيلا سلاسي في ذلك الوقت برفع مستوى التمثيل الدبلوماسي إلى مستوى السفراء، وهو ما أمكن الوصول إليه بعد قيام الثورة الإثيوبية وإطاحته، وقد تطورت العلاقة بين البلدين منذ ذلك الوقت، وشهدت تعاوناً في مختلف المجالات السياسية والاقتصادية والعسكرية.

بعد انتصار الثورة الإثيوبية في عام ١٩٧٤، وجدنا أن المصلحة تقتضي الوقوف مع النظام الثوري في أديس أبابا، إذ كان من رأينا أن المنظمات الثورية التي كانت تناضل من أجل الإطاحة بالإمبراطور تستطيع أن تجد لغة مشتركة للتفاهم مع النظام الجديد باعتباره قد حقق ما كانت تسعى لتحقيقه. لهذا، سعينا لتشجيع الحوار والمصالحة بين المنظمات الإريترية والنظام الجديد في أديس أبابا.

لكن بعض الدول العربية التي لم تكن تصغي مجرد الإصغاء إلى هذه التنظيمات في مرحلة كفاحها ضد الإمبراطور احتضنت هذه المنظمات في محاولة لاستخدامها في مصلحة تكتيكية ضد نظام الحكم الجديد في إثيوبيا، ولم يكن الغرض منها مصلحة هذه التنظيمات أو الحفاظ على وحدة إثيوبيا.

في ما يخصنا، كان الأمر مختلفاً. فقد رأينا أن بروز نظام ثوري جديد في إثيوبيا يعني بداية تغيير أساسي في موازين المنطقة. وعزز وجهة نظرنا السياسات الجديدة التي اتخذها النظام في أديس أبابا الذي قطع علاقاته بدولة إسرائيل، وأغلق سفارتها في العاصمة الإثيوبية، وطرد خبراءها الذين كانوا يدربون الجيش وقوات الأمن الإثيوبيين، واعترف بمنظمة التحرير الفلسطينية، وفتح مكتباً لها في أديس أبابا محل السفارة الإسرائيلية. من هنا، كان مهماً لنا انضمام إثيوبيا إلى أسرة الدول المؤيدة للقضية العربية، بالإضافة إلى أهمية دورها الإقليمي بما لها من ثقل سكاني وما تتمتع به من موقع جغرافي استراتيجي وحضاري يمكّنها من القدرة على التأثير المستقبلي.

كنا نعتقد أن حركة التحرر الوطني العربية والإفريقية قد كسبت قوتين لا يستهان بهما على مستوى البحر الأحمر والقرن الإفريقي.

في هذه الظروف نشأت أولى المشكلات بين النظامين، الصومالي والإثيوبي، حول مصير «جيبوتي». كان لكلا النظامين طموحات في ضم جيبوتي إليه، وكان كل منهما يعتقد أحقيته بضمها إليه، استناداً إلى أنّ جيبوتي تتكون من مجموعتين إثنيتين هما (العفر) ذات الجذور الإثيوبية و(العيسى) ذات الأصول الصومالية.

أجرينا الاتصالات بحكومتي البلدين في مقديشو وأديس أبابا لإقناعهما بأن هذا الخلاف على مصير جيبوتي وأحقية تبعيتها لهذا أو ذاك ليس من مصلحة النظامين ولا من مصلحة جيبوتي، وأن الأولوية يجب أن تعطى لأن تنال جيبوتي استقلالها عن الاستعمار الفرنسي. وقد حققت طموحاتها في الأخير ونالت استقلالها في يونيو ١٩٧٧م، وأصبحت عضواً في جامعة الدول العربية، وفي الأمم المتحدة.

المصالحة الإثيوبية الإريترية

على المستوى نفسه، سعينا لإجراء مصالحة بين النظام الإثيوبي والمنظمات الإريترية التي كانت تناضل من أجل استقلال إريتريا. وأذكر هنا تماماً ما اقترحه أمير دولة الكويت الشيخ جابر الأحمد الصباح ووزير الخارجية الكويتي صباح الأحمد الصباح في عام ١٩٨٢م عندما بحثنا معاً إيجاد حل لمشكلة إريتريا، حيث اقترح إقناع الإثيوبيين وقف العمليات العسكرية مقابل تعهد إريتريا بفتح منفذ بحري لإثيوبيا في (عصب).

كانا يستندان إلى منطق قوي عَبَّرَا عنه قائلين:

إن إسقاط النظام الإثيوبي غير ممكن. كذلك إن هزيمة الثوار الإريتريين أمر صعب.

وطلبا مني إقناع الإثيوبيين بوقف العمليات العسكرية مقابل إقناع الإريتريين بمنحهم منفذاً بحرياً في عصب، كما أشرت.

بعد عشر سنوات كاملة من الحرب الأهلية، اتضح إلى أي مدى كانت مهمة وبعيدة النظر تلك الفكرة التي طرحها الشيخان جابر وصباح لإجراء مصالحة شاملة بين الإثيوبيين

والإريتريين. أدت الحرب الأهلية إلى تمزيق هذا البلد الإفريقي الذي كنا نرى فيه عمقنا الاستراتيجي.. وقد دُمِّر قبله الصومال وتشظى إلى أكثر من كيان تحت قيادة أمراء الحروب في شمال الصومال وجنوبها.

العلاقة مع جيبوتي

لم يكن لليمن الديمقراطية تمثيل دبلوماسي في جيبوتي حتى أعلنت استقلالها عن فرنسا في مايو عام ١٩٧٧م واحتفظت فرنسا بقاعدة جوية وبحرية فيها بحكم الموقع الاستراتيجي المهم في القرن الإفريقي وعلى مداخل مضيق باب المندب مقابل تقديم المساعدة إلى هذه الجمهورية الفتية الفقيرة التي كان سكانها يعتمدون على القاعدة الفرنسية والسياحة والملح والأسماك التي يصطادونها ويصدّرونها إلى الخارج، كذلك يعتمد بعض السكان على التجارة، وفي مقدمتهم التجار اليمنيين من حضرموت وعدن والحجرية الذين أقاموا أفضل العلاقات مع سكان جيبوتي، إضافة إلى العمل في التجارة بين جيبوتي وأديس أبابا. وقفت اليمن الديمقراطية ضد كل المحاولات التي كانت تستهدف ضم جيبوتي إلى الصومال، كما أشرنا إلى ذلك آنفاً، وتطورت العلاقات الرسمية والشخصية بيننا وبين جيبوتي بعد استقلالها تحت قيادة الرجل الحكيم الرئيس حسن جوليد، الذي يُعَدّ أباً ورمزاً للوحدة الوطنية في جيبوتي التي كانت لإثيوبيا والصومال أطماع في ضمها، بحجة أن قبيلتي العيسي والعفر تنتميان إليهما، ولكنهما فضّلتا البقاء والتوحد في دولة جيبوتي. وفي فترة حكم الرئيس منغستو تطورت العلاقة مع الرئيس حسن جوليد لمصلحة الشعبين الإثيوبي والجيبوتي. باركت اليمن الديمقراطية وساندت هذا التعاون والتفاهم بين أديس أبابا وجيبوتي، وأقامت أفضل العلاقات، وجرى تبادل التمثيل الدبلوماسي بين عدن وجيبوتي وتبادل الزيارات الرسمية والشخصية للمسؤولين في البلدين، وكان عدد من المسؤولين في جيبوتي ينتمون إلى عائلات في عدن وحضرموت وشمال اليمن، ويسعون بدورهم إلى تعزيز العلاقات بين عدن وجيبوتي، وقد وصل بعض منهم إلى مناصب مهمة في هذه الدولة، وكان منهم وزراء وأعضاء في البرلمان، وقد توجت هذه الاتصالات والزيارات

بالزيارة التي قمت بها لجيبوتي في نهاية عام ١٩٨٢م، حيث استقبلت استقبالاً حافلاً من قبل الشعب في جيبوتي الذي خرج عن بكرة أبيه للترحيب بنا وهم يهتفون «علي ناصر»، وكنت أول رئيس يمني وعربي يزور جيبوتي منذ استقلالها. مع الأسف، إن العرب لم يقدموا أي دعم أو مساعدة أو قروض لتنمية وتطور هذا البلد الذي يتمتع بأهم موقع استراتيجي في القرن الإفريقي. بعد هذه الزيارة قام الرئيس حسن جوليد بزيارة عدن واستقبل استقبالاً حاراً من قبل المواطنين والمسؤولين الذين يرتبطون بعلاقات الإخاء وروابط الدم، وتطورت العلاقات الشخصية والرسمية بيني وبين الرئيس حسن جوليد وأسرته الذين كانوا لا يترددون في طلب العسل والتنباك الحمومي الحضرمي عندما يحتاجون إلى ذلك. ومثل هذه العلاقات الشخصية مألوفة بين رؤساء الدول، فقد كنا نرسل العسل والتنباك[١] والسيجار وأسماك اللوبيستر والجمبري إلى بعض المسؤولين في شمال اليمن ودول الخليج، وكان الرئيس فيديل كاسترو يزودنا بالسيجار تعبيراً عن العلاقات الحميمة والشخصية، وقد حافظ هذا الرجل الحكيم حسن جوليد على أمن جيبوتي واستقرارها ووحدتها حتى تنازل عن الحكم ديمقراطياً للرئيس إسماعيل جيله الذي تتلمذ في مدرسته وتخرج منها، وقد نأى ببلاده عن الصراعات الإقليمية والدولية مع احتفاظه بالقاعدة الفرنسية التي لا تتدخل في الشأن الداخلي لبلاده، وصولاً إلى العديد من القواعد العسكرية البحرية والجوية لدول، كاليابان والصين أميركا والامارات من أجل الحصول على المال وفرص العمل لأبناء الشعب الجيبوتي.

---

(١) التنباك: التبغ.



استقبال الرئيس الجيبوتي حسن جوليد في مطار عدن، أبريل ١٩٨١م

الفصل السابع عشر

معاهدة عدن الثلاثية

ثمة صلات تاريخية وجغرافية بين العرب والأفارقة، ففي الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين عندما بدأت إفريقيا والبلاد العربية تحلم باستقلالها، قادت ظروف الترابط والنضال والمصير المشترك إلى التعاون لإنقاذ شعوبها من قبضة هؤلاء الدخلاء الأجانب، ومعروف تماماً الدور الذي كان لمصر عبد الناصر في إيقاظ القارة الإفريقية، والدعم الذي قدمه جمال عبد الناصر إلى الثوار في الكونغو وغانا وجنوب إفريقيا وناميبيا وحركة التحرر الإفريقية.

ولهذا راهنا على العلاقة العضوية بين الثورة العربية والثورة الأفريقية التي تمثّلها إثيوبيا الحديثة. ولهذا عندما انفجرت قضية حرب أوغادين بين الصومال وإثيوبيا، وكنا على علاقة وثيقة بثورة أكتوبر الصومالية قبل أن يغير اتجاهها الرئيس محمد سياد بري، أدركنا على الفور أن الأعداء يستخدمون الحرب بين الدولتين الجارتين في معركتهم لتصفية الثورتين الإثيوبية والصومالية معاً.

هذا الخطأ وقع فيه الجنرال محمد سياد بري بكل أسف، كما وقع فيه العديد من العرب بموقفهم من الثورة الإثيوبية. وبهذا الموقف انزلقوا إلى معاداة إثيوبيا دون أن يروا المشروع الذي تمثّله في إرساء نظام مستقل وإلغاء تبعيتها للغرب، وإلغاء علاقتها الخاصة بالصهيونية

ودولة إسرائيل، ومد جسورٍ بينها وبين العرب والثورة الفلسطينية، وتأكيد انتمائها إلى قوى الحرية والتقدم وصفوف الشعوب المناضلة.

في عام ١٩٧٧ اخترقت قوات الجنرال محمد سياد بري الحدود بين البلدين، ووصلت إلى أوغادين، محرزة انتصارات في المرحلة الأولى من الحرب. وشنّت القوات الإثيوبية بدورها هجوماً معاكساً لاستعادة سيادتها على الإقليم. وشكّل هذا تهديداً جدياً، لا للبلدين الجارين فحسب، بل لأمن القرن الإفريقي وللمنطقة التي كنا جزءاً لا يتجزأ منها.

وللتاريخ أقول، إنه من هنا بدأ المسعى للقيام بعمل نوعيّ من هذا القبيل، تبلور فيما بعد بما عرف باتفاقية أو معاهدة عدن الثلاثية.

أما بالنسبة إلى ليبيا، فإن علاقات اليمن الديمقراطية بها مرّت بمراحل عديدة معقدة، لكنها كانت دائماً أخوية ومبنية على الصدق والصراحة والاحترام المتبادل.

وكنا نتابع مواقف واشنطن المعادية في عهد الرئيس ريغان، حيث تحركت أجهزتها السرية بكل ما أمكنها لإسقاط نظام العقيد القذافي. ووجهت بهذا الصدد اتهامات كثيرة، مدعية حسب تقارير وكالة الاستخبارات الأميركية أن ليبيا حصلت في شهر ديسمبر ١٩٨٠م على أحد عشر كيلوغراماً من «اليورانيوم» من الاتحاد السوفياتي لاستخدامها في مركز أبحاث تاجورا، بالقرب من العاصمة الليبية، طرابلس[١]. وهي الحجة نفسها سيستخدمها بوش الابن لغزو العراق بعد عدة سنوات.

أصبحت المواجهة حتمية بين واشنطن ونظام العقيد القذافي، بعدما أصبح مصدر قلق للولايات المتحدة. أكد مقال ورد في «النيوزويك» أن وكالة المخابرات المركزية الأميركية مصممة على قلب نظامه، بل قتله[٢] وفرض حصار اقتصادي على ليبيا. وهددت أميركا بالعدوان السافر على ليبيا، وبالفعل نفذت عدوانها عندما قامت الطائرات الأميركية (من طراز اف/ ١٤) بطلعات استفزازية يوم ١٩ أغسطس ١٩٨١م فوق «خليج سرت» وأسقطت

(١) الحروب الخفية للمخابرات الأميركية، ص ١٣٧ (كتاب سبقت الإشارة إليه).

(٢) الحروب الخفية للمخابرات الأميركية، ص ١٧٣.

طائرتين ليبيتين تصدتا لها[1]، في عمل استفزازي يبدو أنه لم يكن موجهاً إلى ليبيا وحدها، بل إلى الحدث الذي كان يصنع في عدن لحظتئذ. وجابه العقيد القذافي الاعتداء بخطاب حماسي في ميدان «الشهيد الحبيشي» أكد فيه أن الشعب العربي الليبي لا يخشى أميركا. وأخذ يهتف والجماهير من بعده «طز.. طز يا أميركا».

القذافي الذي حيّر السوفيات والألمان

في إحدى الزيارات لأديس أبابا في منتصف عام ١٩٨١، توقفنا، أنا والرئيس منغستو هيلامريام، في أثناء نقاش بيننا أمام هذه الفكرة، فكرة إقامة معاهدة صداقة وتعاون بين اليمن الديمقراطية وليبيا وإثيوبيا. كنت أنا والرئيس منغستو قد توصلنا إلى اقتناع مشترك بأهمية هذه القضية نظراً لأن الوضع من حولنا كان يزداد تفاقماً في ذلك الحين. وهذا ما كان يعزز رغبة بلدينا أكثر فأكثر في التقارب. ليس ثمة حاجة إلى القول إنني ومنغستو كنا متفاهمين على ذلك أشد التفاهم. وكنت مقتنعاً بأن إضافة ليبيا إلى هذه المعاهدة ستُضفي عنصراً حيوياً على طابع العملية التي نحن بصددها. ولكن الرئيس الإثيوبي الذي لم تكن له معرفة كافية بالزعيم الليبي تساءل حينذاك: إلى أي مدى سيكون معمر القذافي جاداً معنا لعقد مثل هذه المعاهدة؟!

قلت عن معرفة سابقة بالزعيم الليبي: إن معمر هو معمر. له طبيعة وسمة خاصة به في العلاقة بالدول، وله حساباته الخاصة أيضاً، وإذا اقتنع بشيء وقرر المشاركة فيه فسيفعل.

قصصت على منغستو الحوار الذي دار بيني وبين أحد المسؤولين السوفيات في مارس ١٩٧٣ عندما دعيت إلى حفلة عشاء أقامها على شرفي رئيس الوزراء السوفياتي إليكسي كوسيمين وكنا جالسين إلى المائدة عندما بادرني بوريس باناماريوف، وهو يومذاك سكرتير العلاقات الخارجية للحزب الشيوعي السوفياتي قائلاً: من هو معمر القذافي؟!

تصرفت على نحو عادي جداً وقلت: هو معمر القذافي!

قال: أعرف ذلك، لكن...

---

(١) كان العقيد معمر القذافي يومذاك في عدن لتوقيع الاتفاقية الثلاثية.

قلت: ماذا تريد أن تعرف عنه؟

قال: أريد أن أعرف الكثير من المعلومات، عن شخصيته الغريبة. فهو معادٍ للإمبريالية ومعادٍ للاستعمار والعنصرية والصهيونية والرجعية، ومعادٍ في الوقت نفسه للشيوعية. فكيف يكون ذلك؟ ومن هو في هذه الحالة. إنه أكثر من لغز محيِّر بالنسبة إلينا؟!

لم أزد على القول الذي سبق أن قلته: «إنه معمر القذافي!» وضحك بنماريوف وانتهى السؤال والجواب عند هذا الحد.

لم يكن السوفيات وحدهم الذين يحيرهم أمر القذافي، بل الألمان الشرقيون أيضاً كانوا في حيرة من أمرهم. وكان الرئيس الألماني إيريش هونيكر مهتماً بشخصية العقيد معمر القذافي، وأجرى معه حواراً طويلاً حول الماركسية اللينينية والنظرية العالمية الثالثة التي ابتدعها القذافي، وقد نقل إليّ هونيكر بعض ما دار بينهما في ذلك الحوار، ومما قاله القذافي له: إن الاشتراكية في ألمانيا تعني اشتراكية الدولة ورأسمالية الدولة، وإنه مكتوب لها الفناء، لأنها لا تستند إلى الشعب بعكس نظرية «شركاء لا أُجَرَاء» التي ينادي بها القذافي، ونصح هونيكر بتطبيق النظرية العالمية الثالثة، واستلهام «الكتاب الأخضر» لمواجهة معضلات ألمانيا، وأبلغه أنه على استعداد لأن ينزل شخصياً إلى المزارع والمصانع الألمانية لإقناع العمال والفلاحين بذلك، وأنه مستعد لتقديم الدعم إلى ألمانيا الديمقراطية إذا وافق على ذلك. وقال لي هونيكر إن القذافي تحدث عن خطورة الشيوعية والإلحاد، وأبدى استعداده لبناء عشرة مساجد أخرى في ألمانيا، وأنه يعتقد أن هونيكر إذا طبق النظرية العالمية الثالثة، التي لا تتعارض مع الإسلام والمسيحية، فإن عدداً من الألمان سيفاضل بين المسيحية والإسلام والإلحاد من جهة ثالثة، وقال إنه على ثقة بأنهم أو بعضهم سيُسلمون. واستغرب هونيكر وقال: إن معظم شعبنا لا يذهب إلى الكنائس، فكيف سيذهب إلى المساجد التي سيبنيها القائد الليبي معمر القذافي؟! سكت قليلاً وسألني: من هو معمر القذافي؟ فقد حيّرني كما حيّر حلفاءنا في المعسكر الاشتراكي، وفي مقدمتهم السوفيات، فهو معارض للشيوعية والرأسمالية والاستعمار والإمبريالية والرجعية في الوقت نفسه. وصمت وهو يحرك رأسه وحاجبيه مستغرباً، وسألني مرة أخرى: من هو؟

قلت له: إنه معمر القذافي! ولم أعلّق أكثر من ذلك... ضحك هونيكر وسكتنا وانتقلنا إلى موضوعات أخرى.

بعد أن رويت تلك الحادثة لمنغستو، تابعتُ قائلاً:

حسناً، إن معمر القذافي شخص ذكي، وليس كما يحلو للبعض أن يصوره بالجنون. ولكنه بعد ذلك خيب آمال الجميع عندما تنكر للوحدة العربية والقومية العربية وانتقل بنشاطه وماله وفكره إلى ما سمّاه «الفضاء الإفريقي» الذي وجد فيه ضالته، وخصوصاً عند بعض الحكام الأفارقة، وأطلقوا عليه بعد ذلك لقب «ملك ملوك إفريقيا» وأُصيب بجنون العظمة بعد أن حكم ليبيا أكثر من أربعين عاماً.



ملك ملوك افريقيا

قال منغستو الذي كان يحسب حساب ردود الفعل الدولية:

لعل المنطقة ستشهد ارتفاعاً في درجة حرارة التوتر عند الإقدام على خطوة كتلك التي نريد القيام بها!

قررنا إخضاع الموضوع لدراسة كافية. وغرقنا في تحضيرات ومناقشات وعقد اجتماعات طويلة في «أديس أبابا» بمنتجع سودري، اشترك فيها إلى جانبي الرئيس الإثيوبي والرجل الثاني في ليبيا الرائد عبد السلام جلود الذي أبدى حماسة كبيرة بدوره لعقد تلك المعاهدة.

خلافات مع جلود...

لعل ما لا يعرفه كثيرون أنه خلال المباحثات التمهيدية حدثت تباينات، وحتى خلافات في المواقف، ما كاد يجعلنا نمنى بالإخفاق.

ومن هذه العقبات، أن جلود أعطى وعوداً بتقديم الدعم إلى إثيوبيا كمساعدات اقتصادية، وقدّر الرقم الذي حدده بمبلغ كبير جداً، يقارب ملياري دولار. ويبدو أنه حدث سوء فهم بسبب الترجمة من العربية إلى الأمهرية وبالعكس، حيث فهم أنه عرض مليار دولار نقداً للخطة التنموية في إثيوبيا. وعلى هذا الأساس كان إعداد الاتفاقيات وصوغها. لكن عند اطلاع جلود على الصيغة النهائية رفضها رفضاً قاطعاً، وأغضب هذا الرئيس الإثيوبي منغستو هيلامريام، إلى درجة أنه همّ بتمزيق الاتفاقيات والكف عن أي حديث حولها نهائياً، معرباً عن استغرابه لهذا التحول السريع في موقف الرائد عبد السلام جلود!

عندما علمت بما حدث، بذلتُ غاية جهدي لإزالة سوء الفهم بين الطرفين، حرصاً مني على العلاقات بين ليبيا وإثيوبيا من ناحية، وعلاقات اليمن الديمقراطية بهما من ناحية أخرى.

وسبق أن أكدت أن إثيوبيا تشكل العمق الاستراتيجي للبلدان العربية في عمق أفريقيا. ولم نكن أول من اكتشف مغزى ذلك، بل إن الرئيس جمال عبد الناصر كان من أوائل من أدرك القيمة التي تمثّلها إثيوبيا، مستنداً إلى حقائق تاريخية وجغرافية ودينية وحضارية، جعلها جديرة باحتضان مقر منظمة الوحدة الأفريقية في عاصمتها «أديس أبابا» منذ أيام حكم الإمبراطور هيلا سيلاسي، ورغم عداء عبد الناصر للأنظمة الملكية، فقد استثنى الإمبراطور هيلا سيلاسي وحافظ على علاقات جيدة معه بسبب أنه يمسك بيده أحد منابع المياه التي تعيش عليها مصر.



الرئيس جمال عبد الناصر والامبراطور هيلا سيلاسي

كان علينا بعد حالة التوتر التي سادت المباحثات التي كنا نجريها في أحد قصور الإمبراطور السابق هيلا سلاسي في سودري الذي يطل على نهر هواش أن ننتقل إلى مكان آخر، ولم يكن هناك مكان أفضل من حمامات (سودري) التي تقع على نهر (هواش)، وهو النهر الإثيوبي الوحيد الذي ينبع من الأراضي الإثيوبية ويدور فيها مثل الحلزون ثم ينتهي في الدولة نفسها بعكس نهر النيل الذي يمر بأكثر من دولة إفريقية. وهي منطقة ذات طبيعة جميلة خلابة، ومياه معدنية تجعلها من أفضل المصحات في أفريقيا، وغاباتها تضجّ بالنسانيس ومختلف أنواع الطيور، بينما تسبح في مياه هواش التماسيح.

لم يعكر هذا الجو الرائع سوى مداعبة ودية من سفيرنا صالح أبو بكر بن حسينون (رحمه الله) حين دفع الرائد جلود إلى حمام السباحة الكبير الذي كان البخار يتصاعد منه، ونزل هو الآخر في الماء ليصبح الرجلان معاً داخل المسبح، فتحولت المداعبة بينهما إلى خلاف وتوتر واستنفار للمجموعة التي كانت مع جلود، ووصل الأمر إلى حد استدعاء الطيارين الليبيين، حيث أصرّ جلود نفسه على السفر ومغادرة إثيوبيا، رغم أن المطار لا يصلح للطيران ليلاً. وأصبح إقناع جلود الذي عدّ ذلك إهانة عملية كبيرة. وبدلاً من الممارسة المحايدة التي حاول وفدنا أن يتقنها، تطور الأمر إلى خلاف بين الرجل الثاني في ليبيا الرائد عبد السلام

جلود، وسفيرنا في أديس أبابا صالح أبو بكر بن حسينون. وفي غمرة الانفعال سمح جلود لنفسه بإطلاق التهديدات ضد سفيرنا، وتحول الموقف في النهاية إلى خلاف بين الوفدين اليمني والليبي. حاولت التغلب على هذا الموقف الناشئ لمصلحة الهدف الأكبر الذي كنا جميعاً نسعى إليه، لكن الرائد جلود بدلاً من معالجة المشكلة اتخذ قراراً أصرّ عليه بمغادرة إثيوبيا فوراً عند الساعة الثانية عشرة ليلاً دون علم القيادة الإثيوبية التي كنا ضيوفاً عليها. أمضيت قرابة ساعة كاملة وأنا أبذل محاولاتي لإقناعه بالعدول عن السفر، لكن بلا جدوى، وفي النهاية تركته غاضباً بعد أن توجهتُ إليه بالقول:

إنكم بما عندكم من نفط ومال تعتقدون أنكم قادرون على إذلال الآخرين وابتزازهم كبعض حكام الخليج، لكن لا... قد نكون فقراء، ولكننا مناضلون ولا نقبل الإذعان لأي تهديد! إنني لا أقبل أن تطلق التهديدات ضد سفيرنا ووفدنا، ولا يحق لك أن تفعل ذلك بسبب مزحة صغيرة وقد اعتذر لك... وقلت له:

تأكد أن هذا سيكون اللقاء الأخير بيني وبينك إذا غادرت أديس الليلة... إذ إنه سيكون من غير المنطقي أن يحصل ذلك بسبب خلاف غير جوهري ولا يستحق مثل ردّ الفعل العنيف الذي تعاملت به مع الموقف...وبعد مضي قرابة أربع ساعات راجع بلا شك خلالها موقفه، جاءني جلود بسريرة نقية، معتذراً عما بدر منه في لحظة انفعال. واعتذر لسفيرنا بن حسينون. وكان صوته وهدوؤه لافتَين، وأكد لي ذلك أن الإنسان الليبي طيب ونقيّ، وإذا ما دخلت أعماقه يمكنك أن تعرف مدى طيبته. وفي الوقت نفسه يغلبه العناد عند إساءة فهمه... وليس من الصعب إدراك أنه ألغى فكرة السفر، وصار متفهماً، وأبدى استجابة لكل القضايا العالقة مثار الخلاف. وأمكن بهذا التوصل إلى صيغة الاتفاقية التي عرفت فيما بعد بمعاهدة عدن الثلاثية.

وبعد توقيع المعاهدة في عدن تابعت وكالة المخابرات المركزية في عهد «كيسي» العمليات الخفية ضد بلادنا وتقديم الدعم شبه العسكري إلى المعارضة الذي بدأ في عهد الرئيس الأميركي كارتر.

يشير كتاب «الحجاب» إلى أن القذافي وعد حلفاءه بدفع نحو ٨٥٥ مليون دولار (دُفع

١٥٠ مليون دولار منها في بادرة لإظهار جديته)، ما قد أثار قلق «كايسي» ومحلليه الذين توصلوا في تقريرهم الاستخباري عن المعاهدة الذي انتهوا منه في ٤ نوفمبر ١٩٨١م إلى أن «هدف الدول الثلاث هزيمة سياسة الولايات المتحدة في تلك المنطقة»[١]. واستحصلت الوكالة على بضعة ملحقات عسكرية سرية لمعاهدة التعاون بين ليبيا وإثيوبيا واليمن الجنوبية، فحواها أن الدول الثلاث وافقت على إنشاء قوة من خمسة آلاف ليبي، وخمسة آلاف يمني جنوبي، وخمسين ألفاً من الاحتياطيين الإثيوبيين على نفقة ليبيا، وعلى أن يذهب عشرون ألف جندي إثيوبي إلى ليبيا. وأفادت تقارير الوكالة أيضاً بأن الدول الثلاث اتفقت على تنسيق عمل الثورة في الصومال إلى الجنوب الشرقي من إثيوبيا. وأظهرت الاستخبارات «أن كوبا لديها ما بين ١١ و١٣ ألف شخص في إثيوبيا. وكان هناك نحو ٥٠٠ مستشار كوبي في جنوب اليمن»[٢]. ولم يكن هذا الرقم صحيحاً، فقد كان عدد المستشارين أقلّ من ذلك بكثير، ومن بينهم مدربون للميليشيا الشعبية وأطباء وأساتذة يشرفون على كلية الطب وتسييرها في مراحلها الأولى.

سد النهضة بعد ٣٦ عاماً

من معاهدة عدن الثلاثية

وأثناء زيارة عبد السلام جلود لأديس أبابا جرى الحديث حول مياه النيل الأزرق والمياه التي تتدفق من الهضبة الإثيوبية إلى مصر والسودان، وأهمية تنظيم موضوع المياه مع مصر والسودان. وقال عبد السلام جلود إن قيام إثيوبيا ببناء سدّ أو سدود تمنع تدفق المياه إلى مصر سيؤثر في مستقبل العلاقات العربية الإثيوبية والعربية الإفريقية، وردّ عليه منغستو بأن إسرائيل كانت تطالب بإقامة مثل هذه السدود، ولكنهم رفضوا بل طردوا السفير الإسرائيلي، وأغلقوا السفارة وقطعوا علاقتهم مع إسرائيل وحولوها إلى مكتب لمنظمة التحرير الفلسطينية، بل قال «إن منع تدفق مياه النيل إلى مصر والسودان يعني الحرب، ونحن

---

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) المصدر السابق نفسه.

لا نفكر في ذلك لأن أي عمل من هذا النوع تتوقف عليه حياة الشعب المصري. أما السودان فلن يتأثر بإقامة أي سدود لأن لديه مصادر كثيرة من المياه وأمطاراً غزيرة في الجنوب وبعض مناطق الشمال، ولم نتمكن من توقيع أو توثيق مثل هذا الكلام لأننا لسنا معنيين بذلك في ظل غياب مصر التي كانت مشغولة بتوقيع اتفاقية كامب ديفيد والمقاطعة العربية والإفريقية والإسلامية، وبعد هذا التاريخ سقط نظام منغستو وانفصلت إرتيريا عن إثيوبيا وأقامت إثيوبيا مجدداً علاقة مع إسرائيل وسقط معمر القذافي ونظامه وتوحدت اليمن شمالاً وجنوباً، ولم يبقَ لهذا الحلف ولا لأنظمته أي أثر.

ومع بداية القرن الواحد والعشرين أطلقت أثيوبيا مشروع سد النهضة وسط معارضة مصرية شديدة وصمت عربي، غير أن أثيوبيا استمرت في بناء السد وأعلنت أن الخزان المائي وراء السد، الذي سيخزن المياه لتوليد الكهرباء باستطاعة تبلغ ٦٠٠٠ ميغاوات، تفوق سعته التخزينية ٩٠ مليار متر مكعب، وبكلفة تقدر بـ ٥ مليار دولار لبناء السد وثلاثة سدود حوله ولا شك في أن مصر ستتأثر ببناء هذا السد والسدود الأخرى عاجلاً أم آجلاً سواء من حيث نقص منسوب المياه الى مصر، أو في حالة انفجاره وما سيلحقه من أضرار على السودان ومصر على طول مجرى نهر النيل حتى الدلتا على المتوسط وتدمير السد العالي بأسوان وكذلك المدن والكباري والآثار التاريخية وتشريد الملايين.



سد النهضة في إثيوبيا



مسقط النيل في بحيرة تانا إثيوبيا

الفصل الثامن عشر

اليمن الديمقراطية والسودان

زرت السودان أول مرة في أكتوبر عام ١٩٦٩م، بتكليف من الرئيس سالم ربيع علي لنقل رسالة للرئيس السوداني الفريق جعفر النميري والمشاركة في الاحتفالات بذكرى ثورة أكتوبر ١٩٦٤م، التي أطاحت حكم العسكر بقيادة إبراهيم عبود. تذكرت وأنا أحلّق في الفضاء بين عدن والخرطوم عدداً من الشخصيات السياسية والتربوية التي درست في السودان ومنهم الرئيس قحطان الشعبي، الدكتور فرج بن غانم، الأستاذ لطفي جعفر أمان، المهندس علي غانم كليب والدكتور سعيد عبد الخير نوبان وغيرهم من الطلاب الذين درسوا وتخرجوا وتحملوا مسؤوليات في الدولة الجديدة الفتية في عدن.. كما تذكرتُ عدداً من الشخصيات السودانية التي كان لها دور بارز في تربية جيل الشباب في جنوب اليمن، وفي مقدمتهم الأستاذ الكبير حسن فريجون، وأستاذي القدير الشيخ أحمد حسن أبو بكر الذي ربطتني به علاقة طيبة عندما كنت طالباً في دار المعلمين بعدن، والأستاذان محمد باب الله ومتوكل مصطفى نبق اللذان كانا يدرسان في مودية في الستينيات.

هبطت بنا طائرة (باسكو)، ذات الأربع محركات، في مطار الخرطوم عند الفجر حيث انتقلنا إلى أحد فنادقها المتواضعة (غراند أوتيل).



وخلال وجودي في السودان التقيت عدداً من الشخصيات العربية، كالرائد عبد السلام جلود عضو مجلس قيادة الثورة الليبية، وحسن صبري الخولي الممثل الشخصي للرئيس جمال عبد الناصر، وخالد محيي الدين عضو مجلس قيادة الثورة في مصر، وصلاح عمر العلي عضو مجلس الثورة في العراق، والمناضل جورج حبش، وعدداً من قادة حركات التحرر العربي.

كما رتبت لي زيارة لمحافظة الجزيرة التي تبعد ١٤٠ كم عن العاصمة الخرطوم والتقيت بمحافظها الذي أخبرني عن مشروع الجزيرة الزراعي الذي أُنشئ عام ١٩٢٥م وأصبح على امتداد ٢,٢ مليون فدان، ويشكل هذا المشروع العمود الفقري لاقتصاد السودان بعد الاستقلال وهو أكبر مشروع مروي في أفريقيا. وقد انبهرت بهذا المشروع الكبير الذي لا مثيل له في المنطقة العربية ولا في دلتا أبين وتُبن في محافظتي لحج وأبين (والمشهورتان بزراعة القطن).

كما رُتبت لي زيارة لولاية كردفان التي تبعد ٣٨٥ كم عن الخرطوم مع وزير المواصلات

السوداني العميد محمود حسيب والتقينا بالمحافظ والمسؤولين فيها وأقاموا لنا حفلاً على أحد أسطح المنازل في الهواء الطلق بسبب شدة الحر في الداخل. وتحدث معي في هذه الحفلة العميد محمود حسيب حديثاً خاصاً عن الثورة وعن الخلافات في القيادة بعد ٥ أشهر من انقلاب النميري في ٢٥ مايو بين الناصريين والشيوعيين وكان حسيب يميل الى الناصريين ويتهم الشيوعيين بالتآمر من أجل الاستيلاء على السلطة. وأنا لم أُعلق على حديثه لأنني لم أعرف طبيعة الصراعات والخلافات، وانما كنت مستمعاً. ولكنني شعرتُ أنه يجري التحضير للتخلص من الشيوعيين.

وفي اليوم الثاني ومن دار الضيافة اتصل وزير المواصلات بالرئيس النميري لترتيب مقابلة معي فور وصولنا الى الخرطوم مباشرة. وقبل مغادرتنا ولاية كردفان نظم المحافظة زيارة لمشاهدة «الكرفان» الكبيرة التي تخزن المياه وقت الجفاف للشرب منها وري الماشية وتذكرت «الكرفان» ومياهها في شبوة وحضرموت وأبين. ولكن ما لفت نظري وانبهرت به هو خزانات المياه في أشجار «التَبلدي» المنتشرة في المحافظة وهي أشبه بخزانات المياه وتتسع لكميات كبيرة من الماء للشرب منها بالدلو وقت الحاجة وهذا يذكرنا باستخراج الماء في بلادنا من الآبار بالدلو، ولكن خزن الماء في جذوع الشجر كان مفاجئة لي.. وشرح لنا المحافظ أن شجرة التبلدي، وهي شجرة ضخمة طولاً وحجما، من الأشجار المعمرة إذ لا يعرف أحد حتى الآن عمر أي واحدة منها، كما أنها لا توجد في كثير من بلدان العالم، وتجويفها متفاوت السعة التخزينية من ٤٠ إلى ١٠٠ برميل للشجرة الواحدة، وإن هذه الشجرة يتوارثها الناس أباً عن جد وتؤول أحقية إدارتها لمن يقوم برعايتها وتهذيبها وتنظيفها من الداخل بجانب تنظيف الأرض من تحتها. وذكر أنه بعد هطول الأمطار تتجمع المياه من جهات مختلفة تحت الشجرة، وبعد امتلاء حوض الشجرة يقوم الملاك بالتعاون في عملية التعبئة عبر دلو من الجلد أو من أحد المصنوعات الأخرى من البلاستيك. وهم يستخدمونها للشرب في وقت الحاجة وانقطاع الامطار.

وحدثنا المحافظ أن بعض القبائل الذين نزحوا من اليمن وشبه الجزيرة العربية كانوا

مهتمين بتربية الأبل والضأن في هذه المنطقة واستوطنوا فيها. وكما هو معروف أن معظم القبائل العربية هم امتداد لليمن أصل العرب.

وبعد ذلك توجهنا الى الخرطوم وانتقلنا من المطار مباشرة للقاء الرئيس جعفر النميري والذي منحني في احتفالات ثورة أكتوبر وسام النيلين كما منح آخرون مثل هذا الوسام، وقد قدمت له شكري على دعوته لنا للمشاركة في هذا الاحتفال وعلى منحه لنا وسام النيلين، كما شكرته على الزيارات التي رُتبت لنا مع المسؤولين في الخرطوم والمسؤولين في محافظة (ولاية الجزيرة) وكذلك محافظة كردفان.. وكان معنا في هذا اللقاء وزير المواصلات حسيب..

كان الرئيس النميري، رئيس مجلس قيادة الثورة قد استولى على السلطة في السودان قبل خمسة أشهر بالتعاون والتحالف مع الضباط الناصريين والشيوعيين، وكسب ثقة الجميع في المراحل الأولى لحكمه، من عبد الناصر إلى الكرملين والصين. كانت خبرته في الجيش والرياضة والسباحة أكثر من خبرته وتجربته في السياسة والسلطة التي بدأت تدبّ الخلافات فيها بين مراكز القوى، وكان كل طرف يتربص بالطرف الآخر. فقيادة الحزب الشيوعي لم تكن راضية كثيراً عن الانقلابات العسكرية التي اخترعها الضباط السوريون في نهاية الأربعينيات، وكانوا يسعون للوصول إلى السلطة عبر بوابة الانتخابات والهبات الشعبية، وليس عبر الدبابات، مع أن المنطقة العربية شهدت انقلابات عسكرية في مصر وليبيا والعراق واليمن والصومال والسودان.

شعر بعض الضباط الذين عرفتهم عند زيارتي السودان، بأن الرئيس وأنصاره الناصريين من أمثال العميد محمود حسيب وزير المواصلات يسعون للتخلص منهم، وأن عليهم أن «يتغدوا بهم قبل أن يتعشى هؤلاء بهم». ولهذا، نفّذ هاشم العطا انقلابه الفاشل على النميري بعد عام من ثورة مايو ١٩٦٩م، ما أدى إلى قتله وإعدام كل من بابكر النور(١) وفاروق عثمان حمد الله(٢)، حيث جرى اختطافهما في الأجواء الليبية وهما في طريقهما من لندن

---

(١) رشّحه رئيساً لمجلس قيادة الثورة في السودان.

(٢) رُشِّح رئيساً للوزراء في الحكومة الجديدة.

إلى الخرطوم على الطائرة البريطانية يوم ٢٢ يوليو ١٩٧١م، بينما كان هاشم العطا في انتظارهما في مطار الخرطوم، وقد أُجبرت الطائرة على الهبوط في مطار بنغازي، وقامت ليبيا بتسليمهما للنميري الذي أعدمهما. اعترف لي القائد القذافي فيما بعد بأن تسليمهما للنميري كان نقطة سوداء في تاريخ حياته.

وتحركت طائرة عراقية من بغداد، وعليها بعض الضباط العسكريين للتهنئة، ولكنها سقطت في ظروف غامضة على الأراضي السعودية قبل وصولها إلى الخرطوم، وفتحت السجون والمحاكم لقتل زعماء هذه الحركة ودفنهم، وحوكم عسكرياً الزعيمان الشيوعيان عبد الخالق محجوب والشفيع أحمد الشيخ، وحُكم عليهما بالإِعدام حيث لم تشفع لهما علاقتهما بعبد الناصر وقادة الكرملين وكل نقابات العالم. دخلت السودان مرحلة من أخطر مراحل تاريخها السياسي والنقابي والديمقراطي، وحُلَّت الأحزاب ولوحقَت قياداتها، وشكّل النميري حزبه الخاص، وتحوّل من قائد قريب من الناصرية واليسار والسوفيات إلى صديق للغرب وإسرائيل، وفيما بعد طُرد الخبراء السوفيات، ورُحِّل الفلاشا إلى إسرائيل عبر الخرطوم، واختفى زعيم الحزب الشيوعي محمد إبراهيم نقد والطيب التيجاني وعدد من القيادات داخل السودان حتى قيام حركة أبريل الشعبية عام ١٩٨٥م، التي أسقطت نظام النميري.

بعد حركة ابريل زار عدن لأول مرة محمد إبراهيم نقد (١) للاطلاع على تجربة اليمن الديمقراطية ونظمت له عدد من اللقاءات مع قيادة الحزب والدولة والمنظمات الجماهيرية،

(١) محمد إبراهيم نقد سكرتير الحزب الشيوعي السوداني منذ ١٩٧٢ حتى وفاته في ١٩٩٦م ومن أقواله:
إذا حكمني مسلم فلن يدخلني الجنة
وإذا حكمني ملحد فلن يخرجني من الجنة
وإذا حكمني من يؤمن لي ولاولادي الشغل والحرية والكرامة وعزه النفس سأقف له احتراماً وإجلالاً
ويبقي دخول الجنة من عدمه رهين أفعالي وإيماني
فاستفيقوا قليلاً من تنازعكم في السلطة باسم الدين ويا من اعتقدتم انها طريقكم الي الجنة
فليست وظيفة الحكومة ادخال الناس الجنة انما توفر لهم جنه في الأرض تعينهم لدخول جنة السماء

واقترحنا عليه أن يحضر جلسة قات ودية تخللها حديث عن العلاقات بين الشعبين السوداني واليمني وعن الشعر والسياسة والأدب وأتذكر أن علي سالم البيض انتقد «محمد ابراهيم نقد» بأن الحزب السوداني فشل في الاستيلاء على السلطة بقيادة الضابط هاشم العطا وبسبب ذلك خسر قيادات وأصدقاء للحزب كالشفيع أحمد الشيخ وعبد الخالق محجوب والقيادي جوزيف قرنق، والمقدم بابكر النور، والرائد فاروق حمد الله وغيرهم. وقد انزعج «نقد» من هذا النقد فقال أنت لا تعرف السودان ونحن لا يمكن أن نحكم السودان كحزب ولو ظهر لينين من قبره فلن يستطيع حكمه أيضاً لأن مجتمعنا مجتمع إسلامي وغير مقبول أن نحكم كحزب شيوعي في المنطقة ولكن ممكن أن نكون شركاء في أي حكومة إذا تحقق ذلك في المستقبل عبر الانتخابات وهذا لم يحدث حتى كتابة المذكرات هذه. وكان الرجل مثقفاً ومؤدباً ومناضلاً وإنساناً وعلمت أنه بعد اعتقاله في سجون النميري حرص على الفراق والطلاق لزوجته لأن سجنه قد يطول.

خلال حكم النميري التقيته في السودان، وبعد ذلك في عدن، وفي المؤتمرات العربية والإسلامية وحركة عدم الانحياز، وقد كان يشكو آلاماً كثيرة في جسده وبلده، وكنا نحن نشكو تدخل السودان في الشأن اليمني، ولا سيما عندما فُتحت إذاعة خاصة في الخرطوم تهاجم اليمن الديمقراطية بتوجيه من المخابرات الأميركية وبعض أجهزة دول عربية. قدّم إليّ في مؤتمر القمة الإسلامي في الطائف عام ١٩٨١م كتابه عن الإسلام، وتحدث عن الإسلام في هذا اللقاء الذي حضره الرئيس علي عبد الله صالح والأمير عبد الله بن عبد العزيز. حاول أن يجعل من نفسه إماماً في السودان، وعلى إثر ذلك كتب إليه السفير الصديق سيد أحمد الحردلو رسالة شعرية ونثرية بعنوان «إلى حضرة الإمام»، ولكن كل ذلك جاء بعد فوات الأوان، إذ لم يشفع له الحديث عن الإسلام وتبني القوانين الإسلامية وتحطيم مئات الصناديق من المشروبات الروحية ورميها في مياه النيل، حيث جرى إسقاطه، كما أشرت.





وسام النيلين

حاول النميري أن يقوم بدور في البحر الأحمر والدول المطلة عليه، فعقد لقاءً في تعز مع الزعماء إبراهيم الحمدي وسالم ربيع علي والجنرال محمد سياد بري، وأثار اللقاء مخاوف بعض الدول العربية كمصر والسعودية، إضافة إلى إسرائيل التي شعرت بخطورة هذا التعاون والتحالف بين هذه الدول التي ترتبط بعلاقات مع السوفيات، وخصوصاً عدن ومقديشو. غير أن هذا اللقاء اليتيم تبخرت نتائجه السياسية والاقتصادية والأمنية قبل مغادرتهم إلى أوطانهم. وقد قمنا بمحاولات لمساعدة السودان على تحقيق لقاء مصالحة بين النميري وجون غارنغ الزعيم الجنوبي، لكن لم ننجح في ذلك، وبعد ذلك بين المشير عبد الرحمن سوار الذهب والرئيس منغستو هيلا مريام وجون غارنغ ولم نفلح أيضاً، ورتبنا لقاءً آخر في عدن بين وزير الدفاع السوداني عثمان عبد الله وجون غارنغ، ولكن محاولاتنا خابت بحكم مشكلة الجنوب العميقة والمستفحلة، وعجز قيادة الشمال عن معالجة هذه الأزمة بنحو جادّ وصادق وشجاع، بعيداً عن استخدام هذه المشكلة في الصراعات بين القوى السياسية

على السلطة ومغازلة الجيران والقوى الدولية. وقد تأكد لي أن الجرح عميق في جسم الوحدة الوطنية، وأن القرار خارج عن أيدي المتصارعين. كان الشماليون يستخدمون سلاح الإسلام في وجه الجنوب المسيحي والوثني، ويستخدمون سلاح الوحدة في وجه الانفصال والمتمردين الجنوبيين، والجنوبيون يراهنون على الوقت ومحاولة إنضاج الظروف لتحقيق مشاريعهم... وكان جون غارنغ يردد أن بعض القادة السودانيين وحدويون نهاراً وانفصاليون ليلاً، في إشارة إلى حوارهم الذي يجري معه سراً ويعلنون عكس ذلك، وذكرني ذلك بما كان يتردد في اليمن في أثناء حروب الجمهوريين والملكيين حين كان رجال القبائل ملكيين ليلاً وجمهوريين نهاراً... وأكد لي جون غارنغ في عدن موقفه من أنه مع وحدة السودان القوي والمزدهر والديمقراطي، وأنه لا يملك وجوهاً متعددة ولا يحب تبديل القبعات، بخلاف الذين يتحدثون عن السودان ووحدته ويسعون ليل نهار إلى تدميره بين كل صلاة وصلاة... حسب تعبيره وشرح لي أن مشكلته تكمن في أنه مسيحي ملحد، كما يردد البعض، كالترابي والنميري وغيرهما ولكنه يرى نفسه أفضل من الذين يتكلمون عن الإسلام وهم يصدّرون يهود الفلاشا أعداء الإسلام والشعب الفلسطيني إلى فلسطين. وقال إن مشكلته الثانية أنه لا يتكلم اللغة العربية جيداً، وهذا لا يقلقه لأنه لا يسعى لحكم السودان، وكل حلمه أن يعيش في سودان مستقر ومزدهر وديمقراطي. هكذا كان يحدثني عن رؤيته لمستقبل السودان، وقد كانت العلاقات بيننا طيبة وعميقة، إذ وقف معنا في أثناء أحداث يناير ١٩٨٦م، ووجه رسالة بأنه مستعد لتقديم ألف مقاتل، وأنهم تحت السلاح لحماية عدن والشرعية فيها. وشكرته آنذاك، فقد كان هو ومنغستو من القيادات التي وقفت معنا في أثناء تلك الأحداث، وكان ما جمعنا هو الموقف من وحدة اليمن والسودانـ وأعتقد أنه كان صادقاً مع نفسه في مواقفه التي تبنتها حركته، الحركة الشعبية لتحرير السودان، من أجل قيام سودان موحد وديمقراطي وعلماني، وكان ينادي بالفصل بين الدولة والدين، ويردد أنّ الدين لله والسودان للجميع إذا أرادوا أن نتعايش تحت مظلة السودان والإسلام والمسيحية». وقد التقيت قبله وبعده عدداً من الزعماء السودانيين، وحاولنا تقريب وجهات النظر لوقف الحرب وتحقيق السلام في الجنوب. وأتذكر حديثاً مهماً مع الدكتور حسن الترابي في طرابلس في أبريل من عام

١٩٨٩م، بحضور العقيد أبو بكر يونس ومحمد الشريف مسؤول الدعوة الإسلامية في ليبيا، حينها اتهمني الترابي بالانحياز إلى الرئيس منغستو والعقيد جون غارنغ، قائلاً: «إن المعركة هي مع الكنائس العالمية والمسيحية في الجنوب»، وقد قلت له في هذا اللقاء وفي لقاء آخر استمر أكثر من أربع ساعات في القرية السياحية على الساحل الليبي بطرابلس إن السلام يجب أن يعمّ السودان قبل الحديث عن الإسلام في الجنوب، وإنه سيأتي اليوم الذي تقتنع مع غيرك أن جون غارنغ ليس انفصالياً، وقد كررته مع رئيس الوزراء السيد الصادق المهدي بحضور السفير سيد أحمد الحردلو في صنعاء عند زيارته شمال اليمن عام ١٩٨٨م. وعندما سألني السيد أسامة الباز، مستشار الرئيس المصري، عن العقيد جون غارنغ قلت له: لا سلام من دونه، ولا وحدة للسودان اليوم من دونه، وإنه رجل وحدوي عليكم الاهتمام به والحوار معه، باعتباره من أهم القيادات الوطنية السودانية الجنوبية المثقفة والواعية والمؤمنة بوحدة السودان وبوحدة وادي النيل للحفاظ على أمنه واستقراره.

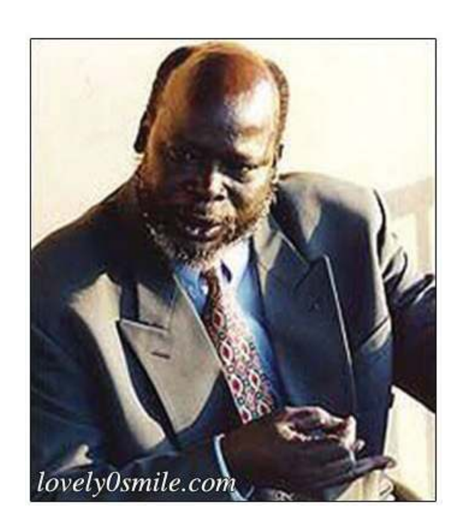
الدكتور أسامة الباز شخصية حوارية بارعة ومثقفة، فبعد سنوات من لقائه وحديثي معه في تشييع جنازة المرحوم باسل الأسد في القرداحة في يناير عام ١٩٩٤م، التقيته في مصر وأكد لي صحة تقييمي للوضع في السودان، وأن جون غارنغ شخص وطني ووحدوي، وبعدها جرت لقاءات معه في مصر على أعلى المستويات، حيث استقبله الرئيس المصري حسني مبارك الذي أكد للأستاذ مكرم محمد أحمد أن جون غارنغ وطني ووحدوي، في حديث مع «المصور» في يوليو ٢٠٠١م، ولم أصدق وأنا أقرأ خبراً عن اللقاء الذي جرى في سويسرا بين أنصار من يسمونه «الكافر الملحد جون غارنغ» وأنصار «المسلم المتطرف حسن الترابي» الذي اعتقل على أثر هذا الاتفاق، إذ عدّته الحكومة السودانية بمنزلة إعلان للحرب، وهكذا تنقل جون من بلد إلى بلد للقاء الصادق المهدي ومحمد عثمان المرغني والترابي وغيرهم من القيادات، وتنقلوا هم أيضاً للاجتماع به في أكثر من بلد لطلب وده، فقد كانت قوته في موقفه الوطني الوحدوي أولاً، وثانياً بما لديه من جيش مسلح ومنظم. لقد حارب هؤلاء جميعاً العقيد جون غارنغ وها هم عادوا جميعاً يتحدثون ويحاولون التحالف معه، ويشكلون معه قيادة للمعارضة، فيما قادة النظام يجرون معه المفاوضات والحوارات

في أديس أبابا ونيروبي وغيرهما من العواصم العربية والإفريقية. أتساءل دائماً، لماذا أضاعوا كل هذه السنين من عمر السودان؟ ولماذا أهدرت كل هذه الدماء في تلك الحروب التي راح ضحيتها ما يقرب من مليوني سوداني من الشمال والجنوب، وأكلت الزرع والضرع والنسل ودمرت علاقات الشمال بالجنوب.

كذلك كان العقيد القذافي يعدّه كافراً وملحداً وعميلاً وموالياً للغرب والكنائس العالمية، ولكنه يلتقيه اليوم ويستقبله ويناقش معه المبادرة الليبية المصرية، ويبحث معه الحلول للمشكلة السودانية في الجنوب. التجربة السودانية لا تختلف كثيراً عن التجربة اليمنية قبل الوحدة اليمنية، فالجنوبيون انفصاليون وشيوعيون وملحدون وكفرة وعملاء لموسكو في العهد السوفياتي، والحكام الشماليون رجعيون وخونة وعملاء للأمريكان والدول المحافظة، وكل يحاول أن يملي تصوراته ويفرض رؤاه وشروطه، ولكن في الحصيلة النهائية لا تتحقق الوحدة بالحرب، بل تتحقق... بالحوار. وهكذا لن تحلّ مشكلة السودان إلا بوحدة ديمقراطية تتعايش فيها كل الأجناس والأعراق والأديان، لأن الاستقرار في السودان استقرار لوادي النيل والبلدان المجاورة، ولكن ذلك يحتاج إلى إرادة سودانية شجاعة تأخذ في الاعتبار المصالح الوطنية العليا للشعب السوداني والأمة العربية والإسلامية قبل مصالح القوى الإقليمية والدولية.

وأخيراً، بعد عشرين سنة من الصراع والحروب بين الشمال والجنوب احتكم الطرفان إلى لغة الحوار في ١٨ يونيو عام ٢٠٠٢م، فيما سُمِّي اتفاق ماجاكوس في كينيا. وقد استقبل الشارع السوداني نبأ الوصول إلى اتفاق بين الحكومة والحركة الشعبية التي يتزعمها جون غارنغ بكثير من الأمل والفرح، وأجمعت القوى السياسية على الترحيب به ووصفته بالإنجاز التاريخي، وعدّته طريقاً إلى تحقيق السلام وإنهاء فصول المأساة الإنسانية التي يعانيها أهل السودان، وخصوصاً في جنوبه. وعلى الحكومة السودانية، بمؤازرة عربية، أن تحاول عمل الكثير للحفاظ على وحدة السودان وإقناع جموع السودانيين بأنه يمكن التعايش ضمن دولة واحدة ترضي كل الثقافات والأعراق والأديان والإثنيات. وبعد ثلاثة وعشرين شهراً على اتفاق ماجاكوس، جرت مفاوضات بين الحكومة السودانية وحركة جون غارنغ تُوِّجت

بتوقيع اتفاق ٢٦ مايو ٢٠٠٤ بشأن اقتسام السلطة والثروة(١)، وبهذا الاتفاق وضعت الحرب أوزارها، وعاد جون غارنغ إلى الخرطوم واستقبل استقبال الأبطال من قبل جماهير الشعب شماله وجنوبه وشرقه وغربه ولم يُستقبَل زعيم استقبال الأبطال مثله على امتداد تاريخ السودان. ولم تدم هذه الفرحة والتفاؤل والأمل في المستقبل الجديد للسودان فقد تحطم كل شيء بتحطم طائرة جون غارنغ العمودية وهو في طريقه من أوغاندا الى جنوب السودان في ٣٠ يوليو ٢٠٠٥م.. وبمقتله واستشهاده خسر السودان بجنوبه وشماله قائداً وطنياً وهب حياته للشعب وكان يأمل ويتطلع الى سودان ديمقراطي واتحادي موحد..



جون غارنغ نائب رئيس الجمهورية السوجاني

وفي بداية عام ٢٠١١ جرى استفتاء أبناء الجنوب على مصيرهم في الوحدة مع الشمال، وصوت ٩٩,٨٤٪ لمصلحة الانفصال، وقد اعترف الرئيس عمر حسن البشير بهذه النتيجة

(١) تمّ الاتفاق بين العقيد جون غارنغ وعلي عثمان طه نائب الرئيس السوداني، على وحدة السودان وعلى اقتسام السلطة والثروة، بحيث يصبح غارنغ نائباً للرئيس السوداني ورئيساً لحكومة الجنوب. وفعلاً أُجري الاستفتاء عام ٢٠١١، وبنتجته انفصل الجنوب عن السودان. واتفقوا أيضاً على استفتاء حق تقرير المصير بشأن مستقبل وحدة الجنوب مع الشمال أو عدمه.

وقدم التهاني للرئيس سلفا كير رئيس الحركة الشعبية لتحرير السودان بعد حروب استمرت أكثر من ٥٠ عاماً راح ضحيتها ملايين من أبناء السودان، شماله وجنوبه، وبعد حوار دام لأكثر من عشرين عاماً.



مع لام أكول نائب رئيس الحركة الشعبية لتحرير السودان وزير الخارجية،

وبيننا الدكتور محسن بلال وزير الإعلام السوري حينها

الفصل التاسع عشر

بيروت
مدينة النور

كانت أول زيارة لي لبيروت في عام ١٩٦٨م. أقلعت بنا طائرة شركة باسكو العدنية (دي سي ٦ ذات المحركات الأربعة) من القاهرة إلى بيروت، ودعاني كابتن الطائرة إلى قمرة القيادة لأشاهد بيروت من الجو وهي تتلألأ بأضوائها الجميلة، وعند الاقتراب منها قام بانحناءة إلى اليمين لنشاهد ساحل الجنوب اللبناني وجزءاً من الساحل الفلسطيني المحتل، وطلب مني مشاهدة الهبوط في مطار بيروت، ولكنني اعتذرت وانسحبت وعدت إلى مقعدي استعداداً للهبوط على أرض لبنان، جنة الله على الأرض كما كان يردد السيد زين باهارون رئيس وزراء عدن السابق ورئيس مجلس إدارة هذه الشركة الوطنية التي أطلق عليها اسم باسكو في أحد اللقاءات معه. وكانت تلك أول مرة أزورها.

لم أكن أعرف أحداً من هذه المدينة إلا محسن إبراهيم وشريف الأنصاري صاحب المكتبات التي تعاقد معه زميلنا عبد الله الأشطل لتصدير الكتب الماركسية اللينينية والماوية إلى حضرموت، وكنت قد التقيته في القاهرة وبيروت حيث كان يسأل في كل مرة عن عبد الله الأشطل خريج الجامعة الأميركية القادم من أديس أبابا، الذي كان على صلة به، لتزويده بآخر ما يصدر من كتب يسارية في بيروت والعالم... تذكرته وأنا أجول في شارع الحمرا لأول

مرة، وتذكرت جورج حبش وهاني الهندي ووديع حداد وأحمد الخطيب وحامد الجبوري، والحكم دروزة وإميل البستاني ونايف حواتمة الذين عرفنا بيروت من خلالهم!!!!

هذه بيروت إذاً، التي ارتبطنا بها عبر قيادة حركة القوميين العرب وفكرها وتنظيمها والكتب والصحف التي كانت تصدر عنها، ومنها تعلمنا الكثير دون أن نعرفها أو حتى نتعرف إليها إلا من خلال قادة الحركة في نهاية الخمسينيات. سألت نفسي وأنا أجول في بيروت وشوارعها وأزقتها، وخصوصاً عند المرور بالجامعة الأميركية والمستشفى الأميركي ورأس بيروت والروشة وصخرتها، هل تعلمنا من بيروت أفضل ما فيها؟ وهل كان قادة الحركة جادين في أفكارهم وتنظيراتهم، أم أن هذه الأفكار كانت نوعاً من الترف الفكري لهؤلاء الطلاب الذين ينتمون بانحدارهم الطبقي إلى البرجوازية أصلاً وكانوا لا يمثلون طبقتهم؟ لم أكن أشك في سلوكهم وأخلاقهم الثورية، إذ كنت عضواً عادياً لم يتعرف بعد إلى دهاليز السياسة وأحابيلها، وشعرت بحيرة لا حدود لها عندما شاهدت بيروت وقارنتها بتنظيرات نايف حواتمة التي كان يسوقها لقيادة الجبهة القومية في عدن عشية الاستقلال... لم أجد وجه مقارنة، ولم أحصل كذلك على إجابات عن أسئلتي الكثيرة... ولكن تلك الأفكار فعلت فعلها في واقعنا اليمني وعلى المستويات كافة... على مستوى التنظيم والدولة والمجتمع. فالجبهة وقيادتها منقسمتان بين يمين ويسار، والدولة وقادتها مرتبكون من هذا الانقسام، والشعب الذي كان يردد في أولى أيام الاستقلال «كل الشعب قومية» بدأ ينسى تدريجاً هذه الهتافات والشعارات وينسى البسمة والفرحة تحت تأثير موجة اليسار المتطرف والخوف من المجهول. وبدأ بعض أئمة المساجد يرفعون أصواتهم ضد هذه الأفكار، والمنابر تهاجمها بعد أن كانت تلك المنابر تسند الجبهة ونضالها وتهاجم الاستعمار والاحتلال البريطاني. خلفت تلك الأفكار والأطروحات شرخاً وجرحاً عميقين في جسم الجبهة القومية والوحدة الوطنية والنظام الوطني. وأودت به في النهاية. ولكن بيروت، بيروت الثقافة والحضارة بريئة من كل ما جرى لنا في عدن بسبب التنظير المدمر لأولئك النفر.



مع الكاردينال مار نصر الله بطرس صفير- لبنان ٢٤/ ٦/ ٢٠٠٦



مع الرئيس اميل لحود وعبدالله الاخمر ومعن بشور



الرئيس سالم ربيع علي ورئيس الوزراء علي ناصر محمد مع المناضل كمال جنبلاط، عام ١٩٧٢ أثناء زيارته عدن



رئيس الوزراء علي ناصر محمد يستقبل نقولا شاوي ونديم عبد الصمد، ١٩٧٢م

بعد ٢٦ سنة زرت بيروت مجدداً عام ١٩٩٢م (عبر البر مع كل من الدكتور عبد الحافظ نعمان، عضو القيادة القومية لحزب البعث العربي الاشتراكي، والسفير محمد عبد

الله الشطفة وسفير اليمن في بيروت عبد الله ناصر «الفاصوليا» الذي استقبلنا على الحدود السورية اللبنانية مع عدد من أعضاء السفارة والمرافقين اليمنيين والفلسطينيين الذين كانوا يوقفون أي سيارة تمر بالقرب منا ويخرجون بنادق الكلاشينكوف من شبابيك السيارات ويلوحون بها للتهديد والوعيد وأحياناً يتوقفون ويخرجون من السيارات وهم يحملون الكلاشينكوف لإيقاف السيارات، منظر لا أنساه في بلدٍ بدأ يتماثل للشفاء من جروح الحرب الأهلية. كانت الفوضى والقوة هي السائدة آنذاك) ها أنا ادخل بيروت وقد أصبح لدي الكثير من الأصدقاء والمعارف من جميع الأحزاب والشخصيات الذين زاروا عدن، ففي عدن تغير كل شيء، وكذلك تغيرت بيروت الجميلة تماماً، التي تعني الربيع بالفينيقية. قال عنها الكاتب محمد حسنين هيكل: «إنها نافذة زجاجية معشقة وملونة في جدار عربي، وإذا خرق هذا الجدار وقع هذا الزجاج الجميل بين الجدار والنافذة والمشكلة أن أصحابها ممكن أن يدمروها»، وهذا ما حدث. كانت نتائج الاقتتالات هي الشاهد على ما أصابها. خلفت الحرب الأهلية اللبنانية أكثر من ١٥٠,٠٠٠ قتيل، و١٧,٠٠٠ مفقود إضافة إلى الجرحى والمصابين بعاهات، فضلاً عن الدمار الذي حلّ في لبنان بتدمير البنية التحتية وهجر مئات الآلاف من أبنائه له... آثار الحروب والصراعات العربية والإقليمية والدولية واضحة على ملامحها الخارجية، وحتى على تشكيلها الاجتماعي، حيث إن بعض القوى والأحزاب والشخصيات أصبحت محسوبة على دولة أو تنظيم خارجي ما، وهذا ما يضعف الولاء للوطن ويوهن الشعور الوطني، فتصبح هذه المجموعات والأحزاب أداة طيّعة لتنفيذ سياسة البلد المرتبطة به، سواء في لبنان أو خارجه أو في اليمن وغيرها، ويتحول بمرور الوقت إلى نوع من إدمان الولاءات الخارجية والارتهان بها، وسبّب ذلك الدمار الذي لحق ببيروت، فكل شيء تحطم ودمر العمران والإنسان... وبعض مبانيها وأحياءها عبارة عن أطلال وآثار الرصاص والقذائف بادية على جدرانها. كان منظّرو الحروب يلهون بأرواح الأبرياء، ما حَوّل لبنان إلى ساحة للصراع الإقليمي والدولي، ووصفها الرئيس الأميركي رونالد ريغان بأنها «ساحة المصالح الحيوية الأميركية». وفي فترة الصراع جرى الاتفاق على إرسال قوات عربية سُمّيت حينذاك «قوات الردع العربية»، وقد أرسلت اليمن الديمقراطية قوات يمنية

سميناها «كتيبة السلام»، واخترنا لها أفضل القيادات والجنود بقيادة الضابطين عبد الرحيم عتيق ومحمد عبد الله امزربة[١]، كان مواقع انتشار كتيبة السلام الجنوبية في عدة أحياء في بيروت ومقرها الرئيسي في حي الشياح. وفي خطوط التماس بين المتناحرين في (الأشرفية) بين المسيحيين والشيعة وفي صبرا بالقرب من السفارة الكويتية وفي الضاحية في منطقة صفير[٢]. وتمتعت هذه القوة بسمعة ممتازة ولم تشارك في حرب الطوائف والأحزاب، ولا في السطو والسلب والنهب[٣] بل كانت نموذجاً رائعاً لقوات السلام في هذا البلد الشقيق

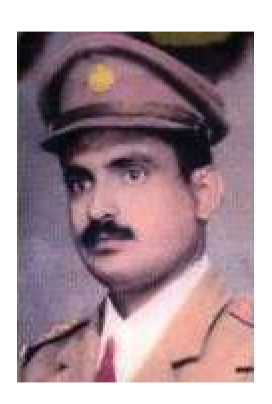
---

(١) الشهيد محمد عبد الله امزربة من مواليد عام ١٩٤٠م في قرية إسلامية بدثينة، التحق في سنوات طفولته بأحد كتاتيب القرية، وحفظ فيه ما تيسر من سور القرآن الكريم، وتعلم القراءة والكتابة. حدث المنعطف الأول في حياة الشهيد محمد امزربة في عام ١٩٥٤م، حين أمرت محكمة مودية (آل جعرة) بتسليم أحد أبنائها رهينة لضمان عدم إقدام الثوار بقيادة الشيخ المجاهد محمد ناصر الجعري على أعمال مسلحة، وكان التركيز على فتاها محمد عبد الله امزربة، الذي علم بنيات المحكمة، فالتحق بعمه الشيخ المجاهد المقيم في البيضاء، ولم يكن الفتى امزربة قد تجاوز الـ ١٤ من عمره، فألحقه عمه الشيخ الجعري بمدرسة في البيضاء.
عُيّن الشهيد محمد عبد الله امزربة قائداً للواء ٢٢،عاد الشهيد امزربة إلى الوطن، وعُيِّن عبد الرحيم عتيق، عضو اللجنة المركزية للتنظيم السياسي الموحد آنذاك قائداً لقوات اليمنية في لبنان.

(٢) شارك اليمن الجنوبي بكتيبة مشاة تعدادها ما بين ٧٠٠ إلى ٩٠٠ بقيادة النقيب محمد عبدالله مزربة وعبدالرحيم عتيق عبدالله سالم الحنكي (المرشد السياسي)، وإلى جانبهم ضباط من خيرة شباب الجنوب آن ذاك امثال: سالم علي قطن، سالم محمد الجعري، مثنى سالم عسكر، احمد عبدالله النصيف، محمد ناجي، علي ناصر الغسيلي، احمد طالب، محمد أحمد العمري، ناصر أحمد حويدر، ناصر المسيبلي، محمد مانع، فضل مانع، احمد عبدالله باصهيب، محمد عبدالله الجعري، فضل الرباب، أحمد العبد ناصر الوليدي، عبد الله السيد علي، محمد صالح حسين، عبد الله صالح القشبري، صالح علي المحثوثي، حسين علي سلامة، حيدرة محمد مجاهد.

(٣) إن الروايات الرائعة والداعية للفخر هي التي اكدها سيادة اللواء ركن عبدالرحيم عتيق لجريدة المكلا اليوم فخلال الحرب الأهلية في لبنان غادرت أسرة الرئيس اللبناني رياض الصلح قصرهم، من جراء الحرب وكان القصر يقع ضمن المناطق التي تتمركز فيها القوات الجنوبية فحافظوا عليه من النهب والسرقة لتعود أسرة الصلح فيما بعد فيجدوا القصر كما هو فوجدوا محتويات القصر من مقتنيات أثرية ومكتبة الرئيس ومجوهرات الأسرة في مكانها ولم تنهب خلال أيام الحرب وقد ذكرت ذلك عقيلة الرئيس الصلح وشكرت القوات الجنوبية وقدمت لهم امتنانها.

الذي عانى من تلك الصراعات الطائفية[1]، والحروب الفلسطينية والسورية والإسرائيلية وتدخلات حلف الأطلسي في الصراعات بقواته وحلفائه، والتي دفع ثمنها الكثير جراء العمليات الانتحارية الجريئة التي أفقدته مئات من الجنود والضباط الأمريكيين والفرنسيين، بما اضطرهم بعد ذلك للانسحاب...



القائد محمد عبد الله امزربه

لم يقتصر دور النظام في عدن على إرسال الجنود والضباط للمشاركة في قوات الردع العربية وفي دعم المقاومة ضد قوات الاحتلال الإسرائيلي، بل طالبنا بتقديم الدعم إلى الشعب اللبناني الذي فتح قلبه وأرضه للشعب الفلسطيني وتحمّل أعباءً كبيرة وخطيرة بسبب هذا الموقف. في قمة بغداد عام ١٩٧٨ قدمنا مشروعاً إلى القمة لتقديم جزء من المساعدة المالية إلى سورية والأردن ومنظمة التحرير الفلسطينية قدّرت آنذاك بثلاثة مليارات وربع مليار دولار... وإلى لبنان أيضاً، وقد دار نقاش في المؤتمر استمرّ أكثر من ساعتين بين مؤيد ومعارض لمشروع الدعم، وكان السؤال لمن سيقدَّم هذا الدعم في ذروة الخلاف بين أطراف الصراع في لبنان؟ وأكدت حينذاك أن الدعم يجب أن يقدّم إلى الحكومة الشرعية في لبنان، بصرف النظر عن الخلافات بين الحكومة والمعارضة، وقد شكرني الرئيس إلياس

(١) في لقاء أجرته فضائية «الجزيرة» مع زعيم الحزب الشيوعي اللبناني جورج حاوي قال: «لقد تعلمنا من القوات اليمنية دروسا في الوطنية والعروبة وفي الشجاعة والإقدام والبسالة، عندما قال لنا قائد القوات اليمنية عبارة لن أنساها أبدا، فقد قال: «العدو أمامكم وإخوانكم اليمنيون من ورائكم».

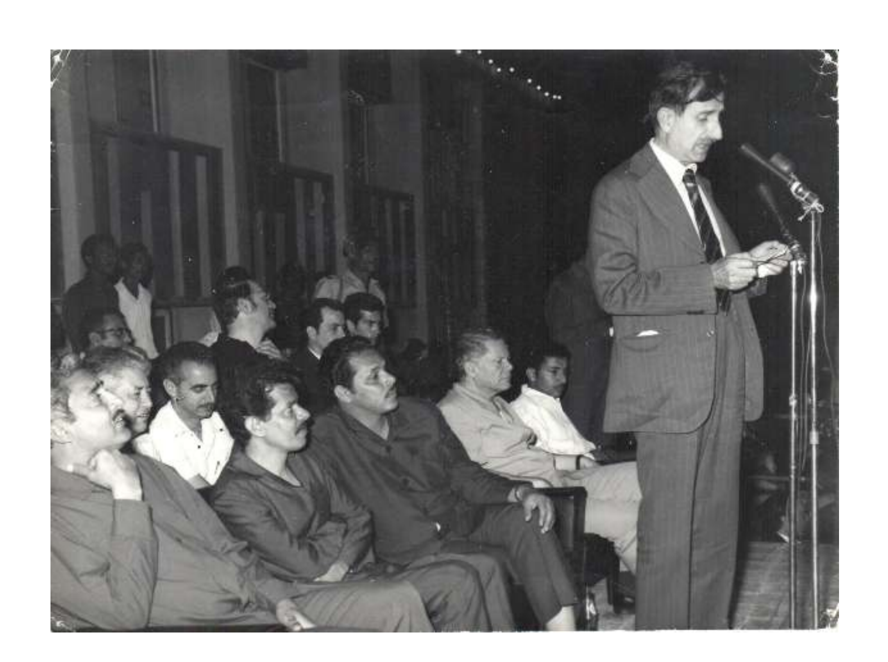
سركيس على موقفي من القضية اللبنانية ودعم الشعب اللبناني الذي هو بحاجة إلى مثل هذه المساعدات وتحمّل الكثير بسبب موقفه وموقعه في المنطقة.



قائد قوات الردع العربي في سنوات الحرب الاهلية اللبنانية عبد الرحيم عتيق من جيش جمهورية اليمن الديمقراطية خلال الفترة ١٩٧٦ – ١٩٧٨م

كانت بيروت قد شهدت اغتيال الرئيس بشير الجميّل في ١٤ سبتمبر ١٩٨٢م على يد أحد عناصر الحزب السوري القومي الاجتماعي، وادعى آخرون أنهم هم الذين نفذوا عملية الاغتيال خوفاً من قيام نظام عسكري قوي في لبنان مرتبط بإسرائيل ومعادٍ للنظام في سورية، وكذلك كان الخوف من أن يبني جيشاً قوياً تحت قيادته وأن يقمع بقية القوى والميليشيات على الساحة اللبنانية، وأكمل الصورة الأستاذ كريم بقردوني حيث قال: «ينبع الخطر الأكبر من بشير الجميّل، فهو أقرب المسيحيين اللبنانيين إلى إسرائيل. وبشير الذي يحلم بخروج

السوريين يرى أن السبيل إلى ذلك في مواجهة إسرائيلية سورية، وحال خروج السوريين سيوجه ضربة إلى آل فرنجية ويخضع منطقتهم ليحقق بذلك حملة توحيد المناطق المسيحية تحت سيطرته من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب، بما فيها منطقة سعد حداد»[١]. وبعد مقتله انتُخب أخوه أمين رئيساً للجمهورية، وفي عهده عُقد اتفاق ١٧ أيار عام ١٩٨٣ بين لبنان و«إسرائيل»، الذي لم يُعمّر طويلاً فأُسقط عام ١٩٨٤.



شارون في بيروت

دخل شارون وبعض قادة إسرائيل إلى القصر الرئاسي في بعبدا، وكانت بذلك أول عاصمة عربية تسقط بيد القوات الإسرائيلية بعد القدس. حاولنا من عدن المساعدة، وقدمت اليمن الديمقراطية أطناناً من السلاح وملايين الذخائر وعدداً من صواريخ الدفاع الجوي في محاولة لإنقاذها... كذلك قمنا بمبادرة أملنا من خلالها رصّ الصف العربي لمواجهة

(١) قائد ما كان يُسمى «ميليشيا جيش لبنان الجنوبي»، الذي كان يسيطر على منطقة الجنوب ما بين لبنان وفلسطين وكان يتلقى الدعم العسكري والمالي من إسرائيل، وتسلم القيادة بعده أنطوان لحد.

الاجتياح، وذلك عندما تحركت مع الرئيس علي عبد الله صالح في يونيو ١٩٨٢م سعياً وراء عقد قمة عربية طارئة لمواجهة الموقف. وأتذكر هنا حديثاً ساخناً ومهماً في محطتنا الأولى في جَدّة مع قادة المملكة العربية السعودية، وفي مقدمتهم الأمير فهد بن عبد العزيز، وليّ العهد آنذاك، الذي كان هائجاً عندما كنا نتحدث عن فك الحصار عن بيروت والمقاومة الفلسطينية واللبنانية، وقال إنه «كان بالإمكان أن نحصل على اعتراف دولي بالمنظمة، ودولة فلسطينية عاصمتها القدس استناداً إلى قرار الأمم المتحدة ٢٤٢ وغيره من القرارات، وقد أقنعنا الرئيس كارتر بذلك عبر وزير خارجيته سايرس فانس الذي حمل إليه مشروعاً متكاملاً بشأن الصراع العربي الإسرائيلي في المنطقة، وقال: إن هذا المشروع قد اتُّفق عليه بيننا وبين ياسر عرفات، وبعد أن وافق عليه الرئيس كارتر تراجع عرفات ووضعنا في مأزق وحرج مع الإدارة الأميركية..». واستناداً إلى ذلك، فإن الفلسطينيين كما قال (فهد) هم الذين فرضوا على أنفسهم هذا الحصار بسبب المواقف التكتيكية الخاطئة وعدم الثبات في المواقف والعديد من الأخطاء التي ارتكبوها في أكثر من بلد عربي، واستشهد بأحداث عَمّان ١٩٧٠م، وممارساتهم الخاطئة في لبنان، وازدواجية السلطة التي فرضوها في هذين البلدين، واستنتج أنه كان لا بد من الوصول إلى هذه النتائج. حاورتُ القيادة الفلسطينية في ذلك، واطلعت على وجهة النظر الفلسطينية في هذا الموضوع الذي سُمِّي حينذاك «مبادرة الأمير فهد بن عبد العزيز» التي عُرضت على قمة فاس الأولى، وأستشهد هنا بما نُشر في مذكرات الدكتور طلال ناجي الأمين العام المساعد للجبهة الشعبية القيادة العامة (ص ٢٨٥) لتلخيص وجهة نظر إحدى القيادات الفلسطينية:

« أذكر أنه عندما طرحت هذه المبادرة همس في أذننا أنها حاصل اتفاق بين قيادة فتح (ممثلة بخالد الحسن رحمه الله) والأخوة السعوديين أي إن الأمير فهد تبنى في حينه أفكار قيادة فتح وطرحها في مبادرته. حتى إنه قيل لنا إن هذه الأفكار صاغتها له قيادة فتح، وبرأيي إن السعوديين ظلموا في هذه القصة لأنهم تبنوا فكرة قيادة فتح وطرحوها عبر مشروع... وطبعاً نحن اعتبرنا المشروع بشكل أو بآخر عملية تكملة لاتفاقات كامب ديفيد، لأنه لأول مرة يطرح مشروع من زعيم عربي كبير لدولة عربية كبيرة المفروض أنها وقفت ضد كامب

ديفيد حول إمكانية الاعتراف بإسرائيل. فقد كان واضحاً في المبادرة أنه يوجد اعتراف بحق إسرائيل في الوجود، وقد صدمنا ورفضنا واصطدمنا بأعضاء اللجنة التنفيذية الذين يتبعون ياسر عرفات، وكان معنا أعضاء اللجنة المركزية لفتح الذين اتخذوا الموقف ذاته قبل ذهابنا إلى الاجتماع في فاس، وكان أبرزهم «أبو اللطف» فاروق قدومي رئيس الدائرة السياسية لمنظمة التحرير الفلسطينية، وافقنا جميعاً على الذهاب إلى المؤتمر لإفشال تبني عرفات هذا المشروع في اجتماع قمة عربية، ففي ذلك الوقت كان أبو عمار وفي مجالسه يهدد بأن رفض هذا المشروع سيكلفنا غالياً في لبنان. ولم يكن يوضح كيف سيكون ذلك... وإن توقعنا أنه يملك معلومات معينة إذ يقول إن من يرفض هذا المشروع سيذبح في لبنان، وردد هذا الكلام لاحقاً في اجتماعات المجلس الثوري لحركة فتح، وفي اجتماعات اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية ولكننا كنا في ذلك الوقت أغلبية ضد هذا المشروع ومدعومين بموقف عربي سوري وليبي يرفض تعميم اتفاقات كامب ديفيد. ذهبنا إلى مؤتمر فاس على هذه الخلفية متخذين قراراً برفض المبادرة، قلت إن الصورة لم تكن واضحة لدينا في ذلك الوقت حول قضية التنسيق بين قيادة فتح والأخوة السعوديين، كنا نسمع همساً ولكن هذا الأمر اتضح فيما بعد وذهبنا إلى المؤتمر وكان يرأس الجانب السوري السيد عبد الحليم خدام، وكان قرارنا أنه في حال قام أبو عمار باتخاذ موقف إيجابي سنقف ونعلن أن هذا ليس قرار اللجنة التنفيذية، ولهذا اضطر عرفات عندما سأله الملك الحسن عن رأيه (وكان الأمير فهد في مواجهته وكنا أنا وأبو ماهر اليماني وأبو اللطف وياسر عبد ربه نجلس خلفه) لأن يخفض رأسه ويقول: منظمة التحرير ترفض المشروع. شعرنا بأننا قد حققنا انتصاراً واستطعنا أن نفرض موقفنا».

ويضيف طلال ناجي:

«لقد نجحنا في مؤتمر فاس بإحباط تبني مشروع الأمير فهد، وربما يسأل البعض ألم تحسبوا حساباً لما تحدث به عرفات؟ الحقيقة أننا أخذنا كلامه بالاعتبار، لكن ذلك لم يكن ليعني أن نتخلى عن مواقفنا ونوافق على تعميم كامب ديفيد، وهناك أمر آخر: لقد كنا نعيش حالة من الضرب الدائم في لبنان قبل ذهابنا إلى فاس، كانت هناك حرب مستعرة في البقاع

وفي بيروت، ودمر الإسرائيليون مباني في بيروت، هذا ما حدث قبل مؤتمر فاس بأشهر. لم يكن هناك جديد عندما قال لنا عرفات: ستُضربون، واعتقدنا أن الأمر هو في سياق الضربات المستمرة علينا. فقد كان هناك اجتياح عام ١٩٧٨م، وأيضاً دخل الإسرائيليون أراضي الجنوب وقتلوا ودمروا. ليست هي المرة الأولى التي تهدد فيها إسرائيل بالاجتياح بهذا الشكل، ولكن للحقيقة لم يخطر على بال أحد منا أن الصهاينة سيدخلون بيروت ويخرجوننا بهذا الشكل الذي حدث». إلى هنا تنتهي شهادة طلال ناجي.



الرئيس حافظ الأسد يستقبل الرئيسين اليمنيين علي ناصر محمد وعلي عبد الله صالح يونيو ١٩٨٣م وقد زار دمشق لمناقشة الاجتياح الإسرائيلي للبنان والتشاور لعقد قمة عربية

أما بالنسبة إلينا نحن والرئيس علي عبد الله صالح، فقد تابعنا جهودنا، حيث انتقلنا من جدة إلى دمشق، والتقينا الرئيس حافظ الأسد الذي رحب بالمبادرة اليمنية لعقد القمة العربية. لكن قرار عقد القمة لم يكن بيد العديد من قادتها، فبعد موافقة معظم قادة هذه الدول تراجعوا، وبدأ العد التنازلي حتى تقلّص عدد الموافقين إلى ثلاث دول بعد أن كانوا ست عشرة دولة، ويبدو أنهم وافقوا في زحمة الاحتلال، ولم يدركوا أن الذين يقفون وراء

الحرب كانوا أيضاً ضد عقد القمة. تكرر مثل هذا الموقف في الحرب على لبنان في يوليو عام ٢٠٠٦م. عندما رفض القادة العرب عقد اجتماع قمة عربية، والضاحية وجنوب لبنان وغيرهما من المدن يحترق، ولبنان مقطَّع الأوصال بسبب تدمير أكثر من ١٦٠ جسراً، وجّه حزب الله والمقاومة الوطنية اللبنانية ضربة موجعة وألحقا الهزيمة بالجيش الإسرائيلي. هنا نتذكر مثل هذا الموقف عندما كانت رام الله محاصرة، وقبلها بيروت، فلم يفعل العرب شيئاً في المرات السابقة ولا اللاحقة. وأذكر أن الموقف نفسه استمرّ من الرئيس ياسر عرفات، وأتذكر خلافاً نشب حول بيان في أحد المؤتمرات، ولم أصدق وأنا أستمع إلى أحد المسؤولين من المثقفين العرب وهو يرفض المطالبة برفع الحصار الإسرائيلي عن ياسر عرفات عام ٢٠٠٢م، ويقول: لماذا لا يقتلونه، إنه خائن وعميل؟ بينما كان عرفات يردد ويقول إنه لن يستسلم وإنه سيصبح شهيداً شهيداً شهيداً.

كذلك لم تُجدِ دعوات القائد الليبي معمر القذافي لتشكيل قوات عربية بقيادته في لبنان، فقد رحبنا وأكدنا أننا سنُرسل ثلاثة ألوية من عدن للمساهمة في ذلك، ولكن تعذر نقلها إلى قلب المعركة، حيث كانت الطرق السياسية والطبيعية معقدة وبعيدة عن عدن، ولم يتخذ العرب قادةً وشعوباً أي موقف من الاجتياح الإسرائيلي، إذ كانوا مشغولين بمتابعة كأس العالم وبقضايا أقل شأناً، فيما بيروت تحترق والإسرائيليون يعربدون في شوارعها، وقصر الرئاسة في بعبدا يستغيث ولا مغيث. قال وزير الدفاع الإسرائيلي إن العرب مختلفون على كل شيء، ولكنهم متفقون على عدم الحرب مع إسرائيل. نجحت إسرائيل في الاجتياح، ولكنها أخفقت في الاستمرار في الاحتلال، واحتفظت بالشريط الأمني بالتعاون مع عملائها. غير أن المقاومة اللبنانية لم تستكن لهذا الواقع، وبدأت نضالها لتغيير واقع الاحتلال، واستهدفت القوات الإسرائيلية وعملاءها، وكان في مقدمة المستهدَفين قائد ما يُسمى «جيش لبنان الجنوبي» العميل أنطوان لحد الذي تكفلت باغتياله المناضلة اللبنانية سهى بشارة[1]، وقد حملت السلاح لأول مرة للقيام بواجبها ضد العدو الإسرائيلي والمتعاونين معه في الجنوب. وهكذا تقدمت إليه في عقر داره وحاولت إطلاق النار عليه

(١) ولدت في ١٥ يونيو ١٩٦٧م، وشاركها في النضال لولا، كفاح، ليلي، وقديرة وفاطمة وهنية.

من المسدس الروسي عيار ٥,٥ الميكروف، ولم تتمكن من إطلاق النار عليه لعدم خبرتها وثقل وزن المسدس في يدها، فاستبدلت به مسدساً روسياً آخر بحجم الكف خفيف الوزن وله تأثير قوي وفعال تنتشر شظاياه في الجسم. وفي ٧ نوفمبر عام ١٩٨٨ الساعة ٨ مساءً أطلقت سهى بشارة النار على أنطوان لحد من مسافة لا تتجاوز ٢٠ سم على الاكثر وأصابته إصابة مباشرة، ونقل أنطوان لحد إلى مستشفى مرجعيون، ومن ثم إلى حيفا.

وكان هذا المسدس هدية شخصية مني إلى الأمين العام للحزب الشيوعي اللبناني جورج حاوي، كذلك أهدينا إلى الآخرين من القيادات اللبنانية والفلسطينية مثل هذا النوع من المسدسات التي حصلنا عليها من وزارة أمن الدولة في الاتحاد السوفياتي.



المناضلة سهى بشارة





العميل أنطوان لحد

وكما أسلفت، فإننا قدمنا آلاف الأسلحة وملايين الذخائر دعماً للمقاتلين أثناء الاجتياح عام ١٩٨٢ وحصار بيروت، بشرط عدم استخدامهم لها ضد بعض، وقد أرسلت عشرة آلاف بندقية وعشرة ملايين طلقة إلى مطار دمشق لإدخالها إلى لبنان لمواجهة العدوان الإسرائيلي، وأرسلنا بطاريات للدفاع الجوي دفاعاً عن بيروت. وكان الرئيس السوري حافظ الأسد قد انزعج من وصول هذا السلاح إلى سورية ودخوله إلى لبنان لأنه كان يخشى أن يتسرب إلى أعداء سورية والثورة الفلسطينية. وهنا أتذكر حديثاً مع الدكتور علي التريكي وزير الخارجية الليبي والصديق صالح الدروقي وعبد الله حجازي، وهما من القيادات

الليبية المهتمة بالشأن الفلسطيني، عن أنهم قدموا سلاحاً إلى الفلسطينيين واللبنانيين ومساعدات مالية تكفي لتحرير لبنان وفلسطين، ولكنهم استعملوها في صراعاتهم الداخلية ولمصالحهم ومشاريعهم الخاصة... في حين أن حزب الله لم يحصل على أكثر من ١٠٪ من حجم تلك المساعدات، واستطاع أن يعمل من أجل تحرير جنوب لبنان وهزم الجيش الإسرائيلي، وهو ما تحقق بفضل التضحيات الجمّة التي قدمها شعب لبنان العظيم بمساندة سورية والجمهورية الإسلامية الإيرانية التي ارتبطت بعلاقات خاصة مع حزب الله، وقد تعرفت إلى عدد من الشخصيات اللبنانية بعد خروجي من السلطة سواء في سورية أو لبنان، وكانت القيادات اللبنانية تتنقل بين دمشق وبيروت لكسب ود القيادة السورية التي كانت تبارك اختيار الرؤساء ورؤساء الوزراء والوزراء وقادة الجيش، وكان بعضهم يتردد إليّ بين حين وآخر لتقديمهم إلى الرئيس أو نائبه باعتبارهما صديقين لي، وكنت أتجنب الدخول في مثل هذه العلاقات والصفقات تجنباً لأي إحراج أو إزعاج، وكنت أعرف أن هناك قنوات معتمدة من قبل الرئيس، بواسطتها يمكن الوصول إلى باب الرئيس ومكتبه ومباركته. وأتذكر أن وزير الخارجية اللبناني الأسبق جان عبيد، المقرب من النظام في دمشق، رشح نفسه للرئاسة، ويبدو أن هذا الموضوع قد تعطل بسبب المنافسة بين المرشحين، وقال لي إن الاختيار وقع على العماد إميل لحود، ولم أعلق.

وأنا لا أخفي أنه كانت تربطني صداقة وعلاقة مع القيادة السورية ومع اللواء غازي كنعان رئيس شعبة المخابرات السورية في لبنان. وأتذكر أنني زرته في مكتبه وطلبت منه مساعدتنا على عقد ندوة للمركز العربي للدراسات الاستراتيجية في بيروت بدعم من الحكومة اللبنانية التي كان يرأسها حينذاك رفيق الحريري، وأنه لا يوجد اتصال بيني وبينه آنذاك. وعلى الفور اتصل اللواء غازي برفيق الحريري رئيس الوزراء وأعطاني سماعة الهاتف لأتكلم مع الحريري الذي رحب باللقاء صباح اليوم الثاني في مكتبه بالقصر الحكومي، وبعد تبادل كلمات المجاملة والكلام عن الماضي والحاضر وتاريخنا المشترك في حركة القوميين العرب، أعطى توجيهاته باستضافة المؤتمر وتقديم التسهيلات كافة، سواء في المطار أو الفنادق وغيرها مما نحتاج إليه لإنجاح ندوة مركزنا التي كانت بعنوان

«نحو مشروع للنهضة العربية في القرن الواحد والعشرين». وأكدت له حينذاك أننا لا نطلب إلا رعايتكم وحضوركم للندوة وترتيب حفلة عشاء للمشاركين بحضوركم لأنّ كل ما يتعلق بالتذاكر والفنادق قد تم ترتيبه مع اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغرب آسيا (الإسكوا) التي يرأسها الدكتور حازم ببلاوي.



مع الرئيس رفيق الحريري والدكتور حازم ببلاوي أثناء المؤتمر الثالث للمركز العربي للدراسات الاستراتيجية في بيروت عام ١٩٩٨م

زيارة الجنوب

لا يمكن استكمال مذكراتي عن لبنان دون الإشارة إلى جنوب لبنان، وهو يذكّرنا بعدن وجنوب اليمن ومقاومة الاحتلال البريطاني. فكلا الشعبين خاض معركة التحرير من الاحتلال، وكنا نسمع عن بطولات هذا الشعب والأغاني الوطنية لفيروز وجوليا بطرس، وأغاني الفنان محمد محسن عطروش. ولهذا، فقد كنت أتطلع لزيارة الجنوب اللبناني، وقمت بزيارته مرتين.

الزيارة الأولى كانت لمتحف مليتا عام ٢٠١٤، وهو المتحف الحربي الذي يحكي عن معارك المقاومة مع الاحتلال الإسرائيلي في جنوب لبنان، ويوثّقها.

أما الزيارة الثانية، فكانت في يوليو ٢٠١٩ برفقة عدد من قيادات حزب الله اللبناني وبعض مرافقيَّ من رحلة امتدت منذ الساعة العاشرة من صباح الثلاثاء ٢٣ يوليو ٢٠١٩، وحتى مسائه، في زيارة لمعظم مدن جنوب لبنان وقراه، بدءاً بصيدا، أكبر مدينة في الجنوب، ثم مدينة صور، ومنها إلى قرى جنوبية مهمة، كثيراً ما ترددت أسماؤها وأسماء أبنائها من المقاومة اللبنانية وشهدائها الذين أسهموا في دحر العدو الصهيوني من لبنان، والجنوب تحديداً منذ احتلاله له في عام ١٩٨٢م، وحتى عام ٢٠٠٠م، ثم حرب ٢٠٠٦م.





في بلدة مارون الراس، ويظهر الشريط الحدودي
وخلفه الأراضي الفلسطينية المحتلة

وفيما كنّا نواصل الطريق من قرية إلى أخرى، مثل رميش، عيتا، دبل، حانين، تلة مسعود، مارون الراس، قلعة الشقيف، بوابة فاطمة، المطلة، القنطرة، الطيبة، بنت جبيل ووادي حجير... كنّا نتابع وصف بعض المعارك العسكرية أو المواجهات بين شباب المقاومة اللبنانية والجنود الصهاينة، وهو ما اضطرّ القوات الصهيونية إلى بناء سور إسمنتي

وأسلاك شائكة، وقد شاهدنا لأول مرة الحركة والحياة في جهة فلسطين المحتلة، وكان أحد الزائرين يسأل: هل هذه حدود إسرائيل التي تبعد أمتاراً عنا؟! فيردّ مرافقٌ آخر، غاضباً: لا، هذه الأراضي الفلسطينية المحتلة! وكان عليه أن يحترم رأي مرافقينا، ولم يكرر الحديث عن حدود إسرائيل، لأنهم مؤمنون بأنها أراضٍ فلسطينية ستتحرر من الاحتلال يوماً ما.



مسؤول المعتقل

وتقدموا لنا بشرح مفصَّل عن كثير من العمليات الاستشهادية، وكيف كانت المقاومة تصطاد جنود العدو عبر وسائل متعددة غير تقليدية، كتلك التي تُتَّبَع عادةً في مواجهات الجيوش النظامية، حيث إنّ كثيراً من تلك العمليات الناجحة يقوم بها اثنان إلى ثلاثة مقاومين.

من أكثر العمليات الفدائية البطولية نجاحاً، والتي كسرت هيبة جيش العدو وضباطه وجنوده، إحراق دبابات ميركافا الإسرائيلية وتفحّم جثث الجنود داخلها، بعد أن كانت إسرائيل تسوّق هذه الدبابة كأقوى الدبابات في العالم، وفي المعارك.

قابلنا عدداً من المقاومين الذين كانوا يتحدثون بتواضع، لكن بثقة وعزيمة لم نرَ مثلها من قبل. وكما أخبرنا قائدهم، فقد استفادوا من خبرة ما كان يقوم به الفيتناميون خلال محاربتهم الوجود الأميركي في فيتنام الجنوبية، وتحديداً في حفر الخنادق وحرب العصابات.

مررنا بمعتقل الخيام الذي أنشأته إسرائيل، وفيه وصل عدد المعتقلين الكليّ إلى خمسة آلاف معتقل، ولكنه لصغره لم يضمّ أكثر من خمسمئة في فترة واحدة، وكانت سهى بشارة معتقلة فيه. وشاهدنا مقارّ التعذيب التي لم يُشهَد لها مثيل في التاريخ، كما حدثنا بذلك مسؤول المعتقل، أحمد الأمين، وهو من القرية نفسها.

كان سجّانوه من الجنود الصهاينة، وممّا يُسمّى جيش لبنان الجنوبي الحرّ بقيادة سعد حداد، ثم أنطوان لحد. ولأن الانتساب إلى الجيش كان بالتجنيد الإجباري، بقي عدد من اللبنانيين في جيش لبنان الجنوبي، وعملوا تحت إمرة القائدين العسكريين اللبنانيين. ولأنهم من قرى الجنوب، فقد هرب بعضهم، وبقي آخرون يتعاونون مع جيش الاحتلال. وهكذا، أصبحوا سجّانين وسجّانات للوطنيين اللبنانيين.



من معتقل الخيام

وخلال زيارتنا لاحظنا – مقارنةً بما بعد عام ٢٠٠٠ – كثرةَ العمران والتشجير المكثَّف في الجبال والطرقات، ثم الطرق المرصوفة حديثاً، والمنتجعات والمتنزهات الجديدة.

وقد علمنا من مرافقينا بأنّ الجمهورية الإسلامية الإيرانية أسهمت في معظم هذه الإنشاءات. وكان من نتيجة ذلك، عودة أعداد كبيرة من سكان الجنوب إلى قراهم، وبالتالي ازدادت أعداد المدارس، وكذلك فروع بعض الجامعات اللبنانية الخاصة، سواء في صيدا أو صور.

الفصل العشرون

اليمن الديمقراطية والمملكة الاردنية الهاشمية

عمّان والتلال السبع

عَمّان، عاصمة الأردن في العصور الغابرة وفي أيامنا الحاضرة. إنها ربة عمون التي شيدها العمونيون القدماء عاصمة لهم. وهي فيلادلفيا (مدينة الحب الأخوي) التي ازدهرت في أيام اليونان والرومان، في ما مضى كانت أبنية المدينة تغطي سبع تلال، مثلها مثل مدينة روما، أما الآن فإن أبنيتها تنتشر على تسع عشرة تلة. تُعَدّ عَمّان مدينة المفارقات، يلتقي فيها القديم والحديث، ومن أشهر معالم مدينة عَمّان جبل القلعة حيث توجد دار الإمارة والمدرج الروماني في أسفل جبل الجوفة وكهف أهل الكهف في قرية الرجيب.،

في الثاني من مارس عام ١٩٢٤ وصل إلى عمّان الأمير عبد الله بن الحسين واختارها عاصمة لإمارة شرقيّ الأردن بعد انهيار الدولة العثمانية والحرب العالمية الأولى. شهدت عَمّان في ظلّ حكم الهاشميين ازدهاراً اقتصادياً، وخصوصاً في عهد ملكها الحسين بن طلال الذي حكم الأردن أكثر من ستة وأربعين عاماً، وشهدت فترة حكمه العديد من الأحداث والصراعات والحروب والمؤامرات والمؤتمرات. ودائماً تعيش الأردن قدرها وسط الاضطرابات والصراعات الإقليمية الحادة، وتحاول دائماً أن تستفيد من تلك الصراعات

دون أن تزجّ بنفسها فيها. وهكذا استفادت من الحرب الإيرانية العراقية ومن حرب الخليج الثانية، حيث انتقل بعض رجال المال والأعمال إلى الأردن لاستثمار أموالهم، مستفيدين من التسهيلات والاستقرار والأمن الذي تنعم به المملة, واستفادت أيضاً من الصراع في سورية وليبيا واليمن من الأموال التي استُثمرت فيها، ومن شراء العقار والإيجار وازدهار السياحة.



مع الملك حسين – ملك المملكة الاردنية الهاشمية

في ١٩٩٤ عُقد اجتماع للقيادات اليمنية في عَمّان برعاية الملك حسين وجرى التوقيع على وثيقة العهد والاتفاق من قبل الرئيس علي عبد الله صالح ونائبه علي سالم البيض ومن قبل القوى السياسية كافة في اليمن، برعاية إقليمية ودولية، غير أن ما حصل كان التوقيع على الوثيقة دونما صدق النيات، لأن الأفرقاء بمجرد مغادرتهم عمّان نووا الافتراق الذي أعقبه الاقتتال وإعلان الانفصال في حرب صيف ١٩٩٤م. وقد شاركت في هذه اللقاءات مع كل القوى السياسية اليمنية، لأكون أحد شهود التوقيع على وثيقة العهد والاتفاق بين القوى المتصارعة، ولكن كان يبدو أن المختلفين أرادوا أن يكسبوا الوقت لاستعداداتهم للحرب وكسب القوى المحلية والإقليمية والدولية في صراعهم العنيف، ولهذا تفرقت بهم السبل بعد التوقيع مباشرة، فمنهم من اتجه إلى صنعاء، ومنهم من قصد الرياض والكويت وغيرهما.

كان علي سالم البِيض نائب الرئيس اليمني قد زار الولايات المتحدة الأميركية، ورتب لوبي النفط لقاءً بينه وبين نائب الرئيس الأميركي آل غور، حيث حاول أن يكسب تفهماً أميركياً لموقفه الداعم للانفصال دون أن يدرك أن مصالح القوى العظمى فوق تحالفات الأشخاص ومصالحهم. لقد كان من مصلحة أميركا حينذاك أن يبقى اليمن موحداً في جنوب الجزيرة العربية، والعراق ضعيفاً ممزقاً بعد أن أنهكته حربا الخليج الأولى والثانية، ليبقيا فزاعة لدول الجزيرة والخليج، إضافة إلى البعبع الإيراني في شرقي الجزيرة. ويبدو أن الاستراتيجية الأميركية كانت تقتضي استمرار هذه الأوضاع والمخاوف ليبقى الجميع في حاجة إليها. ولم يفهم البيض موقف البيت الأبيض وتعقيدات الوضع في المنطقة، ويبدو أنه عاد بانطباع مؤداه أن أميركا ستقف إلى جانبه، وربما كان ذلك بتأثير من بعض جماعات الاحتكارات النفطية، إضافة إلى مواقف بعض دول الخليج التي كانت تعطي إشارات غير مرئية تحرض فيها على المواجهة والانفصال. وكانت هذه الدول ترى أن المنتصر مهزوم في هذه الحرب لأن أهدافها ستتحقق ولو جزئياً من نتائجها، وقد عجلت هذه الأحداث بترسيم الحدود عام ٢٠٠٠م.

عاد البِيض إلى عَمّان من الولايات المتحدة الأميركية والتقى ملك الأردن الحسين بن طلال الذي استقبله وودعه في المطار، وعامله كرئيس دولة، وليس كنائب كما هو وضعه، ويبدو أنه اعتبر تلك الحفاوة رسالة أخرى موجهة إلى الرئيس علي عبد الله صالح، وأنها تدعم موقفه... أغضب ذاك الاهتمام علي عبد الله صالح وأنصاره الذين بدأوا يرددون أن البِيض والعطاس وبن حسينون باعتبارهم ينحدرون من أصول هاشمية، أصبحوا ضمن مؤسسة آل البيت «مآب» التي كان يرعاها الملك، وكان ذلك جزءاً من التحريض والتشهير ببعض سادة حضرموت الذين رفعوا راية الماركسية واللينينية والماوية وتحرير الخليج العربي في بداية حياتهم السياسية... وإظهار أنهم يرتدون الآن بحثاً عن دولة هاشمية، وكان ذلك جزءاً من الصراع وآلياته.

غير أن علي البيض لم يستثمر ذلك الاحترام والتعاطف الذي أبداه الملك له. ففي الزيارة التالية في فبراير ١٩٩٤م، وعند توقيع وثيقة العهد والاتفاق، أبقى زوجته في الطائرة،

ولم ينزلها معه بالرغم من إلحاح الملك ووليّ عهده عليه، وهو ما عُدَّ عدم اهتمام أو تقدير لجهود الملك، وإذا أضيف إلى ذلك إصراره على المغادرة من عَمّان مباشرة إلى الرياض بدلاً من صنعاء أو عدن كما كان يقترح الملك ويلحّ عليه، فإن كل ذلك عُدَّ سوء تقدير، وبداية العدّ التنازلي في علاقته مع المملكة الهاشمية.

التقيت الملك حسين قبل التوقيع على الوثيقة، وطلبت من جلالته أن يقنع الرئيس ونائبه بالبقاء في عَمّان بعد التوقيع ومغادرة بقية المشاركين، بهدف تصفية النفوس من الخلافات والأحقاد والضغائن والكراهية التي خلفتها الخطابات الحادة والمقابلات الإعلامية التشهيرية والمهاترات والشتائم التي شملت كل طرف، وذلك للعمل على استعادة الثقة بينهم، لأنني كنت أرى أن التوقيع كان استراحة احتاج إليها الطرفان لتعبئة قواهما، وأن ما وراء الأكمة يحمل نذر الحرب وطلائعها... وكنت ألحّ على جلالته في ذلك بينما كنا نتحدث في قصر الهاشمية بحضور الرئيس علي عبد الله صالح في فبراير ١٩٩٤م. قلت له لا بد من أن يبقيا يوماً أو يومين، وإذا بقيا أسبوعاً سنضمن نتائج إيجابية بلا شك... واقترحت عليه أن من الأفضل بعدها أن يرافقهما جلالته مع الشيخ عبد الله الأحمر رئيس مجلس النواب إلى صنعاء لكي يؤدي نائب الرئيس القسم الدستوري أمام البرلمان، ومن ثم يتوجهون جميعاً إلى عدن باعتبارها العاصمة الاقتصادية والتجارية لعقد اجتماع لمجلس الوزراء... وأنهيت مقترحي قائلاً: «وفي حالة رفضهما هذه الأفكار فإني أقترح عليكم يا جلالة الملك إبقاءهما في عَمّان»، وضحكنا جميعاً، وعلّق الرئيس صالح مازحاً بقوله: «يبدو أن الأخ الرئيس علي ناصر جاهز لأن يكون بديلاً لنا نحن الاثنين». طلبت من الملك رأيه، فقال بطريقته المهذبة المعتادة: «شكراً سيدي، وإذا وافقوا فأنا جاهز للذهاب إلى صنعاء وعدن، وربنا يوفقنا جميعاً لما فيه خير اليمن وأمنها واستقرارها».

كنت متيقناً أن اتفاقهما سيكون، فيما لو حصل، على حساب الآخرين كعادتهما وكما حدث بعد لقائهما واتفاقهما في عدن في نوفمبر ١٩٨٩م، أو كما عبّر عن ذلك الأستاذ محمد سالم باسندوه بطريقته الساخرة: «إذا اتفقا فسيكون اتفاقهما على حسابنا، وإن اختلفا فسيؤدي ذلك إلى خطر على الوطن والوحدة اليمنية». وكان بذلك صادقاً في تقييمه...

غير أن التهديد الآن كان جدياً، فمصلحة الوطن كلها تتعرض الآن للمحنة والمجازفة غير المحسوبة... وكانت المصلحة تقتضي معالجة هذه الأزمة بكثير من التفاني والتضحية، بعيداً عن مكر السياسة والتواءاتها. كنت حريصاً على رفض كل العروض والإغراءات في عمّان بالعودة إلى السلطة نائباً للرئيس ورئيساً للوزراء كما عرض عليّ ذلك الرئيس علي عبد الله صالح في عمّان، وكنت بذلك حريصاً على عدم تعميق الخلافات بينهما أو توظيفي في هذا الصراع... وقد عرض البيض عليّ ما يشبه ذلك لاحقاً في مايو ١٩٩٤م، عندما أعلن دولة في الجنوب لم تعمَّر طويلاً ولم يعترف بها إلا جمهورية أرض الصومال، وسقطت في ٧/ ٧/ ١٩٩٤م بعد ٤٧ يوماً من إعلانها بعد الحرب التي شنها خصمه على عدن.

ليست هذه هي المرة الأولى التي ألتقي الملك حسين، فقد كنت ألتقيه في مؤتمرات القمم العربية والإسلامية وحركة عدم الانحياز... كان الملك جمّ التواضع، هادئ الأعصاب، خافت الصوت... شاهدته مرة في أحد شوارع عَمّان واقفاً بسيارته أمام إحدى نقاط المرور، لأن الإشارة كانت حمراء، وكان أحد الضباط المرافقين لي ينبهني ويقول إنه سيدنا ويشير نحو سيارته. أكبرت ذلك الموقف، وظلت تلك الصورة حية أمامي، لأنني كنت متيقناً أن أي زعيم عربي آخر أو ابنه أو أخاه أو أحد أقاربه أو عساكره لن يقف بسيارته أمام الإشارة مهما كان لونها، حفاظاً على الأمن والجاه... وأتذكر باحترام كبير موقفه في قمة بغداد عام ١٩٧٨م، وذلك عندما وقف يدعو لرفع تجميد عضوية اليمن الديمقراطية في جامعة الدول العربية بعد مقتل الرئيس احمد الغشمي في مكتبه بصنعاء عام ١٩٧٨م، وتبنى الموقف حتى عدنا إليها. كان متوازناً في مواقفه، فبالرغم من علاقاته الخاصة والمتميزة ببريطانيا وأميركا، إلا أنه كان دائماً يتخذ مواقف متوازنة في علاقاته بكل دول العالم في ظروف الصراع في المنطقة والحرب الباردة بين القطبين في العالم. وأتذكر أنه كان عندما يختلف مع الرئيس جمال عبد الناصر يركب طائرته ويتوجه إلى القاهرة ويشعر المسؤولين فيها بأنه قادم إليهم ويحقق بذلك التصالح ووقف الحملات الإعلامية بين البلدين، وهو لا يهتم بالجانب البروتوكولي كثيراً، فقد قام بزيارة السجن للإفراج عن المهندس ليث شبيلات الذي كان شديد الانتقاد للملك ونظامه، ما أدى إلى سجنه، فذهب الملك لإخراجه من السجن وانتظر

حتى انتهى شبيلات من صلاة الظهر لينقله بسيارته الخاصة إلى والدته ويتناول معه الشاي وينصرف إلى قصره.

ارتأى الملك أن نلتقي في عَمّان بعد سفر الوفود، وكذلك نصحني بلقاء الأمير حسن بن طلال الذي التقيته غير مرة، وكان يهتم بالعمل الفكري والثقافي منشغلاً بالندوات والمؤتمرات الاقتصادية والفكرية في الأردن وخارجها. أمر الملك باستضافتنا غير مرة في حمامات معين التي تقع على بعد ١٢٠ كيلومتراً وعلى عمق ١٢٠ متراً عن سطح الأرض، وتنساب فيها الشلالات الساخنة من ارتفاع أكثر من عشرين متراً، ويلتف حولها وتحتها مئات السياح من العرب الذين يطلبون الشفاء والعلاج بالمياه المعدنية، تحت إشراف عدد من الأطباء والممرضين الذين يقدمون أفضل وسائل العلاج والراحة، وهي في مستوى المصحات المتطورة في بعض بلدان أوروبا التي كنا نزورها.

أتاحت لي هذه الزيارة في عام ١٩٩٦م الفرصة لمشاهدة بعض المواقع الأثرية في «مادبا»، ومنها الجبل الذي يقال إن النبي موسى خاطب منه الرب «جبل نيبو»، وكنت أجد ارتياحاً ومتعةً في هذه المصحة. وفي إحدى زياراتي تلك، صحوت من نومي على صوت الرئيس علي عبد الله صالح عبر الهاتف، وكان حينذاك في زيارة للأردن، وهو يحاول الحديث معي بلهجة شامية (وهي عادته في نصب مثل هذه المقالب حيث يتقمص شخصية أحد مراسلي القنوات الفضائية أو الصحفيين للوصول إلى الذين يريد أن يتحدث معهم)، طبعاً عرفت صوته في الحال، فضحك وقال: كيف حال الأمين العام؟ ثم طلب أن نلتقي على الغداء في قصر زيد بن شاكر الذي كان رئيساً للديوان الملكي آنذاك بحضور الملك حسين ووليّ عهده الحسن، وكانت هذه المرة الأولى التي نلتقي بعد حرب عام ١٩٩٤م. أخذ الرئيس يعاتبني أمام الملك حسين والحضور، ويذكر الملك باللقاء الذي حصل في قصر الهاشمية، وكيف أنه عرض عليّ منصب نائب الرئيس ورئيس الوزراء ورفضته، وأضاف: «الأخ علي ناصر» رفض عرضي لأنه كان يحلم بأن يحكم ويصبح رئيساً،ولو عرضت منصب وزير وليس نائب رئيس على أيّ شخص آخر لركض من أقصى الأرض وقبل هذا العرض». قلت له: «قد يكون هذا صحيحاً، ولكني لست من الذين يركضون إلى

الهاوية، والمهم أنك قد وجدت لك نائباً ورئيساً للوزراء». قال: «ليس المهم المنصب، بل الخسائر، فلو قبلت وعدت معنا لوفرنا ٨٠٪ من الخسائر في الأرواح والممتلكات في الحرب، ولحسمت المعركة في أسبوع، وكنا أنا وأنت سنخزن في معاشق بعدن، ولذلك فأنت تتحمل المسؤولية». المهم أنه كان يشعر بالغرور ونشوة النصر بعد أن وصل إلى منطقة معاشيق الرئاسية، ولم يكن ذلك بقوته العسكرية، بل بقوة الجنوبيين الذين وقفوا الى جانبه بعد أن رفض الحكام في عدن استيعابهم، وبسلاح الوحدة الذي أساء البعض استعماله.

رددت قائلاً: «صدقني لو أنني عدت معك حينذاك، فإنني كنت سأخرج من اليمن مطروداً كما خرجت عام ١٩٩٠م، عندما تخليت عني واخترت البيض حليفاً لك». فأجاب: «هذا صحيح، لو عدت أنت، لعاد البيض إلى صنعاء وكنا تجنبنا الحرب والخسائر». طبعاً لم يكن هذا سوى تبسيط ساذج للقضايا، فلم تكن عودتي لتمنع الحرب بعد أن استعدّ لها كل الأفرقاء وقبضوا الثمن، وقد حاولنا بكل الطرائق وقفها من الخارج دون جدوى، وكما أثبتت الأحداث، فإن المنتصر في تلك الحرب كان خاسراً، والبعض من المحللين يذهب إلى أن نتائج حرب ١٩٩٤م عجّلت بترسيم الحدود مع السعودية من قبل علي عبد الله صالح، ويرون أن علي البيض كان سيفعل الشيء نفسه في ما يتعلق بترسيم الحدود لو كسب الحرب وانتصر فيها، وبعد ذلك تنازل النظام في صنعاء عن اتفاقية الطائف ١٠ يونيو ٢٠٠٠، وهذا ما رفضه الأئمة يحيى وأحمد ومحمد البدر والأمير محمد بن الحسين، كما أكد لي ذلك نفسه في منزله بعمّان عام ١٩٩٤.

قلت: «هذا ماضٍ، وعليك أن تنظر إلى المستقبل، وأعتقد أنني لو قبلت العودة إلى السلطة لاختلفنا من وقت مبكر، فالسلطة تفرّق بين الأب وابنه والأخ وأخيه، وكما ترى فأنا حريص على استمرار العلاقة بك خارج السلطة لأنها قد لا تتحملنا ولا تتسع لنا معاً، والمهم أننا وقفنا مع الوحدة ودفعنا الثمن من أجلها».

ردّ قائلاً: أتحداك أن تأتي معي إلى صنعاء وعدن. فأجبت بأنه ما من مشكلة في العودة إلى اليمن بعدما انتفت الأسباب، ولكني سأختار الوقت المناسب للعودة»، وغادر إلى مصر، وعدت إلى حمامات معين.

في نوفمبر من العام نفسه وجّه إليّ دعوة للمشاركة في الاحتفالات بعيد استقلال الجنوب وجلاء القوات البريطانية، وقد اتصل بي لهذا الغرض وزير الخارجية عبد الكريم الإرياني، وكذا العميد علي محسن الأحمر الذي قال: «إن الوقت قد حان للعودة إلى اليمن وإننا في انتظارك»، وعندما سألته: «هل الوقت مناسب والجو مناسب؟» قال: «نعم، وأنصح بعدم التأجيل، فنحن في انتظارك».

وخلال عشرين سنة منذ لقائنا في الأردن وحتى عام ٢٠١٦ جرت أحداث وتطورات في اليمن وخارجها عصفت بعدد من الزعماء العرب وفي مقدمتهم الرئيس علي عبد الله صالح وصدام حسين ومعمر القذافي وحسني مبارك وزين العابدين بن علي والرئيس الجزائري الأمين زروال، وغيّب الموت الملك حسين والملك فهد والملك عبد الله والشيخ زايد بن سلطان والرئيس رفيق الحريري والرئيس حافظ الأسد والزعيم ياسر عرفات والملك الحسن الثاني وأمير البحرين وأمير الكويت وغيرهم من الزعماء، واندلعت ثورات الربيع العربي في المنطقة، وشهدت اليمن تغيرات كبيرة وأحداثاً خطيرة، أبرزها وأخطرها دخول أنصار االله وأنصار صالح إلى عدن، والحرب على اليمن في مارس ٢٠١٥م، ما استدعى أن نتحرك في المنطقة العربية لوقف الحرب والاحتكام إلى لغة الحوار، ومن أجل ذلك قمنا بزيارات لكل من عُمان والإمارات ولبنان وإيران ومصر والأردن التي زرتها مطلع عام ٢٠١٦، والتقيتُ فيها السفير السعودي في صنعاء (محمد سعيد آل جابر) والسيد يحيى دويد عضو الأمانة العامة لحزب المؤتمر مبعوثاً من قبل الرئيس صالح، وكان الهدف من اللقاء مع السفير السعودي ويحيى دويد، مناقشة المبادرة التي تقدمت بها إلى دول المنطقة والمقترحات التي قدمها الرئيس السابق صالح بشأن الحرب والحل، ولكننا لم نلمس استجابة من الطرفين، وأكدنا استمرار التواصل في المستقبل، (وقد تحدثت عن ذلك في مكان آخر من المذكرات). وعلى هامش هذه اللقاءات التقيت عدداً من المسؤولين الأردنيين، وفي مقدمتهم رئيس مجلس النواب عاطف الطراونة، والدكتور عبد السلام المجالي رئيس الوزراء الأردني الأسبق، رئيس لجنة الشؤون الدولية التي تضم في عضويتها وزراء وسفراء وقادة عسكريين وأمنين، وقد أكدوا جميعهم ضرورة إيقاف الحرب والاحتكام إلى الحوار، على الرغم من

مشاركة الأردن رمزياً في عاصفة الحزم، وأكدت خلال لقائي مع هذه الشخصيات الذي استمرّ أكثر من ساعتين أن الحوار هو الطريق الوحيد لحلّ الأزمة السياسية في اليمن وأهمية حل القضية الجنوبية حلاً عادلاً وبما يرتضيه شعب الجنوب، وهو صاحب الحق في تقرير مصيرة السياسي، وأكدت أهمية دور المملكة الأردنية التي رعت التوقيع على وثيقة العهد والاتفاق.

رحّب أعضاء لجنة الشؤون الدولية بفكرة تشكيل لجنة عربية، واقترحت أن يرأسها الدكتور طاهر المصري مع عدد من الشخصيات العربية وعضوية السيد عبد السلام المجالي، وبارك الجميع ذلك.

والتقيت لهذا الغرض الدكتور طاهر المصري رئيس الوزراء الأردني الأسبق الذي أبدى استعداده لرئاسة اللجنة العربية والتواصل مع أطراف الصراع في اليمن والمنطقة من أجل وقف الحرب، واتفقنا أن يضاف إلى عضويتها السيد عباس زكي من فلسطين، والوزير عبد الرحيم مراد ورئيس الوزراء اللبناني الأسبق فؤاد السنيورة من لبنان، وعمرو موسى ونبيل العربي من مصر، والدكتور يوسف مكي من السعودية، والشيخ سيف المسكري من عُمان. وبعد الاتصال باللجنة المقترحة رحب الجميع بالتحرك لوقف الحرب، ولكن الذي عرقل نشاط اللجنة وتحركها، كان المواقف المتشنجة من طرفي الصراع في اليمن، ورفض المبادرات الأممية والدولية للسلام المقدمة في جنيف والكويت لاحقاً، وكذلك عدم توافر الإمكانات المالية لنشاطها.



عمّان الأردن كانون الثاني/ يناير ٢٠١٦

ولكننا لم نيأس وحاولنا احياء فكرة تشكيل اللجنة العربية من جديد برئاسة الامام الصادق المهدي (رئيس وزراء السودان الاسبق) والدكتور عبد السلام المجالي (رئيس وزراء الاردن الاسبق) والمهندس سمير حباشنة (وزير سابق – الاردن) على أن تضم العديد من الشخصيات العربية وهم:

الرئيس اميل لحود / لبنان

سماحة السيد عمار الحكيم/ رئيس تيار الحكمة الوطني/ العراق.

الشيخ عبد الفتاح مورو/ نائب رئيس مجلس النواب/ تونس.

المهندس مروان الفاعوري/ الأمين العام للمنتدى العالمي للوسطية/ الأردن.

السيد عباس زكي/ عضو اللجنة المركزية لحركة فتح/ فلسطين.

الدكتور مدحت العدل/ كاتب ومفكر/ مصر.

الدكتور محمد طلابي/ كاتب ومفكر/ المغرب.

الدكتور عبد الحسين شعبان/ كاتب ومفكر/ العراق.

الدكتور أكرم عبد اللطيف/ عضو المجلس الوطني/ فلسطين.

الدكتور أبو جرة السلطاني/ رئيس حركة مجتمع السلم سابقا سابق/ الجزائر.

الدكتور حسن نافعه/ امين عام منتدى الفكر العربي الاسبق/ مصر.

عدنان السيد حسين/ رئيس الجامعه اللبنانيه سابقا، وزير سابق / لبنان

السيد صلاح عمر العلي/ وزير سابق مندوب العراق الدائم في هيئة الأمم المتحدة سابقا / العراق.

السيد سيف السمكري / مندوب عُمان في مجلس التعاون بالرياض سابقا / عُمان.

د. محي الدين المصري / مفكر وكاتب مندوب الأردن الدائم / مساعد مدير عام المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم سابقا / الاردن.

د. عاطف مغاوري / كاتب ومفكر / مصر.

الاستاذ صالح قوجيل / عضو المجلس الوطني / الجزائر.

د. مصطفى بن جعفر / رئيس مجلس النواب سابقا / تونس.

السيد نبيل ابن عبدالله / وزير سابق / المغرب.

السيد جواد شفيق / كاتب ومفكر / المغرب.

سليمان الشحومي / ليبيا

الدكتور علي الكواري / قطر

وقد وجهت هذه اللجنة أكثر من رسالة إلى المعنيين بالصراع في اليمن تناشدهم بوقف الحرب وشملت رسائل إلى الجمهورية الايرانية والمملكة العربية السعودية والى الامين العام للامم المتحدة



الفصل الحادي والعشرون

اليمن الديمقراطية والاتحاد السوفياتي

الصداقة والمصالح!

كان الاتحاد السوفياتي لاعباً أساسياً في السياسة الدولية وعاملاً مهماً في تحقيق التوازن الدولي الذي شكل مظلة مناسبة للبلدان المستقلة حديثاً عن الاستعمار في الحفاظ على استقلالها الوطني، وفي دعم حركات التحرر الوطني العالمية، بما في ذلك حركة التحرر العربية. وقد حظيت الدول العربية المستقلة من الاستعمار حديثاً بتأييده ودعمه في نضالها من أجل التنمية. ويمكن الإشارة بصفة خاصة إلى الدعم الذي تلقته مصر وسورية والجزائر والعراق واليمن الشمالي والصومال والسودان وسواها من البلدان العربية، وكانت اليمن الديمقراطية واحدة منها سواء في نضالها التحرري أو من أجل التطور الاقتصادي والاجتماعي.

وأما فيما يتعلق باليمن وعلاقات موسكو بها فتجدر الإشارة إلى كونها علاقات قديمة تعود إلى عهد الإمام يحيى بن حميد الدين وقائد ثورة أكتوبر «لينين» حيث كتب الأول للأخير رسالة اعترف فيها بالثورة البلشفية استهلها بعبارته المشهورة «من يحيى حميد الدين إمام المؤمنين إلى لينين إمام الشيوعيين! «

وهكذا فإن الزمن الذي نشأت فيه العلاقات بين صنعاء وموسكو قديم، بل إن اليمن كان من أوائل الدول التي وقعت معاهدة صداقة وتعاون مع الاتحاد السوفيتي وذلك في عام ١٩٢٨م.

دعم الاتحاد السوفيتي الثورة في الشمال بعد قيامها كما ساند الثورة في الجنوب.. وبعد قيام الدولة في الجنوب زار عدد من الوزراء والمسؤولين موسكو وفي مقدمتهم الرئيس قحطان الشعبي , وقد لعب المناضل عبد الله باذيب دوراً مهماً في تقريب وجهات النظر وتعزيز العلاقة بين موسكو وعدن إضافة إلى ارساله مئات من الطلاب للدراسة في الاتحاد السوفياتي وذلك قبل استقلال الجنوب.

بصرف النظر عن الميول المختلفة، التي سيطرت على قيادة التنظيم السياسي، ولاحقاً الحزب الاشتراكي اليمني، وبالتالي الدولة في تلك الفترة، فإن العلاقة بالسوفيات أصبحت تدريجاً، تحتل المرتبة الأولى في تسلسل علاقات اليمن الديمقراطية الخارجية.

وهكذا كانت زيارة رئيس الجمهورية قحطان الشعبي على رأس وفد رسمي في زيارة إلى الاتحاد السوفياتي على أعلى المستويات. حيث جرى له في موسكو استقبال رسمي وشعبي، واستمرت زيارته من ٢٨ يناير حتى ٩ فبراير ١٩٦٩، أجرى الوفد مباحثات مهمة شملت اتجاهات متعددة، انطلقت في أساسها مما تواجهه الدولة الجديدة في اليمن الجنوبي من مصاعب، وأهمية المساعدة السوفياتية في التغلب عليها. وخلال الزيارة وُقِّع على عدد من الاتفاقيات، أهمها:

- اتفاقية التعاون الاقتصادي والفني.
- الاتفاقية التجارية.
- اتفاقية تطوير الاصطياد في خليج عدن ومياه المحيط الهندي المتاخمة.
- اتفاقية التعاون الثقافي والعلمي والفني.

في زيارته الأولى عام ١٩٦٨ قبل أن يصبح رئيساً ظهر أن الرئيس قحطان كان من طراز أولئك الثوريين الذين كانوا لا يزالون يؤمنون بأن علاقات الصداقة بين البلدان تقوم على أساس من انسجام دوافع الصداقة الاستراتيجية التي تتحول إلى دعم أممي والتزام ثوري

يمارس فيه المبدأ الأخلاقي دوراً بارزاً، لكنه عندما جاء رئيساً لليمن الجنوبية كان العالم قد تغير ولم تعد تسيره النظريات الأخلاقية وحدها بقدر ما تتغلب على العلاقات بين الدول والشعوب المصالح والمنافع المتبادلة التي صار لها الدور الرئيس في قيام العلاقات وتبادل المصالح والتسهيلات للسوفيات في ميناء عدن.

وانسجاماً مع مبدئه الثوري وقناعاته، فإن الرئيس عندما ذهب إلى موسكو في أول زيارة لها، حرص على أن يحصل على مساعدات مالية عاجلة من الحكومة السوفياتية بعد أن تخلى عنا البريطانيون. وكان يعتقد أن الاتحاد السوفياتي لن يتردد في منح دعم سخيّ لليمن الجنوبية بعد أن شرح لهم الظروف الاقتصادية الصعبة التي تمرّ بها.

ولكن السوفيات بعد كل ما سمعوه عن ظروف البلاد الصعبة، وحاجتها الماسّة إلى دعم مالي عاجل لمواجهة الأزمة المالية الناشئة عن رحيل الإنكليز عن عدن وتخليهم عن التزاماتهم المالية تجاه الدولة الجديدة، لم يمدوا يد العون للرئيس قحطان الذي كان يعوّل كثيراً على دعم من هذا النوع لمعالجة المشكل المالي الصعب. وقد ناشدهم باسم الصداقة والأممية وذكّرهم بالواجب والالتزام الأممي وبواجب الاتحاد السوفياتي في دعم حركات التحرر العالمية والبلدان الحديثة الاستقلال، وهي شعارات كان السوفيات يرفعون لواءها كمفهوم جديد في العلاقات الدولية بين البلدان والشعوب جاءت به ثورة أكتوبر الاشتراكية.

وجاء قرار المفاوضين السوفيات مخيباً لآمال الرئيس، فقد أفهموه قبل كل شيء أنهم لا يمنحون مساعدات أو قروضاً مالية مباشرة، بل يقدمون مساعداتهم وقروضهم على شكل مشاريع أو هبات.

وفي رأيي، إن الأسباب التي دعت السوفيات إلى عدم الاستجابة لمطالب الرئيس كانت تكمن في جهلهم إلى أين سيؤول مصير اليمن الجنوبية بعد الاستقلال، خصوصاً أنه برز داخل قيادتها تيار يميل نحو عدوتهم الصين الشعبية، وبالتالي لم يكونوا مستعدين لتقديم دعم كبير قبل أن يضمنوا موقع هذه الدولة معهم، فلا يكابدون من خلال مساندتها خسائر غير مضمونة العوائد، وينتهي دورهم عند هذا الحد.

كان السوفيات بعد هزيمة العرب في عام ١٩٦٧م يعانون جرحاً عميقاً، حيث علّق

العرب أسباب هزيمتهم أمام إسرائيل على إخفاق السلاح السوفياتي وعجزه عن مواجهة الأسلحة الأميركية والغربية. وبالتالي كانوا يخشون أن يستنزفوا في منطقة أخرى من العالم العربي، ويلاقوا (جزاء سنمار). وأتذكر أننا عندما اختلفنا مع مصر أثناء حرب التحرير وانحياز مصر إلى جبهة التحرير عام ١٩٦٦م، طلبنا لقاءً عاجلاً مع عبد الله باذيب، القادم من عدن، في الراهدة لطلب مساعدة السوفيات سياسياً وعسكرياً ومالياً، ولكن باذيب صديق الاتحاد السوفياتي، وعد بأنه سيناقش الأمر معهم، ولم يتلقّ رداً منهم.

زياراتي لموسكو

أتيحت لي فرصة زيارة الاتحاد السوفياتي مراراً، ودفعني هذا إلى الإعجاب بجوانب من تجربتهم العظيمة والغنية، وأثار في نفسي أيضاً الأسف والنقد في جوانب مختلفة أخرى. كنت أعتقد وأرى أن البلد الذي صنع أعظم معجزات العلم ومنجزاته وأرسل أول إنسان إلى الفضاء، وهبط فوق القمر بمركبة آلية، وتسبح أقماره الصناعية وتلتحم في الفضاء الخارجي، لا يمكنه أن يقف عاجزاً أمام احتياجات الإنسان السوفياتي الذي كان يقف في طوابير طويلة، بل ساعات، لشراء متطلباته الضرورية البسيطة والمشروعة، فقد كنت أؤمن بأن هذا الإنسان قادر على صنع معجزته على الأرض كما صنع معجزته المذهلة في الفضاء بما تنطوي عليه من سحر خارق ثابرت عليه قدرات عقل خلاق.

عرفت كثيراً عن هذه الدولة الجبارة، وعرفت العديد من زعمائها وقادتها البارزين، وعاصرت خمسة رؤساء منهم[١]، ولن تُمحى من ذاكرتي أول زيارة أقوم بها لموسكو في عام ١٩٧٠م، ولقائي الأول بأندريه غريتشكو وزير الدفاع السوفياتي. كانت زيارة مهمة حيث خضت مع المسؤولين السوفيات مفاوضات صعبة جداً تناولت طلباتنا من السلاح. دروس تلك الزيارة التي سأوردها هنا لن أنساها، فقد علمتني أصول التعامل مع القادة والمسؤولين السوفيات، ولم يكن هذا غالباً بالأمر السهل، وكنا وغيرنا من الدول ننظر إلى العلاقة مع الاتحاد السوفياتي على أنه مصدر للسلاح، وأن عليه واجباً أممياً يقضي بتزويدنا بالسلاح

---

(١) الرؤساء: بريجنيف، تشيرننكو، أندروبوف، غورباشوف.

دون مقابل أو بقروض ميسّرة وفوائد بسيطة، وكان الدرس الأول أن الصداقة والعلاقة مع الدول والشعوب ليستا قائمتين على هذا الأسلوب الساذج، فالعلاقات قائمة على المصالح المتبادلة بين الدول والشعوب.

زيارتي الأولى لموسكو ...
وأحزان في القاهرة...

وصلت إلى موسكو للاستجمام في يوليو عام ١٩٧٠م.

في ١٤ أغسطس عام ١٩٧٠م استقبلني النائب الأول لوزير الدفاع السوفياتي المارشال «ياكوبوفسكي»[١] في مكتبه بوزارة الدفاع، رحب بي ترحيباً حاراً باسم وزير الدفاع المارشال غريتشكو الذي كان في إجازة خارج موسكو، وكان يبدو طويلاً ومهيباً وعلى ملابسه الجميلة عدد من الأوسمة والنياشين العسكرية التي تعكس هيبة الجيش السوفياتي وقيادة حلف وارسو. تحدثنا في الوضع السياسي والعسكري الراهن في المنطقة، والمخاطر التي تواجه اليمن الديمقراطية وحاجتها لتعزيز قدراتها الدفاعية للوقوف أمام التحديات والمؤامرات التي تستهدف النظام التقدمي في عدن، وما يتطلبه ذلك من دعم سياسي وعسكري واقتصادي لبلادنا، وقدمت إليه نسخة من «الخطة الخمسية» لتطوير القوات المسلحة التي وضعناها بمساعدة خبرائهم العسكريين. وعد المارشال «ياكوبوفسكي» بدراسة الخطة دون أن يعطيني رأياً واضحاً أو محدداً، ولم يكن عندي شك في أنهم سيدرسون مشروعنا خلال إقامتي في الاتحاد السوفياتي، التي كانت في الأصل للراحة والاستجمام في «سوتشي» المطلة على البحر الأسود جنوب الاتحاد السوفياتي.

نهض المارشال لمصافحتي وهو يقول:

رفيق ناصر، استمتع بإجازتك , ستذهب إلى الجنوب السوفياتي، الجو هناك جميل وستجد أشياء جميلة.

كان السوفيات يحرصون على منح الإجازات لقادتهم، ويهتمون براحتهم وأنشأوا

---

(١) ياكوبوفسكي: النائب الأول لوزير الدفاع السوفياتي، وكان يشغل أيضاً قائداً لحلف وارسو.

لهذا الغرض مصحات ومصايف خاصة للقادة وضيوفهم في موسـكو وخارجها...

بينما كنت في جنوب الاتحاد السوفياتي زارني يوم ٢٣ سبتمبر المارشال «زاخاروف»، رئيس هيئة الأركان السوفياتي في مقر إقامتي في (سـوتشـي)، وأبلغني موافقة الاتحاد السوفياتي على خطة تأهيل الأطر فقط. أما في ما يتعلق بمتطلبات الخطة الخمسـية من الأسلحة والمعدات والمنشآت، فإن السلطات السوفياتية ما زالت تدرسها ... وأبديت عدم ارتياحي للردّ بشأن السلاح، لكنه وعد بالردّ الإيجابي في المستقبل.

اللقاء مع المارشـال غريتشـــكو



مع المارشال غريتشكو

مرة ثانية، كان عليّ الذهاب إلى موسـكو، حين وجّه إليّ وزير الدفاع السوفياتي «غريتشـكو» دعوة خاصة للقاء معه أثناء مشاركتي في أعمال «المؤتمر الرابع والعشرين» للحزب الشيوعي السوفياتي.

وفي ظهر يوم ٢٥ مارس كنت متوجهاً إلى موسـكو برفقة «عبد الفتاح إسماعيل»

الأمين العام للجبهة القومية الذي تلقّى دعوة من القيادة السوفياتية لحضور المؤتمر. كانت رحلتنا بالطائرة المصرية، من طريق أسمرا القاهرة ... وبسبب حادث طيران وقع لطائرتنا في مطار أسمرا، كدنا لا نصل إلى موسكو أبداً، بل كدنا نفقد الحياة!

حدث كل شيء بسرعة غير متوقعة عندما هبطت الطائرة في منتصف أرض المدرج تقريباً دون أن تتمكن من إنزال عجلاتها، فانزلقت الطائرة وزحفت بعيداً عن المدرج، ولم تتمكن من إنزال عجلاتها إلا بعد أن تجاوزت منتصف المدرج. حاول قائدها إيقاف الطائرة المندفعة بقوة، لكنه أخفق في ذلك، فزحفت على بعد خمسين متراً تقريباً بعيداً عن المدرج وهي تتخبط إلى أعلى وأسفل حتى وقفت أخيراً في أرض زراعية، وارتفع من حولها الغبار فلم نعد نرى شيئاً. وكان الركاب الذين لم يتمكنوا من ربط أحزمتهم يحاولون الإمساك بمقابض مقاعدهم حتى لا ينقذفوا خارجها، وكنا جميعاً في حالة ذعر وخوف... ولكن أحداً من الركاب لم يُصَب بأذى جسيم. ولولا عناية الله، وكفاءة الطيار التي مكنته من إيقافها في الوقت المناسب، لكنا وقعنا في هوة سحيقة لم تكن تبعد عن مكان وقوف الطائرة سوى عشرات الأمتار فقط... ولو كانت تجاوزت هذه الأمتار الثلاثين لحلّت بنا الكارثة جميعاً!

بسبب هذا الحادث اضطررنا إلى البقاء يومين في أسمرا لفحص الطائرة «إليوشن ٢٨» ذات المحركات الأربعة والتحقق من سلامتها، ولم نغادرها إلا يوم ٢٧ آذار/ مارس حيث أقلعنا بطائرة أخرى إلى القاهرة عبر «أثينا».

في اليوم التالي كنا في طائرة واحدة مع «عبد المحسن أبو النور» و«سامي شرف» وزير الدولة المصري وسكرتير الرئيس الخاص للمعلومات.

في مطار موسكو استقبلنا عضو في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي وضباط من وزارة الدفاع.

ورأيت بعض الضباط يتجهون نحوي للسلام والتحية، وبادرني كبيرهم بعد أن رحب بي:

لقد كلفنا الرفيق وزير الدفاع غريتشكو باستقبالك، ويبلغك تحياته الودية، وسيكون في استقبالك غداً صباحاً، الساعة الحادية عشرة.

بداية جيدة، لقد تحدد موعدي مع وزير الدفاع السوفياتي مسبقاً إذن، وأبلغوني به فور وصولي. هذا يشير إلى أن زيارتي ستكون ناجحة هذه المرة بعكس المرة الأولى.

وقال لي سـفيرنا في موسـكو أحمد صالح الشـاعر:

لقد فعلتها... هذه هي المرة الأولى التي يحدد فيها الروس موعداً لضيف في المطار في زيارة غير رسـمية...

ظهر يوم التاسع والعشرين من مارس استقبلني المارشال «غريتشكو» في مكتبه بوزارة الدفاع، وصافحني بحرارة. أوضح لي غريتشكو أنهم يتفهمون ظروفنا وقضايانا، ومستعدون لتقديم الدعم والمساعدة لقواتنا المسلحة، وأنه يدرس الخطة التي تقدمت بها في العام الماضي خلال زيارتي لموسـكو، وسيردّ علي بالإيجاب عقب انتهاء أعمال المؤتمر.

في ٣٠ مارس ١٩٧١ بدأت أعمال المؤتمر «الرابع والعشرين»، ودخل وفدنا ضمن وفود من أنحاء العالم كافة قاعة المؤتمرات الضخمة جداً في الكرملين. جلس عبد الفتاح إسماعيل الأمين العام للجبهة القومية في المنصة الرئيسة المخصصة لرؤساء الوفود، بينما أخذ باقي أعضاء وفدنا المقاعد المخصصة لهم مع سائر أعضاء الوفود المدعوة للمؤتمر الذين يمثلون ١٠٦ من مختلف الدول والأحزاب في العالم.

كانت القاعة مهيبة حقاً، تضمّ أناساً من مختلف الأجناس والقوميات من الاتحاد السوفياتي ومن أنحاء المعمورة كافة. عندما كنت أنظر إلى تلك الوجوه، كنت أعجب أشد الإعجاب لماذا لا يستطيع البشر أن يعيشوا معاً في سـلام ما داموا يسكنون كوكباً واحداً أشبه بمثل هذه القاعة في هذه اللحظة!

بعد انتهاء أعمال المؤتمر توجه «عبد الفتاح إسماعيل» إلى «صوفيا» للمشاركة في مؤتمر الحزب الشيوعي البلغاري، بينما توجهت إلى جنوب الاتحاد السوفياتي للراحة.

وفي ١٣ أبريل كنت أجلس مع وزير الدفاع السوفياتي «غريتشكو» مجدداً في مكتبه بوزارة الدفاع في موسـكو، وتحدثنا طويلاً عن الأوضاع العربية والدولية، وأهمية تطوير العلاقات وتنميتها بين بلدينا، وكان يضع على صدره عدداً كبيراً من الميداليات والأوسمة،

وفي مقدمتها وسام بطل الاتحاد السوفياتي، تقديراً لدوره في الحروب التي خاضها دفاعاً عن الاتحاد السوفياتي ودوره في بناء القوات المسلحة السوفياتية.

اتضح لي من حديثه أنه مطلع كثيراً على مجريات الأمور، وهو في الوقت نفسه عسكري صارم من أصول جورجية، وعلى دراية كبيرة بقضايا العالم والمناطق الاستراتيجية، وخصوصاً أهمية البحر الأحمر، والدور الذي كانت تمارسه بعض دوله مثل إسرائيل في تقوية النفوذ الأميركي والغربي فيه.

في نهاية اللقاء أبلغني «غريتشكو» وعيناه تلمعان بأن الاتحاد السوفياتي وافق على تطوير قواتنا المسلحة وفقاً للخطة الخمسية التي وضعناها والتي ستنفذ على مراحل وفقاً لتطور العلاقات بين موسكو وعدن.

ووقعنا الاتفاقية الخاصة بذلك عند لقائي إياه يوم ٢٨ أبريل ١٩٧١م. وهي أول اتفاقية عسكرية توقع بين البلدين. حضر التوقيع ماتفي زخاروف، رئيس هيئة الأركان، و«ي. شيف»، رئيس الدائرة السياسية، والأدميرال «أندريه غريشكوف»، قائد الأسطول البحري السوفياتي. وبموجب هذه الاتفاقية حصلت قواتنا المسلحة على أسلحة حديثة. ومع أنها لم تكن بالحجم المطلوب، إلا أنها مهدت الطريق للتطور اللاحق للعلاقات اليمنية السوفياتية وخصوصاً في المجال العسكري، حيث حصلنا في وقت لاحق على صواريخ سكود ولأول مرة تصدر الى خارج حلف وارسو.

زيارتي لموسكو كرئيس حكومة

أصبحت رئيساً للوزراء في اليمن الديمقراطية في ١٩٧١م، على إثر تقديم محمد علي هيثم استقالته، وكان عليَّ أن أزور الاتحاد السوفياتي مجدداً، ولكن هذه المرة بوصفي رئيساً للوزراء.

في مطار موسكو كان في استقبالي «ألكسي كوسيغين» رئيس وزراء الاتحاد السوفياتي. كانت واضحة حفاوة استقبالهم لي وحرارته لهذا المستوى من حضور كبار المسؤولين،

ومن الجماهير التي حشدوها في المطار ترحيباً بالزيارة الذي اشترك فيه الطلاب اليمنيون والعرب.

وبعد وصولنا إلى دار الضيافة وتناول الغداء، حرص «كوسيغين» على بدء المحادثات الرسمية معي في يوم وصولي نفسه.

جرت المباحثات الرسمية في قصر (الكرملين) الواقع في الساحة الحمراء في قلب موسكو. وهذه هي المرة الأولى التي أدخله، حيث دخله قبلي وبعدي أبرز قادة العالم من العرب والأفارقة والآسيويين والأوروبيين.

في أروقة الكرملين اتُّخذت أخطر السياسات والقرارات في تاريخ الثورة البلشفية والدولة السوفياتية، وفي الحرب الباردة والصراع بين الشرق والغرب، وفي تاريخ العلاقات السوفياتية – العربية.

بدأت المحادثات في الساعة الثالثة بعد الظهر. خصصت حديثي عن التطورات السياسية والاقتصادية في اليمن الديمقراطية، وتطرقت إلى الصعوبات الاقتصادية والمالية التي تعوق عملية التنمية، وحاجتنا إلى الدعم والمساعدة، وتحدثت معه عن العلاقات مع الدول المجاورة والوضع في البحر الأحمر والقرن الإفريقي.

وبشأن كل المباحثات، كان الوضع في الشرق الأوسط وموقفنا من القضية الفلسطينية داخلاً في صلب حديثي مع كوسيغين، وكنا وما زلنا نرى قضية فلسطين جوهر الصراع في الشرق الأوسط، وقضية العرب الأولى في صراعهم مع إسرائيل، وأكدنا للسوفيات رفضنا لمشروع روجرز بشأن الشرق الأوسط، ولكن الجانب السوفياتي لم يكن يتفق مع وجهة نظرنا في هذه المسألة.

تحدث كوسيغين بدوره، مبتسماً وقال إنه مسرور للزيارة، وأعرب عن احترام الاتحاد السوفياتي لثورتنا، وتقديرهم لنظامنا الوطني ومدى أهميته في المنطقة. وأشاد بالمواقف التي تتخذها اليمن الديمقراطية على الصعيدين الداخلي والخارجي.

وتطرق إلى موقف موسكو من قضية الشرق الأوسط، فقال: «إننا نؤيد نضال الشعوب العربية العادل ضد الإمبريالية والصهيونية، ومن أجل استعادة أراضيها المحتلة»، وقال إن

بلاده ترى من الضروري توحيد الصف العربي لمواجهة أعداء الشعوب العربية حتى يستطيع العرب إجبار إسرائيل على القبول بحلول مقبولة.

ولما كان الحديث، مثلما هي العادة، في شطره الأول كله سياسياً، حسبما تقتضي قواعد «البروتوكول»، فقد بادرت في أول فرصة بعد تبادل الكلمات، فطرحت على الجانب السوفياتي في المباحثات المشاريع التي أعددناها، طالباً دراستها وإمكانية تقديم قرض سوفياتي لتنفيذها.

بنتيجة التشاور، كان الاتفاق على تشكيل لجان فنية من الجانبين لدراسة التعاون الاقتصادي والفني والعلمي والعسكري بين البلدين.

كانت المساعدات الاقتصادية والمالية ذات أهمية كبيرة لنا لتنفيذ مشروعاتنا الاقتصادية الهادفة إلى التغلب على الصعوبات والمشاكل، وبدرجة أساسية البطالة والعجز المالي والاعتداءات العسكرية الخارجية، وكان السوفيات لا يقدمون المال، ولكنهم يساعدون اقتصادياً وعسكرياً الى جانب الدعم السياسي.

صباح العاشر من أكتوبر وصل «كوسيغين» إلى دار الضيافة الواقع في تلال لينين المشرفة على موسكو حيث مقر إقامتي، وكان قد جاء لوداعي قبل أن أتوجه إلى «فولغا غراد، واقترح أن أطرح ما أريد الحديث عنه ونحن في طريقنا إلى المطار، فأخذت مكاني إلى جانب «كوسيغين» في المقعد الخلفي في سيارته السوداء «الليموزين» وجلس المترجم على المقعد أمامنا.

وقفت بنا السيارة قريباً من الطائرة التي ستقلني إلى مدينة «فولغا غراد»، وودعني «كوسيغين» حتى السلَّم وقال: «لن أقول لك وداعاً، ولكن إلى اللقاء وأنت في طريقك إلى مدينة فولغا غراد التي نعتزّ بتاريخها وبطولاتها وصمودها في الحرب العالمة الثانية». وكانوا يتجنبون ذكر اسمها القديم «ستالينغراد»، خصوصاً بعد التغييرات التي قادها الزعيم السوفياتي خرتشوف الذي أمر عام ١٩٦١م بنقل جثمان جوزيف ستالين من الضريح [(١)]،

(١) جوزيف ستالين: جوزيف فيساريونوفيتش ستالين (بالجورجية بالروسية: **Иосиф Виссарионович Сталин**) (الكنية الأصلية: جوغاشفيلي) (١٨ كانون الأول/ ديسمبر ١٨٧٨ - ٥ مارس ١٩٥٣). =

حيث يرقد إلى جانب رفيقه لينين في الكرملين الذي أصبح مزاراً للسياح والوفود الصديقة للاتحاد السوفياتي وروسيا الاتحادية لاحقاً. وبعد انهيار الاتحاد السوفياتي ارتفعت الأصوات التي تطالب بنقل جثمان لينين كغيره من الزعماء، ولكن روسيا رفضت لأنهم يرون فيه رمزاً قومياً وطنياً وأممياً.

كانت نتائج الزيارة إيجابية على النحو الآتي:

تقديم قرض بمبلغ ٥ ملايين روبل (نحو ستة ملايين دولار) لتطوير مشاريع الري

= هو القائد الثاني للاتحاد السوفياتي، ويُعَدّ المؤسس الحقيقي للاتحاد السوفياتي. وُلد ستالين في مدينة غوري في الإمبراطورية الروسية لإسكافي يدعى «بيسو»، وأم فلاحة تدعى «إيكاترين». انتظم ستالين على مدى ١٠ سنوات في العمل السياسي الخفي وتعرض للاعتقال، بل والإبعاد إلى مدينة سيبيريا من عام ١٩٠٢ إلى ١٩١٧. اعتنق ستالين المذهب الفكري لفلاديمير لينين، وتأهّل لشغل منصب عضو في اللجنة المركزية للحزب البلشفي في عام ١٩١٢. وفي عام ١٩١٣، تسمّى بالاسم «ستالين» وتعني «الرجل الفولاذي». تقلد ستالين منصب المفوّض السياسي للجيش الروسي في فترة الحرب الأهلية الروسية وفي فترة الحرب الروسية البولندية، وتقلّد أرفع المناصب في الحزب الشيوعي الحاكم والدوائر المتعددة التابعة للحزب. وفي عام ١٩٢٢، تقلّد ستالين منصب الأمين العام للحزب الشيوعي، وحرص على أن يتمتع منصب الأمين العام بأوسع أشكال النفوذ والسيطرة. بعد ممات فلاديمير لينين في كانون الثاني/ يناير ١٩٢٤، تألّفت الحكومة من الثلاثي: ستالين، وكامينيف، وزينوفيف. وفي فترة الحكومة الثلاثية، تزوج ستالين مرتين، الأولى ماتت بالسل عام ١٩٠٧، أي قبل قيام الثورة بعشر سنوات، ويقال إنه لم يكن لديه المال الكافي لعلاجها بعد أن أنفق كل ما لديه على الحزب، وكان قد انجب منها ياكوف، الابن الأكبر الذي حاول الانتحار مرة ونجا ثم التحق بالجيش، وأسرته يد القوات الألمانية أثناء الحرب العالمية الثانية، ورفض ستالين أن يميزه في تبادل الأسرى وقتل أثناء محاولته للهرب. زوجته الثانية (ناديا) تزوجها وهي في السابعة عشرة عام ١٩١٧، وهي شيوعية متحمسة وابنة أحد أصدقائه المقربين، كانت تدرس الهندسة، وأنجبت له طفلين. رسمياً توفيت بسبب التهاب الصفاق، لكن يعتقد أنها قتلت نفسها برصاصة في القلب بسبب خلاف مع ستالين. في الأول من مارس ١٩٥٣، وخلال مأدبة عشاء بحضور وزير الداخلية السوفياتي لافرينتي بيريا و«خوروشوف» وآخرين، تدهورت حالة ستالين الصحية، ومات بعدها بأربعة أيام، وحنطت جثته ووضعت إلى جانب لينين في التاسع من آذار/ مارس وبقيت حتى عام ١٩٦١ عندما حركت جثته ودفنت بالقرب من الكرملين، على الرغم من أن القرار كان من قيادة الحزب والدولة بنقل الجثمان وإزالة صور ستالين وتماثيله، إلا أن الجورجيين رفضوا هذا القرار وبقيت تماثيله وصوره مرفوعة في أغلب المدن الجورجية التي يعود أصل الزعيم السوفياتي جوزيف ستالين إليها.

والقنوات الرئيسة في وادي حضرموت والاستمرار في الأعمال المائية الجيولوجية التي تكتسب أهمية في تطوير الزراعة.

تقديم قرض بنحو ٥ , ٤ ملايين روبل (٥ ملايين دلاور) لإنشاء مصنع لتعليب الأسماك، وإنشاء الثلاجات الخاصة به وتطوير صناعة الأسماك وتقديم ثلاثة مراكب للصيد بتسهيلات ائتمانية.

الموافقة على إنشاء حوض جافّ لبناء السفن طاقته ٦ آلاف طن، وورش للصيانة.

وفي المجال العسكري وطبقاً للاتفاقية المعقودة في عامي ١٩٧١/ ١٩٧٢م بين البلدين والبالغة قيمتها ٣٢ مليون روبل، فقد تمخضت الزيارة عن الموافقة على تزويد قواتنا المسلحة بزوارق وناقلات للمشاة، ومدافع مضادة للطيران، وأسلحة هاون وعربات مصفحة، وعدد من الرشاشات والبنادق الأوتوماتيكية.

وصلت بالطائرة الروسية TU 134 إلى مدينة (فولغا غراد)، وكان في استقبالنا كبار المسؤولين فيها الذين نظموا لنا برنامجاً حافلاً لزيارة أهم المعالم التاريخية لهذه المدينة البطلة التي بنيت بعد الخراب والدمار الذي لحق بها في الحرب العالمية الثانية، وسجلت أروع البطولات في تاريخ الاتحاد السوفياتي، وخصوصاً في معركة ستالينغراد، وقد صف الشاعر التشيلي بابلو نيرودا معركة ستالينغراد بقوله: «إن وسام البطولة هنا يزين صدر الأرض». وقد أدت هذه الحرب إلى تدمير جزء كبير منها، وحرص مضيفونا على أن يروني آثار التدمير التي ألحقتها الطائرات الألمانية بالمدينة. وأروني أيضاً شوارع بأكملها أعادوا بناءها من جديد. وبعد الحرب فُتحَت قناة فولغا – دونسك للنقل النهري وبنيت أضخم محطة كهرباء كهرومائية في أوروبا، وقد زرتها. وعند زيارتي لنهر الفولغا وقفنا على الجسر وطلب مني أن أضغط زراً وظهرت سلة ملأى بأنواع من السمك الكبير والصغير لنختار منها سمكة كبيرة، وغاصت الشبكة مرة أخرى في النهر. وقبل سفرنا فاجأوني بصندوق من بيض السلمون المشهور في الفولغا كتب عليه (هذا ما اصطدته من نهر الفولغا أيها الرفيق العزيز)، وقد ذكرتني هذه الحادثة بحادثة صيد الوعل عند زيارتي المجر، حيث ذهبنا في رحلة صيد، وأثناء الرحلة شاهدت وعلاً قالوا إنه ذكر حيث يستطيعون تمييزه وأطلقت النار

عليه كما طلبوا، ولكنني لم أشاهده يسقط على الأرض بعد الطلقة، لكن قبل عودتنا إلى أرض الوطن جيء برأس وعل وقرنيه الطويلين محنطاً، وقالوا إنه الوعل الذي اصطدته، وقدموا إليّ شهادة إنني أمهر صياد، وكانت لفتة تكريمية لم تخلُ من المجاملة، وفيها ذكرى لهذه الزيارة ورحلة الصيد، وطبعاً لم أكن مصدقاً ولكنني تقبّلتها كعربون صداقة وذكرى لهذه الرحلة ولهذا البلد الجميل.



ستالينغراد بعد نهاية المعركةستالينغراد بعد نهاية المعركة

زرتُ النصب التاريخي «لأبطال معركة ستالينغراد على مرتفع مامايف» ويقع على مساحة ١٠٧ هكتارات ويتوسطه نصب «الوطن الأُم ينادي». يبلغ الارتفاع الكلي للنصب ٨٥ م وأصبح تمثال المرأة التي تحمل السيف بيدها رمزاً للمدينة وبطولتها. وشرح لي مرافقي أن الهدف من إِبقاء بعض المباني مدمرة، تقديم درس للأجيال الجديدة التي لم تعاصر الحرب، وهدفهم أن يعرفوا من طريق آثار التدمير حقيقة هذه الحرب، ومآسيها. فلقد ألحقت الحرب العالمية الثانية خسائر فادحة بالاقتصاد السوفياتي، والمدن السوفياتية، والجيش السوفياتي، وبالشعب الذي خسر أكثر من عشرين مليون نسمة دفاعاً عن البشرية.



وقال: «إن الذي لم يذق ويلات الحرب ولم يكتوِ بنيرانها، لا يمكنه أن يدرك قيمة دعوتنا إلى السلام وأهمية تطبيق مبدأ التعايش السلمي في العلاقات الدولية. وبهذه الطريقة نربي أطفالنا على كراهية الحروب العدوانية وعلى الحقد على الفاشية والإمبريالية». ظلت كراهية الحرب والرغبة في استئصالها مرتبطة بعقل المواطن السوفياتي وبفكرة الدعوة إلى السلام مصدراً للحياة والإحساس بالسعادة.

أما زيارتي لـ«لينينغراد» التي استعادت اسمها الأصلي فيما بعد «بطرسبورغ» بعد أن انهار الاتحاد السوفياتي، فقد كانت اتصالاً بالثقافة والفن وروعة المعمار الروسي. إنها واحدة من أجمل وأنظف مدن العالم المتميزة بالذوق الرفيع الذي لا مثيل له إلا في القليل من المدن القائمة على عبقرية هندسية مُدهشة، قادرة على البقاء وإدهاش الناس والتأثير في أذواق المعاصرين.

وكما قال نزار قباني عن لينغراد:

أمشي على أوراق الخريف، في حدائق القصر الصيفيّ في لينينغراد. أكسرها... وتكسرني... ألوان الشجر متدرجة بين لون النار، ولون الذهب العتيق. والأوراق الصفراء، والحمراء، والنحاسية أشبه بكتاب سطوره تحترق... الشمس، على شاطئ بحر البلطيق، برتقالة غارقة في الماء. ومياه الخليج الفنلندي تغني بصوت رمادي... الله... كم أحب السماوات!

من وارسو إلى موسكو

في شتاء فبراير ١٩٧٣م كنت أقوم بزيارة رسمية لوارسو عاصمة بولندا الشعبية، ضمن جولة على بعض البلدان الاشتراكية، لم تكن موسكو من بينها، حين فاجأني أحمد الشاعر سفيرنا في موسكو بمكالمة هاتفية يقترح عليّ فيها زيارة الاتحاد السوفياتي. كان الشاعر عضو لجنة تنفيذية في الجبهة القومية، وأول وزير للزراعة والإصلاح الزراعي بعد الاستقلال، وعندما ذهب إلى موسكو ليشغل منصب السفير لبلاده أظهر كفاءة وموهبة دبلوماسية وسياسية أهلته خلال وقت قصير لنسج صلات بالقيادات السوفياتية البارزة في عاصمة الاتحاد السوفياتي. وكنت أعرف الشاعر من كثب، وبصورة جيدة، وأقدره مناضلاً شريفاً.

قلت لسفيرنا الشاعر:

لا مانع عندي من القيام بزيارة موسكو، بشرط أن ألتقى الرجل الأول في الكرملين، وأشرت إلى أن كلاً من الرئيس سالم ربيع علي، والأمين العام عبد الفتاح إسماعيل زارا موسكو دون أن يقابلهما بريجنيف! وذكرته بأنني زرت موسكو في عام ١٩٧١م، والتقيت نظيري رئيس الحكومة ألكسي كوسيغين وأنني أرغب هذه المرة في لقاء بريجنيف شخصياً.

قال الشاعر: هناك صعوبة في تحقيق هذا الطلب، وبهذه السرعة، للقاء مع الشخص الأول في الاتحاد السوفياتي، ولكنني سأتصل بالخارجية السوفياتية، أعيد الاتصال بكم لإبلاغكم بالرد.

في موسكو اتصل سفيرنا أحمد الشاعر بالخارجية السوفياتية، وتحدث مع «ستارتسيف» مدير إحدى الدوائر في الخارجية، الذي عمل قبل ذلك سفيراً لبلاده لدى اليمن الديمقراطية، وكان الرد إيجابياً. وقد اتصل بي الشاعر إلى وارسو وهو يكاد يطير من الفرح ليخبرني بالموافقة. وكان هذا باعثاً على ارتياحي واندهاشي في الوقت نفسه، إذ إن الروس لا يبتّون في الأمور بهذه السرعة. قلت للشاعر:

سأقوم بالزيارة، لكن في حال الإخلال بالاتفاق سيؤثر ذلك في علاقات البلدين.

أجابني الشاعر: اطمئن وتوكل على الله، ونحن في انتظارك غداً.

وفي اليوم التالي، كنت في موسكو، بعد مراسم وداع بولونية في مطار وارسو هي الأروع في ما شاهدت من مراسم في بقية بلدان ما كان يُسمى «المنظومة الاشتراكية»، وذلك من حيث العرض العسكري والموسيقي، والحركة النظامية التي تهتزّ لها الأرض والتي تذكر بتقاليد العسكرية البروسية.

فحرس الشرف يختارون بعناية فائقة من حيث الطول والوسامة واللياقة البدنية، وهذا ما حدثني به رئيس الوزراء السوفياتي ألكسي كوسيغين الذي قال إن أهم ما يشاهده الإنسان عند وصوله إلى مطار وارسو أو مغادرته له، هو حرس الشرف، فلا يوجد مثله حتى في الاتحاد السوفياتي.

في موسكو، استقبلنا بحرارة شديدة بدءاً من المطار، وتجلت مظاهر الاحتفاء في الأعلام التي تزين المطار والشوارع، وفي دور الضيافة، وخلال المباحثات. بإمكان أي زائر لموسكو أو مراقب أن يقيس حجم العلاقة وأهمية الزائر والزيارة، بدءاً من مراسم الاستقبال في المطار ومن السيارة إلى المرافق، فالسكن فالأعلام، فهذه المظاهر تتطور وفقاً لتطور العلاقات معهم.

في دار الضيافة، في «تلال لينين» المشرفة على موسكو، انتابت «علي عنتر» الذي كان عضواً في الوفد رغبة لا تقهر في مهاجمة السوفيات لأنهم لا يساعدوننا بالشكل الكافي، واستمرّ في هذا الموضوع إلى درجة الشتم! لم يكن من اللائق أن ننتقد الروس في عقر دارهم ونحن ضيوفهم. أصدرت إشارة إلى «علي عنتر» فهم منها أن المكان الذي نجلس فيه

مجهز بأجهزة تنصّت حساسة. فكر «علي عنتر» في إشارتي فسكت. لكن ذلك لم يكن إلا وقتاً قليلاً، فقد راودته فكرة أخرى معاكسة، وفجأة انتقل من النقد إلى المديح وهو يقول: «الاتحاد السوفياتي أعظم دولة على الأرض، وبريجنيف زعيم عظيم وغريتشكو أعظم وزير دفاع وأعظم قائد عسكري في التاريخ!».

كان «علي عنتر» وهو يقول هذا الكلام يصدر إشارات من يديه يدلل بها أنه يقصد عكس ما يقوله.. فأصدرت إليه إشارة فهم معناها على الفور، وهي أنهم يصورونه أيضاً، عندئذ توقف «علي عنتر» عن إشاراته فضحكت، وضحكنا جميعاً بمن فينا هو. وتلك من ذكرياتي ونحن ننتظر لقاءنا مع بريجنيف.

بريجنيف... اللقاء الأول

قبل الوصول إلى الكرملين كان مرافقنا يحدثنا عن الكرملين ومعناه القلعة الدفاعية. بني في القرن الخامس عشر الميلادي، وكان مقراً للقياصرة حتى نقل القيصر بطرس الأكبر (١٦٧٢-١٧٢٥م) عاصمته إلى المدينة الجديدة التي أنشأها وسمّاها سان بطرسبرغ، وفي عام ١٩٢٢م، وبعد انتصار الثورة وإطاحة القيصرية، عاد الكرملين من جديد مقراً للحكومة في العاصمة موسكو.

توقفت سيارتنا وتوقف حديث مرافقي عند وصولنا إلى الكرملين في طريقنا إلى مكتب الأمين العام الذي كان عائداً من الاحتفال الجماهيري الذي أقيم بمناسبة يوم المرأة العالمي والذي يعتبر يوم إجازة. عند الساعة العاشرة والنصف من يوم ٨ مارس ١٩٧٣م استقبلني «ليونيد بريجنيف» زعيم الاتحاد السوفياتي في مكتبه الواسع، وكانت تبدو عليه علامات الود والابتسامة، وبعد أن التقطت لنا الصور التذكارية غادر الجميع، ولم يبق في المكتب إلا أنا وبريجنيف والمترجم وسفيرنا في موسكو أحمد صالح الشاعر.

تقابلنا وجهاً لوجه حول طاولة مستطيلة الشكل وتوسطناها من جانبيها. على الطاولة كانت ساعة تشبه دفة السفينة والتي تظهر في جوار بريجنيف في كل الصور التي التقطت له مع الزعماء الذين قابلهم في هذا المكتب الجميل الذي يغطي جدرانه خشب رائع الجمال.

كان بريجنيف يبدو في تلك الأيام نشيطاً وحيوياً ومفعماً بالصحة، وفوق ذلك كان منشرح الخاطر، ولم تكن الأمراض قد تمكنت منه بعد.



محادثات سوفياتية يمنية بين الرئيس بريجنيف والرئيس علي ناصر محمد عام ١٩٧٣م

الربع الخالي وحقول النفط

تبدد جو اللقاء الرسمي بسرعة، ونهض بريجنيف من مقعده، وأزاح الستارة عن جدار، فانكشفت عن خريطة رائعة لليمن ومنطقة الجزيرة والخليج. بدأ بالسؤال عن الحدود مع الجيران عُمان والسعودية. لم تكن العلاقات معهما قد طبّعت في تلك الأيام بعد. حدثته عن الوضع على الحدود، وأكدت له أهمية تعزيز القدرات الاقتصادية والدفاعية لبلادنا لتثبيت النظام والدفاع عن سيادته الوطنية. وإذ استمع بريجنيف وطرح أسئلته، لفت انتباهنا إلى جانب مهم من الخريطة إلى أقصى حد، إلى المساحات الصفراء حيث الصحراء الواسعة الشاسعة.

قال بريجنيف: إن هذه الرمال تسبح على حقول من النفط، وهذا نعرفه من صور الأقمار الصناعية، فلماذا لا نتعاون نحن وأنتم على استخراجه؟!

من الطبيعي أن هذا الاستهلال الجيد قد أفرحني وأثار ارتياحي، وعزز عندي الاقتناع بإجراء مباحثات جيدة مع الرجل الأول في الكرملين وفي المعسكر الاشتراكي كله. استغرق اللقاء ثلاث ساعات كاملة، أكد خلالها دعم اليمن الديمقراطية سياسياً وعسكرياً واقتصادياً، وفي نهايته قدم لي بريجنيف هدية، متواضعة كما قال، عربوناً لصداقتنا وتقديراً منه لزيارتي ولقائنا الأول، وهي عدد من دبابات «تي- ٥٥»، وعشر طائرات من طراز ميغ ٢١، وخمسة عشر ألف بندقية ثم أهدى إليّ ساعة وخلفها توقيعه. ثم عرض عليّ الصور التذكارية التي أخذت لنا في بداية اللقاء، وطلب مني اختيار الصور التي ستنشر في الصحافة، وقد اعتبرت ذلك نوعاً من المجاملة البالغة من مضيف إلى ضيفه، واخترت بعض الصور، وفعلاً نشرت في اليوم التالي في الصحف السوفياتية.

ثم قال بعد انتهاء المباحثات:

علمت أنك مسافر اليوم، بل الآن.

أجبته: نعم. هذا صحيح.

أخذ بريجنيف سماعة الهاتف وطلب وزير الطيران، وطلب إليه تجهيز طائرة خاصة تنقلنا إلى عدن.

كنت في غاية الامتنان، فشكرت ليونيد بريجنيف على هديته وعلى اللقاء، وتوادعنا وداعاً حاراً، وانتقلت بعدها من مكتبه إلى المطار في الطريق إلى دمشق التي كانت تحتفل بعيد ثورة ٨ آذار.

أثارت هذه الزيارة، ونتائجها، ارتياحاً كبيراً في عدن، في أوساط القيادة، وبين صفوف الشعب. وكان أول من فوجئ بهذه الزيارة السفارة السوفياتية في عدن التي لم تكن تعرف عنها أي شيء إلا من إذاعة موسكو كما روى الدكتور أوليغ في كتابه المشار إليه[(١)]:

«وقد أبلغت إذاعة موسكو في آخر أخبارها في ٧ مارس عام ١٩٧٣م عن استقبال ليونيد بريجنيف لرئيس وزراء جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية علي ناصر محمد بناءً على طلبه، وهو موجود في موسكو في طريق العودة إلى وطنه. السفير بولياكوف وقادة

---

(١) مصدر سبق ذكره، ص ٢٩٩ - ٣٠٠.

الجبهة القومية اندهشوا، فلم يكن هناك أي تكليف، كذلك لم تكن هناك أية مسائل تستدعي لقاءً على هذا المستوى، ومن الواضح أنّ ثمة عدم تطابق بروتوكولي (الأمين العام للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي يستقبل عضو مكتب سياسي، وإن كان في الحقيقة حزباً حاكماً، ولكن في دولة صغيرة بعيدة عن حدود الاتحاد السوفياتي، إلا أنني علمت كيف ولماذا جرى هذا الحدث).

في التجربة الديبلوماسية السوفياتية ثلاثة أنواع من زيارات الشخصيات الحكومية الأجنبية موسكو: زيارة رسمية وزيارة عمل وزيارة مرور. الزيارة الرسمية تفترض لقاءً على أراضي المطار وحرس شرف وتزيين أعلام ولافتات في المطار والطريق المؤدي إلى المقر الرئاسي. زيارة العمل تنظَّم تنظيماً أقلّ تواضعاً، بالرغم من أن الاستقبال يجري في المطار، إضافة إلى تقديم مقرّ إقامة من الجانب السوفياتي. زيارة علي ناصر محمد لموسكو كانت زيارة مرور نموذجية، فقد زار في بداية آذار عام ١٩٧٣ المجر وتشيكوسلوفاكيا وبولونيا، وفي ٧ مارس وصل إلى موسكو من أجل الانتقال من هناك إلى عدن على متن طائرة إيروفلوت.

لقد انتظرنا وصوله إلى عدن في اليوم التالي، كما أبلغتنا وزارة الخارجية في جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية، وفجأة أبلغت إذاعة موسكو بأن ليونيد بريجنيف استقبل علي ناصر محمد، وقد حصل ذلك مساء ٨ مارس.

لقد زار علي ناصر محمد موسكو عدة مرات، والتقى أعضاء المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوفياتي: ميخائيل سوسلوف وحيدر علييف ويغور ليغاتشوف وغيرهم من القادة الحزبيين، كذلك فإن شريكه الرئيس في المحادثات كان عضو المكتب السياسي رئيس الوزراء ألكسي كوسيغين، إلا أن علي ناصر محمد أراد بالطبع اللقاء بليونيد بريجنيف بالرغم من أنه وحسب رأيي لم يكن لديه مسائل خاصة ليبحثها مع الأمين العام للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي».

وكلام السيد اوليغ صحيح فهذه المرة الأولى التي يلتقي فيها أعلى مسؤول في الاتحاد السوفييتي بمسؤول من عدن فقد زار الرئيس ربيع والامين العام عبد الفتاح اسماعيل كما

زرت أنا أيضا ولم نتمكن من اللقاء معه وعندما طلب مني سفيرنا في موسكو أحمد صالح الشاعر زيارة موسكو وأنا في طريقي الى عدن قلت له أنني لن أزور موسكو الا اذا رتبت لي مقابلة مع الأمين العام بريجنيف كما أشرت آنفا أما نتائج اللقاء مع الرفيق بريجنيف كانت ايجابية على الصعيد السياسي والاقتصادي والعسكري والثقافي، ولعل ما أزعج السيد أوليغ هو أن الزيارة لم تتم عبر السفارة السوفييتية في عدن. وهذه ليست المرة الأولى التي ينتقدني وينتقد النظام في عدن وقد أدلى بمعلومات في حديث أجرته معه قناة روسيا اليوم، ومع الاسف أنه وغيره من القيادات السوفياتية يبيعون معلومات مغلوطة اليوم لدول الخليج، بل باعوا أنفسهم وتاريخهم، ويتهموننا باننا طالبنا بمئة دبابة لارسالها الى الحدود مع السعودية وهذا ليس صحيحا ولم يحدث في تاريخ العلاقات السوفييتية اليمنية أن ارسلنا هكذا عدد سواء إلى حدود السعودية أو عُمان أو صنعاء كما أن بعض الدبابات التي كانت ترسل لنا في البداية هي دبابات تي٣٤ من مخلفات الحرب العالمية الثانية كما كشف ذلك الخبير الروسي ألكسي فاسيليف[١] ولا يمكنها الوصول الى حدود السعودية. ومع تطور العلاقات بين اليمن الديمقراطية والاتحاد السوفييتي تطور ارسال الاسلحة من تي ٣٤ الى تي ٥٥ والى تي ٦١ الى صواريخ سكود التي سلمت لنا وقال لي الرئيس بريجنيف مازحاً أن هذه الأسلحة «لتخويف الجيران من العدوان عليكم، وليست للاستخدام ضدهم»

بعد هذه الزيارة أخذت الصداقة والعلاقة مع السوفيات تتطور بوتيرة متسارعة في السبعينيات، حيث قدموا مساعدات وقروضاً عديدة بشروط ميسَّرة في وقت كنا بأمس الحاجة فيه إلى تلك المساعدات والقروض الاقتصادية والعسكرية والدعم المعنوي والسياسي، وفي وقت كان فيه الآخرون يرفضون مساعدتنا أو منحنا القروض إلا بشروط كنا نرفضها لأنها تمسّ سيادتنا الوطنية أو يتآمرون علينا. وقد أشرت إلى أن النظام في عدن كان يستمدّ قوته، بالإضافة إلى التأييد من الشعب، من العلاقة مع موسكو.

---

(١) ألكسي فاسيليف خبير روسي عمل في مدينة عدن ضمن القوات السوفياتية كشف عن ذلك في مقابلة أجراها مع قناة روسيا اليوم في برنامج رحلة في الذاكرة.

غضب المارشال من سالم العيسى

عند الحديث عن عقدة الصين والسوفيات في العلاقات اليمنية الجنوبية، فلا بد لي من التذكير بالواقعة الآتية التي حدثت في صيف ١٩٧٤م خلال لقاء مع «غريتشكو» وزير الدفاع السوفياتي في مبنى وزارته في موسكو... فقد تحدث معي عن الأهمية الاستراتيجية لجزيرة (بريم) اليمنية الجنوبية، والدور الذي كان لها في حرب أكتوبر ١٩٧٣م في إيواء السفن المصرية والتحكم في باب المندب الاستراتيجي، وطرح ضرورة تحصين الجزيرة وأهمية حمايتها وتسليحها لمواجهة أي هجوم خارجي... ولكن بينما كنت أصغي إليه، طرق الباب ضابط يلهث وسلَّم وزير الدفاع رسالة ما إن فتحها غريتشكو وقرأها حتى غدت ملامح وجهه الجورجي أكثر حدة وصرامة وفجأة حوَّل نظره نحوي وقال:

أنتم لستم أصدقاء، وميناء بربرة أفضل من ميناء عدن، والصوماليون أصدقاؤنا الحقيقيون!

تبدد جو اللقاء الودي وبدأ التوتر. كنت في غاية الدهشة، فلم أكن أعرف السبب لهذا التغير المفاجئ في لهجة وزير الدفاع السوفياتي. تذكرت أنه قبل قليل كان ودوداً ومتفهماً جداً، ويحدثني عن المكان الجميل الذي يقترحه عليّ لقضاء إجازتي على البحر الأسود، في منطقة تسمى «جاجرا، كذلك كان يتحدث عن أهمية تسليح جزيرة «بريم»، وعن تشكيل «اللواء- ٢٥ ميكانيكي»، وعن استعدادهم للمساهمة في حماية الجزيرة وحدودنا البحرية!

خيمت على اللقاء السحب السوداء، وأبديت دهشة وانزعاجاً وسألت غريتشكو:

ماذا حدث؟!

ولكنه لم يردّ على سؤالي. كان يتمتم بالروسية بكلمات حانقة على أحد الضباط ويشتمه. نظرت نحو محمد مفتاح الذي كان يجيد اللغة الروسية وسألت ماذا يقول المارشال، فقال إنه يشتم «ويعرعر» على الطريقة العدنية. وقد خرج عن وقاره ذلك المارشال الحازم الصارم، وكان ينظر إلى خط التلفون الأحمر إلى جانبه وكأنه ينوي إجراء اتصال ما، ولكنه توقف عندما اضطررت إلى إنهاء اللقاء، قائلاً: نحن نشكركم على دعوتكم وإلى اللقاء، وأعتقد أن علينا أن نغادر فوراً إلى عدن، ولن نقبل منكم مثل هذه الطريقة في الحديث معنا

ونحن في بلادكم وفي مكتبكم، وعدن ستظل عدن، وستعرفون مستقبلاً من هم الأصدقاء الحقيقيون لكم في المنطقة[1].

بهذه الطريقة عبَّرت له عن استيائي، وهممت بالوقوف فوراً إيذاناً بالانصراف... وحينما رآني غاضباً اضطر إلى الإفصاح عن السبب الذي جعله لا يتمالك غضبه، وقال:

إن أعداء السوفيات في عدن منعوا إحدى بوارجنا من دخول «ميناء عدن» بحجة أن الميناء مزدحم، ونحن نعرف أنه لا يوجد ازدحام في الميناء، ولكن شخصاً عندكم في وزارة الدفاع اسمه على ما أظن سالم العيسي[2] وجه رسالة بهذا الخصوص وبتوجيهات من الرئيس سالم ربيع علي! استمعت إلى حديث غريتشكو وقلت: سنتحقق من صحة الموضوع، وعلى أية حال فقد قررنا العودة إلى بلادنا، وسنعرف الوضع هناك بدقة.

سكت والتفت إلى أحد ضباطه وأشار بسبابته وفجأة تحرك الضابط وأحضر له سيجارة واحدة فأشعلها وبدأ يدخن وهدأ. حينئذ فقط، لَطّفَ غريتشكو من غضبه، وأخذ يعتذر لي بشدة عن تصرفه السابق، وأبدى إصراره على استمرار الزيارة وعلى بقائي والسفر إلى البحر الأسود لقضاء إجازتي هناك، وافقت على ذلك وانتقلنا بطائرة خاصة إلى سوتشي ونزلنا في فيلا قديمة سكنها ذات يوم طبيب القيصر الروسي وتقع في قلب جبل يطل على البحر الأسود وسط غابة من أشجار الصنوبر، وقد وقع اختيار مكان الفيلا التي أهداها القيصر إلى طبيبه - وهو طبيب كلى - حتى تكون في منأى عن رطوبة السفح وحرارته عند شاطىء البحر، وكذلك البرد القارس في قمة الجبل نفسه، ويتخلل البناء وما حوله من حدائق، جداول مياه شلال ينبع من مكان قريب، ما يجعلك تستنشق رائحة الصنوبر والأرض المنداة بالمطر طوال الوقت... أمر زاد من شعوري بالراحة والدفء، إذ إن هذه الرائحة مرتبطة في ذاكرتي بقريتي حين كان يهطل المطر، ومعروف أن المطر نادر الهطول في مناطقنا، حيث تعمّ الفرحة لأن ذلك يبشر بالخير باعتباره مصدر الحياة في مناطقنا التي لا توجد فيها أنهار ولا شلالات

---

(١) بعد ثلاث سنوات من هذا اللقاء طرد سياد بري الخبراء السوفيات من الصومال، كما طردهم قبل ذلك الرئيس أنور السادات.

(٢) سالم العيسي: كان يشغل حينذاك منصب مدير العلاقات العامة في وزارة الدفاع.

ولا بحيرات... وقد اختار وزير الدفاع الطباخة غريشكا التي تُعَدّ أفضل طباخة في القوات المسلحة السوفياتية وتجيد طهو أنواع عديدة من المأكولات (كانت تشرف وتطهو الأكل لضيوف وزير الدفاع السوفياتي) وفي نهاية إقامتنا شكرناها على حسن الضيافة وما قدمته لنا من أصناف متنوعة من المأكولات، حيث كانت تقدم كل يوم صنفاً جديداً في كل الوجبات الثلاث خلال فترة إقامتنا، وأخبرتني بأنها رافقت وزير الدفاع السوري مصطفى طلاس في إحدى زياراته للاتحاد السوفياتي التي قضاها في الاستجمام، وعلمت من المرافقين أنهم يحترمونها ويقدرونها لانها تحظى باهتمام المارشال السوفياتي غريتشكو.

وفي لقاء آخر جرى بيني وبين وزير الدفاع السوفياتي المارشال غرتيشكو في نهاية عام ١٩٧٤ بمكتبه بوزارة الدفاع في موسكو قال لي:

أنتم بعيدون عنا، ولكن ذراع الاتحاد السوفياتي طويلة. عليكم حماية البر، وعلينا حماية البحر (في إشارة إلى الجُزر). وقال إن الأميركان يعرفون الاتحاد السوفياتي وأسطوله في المحيط الهندي، ووجودنا هو من أجل السلام وحماية حلفائنا وأصدقائنا في المنطقة.

وأشار إلى التلفون الأحمر الذي كان على مكتبه وقال:

لقد أصدرنا أمرنا عبر هذا الخط بالدخول إلى براغ، وفي ساعتين كانت قواتنا هناك حيث حميناها من الانحراف الذي كان يقوده بعض المعادين للاتحاد السوفياتي والمنظومة الاشتراكية، وعلى رأسهم الكسندر دوبتشك وحافظنا على خطها ونهجها الأممي، كما وقفنا قبل ذلك إلى جانب الزعيم المجري «يانوش كادار» عام ١٩٥٦.

وكان يحضر هذا اللقاء نائب رئيس الأركان صالح أبو بكر بن حسينون والنقيب محمد مفتاح عبد الرب، وقد علّق بن حسينون بعد ذلك بطريقته الساخرة على اهتمام السوفيات بجزيرة بريم، قائلاً: «لبوهم الراعة[1] كأن الجزيرة طلعت من البحر فجأة».

الحمير أفضل من الطائرات!

توارد في خاطري لحظتئذ أنه من جيل ستالين، وأنه فظ في تعامله، وينظر إلى الصداقة

(١) لبوهم الراعة: مصيبة.

من مؤشر القوة، حتى إنهم كانوا يسمونه في موسكو «المارشال» دون الإشارة إلى اسمه.

الحقيقة، أن بعض التصرفات، كانت تؤثر سلباً في العلاقات اليمنية السوفياتية. و«سالم العيسي» الذي ذكره المارشال ضابط في وزارة الدفاع، يحب النكتة وهو متقلب المزاج، ولا علاقة له بالسوفيات ولا بالصين ولا بالسياسة... وكثيراً ما أثارت تصرفاته المزاجية سخرية الآخرين.. ففي إحدى المرات قابل الملحق العسكري في السفارة الصينية في عدن، باعتباره مسؤول العلاقات العامة في وزارة الدفاع، وطلب منه الحصول على قطع غيار للطائرات العمودية التي كنا قد حصلنا عليها منهم بعد زيارة الرئيس سالم ربيع علي للصين. كان المطار لا يتسع للطائرات السوفياتية والصينية معاً، بل إن الأرض كلها في اليمن لم تكن تتسع للخبراء العسكريين والمدنيين الروس والصينيين في وقت واحد، فهم لا يمكن أن يتعايشوا في مكان واحد، ولا ينبغي نسيان أن هذا حدث وقت كانت العلاقات بين موسكو وبكين في أوج توترها، والمنافسة بينهما شديدة في كسب ودّ البلدان النامية المستقلة حديثاً.

الخلاصة، أن الطائرات العمودية الصينية التي ذهب «العيسي» يبحث عن قطع غيار لها لدى الملحق العسكري الصيني تحطمت اثنتان منها فوق جبال الضالع، وهما تقومان بمهمة إنسانية لنقل امرأة متعسرة الولادة إلى أحد مستشفيات العاصمة، فبعد تحطم الطائرة الأولى أُرسلت طائرة ثانية تحطمت هي الأخرى. سألوني، وكنت وزيراً للدفاع: «ماذا نعمل؟ هل نرسل الطائرة الثالثة والأخيرة لإنقاذ المرأة المتعسرة؟!». لم تكن المجازفة بالطائرة الأخيرة التي نملكها محبذة، وخصوصاً أن احتمال تعرضها للتحطم كان كبيراً، وكنت قد استعلمت عن حالة المرأة، فعلمت أنها وضعت وأنها بصحة جيدة، فقلت لهم: «لا داعي لإرسال الطائرة».

بعد هذه الحادثة، طلب «سالم العيسي» الملحق العسكري الصيني، وبدلاً من أن يخاطبه بلياقة وبلهجة دبلوماسية ودية كما يفترض الأمر، قال له:

إن الحمير أفضل من طائراتكم التي تحطمت فوق الضالع!

قبل أن يفيق الملحق العسكري من الصعقة لاحقه العيسي قائلاً:

أرسلوا قطع غيار سريعاً، وإلا فاستعيدوا طائراتكم!

استاء «الملحق العسكري» الصيني من الإساءة التي تلقاها دون توقع، خصوصاً حين سمع بأن الحمير أفضل من طائرات بلاده، وعدّ ذلك طعنة موجهة إلى هيبة بلاده وإلى الصناعة والصداقة الصينيين، ورفع مذكرة إلى وزارة الخارجية في عدن يحتجّ فيها على هذه الإساءة التي لحقت بالصين الشعبية، وبالتأكيد رفع الأمر أيضاً إلى بكين. فيما رأى الملحق أن النقيب «سالم العيسي» تصرف هكذا بإيعاز من السوفيات وعدّه صديقهم، تماماً كما تصرف مع السوفيات بعد حادثة عدم السماح لإحدى بوارجهم بالدخول إلى ميناء عدن، حيث عدّوا العيسي صديقاً لبكين، بالرغم من أن المذكرة التي حملها إليهم ليس لها علاقة بموقف معادٍ للسوفيات! لكن هاتين الحادثتين دليلٌ على ما كان بين موسكو وبكين من حساسية وعداء شديدين، وأيضاً من تنافس على عدن.

صواريخ سكود... لها قصة

اغتنمت الأجواء الطيبة للزيارة، ووجود متسع لدى الزعيم السوفياتي ليونيد بريجنيف لاستقبالي، وبحثت معه في مكتبه في الكرملين العلاقات الثنائية بين بلدينا، وتحدثنا هذه المرة كصديقين، وقد عزز لقائي الأول إياه في عام ١٩٧٣م علاقتي به. كان بريجنيف في نظري هذه المرة مثل كتاب مفتوح يُقرأ بسهولة، وقد نظرت إليه بإمعان، وأعجبت بجبهته الواسعة وحاجبيه الكثيفين وكأنني أرى ذلك لأول مرة.

وفي هذا اللقاء منح الاتحاد السوفياتي اليمن الديمقراطية قرضاً ومساعدة عسكرية واقتصادية بـ(٦٠٠) مليون روبل، وكنّا، لأول مرة نحصل على صواريخ سكود. صاروخ سكود من بين الأسلحة التكتيكية التي صممها الاتحاد السوفياتي السابق في فترة الحرب الباردة، وقد دخل الخدمة الفعلية في نهاية العقد الخامس من القرن الماضي، ولكنه خضع لعملية تطوير كبيرة اعتباراً من مطلع العقد السادس، ما مكنه من حمل كميات كبيرة من المتفجرات أو حتى الرؤوس الحربية غير التقليدية. ويتجاوز طول الصاروخ ١١ متراً، ويعتمد على محرك يعمل بالوقود السائل، وهو أسرع من الصوت بعدة مرات.

إن حصول اليمن الديمقراطية على صواريخ سكود له قصة ينبغي أن تروى. ففي ١٦-

١٩ يناير عام ١٩٧٨م كنت في زيارة لبلغاريا، وقابلت الرئيس البلغاري «تيودور جيفكوف» الذي سألني: لماذا لا تطلبون صواريخ سكود من السوفيات؟!

قلت له: لقد طلبناها منهم بالفعل وقالوا إنهم سيدرسون الأمر، وقد طالت الدراسة. ردّ جيفكوف الذي كان يعرف السوفيات جيداً بالقول: «حاولوا مرة أخرى» ولفت نظري إلى الأهمية الاستراتيجية العسكرية لهذه الصواريخ، وقبل كل شيء أهميتها السياسية في ردع أي عدوان من الدول المجاورة. وقال: «حين يشعر جيرانكم بأنكم مسلحون بصواريخ سكود، سيحسبون لكم ألف حساب، خوفاً على حقول نفطهم»، ولكنه حذرنا من استخدامها إلا في حالة وجود مخاطر حقيقية على النظام.

هذا الحديث لقي وقعاً حسناً في نفسي، ولذلك أدخلت صواريخ سكود في مباحثاتي مع المسؤولين السوفيات خلال زيارتي التي بدأت حديثي هذا بها. وقد أدت المباحثات إلى نتائج تاريخية في علاقاتنا، إذ إن السوفيات وافقوا في نهايتها على إعطائنا صواريخ سكود، ومنحنا قرض الـ (٦٠٠) مليون روبل كما تقدم. أسهمت هذه الصواريخ في ضمان الحماية لليمن الديمقراطية. وعند التوقيع عليها التفت بريجنيف نحوي وقال: عليكم الاستفادة منها للتهديد، وليس للاستخدام. وكانت هذه هي المرة الأولى التي يزود الاتحاد السوفياتي هذه الصواريخ دولة خارج منظومة حلف وارسو، ولم أكن أتصور حينئذ ونحن نحصل على صواريخ سكود أنه سيأتي يوم تستخدم فيها لضرب المدن اليمنية، ولكن ذلك حصل للأسف خلال حرب ١٩٩٤م. لكن أول تجربة للصاروخ جرت أثناء مناورة عسكرية ولأول مرة يطلق من صلاح الدين باتجاه أحور شرقيّ عدن، وحددنا له هدفاً، وقد نجحت التجربة، وحقق الصاروخ هدفه في الصحراء، وليس في المدن.



أثناء حضورنا ومشاركتنا لتجربة إطلاق صاروخ سكود لأول مرةالبحث عن بديل

غير أن الكرم السوفياتي المفاجئ اقترن بعقبة حقيقية كادت تعصف بالعلاقة بين البلدين، إذ منذ أن ساءت علاقات الاتحاد السوفياتي بالصومال في عام ١٩٧٧م، وإنهاء الرئيس الصومالي سياد بري الوجود العسكري السوفياتي في ميناء بربرة الاستراتيجي على القرن الإفريقي، ظل الروس يبحثون عن مكان بديل يعوّضهم خسارتهم هناك، وكان هذا البديل في نظرهم ميناء عدن الذي يتميز بأهمية استراتيجية فائقة.

كان الاتحاد السوفياتي يعتبر سياد بري صديقه، ولحظة ظهوره في مركز القيادة في الصومال في أكتوبر عام ١٩٦٩م أو بعده بقليل، أعلن نفسه ماركسياً لينينياً معتنقاً الاشتراكية

العلمية، وقدم نفسه صديقاً للسوفيات، ونصب تماثيل ماركس وأنجلز ولينين في ميادين عاصمته مقديشو. وذهب إلى المؤتمر الخامس والعشرين للحزب الشيوعي السوفياتي في موسكو، وألقى خطاباً رناناً في الكرملين تجاوز في طروحاته وشعاراته الماركسية كثيراً من الخطباء من قادة الأحزاب الشيوعية العريقة. لكن سياد بري هذا حَوّل الدفة فجأة ١٨٠ درجة، كما يقال، من موسكو إلى واشنطن، في لحظة تخلى فيها عن كل شعاراته السابقة، ودمر كل التماثيل التي بناها في بلاده لماركس وأنجلز ولينين. والأهم من هذا كله أنه انتقل إلى الهجوم وطرد الروس من قاعدة بربرة، وسلمها لأعدائهم الأميركان، وسبّب ذلك القلق والارتباك، وربما الذعر للسوفيات.

لعلنا نتذكر كيف كانت تبدو منطقة القرن الإفريقي مهمة وحيوية في فترة السبعينيات، كما هي اليوم، وكيف تبادلت موسكو وواشنطن المواقع. فبعد أن فقد الروس قاعدتهم المهمة في بربرة، باتوا يبحثون عن البديل. وقع اختيارهم على اليمن الديمقراطية، أو على عدن على وجه الدقة. فوجئنا في ٢٠ ديسمبر عام ١٩٧٧م بنائب الرئيس الكوبي «كارلوس رافائييل» يزورنا في عدن بإيعاز من السوفيات، في محاولة لإقناع القيادة اليمنية بتقديم التسهيلات إلى الروس في ميناء عدن بدلاً من التي فقدوها في الصومال.

لست أدري، إذا ما كان السوفيات يحتاجون فعلاً في تلك الأيام إلى وسيط بين موسكو وعدن.. ولكنني أعتقد جازماً أنهم كانوا لا يزالون حائرين. فحسب كل المعطيات لديهم، لم يكن الرئيس سالم ربيع علي موضع ثقتهم، ولا يعدّونه صديقهم، بل على العكس، كانوا يرونه صديقاً لعدوتهم اللدود بكين.

أذكر أنه كان هناك تباين في وجهات النظر في أوساط القيادة اليمنية في عدن عند مناقشة الوساطة الكوبية، واستقر الرأي على إعطائهم تسهيلات في أي ميناء آخر، مثل بروم في حضرموت، أو في جزيرة سقطرى أو في بئر علي في أقصى الشرق، ولكن ليس في ميناء عدن تحديداً. وكان هذا الموقف يتسم ببعض المرونة، فهو من ناحية لا يرفض منح السوفيات التسهيلات التي يطلبونها بصفة قاطعة، لكنه اقترح أماكن غير التي يطلبونها، ويحتاج تجهيزها إلى وقت طويل، بينما كان السوفيات في حاجة إلى قرار سريع، وإلى مكان

سابق التجهيز تتوافر فيه كل الخدمات التي فقدوها في ميناء بربرة، ولن يجدوا مكاناً في تلك المواصفات غير ميناء عدن الذي يبدو حتى أفضل من بربرة.

وكان الأمين العام عبد الفتاح إسماعيل بالذات قد اختار العلاقة مع السوفيات دون حدود. ويروي الدكتور أوليغ بيريسيبكين الذي عمل دبلوماسياً في جمهورية اليمن الديمقراطية بعض وقائع هذه العلاقة في كتابه المشار إليه[1]:

«كان لقاؤنا الأول مع عبد الفتاح إسماعيل الأمين العام للجبهة القومية، في مقر إقامته في المعاشيق المبنية على مرتفع صخري، ويوجد في القرب منارة عالية وعدة بيوت سكنها سابقاً أغنياء عدن وكبار الموظفين البريطانيين. وهنا امتلك أنطوني بيس الشهير بلقب «ملك البحر الأحمر»، وهو رجل أعمال بريطاني معروف من أصل فرنسي، بيتاً. أما المنزل الذي استضافنا به عبد الفتاح إسماعيل، فكان مبنياً على صخرة مرتفعة، وتطل نوافذه على منظر خلاب يبهر الأبصار على خليج عدن. كانت الأمواج تتحطم بأسفل الصخور المترامية على الشاطئ وكنا نرى زبد الموج المتشتت بصمت وهدوء من جراء ضربه للصخر الشامخ لدرجة لا تسمع شيئاً حولك، وهذا ما أعطى صبغة سحرية للمنظر وكأنه لوحة خيالية خلابة.

كان مقر عبد الفتاح إسماعيل مؤلفاً من مكتب صغير وعدة غرف تتصل مباشرة ببهو توزعت فيه عناصر الحراسة والخدم، وكان الأمين العام مرتدياً حلة شبيهة بالقميص وفوقه بزة بأزرار زرقاء اللون، وكذلك كان لون البنطلون، عمره كما يوحي شكله قرابة الثلاثين، نحيف، يوهم الناظر من الوهلة الأولى أنه خريج جامعي جديد.

جلسنا على كراسي منخفضة، وطرح سؤالاً عن رغبتنا في ما نريد أن نشرب: شاي، قهوة، مشروب بارد؟ استقر رأينا على شرب الشاي، وأثناء حديثنا عن الطقس في موسكو وعدن، أحضر لنا الخدم الشاي بالحليب:

«نحن نشكر أصدقاءنا السوفيات من كل قلبنا لإرسالهم لنا وفداً رسمياً».

وكان يتكلم بلغة فصيحة وسليمة، كانت كل كلمة من خطابه واضحة ومفهومة بالنسبة

---

(١) اليمن واليمنيون...، مصدر سبق ذكره، الصفحة ٢٣٣.

لي. لقد حدثني أحدهم في موسكو بأنه كان معلماً، وأثناء تحرير البلاد من الاحتلال كان قائداً لمجموعة مسلحة أظهرت الروع للجنود الإنكليز.

مضيفاً: «زيارتكم لنا مهمة جداً قمنا في ٢٢ يونيو ١٩٦٩ بحركة تصحيحية وتحررنا من القيادة البرجوازية، التي عرقلت مسيرة التطور في البلاد، فثورة ١٤ أكتوبر الشعبية لم تتجلّ فقط بالحرب الوطنية ضد المستعمر الإنكليزي والسلاطين، بل وضعت نصب عينيها الثورة الشعبية الديمقراطية، وأخذنا على عاتقنا مصير هذه الثورة الشعبية الديمقراطية. والشعب يؤيدنا في ذلك».

وفي سياق آخر على تطور هذه العلاقة يروي الكاتب الواقعة الآتية[١]:

في ٢٠ يناير عام ١٩٧٣م كنت عند عبد الفتاح إسماعيل، ولم يكن يلتزم البروتوكول، وكان بإمكانه أن يخابرني في السفارة ليقول لي: «اليوم سأتناول على العشاء سمكاً فإذا أردت تعال»، وبالطبع كنت أريد، ومع تحديد الوقت كنت أتوجه إلى منزله في معاشيق. في هذه الدار عاش معلمي الأول للغة العربية فلاديمير كراسنوفسكي، وبعدها انتقل للعيش هناك سيرغي سولوفبوف، وهو أيضاً مستعرب وأحد معارفي الجيدين. لقد عملا مترجمين في المدرسة العليا للاشتراكية العلمية، وساعداني على فقه نصوص المدونات الزراعية في حضرموت ويوميات أحد المقربين من سلطان لحج التي عثرا عليها في مبنى المدرسة وسلماني إياها. من الطبيعي أن زيارتي لعبد الفتاح إسماعيل كانت تجري بالاتفاق مع السفير بولياكوف، كما العادة كانت تُعَدّ مادة كافية للتقرير الدوري إلى موسكو. أبلغ عبد الفتاح إسماعيل عن أعمال جلسة اللجنة المركزية للجبهة القومية وعن تطورات الصلات الحزبية الخارجية وضرورة زيادة مساعداتنا للجبهة الشعبية لتحرير عُمان والخليج العربي بالنظر إلى أن شاه إيران ألقى بـ ٦٠٠ جندي في ظفار بقيادة ضباط بريطانيين من أجل مقاتلة المنتفضين، وعن رغبته في السفر إلى موسكو للعلاج. في هذا الوقت أجرت الجبهة الشعبية لتحرير عُمان مفاوضات مع حزب العمل العربي الناشط في المناطق الغربية من عُمان حول الاتحاد، ولذلك فإن الحاجة هي إلى التشجيع والدعم كما رأى عبد الفتاح إسماعيل. من

(١) المصدر السابق نفسه ص ٢٩٦.

جهتي أبلغت أن علي ناصر محمد كان في موسكو والتقى سفراء الدول الاشتراكية في موسكو وأبلغهم بالأوضاع في اليمن الجنوبي وحوله، ومن وجهة نظري هي خطوة صحيحة للغاية وعاقلة. نهاية الاقتباس

وهكذا في شهر يونيو عام ١٩٧٩م سافرت إلى موسكو للمشاركة في الاحتفال اليوبيلي الثلاثين لتأسيس مجلس التعاضد الاقتصادي (سيف). والتقيت على هامش الدورة عدداً من رؤساء حكومات البلدان الاشتراكية، وأعلن قبول اليمن الديمقراطية عضواً مراقباً في المجلس. فكنا أول دولة عربية، بل الوحيدة التي تحظى بمثل تلك العضوية في مجلس اقتصادي خاص بالبلدان الاشتراكية، ومع الأسف، إن الدول الخليجية لم تُولِ أي اهتمام للدولة في اليمن الديمقراطية سياسياً واقتصادياً ولم ترسل إلى اليمن إلا المخربين أو السلاح والمتفجرات بكل أنواعها لتدمير المنشآت الاقتصادية وقتل المدرسين والأطباء وتسميم الآبار.

السلاح السوفياتي لصنعاء
نوافق... نوافق تماماً!

بعد الانتهاء من اجتماع مجلس التعاضد عقدت في الكرملين يوم الثاني من يوليو محادثات مع رئيس الوزراء السوفياتي أليكسي كوسيغين، وتبادلنا الآراء في العلاقة بين البلدين، وأعربنا عن الارتياح لتطور التعاون فيما بين عدن وموسكو. كذلك تبادلنا الآراء في الوضع في شبه الجزيرة العربية، وعبّرنا عن القلق من استمرار محاولات القوى الإمبريالية لخلق بؤر التوتر في المنطقة. وأكدنا أهمية تنظيم علاقات حسن الجوار بين دولها على أساس مبادئ التكافؤ والاحترام المتبادل وعدم التدخل في الشؤون الداخلية لأي طرف.

التقيت في موسكو أيضاً وزير الدفاع السوفياتي «ديمتري أوستينوف» حيث تبادلنا الآراء في شؤون التعاون العسكري بين البلدين.

كنا خارجين تواً من حرب فبراير ١٩٧٩م بين عدن وصنعاء، وكانت الحرب ستؤدي إلى تدخل بلدان وقوى أخرى فيها، ووجدنا في عدن وصنعاء أنْ لا جدوى من استمرارها،

حيث كابد البلدان خسائر فادحة نتيجة تلك الحرب، ولم يكن أحدنا في ظل الموازين الدولية والإقليمية القائمة قادراً على هزيمة الآخر. وهذه التصورات كانت تنسجم من حيث الأساس مع رأي الاتحاد السوفياتي أيضاً. وكان السوفيات على ما يبدو، قد اتخذوا قراراً بتسليح الجيش في الجمهورية العربية اليمنية بمزيد من الأسلحة المتطورة بعد التشاور معنا بشأن ذلك، بحيث لا يخلّ بالتوازن العسكري بين الدولتين، وكانوا يسلحون الجيش الوطني في الشمال منذ ثورة ٢٦ سبتمبر عام ١٩٦٢م. سألني وزير الدفاع ديمتري أوستينوف شخصياً رأيي في هذه المسألة، وكان جوابي له: نوافق، نوافق تماماً.

لقي جوابي استغراباً مفاجئاً من أوستينوف، وتوجه إليّ بالسؤال والدهشة معاً، قائلاً:

ألا تعدّ هذا خطراً عليكم؟ وأنت رئيس الوزراء ووزير دفاع بلادك؟!

أعربت عن ارتياحي العميق لجوهر الفكرة والأهداف الجريئة والحاسمة لتسليح الاتحاد السوفياتي للجمهورية العربية اليمنية، رغم أننا كنا خارجين تواً من حرب معها. ذلك يعني أن الأميركان لن ينتقلوا إلى هناك ولن يباشروا الهجوم علينا انطلاقاً من صنعاء، وخصوصاً أنه كان يجري في تلك الفترة حديث عن تنويع مصادر السلاح الذي يجلب معه عادة ليس الخبراء العسكريين الغربيين فحسب، بل يؤدي أيضاً إلى تبديل في الأصدقاء وتغيير المواقف.

وبعد أن استمع أوستينوف إلى وجهة نظري قال لي:

أيها الرفيق، تدهشونني حقاً، وأنتم مصيبون من حيث المبدأ، وتراعون واقع علاقاتنا مع الغير.

كنت واثقاً من أن أحداً سواي كان سيتعرض للنقد، لكن لم تكن ثمة حاجة لدي لكي أعارض قناعاتي ومبادئي ورؤية الأمور كما يمليها الواقع. لم يكن ثمة سبب يدعوني لأن أرفض أو أعترض وأنا أعرف أن السوفيات لن يقدموا إليهم ذخائر لهذه الأسلحة لأكثر من أسبوع أو أسبوعين كما كانت الحال بالنسبة إلينا، وفي حالة الحرب بين النظامين فإن الذخائر السوفياتية ستنفد وسنعود إلى الحوار والمصالحة والوحدة كما حدث في أعوام ١٩٧٢ و١٩٧٩م، ففي كل الأحوال كانت صنعاء قادرة على الحصول على ما تريد من

أسلحة من أي مصدر تريد سواء من السوفيات أو من الأميركان أو غيرهم. وقد علمت قبل ذلك من المسؤولين في صنعاء أن صنعاء وقعت في عام ١٩٧٦م صفقتي سربي طائرات «ميغ ٢١»، وبعد وصولها إلى الحديدة أعيدت من حيث أتت في عهد الرئيس الحمدي كما حدثني بذلك الرئيس علي عبد الله صالح لاحقاً، وبعد ذلك أوفد الرئيس علي عبد الله صالح ضابطاً، هو علي المنصور، الذي ذهب إلى موسكو من طريق باريس ليوقع أكبر صفقة أسلحة بين الشمال والاتحاد السوفياتي تزيد قيمتها على ٧٠٠ مليون روبل، وكان الروبل في ذلك الوقت أكثر قيمة نقدية من الدولار، وقد اعترضت أميركا والرياض على هذه الصفقة، ولم تعرف صنعاء أنني كنت من شجع التوقيع على هذه الصفقة كما أشرتُ آنفاً، ولا حاجة للمرء أن يكون منجّماً حتى يدرك ذلك بعد اللقاءات التي أجريناها مع القادة السوفيات وقادة مجلس التعاضد الاقتصادي في موسكو. وقد غادرت بعدها إلى جنوب الاتحاد السوفياتي للراحة والاستجمام، وكان معي أعضاء الوفد، عبد العزيز عبد الولي وعبد الله الأشطل وصالح مصلح قاسم.

كوسيغين والزيارة اليتيمة!

في سبتمبر عام ١٩٧٩م زار عدن لأول وآخر مرة مسؤول سوفياتي كبير هو «أليكسي كوسيغين» رئيس مجلس الوزراء في الاتحاد السوفياتي... وسأروي الآن قصة هذه الزيارة، إذ كنت أنا وراءها.

كان كوسيغين يقوم بزيارة رسمية إثيوبيا، وكان خط سير الرحلة يحتّم على طائرته المرور فوق أجواء اليمن الديمقراطية وهو في طريق عودته إلى بلاده، كما كانت تحتّم عليه بعث برقية بروتوكولية كتحية وهو يمرّ فوق أجوائنا. لكنني استطعت تعديل الأمر من مرور فوق الأجواء إلى زيارة رسمية هي الأولى التي يقوم بها مسؤول سوفياتي على هذا المستوى الرفيع، والأخيرة أيضاً.



مع السفير بنيامين بوبوف في موسكو ٢٨ شباط/ فبراير ٢٠١٧

بدأت القصة في يوم من أيام سبتمبر ١٩٧٩م حين جاء إليّ القائم بالأعمال السوفياتي في عدن «بنيامين بوبوف» ليبلغني بخبر مرور رئيس الوزراء كوسيغين فوق أجواء اليمن الديمقراطية في طريق العودة إلى موسكو بعد أن أنهى زيارة لأديس أبابا، وقد حمل معه «بوبوف» برقية التحية التقليدية التي تُعدّ مسبقاً وتُرسَل عادةً من الجو لدى مرور أي زعيم فوق أجواء دولة أخرى... أخذت منه البرقية، وقرأتها على عجل، ثم وضعتها على الطاولة، ونظرت إليه، وقلت له: أيها الرفيق، إلى متى ستظل اليمن الديمقراطية محطة عبور لكم؟!

قبل أن أتركه لدهشته أضفت: لقد ارتبطنا بعلاقات طيبة معكم منذ الاستقلال وحتى اليوم، ونحن لسنا ضد أن تكونوا أصدقاء لمنغستو أو لسياد بري من قبله. لقد زار رئيسكم بودجورني الصومال ومرّ بأجوائنا دون أن يزورنا. وهذه المرة يزور رئيس وزرائكم كوسيغين إثيوبيا، وأيضاً سيمرّ فوق أجوائنا دون أن يفكر في زيارتنا. فلماذا كل هذا التجاهل لليمن الديمقراطية؟ أنا لا أستطيع شخصياً أن أفهم أي معنى لذلك!

ثم تحدثت مع القائم بالأعمال بمزيد من التفاصيل سائلاً: هل ثمة حاجة إلى القول إننا

جميعاً قد قمنا بزيارة موسكو ابتداء بأول رئيس للجمهورية قحطان الشعبي، إلى الرئيسين سالم ربيع علي وعبد الفتاح إسماعيل. وأنا شخصياً زرتها مرات عديدة دون أن يفكر أحد من قادتكم في رد الزيارة إلينا. فلماذا لا تقيمون وزناً للعلاقات والصداقة فيما بيننا وبينكم؟!

استولى الذهول على بوبوف وأصغى إلى هجومي وحججي القوية، ثم صمت بعض الوقت، وحين تكلم أخيراً أكد عمق الصداقة وعلاقات التعاون بين البلدين، وأشار إلى أن هذا قد تُوِّج بمعاهدة الصداقة والتعاون، ولكنه أخذ يسوّغ عدم زيارة القادة السوفيات لليمن الديمقراطية بالتزاماتهم وانشغالاتهم الجمّة التي لا تتيح لهم الفرصة للقيام بزيارات كثيرة.

أظهرت للقائم بالأعمال أنني غير مقتنع بكل تلك التسويغات، وأبديت له إصراري على زيارة كوسيغين عدن قبل عودته إلى موسكو.

من جانبه أخذ يعرض استحالة ذلك: كل شيء يخضع لقرار المكتب السياسي، ولكي يزور كوسيغين عدن لا بد له من الحصول على قرار من المكتب السياسي والكرملين. زيارة كهذه بحاجة إلى قرار، وأنا سأرفع الأمر إلى القيادة في موسكو.

كان لدي رفض قاطع لمقترحه، وأبلغته بكلمات واضحة ومحددة حتى لا يتسنى له الوقت لمزيد من الأعذار. قلت له: بلغ كوسيغين وموسكو برغبتنا في إتمام الزيارة قبل عودته إلى موسكو. وأردفت: عليك أن تتحرك لإبلاغهم بذلك فليس عندنا كثير من الوقت.

تصرفت على نحو صارم، وأعدت إليه البرقية التي جاء بها عندما حاول ذلك، ووقفت ومددت إليه يدي إيذاناً بانتهاء الزيارة، وقلت في نفسي: يا تصيب يا تخيب.

في اليوم التالي أبلغني القائم بالأعمال، وهو يكاد لا يصدق نفسه، بأن كوسيغين سيزور اليمن الديمقراطية غداً ظهراً. شكرته على جهوده ورحبت بزيارة رئيس وزراء الاتحاد السوفياتي لعدن، لأنها تعزز العلاقات بين البلدين والشعبين.

رامبو وكوسيغين

اتخذنا الترتيبات لاستقبال ضيفنا الكبير، وبعد الظهر وصلت الطائرة الخاصة التي تقل كوسيغين ووفده إلى مطار عدن.

كان الجو حاراً، والرطوبة في أعلى درجاتها في هذا الوقت من شهر سبتمبر، ولا يكفي لوصف المناخ في عدن أن يقول عنه المرء بأنه حار جداً، وأكثر وطأة على الأجانب، خصوصاً إذا كانوا قادمين من المناطق الباردة.

عند باب الطائرة لفح طقس حارّ وجه كوسيغين وتبللت نظارته من الرطوبة ولم يتمكن من مشاهدتنا، فسلمها لأحد المرافقين ليمسحها، ويبدو أنه لم يتعرض لمثل هذا في حياته، ولكنه نظر يميناً ويساراً ولوّح بقبعته مبتسماً، ثم هبط السلالم القليلة، ووطئت قدماه أرض المطار، وتصافحنا بحرارة.

كان أول ما سألني عنه كوسيغين: كيف تعيشون في هذه البلاد؟!

وكان جوابي له: هذه بلادنا، ونحن نعيش فيها وفي مناخها الحارّ كما يعيش سكان سيبيريا في زمهريرها البارد.

ابتسم كوسيغين، وانتقلنا لتحية حرس الشرف، وللسلام على المستقبلين من كبار المسؤولين في الحزب والدولة ورجال السلك الدبلوماسي العربي والأجنبي. وكنت قد سألته قبل ذلك إن كان يرغب في أن تُختَصر مراسم الاستقبال، حتى نجنبه التعرض للشمس وحرارة الجو، ولكنه وهو المدرك أن «المراسم هي المراسم» لم يُبدِ رغبة في اختصارها فأنجزناها، ثم انتقلنا إلى دار الضيافة في التواهي.

كان كوسيغين خلال الطريق، ونحن في السيارة، يتحدث عن مطار عدن الذي يبدأ بالبحر وينتهي في البحر دون تضاريس، وقال إنه مطار جميل وآمن، فلماذ لا يتم تطويره بنحو أفضل لاستقبال الطائرات المدنية الحديثة؟ واستفسر أيضاً عن الطقس والمياه والحياة. وقال لي: اسمع، لماذا لا تطلبون مساعدتنا لتشجير عدن وحفر الآبار فيها حتى تخفّ حدة هذا الطقس الحار؟!



صورة لمطار عدن

تذكرت ما تعرض له خروتشوف عند زيارته لأسوان في مايو ١٩٦٤م، فقال: شعرنا كأننا دخلنا فرناً مذيباً وأن أجسامنا التي تعودت مناخاً بارداً لا تتحمله إطلاقاً، والوقوف تحت الماء كان متعذراً، لأن الماء البارد لم يكن بارداً، بل إنه أقرب إلى الماء المغلي. وكان هذا الوضع لا يختلف عن وصف الماء في عدن وبحرها الذي كان حاراً وتصعب السباحة فيه. وقد تذكرت الضابط والكاتب البريطاني جاكوب الذي قال إن الصيف في عدن قطعة من جهنم تختفي في كهوفها. وتذكرت أيضاً «رامبو» الشاعر الفرنسي الذي قضى فترة من حياته في عدن في القرن التاسع عشر، وقد وصفها في رسائله لأمه «بأن هذه الأرض قطعة من جهنم لا ينبت فيها نبات ولا شجر!»، ولكنها بالنسبة إلينا تبدو قطعة من الجنة رغم كل قسوة الطبيعة فيها!

كان كوسيغين يتساءل وهو يرى بعض الأشجار خلال الطريق واقفةً تتحدى هذا الطقس المخيف: كيف تعيش الأشجار في مثل هذا المناخ؟! توقف أمام مدخل دار الضيافة قليلاً عندما رأى شجرة واقفة هناك، ونظر إليها وإلى الزهور الحمراء والبيضاء المحيطة

بها والمتسلقة باب السور، وسأل: كيف تعيش من دون وجود للماء، والأمطار لا تهطل إلا نادراً؟ وقال: لا بد أنه يوجد ماء في الجبل! قلت له: لا يوجد ماء في الجبل، وإنما نأتي بالمياه من خارج عدن لنشرب، ولنسقي الأشجار لكي تعيش وتبقى!

لا سباحة... لا كوليرا!

دخلنا دار الضيافة. جلس كوسيغين، وقال: إن أمنيتي أن أسبح في خليج عدن، فهل تحقق لي هذه الرغبة؟!

أعربت عن سروري لتلبية أمنيته، وأكدت له أنه يستطيع أن يسبح في خليج عدن وقت يريد. لكن أطباء كوسيغين المرافقين له، والقائم بالأعمال السوفياتي في عدن، اعترضوا على ذلك، وأخافوه من السباحة في بحر عدن، بدعوى أن الكوليرا منتشرة في المنطقة، والسباحة في هذه الحالة خطرة على حياته. والواقع أنه لم تكن هناك كوليرا، بل إن أطباءه لم يملكوا الشجاعة الكافية لكي يقولوا له إن حالته الصحية السيئة لا تسمح له بالسباحة في هذا الطقس الحار والرطوبة الخانقة، وكانوا أكثر من ذلك يخشون أن يتعرض لمكروه، فيتحملوا هم مسؤولية ذلك أمام القيادة السوفياتية. استسلم كوسيغين لتعليماتهم، وسافر وفي نفسه حسرة، دون أن يسبح في «خليج عدن» كما كانت أمنيته.

أخبرني كوسيغين أنه لا يملك سوى وقت قليل للبقاء في عدن، وأنه لا يستطيع المكوث أكثر من (٢٤) ساعة، ولهذا فإنه يقترح تكثيف برنامج الزيارة. وأعطى موافقته على أي برنامج أقترحه.

كان علينا في هذا الوقت القليل أن نخصص وقتاً للمباحثات، ولحفلة العشاء وللقيام بجولة حرة خاصة في المنطقة السياحية «الساحل الذهبي»، ولمراسم الوداع.

تمحور الحديث مع رئيس مجلس الوزراء السوفياتي حول مشاريع التنمية واستخراج النفط والذهب. سأل الخبراء الروس: لماذا لا تستخرجون النفط؟ وسأل عن الفترة منذ أن بدأ التنقيب عن النفط، فقلت له: إن الاتفاق بين البلدين بدأ منذ عام ١٩٧٣م، أي منذ لقائي بريجنيف عندما قال لي على الخريطة إن صحراءكم هذه تسبح على بحيرة من النفط. عندئذ

بدأت فكرة التنقيب واستخراج النفط من قبل السوفيات، وبدأت الاتصالات والمباحثات وعقدت الاتفاقيات بهذا الخصوص.

التفت كوسيغين إلى رئيس لجنة العلاقات الاقتصادية الخارجية الذي كان يرافقه، وأخذ يشتم باللغة الروسية بكلمات فهمت بعدها من بعض أعضاء وفدنا الذين يجيدون الروسية أنها كانت شتائم من العيار الثقيل، لأن المترجم بالطبع لم يشأ نقلها إليّ. وكان كوسيغين يستجوب الوزير، وهذا الأخير يردّ على أسئلة رئيس الوزراء وهو واقف يتصبب عرقاً. طلب كوسيغين من الوزير ومن المستشار الاقتصادي في السفارة مضاعفة الجهود لاستخراج النفط في أسرع وقت ممكن، وعلّق بأن مشاكل اليمن الديمقراطية لن تُحلّ إلا باستخراج النفط، وأصدر إليهما أوامره بإنجاز المحطة الكهروحرارية في عدن، وإتمام مشاريع الزراعة والسدود وغيرها من المشاريع السوفياتية التي كان العمل فيها يسير ببطء شديد.

أقمت حفلة عشاء على شرفه وقلدته وسام الثورة ١٤ أكتوبر، قائلاً: «إنه يتم منح هذا الوسام تعبيراً واعترافاً بالدور الشخصي لألكسي كوسيغين في تطوير العلاقة بين البلدين والشعبين اليمني والسوفياتي».

عاد كوسيغين إلى بلاده، بعد أن شاهد قسوة الطبيعة عندنا وما تفرضه من قسوة وصرامة على الحياة، ولكنه أصبح أكثر حماسة لليمن الديمقراطية ولدعمها.

كان لقائي التالي بكوسيغين في موسكو في مايو عام ١٩٨٠، وتحدثنا عن زيارته لعدن في العام الماضي وكيف منعه أطباؤه من السباحة كما كان يتمنى، وقلت له: نأمل أن تزورنا مرة أخرى لكي تحقق أمنيتك وتسبح في خليج عدن. وهذه المرة أجاب بنفسه وقد أدرك استحالة ذلك:

يبدو أن صحتي ستحول دون تحقيق أمنيتي وقد لا يطول بي العمر!

في ٣١ ديسمبر ١٩٧٩م بمناسبة بلوغي سن الأربعين، منحني الاتحاد السوفياتي «وسام الصداقة بين الشعوب»، وجاء في مرسوم هيئة رئاسة مجلس السوفيات الأعلى أنه مُنح لي تقديراً لجهودي المبذولة من أجل قضية التحرير الوطني والسلام والتقدم

الاجتماعي والمساهمة الكبيرة في توطيد الصداقة والتعاون بين شعبي اليمن الديمقراطية والاتحاد السوفياتي... لكنني لم أتمكن من السفر إلى موسكو إلا في ٢٧ مايو عام ١٩٨٠م في الأيام التي أعقبت تولّيَّ مقاليد السلطات الأولى في البلاد (الأمانة العامة ورئاسة الدولة)، حيث قمت بزيارة رسمية وودية للاتحاد السوفياتي، متوجهاً إليه من دمشق. وعقب جلسات المباحثات الرسمية في الكرملين مع بريجنيف ووفدي البلدين، أقيم حفل عشاء على شرفي قام الرئيس السوفياتي خلاله بتقليدي الوسام. وحين اختتمنا المباحثات الرسمية، اختتمناها بالتوقيع على وثائق اتفاقيات جديدة في المجالين الفني والاقتصادي.


الرئيس علي ناصر محمد يصافح الرئيس بريجنيف بعد الانتهاء من تقليده وسام ٤ أكتوبر (١٩٨١م)
ويبدو بينهما عضو المكتب السياسي تشيرنينكو الذي أصبح رئيساً فيما بعد.

أثناء تقليدي الوسام من قبل الرئيس بريجنيف، ويبدو
عضو المكتب السياسي تشيرنينكو الذي أصبح رئيساً فيما بعد

عبق الدخان

كانت الزيارة واللقاءات مهمة جداً، وأسهمت في ترسيخ علاقات البلدين الصديقين، وتنظيم تطورها اللاحق.

شارفت الزيارة على الانتهاء، ورافقني بريجنيف حتى المطار ليودعني، وما لبث أن سألني ونحن في سيارته: هل تدخن؟ قلت مجيباً: توقّفت عن التدخين منذ عام.

هل كنت تدخن كثيراً؟ قلت: نعم، ٦٠ سيجارة.

في الشهر؟

لا، في اليوم[١].

ضحك بريجنيف وسألني: هل يدخن مرافقك العسكري؟

أجبته: كلا، لا يدخن.

صمت برهة وكأنه كان يفكر في أمر ما، ولاحظت أن بريجنيف معتكر المزاج بوضوح أو أنه ليس على ما يرام. وبعد برهة الصمت قال: ألا يضايقك أن يدخن مرافقي الشخصي؟

قلت وقد أدركت غرضه: لا، لا أمانع.

دخّن المرافق الذي كان في السيارة يسمع حوارنا، بأمر من رئيسه. وعندما عبقت رائحة الدخان أخذ بريجنيف يستنشقه بانتشاء، فأدركت رغبة بريجنيف الملحّة في شمّ رائحة الدخان بعد أن منعه أطباؤه والمكتب السياسي من التدخين حفاظاً على صحته التي كانت تتدهور. بعد أن شمّ الزعيم السوفياتي المريض رائحة السجائر، قال، متوجهاً بحديثه إليّ:

نحن الآن ننشئ محطة لتحلية مياه البحر عندكم في عدن!

قلت له: نعم. إنه جزء من مشروع المحطة الكهروحرارية.

قال:إن عملية تحلية مياه البحر صعبة ومعقدة!

قلت:جائز، فأنا لست فنياً.

قال مسترسلاً: ولكن الأصعب منها، التحام السفن في الفضاء.

علّقت هذه المرة: بالتأكيد!

---

(١) كنت قد اتخذت قرار التوقف عن التدخين في مدينة سوتشي على البحر الأسود عندما أعلن عمدة المدينة في حفلة غداء على شرفنا أنهم قاموا بحملة لمكافحة التدخين وتوقف عنه عشرون ألفاً حتى هذه اللحظة، قلت له: أضف اسمي إليهم. عشرون ألفاً وواحد، وأخرجت علبة السجائر من جيبي وولاعة الرونسون الذهبية ووضعتهما على طاولة الطعام، فصفقوا، وكانت عيون البعض على ولاعة الرونسون!

صمت بريجنيف، ثم سأل بابتسامة لا تكاد تلحظ:

لماذا لا تعطينا العناصر الانقسامية عندكم في المكتب السياسي، لنرسلهم في سفينة فضاء، وقبل أن تلتئم نقذف بهم في الفضاء الشاسع، وبذلك تتخلص منهم اليمن والمنطقة، وترتاح أنت ويرتاح الحزب والشعب منهم؟!

وضحك بريجنيف. ثم سأل: ألست موافقاً على هذا، أيها الرفيق؟

كانت السيارة تقترب من المطار، وقلت له: إن مثل هذه المشاكل سنحلها عبر الحوار، وإن القضية الأساسية لنا الآن تعزيز الجبهة الداخلية. وأعربت له عن الشكر على اهتمامه بنا وباليمن، وودعته وودعني عند سلم الطائرة قائلاً: لن أقول لك وداعاً، ولكن سأقول لك إلى اللقاء.

المؤتمر السادس والعشرون للحزب الشيوعي السوفياتي

في ٢٣ فبراير عام ١٩٨١م كنت في موسكو أستمع إلى «مبادرة بريجنيف حول الشرق الأوسط التي أعلنها في اليوم الأول لبدء المؤتمر الـ (٢٦) للحزب الشيوعي السوفياتي. وقد ألقيت خطاباً عرضت فيه أهمية دور الاتحاد السوفياتي في الانفراج الدولي ونزع السلاح. وتطرقت إلى الأوضاع الخطرة في المنطقة العربية، ونشاط الأساطيل الأجنبية في البحار المحيطة وزرع القواعد العسكرية في بعض البلدان الاستراتيجية القريبة منها، وتنظيم المناورات الاستفزازية ضد اليمن الديمقراطية وإثيوبيا وغيرهما.

حين التقيت بريجنيف يوم الثالث من مارس ١٩٨١م أشدت بمبادرته لتسوية عادلة وشاملة لأزمة الشرق الأوسط وتعزيز الأمن والاستقرار في منطقة الخليج العربي والمحيط الهندي، واعتبرت أن من شأن تحقيق هذه المقترحات خفض حدة التوتر وتهدئة الوضع المتفجر في هذه المنطقة.

على هامش أعمال المؤتمر التقيت الرؤساء تيودور جيفكوف، ونيقولاي تشاوشيسكو، وفيديل كاسترو، وإيريش هونيكر، وجوستاف هوساك، وعدداً من الأمناء العامين للأحزاب

الشيوعية العربية: خالد بكداش (الشيوعي السوري)، فائق وراد (الشيوعي الأردني)، علي يعتة (حزب التقدم الاشتراكي المغربي)، والتقيت أيضاً عبد الله الأحمر الأمين العام المساعد لحزب البعث العربي الاشتراكي في سورية، وخالد محيي الدين رئيس التجمع الوحدوي القومي المصري، وفاروق قدومي رئيس الدائرة السياسية لمنظمة التحرير الفلسطينية، و«أبو ماهر» (من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين) وبحثت معهم كل على حدة العلاقات الثنائية بين اليمن الديمقراطية وأحزابهم والوضع في الخليج والمحيط الهندي، وقضايانا وهمومنا المشتركة.

وداعاً بريجنيف

التقيت ليونيد بريجنيف مرة أخرى وأخيرة في منتصف سبتمبر عام ١٩٨٢ قبل وفاته بنحو شهر واحد فقط، حيث كنت أقوم بزيارة رسمية وودية للاتحاد السوفياتي بدعوة من اللجنة المركزية ومجلس السوفيات الأعلى. وفي ١٥ سبتمبر قمت بتقليده وسام الثورة ١٤ أكتوبر. وأكدت أن ذلك اعتراف بالدور الذي أدّاه شخصياً من أجل تطوير الصداقة اليمنية-السوفياتية وتقويتها، ودعم نضال شعبنا من أجل الحياة الجديدة وتحقيق أهداف الثورة، وكذلك نضال الشعوب العربية ضد الإمبريالية والصهيونية.

وكانت آخر كلماته التي سمعتها: «أتوجه بالشكر إلى قيادة اليمن الديمقراطية وإليكم أيها الرفيق علي ناصر محمد لهذا الوسام الرفيع وللكلمات الطيبة التي قيلت عني. وأعتبرها اعترافاً بخدمات بلدنا وحزبنا الحزب الشيوعي السوفياتي اللذين عملا كل ما في وسعهما من أجل دعم شعب اليمن الديمقراطية الصديق. وإنه لمن دواعي سرورنا، نحن الشيوعيين السوفيات السائرين على طريق أفكار لينين وإنجازات أكتوبر العظيم أن نتسلم هذا الوسام الذي يُعَدّ رمزاً للنضال الخالد للشعوب من أجل التغيير الثوري للعالم».

بعد أقلّ من شهر على هذه الكلمات أُعلن في موسكو وفاة ليونيد بريجنيف في صباح ١١ نوفمبر ١٩٨٢م. أعلنّا في اليمن الديمقراطية الحداد الرسمي عليه. ووصلت إلى موسكو في طائرة واحدة مع رئيس الجمهورية العربية اليمنية العقيد علي عبد الله صالح

للمشاركة في تشييع جثمان بريجنيف. وكانت هذه المرة الثانية التي نسافر فيها معاً على متن طائرة واحدة. كان للموت حضوره الكبير في موسكو، وفي الساحة الحمراء سارت جموع المشيّعين من القادة السوفيات ورؤساء الدول القادمين من كل العالم، حتى جدار الخالدين في سور الكرملين الأحمر حيث يوضع رماد جثته، وتوضع عليها لوحة تحمل اسمه وتاريخ ميلاده ووفاته كغيره من الزعماء. انتهت أيام بريجنيف وصعد نجم جديد في سماء الكرملين اسمه يوري أندروبوف.

بعد التعزية بالزعيم الراحل وتهنئة الزعيم السوفياتي الجديد، كان لدي الوقت لإجراء عدة لقاءات مع بعض رؤساء الدول الذين شاركوا في مراسم التشييع.

الموت يخيّم على الكرملين

مع تعدد زياراتي للاتحاد السوفياتي، على مدى خمسة عشر عاماً تقريباً، انطبعت في ذاكرتي بقوة زيارتي لموسكو في سبتمبر عام ١٩٨٣ واللحظة التي اجتمعت فيها بالزعيم السوفياتي الجديد يوري أندروبوف في «القِرِمْ» على ساحل البحر الأسود حيث كان يستجمّ. الواقع أنه كان يعيش أيامه الأخيرة واحتضاره بعيداً عن الكرملين. أتاحت لي هذه الزيارة أن أشاهد القاعة التي جرى فيها التوقيع على اتفاقية يالطا في ٤ فبراير ١٩٤٥م من قبل الرؤساء ستالين وروزفيلت وتشرشل حيث اتفقوا على تقسيم ألمانيا[١] إلى أربع مناطق وإرغام ألمانيا على تسليم الاتحاد السوفياتي معدات ومصانع ومصادرة ثروات أخرى لتعويض الخسائر السوفياتية[٢]، ومحاكمة أعضاء الحزب النازي وتقديمهم كمجرمي حرب، وإنشاء منظمّة عالمية لصون السلم العالمي، وهي التي أصبحت فيما بعد الأمم المتحدة، وإعادة إرساء

---

(١) تقدر الخسائر البشرية في صفوف القوات المسلحة الالمانية بحسب دراسة أعدها المؤرخ العسكري الألماني روديغر أوفرمانس عام ٢٠٠٠ ما يقارب ٥,٣ ملايين فرد في صفوف القوات المسلحة الألمانية خلال فترة الحرب.

(٢) تقدَّر خسائر الاتحاد السوفياتي البشرية في الحرب العالمية الثانية وفق أبحاث أُجريت في روسيا بعد تفكك الاتحاد السوفياتي، إلا أن الإحصاء الأقرب للدقة لإجمالي الخسائر إبان الحرب يبلغ ٢٦,٦ مليون فرد في مجمل محيط الحدود السياسية للاتحاد السوفياتي مع نهاية الحرب.

النظام في أوروبا ومساعدة الدول المنهزمة لتكوين حكومات ديمقراطية وإجراء انتخابات حرة في بولندا، وبسط نفوذ الاتحاد السوفياتي إلى حدود بولندا.

علمت من أحد المرافقين أن رئيس وزراء بريطانيا تشرشل طلب من الحضور في القاعة أن لا يقفوا عند دخول ستالين بسبب تأخره بعض الوقت وعندما دخل ستالين بهامته وهيبته ونياشينه كان تشرشل أول الواقفين دون أن يشعر وقام الآخرون كذلك تقديراً لدوره في انتصار الحلفاء في الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥م، كما حدثني المرافق أن الفيلا التي نزلتُ فيها في يالطا كانت مقراً وسكناً للزعيم السوفياتي ستالين أثناء توقيع المعاهدة.



فيلا ستالين

من اليسار: عبد الله عمر بلفقيه وأحمد الحبيشي، ومن اليمين: علي أسعد مثنى وأبو بكر بن حسينون وعبد ربه منصور هادي وقاسم معوضة

كذلك زرت قاعة الاجتماعات حيث جرى توقيع الاتفاقية في قصر لفاديا الذي نزل فيه الرئيس الأميركي روزفلت.





قاعة الاجتماعات في مؤتمر يالطا

اوجد أندروبوف نفسه في وضع يوجب عليه أن يعيد بناء الاتحاد السوفياتي بعد سنوات الركود التي عاشها في آخر أيام حكم بريجنيف. قيل إن أندروبوف الذي كان من موقعه رئيساً لجهاز المخابرات (الكي جي بي) يرصد الأخطاء والسلبيات، كان لديه ملفات للأولويات التي سينطلق منها لإصلاح النظام السوفياتي، لكن عندما وصل إلى الحكم كان هو الآخر مريضاً، ولكنه أيضاً لم يكن أي زعيم سوفياتي آخر، لقد كان طرازاً من القادة المختلفين والمعاصرين. كان أندروبوف قبل أن يستقر في الكرملين، قد طاف العالم كله، بل إن منصبه رئيساً للمخابرات السوفياتية كان يضع العالم على طاولته كل صباح. قبل ذلك كان سفيراً في بودابست عام ١٩٥٦م وقت اجتاحتها القوات السوفياتية، لهذا كان يعرف ماذا يجري في العالم، وتحديداً في الغرب المتقدم، وبالتالي يعرف كل ما ينقص الاتحاد السوفياتي ويتمنى تحقيقه في بلاده.

عقدتُ مع يوري أندروبوف اجتماعاً مغلقاً استغرق أربع ساعات كاملة في الثامن والعشرين من سبتمبر ١٩٨٣م، تحدثتُ فيه بصراحة عن علاقات اليمن الديمقراطية بالاتحاد السوفياتي، وأبديت بعض الملاحظات على بعض الجوانب التي كنت أراها سلبية في السياسة السوفياتية في منطقة الشرق الأوسط، وبرغم شدة مرضه استمع إليّ أندروبوف،

بل أصغى إليّ بكامل حضوره وجوارحه، وأخذ يستوضح بقلق عن بعض الأمور والأشياء التي وردت في عرضي السياسي الشامل.

من حديثي اقتنع أندروبوف بأن على الاتحاد السوفياتي أن يتحرك لمساعدة اليمن الديمقراطية والعرب أكثر من السابق. وأصدر تعليماته الفورية لتنفيذ كل ما اتفقنا عليه خلال هذا اللقاء بأسرع وقت ممكن. وفعلاً، لأول مرة في العلاقات اليمنية السوفياتية كان يُنفَّذ ما اتفقنا عليه في الوقت والسرعة المطلوبين.

أدرك أندروبوف بسرعة جوهر الوضع الناشئ في منطقة الشرق الأوسط، وسعى إلى مساعدة العرب في نضالهم من أجل استعادة أراضيهم المحتلة، وفي حصر الخطر الداهم من إسرائيل ونيتها الاستيلاء على مزيد من الأراضي العربية. وأعتقد أن سورية تلقت في عهده القصير جداً مساعدات عسكرية في غاية الأهمية بغية تحقيق التوازن العسكري الاستراتيجي مع العدو الإسرائيلي (وهو ما أكده لي الرئيس حافظ الأسد).

أعرب يوري أندروبوف عن ارتياحه لحديثي الصريح، وقال إنه يشاطرني الكثير من آرائي وخصوصاً ما يتعلق بالسياسة السوفياتية في الشرق الأوسط. ما جعل العرب في الموقع الأضعف بعد اتفاق كامب ديفد مع مصر.

انتهى اللقاء، وحانت لحظة الوداع الأخيرة. منذ ذلك الوقت أدركت أنه الوداع الأخير فعلاً، إلا إذا حدثت معجزة! نهض يوري أندروبوف، من مقعده بقصد توديعي، لكنه قبل أن يقف تماماً انهار وسقط على مقعده.

وجدت نفسي في وضع حرج، فلم يكن بوسعي مغادرة الغرفة وترك الرجل على حالته تلك. وزاد الأمر سوءاً أن معاوني أندروبوف أنفسهم كانوا في حالة ذهول تامّ، فلم يعرفوا كيف يتعاملون مع الموقف، وأخذوا يحملقون في زعيمهم الملقى على الكرسي مثلي في ذهول وقلق دون أن يهرعوا لتقديم الإسعاف له أو استدعاء أطبائه من الغرفة المجاورة حيث كانوا يقبعون ولا شك!

من حسن حظ الرئيس أندروبوف أنه استعاد نشاطه بعد قليل وواجه الموقف بنفسه.

وعندما رآني لا أزال واقفاً ابتسم ابتسامة لا تكاد تلحظ، ونهض متحاملاً على نفسه ثم اندفع نحوي واحتضنني بقوة وحرارة مودعاً. وكنت زائره الرسمي الأخير قبل الموت.

في التاسع من فبراير عام ١٩٨٤م مات يوري أندروبوف. أعترف بأنني وأنا أسير في جنازته شعرت بفقد شخصية هامة لم تمضِ على العلاقة به فترة كافية. لكنه خلال هذا الزمن القليل نقل صداقة بلدينا إلى موقع جديد، بما في ذلك استخراج النفط في شبوة.

تشيرنينكو
زعيم آخر على حافة الموت

قدمت التهنئة إلى زعيم الكرملين الجديد قسطنطين تشيرنينكو بعد تسلمه رئاسة الدولة والحزب في ٢ أكتوبر عام ١٩٨٤م، ومنذ اللحظة الأولى التي رأيته فيها أدركت أنه رجل مريض وأن أيامه معدودة في الكرملين وفي الحياة. من هنا تولّد لدي إحساس بأنه رئيس عابر ليست لديه سوى أيام «موقتة» في القيادة السوفياتية ريثما يحسم الصراع داخل أروقة «المكتب السياسي» العتيد، ليتحدد زعيم الكرملين المقبل.

وبالفعل، طلعت البرافدا (بافتتاحية) على غير العادة قبل وفاة تشيرنينكو بأيام قليلة جداً، تبشّر فيها بأن مسألة «الخلافة» في الاتحاد السوفياتي قد حُسمت لأول مرة وإلى الأبد. وكان ميخائيل غورباتشوف هو ذلك الخليفة، وقد أدى اليمين الدستورية بسرعة غير معهودة وتولى مهمات منصبه الجديد زعيماً غير منازع للكرملين، وبدأ بعدها مرحلة انقلابه الدراماتيكي الذي أدى إلى سقوطه وسقوط النظام الشيوعي بأكمله.

الصعود والسقوط!
تشيرنينكو وغورباتشوف

توارى قسطنطين تشيرنينكو من الحياة، وصعد إلى سدة الحكم والمسرح السياسي نجم جديد، شاب، يختلف عن كل الزعماء الذين قبله. إنه ليس من جيل ثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى، ولا من جيل الحرب العالمية الثانية، بل يجد نفسه في حلٍّ منهما، إذ إنه لم يشارك

في خوض الكفاح المضني من أجل تأسيس الاتحاد السوفياتي، ولا في تثبيت دعائمه، زعيم اختار التلفزيون والإعلام مسرحاً يمارس من خلالهما أعماله لتحقيق أفكاره الجديدة التي سمّاها «البيروسترويكا» و«الجلاسونست» ومعناهما إعادة البناء والشفافية أو العلانية.

تسلّم الرئيس غورباتشوف قيادة الكرملين، وقدمت إليه التهاني والتبريكات كغيري من الوفود المشاركة، وكانت هذه المرة الأولى التي لا أشاهد فيها رئيساً سوفياتياً يتحدث من أوراق مكتوبة. كان أمامه ملف لم يفتحه إلا مرة واحدة وأغلقه بيده اليمنى، وقال بعد كلمات الترحيب والمجاملة: تفضل أيها الرفيق « مُخمّد». كان الوقت محدوداً وطابور المهنئين طويلاً قبلي وبعدي من كل أنحاء العالم جاؤوا لمقابلة الرئيس الجديد غورباتشوف الذي جاء بعد وفاة ثلاثة رؤساء: بريجنيف وأندروبوف وتشيرنينكو خلال وقت قصير، رحلوا خلال سنتين، وكان علينا أن نهرع إلى موسكو بعد سماع نبأ وفاة هؤلاء الزعماء، كانت حقائب المعزين جاهزة، والطائرات كذلك، وكان الناس يتندّرون بعد وفاة هؤلاء الزعماء، لأن قبلهم وبعدهم مات عدد من أعضاء المكتب السياسي الكبار، وفي مقدمتهم المنظِّر والمفكِّر سوسلوف ورئيس الوزراء كوسيغين وآخرون.

حاول غورباتشوف المبهور بزياراته لبريطانيا ولبعض الدول الغربية أن يحمل معه إرادة التغيير، وينفض عن الاتحاد السوفياتي حالة الخمول والجمود والبيروقراطية، وأن يدخل إصلاحات واسعة تحت شعار البيروسترويكا والجلاسنوست، ووعد بأنه سيسير فيها مهما كلفه من جهد وضنىً وعناء، وأنه لن يكرر ما جرى مع الرئيس الفلاح الساخر خروتشوف الذي بدأ إصلاحاته فانتكست على رأسه وهو يسبح في البحر الأسود حيث كان يقضي إجازته السنوية الإجبارية، ودفع ثمنها بالعزل ومغادرة المسرح دون أن يشارك في جنازته أي مسؤول سوفياتي أو أجنبي. توعد غورباتشوف بأنه لن يسمح للتيار المحافظ بأن يعرقل هذه الإصلاحات وأنه تسلَّم أكثر من ١٠٠ ألف رسالة تطالبه بالاستمرار في الإصلاحات لبناء دولة حديثة جبارة على هذه القارة الأوروبية التي عدّها بيت الأوروبيين جميعاً، وأنهم يجب أن يتعايشوا فيها ويحافظوا عليها أيضاً.

لم يدرك أن أوروبا التي شبّهها بالسفينة لا يمكن أن تتعايش فيها نظريتان متصارعتان،

فهي ليست سفينة نوح التي حملت من كل زوجين اثنين، وإن كان صوت الحرب الباردة خفت فيها، ولكنها لا تقبل التعايش، فالسفينة ستغرق عندما تبحر بربانين ولا تتحمل أكثر من ربان في وسط هذه العواصف والأمواج الهوجاء التي لن تتوقف حتى وإن هدأت بعض الوقت حسب مواسم المدّ والجزر والرياح، ونسي أنه قد حان وقت تصفية الحساب بعد أن تآكل النظام الاشتراكي.

ألمانيا مقسَّمة ثلاثة أقسام: الشرقية والغربية وبرلين، وذلك بفعل القوى العظمى، وكنت أشاهد تقسيماتها على جبهة محدثي غورباتشوف الذي كانت تبدو عليها خطوط مختلفة زرقاء وخضراء شبّهها البعض بالأَرَضة التي نخرت فكره ونخرت معها الاتحاد السوفياتي.

كان يتدفق نشاطاً وحيوية وهو يتحدث معي، بينما كان الباب يفتح ويغلق بإشارات فهمت منها أن الجلسة ستطول، ولو على حساب الذين يقفون خلف الباب في إحدى صالات مقرّ الحزب الواسعة. أشاد بسياسة اليمن الداخلية والخارجية والانفتاح الذي نمارسه، وطالب بالاستمرار في هذه السياسة، وخصوصاً مع جيران اليمن الديمقراطية في اليمن والخليج لكي ننصرف للبناء الداخلي وتحسين معيشة الكادحين كما قال، وألقى نظرة أخيرة على الملف وأغلقه، وشعرت بأنه يريد إنهاء المقابلة، التفت إليَّ وإلى ساعته وقال: «لن نقول وداعاً، بل إلى اللقاء»، وما إن أنهى هذه الكلمات حتى فتح الباب أوتوماتيكياً على صوت غورباتشوف حيث تعانقنا وتصافحنا وانصرفت.

خرجت بعدها بانطباع بأنه أتى في وقته وأنه سيقود بلاد السوفيات نحو تغييرات دراماتيكية بعد أن هرم الحزب وقيادته وبلاد السوفيات بسبب استمرار القيادات المسنة عشرات السنين باسم استقرار الكادر، ولم يكن ذلك في موسكو وحدها، بل في عدد من البلدان الاشتراكية. فقيادات هذه البلدان مثل الزعيم الكوري كيم إيل سونغ والزعيم الصيني ماوتسي تونغ والمارشال اليوغسلافي تيتو والرئيس البلغاري تيودور جيفكوف والجنرال التشيكوسلوفاكي سفبودا والرئيس التشيكي هوساك والرئيس الألماني إريك هونيكر والرئيس الروماني تشاوشيسكو، تسلموا قيادات هذه البلدان وحكموها حتى ماتوا، ولم تنجُ

بعض الأحزاب الشيوعية العربية من مثل هذه الزعامات الحزبية التي استمرت عهوداً طويلة كنقولا شاوي (الأمين العام للحزب الشيوعي اللبناني) وخالد بكداش (الأمين العام للحزب الشيوعي السوري)، وينطبق ذلك أيضاً على بعض الزعامات العربية والعالمية من رؤساء الدول والأحزاب.

لم يستطع أن يحقق ما كان يبشِّر به من تغيير، ولم يتمكن من إشباع أهم احتياجات المجتمع السوفياتي التي بها وحدها يمكن تحقيق فكرته الأساسية. كل ما قدر عليه غورباتشوف، تقديم المزيد من المبتكرات اللفظية الخلابة التي أسهمت في تدمير الاتحاد السوفياتي، وبدا في النهاية متعباً وفي حاجة إلى راحة وذهب إلى جنوب الاتحاد السوفياتي تاركاً الساحة ليلعب فيها صديقه وخصمه اللدود في آن واحد بوريس يلتسن، ليهدم، أو يواصل من بعده هدم المعبد المقدس وتفكيكه إلى قطع ودول وأشباه دول تتصارع فيها القوميات العرقية والإثنية، لتغيب عن الخريطة السياسية للعالم دولة عظمى مثل الاتحاد السوفياتي.

كانت هذه أول وآخر مقابلة لي معه وهو رئيس للبلاد، غير أني قابلته بعد ذلك في دبي عام ١٩٩٤م، بعد انهيار الاتحاد السوفياتي والبلدان الاشتراكية وأصدقاء الاتحاد السوفياتي في أديس أبابا وعدن وكابول وغيرها من البلدان، وقد تحول ويا للمفارقة إلى محاضر يتكسّب من محاضراته، حيث كان يتنقل هو وسكرتيره كارين بروتنتس بين هذه البلدان المحافظة وحائط المبكى في إسرائيل، وبعض بلدان العالم التي يظهر فيها أحياناً وهو يقوم بالدعاية للبيتزا والهمبرغر. كانت هذه نهايته، فلم يقبله الشعب الروسي في انتخابات الرئاسة، ومنحه الشعب ١٪ فقط من الأصوات، ولكمه أحد عمال سيبيريا على وجهه لينهي بذلك حياته السياسية إلى الأبد.

رسالة غورباتشوف

بعث الزعيم السوفياتي غورباتشوف قبيل عقد المؤتمر العام «الثالث» للحزب الاشتراكي اليمني في ٢٨ سبتمبر عام ١٩٨٥ رسالة عبّر فيها صراحة وبلا تحفظ عن دعم

القيادة السوفياتية لقيادتنا، ودعمها لأعمال المؤتمر العام الثالث لحزبنا. وقال غورباتشوف في معرض رسالته: «إننا نشيد بالإنجازات العظيمة لليمن الديمقراطية تحت قيادة الحزب الاشتراكي اليمني برئاسة الرفيق علي ناصر محمد الابن البار للشعب اليمني». بعد تسلمي الرسالة عقد السفير السوفياتي في عدن فلاديسلاف جوكوف مؤتمراً صحافياً قال فيه:

« بتكليف من ميخائيل غورباتشوف السكرتير العام للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي قمت بتسليم الرئيس علي ناصر محمد رسالة خطية، تتضمن تمنيات ميخائيل غورباتشوف إلى الرفيق علي ناصر محمد شخصياً وإلى الحزب الاشتراكي اليمني ولجنته المركزية ومكتبها السياسي بنجاح المؤتمر العام الثالث والعمل الخلّاق لتنفيذ قرارات المؤتمر من أجل مواصلة تطوير جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية على طريق التقدم والديمقراطية، طريق بناء المجتمع الجديد».

المصالح دائمة!

كانت تلك رسالة واضحة وصريحة في مضمونها، وتعبِّر تعبيراً تاماً عن الموقف السوفياتي قبيل أحداث ١٣ يناير ١٩٨٦م. فقد أعاد التلفزيون السوفياتي بثّ البيان الذي أذيع من إذاعة عدن في اليوم الأول للأحداث، مقترناً بتعليق أكثر حماسة من البيان نفسه قرأه سيف الملوكوف وعلّق عليه، وهو واحد من أشهر المعلقين في التلفزيون السوفياتي. غير أن هذا الموقف لم يحافظ على ديمومته، كما أوضحت من قبل، إذ إن تطور الأحداث قاد السوفيات إلى منحًى آخر تحت تأثير مصالحهم بينما كنا نتصرف ونتعامل في الغالب بطريقة مثالية مع الأصدقاء في دول المعسكر الاشتراكي، ونرى أن دعمهم للنظام في عدن واجب أممي عليهم، ونتوقع دائماً منهم أن يوازنوا بين مصالحهم ومبادئهم، ولكنهم ويا للأسف أثبتوا هم أيضاً أن المصالح تغلب المثل والمبادئ.

في العلاقات بين الدول تأتي المصالح أولاً وأخيراً، حتى ولو اتسع الوقت لبعض المجاملات وتبادل الأنخاب وقبلات التحية. وسأعرض في مكان آخر من المذكرات قصة النفط والمصفاة في اليمن الديمقراطية.

في ختام عَرض العلاقات اليمنية السوفياتية وما شابها من تجاذب وتنافر، ومن سلبيات وإيجابيات وما لتلك التجربة من أهمية على صعيد بلدنا والمنطقة، أقول إننا أقمنا دولة قوية مهيبة في جزيرة العرب والبحر الأحمر والقرن الإفريقي والمحيط الهندي بمساعدة السوفيات التي كانت تربطنا بهم علاقات صداقة ومعاهدة، وقد اطلعت أخيراً على تقييم التجربة من وجهة نظر السيد بريماكوف وما سمّاه بالانحراف اليساري المدمر في عدن كما جاء في مذكراته مما سأتحدث عنه في فقرة لاحقة.



الفصل الثاني والعشرون

اليمن الديمقراطية والبلدان الاشتراكية

منذ وقت مبكر من الاستقلال، وتحديداً منذ خطوة ٢٢ يونيو ١٩٦٩م بدأ الحديث عن (المنظومة الاشتراكية)، ما بين قائل بأن المصطلح يشمل الاتحاد السوفياتي والبلدان الاشتراكية جميعاً، وقائل بأن الصين لا تقع في إطار تلك المنظومة حيث تقتصر على دول حلف وارسو فقط[١] التي تتكون من الاتحاد السوفياتي وألبانيا وبلغاريا وألمانيا الشرقية وبولندا وتشكوسلوفاكيا ورومانيا والمجر. أما يوغوسلافيا، فقد اتخذت موقف عدم الانحياز بين المعسكرين الاشتراكي والرأسمالي وكانت الدولة الأوروبية الشيوعية الوحيدة التي لم تنضم إلى هذا الحلف، وتنصّ معاهدة حلف وارسو على أهمية التعاون المشترك بين دول الحلف دون التدخل في أيٍّ من الشؤون الداخلية لدولة ما (تتبع الحلف) واحترام سيادتها

(١) حلف وارسو أو معاهدة وارسو (اسمها الرسمي معاهدة الصداقة والتعاون ومساعدة المشتركين): هو منظمة عسكرية سابقة لدول أوروبا الوسطى والشرقية الشيوعية. أُسست هذه المنظمة عام ١٩٥٥م لتواجه التهديدات الناشئة عن تشكيل حلف شماليّ الأطلسي (الناتو)، من أهم أهداف هذا الحلف الدفاع عن أي دولة من أعضائه إذا هوجمت، وكان من أبرز المحفزات لإنشائها انضمام ألمانيا الغربية إلى حلف الناتو بعد إقرار اتفاقات باريس. استمرت المنظمة في عملها خلال فترة الحرب الباردة حتى سقوط الأنظمة الشيوعية الأوروبية وتفكك الاتحاد السوفياتي (عام ١٩٩١ م)، وإذ ذاك بدأت الدول تنسحب منها واحدة تلو الأخرى. حُلّ الحلف رسمياً في تموز/ يوليو ١٩٩١ م.

واستقلالها. على الرغم من ذلك فإن هذا البند قد خرق غير مرة في تاريخ هذا الحلف. ففي الثورة المجرية وربيع براغ جرى التدخل من دول أخرى في الحلف لقمع هذه الثورات، وكانت الحجة في التدخل دائماً، أن القوى المتدخلة إنما دُعيت إلى ذلك التدخل، وبالتالي فإن البند في المعاهدة رسمياً لم يخرق. أما ألبانيا فقد انسحبت من الحلف عام ١٩٦٨ بعد الخلاف السوفياتي الصيني الذي أدى إلى تكوين حلفاء جدد لكلا النظامين الشيوعيين، وباعتبار عدن الحليف والصديق للمعسكر الاشتراكي وعضواً في منظمة الوحدة الاقتصادية (الكوميكون)، فقد تطورت العلاقات بينها وبين دول الحلف على المستويات السياسية والاقتصادية والعسكرية والأمنية، كافة وقدمت هذه الدول كافة أشكال الدعم للنظام في عدن لحمايته من التدخلات الإقليمية والدولية.

أما فيتنام فرفضت هذا الانحياز في الصراع الصيني السوفياتي، وأقامت علاقات متوازية معهما على السواء، لأنها كانت في حرب مع أميركا والغرب، ولهذا كانت بحاجة إلى دعم الصين والسوفيات معاً، وترى أن أي انحياز يضر بمصالحها الوطنية، وقد تقبّل الطرفان هذا القرار وهذا الموقف المتوازن. بينما انحازت كوبا إلى السوفيات بعد خلافها مع الصين، وهي التي رفعت أيام تشي غيفارا شعار «الثورة الدائمة» في العالم، النظرية التي سقطت وسقط قادتها وحلفاؤها، وعلى رأسهم غيفارا في بوليفيا وتروتسكي الذي اغتيل في المكسيك.

هكذا بدا الخلاف نظرياً في عدن بين أنصار الصين والسوفيات، البعض من منطلق «عقائدي»، والبعض من منطلق «براغماتي». كان البعض يظهر ميلاً نحو هذا الطرف أو ذاك دون النظر إلى أن العلاقات الدولية قائمة على تبادل المنافع، ولا مصلحة لنا في هذا الصراع. كان البعض يظهر عداءه للصين (بطريقة ساذجة) في الوقت الذي كان فيه الصينيون يشقون طريقاً مهماً وحيوياً، بل استراتيجياً بين عدن وحضرموت شرقاً، وهو أول وأطول وأهم طريق يربط بين أكثر وأكبر محافظات الجمهورية (أبين، شبوة، وحضرموت) ويمرّ في وسط أو بمحاذاة كثير من مدنها وقراها ومناطقها لأول مرة، وسيخدم بعد الانتهاء منه غالبية سكان اليمن الديمقراطية. وكانت تتميز الصين وخبراؤها في كل المشاريع التي ينفذونها بعدم

تدخلهم في الشؤون الداخلية للنظام وحكامه في عدن، وكانوا يؤكدون دوماً بتواضع جمّ عُرف به الصينيون أنهم يقفون مع الشعب اليمني، وأنهم جاؤوا إلى عدن لمساعدة الشعب اليمني والتعلم منه، أو بحسب قولهم عندما ينطقون ذلك بالعربية:

جئنا لمساعدتكم والتألم منكم! (ويقصدون التعلم منكم).

يؤدون رسالتهم الإنسانية بهدوء، وبلا ضجيج أو إعلام. ويعملون بدأب وصبر، ويعيشون حياة بسيطة، متواضعة، وليست لهم مطالب مكلفة أو مستحيلة التحقيق. كان الصينيون ينفذون عدة مشاريع مهمة. وبالإضافة إلى طريق عدن المكلا، كانوا ينفذون مشروع مصنع الغزل والنسيج في الشيخ عثمان، ومصنع الذخيرة في أبين، ومصانع صغيرة لقطع الغيار، ويعمل خبراؤهم في تشغيل أربع طائرات مروحية أو عمودية تحطمت واحدة إثر الأخرى في مرتفعات الضالع! وبتحطمها انتهى الوجود الصيني المحدود في سلاح الطيران.

كان وجود الخبراء العسكريين الصينيين يسبب القلق والإزعاج للروس وخبرائهم في القوات المسلحة لليمن الجنوبية. لكن المؤكد أن القوات المسلحة اليمنية أصبحت منطقة مُحرّمة على الصينيين، وعلى الجنس الأصفر، بحسب تعبير المستشار السوفياتي في المدرسة الحزبية، وأذكر أن هذا المستشار واسمه بوريس، كان من رأيه أن الصينيين أخطر عرق في العالم، ويكرر «أن القوات المسلحة لا تتسع لنا ولهم ولا تتحملنا جميعاً، وعليكم أن تختاروا، إما نحن وإما هم؟!».

وعندما سألته: لماذا لا تتفقون وتجنبوننا صراعاتكم؟ ضحك ضحكة صفراء وقال: لا تفاهم ولا صلح مع اللون الأصفر حتى بعد ثلاثين عاماً!

لا أدري لماذا حدد المدة بهذه السنوات، بينما حددها مترجم صيني سنأتي على ذكره بثلاث كلمات. لكن بعد عشرين عاماً من حديث المستشار السوفياتي، انهار الاتحاد السوفياتي على يد قيصر الكرملين ميخائيل غورباتشوف! قبل أن تتحقق المصالحة المنشودة بين أكبر قطبين شيوعيين في العالم.

شنج، بنج، سنج!

بعضهم يعيد الخلاف الصيني السوفياتي إلى انحياز الصين إلى فكر ستالين الذي علقت له صورة كبيرة جنباً إلى جنب مع صورة مماثلة للزعيم الصيني ماو تسي تونغ بالقرب من قصر الشعب في قلب العاصمة بكين، وقد رأيتُ الصورتين عندما زرتُ الصين في أبريل ١٩٧٨م.

عندما وجهتُ سؤالي إلى المستشار السوفياتي في المدرسة الحزبية عن ضرورة تسوية الصراع الصيني السوفياتي، لم أكن قد سمعتُ بعد بالنكتة – الحكمة، التي رواها لي الصديق المرحوم نصر ناصر علي، وكان حينذاك وزيراً للعمل والخدمة المدنية، وهو من أحسن رواة النكتة، وجزء من روعة النكتة ولذعتها يكمن في الشخص الذي يلقيها أو يرويها، وهي موهبة لا يملكها إلا عدد محدود من الناس، وكان المرحوم نصر ناصر أحد هؤلاء القلّة فوق كفاءته، وخبرته، وحسّه الإنساني الراقي، ووطنيته، ومواقفه النبيلة في أصعب المواقف.

خلاصة النكتة أن الرئيس الألماني الديمقراطي زار بكين وتحدث في مهرجان جماهيري عن الخلافات بين البلدين، وحثّ على ضرورة التفاهم والتصالح والتضامن الأممي، وقال إن هذا التقارب لمصلحة البلدين ومصلحة الدول الصديقة... ولم تفهم الجماهير التي كانت تملأ الميدان شيئاً مما قاله الضيف الألماني الذي كان يخطب بلغته الألمانية، لأن المترجم الصيني لم يكن يترجم كلامه إلى الناس. وعندما لاحظ الرئيس ذلك نظر نحو المترجم وقال له: ترجم ما أقوله.

فقال المترجم كلمة واحدة: «شنج»... وسكت. فواصل الضيف خطابه، واستمرّ يتحدث طوال عشرين دقيقة تقريباً، والمترجم صامت لا يترجم شيئاً من كلامه. فالتفت نحوه وقال له: لماذا لا تترجم؟!

فقال المترجم: «بنج»! وعاد إلى صمته، وأومأ إلى الرئيس ليواصل خطابه. فواصل هذا حديثه حتى النهاية. وطلب من المترجم أن يترجمه للناس. فقال هذا: «سنج»!

استغرب الضيف الألماني هذه التقنية العالية في اللغة الصينية، التي مكنت المترجم من اختزال خطابه الطويل الذي استغرق نحو الساعة في ثلاث كلمات فقط (شنج، بنج،

سنج) وهنأ المترجم على براعته، وسأله: كيف استطعت أن تختصر خطابي الطويل بثلاث كلمات؟!

ضحك المترجم الصيني وقال له: لقد قلت للشعب إنك تقول كلاماً فارغاً، وإنك تواصل كلامك الفارغ، وإنك أنهيت كلامك الفارغ! فضحك الرئيس الألماني بدوره وعاد إلى بلاده، لكن بعد أن أدرك أن الخلاف أعمق مما كان يعتقد. أما أنا، فبعد أن سمعت هذه النكتة تذكرت كلام المستشار السوفياتي في معهد باذيب للعلوم الاجتماعية بوريس، وكانت العلاقات الصينية السوفياتية في أسوأ أحوالها، وقد أضرّ التنافس الأيديولوجي بين موسكو وبكين على زعامة العالم الشيوعي بمصالح العالم الثالث. وفي الأخير فإن الذئب الأميركي أكل الفرخة التي كانا يتصارعان عليها! بعد أن أصبح الصراع على المصالح مع سقوط الأيديولوجيات، وصار التنافس في الأسواق العالمية، وتسويق البضائع والمنتجات، بدلاً من تسويق أفكار ماو ولينين!! وهو أمر أدركته الصين فيما بعد عندما فصلت الأيديولوجيا عن الاقتصاد، فصارت تغزو العالم بمنتجاتها وبضائعها بما في ذلك العالم الرأسمالي لا بأفكارها الشيوعية.

علاقات مميزة مع المنظومة الاشتراكية

أصبحت منظومة البلدان الاشتراكية ذكرى من الماضي بعد انهيار الاتحاد السوفياتي وسقوط المشروع الشيوعي.. وكما قال الزعيم المجري يونش كادار«لا اشتراكية بدون الاتحاد السوفياتي لكن غني عن القول أن الأسرة الاشتراكية مارست دورا هاما في السياسة الدولية في زمن الحرب وزمن السلم لا يمكن نكرانه.

كان من أهم نتائج الحرب العالمية الثانية تشكل ميزان جديد للقوى في أوروبا وفي العالم. وكانت دول «المنظومة الاشتراكية» هي الحصيلة التي خرج بها الاتحاد السوفياتي من هذه الحرب. وبقوة نفوذه داخل هذه الدول شكلت منظومة البلدان الاشتراكية كفة الميزان في أوروبا بعد أن لاقت الفاشية والنازية حتفهما بسبب الهزيمة التي لحقت بهما في الحرب. أقام الاتحاد السوفياتي حكومات وأنظمة مواليه له في ألمانيا الديمقراطية،

بولونيا، وتشيكوسلوفاكيا، والمجر، وبلغاريا، ورومانيا. أما يوغسلافيا فقد اختطت لنفسها طريق تطور خاص بها حافظت فيه على استقلاليتها عن قرار موسكو، واختطت طريق عدم الانحياز بين المعسكرين وذلك بعد أن قام «جوزيف ستالين» بفصلها من «الكونفورم» في عام ١٩٤٨م. اما البانيا فقد اختارت طريقها نحو الصين.

اما اليمن الديمقراطية، فقد صنفت ضمن مجموعة بلدان «التوجه الاشتراكي» وكانت هذه العلاقات قد تحسنت بشكل تدريجي على مدى عشرين عاماً مع موسكو وبقية بلدان أوربا الشرقية. وكان «الكرملين» والعلاقة بقادته هو «ترمومتر» العلاقة ببقية الدول الأخرى التابعة له. فحين تكون العلاقات جيدة مع موسكو تكون تلقائياً جيدة مع بقية العواصم. وحين يوقع اتفاق أو بروتوكول في موسكو تفتح الأبواب أمام بروتوكولات واتفاقات مماثلة في صوفيا وبودابست وبرلين وغيرها. وهكذا فإن اليمن الديمقراطية حين وقعت في عام ١٩٧٩م «اتفاقية الصداقة والتعاون» مع الاتحاد السوفياتي، توافد بعض قادة البلدان الاشتراكية إلى عدن لتوقيع اتفاقيات مماثلة، وعندما منحني السوفيات وسام الصداقة مع الشعوب عام ١٩٧٩م سارعت البلدان الاشتراكية كلها تقريباً إلى منحي أوسمتها من الدرجة الأولى في عام ١٩٧٩م.

في نوفمبر عام ١٩٧٥م زار عدن رئيس المجر الشعبية «بالو شونسي»، وزارها مرة أخرى في سبتمبر عام ١٩٨٠م وفي أكتوبر عام ١٩٧٨م زارها الرئيس البلغاري «تيودور جيفكوف»، بينما قام رئيس ألمانيا الديمقراطية «ايريش هونيكر» بزيارتها في نوفمبر عام ١٩٧٩م، وفي سبتمبر ١٩٨١م زارها الرئيس الشيكوسلوفاكي «هوساك «. وقام رؤساء وزراء من هذه الدول بزيارة اليمن الديمقراطية في أوقات مختلفة. وكانت المساعدات التي تقدمها لنا موسكو وبقية هذه المجموعة تزيد من فرص تطور اقتصادنا الذي كان يعاني اختناقات مزمنة.

بودابست

في إحدى زياراتي إلى «بودابست» عاصمة المجر في ١١ يوليو عام ١٩٧٧م، وكانت

زيارة مفاجئة من غير إعداد مسبق أو بروتوكول متفق عليه كما جرت العادة بين الدول، فوجئ المسؤولون المجريون بوجود رئيس الوزراء ووزير دفاع اليمن الديمقراطية في بلادهم. بعد أن نقلتني طائرة خاصة إلى بودابست من الأجواء أبلغناهم بانني سأهبط في مطار بودابست، كان في استقبالنا نائب رئيس الوزراء الذي نقلنا بسيارته الخاصة إلى احد دور الضيافة في بودابست. بعد الترحيب وكلمات المجاملة سألني ماذا تقترحون بشأن إقامتكم وزيارتكم الودية لبلادنا، فأجبته أنني جئت للراحة فقط، وسألوني ما هو برنامج الزيارة؟ قلت لهم النوم والقراءة والسباحة.

كنت في الفترة الأخيرة، قد تعرضت لإرهاق شديد. فقررت قضاء فترة من الراحة والاستجمام والتأمل بعيداً عن مسؤوليات الحكم والعمل الشاق، والإجهاد الذهني والجسدي. فليس أصعب من حياة المسؤول في العالم الثالث خاصة في بلد مثل اليمن، حيث عليه أن يباشر الكثير من الأمور بنفسه ولا يتركها لغيره.

كنت فعلاً أحتاج إلى الراحة والى مناخ جديد يعينني على أداء مهامي، لكن تصرفي أثار دهشة المجريين الذين لم يكونوا يتوقعون هذه الزيارة. ولم يستردوا دهشتهم إلا بعد أن شرحت لهم سبب وجودي في بلادهم الجميلة، حينها فقط زال توترهم وارتباكهم وأصروا على استضافتي..

ووفروا لي منزلاً جميلاً على ضفاف بحيرة «بلاتون»، التي يعتز المجريون بها كثيراً. تزول دهشتك عندما تعرف سبب كل هذا الحب لبحيرة، وتغفر لهم أنهم سموها «البحر المجري» لأن المجر لا تقع على شاطئ أي بحر فقد حرمتها الجغرافيا هذه الميزة الهامة، لكن الطبيعة مقابل هذا الحرمان حبتها الجمال الذي يأخذ بشغاف القلب. البحيرة نفسها تقع في منطقة هادئة رائعة، بحيرة ضخمة كأنها بحر مغلق تحيطها الغابات والخضرة، كأنها قطعة من الجنة الموعودة. هدوء وجمال وجو معتدل في ذلك الوقت من العام.. خاصة عندما أتذكر جو عدن الحار الذي تركته ورائي في يوليو. عندما رأيت «بلاتون» هذه البحيرة الجميلة تذكرت كيف حرمتنا الطبيعة سحر الغابات وأهدتنا الجبال الجرداء والصحراء

القاحلة، لكنني تذكرت أيضاً أنها لم تنسَ أن تهدينا معها شفافية البحر الذي لولاه لم تكن لعدن بهجتها. وللعديد من مدننا الواقعة على البحر.

كان يرافقني في رحلتي هذه صديقي عبد العزيز عبد الولي، إنه فنان على هيئة سياسي، ذكي، مرح، لبق، يتندر ويضحك وهو قادر على الضحك حتى في أصعب الظروف السياسية، له ملامح طيبة وهو إنسان بكل ما في الكلمة من معنى. ساحر الكلمات والبسمات والبهجة والذكاء..

أراد المجريون أن يبالغوا في تكريمنا فلم يكتفوا بتوفير الدار الجميلة على ضفاف هذه البحيرة الساحرة، بل أصروا على تنظيم برنامج سياحي وترفيهي لنا. شكرت أصدقائي المجريين، واعتذرت عن تنفيذ أي برنامج حتى لو كان ترفيهياً. كنت أحتاج إلى الراحة فعلاً، وإلى النوم العميق قبل كل شيء تعويضاً عن ليالي السهر الطويل خلف طاولتي البنية اللون، الموضوعة في صدر غرفة فسيحة على شكل حدوة حصان.. خلف هذه الطاولة، الواقعة في الغرفة الأخيرة المواجهة للجبل الذي يفصل بين سكرتارية مجلس الوزراء وخليج (رامبو) وشاطئ «جولد مور» قضيت أعز أيام شبابي أتطلع بعيداً وأرسم مع رفاقي المستقبل الذي نحلم به ونتمناه لليمن والشعب اليمني، منكباً على ملفات وأوراق وخطط وبرامج عن كيفية نقل اليمن الديمقراطية من واقعه المرير.. وأمام كل ورقة وكل حالة، تصورات واجتهادات عن كيف يكون المستقبل وكيف ننتقل ببلدنا وشعبنا إلى مصاف العصر.. كان ذلك من نوع الواجب تجاه الشعب الذي كنت أكبر فيه صبره وتفانيه وتضحياته..وأتذكر انني كنت اسهر حتى الصباح وانتقل من المكتب إلى شاطئ البحر واسبح لمدة ساعة في الصباح واحياناً أسبح قبل مغيب الشمس كل ما سمحت لي ظروف العمل وكانت هذه متعتي المفضلة وراحتي النفسية فانا اغسل كل همومي في بحر عدن الدافئ صيفاً وشتاءً ولا أكاد انقطع يوماً عن السباحة طوال أيام السنة.



خليج رامبو، نسبة الى الشاعر الفرنسي رامبو
وكان المنزل الذي أسكن فيه يطل على الخليج وهو نفس المنزل الذي كان يسكنه قائد القوات الجوية البريطانية في الشرق الأوسط

خلال أسبوعين من الراحة في أحضان الطبيعة الساحرة على حافة البحيرة الشفافة، استعدت نشاطي، وصرت قادراً على الضحك والابتسام، ومستعداً للسفر والعودة إلى بلادي لاستئناف عملي من جديد. كان علي أن أقوم بواجب الشكر لمضيفيّ على كرمهم وحسن استضافتهم لي في بلادهم الجميلة، لكن الأصدقاء المجريين لم يوافقوا على ذهابي أو عودتي إلى بلادي وترك المجر هكذا كما دخلتها كسائح. واقترحوا أن يرتبوا لي لقاء مع الرئيس «بال لوشينسي». مرة أخرى اعتذرت لم يكن لدي قضايا هامة تستدعي مني مناقشتها مع الرجل خاصة أنني لم أكن في مهمة رسمية، فلم أشأ أن أضيع على الرجل وقته، أبدد وقته الثمين في تبادل كلمات المجاملات، عندها أصر رئيس الوزراء في المجر «جيورجي لا زار» على إقامة حفل عشاء على شرفي، هذه المرة لم أستطع أن أرفض أو أعتذر بعد أن

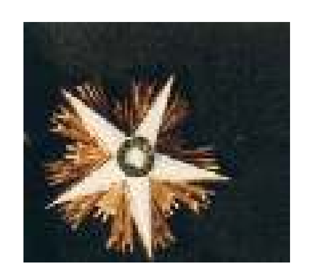
تكررت اعتذاراتي كثيراً فقبلت دعوته..

في مساء يوم ٢٦ يوليو أقيمت المأدبة، وجلسنا حول الطاولة «ندردش» ونتبادل الأحاديث الودية، واختلطت لهجتهم المجرية بلهجتنا اليمنية. وفي إحدى هذه الأحاديث المشتركة تحدث مضيفونا المجريون عن المفاجأة والارتباك اللذين سببته لهم زيارتي المفاجئة التي لم تتقيد بأصول البروتوكول. تذكروا أن زيارتي ليس لها مثيل في تاريخ دولتهم سوى حادثة واحدة مشابهة لها حين فوجئوا ذات يوم بالجنرال الفيتنامي الأسطورة «جياب» في بودابست قادماً للراحة والاستجمام مثلي تماماً من غير علم مسبق وقالوا لي إنهم مندهشون لهذه المصادفة الغريبة!

الحقيقة أنني لم أدهش لهذا التوافق.. فبعض قادة البلدان التي تشبه ظروفها ظروف فيتنام واليمن قلما يجدون الوقت الكافي للراحة والنوم الهادئ، ناهيك عن البحث عن سبل الرفاهية التي تعد في ظروف هذه البلدان ترفاً غير جائز ولا حتى مقدوراً عليه.. بل إن ذلك كان عندنا في يوم من الأيام عرضة للنقد والتشهير رغم أن الراحة والإجازة حق طبيعي وإنساني..

بعد انتهاء الزيارة عدت إلى عدن عبر موسكو.

وفي سبتمبر عام ١٩٨٠م قام الرئيس المجري «بالو لوشينسي» بزيارة رسمية ودية لليمن الديمقراطية. كانت هذه هي زيارته الثانية إلى عدن التي كان زارها لأول مرة في عام ١٩٧٥م. وبينما ظل هو رئيساً لبلاده فإن اليمن الديمقراطية التي عانت كثيراً عدم الاستقرار السياسي والصراعات على السلطة شهدت خلال هذه السنوات الخمس بين الزيارتين تغيير ثلاثة رؤساء دولة في الجنوب وثلاثة في الشمال! كانت مواقفنا ومشاعرنا مشتركة، لدينا قضايا وهموم مشتركة أيضاً تحدثنا فيها خلال الزيارة التي كانت طيبة وإيجابية، وجرى حوارنا في جو من أواصر الصداقة والتعاطف الذي كان المجريون يبدونه نحو نظامنا في اليمن الديمقراطية، ونحن بالمقابل كنا نعاملهم بالقدر ذاته من الود والاحترام، وكان ذلك يدفعنا إلى فتح الأبواب لإقامة علاقات أكثر عمقا وصداقة.. علاقة تقوم على الاحترام والثقة.



ألمانيا الديمقراطية

اكتشفت خلال الزيارات العديدة التي قمت بها إلى برلين عاصمة ألمانيا الديمقراطية أن لديهم مشاعر ودية مماثلة تجاه اليمن الديمقراطية. وأنهم كانوا ينظرون إلينا بتقدير خاص، لأننا كنا من أوائل الدول العربية التي اعترفت بهم في وقت كانت فيه ألمانيا الديمقراطية تعاني عقدة عدم اعتراف العالم بها.. ولا يدرك هذا الإحساس الخاص إلا من يعاني العزلة.

شهدت العلاقات بيننا ازدهاراً ملحوظاً، وكانت ألمانيا الديمقراطية تقدم الدعم لنا في مجالات عديدة، وبدرجة أساسية فقد استفدنا من خبرتهم في مجال الأمن والشرطة والبعثات التعليمية. زرت «برلين» لأول مرة في يناير عام ١٩٧٨م بدعوة من نظيري رئيس الوزراء «فيلي شتوف» والتقيت السكرتير العام ورئيس الدولة «أريش هونيكر»، كما زرت بوابة (براندينبورغ) التي بنيت مابين عام ١٧٨٨ و١٧٩١ والتي هي الآن امتداد لسور برلين الذي تم إنشاؤه في أغسطس ١٩٦١م.



الرئيس علي ناصر محمد يقف على سور برلين
الحد الفاصل بين برلين الشرقية والغربية عام ١٩٨٤م وقد انهار الجدار عام ١٩٨٩م
بعد انهيار الأنظمة الاشتراكية

عانى الألمان تقسيم مدينتهم برلين إلى قسمين، غربية وشرقية، وقد حدثني المرشد السياحي أن الجدار يبلغ ارتفاعه اثني عشر قدماً وسمكه أربعة أقدام ويتألف من مادة كونكريتية شديدة الصلابة ويبلغ طوله سبعة أميال ونصف الميل استغرق بناؤه سنة كاملة وكان السبب في أقامته هو نزوح الألمان من برلين الشرقية إلى الغربية حيث بلغ عدد الذين انتقلوا ٢٠٠٠ شخص في الأسبوع قبل بناء الجدار بيومين وصل عدد المهاجرين غير الشرعيين إلى ١٥٠٠ شخص في اليوم الواحد وهذا الرقم يعني استحالة إقامة دولة تستنزف بشرياً على هذا النحو، خاصة أن برلين الشرقية كانت عاصمة لجمهورية ألمانيا الديمقراطية، واستمر الألمان خلال الأيام الأولى من بناء الجدار بالانتقال من شرقي برلين إلى غربيها قبل أن يتم إنشاء ما أسماه الغرب في فترة الحرب الباردة بـ (قطاع الموت) حيث وُضِعَ حد لمحاولات الهروب الكثيرة التي كانت تجري عبر هذا الجدار بتشجيع من الدول الغربية. وكان الرئيس الأميركي السابق جون كنيدي قال في خطابه قبل ثلاثة أسابيع من إقامة الجدار أن الولايات المتحدة ستستمر في الاحتفاظ بموقعها في برلين الغربية، ولم يشر بوضوح إلى ضمان معبر بين الشرق والغرب، بل إن كنيدي عبّر لخروتشيف عن أمله في أن يكون إغلاق الحدود هو الحل المعقول. وكان كنيدي يحاجج أحد مساعديه معقباً على المزاعم القائلة بأن الروس يريدون ضم برلين الغربية إلى القطاع الشرقي وأنه لما أمر خروتشيف بإقامة الجدار كان يرمي إلى السيطرة على برلين الغربية؟ إن إقامة الجدار أفضل بكثير من الحرب «ولعل الرئيس الأميركي كان مصيباً، فالجدار كان أفضل من المواجهة.

لا أظن العالم ينسى مشهد الدبابات الأميركية والسوفياتية وهي تتقابل متواجهة عند نقطة تفتيش «تشيك شارلي بوينت « بين برلين الغربية والشرقية في أكتوبر عام ١٩٦١م حينما تأزم الوضع بين الشرق والغرب وأصبح العالم على كف عفريت، فساد الهلع واحتمال نشوب حرب عالمية ثالثة... بعد تسعة وعشرين عاماً من بناء السور واثني عشر عاماً من زيارتنا انهار سور برلين بانهيار النظام الاشتراكي في ألمانيا، وبقي للبرلينيين من ذلك الجدار ذكرى أليمة وخصوصاً إذا ما علمنا أن ١٦٣ رجلاً وامرأة لقوا حتفهم وهم يحاولون اجتيازه، وبسقوطه رقص الطلاب والشباب والمواطنون الألمان على الحطام العظيم لجدار برلين هاتفين بوحدة ألمانيا التي عانت من الحروب والصراع والتقسيم.

في شهر نوفمبر ١٩٧٩م قام «ايريش هونيكر» بزيارة رسمية وودية إلى عدن. خلالها تم التوقيع على اتفاقية صداقة وتعاون بين البلدين، وقعها عن الجانب اليمني عبد الفتاح إسماعيل الذي أصبح في هذا الوقت الأمين العام للحزب الاشتراكي اليمني ورئيس الدولة، وقلد هونيكر وسام الثورة ١٤ أكتوبر.

وفي نوفمبر ١٩٨٤م والتقيت هونيكر مجدداً، وأجريت معه محادثات تركزت على الوضع المتوتر حينها في البحر الأحمر، وهو موضوع كان يهمنا كثيراً خاصة بعد تفجيرات الألغام البحرية التي تعرضت لها بعض السفن في هذا الممر المائي الدولي الحيوي للملاحة الدولية، وخلال هذه الزيارة منحت وسام النجمة الكبرى للصداقة بين الشعوب

كانت هذه آخر زيارة أقوم بها إلى ألمانيا وآخر لقاء مع الزعيم أريش هونيكر قبل انهيار النظام الاشتراكي في ألمانيا الديمقراطية في السادس من نوفمبر ١٩٨٩ حيث قدم مجلس الوزراء والمكتب السياسي للحزب الاشتراكي الألماني الموحد استقالة جماعية وفي أغسطس عام ١٩٩٠ وافق مجلس الشعب على انضمام جمهورية ألمانيا الشرقية إلى جمهورية ألمانيا الاتحادية ليصبح يوم الثالث من أكتوبر عيد الوحدة الألماني.



وسام النجمة الكبرى للصداقة بين الشعوب - ١٩٨٤م

في اليمن اعلنت الوحدة في مايو من عام ١٩٩٠م، شبه الدكتور محمد جعفر زين في مذكراته تجربتي الوحدة اليمنية والألمانية التي تمت في كل من ألمانيا واليمن بقارب، هو قارب الوحدة، وقال: «تشابهت واختلفت مكونات تصميمه داخلياً وخارجياً في كلا البلدين. فقارب الوحدة الألمانية قد شارك في تصميمه الحلفاء الذين هزموا ألمانيا في الحرب العالمية الثانية وذلك أثناء المباحثات المسماة ٢+٤ وهو أمر راجع إلى أن ألمانيا كانت قبل الحرب العالمية الثانية دولة واحدة تمت تجزئتها بعد هذه الحرب، أما التجزئة في اليمن ما ترتب عليها من نشوء للنظامين الإمامي في الشمال والسلاطيني ثم الاستعمار في الجنوب الأمر الذي أدى بعد التخلص من هذين النظامين إلى نشوء دولتين مستقلتين ذاتي سيادة في اليمن»،

أشار الدكتور زين إلى أن التغلب على التجزئة في اليمن كان من حيث الجوهر، شأناً يمنياً، بينما التغلب على هذه التجزئة في ألمانيا كان شأناً دولياً، وذلك برغم تشابه الظروف الدولية التي تمت أثناءها الوحدتان الألمانية واليمنية، وترتب على اختلاف التصميم لـ«قارب الوحدة» في البلدين اختلاف الشكل الذي تمت به هذه الوحدة التي اتخذت في ألمانيا شكل الضم للشطر الشرقي في ألمانيا، ج. أ. د، لدولة ألمانيا الاتحادية بعد انهيار الاتحاد السوفياتي والمنظومة الاشتراكية، وفي اليمن شكل التوحيد لدولتين في دولة واحدة جديدة هي الجمهورية اليمنية، وقد نجم عن ذلك الشكل الصعوبات التي تواجهها عملية التوحيد والدمج لأجهزة الدولتين اليمنيتين في جهاز دولة واحدة، وقد كنت متفائلاً آنذاك بأن المصممين لقارب الوحدة اليمنية سوف يعملون على توجيه هذا القارب إلى شاطئ الأمان»، لكن نشوب الحرب في صيف عام ١٩٩٤م بين شركاء الوحدة وما نتج عنها من نتائج تدميرية للوحدة اليمنية دل على عكس ذلك.

صوفيا.. زيارة واحدة لا تكفي

زيارة واحدة إلى بلغاريا لا تكفي، فعاصمتها صوفيا الهاجعة في حضن الغابات شريحة من الجنة الجميلة، باذخة الخضرة والجمال، ولهذا ربما أطلقوا عليها حديقة أوروبا، فالغابة

في هذه البلاد واسعة ورحبة كأنها تضم كل ما في الكون من الخضرة من البداية إلى النهاية. وقد حدثني رئيس الوزراء البلغاري عن صوفيا وبلغاريا مازحاً ومعجباً أيضاً قائلاً: إن الله عندما وزع الأرض على الشعوب والدول اختار لبلغاريا ما هو اجمل من بحار وأنهار وجبال وغابات وسهول ووديان خضراء. فكل شيء فيها جميل وهم يتباهون ببلدهم وعاصمتهم الجميلة صوفيا.

حللت في «صوفيا» ضيفا رسمياً لأول مرة في شتاء عام ١٩٧٨م. والتقيت نظيري «ستانكوتودروف»، رئيس مجلس الـوزراء والرئيس «تيودور جيفكوف» وشملت المحادثات التي أجريتها معهما العلاقات الثنائية بين البلدين والقضايا المتعلقة بالمسائل العربية والإقليمية والدولية. وفي النهاية وقعنا على «بروتوكول» للتعاون. واستمتعت بزيارة إلى مدينة «فارنا» الساحلية الجميلة حيث قضيت وقتاً جميلاً بين أحضان الطبيعة هناك. وشاهدت البحر تنبثق منه الغابات الخضراء الكثيفة التي تزخر بألف بهجة وبهجة للبصر، وألف ألف نداء داخلي دافئ.. ولقد لبيت هذا النداء مرات عديدة بعد ذلك كلما وجدت الفرصة سانحة لذلك....كانت زيارتي التالية إلى بلغاريا في إبريل عام ١٩٧٩م، والمرة الثالثة كانت في سبتمبر عام ١٩٨٤م وزيارتي الأخيرة في ديسمبر شتاء عام١٩٨٥م، وكنت أجتمع خلال تلك الزيارات بالرئيس «تيودور جيفكوف» ونقيِم معاً علاقاتنا الثنائية ونستعرض وجهات نظرنا تجاه المستجدات في الوضع العالمي.



بلغاريا جبل البلقان
٢- وسام النجمة المزخرفة بالماس هنغاريا ٢/ ١١/ ١٩٨١
٣- بلغاريا وسام صوفيا تكبر ولا تشيخ

وارسو.. عاصمة حلف وارسو

كانت أولى زياراتي إلى العاصمة البولونية «وارسو» في عام ١٩٧٣م، قمت خلالها بجولة واسعة في المدينة الجميلة التي دمرها الفاشيون الألمان في الحرب العالمية الثانية عن بكرة أبيها بكل قسوة، كأنهم ينتقمون من حجارتها بعد أن افتتحوا حمامات الدم أينما حلت جحافلهم في القارة الأوربية في جولة تطهير عرقي. كانت بولونيا عشية الحرب العالمية الثانية في حلف مع بريطانيا وفرنسا، لكنها سقطت أمام جحافل القوات الألمانية الزاحفة

وآلتها الجهنمية الرهيبة، التي دمرت العاصمة «وارسو» تدميراً كاملاً[1]، ولكن البولنديين أعادوا بناء عاصمتهم التاريخية بعد انتهاء الحرب وهزيمة النازية، وفقا لما كانت عليه قبل تدميرها محافظين على طابعها التاريخي الجميل.. رغم تعرضها للدمار الشديد أثناء الحرب العالمية الثانية، وزوال أكثر من ٨٥ في المائة من مبانيها، إلا أنها تعافت بشكل مذهل من تلك الأضرار الجسيمة التي لحقت بها، وباتت واحده من المدن الحديثة التي تحظى بأهمية وإثارة على الصعيدين الثقافي والتاريخي على حدٍ سواء.



اثار الدمار التي لحقت بالمدينة بعد اجتياح الالمان لها

«التشبث بالحياة» ذلك ما أفهمتني إياه وارسو وأنا أتجول فيها فهي كما يطلقون عليها

(١) أصدر معهد التذكير الوطني البولندي دراسة في أغسطس من عام ٢٠٠٩ تشير إلى أن عدد الضحايا من البولنديين خلال الحرب العالمية الثانية يتراوح ما بين ٦ , ٥ وحتى ٨ , ٥ مليون فرد.

المدينة العنيدة التي تبعث من جديد، واستمع إلى تاريخها الخاص، هذا الإحساس الذي أشعر بأنه حقيقي وليس متخيلاً، الإحساس بعظمة التاريخ، والفعل التاريخي بالرغم من بشاعة ما أرتكبه النازيون على هذه الأرض.. التقيت الرئيس البولوني «ادوارد جيريك» الذي نظر إليّ وقد تولاه العجب، لم أفهم سر نظرته إلا عندما قال مشيراً إلى صغر عمري: - «أليس باكراً عليكم تحمل المسئولية وأنتم في هذه السن؟.. إن الشباب عندنا في سنكم ما زالوا يقضون الكثير من وقتهم في اللهو»!

حينها لم يكن يتجاوز عمري إحدى وثلاثين سنة، كنت أصغر رئيس وزراء في العالم تقريباً. وعندما أوكل إلي أمر رئاسة الحكومة وأنا في هذه السن.

كان علينا أن نجتاز هذا الطريق الوعر بإمكانات قليلة بل شحيحة، ووسط صعوبات وعراقيل هائلة لم تكن تغيب عن بالنا ولا عن بال الرئيس البولوني الذي كنت ضيفه الساعة، ففضل الحديث عن المصاعب الكثيرة التي تواجهها بلاده، والتي سحبت نفسها نتيجة الممارسات الخاطئة على اقتصاد بولونيا خاصة في مجال الزراعة.. فبولونيا تعتبر في الأساس بلداً زراعياً، وبها حركة قوية لملاك الأرض، وكان من ضمن الأخطاء التي ارتكبتها السلطات هناك مصادرة جميع الأراضي بما فيها أراضي الفلاحين المتوسطين، ثم في وقت لاحق عندما أدركوا فداحة ما ارتكبوه تم التراجع عن هذه الخطوة وأعادوا الأرض إلى ملاكها السابقين.. ولم يقتصر الأمر على الزراعة وحدها، فقد رافقت العديد من المشاكل الاقتصاد البولوني وتم بنتيجتها عزل الرئيس «جيريك» وتعيين رئيس جديد تم عزله أيضاً، ثم ظهرت حركة «تضامن» وجاء إلى السلطة الجنرال «ياروزولسكي» لكن الوقت كان قد فات للخروج من عنق الزجاجة، إذ كان النظام الاشتراكي كله ينهار من حول بولندا التي كانت البادئة في إعلان العصيان والثورة بسبب التناقضات الحادة التي عجز النظام عن حلها. وكانت الطبقة العاملة نفسها هذه المرة هي التي حملت معول هدم النظام الاشتراكي الذي حكم باسمها، وبشرت الماركسية التقليدية بحتمية انهيار وتفسخ النظام الرأسمالي، لكن العكس هو الذي حدث، وانتصر النظام الرأسمالي على النظام الاشتراكي.. وبدأت الاحتجاجات من الطبقة العاملة في غدانسك ومنها امتدت إلى بقية المدن البولونية. وقد قاد

فوينسا حركة الاحتجاجات إلى أن سقط النظام في وارسو عام ١٩٩٠م واصبح فاوينسا بعد ذلك رئيساً من عام ١٩٩٠ إلى عام ١٩٩٥م.

أعود بذاكرتي إلى آخر مرة زرت فيها «وارسو» كان ذلك في نهاية عام ١٩٨٤م. كان في استقبالي لحظة وصولي إلى المطار العسكري الجنرال «ياروزولسكي» الذي أنيطت به مهمة إنقاذ بولندا من خطر تضامن نقابات العمال،وبعد المحادثات التي أجريناها، وحفل العشاء الذي أقامه على شرفي تبادلنا حديثاً خاصاً قال فيه «ياروزولسكي»: «إن اليمن الديمقراطية تعدّ الجسر الذي تمر عليه الاشتراكية إلى المنطقة !.. لم أكن أشاركه الأمل، إذ لاحظت أن المشاركة ستكون نوعاً من المجاملة، فالأوضاع التي كانت تمر بها بولونيا، والصعوبات التي كانت تعانيها العديد من البلدان الاشتراكية، والإرهاصات التي بدأت في الاتحاد السوفياتي نفسه، كلها كانت نذيراً بموت الأمل الذي راود الشعوب ذات يوم عن جنة الاشتراكية الموعودة. قررت عدم مسايرة الجنرال في تفاؤله.. بعد ذلك بسنوات لم تطل كانت بولندا نفسها هي الجسر الذي مرت عليه الرأسمالية إلى المعسكر الاشتراكي..!

براغ

علاقات اليمن الديمقراطية بتشيكوسلوفاكيا كانت جيدة، وجرت زيارات متبادلة لقادة البلدين كل إلى بلد الآخر. زرت «براغ» في ١٧ إبريل عام ١٩٧٩م وكان في استقبالي نظيري «لبميرس روجال» رئيس الوزراء. عقدنا جلسة مباحثات في قصر «هردان» استعرضنا فيها العلاقات الثنائية بين البلدين، والأوضاع العربية والإقليمية والدولية....وفي شهر سبتمبر ١٩٨١م استقبلنا الرئيس التشيكوسلوفاكي «جوستاف هوساك» في اليمن الديمقراطية.. وتم التوقيع خلال الزيارة على اتفاقية الصداقة والتعاون بين البلدين، كما تم تقليده وسام الثورة ١٤ أكتوبر.

يوغسلافيا

وفي ما يخص يوغوسلافيا، فإنها بوصفها دولة مؤسسة لحركة عدم الانحياز، اتخذت موقفاً متوازناً من الصراع الدولي بفضل تلك الحركة التي أسستها مع الهند والصين ومصر

وإندونيسيا، ولكنها انهارت وضعفت وبهت دورها بعد موت الزعيم الوطني اليوغوسلافي المارشال جوزيف بروز تيتو الذي كان أول رئيس يزور عدن بعد الاستقلال في يناير من عام ١٩٦٨م، وهو في طريقه إلى الشرق. وقد رافقته في هذه الرحلة زوجته التي التقت اتحاد النساء في عدن. وبعد موت تيتو انهارت يوغوسلافيا وتمزقت الدولة الاتحادية، خصوصاً بعد انهيار الاتحاد السوفياتي في عام ١٩٩١م، ونتيجة لذلك التهمت الحرب الأهلية العرقية ما بقي من إرث نظام المارشال تيتو.



زوجة تيتو في مطار عدن عام ١٩٦٨

ألبانيا وملف الضابط!

كانت ألبانيا بقيادة الزعيم الشيوعي أنور خوجة متحالفة مع الاتحاد السوفياتي، ثم انشقت عنه في عام ١٩٦٠، ومنذ ذلك التاريخ أصبحت سياسة ألبانيا معادية للسوفيات

وحلفائهم من ناحية، وللأميركان وحلفائهم من ناحية أخرى وقد انحازت إلى الصين الشعبية وإلى خط الزعيم الصيني ماو تسي تونغ، ما أدى إلى حصول ألبانيا على مساعدات صينية تقدَّر بمئات الملايين من الدولارات، تقلَّصت بعد وفاة الزعيم الصيني ماو تسي تونغ عام ١٩٧٦ عندما هاجمت ألبانيا السياسات الصينية التي اتهمتها بالانحراف عن خط الزعيم ماو. وبعد ذلك ازدادت عزلتها عن العالم، ولم تكن لليمن الجنوبية علاقات معها بسبب مواقفها المعادية للصين والسوفيات. وأتذكر أنني شاركت في احتفالات ألبانيا بعيدها الوطني في سفارتها بالقاهرة عام ١٩٦٧م، وما لفت نظري حينذاك أن عدداً كبيراً من حركات التحرر قد شاركت في هذا الاحتفال، وتعرفتُ إلى عدد من قياداتها ومن بينهم السيد يوسف بن علوي، مدير مكتب جبهة تحرير ظفار في القاهرة، وغيره من الشخصيات، كالأستاذ محمد سالم باسندوه، الذي كان حينذاك عضواً في مجلس قيادة الثورة وممثلاً لجبهة التحرير، وغير ذلك لم يحصل أي اتصال أو تواصل مع القيادة الألبانية.

ويحضرني في هذا السياق أن المقدم عبد الله صالح، رئيس شعبة الإمداد والتموين في وزارة الدفاع في عدن، كان دائماً يحتفظ بملفات بطلباتنا العسكرية استعداداً لتقديمها إلى أي بلد يعرف أنه عدو للإمبريالية الأميركية!

وذات يوم جاءني إلى مكتبي في وزارة الدفاع، وبعد أن أدى التحية العسكرية جلس أمامي، ولاحظت أنه يحمل ملفاً وضعه فوق ركبتيه، وبدأ الحديث قائلاً:

يا سيدي، سمعت مساء الخميس إذاعة من ألبانيا معادية للإمبريالية، وأشتي أسألك يا سيدي فين هذي البلد، وهل لنا علاقة بها، وما هي إمكاناتها الاقتصادية والعسكرية؟». وأخبرني أنه أعدّ ملفاً بالطلبات والمساعدات التي تلزمنا من ألبانيا، وما دامت معادية للإمبريالية، فأنا على يقين أنها سوف تساعدنا حتماً، طالما نحن أيضاً معادون للإمبريالية»، وختم كلامه قائلاً: «سندمر الإمبريالية.. ونشيد الاشتراكية بإذن الله!».

كان الضابط الطيب متأثراً على ما يبدو بتلك الشعارات والهتافات التي كانت تملأ كل مكان في الشوارع والطرقات والمطارات والمعسكرات والسيارات في عدن بمناسبة مهرجان الشباب العالمي في كوبا عام ١٩٧٢م، والتي تهاجم الإمبريالية، حيث كان الكل

يغني: (يا شباب العالم ثوروا... يا عمال يا فلاحين دمروا، دمروا الإمبريالية... شيدوا، شيدوا الاشتراكية!).

أخذت أتأمل ذلك الضابط الطيب، والشريف، وهو يضع ملفه على ركبتيه، وينتظر مني إذناً بالموافقة على السفر إلى ألبانيا لتقديم الملف الذي يحمله إلى المسؤولين هناك، والذي يحتوي على قائمة طلبات كثيرة، بدءاً بالمسدس والملابس العسكرية، وانتهاءً بالمدافع والدبابـات. قال لي إنه سهر يومي الجمعة والسبت مع بعض ضباطه لإعداده!

يبدو أنني خيبت أمله وأنا أشرح له أن ألبانيا دولة فقيرة، وهي معادية للاتحاد السوفياتي، وليس لنا معها علاقات، وحتى إذا أقمنا علاقة معها فإنها لا تستطيع مساعدتنا. نظر الضابط نحوي وهو في حيرة من أمره، ولم يفهم كيف يكون السوفيات والألبان كلاهما ضد الإمبريالية، ومع ذلك يتبادلان العداء إلى هذه الدرجة. قلت له: «تماماً مثل الصين والروس، كلاهما ضد الإمبريالية، ومع ذلك يتبادلان العداء، كل يكره الآخر بطريقته، وحسب أفكاره ومصالحه».



المقدم عبد الله صالح رئيس شعبة الإمداد والتموين على يمين الصورة

قال الضابط بطيبة:

«يا سيدي، سدوا بينهم (أي وفقوا بينهم) من شان يساعدونا».

أفهمته أن ذلك من سابع المستحيلات.. فقال: «أعوذ بالله منهم، ومن عداوتهم!!».

قال مغلوباً على أمره وهو ينظر نحوي: «والملف يا سيدي؟!».

قلت له ضاحكاً: «خليه عندك للوقت المناسب... يمكن تلاقي دولة أخرى معادية للإمبريالية ونسلمها الملف»!

شعرت بأن ردي قد صدمه. فقد طوى الملف بيده اليسرى، ونهض وأدى التحية العسكرية وانصرف. وقد لفت انتباهي أنه كان يلبس بذلة عسكرية خضراء من التي أهدتها الصين الشعبية إلينا بعد زيارة الرئيس سالم ربيع علي لبكين عام ١٩٧٠م.

أردت باختصار، من خلال إيراد هذه الواقعة الحقيقية، أن أُبين أن سياستنا وعلاقاتنا

الخارجية كانت تتأثر بطريقة أو أخرى بالصراع الصيني السوفياتي، وبالحرب الباردة والصراع السوفياتي الأميركي.

الزيارة الأولى لبكين

الصين مارد نائم فدعوه نائماً لإنه إذا استيقظ هزّ العالم

في أبريل ١٩٧٨م قمت بأول زيارة للصين الشعبية، وكنت حينئذ رئيساً للوزراء. وقد زارها في البداية وفد برئاسة سيف الضالعي وزير الخارجية في شهر سبتمبر ١٩٦٨ [١]، وقد تقدم الوفد بعدد من المشاريع كشقّ الطرقات وإنشاء ميناء المكلا واستصلاح عشرة آلاف فدان وبناء مستشفيات بتجهيزاتها وقرض نقدي بعشرة ملايين جنيه إسترليني أو بالفضة، وكان الطلب الأخير غير واقعي، لأنهم لا يقدمون المال، لكنهم يمكن أن يقدموا القروض والمساعدات لتنفيذ المشاريع، فلهذا لم يستجيبوا لتنفيذ أهم المشاريع التي طرحت في هذه الزيارة. استجاب الصينيون لاحقاً لتنفيذ مشروع طريق (امعين – المكلا) بعد الزيارة التي قام بها الرئيس سالم ربيع علي في عام ١٩٧٠م، وزارها مرة أخرى عام ١٩٧٤م. كان الرئيس سالم ربيع علي قد التقى الزعيم الصيني ماو تسي تونغ، وعاد من زيارته تلك متأثراً بالتجربة الصينية، فحاول تطبيقها في اليمن الديمقراطية، وخصوصاً في ما يتعلق بتنظيم الانتفاضات الفلاحية وانتفاضات الصيادين، واستوحى بعض شعارات الثورة الثقافية والكتابة على الجدران، كما حدث في الأيام السبعة المشار إليها في غير هذا المكان من هذه المذكرات، وحاول إلغاء الرتب العسكرية. وكان سالمين، بوصفه قائداً شعبياً، متأثراً بالصينيين، وبالمساعدات غير المشروطة التي يقدمونها لبلادنا، وبتواضعهم.

رغم شعور الرئيس ربيع أن الصين تخلت عن حلفائها في حركات التحرر، وخصوصاً الجبهة الشعبية لتحرير عُمان، وأنها انحازت إلى الأنظمة المحافظة في المنطقة، لكنه وهو الذي تأثر بالصين وبالزعيم مـاو كان وفياً للزعيم عند موته عندما أصرّ على أن تطلق السفن

(١) ضم الوفد: فيصل عبد اللطيف الشعبي، الرائد الركن محمد صالح الوحيشي، السيد علي عنتر، السيد فرج بن غانم، السيد نديم حسن علي.

في ميناء عدن أبواقها مدة دقيقة واحدة، إضافة إلى مطالبته بإيقاف حركة المرور والسير مدة دقيقة أيضاً حداداً على صديقه الزعيم ماو الذي يُعَدّ من أبرز القادة في التاريخ الحديث، حيث كانت له بصماته في سجل القوى الكبرى والمسيرة الكبرى، وحكم نحو مليار شخص في بلد تقدر مساحته بنحو تسعة ملايين كيلومتر مربع مدة تزيد على خمسة وعشرين عاماً. ولكن في الصين نفسها كانت تجري تصفية ذيول وتأثيرات الثورة الثقافية بعد القضاء على عصابة الأربعة!

حرصت على أن تجري الزيارة للصين في موعدها المحدد في ١٩ أبريل ١٩٧٨م، واستأجرنا طائرة إثيوبية للقيام بهذه الرحلة، إذ يمتاز الطيران الإثيوبي بخبرة ممتازة. ولم نكن نملك حتى ذلك الوقت طائرة رئاسية، كذلك فإن شركة الطيران الوطنية (اليمدا) لم تكن تملك إلا طائرة واحدة من نوع البوينغ (٧٠٧)، وكانت خلال رحلاتها بين مطار عدن وعواصم العالم تتعرض للعطل المستمر، وأحياناً لا تتمكن من إنزال عجلاتها، وكانت أعظم فرحة للركاب عندما يشعرون بأن الطائرة تمكنت من إنزال عجلاتها، فيصفقون ويهللون حتى قبل أن تهبط بسلام على مدرجات المطار!

اطلب القرض ولو في الصين!

المحطة الأولى التي هبطت فيها طائرتنا الإثيوبية المستأجرة كانت مطار كراتشي في الباكستان، حيث تزودت بالوقود، واستأنفت رحلتها الطويلة إلى بكين فوق جبال الهملايا، وأفغانستان، والأراضي الصينية الشاسعة، واستغرقت الرحلة من عدن إلى بكين نحو ١٢ ساعة.

ما إن دخلنا أراضي شبه القارة الهندية حتى كانت الطائرة تحلق فوق جبال الهملايا، وقممها مكسوة بالثلوج البيضاء، حيث تظل هكذا (كما علمت) طوال العام. وكانت الطائرة البوينغ ٧٠٧ تميل بجناحيها يميناً ويساراً لنشاهد هذه المناظر التي هي من أجمل ما شاهدت في حياتي. توزع أعضاء الوفد على نوافذ الطائرة عندما أعلن أننا نمرّ فوق جبال الهملايا لمشاهدتها. الرؤية من كابينة الطائرة رائعة، بل مدهشة. وتفكرت في المعاني العظيمة

للخلق، وفي الخالق العظيم الذي أبدع كل ذلك. وقد شاهدنا قمة إفرست، أعلى قمة على سطح الأرض، حيث ترتفع إلى ٨٤٨٨ متراً عن سطح البحر.

كنا في شوق لرؤية بلاد الصين، التي تُعَدّ من أعرق حضارات العالم وأقدمها، وخصوصاً رؤية سور الصين العظيم. ارتبط شعبنا في اليمن شمالاً وجنوباً بعلاقات صداقة عميقة بالشعب الصيني، كانت شواهدها ماثلة في العديد من المشاريع التي أقامها الصينيون في اليمن منذ عهد حكم بيت آل حميد الدين، وأهمها طريق الحديدة صنعاء في الشمال، وطريق عدن المكلا في الجنوب.

ذكّرنا أحد أعضاء الوفد، ونحن نحلّق على ارتفاع ٣١ ألف قدم بالحديث الذي يقول: «اطلبوا العلم ولو في الصين» قبل أربعة عشر قرناً حين كانت الصين أبعد ما تكون عن الجزيرة العربية، ولم تكن الطائرة التي قرّبت المسافات إلى هذا الحد، قد اختُرِعَت إلا بعد ذلك بقرون. وقد علّق الدكتور عبد الله بكير وزير الصحة وعضو الوفد بطريقته الساخرة كمعظم أبناء الوهط (في محافظة لحج)، قائلاً: «اطلب القرض ولو في الصين!». وها هي بلاد الصين التي نشاهدها لأول مرة والتي قال عنها نابليون: «الصين مارد نائم فدعوه نائماً إنه إذا استيقظ هزّ العالم». والصين اليوم قد استيقظت لبناء نفسها، وبدأت أولى خطواتها لتصبح مارداً يخشاه الجميع، وخصوصاً الولايات المتحدة الأميركية التي ترى فيها منافساً خطيراً في زعامة العالم.

وبينما كنا نتحدث هبطت بنا الطائرة على أرض مطار بكين، ورأيت من فوق سلمها آلافاً من الصينيين الذين لا تستطيع أن تميز أو تلمس الفارق بين ملامحهم، يلوّحون بأعلام الصين الحمراء واليمن الديمقراطية، وهم يحيّون أصدقاءهم القادمين من جنوب الجزيرة العربية. كان في مقدمة مستقبلينا الأمين العام للحزب الشيوعي الصيني (هوا كيوا فينغ) الذي كان يبلغ من العمر آنذاك ٥٨ عاماً، والذي انتخب في عام ١٩٧٦م أميناً عاماً ورئيساً للوزراء، وهو من مواليد شنغهاي. تذكرت ما قاله لي السفير الصيني في عدن قبل سفري: «إن زعيمنا الجديد شاب، وسيواصل مسيرة الزعيم ماو لعشرين سنة قادمة»! ولست أدري لماذا حدد سنوات حكمه بهذه المدة! ربما لكونه شاباً... وإلى جانبه كان يقف نائب رئيس

الدولة ليتشان ثيان الذي أصبح فيما بعد رئيساً للصين الشعبية. وكان بعض مستقبلينا يصفق أثناء استقبال القادة الصينيين لنا، والبعض الآخر يلوِّح بالأعلام بصورة جميلة ورائعة وسط أجواء ربيعية بديعة. وشاهدت على جانبي الطريق ونحن نتجه إلى قصر الضيافة، الزهور وهي تتفتح، والفلاحين وهم يزرعون ويجرون المحاريث على الثيران، والخيول، وأحياناً على ظهور البشر، وذكرني هذا المنظر بالفلاحين في دثينه (بمحافظة أبين)، وتكررت رؤية هذا المشهد عندما ذهبت لزيارة سور الصين العظيم، ذلك الأثر والرمز الخالد الذي يدل على قوة الشعب الصيني وإرادته ودفاعه عن الأرض والوطن وحبه لهما.

في الطريق، كان أكثر جدران العاصمة لا يزال يحمل آثار الشعارات من بقايا الثورة الثقافية الكبرى (أو كما يسميها البعض الثورة الثقافية الفوضوية) التي بدأت عام ١٩٦٦م والتي لم تهدأ إلا بعد عدة سنين، حيث انتهت بعد ذلك عام ١٩٧٩ تأثيرات الثورة وزعيمها ماوتسي تونغ ونفوذها، بعد القضاء على (عصابة الأربعة) بقيادة زوجة الزعيم ماو (شيانغ شين) التي أُدخلت السجن بعد وفاة زوجها في سبتمبر عام ١٩٧٦م. ولم تشفع لها علاقتها بالزعيم ماو المسجّى ومحنّطاً في تابوته الذي تحول إلى مزار للصينيين يأتون لزيارته وتوديعه بوصفه قائد المسيرة الكبرى.

وقد عرفت من مرافقي كيف أن الثورة الثقافية كانت وبالاً على المجتمع الصيني، حيث ترك الملايين أعمالهم الإنتاجية، ومدارسهم جانباً، وانخرطوا في المسيرات والتظاهرات، ما أثر في الإنتاج وانعكس سلباً على حياتهم وحياة البلد. والأدهى من ذلك أن الطلاب والتلاميذ في الجامعات والمدارس هم الذين كانوا يقومون (بتثوير) أساتذتهم ومدرسيهم!!

وقد حدثني أحد المسؤولين الصينيين الذين التقيتهم، أنهم يشعرون بالمرارة عندما يروون أن المرأة الصينية، وهي التي تقوم بتربية «دودة القز» وتغزل خيوط الحرير، وتصنع منه ملابس جميلة، لا يمكنها أن تلبسه خارج بيتها، فذلك مظهر من مظاهر البرجوازية، ولذلك فإن النساء مثلهن مثل الرجال يلبسن الزي الأزرق الموحد!

المهم أن الزعيم الجديد «دينغ تسياو بينغ»، رئيس اللجنة العسكرية، أحكم قبضته على الجيش والحزب والشعب، وبدأ يطرح برنامجه حول ما سُمي العصرنة الأربعة لبناء الصين

الجديدة والحديثة والمتطورة والموحدة، متجاوزاً كل السياسات والزعامات الأخرى في الصين، وصنع من بعضهم واجهات لسياساته، وهو قابع في مكتبه يحرك الأحداث والجموع التي تجاوز عددها مليار نسمة، وبهذه العمليات بدأ بصين تحقيق نهضتها.

وأتذكر حين زيارتنا لها أن الشوارع كانت مكتظة بعشرات الآلاف من الدراجات الهوائية وبملابس موحدة، وهي تنتظر أمام الإشارات. أما اليوم فقد غزت سياراتها ومنتجاتها العالم.

لا رجعية... ولا تقدمية!

خلال المباحثات بين وفدي البلدين، تطرقنا بالإضافة إلى علاقات اليمن الديمقراطية بالصين الشعبية إلى الأوضاع في المنطقة العربية. كان رأي الجانب الصيني في هذه المسألة واضحاً ومحدداً، حيث قالوا إن الدول العربية اليوم جميعها تعيش معركتها الرئيسة مع إسرائيل، وليس هناك ما يمكن تسميته دولاً عربية (رجعية) وأخرى (تقدمية)، وإن هذه المصطلحات خرجت بها التحريفية السوفياتية. وفي زيارة سيف الضالعي وفيصل عبد اللطيف وعلي عنتر نصح نائب الرئيس بعدم استفزاز دول المنطقة بمثل هذه المصطلحات وردّ عليه علي عنتر بأننا سنحارب القوى الرجعية والإمبريالية في اليمن وخارجها، فنظر نحوه نائب الرئيس وقال: يبدو أنك أكثر ثورية منّا، وقال: عليكم أن تحذروا السلاطين الجدد.

خلال الإعداد للبيان المشترك حول الزيارة اختلفنا معهم، فقد كان الصينيون يغلّبون صراعهم مع الاتحاد السوفياتي، وذلك مما كان يؤثر في علاقاتهم ببلادنا وبالعديد من البلدان في العالم الثالث. وانطلاقاً من موقفي هذا، قلت للرفاق الصينيين: «دعونا نترك ما هو قائم من خلاف بينكم وبين الآخرين جانباً، ونهتم بتطوير علاقاتنا الثنائية. وللأمانة، فإن الصينيين كانوا مرنين ومتجاوبين جداً، وكان الاتفاق على كثير من الأمور التي كانت مثار البحث، وقدموا إلينا قرضاً بمبلغ ٣١ مليون يوان لتنفيذ مشروع طريق المكلا – سيحوت، وهو واحد من أهم الطرق في الجمهورية، ويُعَدّ استكمالاً لطريق امعين – المكلا الذي سبق أن نفذته الصين، وهو يربط أكبر عدد من محافظات البلاد، حتى أصبح شرياناً اقتصادياً مهماً.



الرئيس سالم ربيع علي وإلى يساره صلاح ناصر وإلى يمينه هادي ناصر
أثناء شق طريق عدن المكلا

بالقدر الذي حققت زيارتي هذه للصين الشعبية تعزيز أواصر العلاقة والصداقة بين حكومتَي البلدين والشعبين الصديقين، فقد حققت لي في الوقت نفسه أمنية وحلماً شخصياً طالما راودني، هو أن أرى سور الصين العظيم، ذلك الذي قرأت أنه إحدى عجائب الدنيا السبع، وإحدى العجائب القليلة الباقية، كأهرامات مصر. ولقد رأيته أخيراً، وعرفت لماذا استحق هذا الاسم الذي لا يجدر إلا بحضارة عريقة، وشعب عريق مثل الشعب الصيني العظيم.

المحطة الأخيرة، في زيارة الصين كانت مدينة شنغهاي، ثانية كبرى مدن الصين، وأهم مركز صناعي وتجاري فيها، والمدينة الأكثر ازدحاماً في الصين، وهي تضمّ العديد من الجامعات والمعاهد الفنية والتقنية، وهي مشهورة بصناعة الحرير، والمعروف عنها أنها كانت أحد المراكز العالمية للقمار والدعارة والمخدرات، وسكانها معروفون بأنهم طيبون

وناعمون، ويقال إن الزوجة الثانية لزعيم الصين ماو تسي تونغ السيدة «شيانغ شين» من هذه المدينة، وكانت راقصة في إحدى الفرق الفنية فيها!

في بلاد العمّ هوشي منه والجنرال الأسطورة

بعد انتهاء زيارتي للصين، غادرت إلى فيتنام في مايو ١٩٧٨م. كانت فيتنام في السنوات السابقة على كل لسان، وأعطت النموذج في كيف يستطيع شعب فقير أن يُلحق الهزيمة بأقوى وأعتى قوة في العالم. سمعت خلال تلك الزيارة قصصاً كثيرة ومثيرة عن العمليات الحربية التي قادها الثوار الفيتناميون في مواجهة القوات الأميركية لتحرير كامل التراب الفيتنامي وسقوط عاصمة الجنوب «سايغون»، حيث أجبروا الأميركان على الخروج والانسحاب بطريقة مذلّة لقيادتهم وجنودهم وحلفائهم في الجنوب الذين تخلوا عنهم، حتى إن بعض الجنود كانوا يحاولون التعلق بالطائرات العمودية هرباً من النار، وزحف الثوار على كل أحياء المدينة ومعسكراتها وقصورها ودور الضيافة فيها وعلى السفارة الأميركية بعد أن بلغت خسائر الأميركيين أكثر من خمسين ألف جندي ومئات الآلاف من الجرحى[١]، وقد روى لي أحد المسؤولين الفيتناميين: «أنه حين سقطت سايغون عاصمة فيتنام الجنوبية عام ١٩٧٥ بيد الثوار وانهزمت القوات الأميركية، هبطت إحدى المروحيات الأميركية لإجلاء بعض موظفيها من سايغون وحين امتلأت المروحية بالمسؤولين الأميركان حاول أحد الفيتناميين الصعود لكونه كان عميلاً للجيش الأميركي، فما كان من الدبلوماسي الأميركي إلا أن لكمه بقوة ومنعه من الصعود إلى المروحية قائلاً له: (لقد انتهت مهمتك)».

تلك الحرب التحريرية كان يقودها قادة عسكريون وسياسيون يحملون في قلوبهم مبادئ وقيماً، أهمها قضية تحرير كامل تراب الجنوب وتحقيق الوحدة الفيتنامية، وكان على رأسهم وفي مقدمتهم الجنرال فو نغوين جياب، المعروف باسم الجنرال جياب، وتحت

(١) انتهت «الحرب الأميركية» على فيتنام عام ١٩٧٥م، وأدت إلى مقتل أكثر من ثلاثة ملايين فيتنامي ومدني و٢٥٠ ألف فيتنامي جنوبي و٥٨ ألف أميركي.

إمرتهم كانت تنفذ القرارات والعمليات، فعندما يأمرون بالهدنة والحوار ووقف إطلاق النار مع القوات الأميركية، يتوقف المقاتلون، وعندما يأمرون بإطلاق النار ينفذونه دون هوادة أو مماطلة أو خوف من الموت بالعزيمة والإصرار وإرادة القتال التي لا تقهر.

كان الفيتناميون قد هزموا قبل ذلك الفرنسيين الذين سيطروا على فيتنام في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي. واستمرت السيطرة الفرنسية على فيتنام حتى سنوات الحرب العالمية الثانية، حيث احتلتها اليابان. وبعد هزيمة اليابان عام ١٩٤٥م، حاولت فرنسا استعادة سيطرتها مرة أخرى، ولكن «الفِيْتْ منَّه»، وهي منظمة سيطر عليها الشيوعيون بزعامة هوشي مِنَّه[١] تسلمت مقاليد السلطة في الجزء الشمالي من فيتنام، ونشب قتال عنيف بينهم وبين الفرنسيين عام ١٩٤٦م، وانتهت المعارك بهزيمة فرنسا عام ١٩٥٤م في معركة ديان بيان فو[٢]. وانعقد مؤتمر سلام دولي بعد ذلك لإيجاد تسوية سلمية للنزاع بين الطرفين، وقرر المؤتمر الذي عقد في جنيف، في عاصمة سويسرا «برن» تقسيم فيتنام الشمالية إلى قطاعين موقتاً. سيطر الشيوعيون على القطاع الشمالي الذي سُمي فيتنام الشمالية، بينما تسلّم الفيتناميون غير الشيوعيين القطاع الجنوبي الذي أُطلق عليه اسم فيتنام الجنوبية. وفي عام ١٩٥٧م قاد أعضاء «الفِيْتْ منَّه» في فيتنام الجنوبية تمرداً ضد حكومتهم، ثم تلقوا دعماً واضحاً وعلنياً من فيتنام الشمالية اعتباراً من عام ١٩٥٩م.

كان هدف الشيوعيين توحيد البلاد تحت قيادتهم وتطور القتال الدائر في ذلك البلد إلى ما عرف بحرب فيتنام. تلقى الشيوعيون دعماً متواصلاً من الصين والاتحاد السوفياتي السابق وغيرهما من بلدان المعسكر الاشتراكي فيما ساندت الدول غير الشيوعية جمهورية فيتنام الجنوبية. وقد أصبحت الولايات المتحدة الحليف الرئيس لفيتنام الجنوبية، حيث دعمت حكومتها بالمؤن والمعدات العسكرية وبمئات الآلاف من القوات العسكرية. وفي

---

(١) هو من مؤسسي الحزب الشيوعي عام ١٩٢٣، عاش حياة سرية.

(٢) قال الجنرال ديغول واصفاً الشعب الفيتنامي بأنه شعب بطل ويذكرنا بما كنا نصنعه لتحرير فرنسا من الاحتلال النازي في الحرب العالمية الثانية. وأطلق على الجنرال جياب اسم نابليون الأحمر بعد تلك المعركة.

عام ١٩٧٣م، اتفق أطراف النزاع على وقف إطلاق النار، ومن ثَمَّ سحبت الولايات المتحدة آخر دفعة من قواتها من فيتنام. ولكن سرعان ما استأنف الشيوعيون عملياتهم الحربية. وفي أبريل ١٩٧٥م، انتصر الشيوعيون وسيطروا عليها بنحو كامل. وفي عام ١٩٧٦م، تم توحيد القسم الشمالي والقسم الجنوبي لفيتنام لتصبح دولة واحدة هي فيتنام، فخرج الغزاة الأجانب من أرض فيتنام صاغرين ليستعيد الشعب الفيتنامي حريته ووحدته. وكانت أسماء مثل «هو شي منه»، والجنرال الأسطورة «جياب»، و«سايغون» و«الفيتكونغ» تملأ أسماع الدنيا في تلك الأيام، فغدت فيتنام رمزاً عظيماً لكفاح الشعوب من أجل حريتها واستقلالها كما كان الحال في ثورة الجزائر.



صورة تعبر عن اللحظة التي خرج فيها الاميركيون من فيتنام تاركين خلفهم العملاء الفيتناميين الذين خانوا وطنهم



رئيس الوزراء علي ناصر محمد يستقبله فان فان دونغ رئيس وزراء فيتنام عام ١٩٧٨م في هانوي

خلال الزيارة أتيحت لي فرصة الاطلاع على بعض جوانب التجربة الفيتنامية والظروف التي مرت بها، ونضال الشعب الفيتنامي ضد الغزو والاحتلال الأميركي لجنوب فيتنام، ونضاله في سبيل توحيد العملة. وصادف يوم وصولنا تغيير العملة الفيتنامية وتوحيدها. لن أنسى تلك الزيارة، فمنذ هبوط الطائرة بنا خارج هانوي شاهدت مطاراً يفتقد عناصر المطارات الدولية ومكوناتها بسبب الفقر والحرب، واستقبلنا في دار الرئاسة التي كانت مخصصة للاجتماعات كافة. فاللقاء مع رئيس الوزراء في اليوم الأول كان فيها، وفي اليوم الثاني نُظِّم لنا لقاء مع رئيس الدولة في المبنى نفسه، وأقيمت حفلة العشاء في المبنى نفسه، وجرت المباحثات في المبنى نفسه أيضاً، وما كان يتغير ويتبدل، طاولات الاجتماعات في النهار، وطاولات الحفلات والمآدب في المساء التي أقيمت لنا أثناء زيارتنا لهذا البلد المكافح. لا أنسى السرير الذي نمت عليه في قصر الضيافة الذي صُمِّم وفقاً لمقاسات الفيتناميين القصيرة التي لا تتناسب مع طولنا، فهم لم يكونوا يهتمون بالمظاهر والتفاصيل آنذاك، ولكنهم كانوا يهتمون ويحتفون بضيوفهم في هذا البلد الذي خرج تواً من الحرب التي أتت على الأخضر واليابس، وكانوا يستعدون لإعمار فيتنام الجديدة الحرة. وقد شاهدت أثناء زيارتي لمدينة سايغون عاصمة الجنوب (مدينة هو شي منه) التطور العمراني في هذه

المدينة التي حاول الأميركيون أن يجعلوا منها مدينة عصرية جميلة على الطراز الأوروبي حتى تكسب الرهان عند المقارنة بين العاصمتين في الشمال والجنوب.

مكنمارا والعصر الحجري

أثناء الزيارة حدثني رئيس الوزراء الفيتنامي فان فان دنغ عن الدور الخطير الذي قام به وزير الدفاع الأميركي الجنرال مكنمارا بين عامي ١٩٦١– ١٩٦٨، وهو من أهم مهندسي حرب فيتنام. قال إن الجنود الأميركيين كانوا يصفون قتالهم للميليشيات الفيتنامية في حقول الأرز في دلتا نهر الميكونغ وفي الأدغال في هضاب وسط فيتنام بأنها حرب مكنمارا، وقد أنهت الحرب الرئيس جونسون خارج البيت الأبيض وقضت على مكنمارا، وأدت إلى النصر في منتصف السبعينيات على الولايات المتحدة التي كانت تعتقد أنها لا تُقهَر. وقال إن خط مكنمارا الذي كلف مليار دولار سقط ولم يمنع اختراق المناضلين والإمدادات له، إذ كان الأميركان يعتقدون أن القصف اللامحدود سيجبر الزعيم هوشي منه على إيقاف الحرب لإنقاذ فيتنام من الإبادة، وتذكر مقولة الجنرال الأميركي لوماي وعبارته الشهيرة، أنه يجب قصف فيتنام الشمالية حتى تعود إلى العصر الحجري.

كان مكنمارا يردد أن وجود القوات الأميركية في فيتنام هو لمحاربة الشيوعية والشيوعيين ومنع انتشار الأفكار الشيوعية خارج الهند الصينية، وشبَّه رئيس الوزراء الفيتنامي وجود القوات الأميركية في هذه المنطقة بالحزام الواقي وخط الدفاع الأول عن أصدقاء الولايات المتحدة الأميركية، ولكن هذا الخط انهار كما انهار قبله خط مكنمارا بانسحاب القوات الأميركية من فيتنام.

وقال إن مكنمارا وقادته قللوا من قوة المشاعر القومية المعادية للولايات المتحدة الأميركية، فالقصف لم يؤدِّ إلا إلى التصعيد المضاد في الحرب، وهو ما أدى في النهاية إلى انهزام أميركا.

وقال رئيس الوزراء فان فان دنغ إن الأميركيين لا يحبون الحروب الطويلة غير المحسومة النتيجة، وحربنا كانت طويلة غير محسوبة النتيجة، فلم يتصوروا أن قادتهم سيهربون من

سايغون ويتركون خلفهم جنودهم يتعلقون بالطائرات العمودية، بينما عملاؤهم في الجنوب يشعرون بالهزيمة والخزي والعار، كما أشرنا آنفاً.





صور من المتحف الحربي في سايجون

كانت الزيارة لفيتنام، تضامناً مع شعب صديق، شعب مناضل في سبيل الحرية والانعتاق من الاستعمار، إذ نالت فيتنام تضامناً عالمياً لم تحظ به أي ثورة أو حركة في التاريخ المعاصر، وقد تعلّم الثوار في عدن من تجربة الثورة الفيتنامية التي كان ثوارها يناضلون من أجل التحرير والوحدة الفيتنامية.

بعد هذه الزيارة قام القائد الفيتنامي الأسطوري الجنرال جياب بزيارة تاريخية لعدن عام ١٩٨٣م لحضور الاحتفالات بأعياد الثورة، وبمناسبة زيارته ومشاركته في الاحتفالات مُنِحَ أعلى وسام في اليمن الديمقراطية (وسام ثورة ١٤ أكتوبر) تقديراً لدوره البطولي في نضال الشعب الفيتنامي البطل، وفي تعزيز الصداقة بين اليمن الديمقراطية وفيتنام. وكانت زيارته لعدن تندرج في إطار تعزيز علاقات البلدين والشعبين الصديقين، وتواصلاً مع الزيارة التي قمت بها لفيتنام في عام ١٩٧٨م.



الرئيس علي ناصر محمد يستقبل المناضل الفيتنامي الجنرال جياب ١٩٨٣م

استقبال المناضل الفيتنامي جياب[1] عام ١٩٨٣

(١) هو الجنرال فو نغوين جياب، الذي قضى معظم أيامه في النضال لنيل فيتنام استقلالها، وكان لتكتيكاته العسكرية الفضل في إلحاق هزيمتين تاريخيتين بالجيشين الفرنسي والأميركي.

ارتبط اسم جياب، المعروف باسم «نابوليون الأحمر» بمعركة «ديان بيان فو» الشهيرة، التي قاد خلالها حصاراً خانقاً على القوات الفرنسية طوال ٦٠ يوماً، وأجبرها على الاستسلام في ٧ حزيران/ يونيو ١٩٥٤، ما أدى إلى انكفاء الفرنسيين إلى الجنوب وقيام جمهورية فيتنام الديموقراطية في الشمال وعاصمتها هانوي.

غير أن جياب تعلم أساليب حرب العصابات في «مدرسة» الزعيم الشيوعي الصيني ماو تسي تونغ، إذ لجأ إلى الصين عام ١٩٣٩ وعاش فيها فترة من الوقت بعدما حظرت فرنسا الحركات الشيوعية في فيتنام.

وانضم جياب في عام ١٩٤١ إلى هو شي منه ووطنيين فيتناميين آخرين، وعاد إلى فيتنام عام ١٩٤٤ ليقاوم الاحتلال الياباني والفرنسي. وعندما استسلمت اليابان للحلفاء عام ١٩٤٥، عُين جياب وزيراً للدفاع، وقائداً عاماً للجيش، تحت إمرة هو شي منه، الذي قاد انقلاباً في هانوي، ولكنه سرعان ما اضطر وجياب وآخرين إلى اللجوء إلى الأدغال لمواصلة حرب العصابات ضد الفرنسيين.

وفي عام ١٩٧٢، عاد جياب لإحياء خطته، في عملية أُطلق عليها «هجوم عيد الفصح»، وكان لتكتيكاته الفضل في إجبار الأميركيين على الانسحاب من الجنوب عام ١٩٧٥.

لم يتولَ جياب، الذي حمل لقب جنرال من دون أن يدرس الفنون العسكرية والقيادة في أي مدرسة حرب، أي منصب بعد النصر وتوحيد فيتنام، وأُخرج من وزارة الدفاع ومن الحكومة قبل أن يعتزل الحياة السياسية، وهو قضى السنوات الخمس الأخيرة من حياته طريح السرير في مستشفى في هانوي إلى أن أُعلنت وفاته.

وبعد مئة عام وعامين توفي الجنرال الأسطورة في ٥ أكتوبر ٢٠١٣، فلم يخطر في بال المزارع الفيتنامي أن ابنه الذي طرد في طفولته من مدرسة الليسيه الفرنسية في هانوي، سيتحول إلى بطل استقلال لبلاده وملهماً لحركات التحرر في العالم.

حاكم الشارقة وغورباتشوف

هذه خلاصة للعلاقات بين اليمن الديمقراطي وبلدان المنظومة الاشتراكية التي انهارت مع انهيار الاتحاد السوفياتي، وبهذا الانهيار حدث خلل في التوازن الدولي بعد الحرب الباردة بين المعسكرين، واختفت عن الخريطة دول مثل تشيكوسلوفاكيا ويوغوسلافيا، وظهرت دول أخرى كأوكرانيا وغيرها من الدول التي انفصلت عن الاتحاد السوفياتي. ويعود السبب في ذلك إلى غياب الديمقراطية ولأسباب اقتصادية، بدرجة رئيسة، إضافة إلى القيادة الفاشلة للرئيس غورباتشوف، الذي كان مبهوراً بالمظاهر البراقة للغرب والحديث عن البروسترويكا والجلاسنوست، حيث لم يتحقق من ذلك إلا انهيار الاتحاد السوفياتي والمنظومة الاشتراكية.

العالم اليوم يسخن ويخرج عن نطاق السيطرة في هذا الزمن المتفلت من عقاله، فمن كان يصدق أحياناً أن الإنسان اليوم يشتاق إلى عالم المعسكرين الذي كان سائداً قبل سقوط الأسوار بين الشرق والغرب؟ صحيح أن مصير الإنسانية كان قائماً على كبح توازن الرعب، وما إن زال خطر الحرب الباردة، حتى زال معها هذا التوازن، وأصبحت الولايات المتحدة الأميركية تتحكم وحدها بمصير العالم دون كابح أو رادع من قبل ما تُسمى الدول العظمى في مجلس الأمن. ولعل أصدق تعبير عن ذلك ما قاله الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، عضو مجلس الاتحاد، حاكم الشارقة، للرئيس السابق ميخائيل غورباتشوف أثناء لقائه بحضورنا في الشارقة في ديسمبر من عام ١٩٩٤م: «لقد قمتم بتدمير الاتحاد السوفياتي... وخدمتم أعداءكم وأخللتم بالتوازن الدولي، وتدفعون حالياً ثمن ذلك ومعكم الشعوب الصغيرة. لقد ارتكبتم حماقة كبيرة، إنكم كمن وضع نفسه في زنزانة ورمى مفتاحها في البحر، فلا هو حمى نفسه ولا يمتلك سبيلاً للخروج من مأزقه».

الفصل الثالث والعشرون

اليمن الديمقراطية وأثيوبيا

صديق في الزمن الصعب

في ١٢ سبتمبر من عام ١٩٧٤م بدأ عهد جديد عندما قادت مجموعة من الضباط الشبان في الجيش الإثيوبي ثورة على أسد يهوذا هيلا سلاسي، وبدأت مرحلة جديدة في عمر تلك الدولة الإفريقية الشاسعة والجارة لليمن. أراد الثوار أن يصنعوا لبلدهم ولشعوبهم مكاناً لائقاً تحت شمس القرن العشرين.

كان صاحب هذه المهمة الصعبة والشاقة كولونيلاً شاباً طموحاً ذا حيوية كبيرة، وذكاء شديد، وإرادة حديدية، ومراس صعب، هو منغستو هيلا مريام الذي نشأت بيني وبينه بعد ذلك علاقة صداقة ودية وحميمة ستظل حيّة في نفسي إلى الأبد، وقد أشرت إليها تفصيلاً في كثير من المواقع من هذه المذكرات، دلالةً على عمقها وارتباطها بكثير من الأحداث والوقائع. وهذه الحركة تذكرني بحركة الضباط الأحرار في مصر بقيادة البكباشي جمال عبد الناصر مع الفارق بين الاثنين.

الزيارة الأولى
إلى أديس أبابا

كانت عملية تنامي العلاقات بين البلدين الصديقين تسير جيداً، وكنا نعمل على تطويرها باستمرار. ولهذا قمت بزيارة العاصمة الإثيوبية أديس أبابا (وهي أحدث العواصم الإثيوبية التي أنشأها منيلك الثاني عام ١٨٨٦) في ١٦ يناير عام ١٩٧٩م. التقيت الرئيس الإثيوبي الكولونيل منغستو هيلا مريام في قصر الشعب، وعرضنا معاً العلاقات الحميمة بين البلدين الصديقين والسبل الكفيلة بتطويرها. زرت ساحة النصر، ووضعت إكليلاً من الزهر على النصب التذكاري للجندي المجهول. وحددت وجهة نظري حيال طبيعة العلاقات بين البلدين والمستقبل الذي ينتظرها في المقابلة التي أجرتها معي صحيفة «العلم» الإثيوبية. كذلك تحدثت في الخطاب الذي ألقيته في حفلة العشاء عن الأوضاع على الساحة اليمنية، وعن أوضاع اليمن الديمقراطية الداخلية، وحرص بلادي على إيلاء أهمية خاصة في سياستها الخارجية للدول المجاورة. وكانت تلك زيارتي الأولى لعاصمة هذا البلد الصديق.

لن أنسى زيارتي مع الرئيس منغستو عدداً من المحافظات، ومنها محافظة بالي التي تقع بالقرب من الحدود الصومالية حيث قطعنا في هذه الجولة أكثر من ألف ميل، تنقلنا خلالها بين حقول القمح (تعرفت خلالها إلى ما يسمونه الموسم الصغير والكبير)[1] وغابات البن والطبيعة وأراضٍ واسعة شاهدنا فيها قطعاناً من الوعول والغزلان والذئاب والثعالب الحمراء (يقدر عددها بخمسمئة (٥٠٠) وهي من الأنواع النادرة في العالم، ولا توجد إلا في محمية جبال بال الوطنية)، والزهور البيضاء والحمراء في الهضبة التي تقع على ارتفاع ٤٠٠٠ متر. وشاهدت لأول مرة الضباب والسحاب تحتنا، اخترقناهما وكأننا نهبط من طائرة نحو الأرض ونحن نشعر بالفرح والرهبة من هذا المنظر الجميل، وفي أسفل الوادي

---

(١) شاهدت لأول مرة مساحات صفراء وأخرى خضراء وعلمت من الرئيس منغستو أن الأصفر هو عبارة عن قمح حان حصاده وأن الأخضر قمح يأتي إنتاجه بعد موسم الحصاد الأول، أي إن الأرض تنتج موسمين في السنة، وهذه الظاهرة لم أسمع عنها ولم نشاهدها إلا في مرتفعات هضبة إثيوبيا الغنية بكل الخيرات.

شاهدت أشجار البن التي تنبت وتثمر على طبيعتها ولا يصلها الإنسان إلا نادراً بسبب كثافة الأشجار والغابات... تذكرت لحظتئذ ما قاله علي ناصر القردعي عندما أفاق في أول يوم له في معتقل مدينة حجة أقصى شمال اليمن حيث سجنه الإمام وهو في قمة جبال حجة يشاهد لأول مرة السحاب من تحته والشمس تعلوه من فوقه: «يبدو أن السماء سقطت»، وطالبهم بالصلاة، فقاموا إليها خائفين مذعورين مما يرون من انقلاب في الطبيعة، كما روى لي ذلك محافظ حجة المرحوم عبد الرحمن نعمان عام ١٩٨٨م، عندما نزلت ضيفاً عليه.

منغستو في عدن

قام الرئيس منغستو هيلا مريام بزيارة عدن التي وصل إليها في ٢٩ نوفمبر للمشاركة في احتفالات الذكرى الثانية عشرة لعيد الاستقلال، وحضر مناورة عسكرية كبرى في مدينة سيئون، العاصمة الثانية لمحافظة حضرموت. كان لحضوره المناورة أهمية خاصة، إذ كان دليلاً على عمق العلاقة بين الثورتين والبلدين، ولا شك في أن حضوره المناورة التي أجريت قريباً من الحدود مع السعودية قد أثار حفيظة الجارة الكبرى لليمن الديمقراطية، السعودية، وعمّق مخاوفها. من المؤكد أن أهمية الزيارة لم تكن في حضور تلك المناورة العسكرية، بل في الحدث الأهم الذي أعقبها، وهو توقيع معاهدة الصداقة والتعاون، وكانت اليمن الديمقراطية قد وقّعت خلال هذه الفترة وبعدها العديد من الاتفاقيات المماثلة مع العديد من الدول الاشتراكية الصديقة، ومنها اتفاقية عدن الثلاثية بين اليمن الديمقراطية وإثيوبيا وليبيا لاحقاً، ما أثار مخاوف لدى عدد من دول المنطقة، التي شنت حملات إعلامية شديدة، حيث صُوِّرَت على أنها انخراط لليمن الديمقراطية في تكتلات عسكرية تهدد أمن المنطقة واستقرارها. وكنا نحن نرى أن عدم الاستقرار ينبع في الواقع من الأساطيل والقواعد العسكرية الأجنبية والسياسات المرتبطة بدول خارج المنطقة كانت تهدد أمن المنطقة واستقرارها دون أن تثير استنكار أحد من المعنيين بالأمر[١].

---

(١) تحدثت عن المسألة بإسهاب في مكان آخر من هذه المذكرات.

لقاء ثلاثي مع الرئيس منغستو والجنرال جياب

في نوفمبر ١٩٨٠م زار منغستو عدن للمرة الثانية. أصبح ارتباطه الآن بالثورة والنظام في اليمن الديمقراطية وبقادتها أقوى من أي وقت مضى، ينتهز كل فرصة سانحة للإعراب عن الحب والتقدير لبلدنا. صادف أن الجنرال الفيتنامي الأسطورة نجوين جياب كان هو الآخر يزور اليمن الديمقراطية في هذا الوقت أيضاً.

مساء ١١ نوفمبر عقدت مع منغستو والجنرال جياب لقاءً مشتركاً ناقشنا فيه آخر التطورات على الصعيدين العربي والدولي، والعلاقات ما بين بلداننا الثلاثة، وجرى تأكيد ضرورة تعزيز التعاون وتطوير علاقات الصداقة فيما بين بلداننا، وتطابقت وجهات نظرنا في ما يخص القضايا مثار البحث.

أتذكر أن هذا اللقاء كان مناسبة رائعة للجمع بين ثورات ثلاث، لكل منها أهميتها وقيمتها. وكنت كلما سنحت لي الفرصة أقوم بمثل هذا الدور. ففي نهاية عام ١٩٨٢م، جمعت في مقر إقامتي في موسكو بين الرئيسين الإثيوبي منغستو والفلسطيني ياسر عرفات لأول مرة. وأبدى عرفات يومذاك ارتياحه لكسبه وثورته صديقاً وقائداً إفريقياً يُعتدّ به، وهو الذي فتح مكتباً لمنظمة التحرير الفلسطينية في أديس أبابا بعد إغلاقه للسفارة الإسرائيلية وفي هذا اللقاء أبدى انزعاجه من مواقف بعض الدول العربية تجاه بلاده في دعم المعارضة الأريترية ومعارضة ما يسمونه أرض الصومال الغربية التي هي منطقة أوغادين التي تُعَدّ جزءاً من الدولة التي كان يحكمها الإمبراطور هيلا سيلاسي.

كانت زيارة منغستو اللاحقة في ٢٢ سبتمبر ١٩٨٥م ذات مغزى خاص، فستكون هذه زيارته الأخيرة لعدن.. ولم يكن هو أو أنا نقدِّر أنها ستكون الأخيرة، بالرغم من أنه لم يكن لقاءنا الأخير. جاء منغستو هذه المرة في وقت كانت الأوضاع السياسية الداخلية فيه سائرة إلى التعقيد قبيل المؤتمر العام الثالث للحزب الاشتراكي اليمني المقرر عقده في أكتوبر من ذلك العام. وقد جاء ليؤازر القيادة الشرعية ويسند موقفها الذي اتخذته والذي أعلن انتصاره في المؤتمر العام الثالث للحزب.

إن الصلات التاريخية والحضارية والعلاقات بين البلدين والشعبين التي تعززت

كثيراً في السنوات الأخيرة، وتوطدت فيها عرى الصداقة أكثر فأكثر في سنوات ١٩٨٠-١٩٨٥م، هي التي كانت تدفعني إلى أديس أبابا في تلك الأيام الصعبة من شتاء ١٩٨٦م. كانت إزالة الخطر المباشر المحدق بعدن تتطلب أقصى جهد معنوي وجسدي للدفاع عن النظام والشعب الذي كان يواجه الدبابات بصدره العاري. وكان يتطلب أيضاً صديقاً له إرادة فولاذية وصداقة لا تشوبها شائبة. لهذا، وقع اختياري على منغستو دون سواه للحصول على الدعم العسكري والسياسي والمعنوي.

في اليوم التالي ١٩ يناير ١٩٨٦م جرى لقاء طويل بيني وبين منغستو، وكان صادقاً في إظهار تعاطفه معي، وأبدى استعداده لتقديم الدعم المباشر وتجهيز (٢٥) ألف مقاتل إثيوبي لهذا الغرض، وعرض المباشرة ببث إذاعي لمدة ساعتين يومياً من الإذاعة المركزية الإثيوبية. وكان علينا أن نعترف بالأمر الواقع، وأن نوقف العمليات العسكرية في عدن وغيرها، ونوقف فكرة إرسال قوات إثيوبية إلى الجنوب ونقدم الشكر إلى القيادة الإثيوبية على هذا الموقف المشرف الذي لن أنساه وقد انتقلت بعد ذلك القيادة السياسية والعسكرية إلى أديس أبابا، واجتمعوا وأقروا مبادرة للحل السياسي والمصالحة الوطنية في الجنوب، ولكن الطرف المنتصر في الحرب رفض هذه المبادرة السياسية.

موقف صالح السييلي وجار الله عمر

على العموم، جاء وزير داخلية نظام عدن الجديد إلى أديس أبابا، وأمضى فيها الفترة من ٢٨ أبريل حتى ٣ مايو ١٩٨٦م، وأجرى مباحثات مع المسؤولين الإثيوبيين دون نتيجة تذكر، ولكنه ادعى أنها حققت نتائج إيجابية في علاقات البلدين. وكان الواقع مختلفاً، حيث كشف لي منغستو حقيقة ما دار بين السييلي والوفد الإثيوبي برئاسة تسفاي ولد سلاسي، العضو المرشح للمكتب السياسي لحزب العمال الإثيوبي، وزير أمن الدولة.

في لقائنا قرأ منغستو في البداية نص رسالة وجهها إلى علي سالم البيض، وسلمني نسخة منها باللغة العربية. وأشار إلى أن للرسالة هدفين، الأول، تأكيد عدم إحراز أية نتيجة إيجابية للحوار الذي حصل في أديس أبابا بين وفدهم برئاسة صالح السييلي والوفد الإثيوبي.

والهدف الثاني، تأكيد ضرورة الجدية في أيّ حوار قادم، حتى تكون له نتائج إيجابية. ولهذا صيغت الرسالة بأسلوب صارم. ثم تحدث تسفاي ولد سلاسي وزير أمن الدولة الإثيوبي الذي قاد مباحثات بلاده مع السييلي ووفده، فوجه الشكر إليّ، وقال إن الصورة التي زودتنا بها عن السييلي محاوراً سيئاً كانت طبق الأصل، وإن السييلي ومحمد هيثم كانا يطرحان أطروحات صارخة ويوجهان الانتقادات إلينا بصورة غير لائقة... ولاحظ أن الوفد القادم من عدن لم تكن لديه وحدة في الهدف، ولم يكن بينهم انسجام أو احترام متبادل. وأضاف أن الوفد الإثيوبي انطلق من الهدف الرئيس الذي أملاه الحوار الذي جرى في موسكو بين كل من غورباتشوف ومنغستو حول إسهام إثيوبيا في حل مشكلة عودة النازحين إلى عدن. وعلى هذا الأساس أدرنا الحوار. وكان هدفنا ضمان عودة الموجودين في إثيوبيا وإخراج الملتجئين إلى السفارات الأجنبية في عدن هرباً من البطش، على أن يخيروا بين البقاء في وطنهم أو السفر إلى الخارج. وفي كل الأحوال لا بد من ضمان حماية أرواحهم وضمان خروجهم، وإعطاء ضمانات لإخراج عائلات القياديين الذين لا يرغبون في العودة.

رداً على مقترحات الوفد الإثيوبي، قدم وفد السييلي جواباً، مضمونه أن هذه الجماعات مواطنونا ورعايانا، ويمكن أن نقبل عودتهم ما عدا أربعين شخصاً يجب أن يقدموا للمحاكمة. (يلاحظ رئيس الوفد الإثيوبي، أنه بالرغم من هدف وفد عدن كما لمسنا السعي لتحسين العلاقات بين البلدين التي سادها الفتور والتوتر عقب أحداث يناير، إلا أن الوفد لم يكن مستعداً للحوار في مسألة عودة الموجودين في الخارج). وأضاف تسفاي: قلنا لهم، هذه ليست مشكلة جديدة، لقد سبق أن نوقشت بين الأمناء العامين في موسكو وبرلين، ولا نطرحها هنا مجدداً، وإذا لم يكن لديكم تعليمات لمناقشة عودة اللاجئين معنا، فبإمكانكم العودة إلى حكومتكم ونحن بالانتظار. وردّ رئيس الوفد السييلي: إن أميننا العام لا يمكن أن يبتّ هذا الموضوع بمفرده، نحن لدينا دستور وقوانين، ولن أطلب تعليمات من عدن. وأضاف كلاماً يعبّر فيه عن استيائه وحكومته من موقف إثيوبيا الذي اعتبره منحازاً إلى جانب كاتب هذه المذكرات... وعند ذلك – يقول تسفاي- أشعرنا الوفد اليمني برئاسة السييلي أننا سنفترق من غير الوصول إلى اتفاق، ويمكن مواصلة الحوار في المستقبل.

قدم الإثيوبيون مقترحاً في ما يخص البوارج الحربية والطائرة المروحية التي لجأت إلى إثيوبيا يقضي بإمكانية إعادتها إلى عدن على أساس قائمة تضعها وزارة الدفاع ومندوب من السفارة، وكذلك قائمة بالبحّارة الذين يرغبون في العودة معها، وكان وفد برئاسة أحمد عبد الله الحسني قائد البحرية قد ذهب إلى عصب ومصوع لتحديد القوائم وإعدادها.

من بين النقاط التي أثاروها استعادة مقرّ السفارة في أديس أبابا والبيوت التابعة لها بعد أن انحاز السفير وبقية الطاقم إلى جانبنا، واستمروا يمارسون عملهم كممثلين لنا، ووعدتهم القيادة الإثيوبية بإعادتها إليهم.

أكد تسفاي أنه لم يتفق معهم على شيء. وأشار إلى أن الرئيس منغستو لم يستقبل الوفد، وأنهم بشكل عام لم يحققوا أي غرض من زيارتهم. واستنتج تسفاي، خاتماً حديثه بالقول: «ليس لدى الوفد وحدة فكرية أو تضامن أو احترام متبادل، ورئيس الوفد السييلي قال إنه هو الوحيد الذي يقرر موضوع عودة اللاجئين، وإن الأمين العام البيض لا يمكنه أن يقرر في هذا الموضوع» كما أسلفت.

بعدها، تحدث د.أ. شاجري باعتباره عضواً في الوفد الذي شارك في المباحثات مع وفد السييلي، فقال: إن الجانب الإثيوبي تقدم بمقترحات حسب الاتفاق بين الأمينين العامين منغستو وغورباتشوف، وإن الوفد رفض ذلك وعدّه تدخلاً في شؤونهم الداخلية. وقالوا إن أي إجراءات بخصوص عودة اللاجئين يجب أن تكون حسب الدستور والقوانين والنظم. وقدمنا من جانبنا اقتراحاً، وقلنا إن المشكلة سياسية وخاصة، فلهذا ينبغي أن يكون الحل أيضاً سياسياً وخاصاً، وليس قانونياً. ولهذا اقترحنا عليهم مشاركة أربع جهات في الحوار، هي: حزب العمال الإثيوبي، جماعة عدن، جماعة الرئيس علي ناصر، والسوفيات. وعندما طلبنا من السوفيات مشاركة سفيرهم في عدن في الحوار، كان ردهم: «حلوا هذا الموضوع بمعرفتكم». وعندئذ تقدمنا بمقترح أن يكون الحوار ثلاثياً بعد اعتذار السوفيات عن عدم المشاركة فيه. رفض الوفد رفضاً قاطعاً مشاركة جماعة الرئيس علي ناصر في الحوار، ولم يكن أمامنا من خيار آخر سوى إجراء حوار ثنائي بيننا وبين الوفد القادم من عدن.

كان واضحاً رفض عدن مبدأ الحوار والمصالحة، واعتبرناه خطأً جسيماً أودى في النهاية

بكل شيء ولم يتفهم من اعتقد حينذاك أنه انتصر ماذا عليه أن يفعل، وسيطرت مجموعة من الأفكار الضيقة التي لا أفق لها أو رؤى لبناء المستقبل. وبعد ما يزيد على خمسة عشر عاماً، يقول جار الله عمر في مقابلة مع صحيفة الخليج يوم ٣ كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٣م: «في رأيي، إن الخطأ الذي ارتكب حينها ولم يكن عملاً سياسياً صحيحاً هو استمرار الإعلام في الحديث عن الانتصار الذي تحقق، لأنه في الحقيقة لم يكن انتصاراً، بل كان هزيمة وخسارة للجميع، والخطأ الثاني الذي أشعر اليوم أنه خطأ لكنني يومها لم أكن أراه كذلك، هو رفض عملية المصالحة وإعادة الوئام من جديد والتفاهم مع الطرف الذي خرج إلى إثيوبيا، ولو حدث هذا، لكان هو الانتصار الحقيقي، لكنه لم يحدث، لأن الكل كان متوتراً والجروح عميقة، والنضج السياسي لم يكن كافياً، وفي رأيي إن هذا كله كان البداية التي أسست لهزيمة الجيش والحزب في الحرب اللاحقة بعد الوحدة عام ١٩٩٤م». وقد قال جار الله عمر عين الصواب، ولو جاء متأخراً.

في يونيو ١٩٨٦م قام محمد أحمد جرهوم، وزير الثقافة والإعلام في الحكومة الجديدة في عدن بزيارة إثيوبيا. وكانت على ما يبدو استكمالاً للزيارة التي قام بها الوفد السابق، وقد التقى الرئيس الإثيوبي منغستو هيلا مريام.

قال الرئيس «منغستو» لوزير الإعلام محمد أحمد جرهوم خلال اللقاء الذي جرى في «أديس أبابا»: «ما جرى في أحداث ١٣ يناير لا تقع مسؤوليته على شخص واحد، بل على الجميع. نحن لم نكن نتوقع أن يكون الدمار بمثل تلك الصورة. قلنا لجميع الرفاق إنكم ستهدمون ما بنيتم. للأمانة، غالبيتهم غير موجودين. وينبغي حالياً أن توحدوا صفوفكم وأن تجنبوا الشعب مزيداً من المآسي، نحن لسنا بعيدين عنكم ونعرف أشياء كثيرة في داخلكم».

كان جرهوم يحتج على وجودي وبعض أنصاري في إثيوبيا، ويحاول إقناع «منغستو» بأنني مسؤول عن أحداث يناير، لكن منغستو لم يقتنع بمسوغاته، وقد نصحهم بأن يتخلوا عن هذا الوهم بتحميل مسؤولية ما حدث لرجل واحد. كذلك فإنه لم يقبل من جرهوم والقيادة التي جاء يمثلها وصفنا بالثورة المضادة، بل استخدم في سياق رده وصف «أصدقاؤنا... من بلد ثوري» قال «منغستو»: «في الواقع أصدقاؤنا القدامى قدموا إلينا وهم ضيوف لدينا.

وليسوا عندنا فقط وإنما مع أصدقائكم في بلدان أخرى فلماذا أنتم «متحسسون» منا فقط؟ إذا نظرتم إلى وجودهم في بلادنا كمشكلة فهذا سينتج منه مشكلة بيننا».

وأضاف:

«استضفناهم عندنا شعوراً بأن ذلك واجب تحتمه الالتزامات الأدبية والمعنوية نحو أصدقائنا. وما دام هؤلاء جاؤوا إلينا من بلد ثوري، فإننا لا يمكن أن نتخلى عنهم أو نطاردهم».

سأل د. جرهوم:

«حتى لو كان الوافدون إليكم قتلة؟»

منغستو:

«وهل الذين ذهبوا إلى الاتحاد السوفياتي قتلة وخونة؟».

«إذاً أنتم تنطلقون من حساسية وجودهم لدينا، ثمة أزمة شك وعدم ثقة ليست في مصلحتنا جميعاً».

بعد الأحداث جاء إلينا أعضاء من المكتب السياسي في الحزب الاشتراكي اليمني، ونحن استقبلناهم على أساس أنهم رفاق، ولا نستطيع تصنيفهم أعداءً للثورة اليمنية وللنظام التقدمي في اليمن الديمقراطية. أنتم تقارنون جماعة الانفصاليين الذين حفروا للثورة الإثيوبية قبراً لدفنها والتعجيل في نهايتها بالجماعة الذين لجأوا إلينا.

د. جرهوم:

«نستضيف الآخرين في ضوء موقفهم من النظام التقدمي، نحن لا نقبل أعداء الثورة الإثيوبية ضيوفاً في بلادنا».

وسأل الرئيس منغستو الدكتور جرهوم:

«إذا فرضنا أن أحداثاً مشابهة وقعت في إثيوبيا ولجأت إلى عدن فهل ستستقبلوننا؟».

د. جرهوم:

«إذا وصلت وأنت معاد للثورة الإثيوبية فلن نقبلك».

وهنا وقف منغستو وقال لجرهوم: انتهت المقابلة.

قرصنة جوية لاحتجاز حسين

في شهر أغسطس ١٩٨٦م أبلغ أحدهم سلطات عدن بأن طائرة إثيوبية تستأجرها دولة جيبوتي من شركة الطيران الإثيوبية ستتوجه يوم السبت ١٦ أغسطس من صنعاء إلى أديس أبابا، وأن هذه الطائرة تقل شخصاً يدعى حسين، وأن هذا هو الاسم المستعار لكاتب هذه المذكرات، وفور تسلّم البلاغ، صدرت الأوامر إلى سلاح الطيران الجنوبي في عدن باعتراض الطائرة المذكورة عند ظهورها في الأجواء الدولية القريبة من عدن. وفعلاً، أقلعت عدة طائرات حربية واعترضت الطائرة المدنية وأجبرتها تحت التهديد على تغيير خط سيرها والهبوط في مطار عدن. وبالطبع، لم أكن على متن تلك الطائرة المخطوفة، وكان المسافر شخصاً آخر يُدعى (حسين هزم)، وكان موظفاً في الملحقية العسكرية لدى سفارة اليمن الديمقراطية في أديس أبابا.

روى لي حسين هزم بعد ذلك أنه عندما شعر بخطورة الموقف وجديته، أخبر طاقم الطائرة الإثيوبي بهويته وبخطورة وضعه لو أمسكوا به، وأبدى الطاقم تفهماً لموقفه وقدّم إليه بذلة طيار ارتداها على الفور، وطلبوا إليه في حالة نزوله في مطار عدن ألا يفارق أفراد طاقم الطائرة وألا يتحدث العربية تحت أي ظرف كان... واضطر إلى النزول مع أفراد الطاقم وبقية ركاب الطائرة حتى يتسنى للجنود الذين أحاطوا بالطائرة من كل مكان تفتيشها، وقد خاب أملهم بعد أن اكتشفوا عدم وجودي في تلك الطائرة وعدم دقة المعلومات التي أبلغهم بها مصدرهم من مطار صنعاء.

يشرح حسين هزم ما جرى: «كنت أخشى أن يتعرفني أحد ضباط الأمن، ويبدو أنهم بدأوا يشكّون في أمري، وحقيقة شخصيتي، فتعرضت لاستفزازات كثيرة في المطار، والشتائم، ولعلهم أرادوا من خلال هذا الأسلوب إخراجي عن طوري، وتوقعوا أن أرد عليهم بالعربية، فيكشفوا حقيقة من أكون. ولكنني حسب نصيحة أفراد الطاقم تظاهرت بأنني لا أفقه شيئاً مما يقولون، ولا علم لي بالعربية. ورغم شعوري بأنني أتقن دوري، إلا أن رجال الأمن ظلوا على شكّهم فظلوا على استفزازهم لي. ومن جانبهم، وقف الطيارون الإثيوبيون موقفاً شجاعاً ونبيلاً عندما شعروا لبعض اللحظات بأن رجال الأمن قد يعتقلونني. فقد أعلنوا

لسلطات الأمن في المطار ولغيرهم ممن كانوا يمعنون في استفزازي ويريدون اعتقالي أنني أحد أفراد الطاقم، وأن الطائرة لن تبرح أو تقلع من مطار عدن إلا باكتمال طاقمها. وهذا الإصرار من جانب الطاقم الإثيوبي، وعناية الله، وبعض الحظ، بالإضافة إلى سحنتي التي تشبه سحنة الإثيوبيين، أنقذت حياتي، ونجوت بسلام من ذلك الفخ المنصوب، وحمدت الله كثيراً بعد أن أقلعت الطائرة من جديد».

على أثر تلك القرصنة الجوية، أدلى مصدر مسؤول في اللجنة المركزية للحزب الاشتراكي اليمني «القيادة الشرعية»، وهي الصفة التي أطلقناها على جماعتنا بعد خروجنا من عدن، بتصريح أدان فيه هذه العملية، وقال: «إن هذه القرصنة الجوية التي تحدث لأول مرة في المنطقة قد عرضت حياة الركاب الآمنين للخطر، وألحقت إساءة بالغة بجمهورية جيبوتي الشقيقة وبالعلاقات الأخوية بين الشعبين الشقيقين، تلك العلاقات التاريخية التي تعززها روابط الأخوة العربية والإسلامية والتي شهدت نمواً مطرداً خلال السنوات الماضية».

احتجّ الرئيس الجيبوتي حسن جوليد على اختطاف الطائرة التي كانت مستأجرة لمصلحة الخطوط الجيبوتية، وعندما قابله وزير المواصلات صالح مثنى قال له: «إحنا زعلانين منكم عندنا طيورة[١] واحدة فقط وتخطفوها، استحوا على أنفسكم ولا تفاهم معكم».

وكان الرئيس منغستو قد حذرني من التحدث بالتلفون أو السفر جواً بين أديس وصنعاء، وصنعاء ودمشق، وكان عليّ أن أعتبر التلفون العدو الأول. فعن طريقه اغتالت إسرائيل عدداً من القادة والمجاهدين الفلسطينيين.

واتصل الرئيس علي عبد الله صالح بحيدر العطاس وأبلغه استياءه لاختطاف الطائرة، وفي موقف تحدٍّ قال: سأعطيه طائرة خاصة يسافر بها من صنعاء إلى أديس والمرور بها في أجواء عدن.

---

(١) أي طائرة واحدة فقط.

زيارة سرية

في منتصف شهر سبتمبر ١٩٩٠م كنت أعكف على كتابة مذكراتي في منطقة جبلية في اللاذقية، في قرية اسمها «دباش»، بعد أن أجبرت على مغادرة صنعاء من قبل الحزبين الحاكمين في اليمن، وانتقلت للعيش في القطر السوري الشقيق. إثر صفقة سرية جرت بين حكام عدن وصنعاء عشية الاتفاق على إعادة توحيد اليمن.

في هذا الوقت، وصل إلى دمشق شقيقي «سليمان»، والتقيته في «دباش»، وكانت هذه هي المرة الأولى التي نلتقي فيها منذ أحداث يناير ١٩٨٦م، حيث التجأ إلى السفارة الإثيوبية في عدن، وظل فيها حتى تحريره وخروجه منها في شهر يونيو ١٩٩٠م مع اثنين آخرين من رفاقه.

أما الدفعة الأولى، فقد تمكنت من الخروج ومغادرة السفارة وعدن كلها في شهر نوفمبر ١٩٨٦م إثر وساطة شاقة قادها الإثيوبيون مع سلطات عدن، وأشرف عليها الرئيس منغستو شخصياً، وكان من بينهم ابني (جمال). كنت أشعر بفقد كبير لشقيقي سليمان، فقد كان أصغر مني، وربطت بيننا ذكريات الطفولة والصبا، ثم النضال المشترك، وكان قد اعتقل في فترة الاحتلال البريطاني في سجن المنصورة مدة عامين. كنت معجباً بشجاعته، وثمة ذكريات كثيرة تجمع بيني وبينه، وقد تحدثت عنها في غير مكان في هذه المذكرات. وبينما كنا نتبادل الأحاديث، ونتوغل في الذكريات البعيدة والقريبة تتلو إحداها الأخرى، جاء من صنعاء رسول يحمل رسالة من عبد الله غانم (ممثلي الشخصي)، تشرح الاتصالات التي أجراها مع السفير الإثيوبي في صنعاء والتي طلبت من الرئيس منغستو القيام بها، وفي نهايتها طلب الرئيس منغستو مني أن أقوم بزيارة سرية لإثيوبيا..

أديس مرة أخرى

كتبت في دفتري اليومي ما يأتي عن هذه الزيارة: انتقلت اليوم ٥/ ١٠/ ١٩٩٠م من دمشق إلى أديس أبابا بطائرة سورية خاصة (T.U.134)، وقد استقبلت استقبالاً حاراً وودياً

ونزلت كالعادة في منزلي الذي خصصه لي صديقي الرئيس منغستو[1]. وهذا القصر كان يسكنه رئيس الوزراء في حكومة هيلا سلاسي الذي كان متزوجاً ابنة الإمبراطور. وهو منزل جميل، ويطلّ على وادٍ جميل، تحيط به حديقة خضراء، بل غابة لا تسمع فيها إلا زقزقة العصافير وحركة النسانيس الخفيفة فوق الأشجار، وهي تنتقل من شجرة إلى شجرة، ومن غصن إلى غصن بخفة مذهلة، وتتجمع النسانيس بسرعة البرق عندما ترمي لها بقطعة خبز، وتتلاشى عنها حالة الخوف والحذر من الإنسان. ولعلها تنسى حذرها عندما تبدأ بالتصارع فيما بينها على قطعة الخبز، والذي يلتقط الخبز يفرّ هارباً. وبحكم العلاقة بين القوي والضعيف لا يجد الأضعف أو الأصغر ما يأكله إلا إذا كانت الأم قريبة منه وأولته بعض اهتمامها، إلا أنها هي أيضاً في خضمّ الصراع من أجل قطعة الخبز قد تنسى صغيرها. وتشارك في هذه المعركة الغربان والطيور الجارحة الأخرى. وإذ يشاهد المرء ساحة الصراع هذه بين هذه الحيوانات والطيور، يسرح لا شعورياً نحو ساحة الصراع بين بني البشر... وهذا المنظر يشبه إلى حد كبير حمامات سودلري وحدائقه، فعندما يأتي السائح أو الزائر إليه ويترك أمتعته وحقائبه تختطفها النسانيس وتتسلق الأشجار الطويلة التي تطلّ على نهر هواش، فتفتحها، فإذا وجدت أي مأكولات أكلتها ورمت بمحتوياتها قطعة بعد الأخرى في نهر هواش، وإذا كان صاحب الحقيبة أو صاحبتها لا يجيد السباحة يأخذها التيار، ولهذا فالمرشدون السياحيون ينبهون الزائرين إلى عدم ترك أمتعتهم حتى لا تسرقها النسانيس التي تتسلى بها والناس يتفرجون عليها.

كان السكن، كما أشرت جميلاً، أشرف على تصميمه مهندسون أجانب وجُلب له الرخام الإيطالي الفاخر وكذلك الإنارة. أما من الخارج، فهو تحفة فنية آية في الجمال والتنظيم والترتيب. وقبل أن ننتقل إليه من «قصر الشعب»[2] الذي كان يسكنه الإمبراطور

---

(١) بعد سقوط نظام الرئيس منغستو، سُلِّمَ هذا القصر بمحتوياته مع السيارات والأجهزة والكتب وحتى الملابس الشخصية لبعض الخبراء الأميركان.

(٢) القصر الوطني الذي كان يعرف سابقاً باسم قصر اليوبيل (بني ليميز الإمبراطور هيلا سيلاسي بمناسبة اليوبيل الفضي عام ١٩٥٥) الذي هو مقر إقامة رئيس إثيوبيا.

هيلا سلاسي وهو نسخة مصغرة من قصر برمنغهام في لندن، والذي مكثنا فيه بعد الأحداث نحو خمسة أشهر - أشرف الرئيس منغستو شخصياً على ترتيب سكننا الجديد، ورافقني إلى هناك حيث أصبح - المسكن - مقري في أديس أبابا منذ ذلك الحين، وهناك كان يزورنا الرئيس منغستو باستمرار كلما كنت فيه. وهذا المنزل أكبر وأضخم وأوسع من منزل منغستو المتواضع. وذلك ليس غريباً على رجل كريم وكبير وعظيم عظم حضارة الشعب الإثيوبي العريق. كانت الملاحق تكفي لسكن ٣٠ شخصاً، ويعمل فيه أكثر من ٢٥ شخصاً يشرفون على نظافته وحدائقه ووروده، وكان أشبه بالغابة من كثرة الأشجار الطويلة حوله.

اللقاء مع منغستو

٦/ ١٠/ ١٩٩٠م

كتبت في يومياتي عن لقائي منغستو ما يأتي: «التقيته في مكتبه، واقفاً، مبتسماً، صحيحاً كالأسد في عرينه. وحوله في قصر الدولة الجديد عشرات المساعدين والموظفين يتحركون كخلية النحل، ولكنك لا تسمع لهم صوتاً. وحول القصر يقف الحراس بأسلحتهم لحماية قائد الدولة ورمزها. وجدته أكثر حيوية ومعنوياته عالية بعد الأحداث العاصفة والمؤامرة التي تعرض لها العام الماضي بعد مغادرته أديس أبابا إلى برلين للقاء الرئيس الألماني إريك هونيكر.

آثار الجروح لا تزال تلاحقه، وذكرياته المؤلمة ما زالت ماثلة. فقد كانت الضربة مؤلمة لأنها جاءت من أقرب الناس إليه بعد التقارب بين موسكو وواشنطن. وكما قال جمال عبد الناصر: «إن ضربة الصديق تمزق القلب، وضربة العدو لا تصيب إلا خلايا الجسم الحي». تحدث منغستو عن هذا الموضوع بمرارة بعد الترحيب بنا بعد غيابي أكثر من عامين جرت خلالهما أحداث جسام. فقد جرت أحداث عاصفة سقطت فيها المنظومة الاشتراكية، واعتقل وأهين صديقنا الرئيس هونيكر آخر القادة المحترمين في المعسكر الشرقي، وانهار حلف وارسو، واهتزّ الوضع الداخلي في الاتحاد السوفياتي الذي فقد هيبته ومكانته وأصدقاءه في العالم. واهتزّ وضع صديقنا فيديل كاسترو في الكاريبي بعد أن تخلى عنه حلفاؤه. ولم

يبق من هذا الحلف سوى شعاره الذي أصبح جزءاً من التاريخ. وأتذكر أن الوزير صالح مصلح، وزير الدفاع، كان يتحدث مع عبد الفتاح إسماعيل عن جبروت الاتحاد السوفياتي وهزيمة الإمبريالية العالمية بقيادة الولايات المتحدة الأميركية وانتصار الاشتراكية، وكان يعلق ساخراً أنني أخشى أن تنهزم المنظومة الاشتراكية بقيادة الاتحاد السوفياتي وأن يجري اختراقها من داخلها على طريقة سارق الصوف، وكان يشير بذلك إلى الرئيس السوفياتي الجديد غورباتشوف صاحب نظرية البيروسترويكا، أي إنه سينهار دون حروب، وهذا ما حدث فعلاً.

اختلّ الوضع الدولي وميزان القوى لمصلحة الغرب. واحتلّ العراق الكويت، ودخلت آلة الحرب والدمار إلى منطقتنا. كل هذه العناوين كانت بحاجة إلى بحث مستفيض إضافة إلى أوضاع اليمن وإثيوبيا. وقد بدأ الصديق منغستو حديثه بكلمة مؤثرة قال فيها: «إنك الصديق الوحيد الذي أحببت أن أتشاور معه في أمور كثيرة وخطيرة ومهمة، ولهذا طلبتك وطلبت من الطائرة السورية التي أقلتك من دمشق إلى أديس أبابا العودة حتى نتمكن من بحث كل القضايا ونجد الوقت الكافي لذلك».

تحدثنا في ذلك اللقاء عن مختلف الأمور المهمة تقريباً، عن الوضع في شمال إثيوبيا ومصوع والشرق، وعن الأوضاع في السودان واليمن والجزيرة والخليج ومصر وسورية، والموقف من التطورات الخطيرة وكيفية مواجهتها بالتعاون مع الرئيس السوري حافظ الأسد والرئيس المصري حسني مبارك ورئيس دولة الإمارات العربية المتحدة الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، ومع خادم الحرمين الشريفين فهد بن عبد العزيز ملك المملكة العربية السعودية والدول الإقليمية والقوى الدولية. وتحدثنا عن ضرورة الحفاظ على وحدة الدول المطلة على البحر الأحمر من أجل الحفاظ على الأمن فيها. واتفقنا على ضرورة التحرك إلى هذه الدول وتوسيع اتصالات إثيوبيا بالمنطقة والقيام بنشاط دبلوماسي حتى تظل إثيوبيا في دائرة اهتمام دول المنطقة، باعتبارها جزءاً لا يتجزأ منها. وهو ما يتطلب حضوراً دائماً وناشطاً وديناميكية أكثر من أي وقت مضى، وباعتبار أن السعودية ومصر من الدول الأكثر

تأثيراً في الأحداث في المنطقة، فقد اتفقنا على أن العمل مع هاتين الدولتين سيخلق وضعاً جديداً لمصلحة إثيوبيا، بما يساعد على حلّ المشكلة الإريترية. ووقع اختيارنا على هاتين الدولتين نظراً إلى انحياز السودان في حرب الخليج إلى جانب العراق. والوضع في اليمن ليس بأفضل منه، نتيجة موقف القيادة اليمنية من حرب الخليج وموقفها المؤيد للعراق، ما أفقدها قدرة التأثير في الأحداث، بالإضافة إلى الوضع الداخلي، والانهيار الاقتصادي، وظهور مشكلة المغتربين العائدين من السعودية ودول الخليج، بعد اجتياح الكويت، الأمر الذي أضاف عبئاً جديداً على الأوضاع الاقتصادية السيئة أصلاً.

مؤامرات الجنرالات السوفيات

مساءً تناولنا عشاءنا على مائدة الرئيس منغستو في منزله المتواضع. وحضر معي حفلة العشاء سليمان ناصر محمد وعوض الحمزة. تطرق الحديث الذي استغرق نحو أربع ساعات كاملة إلى العديد من الأمور، لكنه تمحور بدرجة رئيسة حول محاولة الانقلاب التي دبرت ضد الرئيس منغستو في نهاية عام ١٩٨٩م في أثناء زيارته برلين والتي حاكها خبراء سوفيات مع بعض العسكريين الإثيوبيين. كان واضحاً أن تلك الأحداث تركت في قلبه ونفسه جروحاً لن تمحى، فقد أخبرني بملابسات ذلك الانقلاب، فقال إنه طلب من القيادة السوفياتية إرسال فريق عسكري من الجنرالات في مختلف التخصصات لتقييم الجاهزية القتالية للقوات المسلحة الإثيوبية وتحديد متطلباتها، من الأسلحة والمعدات والذخائر. وكانت مهمتهم قد تحددت بفترة ثلاثة أشهر. ونظراً إلى انشغاله بالأمور الداخلية وسير المعارك، فقد مكث الفريق في أديس أبابا أكثر من عام حتى محاولة الانقلاب الذي شاركوا فيه بخبراتهم وحشدهم لبعض الضباط الذين كانوا محسوبين على موسكو. وقد اختفى هؤلاء الجنرالات السوفيات، وعددهم تسعة بعد إخفاق الانقلاب في مبنى وزارة الدفاع، ولم يخرجوا منه، ولم نفكر، يقول منغستو، في أنهم مختفون هناك. وفجأة قرر أحد الضباط فتح هذا المكتب ليسأل عن الخبراء السوفيات الذين جاؤوا للمساعدة وتقديم الخبرة والمشورة، لكنهم رفضوا أن يفتحوا له الباب. سمع الضابط بعض الأصوات، فاعتقد بوجود

متمردين داخل المكتب، ففتح الباب عنوة واكتشف وجود الجنرالات في داخله، وكانوا في حالة سيئة بعد أن انقطع عنهم الشراب والطعام والتدخين والماء، حتى إنهم لم يتمكنوا من دخول الحمام لقضاء حاجتهم، وكانت الروائح الكريهة والعفونة تنبعث من المكتب ومن ملابسهم. وكان موقفاً مخزياً ومقززاً ومقرفاً، وكانت دموعهم تختلط بقذارتهم، هكذا كان يصف منغستو وضعهم. وهم بهذه الوضعية، قام أحدهم ليقول:

لقد تورطنا في هذا الانقلاب، ولكننا لسنا مسؤولين عما جرى، لكن القيادة في موسكو هي التي دبرت الانقلاب، باعتبار أن أديس أبابا انحرفت عن الخط الأممي، ومنغستو قائد شوفيني يجب أن نتخلص منه، ولهذا أقرت قيادتنا بقاءنا مدة أطول للعمل على إطاحتك.

ردّ منغستو: ماذا فعلت لكم من سوء؟ لقد فتحت لكم إثيوبيا والقرن الإفريقي، وحاربت نيابة عنكم الإمبريالية والرجعية، وخسرت كثيراً من أصدقاء إثيوبيا في المنطقة وأنتم تتآمرون عليّ... إنني أعتزّ بتاريخي وبشعبي، وأعتزّ بأن أكون قائداً قومياً إفريقياً. شوفينياً، إذا كانت هذه هي الشوفينية. طلب نقلهم على الفور إلى موسكو في الحالة التي وجدوهم عليها، بأوساخهم وقاذوراتهم!!

ومن جانبي، تحدثت معه عن لقائي الرئيس الشاذلي بن جديد الذي أكد أن السوفيات يُعدّون لانقلاب على منغستو، وذكر لي بعض الأسماء والقوى التي ستشارك في هذا الانقلاب، وأنه استقى معلوماته من المخابرات الفرنسية عبر أجهزتهم، وطلب مني إبلاغ هذه المعلومات بشكل عاجل إلى الرئيس منغستو. وبالفعل، أرسلت إليه الأخ صالح حسن محمد، عضو اللجنة المركزية لينقل إليه رسالة شفوية بهذا الشأن، وقد وصل إلى أديس في اليوم نفسه الذي غادر فيه منغستو إلى ألمانيا، وبعد مغادرته أُعلنت المحاولة الانقلابية، وقد اتصلت بالأخ صالح لأستفسره عما يشاع في أجهزة الإعلام، وقال: سأردّ عليك، وأبلغني بعد ذلك أنه زوبعة في فنجان، وأكدت له أن لدينا معلومات من مصادر أخرى أن الوضع خطير في أديس، فقال إنه سيتصل بي مرة أخرى وقد اتصل وقال: قضي الأمر، وكان الرئيس علي عبد الله صالح يتصل بي أولاً بأول ليعرف مصير هذا الانقلاب ومستقبل منغستو وأين سيقيم، وأنه سيرحب باستقباله واستضافته في صنعاء، وقلت له إن صالح حسن محمد قال

لي إنها زوبعة في فنجان، ثم قال في مكالمة أخرى: وقضي الأمر الذي فيه الذي تستفتيان، فقال لي الرئيس علي عبد اله صالح: لماذا يتحدث بهذه الطريقة وبهذا الأسلوب المقتضب ويشرح لك الموقف بكلمتين؟ فقلت له إنني فهمت من مكالمته أن الأمور قد حسمت من قبل أنصار الرئيس، وفي مقدمتهم قائد حراسته، وضحك وقال: سننتظر وستستضيفه إذا رغب، ولكن منغستو عاد إلى أديس لاستكمال السيطرة على الموقف كما أشار في حديثه معنا آنفاً.



مع صالح حسن محمد في منزلي في أديس عام ١٩٨٨ بعد خروجه من السفارة الإثيوبية التي لجأ إليها إثر أحداث ١٩٨٦م



في حديقة المنزل بأديس مع علي السياغي ومحمود قاسم



منظر من حديقة منزلي في اديس ابابا الذي خصصه لي الرئيس منغستو هيلاميريا

وأكد الرئيس منغستو أنه جرى اتفاق بين (CIA) والـ (KGB) والموساد على إسقاط الإيديولوجيتين التقدمية بشكل عام والأصولية بمباركة غورباتشوف والرئيس بوش الأب، وأن هذه الخطة نوقشت في لقاء مالطة نهاية عام ٨٩م، وأن الضربة القادمة سوف توجه إلى أي نشاط للأصوليين، بمن فيهم إيران.

وتحدثنا في ذلك المساء عن نجاح إطلاق آخر دفعة من اللاجئين اليمنيين إلى السفارة الإثيوبية في عدن عقب أحداث يناير ١٩٨٦م، وكان شقيقي «سليمان» واحداً منهم، وكان يحضر معي العشاء هذه الليلة مع الرئيس منغستو. وتطرق الحديث إلى الظروف والصعوبات التي واجهت الإثيوبيين جراء هذه القضية المعقدة، حيث بذلت سلطات عدن كل ما في وسعها واستماتت في سبيل اعتقالهم، لكن الإصرار الإثيوبي حال دون ذلك، إلى درجة أن الرئيس منغستو هدد صراحة الرئيس حيدر العطاس عند لقائهما في مؤتمر هراري لدول عدم الانحياز قائلاً له بما معناه إنه إذا أصاب «جماعة السفارة» أي مكروه فسوف تضطر إثيوبيا إلى اتخاذ موقف ضد حكومة عدن.

في اليوم التالي، زارني الرئيس منجستو في مقر إقامتي، ثم صحبني بسيارته إلى قصر الشعب حيث اجتمعنا في كوخ صغير تغطيه الأشجار الخضراء أمام مسبح القصر.. وواصلنا حديثنا عن استخراج النفط في اقليم أوجادين وقال أنه عندما اكتشف الخبراء الروس النفط في منطقة (اوجادين) أخفوا ذلك عنا وبعثوا ببرقية إلى سفيرهم في «أديس أبابا» تقول : «بلغوا موسكو أننا اكتشفنا النفط.. بلغوا موسكو ولا تشعروا القيادة الإثيوبية!»

قمنا باصطياد البرقية وحل شفرتها. ثم استدعيت السفير السوفييتي في أديس، وعرضت عليه نص البرقية، وقلت له: مثل هذا الخبر السعيد كان من المفروض أن تزفوه لنا أولاً، وبعد ذلك تبلغوه لمن شئتم في موسكو! وطلبت منه مغادرة بعثتهم التي تنقب عن النفط في «أوجادين» الأراضي الإثيوبية خلال ٢٤ ساعة فقط..

والسؤال لماذا أخفوا خبر استكشاف النفط عن الاثيوبيين ولماذا لم يستخرجوا النفط في اليمن الديمقراطية على حدود السعودية والتي قال عنها بريجنيف في لقائي الاول معه في ٨ مارس ١٩٧٣ أن رمال الربع الخالي على حدود السعودية تسبح على بحيرات من النفط،

وقد انسحبوا من اثيوبيا واليمن كما انسحبت قبلهم شركة سونترك الجزائرية التي كانت تنقب عن النفط في الجنوب واتذكر حديثا لأحد سفراء الجزائر أنه قال لي أن الشركة لن تستخرج النفط حتى لا يكشر الاسد عن أنيابه واليوم يتحدث الخبير الاستراتيجي أنور عشقي عن هاتين المنطقتين بالذات وأن فيهما أكبر الحقول النفطية واتضح من كلامه أن الوقت لم يحن لاستثمار هذين الحقلين وغيرهما من الحقول النفطية في اليمن واثيوبيا وغيرها من المناطق حتى يتفق الكبار وأشار الى ضرورة توفر الاسباب التالية:

تحقيق السلام بين العرب واسرائيل

تغيير النظام في ايران.

وحدة مجلس التعاون الخليجي

تحقيق السلام في اليمن واحياء الميناء الحر في عدن.

انشاء قوة عربية اوروبية لحماية الدول العربية

السرعة في ارساء القواعد الديمقراطية في الدول العربية

العمل على ايجاد كردستان الكبرى بالطريقة السلمية لإيقاف الخطر الايراني والتركي والعراقي.

في النهاية شكرت الرئيس على حديثه واستضافته وكرمه انتقلت بعدها مع مرافقي إلى «سولدري»، وهي منطقة حمامات معدنية دافئة مناخها رائع. وأقمنا في القصر المطل على نهر «هواش» وعلى واحة خضراء جميلة وهو أحد قصور الامبراطو هيلاسيلاسي.. وكتبت عن هذه الرحلة في دفتر يومياتي ما يلي: «اليوم سبحنا ونزلنا إلى الحمامات والسونا، ثم جلسنا عند نهر هواش في واحة خضراء جميلة، وكانت فتاة تلبس اللباس الأثيوبي الأبيض تجلس أمامنا وهي تعد القهوة وتنظر نحونا بعينيها العسليتين وضفائرها المجدولة بصورة فنية رائعة، وأخذنا نشم رائحة البن[١] واستنشقنا الدخان المتصاعد من الحبات الملتهبة ما

---

(١) بعض المحطات التاريخية للبن

١. القرن الثامن الميلادي اكتشاف البن في أثيوبيا كبذور يقضمها الرعاة لزيادة نشاطهم.

٢. القرن الحادي العشر الميلادي بدء زراعة البن في اليمن كنشاط اقتصادي.

٣. في (١٤٧٥م) افتتاح أول مقهى في القسطنطينية.

٤. في (١٦٠٠م) الهولنديون ينقلون القهوة إلى نيو أمستردام. =

أدى إلى إراحة الأعصاب والشعور بالنشوة تماماً مثل مفعول رائحة البخور، ثم قامت الفتاة بصب القهوة في الفناجين وتقديمها لنا وقد أخذت القهوة اسمها من أكبر الأقاليم الحبشية المشهورة بإنتاجها وهو إقليم كافا kafa ومن عادتهم نثر الأعشاب الخضراء عند مدخل البيت والموقد وكذا رائحة البخور من اللبان لطرد الأرواح الشريرة كما يعتقد الأفارقة.



فتاة إثيوبية تعد القهوة (البنة) على الطريقة الإثيوبية

= ٥. في (١٦١٥م) وصول أول شحنة من البن اليمني إلى فيينا.

٦. في (١٦٣٧م) افتتاح أول مقهى في لندن.

٧. في (١٦٧٢م) افتتاح أول مقهى في باريس.

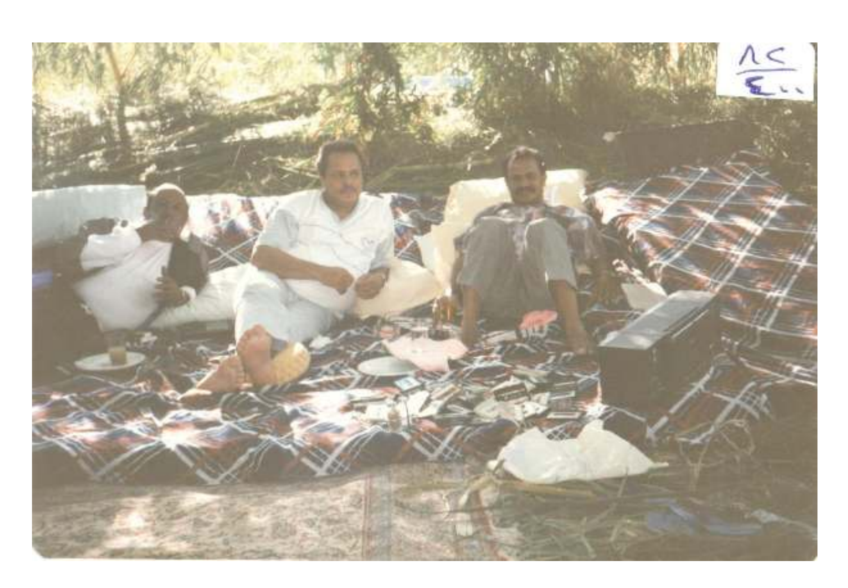
٨. في (١٦٩٠م) تمكن تجار هولنديون من تهريب بذور البن من اليمن وبدأوا زراعتها في جاوة وسومطرة.

٩. في (١٧٢٧م) إحضار البن من أوروبا إلى البرازيل.

١٠. في (١٩٠٣م) البرازيل تنتج ٩٠٪ من الإنتاج العالمي.

١١. في (٢٠١٦م) انعقاد المؤتمر الدولي الرابع للبن في أديس أبابا – إثيوبيا.

١٢. إلى يومنا هذا لايزال ٨٠٪ من الانتاج العالمي من البن هو من البذرة الأصلية المأخوذة من اليمن.



رحلة إلى سولدري

ولكن ما هو أجمل من ذلك هو الجو العائلي الذي أحاطنا به الإثيوبيون كعادتهم وكأننا في وطننا وبين أهلنا وأخوتنا. حتى العصافير بدت وهي تغرد على الأشجار وكأنها تحتفي بنا. ونقيق الضفادع بدا أيضاً مألوفاً وجميلاً، وهي تذكرنا بمواسم الأمطار والخير أيام الصبا والشباب في منطقة دثينة. وكانت التماسيح تعبر النهر وتظهر ثم تختفي في استعراض رائع وكأنها في مباراة احتفالية نظمت خصوصاً تكريماً لوجودنا. كل شيء على طبيعته جميل، والنهار أجمل، وكذلك الجو. وكل شيء هنا يتجاوز الخيال في هذه الطبيعة الإفريقية المذهلة.

الإثيوبيون الطيبون الذين يحيطون بنا بمحبة ومودة بالغة يقدمون إلينا الطعام والشراب ويتحركون بهدوء بالغ كنسمات الهواء،لا نسمع لهم صوتاً، بالرغم من كثرتهم بدا وكأن لا وجود لهم من فرط أدبهم وخفة حركتهم على النقيض منّا نحن اليمنيين. كنا ثلاثة أشخاص فقط، نتحدث ونملأ المكان الهادئ بالضجيج. عددنا ثلاثة ونحدث الضوضاء، وعددهم ثلاثون ولا تسمع لهم صوتاً على الإطلاق.

قضينا ثلاثة أيام جميلة على ضفاف نهر هواش العظيم الذي يجتاز أكثر من خمس محافظات إثيوبية، ويتلاشى في سهول هواش بالقرب من جيبوتي. وكأن هذا النهر الذي

رافق الحضارة الإثيوبية منذ بواكيرها الأولى أمعن في حبه وأنانيته إلى الحد الذي يأبى معه إلا أن ينبع من الأرض الإثيوبية ويختفي في الأرض نفسها، ليعود خيراً وزرعاً ومحاصيل من تلك الأرض الطيبة، وشعبها السمح الطيب بعكس نهر النيل الخالد الذي يمدّ خيره وطميه ومياهه إلى أراضي بلاد وشعوب أخرى كالسودان ومصر.

قبل العودة إلى دمشق دار حديث مهم عن ذكريات السفارة الإثيوبية في عدن، عن الفترة التي قضاها فيها سليمان ناصر والآخرون الذين كانوا معه.

قاتل سليمان وأنصاره حتى آخر طلقة وآخر موقع في العاصمة، وكان عليهم أن يبحثوا عن موقع يلجأون إليه بعد إغلاق مداخل عدن بالدبابات وانهيار الأوضاع فيها. وحاول سليمان ناصر الذهاب إلى مكتب منظمة التحرير الفلسطينية، فرفضوا استقباله، كما حدثني بعد ذلك ممثلهم عباس زكي، خوفاً من اقتحامه، وقرروا بعد ذلك الذهاب إلى السفارة الإثيوبية التي وجدوها مفتوحة فدخلوها واعتصموا بها، ولجأ نجلي جمال ومحمد أحمد وآخرون إلى منزل السفير الإثيوبي في المعلا الذي كان مهجوراً، وبعد يومين دخل السفير المنزل ليجدهم فيه، فقرر أن يحميهم ونقلهم إلى السفارة بخور مكسر وسط نقاط التفتيش على طول الطريق بين المعلا وخور مكسر. كذلك قرر صالح حسن محمد عضو اللجنة المركزية، اللجوء إلى السفارة نفسها، فتجمعوا فيها دون ميعاد. كانت الأحداث هي التي جمعتهم، ليجدوا أنفسهم في حماية منغستو، وكان خبر وجودهم في السفارة قد وصلني عبر الرئيس علي عبد الله صالح الذي قال لي: مبروك. جمال وسليمان وعبد الله ناصر وآخرون موجودون في السفارة الإثيوبية وأكد لي فيما بعد أن الأميركان التقطوا برقية السفير الإثيوبي في عدن إلى الرئيس منغستو وفتحوها وأشعروا علي عبد الله صالح بذلك. كان وضعهم في خطر طوال الشهرين اللذين أعقبا الأحداث، ولكن الحكام في عدن لم يعرفوا بهم إلا بعد هروب أحد رفاقهم، محمد أحمد مسعود، من السفارة وتسليم نفسه للمسؤولين في عدن، حيث وضعت السفارة والسفير تحت الحراسة العسكرية المشددة مدة أربع سنوات ونصف سنة إلى ما بعد قيام الوحدة عام ١٩٩٠م. وبعد أربع سنوات انهار النظام الإثيوبي ولجأ هذا السفير الذي حمى زملاءنا وأشقاءنا إلى قنصلية جيبوتي بهرر، باقياً فيها أكثر من خمس سنوات. كأن التاريخ يكرر نفسه بصورة أخرى في مكان آخر.



صالح مساعد-محمد أحمد صالح-سليمان ناصر محمد
السفارة الإثيوبية في عدن ١٩٨٦-١٩٩٠

الدبلوماسي السعودي عبد الرحمن الطعيمي



السفير السعودي عبد الرحمن الطعيمي[١]

(١) عبد الرحمن بن إبراهيم الطعيمي من مواليد عام ١٣٦٣هـ (١٩٤٣) بمكة المكرمة وتوفي في ٢٦ أيلول/ سبتمبر ٢٠١٣.

في يوم ١٤/ ١٠/ ١٩٩٠م استقبلت القائم بالأعمال السعودي عبد الرحمن الطعيمي في أديس أبابا، وكنت قد تعرفت إليه عندما كان قائماً بأعمال السفارة السعودية في عدن (١٩٧٩-١٩٨٠)، وقد قابلته بناءً على رغبة الرئيس منغستو في مساعدته على تحسين علاقات بلاده بدول المنطقة، وخصوصاً مع العربية السعودية ومصر وسورية ودولة الإمارات العربية المتحدة. وكان ذلك يؤكد إدراك منغستو حاجة بلاده إلى كل الجهود للتغلب على مشاكلها التي أثارتها الحرب ومتطلبات التنمية، وكان هاجس تفكك إثيوبيا يقلقه أكثر من أي شيء آخر، ويسعى إلى إيجاد حلّ سلمي للمشاكل في إطار إثيوبيا الموحدة. كان وفائي للرجل الذي وقف معي ومع شعبنا في أحلك الظروف يملي عليّ، بل يحتّم، الوقوف معه في تلك الظروف المعقدة التي كانت تجتازها بلاده، ومساعدته بقدر ما أستطيع، ولهذا شرعت في العمل فوراً، وبدأت مهمتي هذه في أديس أبابا بلقاء القائم بالأعمال السعودي، على أن أواصل جهودي اللاحقة عندما أعود إلى دمشق.

دار بيني وبين عبد الرحمن الطعيمي حديث طويل شرح خلاله علاقته القديمة باليمن عندما عمل قنصلاً في السفارة السعودية بصنعاء (١٩٧١ - ١٩٧٧)، وعلاقة بلاده بالسياسة الداخلية لليمن، بما فيها ترتيب ثلاثة انقلابات على القاضي عبد الرحمن الإرياني[1] رئيس المجلس الجمهوري في صنعاء، وتقديم كل أشكال الدعم إلى الرئيس أحمد الغشمي والرئيس علي عبد الله صالح. وكشف الدبلوماسي السعودي الذي كان يتحدث بمرارة عن أسرار كثيرة، وخصوصاً اللقاء الذي حصل في أسمرة بين السفير السعودي والملحق العسكري السعودي في صنعاء مع إبراهيم الحمدي وأحمد حسين الغشمي وعبد الله الأصنج وعلي عبد الله صالح، حيث تم الاتفاق على خطة الانقلاب على الرئيس القاضي عبد الرحمن الإرياني، وفي اللقاء الأخير سلّم القنصل السعودي مئتي دولار لعلي عبد الله صالح، وطلب منه أن يذهب ويخزن ويعود إليهم بعد ذلك، حتى لا يسمع حديثهم خوفاً من أن يفشي سرّ الانقلاب. وبعد أربع سنوات من هذا اللقاء جرت انقلابات واغتيالات عديدة ضد الرؤساء الإرياني والحمدي والغشمي. وتسلَّم الرئاسة علي عبد الله صالح وكان

(١) عبد الرحمن الإرياني، القاضي: زعيم ديني وسياسي يمني. ولد في ١٩٠١م.

القنصل السعودي من ضمن الوفد الذي هنأه بتوليه رئاسة الدولة في صنعاء. وعندما شاهده سأله: هل التقينا قبل ذلك؟ فردّ: لا يا فخامة الرئيس، فهذه هي المرة الأولى التي ألتقيكم. وقال: نحن الذين أوصلناه إلى السلطة، وقدمنا إليه أشكال الدعم السياسي والعسكري والمالي كافة، وبلغت مساعداتنا له ٢٢ مليار ريال سعودي حتى عام ١٩٩٠. وقال لي: هذا الرجل بدأ بمئتي دولار وانتهى بـ ٢٢ مليار ريال سعودي، والآن يقف مع احتلال صدام حسين للكويت، والتآمر على دول مجلس التعاون الخليجي، وأفشى إليّ الدبلوماسي السعودي أن علي عبد الله صالح عرض على الرئيس حسني مبارك ١٢ مليار دولار سنوياً من نفط الكويت إذا وقف مع صدام، أثناء مؤتمر القمة العربي في القاهرة، وقال لي إنه أيقن الآن بصحة ما قلته له في عام ١٩٨٠ حينما أعلمني بأن الملك فهد مستعد لأن يقدم إليّ أي مساعدة أطلبها، وحينذاك كان جوابي أنّ عليكم أن تهتموا بتقديم المساعدة إلى الشعوب، لا إلى الحكام، لأن الحكام زائلون والشعوب تبقى، وأردف: لو ساعدنا الشعب اليمني، لما حصل ما نراه من فساد في اليمن.

وقد تأكد لي صحة ما قاله القائم بالأعمال السعودي آنذاك السيد عبد الرحمن الطعيمي عن مجيء علي عبد الله صالح إلى الرئاسة عام ١٩٧٨م، كما ورد في مذكرات الشيخ عبد الله الأحمر، حيث أورد فيها:

«كما أصرّ معه الأخوان في المملكة العربية السعودية حتى استدعوني إلى جدة وفعلاً جاؤوا بطائرة تنقلني إلى هناك لإقناعي بعلي عبد الله صالح، لقد أيدت السعودية بشكل واضح ودعمت بقوة علي عبد الله صالح وبذل العميد صالح الهديان الملحق العسكري للمملكة جهوداً كبيرة لإقناعنا، كما خرج علي بن مسلم[١] من السعودية يقنعني ويقنع بقية المشايخ وجلس في صنعاء حتى تمت الأمور»[٢]. والرئيس علي عبد الله صالح لا ينكر الدور السعودي في وصوله إلى السلطة، وأتذكر حديثاً جرى بيني وبينه حيث قال إنه وصل

---

(١) مستشار الملك فهد بن عبد العزيز.

(٢) مذكرات الشيخ عبد الله بن حسين الأحمر قضايا ومواقف، الفصل السابع سنوات المعارضة، ص٢٢٦.

إلى السلطة بمسدسه ومال السعودية والدعم الأميركي، وكان استشهاد الرئيس الحمدي قد فتح الطريق أمامه واسعاً للوصول إلى السلطة.

وقد ارتبط الرئيس إبراهيم الحمدي بعلاقة خاصة مع الملك السعودي فيصل بن عبد العزيز، حيث جاء في شهادة لأخيه محمد الحمدي، الشقيق الأكبر للرئيس إبراهيم الحمدي كشف حقائق مهمة وخطيرة للغاية في ما يتعلق بعملية اغتياله والعلاقة الخاصة مع المملكة العربية السعودية في حديث صحفي في أكتوبر ٢٠١٢، وهو ما يثبت ما أكده لي السفير السعودي السيد عبد الرحمن الطعيمي، حيث جاء في حديث محمد الحمدي ما يأتي:

المعروف أن السعوديين دعموا إبراهيم الحمدي من البداية؟

(دعمه الملك فيصل، وكان يقول عنه: «إنه ابني»، وأذكر مرة أن مجلس الوزراء السعودي أثار قضية الحدود اليمنية السعودية في عهد فيصل، بعضهم بسوء نية، وخصوصاً من السديريين الذين كانوا ضد إبراهيم، فأحسّ إبراهيم بخطورة الأمر، فاتصل بعبد الله عبد العالم، وقال له: «اذهب إلى القيادة وامسكها حتى أرجع»، وتحرك مباشرة إلى مطار صنعاء واستقل طائرة خاصة باتجاه المملكة، ولم يُشعر المملكة بزيارته إلا وقد وصل إلى سماء الرياض، فتعجب الملك فيصل من هذه الزيارة المفاجئة وخرجوا لاستقباله إلى المطار، وذهب الموكب إلى رئاسة مجلس الوزراء الذي كان منعقداً ذلك اليوم برئاسة الملك فيصل، واستقبله الملك فيصل في المكتب، وقال له مباشرة: «أنتم تريدون فتح قضية نحن في غنًى عنها، ولا لزوم لها، بيننا اتفاقيات وبيننا أخوّة، وأريد أن أقول لك يا جلالة الملك: إن حدود اليمن الرياض، وحدود المملكة صنعاء. فماذا تريدون؟»، فأعجب الملك فيصل بهذا الكلام، وقام وأخذ بيده مباشرة وأدخله قاعة مجلس الوزراء مباشرة والوزراء مجتمعون، ولما رأوا الرئيس الحمدي مع الملك فوجئوا، وقال لهم: «لا نقاش بشأن الحدود لا نقاش لا نقاش. أقفلوا هذا الملف نهائياً». وفي اللحظة نفسها غادر إبراهيم المملكة، وقد طلبوا منه إعلان الزيارة، فاعتذر عن رفضه ذلك. طبعاً كان هذا قبل مقتل الملك فيصل بقليل، وهذا الكلام أخبرني به إبراهيم بنفسه). نهاية شهادة محمد الحمدي.

أما مجمل حديثي مع السفير السعودي، فقد تطرّق إلى العلاقات السعودية الإثيوبية

وضرورة التقارب بين البلدين لما فيه مصلحة شعبيهما وشعوب المنطقة ووعد بنقل ما دار بيننا إلى حكومته، وأنه سيرتب لي زيارة الى المملكة.

بعد العودة الى دمشق أجريت العديد من اللقاءات وفي المقدمة مع الرئيس حافظ الأسد وممثلي الحكومات السعودية والكويتية والمصرية والليبية لهذا الغرض... وقد قمت بزيارة سرية إلى السعودية على طائرة خاصة سورية والتقيت خلال هذه الزيارة بالأمير تركي الفيصل مدير المخابرات السعودية ونصحتحهم بالتعاون مع الرئيس منغستو وكان رد الأمير: «لقد جئتنا بعد فوات الأوان»، وشعرت بأن القرار الدولي قد اتُّخذ بعد مشاورات إقليمية، وحينذاك أيقنت أن مصير منغستو سيكون مثل مصيري، وباتفاق. وأن الآخرين سيدفعون الثمن، قادةً وشعوباً.



الفصل الرابع والعشرون

اليمن الديمقراطية وكوريا

في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٨٤م هبطت طائرتنا في مطار «بيونغ يانغ». كان ينتظرنا حشد من الكوريين، حيث اصطف نحو نصف مليون مواطن على طول الطريق من المطار إلى قصر الضيافة. استقبلوا موكبنا بالغناء والرقص، ولوّحوا بالأعلام الملونة، مشكلين سلسلة من الأهرامات البشرية حيث يتسلق بعضهم ظهور بعض بحركات رياضية من تلك التي يقدمونها عادة في الملاعب، ولكن هنا تجري على الهواء مباشرة وعلى امتداد الشوارع التي كنا نمرّ بها، وكانت هذه المواكب الزاحفة تضطرنا إلى الوقوف في أكثر من مكان.

كانت مدينة بيونغ يانغ ثاني عاصمة أجنبية بعد موسكو يزورها الرئيس قحطان الشعبي، أول رئيس لليمن الجنوبية. واستُقبل فيها استقبالاً رسمياً وشعبياً كالفاتحين، إذ كان أول رئيس عربي يزور كوريا الشمالية، وغنّى له الكوريون تلك الأغنية التي راجت بعد الاستقلال «بالأحضان يا قحطان» والتي لحنها وغناها الفنان اليمني الكبير أحمد قاسم. التقى الرئيس قحطان الزعيم الكوري كيم إيل سونغ زعيم الأربعين مليون كوري، أو «شمس الشموس»، كما يحب الكوريون أن يطلقوا على زعيمهم.

نبوءة كيم!

كان في انتظاري الزعيم الكوري الشمالي «كيم إيل سونغ» ونصف مليون كوري احتشدوا لاستقبالي. شعرت بحرارة الاستقبال هنا في هذا البلد البعيد. في زيارتي هذه قلدني الزعيم كيم إيل سونغ أعلى وسام تكريماً للعلاقة والصداقة بين القيادتين والشعبين الصديقين. وأجريت معه أيضاً، محادثات بدا فيها متأثراً جداً وقلقاً حيال مستقبل البلدان الأوروبية الاشتراكية، حيث كان قد قام بجولة واسعة فيها بالقطار في العام الذي سبق، وبدا حزيناً وهو يصف لي حالتها، وأبدى شكوكه في نجاح تجربتها واستمرارها بسبب فقدان الناس الحماسة للاشتراكية، وبسبب تخلف القيادات عن إصلاح الأوضاع السياسية والاقتصادية، والروتين والبيروقراطية التي تعرقل عملية التطور الاشتراكي وتعطل مصالح الجماهير. وقال إنه يشعر بأن هذه الدول ستنتهي عمّا قريب، وإنه قد رأى بوادر انهيارها، وإنه لم يحسّ بقوة النظام الاشتراكي وحماسة القيادة والناس إلا في ألمانيا الشرقية ولدى الزعيم الألماني إريك هونيكر.... لم يمضِ وقت طويل حتى تحققت نبوءته وانهار الاتحاد السوفياتي وبقية البلاد الاشتراكية الأوروبية التي أُلحقت به تحت جنازير الدبابات السوفياتية بعد الحرب العالمية الثانية.



كيم إيل سونغ رئيس جمهورية كوريا الديمقراطية يستقبل الرئيس علي ناصر محمد عام ١٩٨٤م ويمنحه ساماً

أمنية لم تتحقق

شرحت خلال المباحثات الخطوات السلمية التي قطعناها من أجل توحيد اليمن، موضحاً ما وسعني الجهد أعمال المجلس اليمني الأعلى وبقية اللجان الوحدوية. وكنت أعرف أن الزعيم الكوري مهتم أشد الاهتمام بالوحدة الكورية وقدم خلال السنوات الأخيرة العديد من المبادرات لتوحيد شمال وجنوب بلاده.

من المرجَّح أنه كان يسرح بخياله نحو تحقيق هذا الهدف العظيم، وهو ينصت إلى حديثي باهتمام، وتتفجر في ذهنه أسئلة عديدة. وعندما انتهيت من شرحي عاد من عالمه البعيد ذاك ونظر إليّ وقال: «إنني سعيد جداً مما سمعته منك عن الجهود التي تبذلونها لتوحيد بلدكم، وقد حققتم أشياء عظيمة أتمنى أن نصل ولو إلى خمسة في المئة منها في كوريا، ولا أخفي عليك أن غاية حياتي أن يطول بي العمر حتى أرى الوحدة الكورية تتحقق».

وقد وافته المنية بعد ذلك بسنوات دون أن يتحقق له ذلك الحلم، بينما تحققت الوحدة في اليمن والوحدة في ألمانيا.

وبعد ست وثلاثين عاما من حديث الجد كيم ايل سونغ يحقق حفيده كيم جونغ سونغ أمنية جده في التقارب بين الكوريتين على طريق تطبيع العلاقات في انتظار تحقيق الهدف الكبير الذي كان يحلم به الزعيم الكبير كيم ايل سونغ.



الرئيسين الكوررين يتصافحان على الحدود الفاصلة بينهما

السر الآسيوي

أظن أن القصة التالية تعطي صورة صغيرة عن سر اللغز الآسيوي. قال لي كيم إيل سونغ ونحن في قصر المباحثات، وهو صَرْحٌ شامخ من الرخام الباهر، يجمع بين الثراء والفخامة والأبهة على نحو لافت للنظر: «على هذا المقعد نفسه كان يجلس فرانسوا ميتران، كان يومذاك رئيساً للحزب الاشتراكي الفرنسي ولمّا يصبح بعد رئيساً للجمهورية الفرنسية، وقد نظر إلى هذه الثريا الكبيرة المعلقة فوقنا ولم يخف إعجابه بروعة صنعها وسألني: من أين استوردتم هذه الثريا الجميلة؟ وقد أجبته: نحن صنعناها. ثم تطلّع حواليه وسألني مرة أخرى: وهذا القصر الجميل الضخم؟ ما الشركة التي نفذته؟ فأجبته بهدوء: لقد بنته الشبيبة الكورية خلال سنة واحدة فقط. وهنا نظر إليّ ميتران وقال: إن الشعب الذي يفعل ذلك حقاً، شعب عظيم ويستحق كل الدعم. وإذا وصلت إلى رئاسة الجمهورية الفرنسية فسأقدّم إليكم كل الدعم الممكن». ثم ضحك «كيم إيل سونغ» معلقاً: لقد نسي السيد ميتران وعوده بعد أن أصبح رئيساً لفرنسا ولم يسأل عنا. لقد اختفى واختفت وعوده. لكنني لا أخفي عليك أننا لم نحمل وعوده يومذاك على محمل الجد، فيتعين على المرء أن يعتمد على نفسه، وهذا ما نحن مصممون عليه في كوريا الديمقراطية، الاعتماد على الذات». وأخذ يشرح لي فكرة «زوتشيه» التي يتبنونها والإنجازات التي حققها شعبه بالاعتماد عليها كنوع من تأكيد الاعتماد على النفس بعيداً عن الصراع السوفياتي الصيني، وهي تعني المزيد من الاشتراكية والقومية الخاصة والاستقلال سياسياً وعسكرياً واقتصادياً، وهي فلسفة الاعتماد على النفس، وبعد ثلاث وثلاثين سنة من زيارتنا لها عام ١٩٨٤م أصبحت كوريا الشمالية قوة نووية تتحدى أكبر الدول في العالم بعد القنبلة الهيدروجينية التي جربتها في أغسطس عام ٢٠١٧.



في زيارة لأحد المعاهد في بيونغ يانغ عام ١٩٨٤م

في بيونغ يانغ تداعت إلى ذهني مجدداً ذكريات زيارتي الأولى، كوريا الديمقراطية في ٢٤ أبريل ١٩٧٨م. أذكر حينذاك أن جمال الطبيعة بهرني كثيراً، فالنصف الأخير من أبريل موعد تفتح زهور الربيع، وقد أضافت مباهج الاحتفالات رونقاً، وجمالاً إضافياً، إلى جمال الطبيعة. ولم أكن أتصور أن أرى ذلك التناسق والتناغم بين مظاهر الطبيعة المختلفة. فنهر «ثيودنغ كان» الذي يشقّ العاصمة، والأشجار الظليلة، المنتشرة في كل مكان، وجبل موران بون الرابض من حول المدينة بمظهره الخلّاب، والشوارع النظيفة، والهواء النقي العليل، كل ذلك يجعلك تقف مندهشاً من جمال صنع الخالق. ولكنني لا أستطيع الجزم الآن، أكانت فعلاً كذلك، أم أنني بهرت بما رأيت لأنني كنت قادماً من طبيعة مختلفة، بيئة صحراوية جرداء قلما ينبت فيها الشجر، وجبال جرداء لا يكسوها الاخضرار، لندرة الأمطار، وانعدام الأنهار..

كان الزعيم كيم إيل سونغ يعاني أمراضاً كثيرة، لكنها مخفية عن الناس، حتى تلك القطعة اللحمية الكبيرة التي كان يحملها فوق ظهره كان الشعب يعتقد أنها ميزة لا تحدث

عند الناس العاديين، بل هي ميزة يختص بها العظماء فقط، وحينما مات اعتقد الكوريون أن يوم القيامة قد اقترب، وعرف العالم الابن، فإذا بصورته تشبه صورة أبيه تماماً ويبدوان وكأنهما في عمر متقارب.

يحكي لي مرافقي عن عبقرية الابن العزيز وهذا لقبه يحكي كيف سأله أستاذه مرة عن ١+١ فأجاب العزيز أنها تساوي ١، فاندهش المدرس، لكنه لا يستطيع أن يكذّب ابن الزعيم العزيز، وفي الوقت نفسه لا يستطيع أن يغيّر في حساب المنطق الرياضي، فطلب منه أن ينور المدرسة ويعلم المعلم ويرشد الطلبة فقال ١+١=١ يعني كوريا الشمالية + كوريا الجنوبية تساوي كوريو أي بمعنى كوريا الواحدة، فانهمرت عينا المدرس بالدموع وفرح فرحاً عظيماً ذلك اليوم وابتهج لنبوغ الابن العزيز وعبقريته، الذي ربما جنبه الإعدام فيما لو اعترض أو حاول التصحيح له، فانحنت رؤوس بقية الطلبة خشوعاً وإكباراً للعبقرية الصغيرة التي أنجبتها كوريا الشمالية.

كوريا الجنوبية

زيارة نصف كوريا لا تكتمل من غير زيارة جزئها أو شطرها الآخر، وأقصد كوريا الجنوبية. وقد كان عليّ أن أنتظر سنوات طويلة لكي أستطيع رؤيتها، وتحقيق حلم لم أستطع تحقيقه عندما كنت في السلطة. فقد كان التفكير في زيارة كوريا الجنوبية يومذاك يُعَدّ موقفاً سياسياً وأيديولوجياً معادياً للأصدقاء في كوريا الشمالية ولزعيمها كيم إيل سونغ الذي كان يعدّ نفسه زعيماً لأربعين مليون كوري، هم كل سكان الشمال والجنوب، حيث لم يكن يعترف بتقسيم شبه الجزيرة الكورية، التي تفصل بينها اليوم منطقة صغيرة لا يتجاوز عرضها أكثر من أربعة كيلومترات، تفصل الأشقاء الألداء. منزوعة السلاح حقاً، لكن السلاح المحتشد على أطرافها يفوق حجم أي كمية من الأسلحة على أي حدود أخرى في العالم، تبدأ بالبنادق التي تصوب بدقة الليزر، ولا تنتهي إلا بالصواريخ والقنابل النووية، ولا يفوق حجم السلاح إلا حجم الكراهية والاحتقان الذي استنفد جهد نصف قرن من حياة الكوريتين. لقد تغير الأمر

قليلاً. لم يتراجع السلاح، ولكن تغيرت نبرة الحوار، ولم يعد الحديث عن مذابح الماضي، ولكن عن ذلك الضوء الذي يمكن أن يشرق في نهاية النفق[1].

أما كيف جاءت الدعوة لزيارة سيول، فقد تلقيت دعوة من (السيد مون) لحضور مؤتمر السلام في نهاية مارس ١٩٩٤م، وهو المؤتمر الذي يحضره كثير من زعماء العالم السابقين من الرؤساء ورؤساء الحكومات والشخصيات العربية والدولية من الذين تركوا السلطة في بلدانهم. لبيتُ الدعوة وقلت إنها فرصة لرؤية الشطر الآخر من كوريا بعد أن أتيحت لي الفرصة قبلاً لزيارة كوريا الشمالية، كذلك فإنها فرصة للقاء العديد من زعماء العالم الذين لم يعودوا في السلطة.

حلّقنا على ارتفاع ٣٧٠٠٠ قدم في طائرة «كاثي باسفيك» العملاقة من نوع البوينغ ٧٤٧ في الأجواء من البحرين إلى محطتنا الأولى «هونغ كونغ»[2] بدت لنا على الشاشة كانت مدينة هانوي عاصمة فيتنام على بعد ٣٠٠ كيلومتر من البحر، كذلك ظهرت أيضاً على الخريطة نفسها، تايلاند ولاوس، اللتان كنا نمرّ بالقرب منهما أو فوقهما. كانت طائرتنا تقترب من مطار هونغ كونغ عروس الشرق الأقصى أو لؤلؤته وآخر جواهر التاج البريطاني التي كان سكانها يستعدون للالتحاق بالوطن الأم الصين بعد أن ظلت محتلة منذ عام ١٨٤١م.

هذه هي المرة الأولى التي أزور فيها هونغ كونغ، لكن اسمها كان يتردد دوماً، وقد قرأت وسمعت عنها وعن معجزتها الاقتصادية كثيراً، وكانت منتجاتها تملأ أسواق عدن التي كانت

(١) د. محمد المنسي قنديل، «كوريا على حافة المنطقة منزوعة السلاح»، مجلة العربي العدد ٥٧٣ آب/ أغسطس ٢٠٠٦ (ص ٣٧).

(٢) هونغ كونغ: ومعنى اسمها شذى الورد أو الهواء المعطر أو المرفأ الذي تفوح منه رائحة العطر، وهي مستعمرة بريطانية (١٨٤١م – ١٩٩٧م)، ولكن الصينيين طردوا البريطانيين في معارك متوالية معروفة باسم حرب الأفيون ١٨٤٠ – ١٨٤٢م فقد كانوا يحملّون صناديق الأفيون من الهند ويبيعونها في الصين، حتى أدمن الشعب الصيني تعاطي المخدرات، وبلغ عدد صناديق الأفيون التي صدرتها بريطانيا إلى الصين في عام ١٨٩٨م نحو ٤٠ ألف صندوق، وقام أحد ملوك الصين وجمع كل ما يملكه التجار من أفيون وأحرقه وهدد بإعدام كل من يبيعه أو ينقله أو يتعاطاه، وانسحبت بريطانيا ولكنها استولت على هونغ كونغ.

سوقاً لتصريف منتجات المستعمرات البريطانية فيما وراء البحار في ظل حكومة صاحبة الجلالة، وكانت عدن يومذاك إحدى جواهر التاج البريطاني وجوهرة الجزيرة العربية، وكان اسمها يملأ الآفاق ميناءً حراً وسوقاً حرة وأسعاراً أقل من الأسعار في هونغ كونغ.



هبطت الطائرة في لسان طويل ممتد وسط البحر بعد أن اخترقت السحاب وتسللت بين الجبال والأبراج العالية ووقفت وسط المباني حيث أصبح من الصعب علينا التمييز إن كنا هبطنا حقاً في المطار أو هبطنا خطأً في أحد شوارع هونغ كونغ ذات المباني والأبراج العالية، ويُعَدّ مطار كاي تاك (مطار هونغ كونغ) أكثر مطارات العالم رعباً فى مرحلة الإقلاع والهبوط بسبب الرياح القوية والجبال المحيطة والأحوال الجوية المضطربة، وصنف عام ١٩٩٨م كأخطر مدرج هبوط على وجه الأرض، ويُعَدّ القاعدة الرئيسة لشركة كاثي باسيفيك والعديد من شركات الطيران الإقليمية، وعلى خلفية هذه الغابة من ناطحات السحاب تنتشر أحواض ملأى بالتراب حيث تزرع مجموعة واسعة من المنتجات، منها الخيار والطماطم على سطوح هذه الأبراج بسبب ضيق المساحة حيث تشكل السطوح المكان الوحيد لزرع الخضار، شأنها شأن العديد من المدن الكبرى التي اتبعت هذا الأسلوب. هذه هونغ كونغ

مدينة هادئة وجميلة كانت تنتظر مصيرها قبل أن تؤول ملكيتها إلى الصين في عام ١٩٩٧م حين وجدت المخرج لذلك بإطلاق شعارها الذي لقي رضا وترحيب سكان المستعمرة البريطانية السابقة وترحيبهم، وهو «وطن واحد ونظامان». أدّت الحكمة الصينية دورها في الحفاظ على النمو الاقتصادي الرأسمالي للمدينة، وهو أمر يصبّ في مصلحة الصين، وفي الوقت نفسه استعادت سيادتها على الجزيرة التي اقتطعت من الوطن الأم ولم تشترط لتحقيق ذلك دمجها في الإنتاج الاشتراكي أو النظام الشيوعي، بل إن الصين نفسها اجترحت معجزتها الاقتصادية التي جعلت منها أكبر اقتصاد في العالم نمواً.

بعد أربع ساعات من الانتظار انتقلنا إلى طائرة أخرى أقلتنا إلى سيول عاصمة كوريا الجنوبية الرأسمالية، التي دخلت في منافسة وسباق مع بيونغ يانغ الشيوعية لإثبات من منهما تستطيع تحقيق الأفضلية للمواطنين الكوريين.

من المعروف أنه في صيف ١٩٥٠م اندلعت الحرب الكورية، وخيّم شبح الحرب العالمية الثالثة على العالم من جديد. فقد تجاوزت قوات كوريا الشمالية خط عرض ٣٨ الفاصل بين الكوريتين بمقتضى قرارات مؤتمر بوتسرام ١٩٤٥م بعد استسلام اليابان وتقسيم كوريا إلى دولتين: جنوبية عاصمتها «سيول» برئاسة ينجمان ري وتحت حماية الولايات المتحدة، وشمالية عاصمتها بيونغ يانغ وتخضع للنفوذ السوفياتي. وعقب الهجوم اجتمع مجلس الأمن – في غياب المندوب السوفياتي – وقرر تشكيل قوات دولية تحت علم الأمم المتحدة، وتحركت القوات الأميركية المتمركزة في المحيط الهادئ بقيادة الجنرال «ماك آرثر» لنجدة كوريا الجنوبية. وكانت القوات الأميركية موجودة هناك في تاريخ زيارتنا عام ١٩٩٤م ولا تزال هناك حتى اليوم.

نزلنا في فندق لوت، في الدور ٢٨ في جناح جميل يطل على مدينة سيول ذات ناطحات السحاب والمباني العالية التي يخال إليك أنها تطاول أو تعانق الجبال المطلة على المدينة. ولم أصدق عندما قيل لي إن هناك مدينة كاملة تحت هذا الفندق، إلا بعد أن هبطت إليها وشاهدتها بنفسي بشوارعها ومحالها التجارية التي تكتظ بالسياح والمستثمرين، ويبدو أن هذه المدينة في الأسفل لها علاقة بالموقع الاستراتيجي لسيول والتطور الهائل الذي شهدته

المدينة... إذ لا تبتعد سيول سوى ثلاثين كيلومتراً عن الجبهة، وتقع على مرمى المدفعية الكورية الشمالية المتمركزة وراء خط العرض ٣٨ الذي يفصل بين الكوريتين. عندما صعدت لم أجد سبيلاً إلى النوم بسبب اختلاف التوقيت، فساعتي كانت تشير إلى الثانية عشرة ليلاً بتوقيت دمشق التي قدمت منها، أي منتصف الليل، ولكن الوقت في سيول كان في اللحظة نفسها السادسة و٤٥ دقيقة صباحاً. طلبت من منظمي المؤتمر إشعارنا بموعد بدء أعماله الذي كان يحضره أيضاً الرئيس السوفياتي الأسبق ميخائيل غورباتشوف، صديق السيد مون، الملياردير ورجل الأعمال المعروف الذي وعد الزعيم السوفياتي ذات يوم بتقديم ١٢ مليار دولار مقابل تدمير الشيوعية والقيام بالإصلاحات في الاتحاد السوفياتي، ولكنه نكث بوعده. وغورباتشوف لا يضيع فرصة حضور مؤتمر كهذا، فهو منذ أعوام أي منذ أن أُقصي من السلطة بعد انهيار الاتحاد السوفياتي، وهو يتنقل بين عواصم العالم لإلقاء المحاضرات وجمع المساعدات لصندوقه كما يدعي يرافقه صديقه كارين بروتنتس، وهما الآن يحضران هذا المؤتمر الذي تحدث فيه السيد مون في الجلسة الافتتاحية مفلسفاً الصراع منذ مهد البشرية، أي منذ خلق آدم وحواء، وقابيل وهابيل، والأنبياء والرسل الذين جاؤوا لإصلاح حال البشر بعد أن عجز آدم عن إصلاح حال أبنائه. وتحدث في كلمته عن الخير والشر والحرب والسلام. المهم أن الرجل لم يكن فيلسوفاً، ولا كان مصلحاً سياسياً أو اجتماعياً، ولكنه يملك المليارات التي يحاول بواسطتها أن يبني مجداً، وهو لذلك ينظم في كل عام حفلات جماعية للزواج عبر الكمبيوتر حيث يختار الزوج والزوجة المناسبين الواحد للآخر، ويتكفل السيد مون بتكاليف هذا الزواج جميعاً في حفلة كبيرة سنوية. وكان صديقنا المترجم تاج الدين (وهو من أصول سودانية) أحد هؤلاء المحظوظين الذين زوجهم الملياردير أو (الوالد) كما كان يسميه، وكان من نصيبه زوجة أسترالية اختارها له (الكمبيوتر) من وحي الملفات والمعلومات والمواصفات التي غذي بها الجهاز الذي حلّ في عصر العلم والمعلوماتية بدل الخاطبة التقليدية التي كنا نعرفها أيام زمان!

إلى جانب السيد مون تحدث في الجلسة الافتتاحية كل من:

الفريق عبد الرحمن سوار الذهب، الرئيس الأسبق للسودان، أمين الجميل، الرئيس الأسبق – لبنان، عزيز صدقي، رئيس وزراء سابق – مصر، د. عبد العزيز حجازي، رئيس وزراء سابق – مصر، د. طاهر المصري، رئيس مجلس النواب الأردني، الدكتورة حنان عشراوي – فلسطين، ميخائيل غورباتشوف – الرئيس الأسبق للاتحاد السوفياتي، الزعيم كاو ندا – رئيس زامبيا، إدوارد هيث – رئيس وزراء بريطانيا الأسبق، وأكثر من خمسين شخصية من مختلف القارات، معظمهم كانوا رؤساء دول وحكومات وبرلمانات سابقين!!



بعد انتهاء أعمال المؤتمر ذهبتُ مع مرافقي في رحلتي هذه، عبد الله البار، عضو قيادة المؤتمر الشعبي العام ومعاوني حسن عليوه، في زيارات لبعض معالم سيول، حيث أمكننا الاطلاع على جوانب من التطور الهائل الذي تشهده كوريا الجنوبية التي تُعَدّ إحدى القواعد المتقدمة للولايات المتحدة الأميركية قبل انهيار الاتحاد السوفياتي، في ظل الحرب الباردة بين المعسكرين، وهي التي لا تزال تحتفظ بقواعدها وقواتها هنا حتى بعد زواله لتكون قريبة من كوريا الشمالية والصين.

كانت الزيارة لكوريا الجنوبية مفيدة لي، فقد اطلعت على المعجزة الآسيوية التي تسهم سيول بنصيبها فيها، وأتاحت لي الفرصة أيضاً الاطلاع على الوجه الآخر لكوريا وعلى تجربة الشعب الكوري العظيم الذي ينشد الوحدة، التي بدأت المباحثات بين الكوريتين بشأنها بعد ذلك، حيث زار كيم داي جونغ الرئيس الكوري الجنوبي بيونغ يانغ واجتمع إلى الزعيم الكوري الشمالي كيم جونغ إيل ووقّعا العديد من الاتفاقات المهمة، أهمها جمع شمل العائلات الكورية، وهي أول زيارة يقوم بها زعيم كوري جنوبي للشطر الآخر من كوريا بعد موت زعيمها كيم إيل سونغ الذي ورث ابنه عنه السلطة عام ١٩٩٤م في أول ظاهرة في نوعها في دولة شيوعية. وبهذا اللقاء بين الرئيسين الكوريين كادت آخر خطوط الحرب الباردة أن تبدأ بالسقوط، وكاد الجدار الحديدي الذي كان يقسم كوريا منذ قرابة نصف قرن يزول، لكن الأمل بذلك الانفتاح لم يستمر طويلاً، إذ سرعان ما برز شبح المواجهات بين الكوريتين.

في نهاية الزيارة سألت نفسي: ما الذي جاء بنا إلى هذا الغول الرأسمالي الذي جمع هذا العدد من الزعماء السابقين في العالم حال بعضهم كان يُرثى له مثل غورباتشوف الذي وصل إلى حفلة فنية، فذهب للسلام على السيد مون وزوجته اللذين كانا يجلسان في مقدمة الحضور، ولكن هذا الأخير لم يكلف نفسه حتى عناء النهوض، فسلَّم عليه وهو جالس في مكانه، وتكرر هذا الموقف بعد إلقاء غورباتشوف كلمته، حيث ذهب للسلام على السيد مون وهو جالس في مكانه. لعنت في سري هذا «النوع من الزعماء» الذي يقبل كل هذا الإذلال على نفسه وهو الذي كان يحكم ذات يوم الدولة العظمى الثانية في العالم، وبيده مفاتيح الزر النووي، ولعنت الظروف التي أتت بنا إلى هذا الرجل. قررت ألّا أشارك في مؤتمر من مؤتمراته السنوية بعد ذلك، وفعلاً أخذت أعتذر عن عدم الحضور عاماً بعد عام.

لقاء مع كاوندا في سيول

في ٢٨ مارس التقيت الزعيم الإفريقي كاوندا الذي حكم زامبيا زمناً طويلاً، وكان يُعَدّ أحد حكماء أفريقيا، ولكنه اليوم يعيش خارج السلطة في انتظار العودة إليها. ويعتقد

أن البريطانيين هم الذين أزاحوه... خلال اللقاء حدثني كاوندا عن الدور الذي أدّاه السيد (هنش كلف) المندوب السامي في زامبيا، في إبعاده عن السلطة، وقال إنه دخل زامبيا وأخذ يعمل كالفأر لنخر سلطته وإزاحته، وإن زوجة السيد هنش اشتغلت هي الأخرى في أوساط المرأة الزامبية، وإن الاثنين تمكنا من إزاحته وإبعاده من السلطة. وكان هذا الأخير، يعمل ضابطاً سياسياً في محمية عدن الغربية، ويتنقل بين عدن وزنجبار ولودر ومودية، وكانت تحت تصرفه طائرة صغيرة يستخدمها في تنقلاته في محميات عدن الغربية. وكان يسميها «التكسي» وقد تعرفت إليه في مودية في حفل غداء وهو مطلع شبابه وحيويته ويتكلم اللغة العربية بطلاقة كغيره من المستشارين البريطانيين.

دار حديث بيني وبين كاوندا حول الأوضاع في زامبيا والقارة الإفريقية واليمن والوطن العربي وعن الصديق الرئيس منغستو هيلا مريام إذ تعرّفت إلى كاوندا في العاصمة الإثيوبية أديس أبابا أثناء انعقاد المؤتمر الأول لحزب العمال الإثيوبي، وأتذكر أن الرئيس منغستو كان يتحدث باحترام كبير عن كاوندا باعتباره أحد حكماء القارة الأفريقية. كان كاوندا خلال الهتافات التي تتردد في المؤتمر يلوح بمنديله الأبيض، كما هي عادته، ما ذكرني بالسيدة أم كلثوم التي اشتهرت بمنديلها الذي تمسك به خلال حفلاتها الغنائية.

قابلت في اليوم نفسه الدكتور عزيز صدقي والدكتور عبد العزيز حجازي، والاثنان كانا رئيسي وزراء سابقين لمصر ودار حديثنا حول مصر واليمن وضرورة الاستقرار في أوضاعهما.

منغوليا

الخيول المغولية

من «بيونغ يانغ» واصلتُ رحلتي إلى جمهورية منغوليا الشعبية في النصف الأول من أكتوبر عام ١٩٨٤. وعندما وصلت إلى عاصمتها «أولان باتور» بعد الظهر كانت الشمس مشرقة مائلة بعيدة عن كبد السماء، وكان الطقس شديد البرودة والرياح الباردة تعصف في المطار. في هذا الجوّ القارس كان عليّ استعراض حرس الشرف ومصافحة مستقبلي. سَرَتْ في جسدي قشعريرة باردة وتجمدت أطرافي، لكنني تحاملت على نفسي وتجلدت، لم يبد

لي ذلك العرض مريحاً ولا ممتعاً في تلك الأجواء. وكان واضحاً أن المنغوليين معتادون أجواء بلادهم، لكنني كنت ارتعش من البرد وأفضل أن تنتهي هذه المراسم سريعاً. لكن ما إن انتهت مراسم الاستقبال الرسمي في المطار حتى بدأت مراسم الاستقبال الشعبي في الشوارع والطرقات. وقد أصرّ مضيفي «تسيد نبال» زعيم منغوليا، على أن نستقل سيارة مكشوفة لتبدأ رحلة أخرى مع البرد والرياح، وكنت وأنا أحيي الجماهير المحتشدة على طول الطرق أحييهم بيد واحدة، واضعاً الأخرى في جيب معطفي حتى لا تتجمد من البرودة، وشعرت بأن أذنيّ قد تجمدتا وشفتيّ قد سال الدم منهما. كنت ارتجف من الداخل وأتظاهر خارجياً بالتماسك والجلد. وظللت على هذا الحال حتى وصلنا إلى دار الضيافة، وكان أول ما فعله المضيفون المنغوليون الطيبون أن أدخلوني والوفد المرافق في خيمة منصوبة في حديقة الدار، وهناك رحبوا بنا على الطريقة المغولية، ودخلت فتاة طويلة وجميلة كانت عيناها الصغيرتان الجميلتان تشعان بالفرح والترحيب، وانحنت وقدمت إلينا كأساً من لبن الخيل مثلما تقتضي تقاليد الضيافة عندهم، وهذه هي المرة الأولى التي أشرب لبن الخيل. وكما علمت بأنه يوجد في منغوليا ملايين من الأحصنة وملايين من الحيوانات كالأبقار والأغنام والإبل، وقد شاهدت قطعاناً من الظباء والوعول ترعى إلى جانب دار الضيافة التي نزلت فيها.

والمنغوليون رعاة ماشية أساساً، فهم يرتحلون وراءها ولا يكادون يعرفون الاستقرار، وتبلغ مساحة منغوليا نحو ١,٥٦٥,٠٠٠ كيلومتر مربع، ورغم كل هذا فالسكان لا يتجاوزون ثلاثة ملايين نسمة، وقد حدثني الرئيس المنغولي ونحن في الطريق من المطار إلى دار الضيافة أن النقص في عدد السكان سببه أن أغلب المنغوليين هاجروا إلى روسيا والصين والولايات المتحدة الأميركية نظراً إلى ضعف الاقتصاد المنغولي في العقود الماضية. ومنغوليا هي الدولة الوحيدة في العالم التي يزيد عدد الخيول فيها على عدد السكان بأضعاف حيث تنتشر الخيول في كل مكان في البلاد



أجريتُ مباحثات رسمية مع القادة المنغوليين «سيدنبال» الأمين العام لحزب الشعب الثوري المنغولي، ورئيس الوزراء «جامبين» ورئيس الخورال الأعظم «البرلمان» تناولت العلاقات الثنائية بين بلدينا والوضع الدولي. وكانت الأدبيات السوفياتية تذكر منغوليا دائماً كنموذج لإمكانية بناء الاشتراكية من غير المرور بالمرحلة الرأسمالية. ويقدمون هذه النصيحة لبلدان العالم الثالث، ومنها اليمن الديمقراطية، للأخذ بها فوراً. ولا أنكر أنني كنت متشوقاً لرؤية هذه التجربة، وكيف تصنع. لكني فوجئت، كما فوجئ غيري بمجتمع من الرعاة في غالبيته، ولا يخطر للإنسان على بال أنه يمكن صنع اشتراكية هنا في وقت لا توجد فيه بنى اقتصادية أخرى سوى تربية الخيل، الثروة القومية الأولى في منغوليا. وقد بدا لي وأنا أرى العاصمة الفقيرة في أحيائها وعدد مبانيها أن المعلومات التي قدمت إلينا عبر الإعلام كانت مغلوطة. لكن لم أنس وأنا أشاهد آلاف الخيالة المغول يمتطون خيولهم، أن أتذكر التاريخ وكيف أنهم اجتازوا بها ذات يوم كل الحدود حتى وصل إلى بغداد أحفاد «جنكيز خان»، وهو من أعظم الجنرالات والقادة في التاريخ وأشهرهم قساوة، فهو الذي استطاع أن يبني إمبراطورية حجمها يفوق أربع مرات حجم إمبراطورية الإسكندر الأكبر ومرتين حجم الإمبراطورية الرومانية التي امتدت من بحر اليابان شرقاً إلى بلاد فارس غرباً، ومن غرب الحدود الروسية شمالاً إلى شبه الجزيرة الهندية جنوباً، فبلغت ١٢ مليون كيلومتر مربع،

وقد زرنا متحفه. ودار في خلدي أن المغول القدماء ربما اهتدوا إلى سر قوتهم الخاصة قبل أن يفعل ذلك «أولان باتور» مؤسس حزب الشعب الثوري المنغولي الذي سُمّيت العاصمة باسمه، والذي ذهب إلى موسكو ليقابل زعيمها «لينين» لإقناعه بتسمية حزبه الحزب الشيوعي المنغولي، لولا أن لينين نصحه بالعدول عن ذلك، انطلاقاً من واقعهم المتخلف.



محادثات مع الرئيس المنغولي في قاعة القائد أولان باتور – عام ١٩٨٤

ولتكريمنا واحتفاءً بنا أقاموا حفلة فنية ساهرة في دار الأوبرا وقدموا عروضاً ورقصات شعبية بملابسهم الفولكلورية. وقُلِّدتُ وسام أولان باتور مؤسس دولة منغوليا.



وسام أولان باتور مؤسس دولة منغوليا



الفصل الخامس والعشرون

اليمن الديمقراطية والغرب

كانت اليمن شمالاً وجنوباً، في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الأولى، وبعد سقوط الخلافة الإسلامية العثمانية التي سيطرت على المنطقة نحو ألف عام، تعيش كغيرها من بلدان الوطن العربي حالة فراغ في السلطة، وقد سد الاستعمار الذي ورث «الرجل المريض» هذا الفراغ مدة من الزمن، ثم جاء وقت كان لا بد فيه لهذا الاستعمار أن يحمل عصاه ويرحل عن أوطاننا. كان لزاماً علينا أن نبحث عن الأشكال الفكرية والسياسية والإدارية التي يمكنها أن تنظّم مجتمعاتنا الجديدة التي نصبو إليها. كان هناك من يعتقد أنه بتقليد الغرب ستسير الأمور جيداً، بينما كان البعض الآخر يرى أن الاستعمار لم يورثنا شيئاً يستحق الذكر في مختلف المجالات باستثناء الاهتمام بمستعمرة عدن التي كانت قاعدة عسكرية وإدارية للإمبراطورية التي كانت لا تغيب عنها الشمس وهمزة وصل بين مستعمراته. لكن، والحق يقال، تركت لنا إرثاً من القوانين والأنظمة المالية والإدارية والعملة، ومؤسسات عسكرية ومدنية كانت النواة التي اعتمدنا عليها في بناء الدولة بعد الاستقلال في ٣٠ نوفمبر ١٩٦٧م. ولذا، فقد تشعبت بنا الطرق والاتجاهات يميناً ويساراً في بحثنا عن المستقبل. ولأسباب كثيرة، فقد اتجهنا يساراً في خياراتنا في اليمن الديمقراطية، ووجدناه طريقاً لإنقاذ بلادنا من التخلف والتبعية، وترتب على ذلك بالطبع علاقات وثيقة مع الاتحاد السوفياتي والبلدان الاشتراكية.

لم تشهد علاقاتنا مع بريطانيا أي تطور بعد أن تخلت عن التزاماتها المالية والعسكرية والفنية تجاه الدولة الجديدة في عدن، وكذلك مع الدول الغربية التي ناصبتنا العداء منذ الاستقلال.

كان من الخطأ إخضاع مصالح الدولة بشكل دائم للمواقف الفكرية والإيديولوجية خصوصاً في ما يتعلق بالعلاقات بين الدولة والدول الأخرى. وللأسف، لم يكن معظمنا قادراً على التمييز بين خدمة مصالح الدولة والمجتمع والموقف الأيديولوجي المبدئي الذي يتخذه الحزب. أخفقت بعض القيادات السياسية عندنا في التمييز بين هذين المستويين، ما أدى إلى خلق مشكلات أثرت في سياستها الخارجية ومصالحها الوطنية. وكان الاتحاد السوفياتي والدول الاشتراكية يقيمان علاقات مع أميركا والدول الغربية، بينما البعض عندنا يرفض أي علاقة مع أميركا إلا في عهد الرئيس سالم ربيع علي، وعلى استحياء، واعتبر ذلك خيانة للمبادئ والعلاقات مع الدول الصديقة.

كنت شخصياً بوصفي رئيساً للوزراء، ومن ثم رئيساً للدولة، أرى أن أفكار الحزب ومواقفه تلزمني فكرياً بوصفي أميناً عاماً لهذا الحزب، لكنها لا تقيدني سياسياً. وكنت أعتقد أنها لا تعني بالضرورة الربط ميكانيكي، بين معتقدات الحزب وسياسة الدولة، فالسياسات أمر قابل للتغيير والتحول باستمرار، وهي محكومة بظروف وضغوط وعوامل آنية عديدة. في الموقف السياسي أستطيع أن أقيم علاقات منفعة متبادلة مع كل الدول دون أن أتنازل عن سيادتنا الوطنية أو مواقفنا وعلاقاتنا المتميزة مع الأصدقاء، لأن الفعل السياسي مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمصلحة الوطنية وبموازين القوى ضمن ظروف معينة. وإذا اختلّ هذا التوازن يحدث الانكسار بين الفكر والواقع، بين الحلم الثوري وضرورات التطبيق.

في الثمانينيات حين حاولنا اتباع سياسة واقعية من هذا النوع في السياسة الداخلية والخارجية، ابتدأت ردود الأفعال المتشنجة تصدر عن بعض العناصر المتطرفة ووُجهت إليّ ما عُدّ حينئذ اتهامات، كتوسيع علاقات الإنتاج الرأسمالي في المجتمع، وتعميق التبعية الاقتصادية للسوق الرأسمالية وخلق مجتمع استهلاكي، وهي قضايا سعت وتسعى كثير من الدول والشعوب لتحقيقها حتى الآن... ولكنها كانت من ضمن صحيفة الاتهام الموجهة ضدي حينذاك...

لكن من اتهمني بذلك؟

الذي اتهمني بذلك كان بعض منظري الحزب الاشتراكي اليمني في وثيقتهم الشهيرة التي تحمل عنوان «الوثيقة التحليلية» المقدمة إلى الكونفرنس الحزبي المنعقد في عدن عام ١٩٨٧م.

الحقيقة المعروفة جيداً أن علاقتنا التجارية مع الولايات المتحدة الأميركية كانت محدودة جداً، والارتفاع الذي ظهر في حجم تبادلنا التجاري نتج أصلاً من عقد صفقة تجارية مع الشركة الأميركية لطائرات «بوينغ» لشراء طائرتين من طراز بوينغ لتدعيم أسطولنا «اليمدا»، وشراء معدات وأجهزة دقيقة تستخدم لأغراض البحث والتنقيب عن النفط في عام ١٩٨٥م أوصت بشرائها شركة «تكنو إكسبورت» السوفياتية التي تنقّب عن النفط في اليمن الديمقراطية[١] أي إن ذلك كان لضرورة اقتصادية محضة وملحة، ولم يكن في الأمر انقلاب على نهج الحزب وفكره.

وهذا ما كانت تسميه الوثيقة النقدية التحليلية تصاعدَ العلاقات التجارية مع الولايات المتحدة إلى (١٥) مرة عام ١٩٨٥م مقارنة بعام ١٩٨٠م.

أكاد أذهل حين أرى كيف يلوي البعض عنق الحقيقة. أعرف أن من الحرية أن نختلف، لكن أعرف أيضاً أن من الحرية أن نترك الأمر للرأي العام والتاريخ احتراماً للحرية. وعلى أي حال، فإن التاريخ نفسه قد قال كلمته فيما بعد. وإلا فأين هم أولئك الذين هاجموني بالأمس، وأين يقفون اليوم؟ بل أين يسكنون؟ وقد امتلك بعضهم الشجاعة لمراجعة تلك المواقف وكان الشهيد جار الله عمر واحداً منهم وقادراً على النقد الذاتي والاعتبار من التاريخ ووقائعه ونتائجه: ففي مقابلة له في صحيفة الخليج عدد ٣ يناير ٢٠٠٣ نُشرت بعد استشهاده يقول:

«لا شك أن السياسة التي اتبعها الأخ علي ناصر محمد في تلك الفترة كانت سياسة عملية وكانت مفيدة للنظام في الجنوب، لكنه كان هناك نقد لها، سواء من الزاوية الإيديولوجية أو من زاوية الصراع على السلطة. في عهد علي ناصر تمّ على سبيل المثال تحسين العلاقة

(١) دفاعاً عن تجربة الثورة في اليمن الديمقراطية، ١٩٨٧م: ص ٧٤.

مع عمان والشروع في المفاوضات حول الحدود وكانت هذه من الخطوات الجريئة التي ساعدت النظام وخففت الحصار من حوله، لكن الحزب لم يكن مستعداً بكامله لتفهم هذه الخطوات وتقبلها بشكل تلقائي، فقد كانت التعبئة الإيديولوجية لا تزال قوية وكنا مأخوذين بالشعارات الثورية وبأهمية الصمود في وجه كل التحديات، ثم الاعتقاد بإمكانية تحقيق الاشتراكية والتقدم».

العلاقات مع بريطانيا

كانت علاقاتنا بالدول الغربية والولايات المتحدة الأميركية عُرضة لتعقيدات كثيرة، منها داخلية تتعلق بالقيادة، ومنها خارجية ناتجة من تحفظ الغرب عموماً حيال علاقاتنا الخارجية، فضلاً عن عوامل كثيرة أخرى.

وحتى عندما بدأنا بالسعي لتطبيع علاقاتنا بهذه الدول، تداخلت عوامل أخرى عرضت لها في مكان آخر من هذه المذكرات، كقضية (الإرهاب) التي حالت دون إقامة علاقات تعاون وثيق معها.

أتوقف هنا عند علاقاتنا بالدولة التي كان يفترض بعد عام ١٩٦٧م، أن تظل على علاقة متميزة مع بلدنا، وأعني بها بريطانيا، لكونها الدولة التي استعمرت بلدنا أكثر من قرن وربع قرن وعليها واجب الاستمرار بتنفيذ التزاماتها التي وعدت بها في مفاوضات جنيف.

كان من ضمن جدول محادثات جنيف في نوفمبر ١٩٦٧م موضوع المساعدات البريطانية بعد الاستقلال، ووافقت الحكومة البريطانية حينذاك على دفع ١٢ مليون جنيه إسترليني، طالب الطرف اليمني بتسليمه دفعة واحدة، لكن الحكومة البريطانية رفضت.

وهكذا وصلت محادثات جنيف حول المعونة البريطانية إلى طريق مسدود، لأن وفد الجبهة القومية المفاوض وقف بشدة ضد الشروط البريطانية، التي اقترحت دفع ١٢ مليون جنيه إسترليني سنوياً للحكومة الجديدة لمدة ثلاث سنوات، و١٠ ملايين كمعونة عسكرية مقابل قاعدة عسكرية بريطانية. لم تفِ الحكومة البريطانية بشيء من ذلك، وتوقف تحويل المبالغ إلى حكومة الجنوب، كذلك توقف أيضاً تزويد الجيش في الجنوب بقطع الغيار

للطائرات البريطانية (الجيت بروفيست) والزوارق والمدرعات صلاح الدين والفيريت التي اشتهرت بقدرتها على التحرك والقتال في الصحراء والجبال والأودية نتيجة مرونة حركتها وقوة هذا النوع من الأسلحة البريطانية ومتانته، لم تترك الحكومة البريطانية أي مجنزرات أو أسلحة مدفعية للجيش إلا بعض سيارات اللاندروفر وناقلات الجنود وأجهزة الاتصالات السلكية واللاسلكية، ولكنها تركت بنية تحتية من معسكرات ومطارات ومساكن للجنود والضباط في عدن والمحافظات، إضافة إلى نظام إداري ومالي ممتاز مع قدرة على التأهيل والتدريب تؤمن الضبط والربط العسكريين الذي اشتهرت به جيوش محمية عدن، ما أدى إلى أن نبحث عن بدائل أخرى لشراء الأسلحة كالاتحاد السوفياتي وقطع غيار من السوق السوداء للأسلحة البريطانية.

تعقدت العلاقات مع بقية الدول الغربية والولايات المتحدة الأميركية، وقُطعَت العلاقات معها في فترات متقطعة، أو خُفض مستوى التمثيل إلى حده الأدنى، ولم يبق في عدن سوى عدد محدود من السفارات الغربية، منها السفارة البريطانية بالطبع.

التقيت السفير البريطاني «آرثر كيلاس ARTHUR KELLAS» في عدن عام ١٩٧٢م بحضور علي أسعد مثنى وزير العمل والشؤون الاجتماعية، وفي لقاء طويل استمر زهاء أربع ساعات طرحت عليه موضوع معاشات المتقاعدين، حقوق نهاية الخدمة، وموضوع الأجهزة اللاسلكية التي أوقفوها رغم حاجتنا الماسة إليها، وموضوع قطع الغيار للأجهزة والأسلحة البريطانية، وقلت له ونحن بصدد الحديث عن هذه القضايا وعن علاقات البلدين: إن الفرنسيين لم يقطعوا علاقاتهم بالجزائريين، رغم أن الجزائر انتزعت استقلالها من الفرنسيين بتضحيات عظيمة، إلى درجة أن الثورة الجزائرية تسمى اليوم، بثورة المليون شهيد، على عكس ما تفعلون أنتم معنا!

بعد أن استمع السفير إلي طويلاً، قال: هذا أول لقاء جدي منذ الاستقلال مع مسؤول يمني.

قلت له: لماذا القطيعة، وبإمكاننا التفاهم بما يخدم مصالحنا المشتركة؟!

قال السفير: سندرس الموضوع، وسأرفع كل هذه القضايا إلى حكومة بلادي، ولكنه

أضاف في ما يشبه النصيحة: إن كل العلاقة وتحسنها رهن بموضوع العلاقة بالجيران، وإن موضوع استخراج النفط والمعادن في بلادكم رهن أيضاً بالعلاقة مع الجيران. وكان صادقاً في كلامه، فرغم محاولات استخراج النفط في ثمود والبحر، فقد انسحبت الشركات تحت ضغط الجيران.

بعد ٣٠ عاماً على هذا اللقاء نشرت الحكومة البريطانية كعادتها بعض الوثائق والمراسلات بين السفارة البريطانية في عدن ووزارة الخارجية البريطانية في لندن، تتحدث عن محاولة الاغتيال التي تعرضت لها يوم ٢٢ مايو ١٩٧٢م واللقاءات التي جرت بيني وبين السفير البريطاني والرئيس سالم ربيع علي، وجاء فيها أنه قابلني بعد خمسة أيام من محاولة الاغتيال ولم يشاهد أي أثر لإصابة في ساقي كما كان يتردد بين أوساط الدبلوماسيين في عدن آنذاك، وأن الهدف من إعلان المحاولة تصفية خصوم النظام ومحاولة إخفاء كثير من الانقسامات والصراعات الداخلية، وفي ما يأتي نص وثيقة السفارة البريطانية في عدن.

جاء فيها أن السفير التقى الرئيس سالم ربيع علي الذي أكد استعداده لتطوير العلاقات التجارية مع بريطانيا والغرب وتوسيعها، ويعتقد أنه على الصعيد الشخصي كان مهذباً ومؤدباً، لكن الإحصاءات أظهرت أن التجارة مع بريطانيا تتضاءل، وعلينا أن نعترف أن بريطانيا قد أخفقت في ممارسة دورها بعدم تقديم النوع الصحيح من الدين، لأن عدن بدأت تدور تجاه الصين بتأثير سالم ربيع علي ونحو الروس بتأثير التيار الموالي للسوفيات، ولكن يجب الاعتراف بقوة الجبهة القومية التي تحكم البلاد بقبضة حديدية. ويعترف السفير بأن الجبهة القومية لا يمكن إسقاطها من قبل المعارضة التي تتكون من تجار ورجال حرفيين ومثقفين، وأن اليمن الجنوبي يحكمه أناس مجانين! هكذا.

أبدى السفير تشاؤمه من إحلال الواردات من الغرب بدلاً من واردات الكتلة الشرقية والمنتجات الصينية التي تقدَّم بقروض ميسّرة وبعضها يُقدَّم مجاناً.

وأكد السفير أن العلاقات التجارية والواردات قد زادت صادرات اليمن الجنوبي إلى المملكة المتحدة عام ١٩٧٠م إلى ٢٤,٧ مليون دينار يمني مقابل واردات بـ٥,٥ ملايين

دينار، فيما وصل إجمالي صادرات المنتجات النفطية إلى ٤٩ مليون دينار من إجمالي الصادرات البالغ ٤٥ , ٦٠ مليون دينار لعام ١٩٧١م. لكن مدير الشركة البريطانية في عدن الصغرى المستر نيزنر أكد أن نشاط مصافي البترول يصل إلى خمس صادرات عدن أو سدسها، حيث فرضت ضرائب على واردات النفط، وأن الشركة لم تعد تخشى التأميم، رغم أنها لا تريد الرحيل عن عدن.

لفت انتباه السفير العداء الذي يكنّه الوزراء، وفي مقدمتهم وزير الخارجية محمد صالح عولقي[1] وأن الفجوة العقائدية تفصلنا عن النظام وعناصره الذين يطالبون باستئصال عملاء الإمبريالية البريطانية أينما وجدوا. وحقيقة الأمر أن جهاز أمن الدولة في عدن لم يكشف أي نشاط لمصلحة البريطانيين وأجهزة استخباراتهم، وهم الذين حكموا عدن مدة ١٢٩ سنة. وأكد السفير البريطاني أن النظام في عدن يعمل على تصدير الثورة إلى المنطقة، بطريقة لم يحاول الرئيس ربيع دحضها في اجتماعه الأخير مع السفير آرثر كيلاس. وعلينا أن نعترف بأن بريطانيا قد خابت في ممارسة أي دور أو نفوذ لها في عدن بعد أن تراجعت عن تقديم الدعم المالي وأوقفت تصدير الأجهزة وقطع الغيار إلى الجيش اليمني الجنوبي، لأنها كانت تراهن على إسقاط النظام بواسطة بعض قادة الجيش الذين أوهموها بأن حكم الجبهة القومية لن يصمد، وسيسقط بسبب الأزمات المالية والاقتصادية والسياسية والصراع على السلطة، ولهذا فقد أخلّت ونكثت بكل الاتفاقيات التي اتُّفق عليها في مفاوضات جنيف عام ١٩٦٧م، في انتظار المجهول والحلم الذي لم يتحقق.

العلاقات مع الولايات المتحدة الأميركية

بين البوينغ والـ تي-يو (T-U)!

اتسمت العلاقة بالولايات المتحدة الأميركية، بموقف عدائي أظن أننا كنا المبادرين إليه، حين اتهمنا «الملحق العسكري» الأميركي الذي لا وجود له بالمشاركة في حركة قام به

(١) كان موظفاً ونقابياً كبيراً في شركة مصافي عدن.

بعض قادة الجيش في ٢٠ مارس ١٩٦٨م، فيما لم يكن هناك أي ملحق عسكري أميركي[١] في عدن في هذا التاريخ ولا بعده!

بهذا المنطق أعلن الرئيس سالم ربيع علي «سالمين» قطع العلاقات الدبلوماسية مع الولايات المتحدة الأميركية من على منصة الخطابة في أحد ميادين عدن بكريتر في سبتمبر ١٩٦٩م.

واتخذ هذا الموقف احتجاجاً على حرق المسجد الأقصى الشريف في ٢١ أغسطس ١٩٦٩م، ومع كل قدسية المكان وجلال الموقف، فإن الموضوع لم يكن له صلة بالعلاقات اليمنية الأميركية. كذلك لم تكن واشنطن متورطة في تفجير المسجد، وكان هذا الموقف الذي اتخذ في عدن هو الموقف العربي والإسلامي الوحيد، ولم تحذُ حذوه أية دولة عربية أو إسلامية أخرى. والنتيجة أننا نحن الذين خسرنا، إذ إن الأميركان اتجهوا بعد ذلك لدعم المعارضة بكل قوة ودعم الأنظمة ضد النظام في عدن.

مع إدراكي، أن موقف أية دولة يتكون انطلاقاً من مصالحها ومصالح أصدقائها في المنطقة والعلاقات مع من تعتبرهم أعداء، فلقد كان موقف واشنطن من اليمن الديمقراطية كذلك يتكون على هذا الأساس نفسه.

رغم ذلك، كان بالإمكان اتباع سياسة أكثر مرونة، وحين بدا أن الموقف الأميركي لم يتغير من ناحيته، أو ربما كانت لهم نظرتهم وخططهم التي لم يستنفذونها بعد. كذلك ظل موقف بعض أفراد قيادتنا في الحكم معادياً في ما يتعلق بالأميركان، لا من ناحية سياساتهم فحسب، بل حتى تجاه العلاقات التجارية مع الشركات الأميركية، وعلى سبيل المثال، أذكر الموقف الذي اتخذه البعض من موضوع شراء الطائرات الأميركية المدنية النفاثة لشركة الطيران الوطنية (اليمدا)، إذ أصروا على تزويد الشركة بطائرات (TU 154) السوفياتية، رغم أن الخبراء بمن فيهم السوفيات أجمعوا على أن الجدوى الاقتصادية لطائرات البوينغ ٧٣٧

---

(١) افتتحت القنصلية الأميركية في عدن عام ١٨٧٩م تحت إشراف المستر وليام لوكرمان الذي أصبح قنصلاً فخرياً للولايات المتحدة. لكن العمل الرسمي لم يبدأ إلا في عام ١٨٩٥م حيث تولى مسؤولية القنصلية المستر ماسترسن.

وطائرات الداش-٧ الكندية أفضل من طائرات TU 154 وأنتينوف ٢٦، وقد قلت يومذاك لأصحاب هذا الرأي:

إذا لم نشتر من السوفيات طائرة أو طائرتين، فلن يخسروا شيئاً، لكن بلدنا بلد فقير وسوف نخسر نحن الكثير بشرائنا لها!!

كان ثمة مزايا عديدة تتفوق بها الطائرات الأميركية والكندية عن مثيلاتها من الطائرات الروسية. وعلى سبيل المثال، فإن هذه الأخيرة تصرف بنسبة ٣٠٪ زيادة في الوقود بالإضافة إلى صعوبات الصيانة، حيث لا يتوافر للطائرات الروسية ورش أو محطات صيانة في المنطقة، ولصيانتها لا بد من إرسالها إلى موسكو، بينما الطائرات الأخرى لها محطات صيانة في بلدان قريبة مجاورة، وبالتالي تكلفة صيانتها أقل. وهو عامل اقتصادي مهم لا يمكن إهماله أو التغاضي عنه عند المفاضلة والاختيار بين أنواع الطائرات. كما كان كادر الطيارين والفنيين مؤهل على طائرات البوينغ وعلى هذه الاسس قررنا شراء الطائرات.

إن أول طائرة كندية من نوع (داش - ٧) اشتريناها استعدنا ثمنها خلال أربع سنوات من بدء تشغيلها، هذه فترة قياسية بالنسبة إلى حركة الطيران اليمني. ولم يتوقف الأمر عند شراء الطائرات الأميركية والكندية لمزاياها العديدة، على أنه عندما قررت شركتا «البوينغ» الأميركية و«الداش» الكندية تسليمنا الطائرات التي اشتريناها، اعترض وزير أمن الدولة حينها صالح السييلي وقال: إن هؤلاء الذين جاؤوا لتسليم الطائرات ليسوا طيارين عاديين، بل جواسيس أرسلتهم واشنطن!!

لكنني قلت له بأنه لا يجوز الاعتراض على تسليمنا الطائرات التي اشتريناها ودفعنا أثمانها! باعتبارها شركات دولية لها سمعتها وعندها نظام للتسليم والتسلم حسب أصول دولية متعارف عليها، ثم إن هؤلاء الذين تقولون عنهم إنهم جواسيس سينزلون في أحد فنادقنا، وهم تحت سمعكم وبصركم لمدة قصيرة لا تتجاوز الأسبوع فلماذا الخوف إذاً؟!

فقال لي: كيف سنراقبهم وهم سيلتقطون الصور للمعسكرات من فندق عدن (والذي كان بعض المزايدين يطلقون عليه قلعة الرأسمالية).

غاب عن أذهان هؤلاء، أن الأقمار الصناعية الخاصة بالتجسس تصور أدق الأشياء،

بالإضافة إلى اختراق المخابرات الغربية والأميركية العديد من قيادات العالم الثالث، ولم يكونوا يحتاجون إلى إرسال جواسيس أجانب يسهل فضحهم واكتشافهم بسهولة!!

بريماكوف ومستشار الرئيس الأميركي مارك كاتز

أذكر أنه في عام ١٩٨٨م قابلت في صنعاء أحد المستشرقين الأميركيين، اسمه البروفسور (Mark Katz) مارك كاتز، وهو خبير متخصص في المد السوفياتي(الشيوعي) في الجزيرة العربية ومعتمد خبيراً متخصصاً لدى البيت الأبيض في عهد إدارتي ريغان وبوش، وحضر اللقاء كل من عبد الله أحمد غانم والقاضي نجيب شميري والدبلوماسي اليمني مروان نعمان الذي كان يشغل مدير مكتب وزير خارجية الجمهورية العربية اليمنية الدكتور عبد الكريم الإرياني الذي عُقد اللقاء بترتيب منه.

قبل بدء اللقاء قال لي المستشرق الأميركي: حرصاً على وقتنا أريد أن تعرف أنني أعرف عنك كل شيء منذ أن كنت في السلطة وحتى هذه اللحظة، ولهذا فإن عندي بعض الأسئلة والاستفسارات التي أريد أن أستمع إلى توضيح لها منك. وقد حاولت أن أعرف بعض التفاصيل عمّا جرى في عدن ١٩٨٦م من بريماكوف الذي كان مديراً لمعهد الاستشراق ثم أصبح وزيراً للأمن ثم وزيراً للخارجية وأخيراً رئيساً للوزراء، ومن فيتالي ناؤومكين مدير معهد الاستشراق، فوجدتهما يتهمانك بأنك تحولت إلى ديكتاتور صغير وتمردت عليهم، أي على الروس، ونسجت علاقات مع القوى الإمبريالية والرجعية على حساب العلاقة مع الاتحاد السوفياتي، ولهذا كان لا بد أن تسقط. وكان ردي «أي ردّ المستشرق الأميركي» عليهما: ولهذا أعدتم عبد الفتاح إسماعيل من موسكو إلى عدن لاستخدامه ضد علي ناصر... ولكنكم أنتم الذين خسرتم، لأنه في ظل سياسة علي ناصر المرنة استعدتم العلاقة مع صنعاء، وأقمتم علاقة دبلوماسية مع عُمان، ومع الإمارات، وأنتم الآن تغازلون السعودية، وهذا لم يكن ليتحقق في ظل وجود عبد الفتاح إسماعيل. وعلى عكس ما تعتقدونه فإن سياسة عبد الفتاح كانت تخدم استراتيجيتنا ومصالحنا في المنطقة».

وسألني البروفسور كاتز: لماذا لم نسمع منك كلمة واحدة ضد الاتحاد السوفياتي منذ خروجك من عدن بالرغم من أنك تعرف أنهم تآمروا عليك؟!

مثل هذا السؤال كنت قد سمعته من الرئيس علي عبد الله صالح والشيخ عبد الله حسين الأحمر وبعض المسؤولين في اليمن وخارجه، وقد أجبته: إن معركتي ليست مع الاتحاد السوفياتي حتى إذا صحّ ما تقوله حول موقفهم مني، وأنتم الأميركان أنفسكم تعيشون شهر عسل معه برئاسة غورباتشوف، كذلك فإن معركتي ليست مع النظام في عدن، بل مع بعض رموزه.

علّق المستشرق الأميركي: «أفهم من هذا أنك ما زلت في أعماقك اشتراكياً!»، ثم ضحك وقال: «أقصد وطنياً».

كان سؤاله الثاني: هل إذا عدت إلى السلطة في عدن ستقيم علاقات معنا نحن الأميركان؟!

وكان جوابي له: لا أفكر في العودة إلى السلطة في عدن، بل أفكر في المساعدة على حلّ مشاكل اليمن كلها، مما يجنبها الصراعات، والحلّ من وجهة نظري يكمن في الوحدة اليمنية.

قال: يبدو أن الوحدة مطلب بعيد وصعب التحقيق الآن. رددت قائلاً: أنا متيقن أنها ستتحقق، وأعتقد أن ذلك سيكون قريباً. قال: «إذا تحققت، فما مصير القواعد السوفياتية في جزيرة سقطرى، وهو السؤال نفسه الذي سمعته من أحد البريطانيين ومن آخر ألماني غربي.

وكان ردي: أولاً لا توجد قواعد سوفياتية في الجزيرة، وأنا هنا لا أدافع عن النظام في عدن، ولا عن السوفيات، وكنت أسمع مثل هذا الكلام وأنا في السلطة، وأنتم الأميركان أكثر من يعرف أنه لا توجد قواعد سوفياتية في الجزيرة أو في أي مكان في اليمن الديمقراطية، وهذا جزء من الحرب الباردة، وأنا لا يمكن أن أُستخدَم كغيري من المعارضة في هذه المعارك الإعلامية.

التفت نحوي وقال: أنت على حق.

بعد حديث طويل ومتشعب مع المستشرق الأميركي سألني فجأة: سيادة الرئيس،

لماذا لم تقم علاقات دبلوماسية مع بلادي، الولايات المتحدة، وأنت الرجل الذي أفرج عن علاقات اليمن الديمقراطية مع دول المنطقة وبقية العالم؟

هذا السؤال طُرح عليّ مراراً في أوقات مختلفة، وقد أجبت المستشرق الأميركي بالقول:

على عكس ما تقول، أنا لم أرفض العلاقة مع بلادك. واشنطن ويا للأسف، هي التي ناصبتنا العداء، وأظن أن ذلك كان في إطار استراتيجيتها المعروفة في مناصبة العداء للسوفيات، بالرغم من أننا لم نكن إحدى الجمهوريات السوفياتية. كنا دولة مستقلة ذات سيادة، وقد سبق لأحد السيناتورات الأميركيين أن زار عدن في عام ١٩٧٤، وهو «بول فندلي» صاحب كتاب من يجرؤ على الكلام.

وكان بالإمكان أن نؤسس بداية مناسبة لإقامة العلاقات بين البلدين انطلاقاً من نتائج زياراته، رغم أن مهمته، كما جاء في كتابه، كانت إنسانية للسعي للإفراج عن مواطن أميركي كان قد اعتُقل هناك... لكن بالنسبة إلينا، لم يجرِ أي اتصال أميركي معي، ولو حتى عبر طرف ثالث. وكما تعلمون، لم تتركوا لي أية فرصة لإقامة علاقات معكم، أو التفاوض من أجل إقامتها بعد موقفكم العدائي الصريح تجاهنا، خصوصاً بعدما انكشف الدور الذي قامت به «الولايات المتحدة الأميركية» في تدريب وتمويل شبكة التخريب التي أرسلت لحرق عدن عبر الرياض وصنعاء، وكانت مكلفة حسب اعتراف أفرادها نسف مؤسسات حيوية نفطية واقتصادية في قلب العاصمة عدن. وكان من شأن تنفيذها إلحاق أضرار جسيمة بأمن الجمهورية واقتصادها، وأرواح المواطنين الأبرياء. وفيما بعد اعترف الأميركيون أنفسهم بمسؤوليتهم عن ذلك. وذكّرته بما جاء بهذا الصدد في كتاب الحجاب. وقد استشهدت بما جاء فيه في مكان سابق من هذه المذكرات، ولا داعي لتكراره.



مع السيد مارك كاتز

وعلى هامش مشاركتي في مؤتمر فالداي في موسكو فبراير ٢٠١٧م، التقيت بالسيد مارك كاتز وقد بادرني بالسلام وسألني : هل عرفتني؟

تأملت في وجهه وقلت: انك لست بغريب عني! ولكنني لا أتذكر.

فعرف عن نفسه: أنا مارك كاتز التقيت بك عام ١٩٨٨م.

وبدا لي أن الزمن قد فعل فعله بنا جميعاً بعد هذه السنين إضافة الى أنه قد غزا الشيب شعره وأطلق لحيته والتي ظهر عليها الشعر الأبيض أيضاً.

تبادلنا بعد ذلك الحديث وشعرت أنه متابع ومطّلع جيداً لما يجري في اليمن والمنطقة، وتحدثنا عن اليمن وعن عاصفة الحزم، وآخر التطورات. وأكدتُ له على موقفي الثابت من الحرب وعلى إنها يجب أن تتوقف. كما أكدتُ على ضرورة أن تتخذ الإدارة الأمريكية موقفاً من هذه الحرب لأن استمرارها لا يخدم اليمن ولا المنطقة ولا المصالح الدولية، لما تتمتع به من موقع استراتيجي في باب المندب والبحر الاحمر والقرن الافريقي.

وأكد من جانبه على وقف الحرب وأبداً استعداده لبذل جهوده مع الجهات التي لها علاقة بالقرار في الإدارة الأميركية بهذا الشأن.



الفصل السادس والعشرون

اليمن الديمقراطية والهند

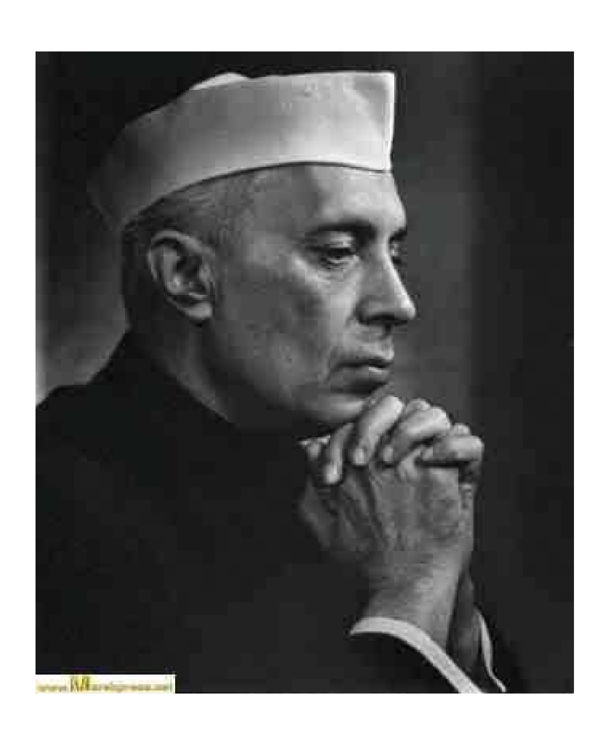
علاقة بين حضارتين... اللُّبان والتوابل

في عام ١٩٨١م زرت الهند التي تُعَدّ أكبر تجمع في العالم للغات والإيديولوجيات والأديان والعادات والتعددية البشرية والسياسية زيارة رسمية. لكن تلك لم تكن زيارتي الأولى لهذا البلد الصديق، فقد زرتها عدة مرات. وقد تركت الهند في نفسي وقلبي أثراً لا يمكن أن يُمحى.

الحديث عن العلاقات اليمنية الهندية، حديث عن روحانية المكان وعبق الزمان. إنها علاقات قديمة العهد، ولها جذور تاريخية عميقة، وقد تطورت في أزمان الكشوفات البحرية التي ساعدت على ازدهار التجارة بين اليمن والهند.

فجواهر لال نهرو «باني نهضة الهند الحديثة، وأول رئيس للوزراء في الهند بعد الاستقلال، يقول في كتابه اكتشاف الهند عن الروابط والعلاقات والتجارة والثقافة الدينية والعلمية بين الهند والعرب: «تحولت الصلة بين العرب والهند من الناحية التجارية إلى الناحية الدينية الإسلامية، ولقد حضر الدعاة المسلمون العرب لنشر دعوة هذا الدين الجديد

فوجدوا الترحيب، وبُنيت المساجد، ولم يكن هنالك أي اعتراض، لا من جانب الحكومة، ولا من الناس، ولم يكن هنالك نزاع ولا قتال».



جواهر لال نهرو أول رئيس وزراء للهند بعد الاستقلال

ويجدد نهرو التأكيد أن العلاقة بين الهند واليمن أزلية ضاربة جذورها في أعماق التاريخ، وكانت في الماضي علاقة بين حضارتي «اللبان والتوابل»، وقال إن «ما بين اللبان والتوابل معاني إنسانية تتجاوز المصلحة التجارية، أو بمصطلح اليوم «السلعة الاقتصادية» إلى ما هو أبعد وأسمى في العلاقات بين الأمم».

أضاف: «لقد انصهرت الحضارتان (الهندية واليمنية) في بوتقة إنسانية بدأت باللبان والبخور والتوابل والحرير، وانتهت إلى أسمى تفاهم إنساني وحضاري وأرقى تواصل بين شعبين وأمتين وحضارتين، ولا يغيب عن الذاكرة عبقرية أهل اليمن التجارية ممثلة بتجار حضرموت (العقول التجارية الناجحة)، ولا طبيعة أهل الهند المسالمة التي فتحت للأمم

قلبها وأرضها للإفادة من حضارة الآخرين وتجارتهم ورسالتهم، وفي طليعتهم تجار حضرموت وعلماء اليمن الذين قدموا من مناطق يمنية مختلفة أهل رسالة، قبل أن يكونوا أهل تجارة، إذ تُجمع كل الدراسات والأقوال على أن (الحضارم) هم من عمق علاقة العرب بغيرهم من الأمم، ومنها الهند، وعملوا - بالقدوة الحسنة وحسن المعاملة في التجارة - على نشر رسالة دينهم العظيم لسائر الشعوب ومنها شعوب الهند».

وأكد أن «العلاقة بين الهند واليمن وطيدة من قبل الإسلام وبعده، ومتينة من أزل بعيد وتاريخ قديم ضارب في القدم. ولا عجب، فاليمن والهند متجاورتان جغرافياً، ولا يفصل بينهما سوى بحر العرب، بل هذا البحر لم يفصل بينهما (بلغة الجغرافيا)، بل قارب بين الحضارتين ووصلهما ورسّخ علاقتهما قديماً وحديثاً».

وتابع: «لقد تعمقت العلاقات بين الهند واليمن قبل الإسلام وبعده وحتى العصر الحديث، وانتقلت عادات أهل الهند وتقاليدهم في الأطعمة وبناء المنازل إلى عدن، لأن عدن والهند كانتا تحت حكم الاستعمار البريطاني، فانتقلت عشرات الأسر الهندية من بومباي وغيرها إلى عدن، ولم تزل إلى اليوم، وللهنود في عدن مناطق بأسمائهم، مثل «حارة الهنود» وسوق البهرة في كريتر (عدن) بل وحتى على مستوى الثقافة والغنا»[(١)]. وكذلك انتقلت كوكبة من علماء اليمن في الفقه والتاريخ والأدب وعلم الحديث وعلم اللغة إلى الهند وتأثر علماء الهنود المسلمون بما جلبه إليهم علماء اليمن من خارج الهند[(٢)]، وبرزت أسماء علمية لا حصر لها، وفي المقابل هاجر بعض علماء الهند إلى اليمن واستوطنوها وعاشوا فيها.

كانت عدن في يوم ما بعد أن استعمرتها بريطانيا تديرها من شركة الهند الشرقية في بومباي إلى عام ١٩٣٧. وكانت شبه القارة الهندية بأكملها يومذاك مستعمرة بريطانية. لكن

---

(١) الفنان عبد القادر بامخرمة ومحمد جمعة خان، أشهر المغنين في القرن العشرين، كانا يمثلان النسق الهندي في الغناء.

(٢) العلامة المحدث القاضي حسين بن محسن بن محمد بن مهدي الأنصاري، خليل بن محمد بن حسين بن محسن الأنصاري اليماني، الشيخ عبد الله العمادي.

حتى عندما كان بلدانا تحت سيطرة المستعمرين، فإن هذه السيطرة لم تحل دون استمرار وشائج الصداقة بين اليمنيين والهنود، ويكفي أن نقول إن هذه الوشائج تتجلى اليوم في آلاف الأسر الموجودة في الهند من أصل يمني والموجودة في اليمن من أصل هندي.

هذه الكلمات هي بعينها تقريباً التي قلتها في حفلة العشاء التي أقامها على شرفي الرئيس الهندي «سينجيفا ريدي» عند زيارتي الهند في عام ١٩٨١م. زرت الهند لأول مرة في عام ١٩٧٨م وأجريت مباحثات ناجحة مع رئيس وزرائها حينذاك موراجي ديساي، ومع رئيس الجمهورية وعدد من المسؤولين الآخرين، واتفقنا خلالها على أهمية تطوير علاقات التعاون والصداقة بين شعبي بلدينا وحكومتهما. ثم زرتها مرة أخرى في عام ١٩٨١م، وعدت إلى زيارتها في عام ١٩٨٣م، وأخيراً في الوداع الحزين في نوفمبر ١٩٨٤م عندما حضرت مراسم تشييع جثمان السيدة أنديرا غاندي.

«حسك تغرك نيودلهي!»

وفي كل مرة كانت تسحرني الهند بجمالها وسحرها وأساطيرها. وكل زيارة لها كانت توسع من الأسطورة، وتجعلني أنجذب إليها انجذاباً كبيراً لا أستطيع معه أن أخفي إعجابي بحضارتها. وعندما لاحظ مني ذلك صديقي الشاعر الكبير حسين المحضار بحسّه الشاعري، وكان يرافقني في زيارتي باعتباره عضواً في هيئة رئاسة مجلس الشعب الأعلى، وحرصت على زيارة تاج محل ونزلنا في فندق بُني على الطريقة المغولية، ويطل على تاج محل. ومساء يوم ١٤ وكان القمر قد اكتمل وعكس بأضوائه على جوهرة التاج في منظر بديع ورائع لم أشهد له مثيلاً في حياتي، أطللنا على تاج محل الذي حوله ضوء القمر والرخام الأبيض الى قطعة بيضاء بل الى جوهرة جميلة تسر الناظرين. ومن على هذا الفندق ومن المكان الذي اختاروه لنا لنشاهد احدى عجائب الدنيا السبع انبهر الجميع بروعة ذلك الاثر الخالد الذي يرمز الى الحب والوفاء ..

لفتُّ نحو شاعرنا الكبير المحضار وقلت له: ما رأيكم بهذا الجمال والكمال الذي يفوق الخيال؟ ولكنه فاجأني وفاجأ الجميع وهو يلفت نحوي وليس نحو تاج محل، ويقول :

حسك تغرك نيودلهي وتلهي عزك بلادك بها تأمر وتنهي
الهند فيها الهنا والهند فيها المنى والجو في الهند غايم تحسب انه ربيع
وإن ضاق بك عيش فيها صدرها لك وسيع

ولفت المحضار نحو تاج محل وقال:

التاج أعظم أثر في الهند خالد
من حب حد راح له راكع وساجد
وإن مات يبني على مثواه مبنى رفيع..

الحب له معجزات التاج منها وأخبار له اسأل التاريخ عنها..

توقفت ريشة الرسام وأعيا المذيع

«الهند فيها الهنا والهند فيها المنى والجو في الهند غايم تحسب أنه ربيع

لكنك كلما اقتربت من الهند تحسّ بأن شعوراً روحياً يجذبك إليها، ومهما طفت فيها من مدينة إلى مدينة، فإنك تحس بأنها قارة كبيرة لا يمكنك الإلمام بها لشدة ما فيها من تنوع حضاري وديني وثقافي وروحي، لكنني أتذكر بحب كل الأماكن التي زرتها، ومنها «تاج محل» إحدى عجائب الدنيا الحديثة، وقد ارتبطت بصداقة حميمة بكل الشخصيات الهندية التي عرفتها، ومنهم الراحلة العظيمة أنديرا غاندي.

لقد أحببت الهند، هذه القارة العظيمة مرتين: مرة لجمال المكان، ومرة لروح الزمان. ربما لأن الهند لا تبرز فيما هو لحظي زمني ولا فيما هو مرئي، بل في التاريخ الذي يقيم فيها كأنه حاضر أبداً. وكل ساعة تمرّ هناك كأنها تجاور الأزل. بأية قوة استطاعت الهند أن تفعل ذلك لولا قوة الروح؟ تلك القوة التي ألهمت المهاتما غاندي العظيم المقاومة السلمية (اللاعنف) للاستعمار البريطاني حتى أخرجته من شبه القارة الهندية، وتلك الروح التي ألهمت من قبل بوذا فلسفته الروحية التي أصبحت بعد ذلك ديناً تدين به الملايين في سائر أنحاء العالم. وتلك الروح التي ألهمت طاغور أشعاره العظيمة التي ترجمت إلى كل اللغات الحية، وهي الروح التي ألهمت نهرو طريق عدم الانحياز مع زميليه تيتو وعبد الناصر

في بحثهم الدائب عن فهم لمعادلة العلاقة بين الشرق والغرب، وتلك الروح التي ألهمت زعامات الهند الطموح القوي إلى التغيير والتجديد. ومن هنا ظلت الهند تعيش في صميم أحداث العالم. ويمكن الاستشهاد بعشرات، بل مئات من الأمثلة عن عمق حضارة الهند والصلات التاريخية بين شبه القارة الهندية واليمن، والدور الذي مارسته الهند في حركة عدم الانحياز وفي السياسة الدولية، لكن المجال لن يسعفني لذكر كل الأشياء، حتى عن العلاقات اليمنية الهندية، فإنني سأضطر إلى التوقف عند بعض الأشياء والأمور انطلاقاً من زياراتي الرسمية والودية.

أذكر أن زيارتي الأولى للهند في مايو ١٩٧٨ م كانت قصيرة جداً ولم تستغرق سوى يوم واحد. قدمت إليها من مدينة «هوشي منه» التي كانت تسمى سايغون حتى وقت قريب من انتصار الثورة الفيتنامية وهزيمة القوات الأميركية في تلك البلاد. وقد اتفقنا حسبما ذكرت مع المسؤولين الهنود على تطوير علاقات التعاون بين البلدين الصديقين. في هذه الزيارة التقيت لأول مرة بالسيدة أنديرا غاندي، زعيمة حزب الشعب، التي كانت في صف المعارضة، وشكت الحزب الشيوعي الهندي لأنه لم ينسّق معها في مواجهة النظام، وطلبت مني أن أتحدث معهم بحكم علاقات اليمن الديمقراطية مع الاتحاد السوفياتي ومع أحزاب اليسار في العالم، وبناءً على رغبتها، فقد التقيت قيادة الحزب الشيوعي في الهند، وتحدثت معهم في هذا الموضوع.

سعدت باللقاء والتحدث إلى السيدة أنديرا غاندي التي رضعت حليب السياسة والكياسة والإصرار من أبيها جواهر لال نهرو ومن حضارة الهند العظيمة.

مشكلة... مع المهاتما غاندي

لم نكن نعتقد يوماً أن المهاتما غاندي، الأب الروحي العظيم للمقاومة الهندية ضد الإنكليز سيتسبب لنا بعد موته مقتولاً بعد عدة سنوات، مشكلة تعكّر صفو العلاقات اليمنية الهندية. ليس في الموضوع أي إثارة من جانبنا، ففي مدينة عدن قاعة جميلة تحمل اسم الزعيم الهندي العظيم «المهاتما غاندي»، وكانت ملكاً للجالية الهندية العريقة في عدن،

وتقيم عليها احتفالاتها ومناسباتها الدينية والشعبية قبل تأميمها عام ١٩٧٣م عندما صدر قانون تأميم الإسكان، وحُوِّلت القاعة من قاعة للجالية الهندية إلى قاعة للفنون الجميلة ومركز ثقافي ومقرّ لفرقة الفنون الشعبية.

كانت الجالية الهندية التي أممت قاعتها التي تحمل اسم زعيمها الروحي ما تنفك تطالب بإعادة القاعة إليها، ووصلت صرختها إلى الحكومة الهندية، فبدأت هذه اتصالات ومطالبات رسمية وصلت إلى مستوى رئيس الوزراء، ووزير الدفاع كريشنا مينون الذي ارتبط اسمه بعصر العمالقة نهرو وعبد الناصر وتيتو وشون لاي. لم يكن رئيس مجلس الرئاسة حينذاك سالم ربيع علي مقتنعاً بإعادة القاعة إلى أصحابها الأصليين، واستمرت الاتصالات والمراسلات بين الحكومتين فترة طويلة.

كان الرئيس ربيع يرى القاعة ملكاً للشعب اليمني بموجب قرارات التأميم، وضد إعادتها إلى الجالية الهندية، وبعد زيارتي للهند عدت وحسمت تلك المشكلة، وأعدت القاعة إلى الجالية الهندية في عدن. ووجهت الجالية إلينا رسالة شكر واعتبرت هذه البادرة بمنزلة تقدير لمشاعر الجالية الهندية واعترافاً بحقوقها المدنية والقومية والإنسانية.

الفرس والنار المقدسة!

لم تكن قاعة المهاتما غاندي وحدها التي سببت إشكالات في علاقات البلدين الصديقين، بل إن المشكلة الأكثر إثارة كانت في قضية نقل «نار الفرس المقدسة» من موقعها في معبد الفرس في «الطويلة» في مدينة كريتر في عدن حيث وضعت هناك قبل أكثر من مئة عام إلى الهند، موطنها الأصلي.

الفرس يعبدون النار والشمس كما كانوا يفعلون في عصر زرادشت، مثلما هي الحال في بومباي وبقية أنحاء الهند. لم يتركوا ديانه أجدادهم ويرون في العناصر الأربعة، ولا سيما النار، مصدر الكائن الأزلي. كذلك فإنهم لا يدفنون موتاهم بل يتركونهم لفعل الهواء والطيور الجارحة، إذ توضَع جثث الموتى والطيور وسط برج شيد بالقرب من تحصينات عدن، وهناك لا تكف الغربان عن التحليق، أما العظام فتجمع وترمى في حفرة جماعية تقع

تحت البرج. ويوجد أيضاً في عدن معبد خاص بالفارسيين، ولم يُعرف إذا كانت النار التي يحافظون عليها جيداً بداخله قد أحضرت من النار نفسها التي أوقدها زرادشت قبل أربعة آلاف عام.

فالفرس الموجودون في عدن ينحدرون من جالية صغيرة فرّت من فارس الى الهند هرباً من قمع المسلمين المتعصبين هناك، ويقال إن أكثر من مليوني فارسي يعيشون في بومباي وضواحيها، ومعظمهم أصحاب ثروات طائلة وتجارة مزدهرة.

عندما طالبت الجالية الهندية في عدن، ومن بعد الحكومة الهندية، بنقل تلك النار، رفض رئيس مجلس الرئاسة حينذاك أيضاً ذلك. وكما في السابق، اعتبر «سالمين» تلك النار المقدسة جزءاً من تاريخ الشعب اليمني وتراثه، وأنه بذلك لا يقبل أية ضغوط تمارسها الهند على اليمن الديمقراطية، معتبراً ذلك تدخلاً في شؤون البلاد الداخلية.

استمرت المراسلات بين حكومتينا أكثر من خمس سنوات دون أن تحلّ المشكلة.

كنت أقف موقفاً آخر، وأرى أن تلك النار لا تستحق كل تلك الاتصالات الطويلة بيننا وبين حكومة الهند الصديقة ولا علاقة لنا بها، ولا يجوز أن تكون مثار خلافات مع شعب صديق لنا، ودولة نرتبط معها بعلاقات صداقة طيبة، إذ كانت الهند من أوائل الدول التي اعترفت باستقلالنا. بل أكثر من هذا، فإن لأفراد الجالية الهندية الكثير من المآثر الطيبة، حيث أسهموا في الازدهار التجاري والتنوع الثقافي الذي شهدته عدن خلال الحقبة الاستعمارية، وخاض كثير منهم النضال مع بقية أفراد الشعب اليمني في سبيل الحرية ونيل الاستقلال. ويحضرني الآن على سبيل المثال لا الحصر اسم الشهيد «خالد هندي» الذي استشهد خلال الكفاح المسلح وهو يقاتل الإنكليز.

وبعد ذلك حُلَّت المشكلة، واضعاً في الاعتبار احترام المشاعر الروحية والثقافية للآخرين، مثلما نطالبهم باحترام مشاعرنا الروحية والثقافية، وأعيدت النار المقدسة إلى موطنها الأصلي، لأن أخوتنا وآباءنا من المهاجرين عانوا في رحلة اغترابهم الطويلة إلى جميع أمصار الدنيا... وأعني بها قضية احترام معتقدهم الديني ومشاعرهم الروحية والثقافية في البلاد التي هاجروا إليها. فهل يحق لنا أن نحرم أهل معتقدٍ «نارهم المقدسة»؟! وهل

من العدل أن ندعي أن تلك «النار المقدسة» جزء من تاريخ شعبنا اليمني وتراثه، الذي كان صاحب رسالات توحيدية، ولم يثبت أنه كان من عبدة النار؟!

المهم أن القرار الخاص بنقل النار المقدسة اتخذ في نهاية عام ١٩٧٨م، وأرسلت تلك النار المقدسة بطائرة خاصة، محاطة بحراسة مشددة، وطبقاً للطقوس الدينية المتبعة، إلى الهند موطنها الأصلي، لتستقر هناك تكريساً لراحة نفس أصحاب تلك الديانة... التي كانت ستظل قلقة!

لم تعد النار المقدسة محل خلاف الآن... وبإرسالها إلى الهند تحسنت العلاقات بين البلدين الصديقين.

بعدها توجهت في زيارة رسمية قابلت أثناءها الرئيس الهندي «نيلام سانجيغاريدي»، ورئيسة الوزراء السيدة أنديرا غاندي، وقمت بزيارة بعض المناطق التاريخية والأثرية في الهند.

بدأت زيارتي إلى مدينة بومباي عصر يوم ١٧ مايو ١٩٨١م حيث استقبلني حاكم ولاية ماشترا وعدد من المسؤولين الهنود وممثلون عن الجالية اليمنية في بومباي وحيدر آباد. كان الجو حاراً وقاتماً، وقد نزلنا في أحد فنادق بومباي، ولم نتمكن للأسف من النوم، بسبب الرطوبة والروائح الغريبة رغم أننا قد تعودنا بعض هذه الروائح في عدن، ويبدو أن لهذه الروائح علاقة ببعض الأعشاب والأطعمة والبهارات التي تؤثر في رائحة أجسام المواطنين هناك، وهذا ما ذكره الصحفي أنيس منصور عند حديثه عن زيارته لبومباي في كتابه ٢٠٠ يوم حول العالم. وفي صبيحة اليوم التالي وصلت إلى دلهي العاصمة حيث جرى الاستقبال الرسمي والشعبي الكبير، وكان على رأس المستقبلين رئيس الجمهورية ورئيسة الوزراء. وبعد مراسم الاستقبال المعتادة، وفي لقائنا ومباحثاتنا حددت أهداف الزيارة للهند من قضايا التعاون اللاحق والقضايا المتصلة بالسلم والاستقرار في المحيط الهندي، وفي عموم المنطقة، والوسائل الكفيلة بمواصلة جهود بلدينا على الصعيد الثنائي، وفي نطاق حركة عدم الانحياز من أجل حق الشعوب في السيادة والتقدم الاجتماعي، وفي سبيل تحقيق الانفراج

الدولي وصون السلم. وأكدت أننا في اليمن الديمقراطية نقدِّر عالياً المكانة الدولية للهند ودورها في صون السلم ونهجها السياسي المهم لاستقرار شبه القارة الهندية، ومواقفها المؤيدة لنضال شعبنا في سبيل صون السيادة الوطنية وتحقيق تطوره المستقل، ووقوفها إلى جانب نضال الشعوب العربية، وفي طليعتها نضال الشعب الفلسطيني من أجل العودة وتقرير المصير وبناء الدولة الفلسطينية المستقلة.



انديرا غاندي رئيسة وزراء الهند في استقبالي عام ١٩٨١م

وخلال الزيارة زرت ضريح المهاتما غاندي، ووضعت عليه إكليلاً من الزهر، وسجلت في سجل الزيارات الكلمات التي تشيد بكفاحه العظيم في سبيل الحرية والاستقلال الوطني لبلاده، ومن أجل انتصار كل المناضلين في سبيل الحرية وتقدم شعوبهم، وتقدير اليمن الديمقراطية لمواقف المهاتما والأهداف السامية التي ناضل من أجلها. وحييت النجاحات التي حققها الشعب الهندي بفضل القيم التحررية لهذا المناضل البارز. وجال في ذهني وأنا

أزور الضريح زيارة للمهاتما غاندي التاريخية لعدن في سبتمبر سنة ١٩٣١م حيث استقبلته الجموع الغفيرة من أبناء شعبنا والجالية الهندية الكبيرة، وحيّت جهاده من أجل استقلال الهند.

ففي صباح يوم الثاني من شهر سبتمبر ١٩٣١ رست في ميناء التواهي سفينة بريطانية اسمها «راجبوتانا» نسبة إلى ولاية هندية. ولم يكن ذلك في ذاته حدثاً مهماً، فقد كانت عدن أهم محطة بحرية بين الشرق والغرب، لكن أهمية السفينة كمنت في نقلها أحد أهم رجال العالم على متنها، وهو يقف عليها يتفرج على جبال التواهي في انتظار وصول مندوب الحكومة الاستعمارية في عدن، التي كانت تُحكم من مقر الحاكم البريطاني في مدينة بومباي حتى عام ١٩٣٧.

كان الزعيم الهندي النحيل لا يرتدي سوى قطعة قماش بيضاء حاكها بيديه على عجلة يحركها كلما سنحت له فرصة، وهو يناضل لتحرير أكبر وأغنى مستعمرة في العالم دون اللجوء إلى العنف بكل أنواعه، وهو في طريقه لحضور مؤتمر المائدة المستديرة في لندن للمطالبة بالاستقلال بالتي هي أحسن.

وقبل وصول مندوب الحاكم كان المحامي محمد علي لقمان رحمه الله قد ركب زورقاً بخارياً (لنش) من محطة الأبكاري متجهاً إلى السفينة، مغتنماً فرصة غياب المندوب أو جنوده، وسلّم على المهاتما باسم نادي الإصلاح العربي الذي كان الأول من نوعه في عدن، وموقعه في «الميدان» بكريتر، ورحب به في المستعمرة التي كانت تتابع جهاده العنيد ضد أكبر إمبراطورية في العالم.

ولما سمحت الحكومة ممثلة بقائد الشرطة الأبيض للمهاتما بالنزول إلى البر، توجه الزعيم وبرفقته محمد علي لقمان أولاً ثم جمع غفير من العرب والهنود نحو المبنى الذي كان يضم شركة قهوجي دنشا في التواهي، قبالة الحديقة التي ضمت تمثال الملكة فكتوريا، ثم توجه الركب إلى الشيخ عثمان حيث أقام الأهالي احتفالاً تكريمياً له في بستان الفارسي.



المهاتما غاندي

وأُقيمت له خيمة كبيرة وأهدى إليه الأهالي ما يعادل ألفاً وستمئة دولار لينفقها على حركته أو على أفقر المنتمين إليها، ما أغاظ الإنكليز كثيراً، لكنهم لم يتخذوا إجراءات عقابية في ذلك الوقت، ربما خشية إثارة الزعيم شبه العاري.

ألقى المحامي محمد علي لقمان كلمة ترحيبية نيابة عن نادي الإصلاح العربي وترجمها إلى الإنكليزية ليفهمها الزعيم والحضور من غير العرب، وطلب الجمهور من غاندي أن يلقي كلمة بتلك المناسبة التاريخية، والموقع كله محاط بالجنود والمباحث من البيض والمواطنين.

تحدث غاندي شاكراً الأهالي الذين تحدوا سلطة الاستعمار وهتفوا بحياته، واستشهد بالقرآن الكريم مشيداً به مادحاً رسول الله والخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وقال إن الله قد حرم الخمر وأكد رسول الله ذلك. وناشد الهنود المقيمين التآخي والتعاون مع الأهالي العرب. وبينما شكر الجالية الفارسية على تقديم بستانها للترحيب به، عبّر عن استيائه من قيام أفرادها ببيع الخمور في عدن التي حرّمها دينهم، وناشدهم الإقلاع عن ذلك، لما في ذلك من أضرار تلحق بالأهالي. والواقع أن تجارة الخمور بالكامل تقريباً كانت بيد الفرس، وفي مقدمتهم قهوجي، الذي كانت حانته ومتجره متاخمين لدار «فتاة الجزيرة» (شارع

محمد علي لقمان حالياً)، وإلى جانب مكتبة الإرسالية الدانماركية حانة بالنجي دنشا، وعلى بعد أمتار متجر خمور باسم «اشياتك» أمام مدرسة اليهود السابقة، ومثلها عشرات في كل أنحاء عدن. حتى أن الشارع الرئيس في الشيخ عثمان لم يسلم منها، ومثلها المعلا والتواهي وحتى الشيخ عثمان ودار سعد.



المهاتما غاندي

وخلال مرافقة المحامي محمد علي لقمان الذي لم يكن قد تخرج بعد بشهادة الحقوق من بومباي للمهاتما، سأله إن كان يحبذ مطالبة الأهالي بالخلاص من الإمبريالية، فأجابه بقوله: «عدن قلعة، وعليك بالسير رويداً وبحذر، لأن الإمبريالية لا تزال جبارة، لكنها لن تدوم طويلاً». وفعلاً نالت الهند استقلالها عام ١٩٤٧، وتبعتها كل دول شبه القارة ثم آسيا وإفريقيا وعدن عام ١٩٦٧م.

المناداة بمنطقة سلام

في مساء اليوم نفسه ١٨ مايو حضرت حفلة العشاء التي أقامها الرئيس الهندي على شرفي والوفد المرافق لي... في الكلمة التي ألقيتها أشدتُ بمظاهر النهوض الشامل الذي تحققه الهند في مجال الاقتصاد والصناعة والعلم والثقافة وغير ذلك. وأوضحت المبادرة

التي تقدمنا بها تعبيراً عن حرصنا على الأمن والسلام في هذه المنطقة، حيث بادرنا إلى الدعوة إلى عقد لقاء على مستوى القمة لبلدان الخليج العربي والجزيرة العربية والقرن الإفريقي والأطراف المعنية الأخرى للبحث في تصفية المنطقة من القواعد وأشكال الوجود العسكري الأجنبي. وأعلنت لأصدقائنا الهنود مجدداً أن اليمن الديمقراطية تقف إلى جانب الهند في دعوتها الرامية إلى تحويل منطقة المحيط الهندي إلى منطقة أمن وسلام وتعاون بين بلدانه الواقعة على سواحله وبره.

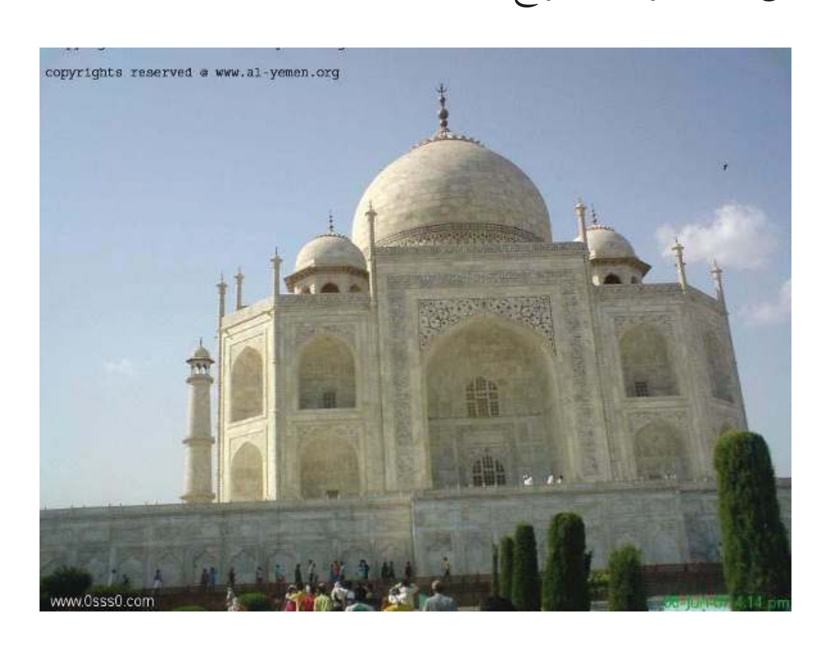
وقد أيدت الهند المبادرة، ووُقِّع في هذا الصدد عدد من البروتوكولات المنظمة للتعاون في مجالات مختلفة تقضي بتطوير التعاون المشترك بين البلدين الصديقين، وتقديم المساعدة إلى اليمن الديمقراطية لتطوير الإنتاج الزراعي، وإعداد الأطر المتخصصة، وإجراء الأبحاث العلمية التكنيكية، بالإضافة إلى إرسال الخبراء الطبيين وفريق من المهندسين لوضع خطة لتطوير مدينة عدن. كذلك جرى التوقيع على برنامج للتبادل الثقافي بين البلدين للسنتين ١٩٨١-١٩٨٢م، في مجالات التعليم الثانوي والعالي والإذاعة والتلفزيون وتبادل وفود العلماء.

تاج محل العظيم

في ختام الزيارة للهند زرت الأثر التاريخي المدهش «تاج محل» الواقع في منطقة (أجرا) على ضفاف بحيرة «يمونا». إنه يستحق أن يكون إحدى عجائب الدنيا. بناه الإمبراطور المغولي شاه جيهان ما بين ١٦٣٠م وعام ١٦٥٢م تخليداً لذكرى زوجته ممتاز محل. ويبدو البناء أسطورة معمارية من الرخام الأبيض المنعكس على صفحة المياه لا يمكن أن يجدها أو يراها المرء إلا في الهند، هذا البلد المدهش بحضارته وثقافته. وقد حدثنا المرشد السياحي أن بناءه دام نحو ٢٠ عاماً بمجهود ٢٠ ألف شخص. جاءت مواد بنائه وحجارته الكريمة، يحملها ألف فيل من كل أنحاء قارة آسيا، بما فيها شُعبُ مرجان البحر الأحمر، والعقيق اليماني الأحمر الذي يُطرّز رخام راجستان الأبيض الناصع.

هذا البنيان العملاق دقيقُ الجمال لا نهائي الروعة، يتغيّر لونه مع تغيّر سقوط أشعة الشمس عليه: ورديٌّ في الفجر، أبيض في الظهيرة، بنفسجيٌّ في الغروب، ونيليٌّ مزرورق في ضوء القمر. وتطرز واجهته عقود الآيات القرآنية والنقوش الإسلامية التي تحيط به، وواجهة القصر بمآذنه الأربع المتناظرة.

وفي داخل الضريح تنام ممتاز محل الزوجة الثالثة والأخيرة لشاه جاهان. الوحيدة التي عشقها بجنون، وإلى جانبها في دور ثانويّ ضريح شاه جاهان نفسه بعد أن سجنه ابنه السلطان محيي الدين أورانجزب في أكمةٍ تواجهُ ضريح تاج محل، بحيث لا يرى من نافذة سجنه، وحتّى نهاية عمره، إلا ضريح زوجته!



قمة عدم الانحياز السابعة

في عام ١٩٨٣م زرت الهند مجدداً لحضور مؤتمر دول عدم الانحياز، وكان أول لقاء لرؤساء الحركة عقد في مدينة «باندونغ» في إندونيسيا في عام ١٩٥٨م على يد قادتها التاريخيين: جواهر لال نهرو، وجمال عبد الناصر، وجوزيف بروز تيتو، وأحمد سوكارنو. وعقد المؤتمر التأسيسي للحركة في مدينة «بلغراد» عام ١٩٦١م، وكان الهدف من إنشائها

في ذلك الوقت إيجاد حركة لبلدان العالم الثالث تقوم على التوازن بين الشرق والغرب. ولم يكن قادة الحركة يتصورون بلدانهم في وضع ليس لهم فيه دور في وجود اللاعبين الكبيرين على الساحة: الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الأميركية والدول الغربية. وقد اكتشفت الحركة أنها تحتاج إلى توافق في الآراء والعمل وإلى تعاون قوي فيما بينها حتى لا ينفرد القطبان الكبيران وحدهما بتقرير مصير العالم، فتضيع مصالح بلدان العالم الثالث. وقد اكتشفت الحركة أن الدور الذي أرادت أن تقوم به صعب جداً، لأنه يخلّ بالتوازن الدولي القائم... ولم يكن مثل هذا الدور دائماً مرغوباً فيه أو مطلوباً أو حتى مسموحاً به، أو ممكناً من قبلها، نظراً إلى ما تجمعه بلدان الحركة من تناقضات.

وعلى العموم، فإن حركة عدم الانحياز قد شكلت في حينها قوة ثالثة بين القوتين العظيمتين، بما يمكن القول بأن القطبين شعرا بأنهما ليسا وحدهما في الميدان.

كاسترو وأنديرا غاندي

عقدت القمة مؤتمرها السابع في «دلهي» عاصمة الهند، بلد «نهرو» أحد القادة الأربعة التاريخيين المؤسسين لحركة عدم الانحياز، حيث انتقلت الرئاسة من كوبا إلى الهند برئاسة أنديرا غاندي.

ألقيت خطاباً في المؤتمر، شرحت فيه تجربة بلادي وإنجازات ثورتها، وعرضت فيها مواقفنا السياسية من القضايا والصراعات الراهنة كافة حينذاك. وأذكر أن القاعة ضجّت بالتصفيق الحار بعد إنهاء كلمتي. وقام الوفد العراقي برئاسة طه محيي الدين معروف، نائب الرئيس العراقي، وطارق حنا عزيز نائب رئيس الوزراء وزير الخارجية من مكانهما وتقدما إلى المنصة لتحيتي وشكري على الكلمة التي ألقيتها. وكذلك فعل الوفد الإيراني برئاسة حسين موسوي، إذ تقدم هو الآخر إلى المنصة وصافحني بحرارة، معبراً عن شكره على الخطاب وعلى موقفنا. وكانت هذه المعادلة صعبة، لأن البلدين، العراق وإيران، كانا مشتبكين في حرب طويلة، ولأن الوفود المشاركة في المؤتمر كانت كلها أو معظمها بين مؤيد للعراق أو مؤيد لإيران، لكن أن يكون الطرفان المتعاديان والمتحاربان راضيين عن

سياستنا ومواقفنا، فإن معنى هذا نجاح سياستنا الخارجية المتوازنة من الصراع الإقليمي والدولي وما يجري في المنطقة والعالم.

زايل سينغ في عدن

في أكتوبر ١٩٨٤م كان دور الرئيس الهندي «زايل سينغ» ليقوم بزيارة اليمن الديمقراطية، رداً على الزيارة التي قمت بها للهند في عام ١٩٨١م، وقد وصل إلى عدن واستقبلته وأجريت معه محادثات رسمية. أكدت أن زيارته ستسهم في تطوير العلاقات الثنائية بين البلدين، وأن الشعبين اليمني والهندي يرتبطان بعلاقات تاريخية طيبة وأن شعبنا يكنّ للشعب الهندي كل مشاعر الصداقة والود، وقدرت موقف الهند إلى جانب قضية الشعب الفلسطيني.

من جانبه أكد ذلك أيضاً، وجرى التوقيع صباحاً على محضر اتفاق، تدرّب الحكومة الهندية بموجبه سنوياً خمسين مجموعةً يمنيةً في مختلف المجالات، وتُرسل ما لا يقلّ عن عشرين خبيراً هندياً في المجالات التي يحددها الجانب اليمني. ويقوم الجانب الهندي بتوفير فريق متكامل في مجال تخطيط المدن، وفريق طبي لمعالجة الأمراض المستعصية. وأبدى الأصدقاء الهنود استعدادهم لإعداد دراسات في الجدوى الاقتصادية لعدد من مشاريع خطة التنمية الاقتصادية والاجتماعية الخمسية الثالثة القادمة.

الوداع الأخير...

بعد يومين فقط من مغادرة الرئيس الهندي عدن، تلقيت النبأ الذي أعلنته الحكومة الهندية يوم ٣١/ ١٠/ ١٩٨٤م في بيان رسمي أذاعته الإذاعة والتلفزيون بوفاة رئيسة الوزراء الهندية السيدة أنديرا غاندي عندما اغتالها أحد حراسها الشخصيين. وعلى الفور أعلنا في اليمن الديمقراطية الحداد الرسمي مدة ثلاثة أيام تعبيراً عن مشاركة الشعب اليمني شعب الهند الصديق في مصابه الفادح. وفي الهند أعلن أن «راجيف غاندي»، وهو طيار مدني سابق ونجل رئيسة الوزراء الراحلة، قد أدى اليمين القانونية رئيساً للوزراء. كان عليّ مرة أخرى أن أذهب إلى الهند لأودع السيدة الجليلة الوداع الأخير.

كنت حزيناً وأنا أسير خلف جثمانها محمولاً على عربة مدفع، متشحاً بألوان علم الهند، ومكسوّاً بالورد والزهر. تقدم موكب الجنازة المهيبة أعداد كبيرة من القادة والمسؤولين في الحكومة الهندية، وزعماء العالم وقادته الذين جاؤوا من كل قارات الدنيا لوداع السيدة غاندي، تتقدمهم وحدات رمزية من قوات الجيش الثلاث على أصوات الطبول الخافتة في مسيرة الموت، فيما اصطف الملايين من أبناء الشعب الهندي على جانبي الطريق، يطفو على وجوههم الحزن، وهم ينظرون إلى زعيمتهم المحبوبة نظرة الوداع الأخير، وهي مسجَّاة بجلال الموت داخل نعشها في راحة أبدية... وصل الموكب الجنائزي المهيب إلى حدائق (ثان ايفان) على ضفاف نهر «جامانا»، وتقدم نجلها راجيف غاندي (رئيس الوزراء الجديد) مع بقية أفراد الأسرة، وحمل نعش أمه ووضعه فوق المنصة المخصصة لإحراق جثمانها. طاف حول الجثمان سبع مرات، ثم أشعل فيها، النار حسب الطقوس الهندوسية...

اللهب يشتعل، وجثة أنديرا تحترق، وكان أقرب الناس إليها، ابنها راجيف وبقية أفراد أسرتها، هم الذين يصبّون عليها الزيت المقدس ويطعمون النار مزيداً من الحطب وأشجار الموز حتى تستعر أكثر وأكثر، فتنعكس حرارة على المكان بألوانها بين الأخضر الشفاف والأحمر الملتهب فيبعثان لوناً بنفسجياً..

كان ذلك مشهد احتراق جثمان ابنة الشعب الهندي العظيم، وكنت أتساءل: بأية قوة استطاع راجيف غاندي نجلها أن يفعل ذلك؟ واختصرت الجواب بأنه يفعل ذلك بقوة الروح الهندية العظيمة... عاشت عظيمة، وماتت عظيمة، وكانت واحدة من الزعماء والشخصيات العظماء الذين عرفتهم والذين يؤثرون فينا وفي التاريخ قليلون في هذا الكون.

بدأت ألسنة اللهب تختفي تدريجاً، مخلفة وراءها رماد هذه المرأة العظيمة، وسيُذَرّ الرماد على النهر العظيم الخالد (الجانغ، وعندئذ تبدأ الرياح والأمواج سباقها كي توزع الرماد المقدس على أرض الهند العظيمة.

بعد ثماني سنوات، وفي تاريخ ٢١ مايو ١٩٩١م لقي راجيف غاندي مصير والدته نفسه، حيث قتل بباقة ورد ملفوفة قدمتها إليه فتاة من «التاميل» في أثناء قيادته حملته

الانتخابية. وكان أخوه والنجل الأصغر لأنديرا، قد مات قبل عدة سنوات في حادث طائرة، وكأنه كتب على هذه العائلة العريقة والعظيمة التي حكمت الهند خلال نصف القرن الأخير أن تكون في مواجهة الموت على نحو غير معهود.



الفصل السابع والعشرون

في كوبا جزيرة الحرية

انطلقنا من «ليبيا» إلى جزيرة «سانتا ماريا» التابعة للحكومة البرتغالية. إنها محطتنا الأولى في طريقنا إلى «هافانا» للتزود بالوقود، قبل أن ننطلق مرة أخرى لنعبر أجواء المحيط الأطلسي، وأجواء مثلث «برمودا» أو مثلث الرعب كما يسمونه. أعلن كابتن طائرتنا «البوينغ ٧٠٧» قبل أن ننطلق في رحلتنا الطويلة عبر المحيط أن الطائرة أصابها عطل أثار القلق في النفوس، وطلب إلينا النزول إلى استراحة المطار ريثما يُصلَح الخلل الطارئ. لكن لم يكن للقلق مسوّغ ما دمنا على الأرض، لذلك حمدنا الله أن ما حدث لم يكن فوق المحيط، وبذلك تجنبنا كارثة!

تحت تلك الظواهر التي رافقت رحلتنا اقترح بعض أعضاء الوفد أن نقضي ليلتنا في هذه الجزيرة، التي يدير مطارها أحد الشيوعيين، وقد قدم نفسه بهذه الصفة لرفيق رحلتنا وعضو الوفد الأستاذ علي باذيب... لكنني استبعدت فكرة أن نبيت هنا، بينما القيادة، وعلى رأسها الرئيس فيديل كاسترو في انتظارنا في هافانا.

بعد أكثر من ساعة كاملة أُصلح الخلل، توجهنا إلى الطائرة، لنعبر بها المحيط لأول مرة مع عدم الطمأنينة لهذه الطائرة التي نصفق لها كلما هبطت في مطار عدن بسلام، لأن عجلاتها لا تهبط أحياناً باستخدام آليات الهبوط الآلي واليدوي معاً.

لم يكن هناك خيار آخر كأن نستبدل بهذه الطائرة طائرة أخرى، فهي الوحيدة التي تمتلكها شركة الطيران اليمنية (اليمدا)، ورغم قدمها والأعطال المستمرة فيها فنحن نشعر بالأمان لكفاءة طياريها اليمنيين ومهارتهم وشجاعتهم[١].

فوق مثلث الرعب

ربطنا الأحزمة، ودارت المحركات، وانطلقت الطائرة لتخترق الضباب والسحاب ولتحلّق في السماء ونبتعد عن هذه الجزيرة ونشاهد لاحقاً زرقة البحر والمحيط السحيق. وكنا نتحدث خلال هذه الرحلة عن جزيرة الحرية التي ألهمت نضالنا ونحن لا نزال شباباً. وعن فيديل كاسترو ورفاقه الذين بدأوا مسيرتهم الكفاحية ضد الديكتاتور «باتيستا» من جبال «سيرا مايسترا» بعدة بنادق حتى تحقق النصر وأصبحت هذه الثورة ملهمة للشعوب والمناضلين في كل مكان وزمان. وأثناء الحديث عن هذه الذكريات بدأت طائرتنا تقترب من مثلث برمودا حين دعانا قائد الطائرة إلى قمرة القيادة، ليرينا موقع المثلث ونشاهد جُزره المتناثرة.

دخلتُ إلى قمرة القائد مدفوعاً بالفضول، وانخفض الطيار بالجناح الأيمن لطائرته بقدر الإمكان نحو «المثلث الرهيب» الذي طالما سمعنا عنه وأثار في نفوسنا نوعاً من الغبطة، أولاً لأننا نمرّ فوقه لأول مرة، وثانياً لاقترابنا من محطة رحلتنا. كانت الرؤية واضحة جداً وتبيناه بوضوح. إنه هو المثلث المرعب بلا ريب الذي تحدثت عنه كتب البحارة والعجائب والأساطير بمختلف اللغات ونسج عنه من القصص الخيالية ما تجاوز الحقائق

(١) لكن الخطر الحقيقي الذي ألمّ برحلتنا الطويلة عبر المحيط الأطلسي والبحر المتوسط كان عندما عدنا من رحلتنا إلى الإمارات وهبطت الطائرة في مطار أبو ظبي وبدأ الطيارون، وفي مقدمتهم الطيار الشجاع الكابتن جوهر، البدين الذي لا يكاد كرسي الطائرة يتسع له، وهم يهنئوننا بالسلامة على غير العادة، ونحن نستغرب ذلك إلى أن قالوا لنا إن الطائرة بدأت تهرّب وقوداً وزيتاً، وكان يمكن أن يؤدي ذلك إلى اشتعالها وانفجارها في أجواء إمارة أبو ظبي، وقد أخفوا عنا ذلك حتى لا يسببوا لنا الهلع. لكننا وصلنا إلى المطار ولم يحصل شيء من ذلك. كان الترحيب بالوصول والنجاة حاراً جداً من قبل الشيخ زايد بن سلطان رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة الذي رفض أن نواصل رحلتنا بهذه الطائرة نفسها.

كاختفاء الطائرات والمراكب. وها هي الطائرة تبتعد وينأى المثلث ويختفي تدريجاً، وتنحرف الطائرة باتجاه جزيرة الحرية، جزيرة فيديل كاسترو وغيفارا وخوسي مارتيه. وها هي كوبا نشاهدها من الجو كما شاهدها كريستوفر كولومبس في ٢١/ ١/ ١٤٩٢ من زورقه في البحر. ويقال إنها مشتقة من كلمة قبة التي أطلقها العرب الذين كانوا مع كولومبس لأنهم شاهدوا شيئاً يشبه القبة، ويدعي القائد معمر القذافي أن أميركا تعني اسم أمير عربي يدعى «الأمير كا»، ولسنا بصدد تصديق تلك الروايات العربية عن (القبة والأمير) أو نفيها، وكل ما يهمنا أن نزور كوبا ونلتقي قائدها، فلنا تاريخ يكاد يكون مشتركاً في الماضي والحاضر مع الاحتلال البريطاني والأميركي والثورة والمقاومة.

الزعيم فيديل كاسترو في استقبالنا

كان الرئيس فيديل كاسترو هناك في المطار في انتظار وصولنا. بدا طويلاً، مهيباً ببزته العسكرية الزيتونية التي لم يخلعها منذ أيام النضال، منذ «سيرا ماسترا» والقتال ضد الديكتاتور باتيستا، وبلحيته الطويلة الكثة التي زحف عليها الشيب، والتي طالما داعبت خيال المناضلين المراهقين، فأطلقوا لحاهم تيمناً به دون أن يكون فيهم شيء من خصاله، فظلت لحاهم مجرد لحى قبل أن يضطروا إلى حلقها، مع انتهاء موسم نضالهم. أما هو فقد ظل ثائراً مناضلاً لا يغير معدنه، ولا يحلق لحيته، التي تضفي عليه مهابة تتصالح مع شكله ذو البراءة الطفولية. وفيديل كاسترو زعيم ذو كاريزما فريدة في نوعها، وهو خطيب مفوه من الطراز الأول، وقد يعود تمسك شعبه به إلى الملاحقات ومحاولات الاغتيال التي لا حصر لها والتي تعرض ويتعرض لها من رجال المخابرات الأميركية.

اندفعنا في عناق حارّ. ثم صحبني لتفقد حرس الشرف ومصافحة بقية أعضاء القيادة الكوبية ورجال السلك الدبلوماسي، ثم توجهنا لتحية الجماهير التي خرجت لاستقبال ضيوفها القادمين من أقصى الجزيرة العربية، من جنوب اليمن. وبددت حرارة الاستقبال تعب الرحلة الطويلة عبر المحيط.

بعد انتهاء مراسم الاستقبال توجهنا إلى مقر الإقامة، وعقدنا والرئيس كاسترو اجتماعاً

مغلقاً تناولنا فيه علاقات بلدينا وشعبينا الصديقين وآفاق تطورها، وخصصنا وقتاً ثميناً لبحث ملف التحديات التي تواجه الثورتين الكوبية واليمنية وأساليب مواجهتها. ومساندة الثورات التحررية في قارة أميركا اللاتينية وإفريقيا، وتحديداً في أنغولا، وموزامبيق، وإثيوبيا، وتدعيم قضايا الحرية والاستقلال لشعوب القارة الإفريقية. وكان كاسترو يرى أن هذا الدعم «الأممي» ضرورة ملحّة، رغم إمكانات كوبا وظروفها، ومن المؤكد أن نتائجه ستنعكس إيجاباً على كوبا وعلى نضال شعوب القارات الثلاث.

الأب الروحي خوسيه مارتي

في السابع عشر من فبراير وضعتُ إكليلاً من الزهور أمام تمثال «خوسيه مارتي»، الأب الروحي للثورة الكوبية، وزعيم الثورة التحررية ضد الاستعمار الإسباني في نهاية القرن التاسع عشر الذي رفع شعار «الوطن أو الموت»[1]. إنه رمز ينتصب كمارد في قلب إحدى ساحات هافانا ليلهم الشعب الكوبي في سيره المضني على دروب الثورة والحرية التي يجوبها هذا القائد العظيم «خوسيه مارتي»، وقد قلدني وسامه الرئيس فيديل كاسترو، في استقبال كبير أقيم على شرفي بعد انتهاء جولة المباحثات بين وفدي البلدين.

---

(١) أصبح هذا الشعار يردده فيديل كاسترو بعد معركة خليج الخنازير، وهو لا يختلف عمّا نردده في الوطن العربي: «نموت نموت ويحيا الوطن».



تقليد وسام خوسيه مارتي

جرانما يدخل التاريخ

في معرض «جرانما» الذي زرناه عقب وضع إكليل الزهر على النصب التذكاري لخوسيه مارتي، كان التاريخ حاضراً. إنه يروي تاريخ الثورة والنضال المسلح الذي بدأه كاسترو ورفاقه بانتقالهم على ظهر القارب «جرانما» من المكسيك إلى شواطئ الجزيرة الكوبية في نوفمبر عام ١٩٥٦م. إن المعرض يحمل اسم ذلك القارب الذي لم يكن سوى ألواح خشب تطفو على المياه الزرقاء، ولم تكن حياته سوى إبحار من بحر إلى بحر، ومن جزيرة إلى جزيرة، ومن بلد إلى بلد. لكنه منذ هذه اللحظة التي حمل فيها كاسترو ورفاق مسيرته سيسجل في سجلات التاريخ ليستقر فيها إلى الأبد الذي انطلقت منه إشارة بدء الثورة الكوبية.

وقد ذكرني هذا القارب بزيارتنا لينينغراد في أكتوبر عام ١٩٧١م والطراد أفرورا[١].

مساء اليوم نفسه بدأت المحادثات الرسمية بين وفدينا في قصر الثورة بالعاصمة هافانا، واستمرت صباح يوم ١٨. تطرقت إلى المؤامرات التي تحاك ضد اليمن الديمقراطية، والتطورات في منطقة الخليج العربي والبحر الأحمر ومنطقة القرن الإفريقي، والوجود العسكري الأميركي في المنطقة، ومن جانبه تحدث الرئيس كاسترو عن المؤامرات التي تحاك ضد بلاده.

انتهت الزيارة في جانبها الرسمي، وبدأ جانبها الشعبي الوجداني والإنساني.. وسنترافق أنا وكاسترو وبقية أعضاء الوفد المرافق لي في رحلة بحرية إلى جزيرة «تينوس» التي تعني بالإسبانية «أشجار الصنوبر» وتسمى أيضاً جزيرة الشباب والجزيرة الأممية، وسنقضي أوقاتاً جميلة، وسأتعرف على الجوانب الشخصية والإنسانية لهذا الإنسان الرائع الذي اسمه كاسترو.

كان اليوم في أوله. قاد فيديل السيارة بنفسه. إنه يتحرك بعفوية، يحب كل الناس ويحبه شعبه بشغف بالغ، قال أحد أعضاء الوفد وهو مبهور بما رآه من بساطة كاسترو وتلقائيته. يقف ببساطة بين الناس وهو الزعيم المستهدف من قبل المخابرات الأميركية التي حاولت اغتياله لأكثر من مرة وشعبه يناديه باسمه المجرد (فيديل) من غير أية ألقاب، إنه يتصرف بتلقائية، ويعبر عن نفسه بوضوح ومن دون مجاملات. أذكر أن هذا الرجل الذي طاف اسمه الدنيا لا شيء هناك يحمل اسمه على الإطلاق، لا شارع ولا ساحة ولا مصنع ولا مطار

---

(١) في ذروة الثورة والغضب الشعبي أعطيت الأوامر للطراد الذي مخر مياه نهر نيفا وتوقف عند جسر نيكولا يغسكي استعداداً لبدء الهجوم، وعند الساعة ٩ مساءً دوت فوق نهر نيفا وبتروغراد القنبلة الأولى من مدافع الطراد إشارة إلى بدء القصف على قصر الشتاء، وبعد ساعات قليلة احتلت قوات الثورة القصر حيث اعتقلت الوزراء السابقين وأودعتهم قلعة بطرس وبولس، ورفرف العلم الأحمر فوق العاصمة الروسية بتروغراد، معلنين انتصارهم على حكم القياصرة. وفي مساء السادس والعشرين من تشرين الأول/ أكتوبر عام ١٩١٧ بالتقويم الروسي عقد مؤتمر السوفيات الثاني الذي أقر انتقال السلطة كلها إلى السوفياتات، وهكذا دخل الطراد تاريخ الثورة، وتحول فيما بعد إلى مزار لكل السياح والثوار كما هي الحال بالنسبة إلى جرانما.

ولا تمثال ولا صورة على طابع البريد ولا نقشت صورته على العملات، وهو الذي احتلت صوره وأخباره شاشات التلفزة العالمية ومجلات وصحف العالم، ومع ذلك ظل ذلك الإنسان الثائر البسيط، يتصرف ويتحرك ويعيش في قلوب أبناء شعبه.

عرفته لأول مرة في عدن عند زيارته الرسمية لها في مارس عام ١٩٧٧م عندما جاء لحل المشكلة التي كانت بين إثيوبيا والصومال، إنه رجل عملي، يعرف ما يريد بدقة، ولا تسكنه الأحلام. كان الجانب المهم في شخصيته الذي اكتشفته فيه، ولعه بحب الحياة والناس والتعلم من الواقع، إلى جانب انفتاحه على الثقافة العالمية وامتلاكه رؤية متكاملة مشبعة بحرارة الإنسان.

قال لي ذات مرة: لا أحد له الفضل في تعليمي الاشتراكية، لا الروس ولا الصين، ولكنني تعلمتها من الشعب. أنا ابن إقطاعي كبير، وأعرف ما هو الظلم، وأبي كان يملك إقطاعية كبيرة تبلغ مساحتها (٣٦) ألف هكتار وقد أمّمتها وأصبحت من مزارع الدولة.

كاسترو يشبهني!

كان فيديل مخلصاً في حبه للشعب الذي أحبه واقترب منه. إنه نموذج للثوري الذي يُحتذى. كيف يتحول ابن الإقطاعي إلى قائد للثورة؟ إن القضية ليست قضية ماذا يملك الإنسان، ولكن ماذا يحمل من رؤية وأفكار ونظرة إلى الكون. الناس في كوبا مقتنعون بقيادته، رغم كثير من النواقص الضرورية في حياتهم اليومية بسبب الحصار. فهم يسوّغون ذلك، وحتى خطاياه ما عادت خطاياه، فالشعوب في مرحلة من مراحل التاريخ تبحث عن بطل تلتف حوله وتتحدى به الأعداء في الداخل والخارج.

عرفت أن شقيقه الأكبر «رامون» يدير المزرعة التي كانت ملكاً لوالده، إلى جانب مزارع أبقار، وهي تقدر بأربعة آلاف فدان، وكانت تعيش فيها ٥٠٠ أسرة قبل التأميم.



والد فيديل ووالدته إلينا
له ٨ أبناء، من بينهم فيديل، وأكبرهم رامون

وكان الشقيق الأكبر لكاسترو هذا قد زار عدن في عام ١٩٨٣م والتقيته. وقد زرت مزرعته وقلت له مازحاً عندما رأيت شدة الشبه بينهما: إنك تشبه فيديل، فضحك وقال: بل هو الذي يشبهني، لأنني الأكبر! ثم ضحكنا نحن الاثنين، وقد جاء إلى عدن يحمل معه بذوراً وأغراساً لبعض الأعشاب التي تنمو وتقدم علفاً للأبقار التي تأكلها وتدرّ حليباً مضاعفاً لما تنتجه قبل ذلك، وقد أصرّ على أن يبقى في عدن حتى تظهر الأعشاب وتكبر الأغراس وتأكل الأبقار منها، لأنه يرى في ذلك انتصاراً لتجربته البحثية، ولكن طقس عدن الحار منعه من مواصلة مهمته خوفاً على حياته من الحرارة والرطوبة التي تشهدها عدن في ذروة الصيف الحار.

إن قصة العلاقات بين كوبا واليمن الديمقراطية قصة طويلة، قصة بدأت عندما زار وفد ضم سيف الضالعي (أول وزير خارجية) وجعفر علي عوض في أثناء الكفاح المسلح هافانا، وحينما توجت الثورة بالظفر والاستقلال اعترفت كوبا بالدولة الجديدة، لكن العلاقات الدبلوماسية بين البلدين لم تتحرك إلا بعد أن التقيت في القاهرة سفيرهم هناك، وكنت حينذاك وزيراً للدفاع. وفيما بعد عُيّن هذا الرجل سفيراً لبلاده في عدن، ومنذ ذلك الوقت

والعلاقات تتطور بين البلدين. قدم الكوبيون مساعدات نزيهة إلى اليمن الديمقراطية لإنشاء الميليشيا الشعبية، وتأسيس منظمة لجان الدفاع الشعبي، وإنشاء كلية الطب، ومنشآت تربية الدواجن. كذلك حاولوا في يوم ما مساعدتنا على استخراج النفط، لكن برغم مساعدتهم المخلصة، لم يكونوا قادرين على ذلك، إذ لم تكن المحاولة مبنية على دراسة علمية، أو فهم لجيولوجيا الأرض وطبيعتها، بل استندوا إلى دراسات قديمة. وكان هذا خسارة لهم وضياع وقت لنا! وأتذكر حديثاً لرئيس الوزراء السوفياتي كوسيغين عن هذا الموضوع، معلقاً ساخراً: «إذا كانوا قادرين على استخراج النفط في بلادكم فلماذا لا يستخرجونه في بلادهم؟». كما رويت ذلك في فصل سابق.

خليج الخنازير

بعد فترة من التجوال بسيارة «فيديل» التي كان يقودها بنفسه، وصلنا إلى «خليج الخنازير». تحدث فيديل بصدق وحرارة عن معركة خليج الخنازير التي هزم فيها الكوبيون القوى المناهضة والمدعومة من الولايات المتحدة الأميركية. يبتسم، تجتاحه الفرحة، زوبعة تعزف نصراً مكتظ النغمات.

تحدث كارلوس روفائيل الذي كان يرافقنا في هذه الجولة البحرية عن معركة خليج الخنازير في أبريل ١٩٦١م التي أشرفت عليها وكالة المخابرات المركزية الأميركية رداً على هزيمة الديكتاتور باتيستا وتحطيم سيطرة الاحتكارات والإقطاع، وتعقّد الوضع أكثر بعد إعلان الاتحاد السوفياتي دعمه الكامل لكوبا، لذا قررت الولايات المتحدة الأميركية اللجوء إلى العمل العسكري بعد أن خابت الضغوط السياسية والاقتصادية والإعلامية. كلّف الجنرال أيزنهاور المخابرات الأميركية تشكيل وحدات عصابات من المنفيين الكوبيين الخونة والعملاء للوكالة، وتولى تنفيذ قرار الرئيس آلان دالاس الذي كان حينذاك وكيلاً للوكالة، وعين معاونه ريتشارد دبيسل مسؤولاً عن العملية، وطلب أن تجري قبل انتخابات الرئاسة في نوفمبر ١٩٦٠م، ولكنها أجّلت إلى ما بعد الانتخابات التي فاز فيها الرئيس جون كينيدي الذي قرر بدوره الغزو السريع، ووضع الرأي العام العالمي والأميركي

أمام الأمر الواقع. نُقلت القوات من القاعدة الأميركية «غوانتيمالا»، بالطائرات جواً، إلى نيكاراغوا لتكون في مواجهة خليج الخنازير، وجرى الاتفاق على تشكيل حكومة موقتة اعتقاداً منهم بنجاح الغزو وإسقاط النظام الثوري في كوبا. وفي مساء ١٦/ ١٧ أبريل بدأت حركة قوات الغزو نحو الشاطئ الكوبي. وقبل ذلك نُقلت الحكومة المؤقتة إلى ميامي «في فلوريدا» ووُضع تحت تصرفهما مطار قريب من مقر إقامتهم، وأقلعت طائرات حربية وقصفت مطارات «سانتياغو» وسان أنطونيو دي لوس بانوس و«سبيير لبيرتاد» واستشهد ٧ وجرح خمسون، ولم ينجح القصف في تدمير الطائرات الكوبية. وأعلنت الحكومة الأميركية ووكالتها أن الغزو قد بدأ بحراً في صباح ١٧/ ٤/ ١٩٦١م. شنت الحكومة الكوبية هجوماً مضاداً بالمدرعات، فألحقت الهزيمة بقوات الغزو، وانتهت معركة الخنازير في ١٩/ ٤/ ١٩٦١م بأسر أكثر من ١٢٠٠ مقاتل، في مقدمتهم قائدهم مانويل أيتم، والمدربون والخبراء العسكريون المرافقون للغزو، وأعلن الرفيق فيديل إخفاق الغزو، وقدم عرضاً إلى الحكومة الأميركية يقضي باستبدال كل أسير بجرار زراعي!

ضحك كارلوس روفائيل شيخ الشيوعيين الكوبيين قبل الثورة وقال: لقد نجحنا في مدّ كوبا بعشرات الجرارات للفلاحين الفقراء، وبهزم الإمبريالية الأميركية وعملائها، ازدادت الثورة رسوخاً وقوة، وتعززت مكانة فيديل قائداً ثورياً بارزاً في العالم، وسقطت مراهناتهم على قوى الثورة المضادة في الداخل، وأصيبت وكالة المخابرات الأميركية بنكبة وخسارة كبيرتين أديا إلى إعادة تنظيم شامل في مجلس الأمن القومي ووكالة المخابرات الأميركية وقيادتها. وتابع كارلوس روفائيل حديثه عن الأزمات الدولية التي تعرضت لها الدولة الفتية ونظامها الاشتراكي. وجّه فيديل كاسترو دعوة إلى ميكويان[1] لزيارة كوبا. وبالفعل، لبّى ميكويان الدعوة وتحدث معنا ومع القيادات والناس. أثمرت هذه الزيارة

(١) ميكويان: أنستاس إيفانوفيتش (١٨٩٥-١٩٧٨) سابع رئيس لجمهوريات الاتحاد السوفياتي، وهو من أصل أرمني. دخل الحزب الشيوعي عام ١٩١٥، واستمر في نشاطه الحزبي في القوقاز حيث عُين رئيساً لمنظمة الحزب بخين نوفجرد ١٩٢١. عضواً للجنة المركزية، وزيراً للتجارة، ١٩٢٦، نائب رئيس الوزراء خروتشوف عام ١٩٥٨، رئيساً للجمهوريات عام ١٩٦٤ سلفاً لبريجنيف، عقد اتفاقيات عدة أثناء زياراته وكذلك معاهدات صداقة.

إقامة علاقات دبلوماسية بين كوبا والاتحاد السوفياتي. وما إن علمت الولايات المتحدة بذلك، حتى باشرت بقطع المصدر الأول للطاقة في كوبا، وهو النفط، وذلك في إطار الضغوط الاقتصادية. فما كان منا إلا الإسراع إلى الحليف الجديد وطلب مساعدته، وفعلاً قدم الاتحاد السوفياتي النفط على ناقلاته وعلى ناقلات إيطالية، وبعد ذلك فرضنا قيوداً على الإقطاع وأُمِّمت الأراضي، وسرنا على النهج الاشتراكي، ما أزعج النظام الرأسمالي والإمبريالية الأميركية.

وبعد عدة اجتماعات في الكرملين وصل خروتشوف إلى اقتناع بأن الأسلحة الصاروخية النووية هي الحل الأفضل لمواجهة التحدي الأميركي، وخصوصاً أن الولايات المتحدة وضعت الاتحاد السوفياتي في نطاق قاذفاتها الصاروخية. قرر خروتشوف أن يفرض على الولايات المتحدة أن تفكر ملياً قبل أن تتخذ أي قرار بالغزو أو غيره. وبدأ الاتحاد السوفياتي بنقل الصورايخ من أراضيه إلى كوبا على مرأى من عيون البوارج والسفن والغواصات الأميركية. وقد حصل خروتشوف على موافقة الحكومة الكوبية على إقامة منصات الصواريخ النووية والمتوسطة المدى، ودعمها بطائرات (أليوشن – ٢٨). وقام الأميركان باستطلاعاتهم فعرفوا أن كمية الصواريخ كافية لتدمير نيويورك وشيكاغو وسواهما من المدن الأميركية، فسادتهم حالة من الفزع والرعب، ما اضطر الرئيس كينيدي إلى إصدار بيان حذر فيه من اتخاذ الولايات المتحدة إجراءات ضد كوبا، وبذلك بدأ الأميركيون بإرسال بحريتهم لتطويق الجزيرة.

يقول كارلوس: لم نخشَ هذا التهديد والحصار، لأن كوبا كانت محصنة بشعبها وقيادتها وزعيمها فيديل. في تلك الأثناء وصل إلى الكرملين روبرت كنيدي الذي نقل إلى خروتشوف أن الرئيس جون كينيدي في وضع حرج لا يعرف كيف يخرج منه، فالعسكريون يضغطون عليه لاستخدام القوة لحل المشكلة الكوبية إن استمر هذا الوضع مدة أطول، ويدفعون إلى حرب نووية لمواجهة الخطر السوفياتي، وضحك راؤول وقال: إنهم يهددون، ولكنهم لن يفعلوا ذلك لأن ذلك سيؤدي إلى حرب عالمية ثالثة والدول والشعوب في العالم ترفض ذلك. لم يكن خروتشوف يجهل الموقف، فالرئيس الشاب يمكن أن يفقد السيطرة

على العسكريين، لذا بعث برسالة تطالب بسحب الصواريخ، وقد أجاب خروتشوف أن نصب الصواريخ هو للدفاع عن كوبا. وعلى أثر هذا الرد أدلى الرئيس كينيدي بتصريح أعطى فيه ضمانات، أن القوات الأميركية لن تغزو كوبا أو سواها. وأعطى بذلك وعداً قاطعاً بعدم القيام بهذا العمل العسكري. وبهذا الوعد أعلن الاتحاد السوفياتي سحب قواته الصاروخية. بعدها بدأت حملة على سياسة الزعيم خروتشوف المتخاذلة، حيث وصف بالجبن، وهو الذي دقّ بحذائه على طاولة الأمم المتحدة، لكنه حقق هدفه الاستراتيجي وفق النظرية التي كان يتبناها، وهي أن التراجعات التكتيكية في السياسة السوفياتية مقبولة إذا ما بقيت في إطار الهجوم الاستراتيجي. لكن هذه العملية أغضبت فيديل كاسترو، ما جعل خروتشوف يرسل ميكويان لإجراء مباحثات معه، حيث عادت العلاقات الكوبية السوفياتية إلى حالتها الطبيعية، وقد عبّر عن ذلك كاسترو بقوله: «إن أهم مسألة في أزمة الكاريبي أنها ضمنت وجود كوبا اشتراكية».

كان الرفيق فيديل يتابع حديثنا وهو يدخن السيجار الكوبي «الكوهيبا»، وأحياناً يمضغه ويمتصّ أعقاب السجائر، وينتثر الرماد على ذقنه أحياناً، وينظر إلينا وتعلو وجهه ابتسامة عريضة وفجأة ناولني سيجاراً وطلب مني أن أدخن، وقال مازحاً: هذا النوع من السيجار الممتاز يصنع على أفخاذ النساء الكوبيات العاملات والمناضلات. وضحك الجميع. نظر فيديل نحوي وقال: هكذا كنا وما زلنا صامدين في الكاريبي، رغم الحصار الطويل، الذي سيستمر ما دمنا لا نسير في فلك السياسة الأميركية. أصبح الرفيق فيديل بطلاً قومياً بعد هذه المعركة وبعد أزمة الصواريخ، ونتيجة دعمه لحركات التحرر في أنغولا وإثيوبيا وموزامبيق وثوار ظفار واليمن الديمقراطية وأصبح بطلاً عالمياً.

فيديل الصياد

بعد ذلك أقلّنا يخت في نزهة بحرية، حيث كانت السماء صافية. كان اليوم جميلاً من أوله. جلسنا على ظهر اليخت نستمتع بالطبيعة الساحرة الآخذة للألباب. جزر جميلة متناثرة هنا وهناك. بعد أن قطعنا نحو ساعة، إذا بطائرة استطلاع أميركية تحلق فوقنا، منطلقة من

القاعدة[1] الأميركية في «كوبا» وهي القاعدة التي بقيت مع الأميركان! وأصبحت فيما بعد سجناً لأعضاء القاعدة وطالبان.

ركض أحد المرافقين نحو كاسترو، وطلب منا أن ننتقل إلى «الكابينة» وهو يشير إلى الطائرة الأميركية المحلقة، لكن «فيديل» ضحك ورفض الامتثال لرجاء مرافقيه، وقال وهو لا يزال يوجه الحديث إليّ: علينا أن نحترم رأيهم، هذا منظر قد تعودناه منذ عشرات السنين!

عادت الطائرة الأميركية إلى قاعدتها التي انطلقت منها، بينما واصل يختنا إبحاره في عباب البحر. تذكرت مثل هذا الموقف عام ١٩٧٢ عندما كنا نبحر من خليج عدن في طريقنا إلى جزيرة سقطرى على مدمرة سوفياتية، وحلّقت طائرات فرنسية فوقنا فأعلنت البارجة الاستنفار والتحذير للطائرات التي عادت إلى قواعدها في جيبوتي.

عند الساعة الخامسة اقترح «فيديل» أن نصطاد السمك، ولبس بذلة الغوص وتسلح بحراب الصيد. لأول مرة أرى المقاتل العنيد من دون بزته العسكرية الزيتونية، ودفع نحوي ببذلة مماثلة، وطلب مني أن أشاركه في الغوص والصيد، لكنني اعتذرت لأنني لا أجيد الغوص. قلت له: سأكتفي بالسباحة، وهي رياضتي المفضلة في «خليج عدن».

نزل إلى البحر، وما لبث أن غاص وغمرته المياه، وبعد كل غطسة كان يطفو إلى الأعلى حاملاً ما اصطاده من «اللوبستر» أو الشروخ كما نسميه في اليمن. وكان مرافقوه من حوله يهللون ويصفقون فرحين، حتى بلغ ما اصطاده مع مرافقيه نحو ستين سمكة لوبستر وسلحفاة واحدة، بينما كنت أسبح في المياه الزرقاء.

الرئيس الطباخ؟

بعد رحلة الصيد سارع اليخت إلى إحدى الجزر الصغيرة التي كانت في طريقنا. خلع فيديل ملابس الصيد، ولبس لباس المطبخ، ودخل ليُعدّ لنا بنفسه حساءً من السلحفاة التي اصطادها، وعشاء من «اللوبستر» الذي اصطاده مع مرافقيه. كان كاسترو منذ أيام شبابه يعشق الطبخ، وقد تعلم الطبخ على الطريقة الكوبية التقليدية عندما كان في السجن. فقبل قليل كان

---

(١) غوانتنامو.

يصطاد، وها هو الآن في المطبخ يطهو لنا بنفسه العشاء الذي سنأكله. هنا فقط أدركت أنه يمنحنا مزيداً من التكريم نحن ضيوفه القادمين من أقصى جنوب الجزيرة العربية، وفهمت لماذا أصرّ على أن يصطاد لنا السمك بنفسه، رغم أن الصيد والغوص والطبخ هواية محببة للزعيم الكوبي.

أثناء إعداد العشاء دار حديث ودي بيننا حول المطبخ والطبخ في كل من كوبا واليمن، ولكنه لم يكن كنقاش ما سُمّي «نقاش المطبخ» الذي دار بين الزعيم الروسي نيكيتا خروتشوف ونائب الرئيس الأميركي نيكسون عند زيارته موسكو في الستينيات من القرن الماضي في ذروة الحرب الباردة بين الجبابرة في العالم، حيث رأى نيكسون أن أميركا متفوقة في صناعة المطابخ العالية الجودة والطهو، وهذا ما أزعج خروتشوف آنذاك.

تحدث الكاتب كارلوس فرانكس قائلاً: «إن فيديل لا يمكن أن يبقى ساكناً، إنه دائم الحركة، وإن تكلم كان واقفاً. وإنه لا يرتاح إلا عند النوم أو الأكل، وإن الطعام هو حبه الأعظم، فهو يبعث الراحة في قلبه». وربما كان لينين على حق حين قال: «على كل طباخ أن يكون قادراً على إدارة البلاد»، وفيديل يجيد الاثنين معاً[(١)].

وفي حدود الساعة العاشرة بعد انتظار طويل، وعناء الجوع، جاءت المائدة، وجلسنا نأكل بتلذذ ما أعده لنا الرئيس كاسترو من مأكولات بحرية متنوعة وشهية. بعد ذلك بدأنا بتدخين السيجار الكوهيبا، وكان فيديل متعوداً إهداء السيجار الكوبي الشهير (كوهيبا) إلى قادة الدول، ويكتب عليه أسماءهم، إمعاناً في التكريم، وقد أهدى إليّ منه شخصياً سيجاراً مكتوباً عليه اسمي، ومنقوشاً عليه علم جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية، واستمر في

---

(١) وقال أحد المسؤولين الكوبيين إن قسم الأرشيف في مجلس الدولة نفسه قد يكون عاجزاً عن جمع تلك الخطابات أو تبويبها أو تأريخها، وهو لا يعرف بالضبط كم خطاباً إلقاه كاسترو منذ كانون الثاني/ يناير ١٩٥٩. وحسب بعض المصادر، فإن عدد الخطابات التي ألقاها كاسترو إلى حدود عام ٩٤ تزيد على ٢٥٠٠ خطاب، منها ٧٠٠ خطاب استغرقت أكثر من خمس ساعات ونحو ٢٠٠ خطاب استمر وقت إلقائها نحو ست ساعات ونصف ساعة، ومنها أكثر من ١٠ خطابات استمر وقت إلقائها نحو ٩ ساعات، كانت كلها حول موضوعه المفضل: الطب والصحة العمومية.

إرسال السيجار إليّ حتى عام ١٩٨٦م بمعدل ٣٠ صندوقاً في الشهر. كذلك أهدى منه إلى الرئيس الجزائري بومدين الذي كان مولعاً بتدخين السيجار الهافاني، وإلى الرئيس الشاذلي بن جديد، والرئيس العراقي صدام حسين وغيرهم، وكان رئيس الوزراء البريطاني تشرشل مولعاً بالسيجار الكوبي، حتى أصبح سيجاره لصيقاً بشخصيته التاريخية وبإشارة النصر، وهو يدخن السيجار منذ زيارته الأولى لكوبا عام ١٨٩٥م التي كانت وراء ولعه وحبه لكوبا وسيجارها وتفاحها وفنادقها، وكان يردد أن كوبا دوماً على شفتيه وأن أجمل سيجارها هو الذي يلف من ورقة واحدة على أفخاذ العذارى، وأنها المكان الوحيد الذي يستحق أن يدفن فيه عظامه كما حدثنا بذلك القائد الكوبي. أيضاً وقع أسير جمالها وسيجارها عشرين عاماً الكاتب الأميركي إرنست همنغواي صاحب رائعة «العجوز والبحر» التي تحولت إلى فيلم بالاسم نفسه، والعديد من الروايات العالمية التي ترجمت إلى مختلف لغات العالم.

وعند الساعة الثانية عشرة ليلاً أبحر اليخت من جزيرة «تينوس» وجلسنا نشاهد فيلماً طويلاً. وخلال ذلك كان فيديل يغفو ولكنه يصحو بعد قليل ويفرك عينيه ويعود لمتابعة مشاهدة الفيلم. وكان علي باذيب، عضو وفدنا، يعاني صداعاً شديداً، فأمر له كاسترو بدواء حدد اسمه هو شخصياً لمرافقيه فجاؤوا به، فأعطاه لباذيب وقال له: اشرب هذا الدواء وسيزول عنك الصداع فوراً.

وامتثل باذيب وتناول الدواء وعلّق: هذه أول مرة أشرب دواءً مكرهاً!!

وابتسمنا ولم نعلّق، لكنه ارتاح بعد ذلك من الصداع.

البقرة الحلوب «أوبريه بلانكا»!

حرص الزعيم فيديل كاسترو على أن نزور هذه البقرة التي تحولت إلى مزار للزوار الرسميين وللسياح أيضاً، كان الشباب يتغنى باسمها وهم يرقصون بملابسهم البيضاء وعليها صورة لهذه البقرة المعجزة التي تنتج نحو ١١٠ ليترات من الحليب يومياً، وأقيم لها نصب تذكاري من الرخام الناصع البياض، وكان كاسترو حريصاً على تطوير نسل هذه البقرة والحفاظ عليها وعلى سلالتها من الانقراض، لأنه كان يعتبرها نادرة جداً، وقد طلب

من المصورين المرافقين للوفد التقاط صور تذكارية مع هذه البقرة ومع النصب التذكاري. وكان يتصرف ببراءة وهو يضع يده على ظهرها.

عقب زيارتنا لـ «أوبريه بلانكا» انتقلنا إلى جزيرة «تينوس» التي تتربع في منتصف المياه، وزرنا المعتقل الذي كان الديكتاتور باتيستا يحتجز فيه المناضلين الكوبيين، وشاهدنا الزنزانة التي كان كاسترو معتقلاً فيها وعليها رقمه، كذلك شاهدنا زنزانات بقية رفاقه الذين اعتقلوا معه. لكن إرادة الشعب الكوبي كانت أقوى من باتيستا ومن معتقله كما قلت في الكلمة التي تحدثت بها إلى طلاب مدرسة «جونديك» التي تحمل اسم المناضل اليوناني الأممي الذي سقط صريعاً برصاص نظام بريتوريا العنصري. ويدرس في هذه المدرسة طلبة من ناميبيا ومن إثيوبيا وجمهورية الصحراء ونيكاراغوا والسلفادور، والتحق بها طلبتنا اليمنيون خلال السنوات الأخيرة، وكان معظمهم من أبناء البدو الرحل وشمال اليمن.

يوم ٢٢ فبراير ١٩٨٢م اختتمت الزيارة الرسمية والودية بتوقيع عدد من البروتوكولات والاتفاقيات بين البلدين الصديقين.

العلاقة مع نيكارغوا

في نهاية زيارتنا الرسمية لهافانا نصح الزعيم فيدل كاسترو بزيارة الثوار الشباب في ماناجوا واللقاء معهم، وقد لبينا الدعوة والفكرة للقيام بهذه الزيارة رغم تحفظ بعض من الوفد المرافق لنا على القيام بهذه الزيارة الى أميركا اللاتينية وذلك لخلاف هذه القيادة مع الولايات المتحدة الاميركية وحكومة هندوراس، حتى لا ندخل في صراع نحن في غنى عنه، وكانت السعودية ساعدت المعارضة في نيكارغوا لإسقاط النظام. ولكنني قرارت الزيارة وأقلعنا عند الساعة العاشرة صباحاً الى نيكارغوا ولأول مرة أشاهد الأراضي الأميركية وشواطئ فلوريدا التي تبعد ١٧٠ كم عن هافانا، كما لأول مرة أشاهد أميركا اللاتينية ونحن في طريقنا الى نيكارغوا مروراً بهندوراس.

كنت أول رئيس عربي يزور نيكاراغوا بعد انتصار الجبهة الساندينية. كنت قد تلقيت دعوة من الحكومة الساندينية، ولمست رغبة من الزعيم الكوبي فيديل كاسترو في أن أزورها،

لأن ذلك سيكون دعماً سياسياً ومعنوياً لهذه الثورة المنتصرة التي كانت تحظى برعاية روحية من الزعيم الكوبي. قال لي كاسترو إن الثوار الساندييين لم ينتصروا على الديكتاتور إلا بعد أن اتحدوا، وإنه شخصياً قدم إليهم هذه النصيحة الغالية عندما قال لهم ذات يوم: «قوتكم وصمودكم في وحدتكم»، وكان هذا سرّ انتصار الثورة الساندينية. ورغم أن كل قيادات الثورة والدولة من الشباب، ورئيس الدولة لم يكن يتجاوز عمره (٢٦) سنة، فإنهم لم يرفعوا شعارات متطرفة، ولم يعادوا البرجوازية الوطنية ولا الكنيسة، ولا تحدثوا عن تطبيق اشتراكي، ولم ينادوا بشعارات اشتراكية. لقد حافظوا على طابع ثورتهم الوطني، وعندما زرناها كان للكنيسة وزيران من القساوسة يشغلان منصبين مهمين في الحكومة الساندينية: وزير الخارجية ووزير الثقافة. وبرغم كل ذلك فإن الثورة الساندينية لم تسلم من التدخل العدواني للمخابرات المركزية الأميركية.

في مطار «سان نيو» نُظِّم لنا استقبال رسمي وشعبي كبير، وكان في مقدمة المستقبلين المنسق العام الوطني للجبهة الساندينية «دانييل أورتيغا» وأعضاء الحكومة الثورية وقائد الجبهة الساندينية للتحرير الوطني لنيكارغوا وآلاف المواطنين.

رحب بي أورتيغا واعتبر أن الزيارة ستفتح آفاقاً رحبة في بناء علاقات راسخة ومتطورة بين البلدين على كل المستويات... وانتقل موكبنا إلى حديقة الشهداء لوضع إكليل من الزهر على النصب التذكاري للشهيد «كارلوس بوليسكا» مؤسس الجبهة الوطنية الساندينية، ومن ثم إلى مقرّ إقامتنا في العاصمة حيث عقدنا لقاءً خاصاً بين وفدي البلدين.



مع دانيال أورتيغا

في الثانية من فجر فبراير ١٩٨٢م (بتوقيت عدن) عقدت المباحثات الرسمية بين وفدينا. قدرت عالياً النضال الذي يخوضه شعب نيكاراغوا بقيادة الجبهة الساندينية، وعبّرت عن دعمنا وتضامننا مع الشعب في نيكاراغوا في نضاله ضد الديكتاتورية. وأشار أورتيغا من ناحيته إلى الجهود التي تبذلها حكومة نيكارغوا من أجل تنفيذ الخطط الاقتصادية، وأوضح الصعاب التي تواجه الثورة بسبب الموقف العدواني للولايات المتحدة التي أثرت كثيراً في منطقة أميركا اللاتينية. وأكد أن الشعب في بلاده مصمم على بناء بلاده بالتعاون مع القوى الشريفة والنزيهة في العالم. في أثناء لقائنا شكا الرئيس أورتيغا تدخل بعض الدول العربية في الشؤون الداخلية لنيكاراغوا وتقديم الدعم والمساعدة إلى المعارضة ضد النظام وقلت له: أشك في أن دولاً عربية تهتم بما يجري في هذه القارة، لأن الأنظمة العربية مشغولة بمشاكلها الداخلية وبجيرانها من الأشقاء والأصدقاء... التفت نحوي وقال: صدق أو لا

تصدق أن السعودية تقدم الدعم إلى المعارضة ضدنا بالتعاون مع وكالة المخابرات المركزية الأميركية. كانت هذه المعلومات موضع شكي، وتساءلت في نفسي: لمصلحة من تقدم عشرات الملايين ضد نظام لا يهدد أمنها واستقرارها وعلى بعد آلاف الكيلومترات من أراضيها، وهؤلاء القادة الشبان لا يعرفون شيئاً كثيراً عن منطقتنا؟ ولكني أجبته: ذلك جائز.

قال لي: بل مؤكد، فهل ستنصحونهم بالتوقف عن محاربتنا باعتبارهم جيرانكم وإخوانكم؟

تحدثت بذلك مع الرئيس الجزائري بن جديد ومع مسؤول خليجي كبير وطلبت إمكانية بحث هذا الموضوع مع الأشقاء بالسعودية، فاعتذرا عن ذلك. وبعد عشرين عاماً من زيارتنا لنيكاراغوا سمعت الرد من الأمير تركي الفيصل في أثناء لقاء بينه وبين عبد الرحمن الراشد في قناة المستقبل اللبنانية، وهو أكد أنهم ساعدوا المعارضة بناءً على طلب الرئيس ريغان حين رفض الكونغرس الموافقة على دعم المعارضة للنظام النيكاراغوي، ولهذا لبّت المملكة هذا الطلب استناداً إلى الاتفاقيات الأمنية بين المخابرات السعودية ووكالة المخابرات المركزية الأميركية. أما نحن في عدن، فلم تتجاوز المساعدات التي قدمناها إلى النظام في ماناجوا الدعم المعنوي في أجهزة الإعلام اليمنية العربية والدولية.

قمت بزيارة لموقع بركان (ماسليا) الذي يبعد عن العاصمة ماناجوا نحو (٢٢) كم، وهو من أنشط البراكين في العالم، انفجر لأول مرة عام ١٦٧٠م، وآخر مرة انفجر فيها كانت عام ١٩٧٢م.

وتذكرت أثناء زيارتنا نيكارغوا ما جرى في عدن عشية الاستقلال عام ١٩٦٧م، فهؤلاء الشبان الذين يحكمون لا يختلفون عنا في السن، والتجربة وكذلك التحديات والمؤامرات التي واجهتنا عند تسلمنا السلطة في عدن، وكان ما يتميز به هؤلاء الشباب هو الإخلاص والثورية وحبهم لوطنهم وأمنه ووحدته واستقراره وبناءه على أسس ثورية، وعدم التدخل في الشؤون الداخلية لدول الجوار، ومع ذلك لم تسلم بلادهم من تدخل الولايات المتحدة الأميركية التي تخشى أن يتحول انتصار نيكاراغوا إلى نموذج ينتشر في أميركا اللاتينية التي تعدّها حديقتها الخلفية.

وكنت اتابع باستمرار آخر التطورات لهذا البلد الصديق من تحولات ديمقراطية ففي عام ١٩٨٤ نجحت جبهة ساندينيا في الانتخابات الوطنية وأصبح اورتيغا رئيساً لنيكارغوا اتهم المعارضون الجبهة بأنها هيأت الظروف أثناء الحملة الانتخابية بطريقة ما وقالوا بأن الاقتراع كان فاسداً. الحكومة الأمريكية المتمثلة في رونالد ريغان اتفقت مع نقد المعارضين ودعمت بشكل كبير تحالف الفلاحين المستاءين، والذي كان متحالفاً (سابقاً) مع جبهة ساندينيا. كانت النتيجة حرباً أهلية قاسية في ١٩٨٩ أرغمت ساندينيا بقبول تسوية سلام بالتفاوض مع الرئيس الكوستاريكي أوسكار آرياس سانتشيز. وفي انتخابات فبراير ١٩٩٠م وبموجب اتفاقية آرياس، خسر أورتيغا وجبهة ساندينيا أمام تحالف بقيادة فيوليتا باريوس دي تشامورو وترك أورتيغا منصب الرئاسة في أبريل التالي. منذ ذلك الوقت، بقي زعيماً مؤثراً في حركة ساندينيا، وكذلك في السياسة النيكاراغوية. وفي ٥ نوفمبر ٢٠٠٦ فاز أورتيغا بالانتخابات النيكاراغوانية.

الخاتمة

تحدثت في هذا الكتاب، أو في هذا الجزء من المذكرات، عن السياسة الخارجية لجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية، ووقفت أمام العديد من محطاتها المهمة خلال مختلف المراحل منذ الاستقلال وحتى قيام دولة الوحدة اليمنية. والعوامل التي أملت هذه السياسة، والظروف التي أحاطت بها. وفيما يأتي خلاصة لهذا الجزء من المذكرات:

إن أهمية سياسة اليمن الديمقراطية الخارجية جاءت من موقعها الاستراتيجي المتحكم في باب المندب عند ملتقى البحر الأحمر والمحيط الهندي والمتاخم للقرن الإفريقي ومنطقة الخليج العربي الغنية بالنفط، وإن هذا الموقع ظلّ على الدوام قديماً وحديثاً محل أطماع العديد من القوى الدولية وصراعاتها، فكان لابد أن تتأثر سياسة اليمن الخارجية بهذا الموقع والدفاع عنه بوجه الأطماع الأجنبية.

جاء استقلال اليمن الجنوبية، في فترة المدّ القومي العربي التحرري، وصعود حركة التحرر العالمية ودور المعسكر الاشتراكي، وكان أيضاً عصر سقوط الاستعمار وقواعده والأحلاف المعادية للأمة العربية كحلف بغداد، وكان لهذا أثر مهم في التوجهات السياسية الخارجية والداخلية للدولة الحديثة.

كانت السياسة الخارجية لليمن الديمقراطية تعتمد على استراتيجية الحزب والدولة ووحدتهما وتوطيد وضعها الإقليمي والدولي في الفترة منذ الاستقلال. ولم تكن العلاقة الخاصة التي ربطت اليمن الديمقراطية بدول المعسكر الاشتراكي، وتحديداً الاتحاد السوفياتي، قد أتت لاعتبارات إيديولوجية، ولا من الحاجة إلى المساعدات الاقتصادية فقط، بل تعود أيضاً إلى وقوف بريطانيا والولايات المتحدة والدول الغربية عموماً موقفاً عدائياً من النظام في اليمن الديمقراطية منذ اليوم الأول لاستقلالها، مع احتياج النظام في

عدن إلى حلفاء تركن إليهم، وإلى اهتمام السوفيات بالموقع الاستراتيجي المهم لعدن، من ناحية أخرى.

كانت العلاقة بالسوفيات والمعسكر الاشتراكي قد وفّرت للنظام في عدن الدعم في وجه تلك التحديات الخارجية، كذلك وفرت أيضاً الدعم الاقتصادي والعسكري اللازم لصمود النظام.

كان للصراعات والخلافات السياسية داخل القيادة في عدن والخلط بين الأيديولوجيا والمصالح وكذلك إعطاء البعض أولوية للعلاقات الأممية على حساب مصلحة الشعب والنظام، دور أساسي في توجيه السياسة الخارجية وإرباكها في بعض المراحل. وبرز هذا الخلل خصوصاً في الموقف من العلاقة بدول الجوار الخليجية، وتحديداً المملكة العربية السعودية، وسلطنة عُمان، وبدرجة أقل في العلاقة بالدول الغربية، وتحديداً الولايات المتحدة الأميركية.

إن التحديات والمخاطر التي كان يواجهها النظام في اليمن الديمقراطية من القوى الخارجية، أثّر في تحديد اتجاهات السياسة الخارجية للنظام في عدن. وهذه التحديات كانت جدية. وكان بعضها نابعاً من القوى الإقليمية المجاورة، وبعضها نابعاً من بعض القوى الدولية، وتحديداً من القوى الغربية، وقد كان جزء سياسي منه نابعاً من مواقفنا المعادية لهذه الدول.

لم يكن هناك إلمام كاف من قبل بعض القيادات، بمجريات الأوضاع السياسية الدولية من حولها، وغاب عن وعيها في بعض المراحل، أن السياسة تقوم على المصالح، وليس على الأيديولوجيا أو الصداقة وحدهما، لذلك لم تستطع خلق توازن دقيق ومعقول بينها وبين هذه القوى، وركزت مجمل علاقاتها على قوة دولية واحدة، ما عمّق العداء مع قوى دولية أخرى، مع أن هذه القوة الحليفة لنا ترتبط بعلاقات مع أميركا والدول الغربية والدول العربية المحافظة.

استعملت توجهات النظام في عدن، ورقة مهمة في الحرب الباردة والصراع بين المعسكرين الغربي والشرقي على الموقع الاستراتيجي لعدن وعلى الثروات النفطية

العربية في الخليج العربي والجزيرة. ولعب الغرب وواشنطن تحديداً هذه الورقة لإخافة أنظمة الحكم الخليجية المعتدلة من توجهات النظام اليساري في اليمن الديمقراطية، ومما رأوا فيه وجوداً عسكرياً سوفياتياً يهدد آبار النفط!! وكان ذلك جزءاً من الحرب الباردة بين المعسكرين، إذ لم يكن هناك وجود لمثل هذه القواعد لا في سقطرى ولا عدن على الإطلاق، بل كان يصب في مسلسل التنافس الدولي في المنطقة.

إن بعض العداء الدولي الغربي، والإقليمي الخليجي، وجد مسوّغاته ودوافعه في نزعة التطرف التي سادت اليمن الديمقراطية في المراحل الأولى من السبعينيات والداعية إلى تحرير الخليج العربي، وشعار «من عدن للبحرين شعب واحد لا شعبين» وشعارات «تدمير الإمبريالية وتشييد الاشتراكية»، وفي الدعوة إلى إسقاط أنظمة الحكم في هذه البلدان، التي طَبعت سياسة النظام في عدن لفترة ما، ولكن نضج السياسة الخارجية لليمن الديمقراطية بعد ذلك، وخصوصاً منذ منتصف السبعينيات وفي بداية الثمانينيات، لم تقابل للأسف بما تستحق من تقدير لدى الدوائر العربية والغربية التي ظلت على عدائها للنظام.

وجهت اليمن الديمقراطية جانباً مهماً من سياستها الخارجية لمساندة حركات التحرر العربية والعالمية ودعمها من موقع العداء للقوى الإمبريالية والصهيونية، وكان ذلك متسقاً مع توجهاتها وسياساتها، واعتبرت القوى الغربية وبعض القوى في المنطقة ذلك دعماً لما سمّوه «الإرهاب»، ونشر الفكر الشيوعي الإلحادي وتوسعه، ومدّ النفوذ السوفياتي في هذه المنطقة. وبالرغم من أن ذلك أكسبها قوة محلية وإقليمية ودولية وزاد من احترام قوى التحرر والحركات والأحزاب الوطنية لها، إلا أن دورها كان أكبر من حجمها، وفوق إمكاناتها وبالتالي شكل عبئاً ضاغطاً عليها.

إن اليمن الديمقراطية استطاعت على الدوام أن تحتفظ بقرارها الوطني المستقل في ما يتعلق بخياراتها السياسية والاقتصادية، برغم الإغراءات أحياناً، والضغوط التي تعرضت لها في أحيان أخرى في مختلف المراحل. ولم تقبل مساعدات مشروطة، أو تشعر بأنها تنتقص من سيادتها. وقد رفضت طلب السوفيات منحهم قاعدة بحرية في عدن بعد طردهم من بربرة في الصومال، واكتفيت بتقديم التسهيلات للسفن السوفياتية من تزويدها بالماء

والوقود والغذاء. ورفضت كذلك طلب العراق منحه قاعدة بحرية في جزيرة سقطرى مقابل مساعدات مالية مغرية.

لقد كان في السياسة الخارجية لليمن الديمقراطية نقاط قوة، ونقاط ضعف. وبعض نقاط ضعفها كان يكمن في قلة «الكادر» السياسي المؤهل الذي يدير هذه السياسة، حيث تعرض الجهاز الإداري القديم لتسريح بعض الكفاءات خلال المراحل الأولى من الاستقلال تحت دعاوى غير صحيحة بموالاته للاستعمار البريطاني.

ينبغي الاعتراف بأنّ العلاقات الأممية التي أقامتها اليمن الديمقراطية للأسباب التي أشرت إليها آنفاً، وفي سياق هذه المذكرات مع البلدان الاشتراكية، قد جعلت البعض يتخذ مواقف متطرفة الى جانب المعسكر الاشتراكي على حساب الجانب الوطني والقومي في توجهات السياسة الخارجية، وعندما أردنا إقامة علاقات مع دول المنطقة في الثمانينات اتهمنا البعض بالخروج من (الدائرة الحمراء) ودخول الدائرة العربية، وهو الأمر الطبيعي بحكم انتمائنا القومي والديني، وحتى بحكم مصالحنا مع محيطنا الجغرافي والسياسي، وهذه السياسة لم تكن على حساب صداقتنا مع البلدان الاشتراكية التي لم تتأثر بذلك، بل إن بعض الدول الاشتراكية كانت تشجع على إقامة علاقات مع دول المنطقة مما أدى إلى إقامة علاقات بين الاتحاد السوفياتي وسلطنة عمان والامارات والسعودية لاحقاً.

إن موقف دول النفط العربية الغنية من مساعدة الدول العربية الفقيرة مثل جيبوتي، والصومال، وموريتانيا، واليمن شمالاً وجنوباً والأردن والسودان والتفرج على أزماتها الاقتصادية والاجتماعية كان له هو الآخر دور ما في التوجهات السياسية للنظام في عدن، أو لهذه الدول، حيث صُنّف بعضها إلى جانب المعسكر الغربي، وبعضها إلى جانب المعسكر الاشتراكي للحصول على المساعدات والتغلب على التحديات والصعوبات التي تواجهها تلك الأنظمة، بينما كانت بعض الأنظمة تودع المليارات في البنوك والمؤسسات في الغرب ولا تستطيع حتى استعادتها عندما تحتاج إلى ذلك، ولهذا فقد ازداد العداء لهذه الأنظمة من قبل الدول الفقيرة والنامية.

كما إن ضعف حركة عدم الانحياز بعد موت قادتها العظام من أمثال جمال عبد الناصر

وتيتو ونهرو وشوان لاي، قد جعل الدول الصغيرة في العالم الثالث عرضة للاستقطاب الدولي، فلم يعد لها مكان لكي تُبقي على وجودها وكيانها وحياديتها إلا الاصطفاف مع هذا المعسكر أو ذاك، مع النضال من أجل الحفاظ على قرارها السياسي المستقل، رغم ما في ذلك من صعوبة.

وفي ختام هذه الخاتمة يجب أن نعترف بأن لهذه التجربة التي أصبحت في ذمة التاريخ إيجابياتها وسلبياتها، ونحن نعتزّ بأننا قد أقمنا دولة قوية مهابة في المنطقة ليس فيها مكان للفساد والثأر والطائفية، وكانت قائمة على مبدأ العدالة الاجتماعية بين أبناء الشعب في الجنوب، حتى وإن سمّاها البعض «اشتراكية الفقر».

وبعد أن انتهيت من كتابة مذكراتي عن الثورة والدولة والوحدة والسياسة الخارجية والصراعات التي مرت بها التجربة بعد أن أصبحت على ذمة التاريخ، حاولت معرفة من كان يحرك الأحداث والمتسبب فيها من ١٩٦٧م وحتى اليوم، ولم أتمكن من اكتشاف ذلك وشعرت بالعجز ولكن كلي ثقة أن المستقبل والزمن سيحلان هذا اللغز وسيجيبان على ذلك، وقد يكون مفتاح السر كله في ذلك المجهول!! فلا شيء يبقى سرّاً إلى الأبد، ولا بد أن تظهر الحقيقة في يوم ما، وأرجو أن يكون ذلك قريباً.



الملاحق

الملحق رقم (١)
محضر اجتماع الرفيق منغستو هيلا مريام
مع الرفيق د. محمد أحمد جرهوم

في أديس أبابا

التاريخ: ٨/ ٧/ ١٩٨٦م

الساعة: ٤,٣٠ عصراً

المكان: مبنى سكرتارية اللجنة المركزية

دون المحضر القائم بالأعمال اليمني[١] على النحو الآتي:

قام الرفيق د. محمد أحمد جرهوم وزير الثقافة والإعلام بزيارة قصيرة لإثيوبيا الاشتراكية، وهي الزيارة الثانية التي يقوم بها خلال شهرين فقط. وقد حمل في زيارته الأخيرة رسالة شفوية من الرفيق حيدر أبو بكر العطاس عضو المكتب السياسي ورئيس مجلس الرئاسة.

استهل الحديث الرفيق جرهوم، موضحاً الغرض من زيارته، حيث أشار إلى أنها تهدف إلى تحقيق أمرين: أولهما إعطاء صورة تفصيلية عن نتائج زيارة الرئيس حيدر أبو بكر العطاس لكل من سورية وليبيا، والمسألة الثانية نقل رغبة الرئيس حيدر العطاس، القيام بزيارة لإثيوبيا الاشتراكية على رأس وفد رفيع المستوى.

---

(١) محمود محمد ناصر

وعند عرضه لنتائج الزيارة لكل من سورية وليبيا، استطرد في الحديث، قائلاً:

حظيت زيارة العطاس لسورية باهتمام كبير، فقد أظهر الأشقاء السوريون رغبة واستعداداً لتطوير مجالات التعاون في الشؤون الحزبية والحكومية مع بلادنا، وفي المباحثات التي أجريت جرى تبادل وجهات النظر حول نتائج أحداث ١٣ يناير، وفي هذا الصدد جددت القيادة السورية وقوفها الثابت، وتأييدها التام للنظام التقدمي في اليمن الديمقراطية، وعبّرت عن قلقها من المخاطر والمؤامرات التي تحيط باليمن الديمقراطية.

ونعتقد أن من الواضح أن زيارة بوش لشمال الوطن والمنطقة العربية تستهدف تصعيد الحملة على اليمن الديمقراطية.

ومن جانب وفدنا، جرى التوضيح للمعالجات التي اتخذت لإزالة آثار أحداث ١٣ يناير، حيث أبدت القيادة السورية ارتياحها وتأييدها للاتجاه العام للإجراءات والمعالجات التي يجري تطبيقها في اليمن الديمقراطية، وعلى أثر تبادل الآراء والمقترحات والحلول جرى التوصل إلى اتفاق على أن يُعطى العناصر المغرر بهم فرصة للعودة إلى أرض الوطن ليُسهموا في بناء المجتمع ويؤدوا دورهم الطبيعي مع كافة أفراد الشعب، وإن من المهم الإسراع في تنفيذ هذا الاتفاق، لكي لا يصبح هؤلاء العناصر قوة سياسية مناوئة تُستخدَم ورقة سياسية ضد اليمن الديمقراطية، ومجمل القول أن الزيارة كانت ناجحة.

أما الزيارة للجماهيرية الليبية، فقد كان الهدف الأساسي منها هو التعبير عن التأييد والتضامن مع الشعب الليبي الشقيق في مواجهته للإمبريالية وتصديه الباسل للعدوان الغاشم، وكانت أيضاً فرصة للاطلاع على الظروف الصعبة التي تعيشها الجماهيرية بعد الاعتداء الأميركي.

لقد كان هناك ارتياح كبير لنتائج الزيارة من قبل الليبيين، باعتبارها أول زيارة تجري بعد حادث العدوان الأميركي. أثناء المحادثات أثيرت من قبل وفدنا مسألة أهمية العمل على تنشيط الاتفاقية الثلاثية بين ليبيا واليمن الديمقراطية وإثيوبيا الاشتراكية. وطرحت أيضاً محاولة بذل المساعي والجهود لانعقاد مؤتمر قمة لدول جبهة الصمود والتصدي، ولكن مرض الرئيس الجزائري الشاذلي بن جديد عرقل الوصول إلى اتفاق بتحديد موعد للقمة،

ولكن هذه المحاولة مازالت قيد الدراسة والبحث، ويحتمل أن يُعقَد لقاء القمة لدول جبهة الصمود والتصدي في منتصف هذا الشهر.

وكما تعرفون، فإن زيارة الرئيس المهندس حيدر العطاس إلى ليبيا قد رافقتها زيارة الرئيس علي عبد الله صالح، وخلال هذه الفترة من وجودهما عقدا مع العقيد معمر القذافي لقاءً ثلاثياً. وهذا اللقاء يجري التشاور فيه بين قيادتي الشطرين منذ وقت سابق، وكان رأي قيادتنا السياسية أن يعقد اجتماع قمة الشطرين في أراضٍ يمنية كجزء من النشاطات والجهود التي يبذلها حزبنا لتطبيع العلاقة بين الشطرين، وذلك لتفويت الفرصة وقطع الطريق على القوى المعادية لتعكير صفو العلاقة.

ولكن للأسف الشديد رفض الرئيس علي عبد الله صالح عقد اللقاء في أراضٍ يمنية، وأصر على أن يعقد في ليبيا. وبالرغم من تحفظنا عن هذا المقترح وافقت القيادة على طلب الرئيس علي عبد الله صالح، انطلاقاً من قناعة وفهم بأن مجرد الجلوس إلى طاولة المفاوضات بين الرئيسين في أي مكان يساعد على التقارب في وجهات النظر لحلّ المشاكل الناجمة عن أحداث ١٣ يناير.

في ليبيا عقد لقاء مفتوح ودار الحديث مع العقيد معمر القذافي الذي عبّر عن سروره البالغ لذلك اللقاء، وقيّم زيارة رئيسي شطري اليمن للجماهيرية الليبية وعدّها نوعاً من التضامن الأخوي مع الشعب الليبي، وفرصة للمساعدة والإسهام في حلّ الخلافات وإنهاء المشاكل.

وفي ذلك اللقاء تحدث الرئيس علي عبد الله صالح، وقال: لا توجد هناك خلافات، والخلافات موجودة عند الآخرين، والعلاقة بين الشطرين إيجابية.

وعندما جاء دور الرئيس حيدر العطاس في الحديث، أشار إلى أن هذه الزيارة المشتركة من قبل اليمنيين عبارة عن تضامن مع الشعب الليبي الشقيق، وفي الوقت نفسه فرصة لتبادل وجهات النظر مع الأخ الرئيس علي عبد الله صالح. إن حزبنا الاشتراكي اليمني يسعى دوماً إلى أن تكون العلاقة بين الشطرين علاقة طيبة وصحيحة، وأن تستمر الجهود الوحدوية لتحقيق الوحدة اليمنية على أسس ديمقراطية وسليمة.

وفي سياق الحديث عن الوحدة اليمنية، تحدث الشيخ عبد الله بن حسين الأحمر إحدى ركائز القوى المحافظة في الشمال، قائلاً:

إن الوحدة اليمنية لابد من أن تحقق وضرب بالمثل القائل بأنه حيث ما حبلت يجب أن تلد. ويعني هذا بأن فكرة تحقيق الوحدة اليمنية بدأت في طرابلس ويجب أن تنتهي في طرابلس. وعلى أساس هذه القناعة طلب القذافي بأن يتم اللقاء الثلاثي المغلق.

وكان من الواضح بأن هناك تنسيقاً بين الرئيس علي عبد الله صالح والعقيد معمر القذافي، والغرض من هذا التنسيق هو الزج ببلادنا في قضية الوحدة الفورية.

وقد انطلق الرئيس علي عبد الله صالح في تناوله لقضية تحقيق الوحدة اليمنية الفورية من أن الشطر الجنوبي يعاني مشاكل كبيرة وليس هناك من حل لهذه المشاكل سوى الوحدة الفورية بين الشطرين.

ولكن الرئيس حيدر العطاس عقب على ما طرح الرئيس علي عبد الله صالح بقوله إن تحقيق الوحدة اليمنية أمنية لكافة أفراد الشعب اليمني. وقبل أن نناقش قيام الوحدة الفورية علينا أن نقيم جميع الجهود الوحدوية التي بذلت حتى الآن، ومن ثم الاستمرار الدؤوب في مواصلة المساعي والجهود قبل الإقدام على الوحدة الفورية لابد من إيجاد المقومات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية لأننا نريد وحدة قابلة للاستمرار والديمومة، ولا تتعرض للانهيار لأبسط اهتزاز. الوحدة التي ننشدها تعبر عن مصالح الشعب اليمني في الشطرين ونابعة من الديمقراطية والتقدم الاجتماعي. وقد اتضح من خلال المباحثات بأن الرئيس علي عبد الله صالح قد جاء إلى طرابلس ليستخدم مسألة الوحدة الفورية كورقة سياسية تخدم أغراض سياسية معينة ومعروفة لدينا جميعاً.

ومن حسن الحظ أن القيادة الليبية قد أثر عليها موقفنا العقلاني ولم يلحوا على التوقيع لقيام الوحدة الفورية، بل إنهم طرحوا فكرة جديدة هي قيام اتحاد ثلاثي بين الشطرين مع ليبيا (ضحك منغستو كثيراً وباستخفاف) بسبب المقترح الليبي. طبعاً الرئيس علي عبد الله وافق مباشرة على هذا المقترح ولكن الرئيس حيدر العطاس تحفظ ووعد بدراسة هذا المقترح مع

القيادة السياسية في الحزب الاشتراكي اليمني. وفي هذه المناسبة أيضاً وجه العقيد القذافي دعوة لجميع العرب بأن ينضموا في اتحاد عربي شامل.

ولم يتوقف النقاش حول الوحدة الفورية بل إنه كان يكرر في الحديث بين فترة وأخرى وأنها مسألة مهمة لليمنيين، ورداً على هذا التكرار المقصود أثار الرئيس حيدر العطاس استفسارات مفادها أنه لماذا لم تطرح مسألة الوحدة الفورية في عهد علي ناصر محمد؟ وهل هناك مقومات متوافرة لقيام مثل هذه الوحدة؟ كيف يكون التوقيع على قيام الوحدة الفورية إذا كان إلى الآن لم يجرِ تبادل البضائع، حتى علبة السجائر «ردفان» غير موجودة في الشمال، ولا توجد سجائر «كمران» في الجنوب. وهذا أبسط مثل يمكن الاستشهاد به في أننا نفتقر إلى أبسط مكونات الوحدة.

ونقل الرئيس علي عبد الله صالح الحديث إلى مشكلة الهاربين المقيمين في الشمال وبأنهم يشكلون عبئاً كبيراً على النظام في الشمال، وطالب بمعالجة سريعة لهذه القضية.

قاطعه الرئيس حيدر العطاس بقوله: ما التصورات لحلّ هذه المشكلة؟ أجابه الرئيس علي عبد الله صالح بأن التصورات ليست عندي، وبإمكانكم مناقشتها مع الأخوة الليبيين، وما تتفقون عليه أنا موافق عليه مسبقاً.

أوضح الرئيس العطاس قرار العفو العام، وأشار إلى أن الأخوة في الشمال لا يساعدوننا على تطبيق هذا القرار المهم، برغم أن هناك اتفاقية مشتركة موقعة بين الشطرين، لكن هذه الاتفاقية لا يحترمها النظام في الشطر الشمالي، على سبيل المثال الإذاعة التي تبث من أراضي الشطر الشمالي وتتحدث باسم علي ناصر محمد وتهاجم الثورة والنظام في الشطر الجنوبي.

قال الرئيس علي عبد الله صالح إن الإذاعة تبثّ من أراضي إثيوبيا الاشتراكية. قال له الرئيس العطاس إن معلومات متوافرة لدينا عن أن الإذاعة تعمل من قرية تسمى «جرف عدن» في مدينة البيضاء، والأخوة الليبيون لديهم إمكانات يستطيعون بها تحديد جهة البث. التزم الرئيس علي عبد الله صالح الصمت، ثم أثار قضية الوحدة الفورية من جديد. وأمام إصرار الرئيس علي عبد الله صالح، اقترح الرئيس العطاس أن يلتقي وزيرا الوحدة الأخوان

راشد محمد ثابت ويحيى العرشي ويقدما تصورات في كيفية تحقيق الوحدة اليمنية. وافق الرئيس علي عبد الله صالح على هذا المقترح، واتفق على أن تقدم هذه التصورات في صباح اليوم الثاني لعرضها على الرؤساء الثلاثة.

وكان من المتوقع أن يُعقَد اجتماع في صباح اليوم الثاني، لكن علي عبد الله صالح سافر فجأة حتى دون توديع العطاس. وعندما وصل العطاس إلى عدن اتصل بعلي عبد الله صالح يعاتبه على سفره المفاجئ دون أن يقول حتى مع السلامة. أجاب علي عبد الله صالح بأنه كان يريد القيام بالتوديع، «ولكن عبد السلام جلود موجود عندك، ولا أريد إحراجك». وأكد من جديد أنه سيسعى إلى مواصلة الحوار حسب الاتفاق وسيرسل يحيى العرشي إلى عدن. والليبيون سيرسلون وفداً لمناقشة الاتحاد الثلاثي وإطلاعه على ما اتفق عليه بخصوص الهاربين.

وفي إطار الجهود الصادقة التي تبذلها اليمن الديمقراطية، دعت كل المواطنين الهاربين، وتؤكد التزامها قرار العفو العام، وتضمن الحكومة كل حقوق العائدين التي نصّ عليها الدستور، كذلك تكفل حقوق العائلات للأفراد التي نصت القوانين على محاكمتهم.

وفي هذه الزيارة فوتنا الفرصة على الرئيس علي عبد الله صالح لإيجاد مشكلة بيننا وبين الليبيين. وأبدى العقيد القذافي مخاوفه من التآمر على اليمن الديمقراطية. وقال إن هناك اتجاهاً لتوحيد جماعة المكاوي ومحمد علي هيثم وعلي ناصر محمد ومحاولة دعمها من قبل إثيوبيا للزحف على اليمن الديمقراطية.

وقد ردّ الرئيس العطاس على هذه المزاعم بأن موقف إثيوبيا واضح، وأن علاقتنا علاقة طبيعية ولا يمكن أن تكون إثيوبيا إلا مع اليمن الديمقراطية. ويمكن تلخيص أهداف علي عبد الله صالح بأنه كان يريد استغلال اللقاء الثلاثي كورقة سياسية ضد اليمن الديمقراطية. وحاول أن يختبر التنسيق الحالي بين اليمن الديمقراطية وإثيوبيا الاشتراكية، وما إذا هناك نوع من التفاهم والتشاور أو لا وقبل ساعات اتصل الرئيس علي عبد الله صالح يسأل الرفيق علي سالم البيض وهل يعلم بزيارته لأديس أبابا. وقال علي عبد الله صالح للوفد اليمني إن

حيدر العطاس هو الذي طلب اللقاء في ليبيا. والهدف من هذه الحركة السياسية خلق جو في الوطن العربي بأن القيادة السياسية في اليمن الديمقراطية متشددة وتستخدم ورقة الهاربين.

والسوريون والليبيون كان واضحاً أنهم مع الأمر الواقع، ويريدون أن يمارسوا أيضاً ضغوطاً للعودة إلى الحظيرة العربية وإيديولوجية القومية العربية.

ويمكن القول عن نتائج الزيارات لكل من سورية وليبيا إنها كانت ناجحة، والأهم أن القيادات العربية في هذين البلدين الشقيقتين كانتا متفهمتين واقتنعتا بأن عودة الهاربين يجب أن تكون على أساس أفراد وليس كقوة سياسية. واللقاء مع الرئيس علي عبد الله صالح كان مفيداً، رغم عدم الوصول إلى نتائج إيجابية.

وفي نهاية الحديث طرح الأخ جرهوم سؤالاً عمّا إذا كان لدى الرئيس منغستو أي استفسارات.

أجاب منغستو بأنه لا توجد لديه أية استفسارات، ولكنه سيعطي صورة عن نتائج زيارة الرئيس علي عبد الله صالح لإثيوبيا، حيث قال في معرض حديثه:

قام الرئيس علي عبد الله صالح لأول مرة بزيارة إلى إثيوبيا الاشتراكية. وسبق أن كرر دعوة لي لزيارة صنعاء. وكان الاتفاق مع القيادة السياسية في اليمن الديمقراطية قبل الأحداث على أن مثل هذه الزيارات المتبادلة، إذا حصلت، وإيجاد تقارب بين إثيوبيا والشطر الشمالي على أساس أن يخدم هذا التقارب مصلحة شطري اليمن. وكان هناك فهم وقناعة مشتركة بين اليمن الديمقراطية وإثيوبيا الاشتراكية بأن عملية التباعد مضرة أكثر بالشطر الجنوبي. وكان الاتفاق على أن يكون هذا التقارب، خاصة بعد مجيء الرئيس علي عبد الله صالح. ويأتي ذلك انسجاماً مع التفاهم والحوار الإيجابي الذي حصل بين الشطرين في ما يتعلق بالجهود الوحدوية.

وفي الواقع، كانت هذه المبادرات وفقاً للمساعي التي بذلت بعد حرب ١٩٧٩م بين الشطرين. وفي هذه الفترة كانت علاقة نظام الرئيس علي عبد الله صالح بالاتحاد السوفياتي قد تحسنت، وحاول التخلص من الضغوط السعودية، وكانت الاتصالات في ما بيننا تجري على مستوى وفود ولم يحصل لقاء مباشر بيننا.

وكانت مجمل هذه الاتصالات تتركز على صعيد العلاقات الثنائية فقط، وفي زيارته الأخيرة كرر ذات الآراء والأفكار لتطوير العلاقات الثنائية.

أما في ما يتعلق بالشطر الجنوبي، فقد أشار إلى أنه منذ الاستقلال في ١٩٦٧م وتسلم الجبهة القومية للسلطة تشرد من أرض الجنوب أكثر من ٤٠٠,٠٠٠ (أربعمئة ألف شخص) وهؤلاء الأشخاص جميعهم لجأوا إلى الشطر الشمالي وشكلوا عبئاً كبيراً على السلطة في الشمال. وهذا الأمر بالنسبة إلي شيء جديد. وسألته: كيف وصل هذا العدد الكبير؟

أجاب الرئيس علي عبد الله صالح بأن جميع التغييرات التي حصلت في إطار الجبهة القومية من عهد قحطان الشعبي وسالم ربيع علي وعبد الفتاح إسماعيل وعلي ناصر محمد أدت إلى نزوح الآلاف إلى الشطر الشمالي، ووصل عددهم إلى أربعمئة ألف، ويقول علي عبد الله صالح إن من هؤلاء النازحين من هم في قمة السلطة وموظفون كبار وأشخاص عاديون. وكان من الواجب الوطني والأخوي أن نوفر لهم جميعاً المساكن والمرتبات والسيارات، وهذا في حدّ ذاته يرهق ميزانيتنا وإمكاناتنا الضئيلة كبلد فقير شحيح الموارد، بعد أحداث ١٣ يناير نزح ما لا يقل عن عشرين ألف شخص، ونحن لا نتحمل هذا العدد الكبير.

أورد الرئيس علي عبد الله صالح هذه الملاحظات. وفي الوقت نفسه نحن سمعنا عبر وسائل الإعلام بأن وفداً من الشطر الجنوبي تقابل مع الطرف الآخر تحت رعاية السلطة في الشمال، وسألته: هل حصل هذا فعلاً؟ فأجاب قائلاً بأنه لم يجرِ التوصل إلى نتائج ملموسة، وسيحاول إثارة الموضوع من جديد في ليبيا.

سألته: كيف تتصورون حلّ مشاكل الهاربين؟

قال الرئيس علي عبد الله صالح: لابد من أن يعود هؤلاء النازحون إلى أسرهم وديارهم، وعلى السلطة في الشطر الجنوبي عدم ممارسة الانتقام والملاحقات والتعذيب، وأن تكفل لهم حقوقهم كمواطنين.

أما بالنسبة إلى قضية الوحدة اليمنية بين الشطرين، فقد أشار إلى أنه أرسل وفداً إلى

الاتحاد السوفياتي وطرح الفكرة ذاتها، وقال إنه مرّ بإثيوبيا الاشتراكية في طريقه إلى ليبيا لطرح هذه القضايا، واعتذر عن الإزعاج الذي قد تسببه زيارته.

قلنا له من جانبنا إن هذه الزيارة لم تسبب لنا إزعاجاً، واستقبلناه جاراً وصديقاً وأوضحت له أن أمنيتنا تخفيف العبء على الشطرين، وأن تحلّ الأمور سلماً. لأن ذلك يسعدنا. وكان لدينا مشاكل وعبء كبير من جراء وجود أعداد من الهاربين، ولكنها في الوقت الحاضر خفت نسبياً، وكثير من النازحين الذين لجأوا إلى إثيوبيا ذهبوا بمحض إرادتهم إلى البلدان العربية والاشتراكية، والعسكريون ذهبوا إلى الشطر الشمالي، ومنهم قائد القوى الجوية وقائد القوى البحرية. وقلنا لعلي عبد الله صالح إن أفراد القوات البحرية الذين أيدوا السلطة الجديدة في اليمن الديمقراطية سمح لهم بالمغادرة إلى عدن. أما الذين اختاروا العيش في إثيوبيا، وهم عدد قليل، وضمن الناحية المعنوية والأدبية فقد التزمنا توفير سبل العيش والإقامة لهم كأفراد.

قلت للرئيس علي عبد الله صالح، إن النازحين في الوقت الحاضر موجودون بكثرة في الشطر الشمالي، ووجودهم قد يخلق مشاكل بين الشطرين، وإن من الضروري معالجة المسألة بصبر وتأنٍّ.

أما قضية الوحدة، فقد كانت قائمة من قبل الأحداث، وهي أحد طموحات الشعب اليمني. ونحن لسنا ضد الوحدة، بل نباركها ونؤيدها، ولكن طرح الوحدة الفورية بمثل هذه الصورة قد يجرّ إلى مشاكل وتوترات. وفي هذه المرحلة، الوحدة الفورية لا يمكن أن تتتحققم، تأخيرها أفضل من الاستعجال في الوقت الحاضر، لأنها تخدم الشطرين، والوحدة كانت قائمة من قبل الأحداث.

قال الرئيس علي عبد الله صالح إنه لم يمارس ضغوطاً على الشطر الجنوبي، وهذه الوحدة قائمة. فلماذا لم تتحقق الآن، فكل شيء جاهز؟ الدستور أُكمل إعداده واللجان أنجزت جميع مهماتها. الأخوة في الشطر الجنوبي طرحوا هذه الفكرة، وليس لدينا شروط، ولسنا نمارس ضغوطاً لتحقيق الوحدة. وأشار إلى قيادة جماعية قائمة الآن في الجنوب «ولا ندري مع من نتحدث لأن القرار ليس بيد أحد والرأي لا يمتلكه أحد».

قلنا له إن جميع المشاكل والأمور المتعلقة من الأفضل أن تحل سلماً. وفي ما يتعلق بإعطائنا صورة عن نتائج زيارة الرفيق العطاس لكل من سورية وليبيا، فإننا نشكركم.

بعد أن أنهى الرفيق منغستو حديثه، عقّب الرفيق د. جرهوم قائلاً: طرح الرئيس علي عبد الله صالح رقماً لأعداد الهاربين مبالغاً فيه، ويعرف الرفيق منغستو بأن جملة الأعداد في الكشف المقدم من قبلكم كان يحتوي على ٦٠٠٠ شخص فقط، وهذا العدد لم يكن أيضاً صحيحاً، لأن نصف هؤلاء خرجوا قبل الأحداث. وإذا قلنا إن عدد المهاجرين جميعهم في الشمال ودول الخليج العربي والسعودية أربعمئة ألف من الشطر الجنوبي، فهو رقم معقول. التقديرات الواقعية لعدد الأفراد ذوي الميول السياسية المعادية للنظام قد يصل إلى ما بين ٣٠٠٠–٤٠٠٠ شخص، وهذا العدد من الأفراد الذين هربوا منذ الاستقلال وحتى أحداث ١٣ يناير.

وعندما يزور الرفيق حيدر العطاس إثيوبيا بعد موافقتكم سيضعكم في الصورة بالتفصيل أمام جملة من القضايا، من ضمنها الإجراءات المتخذة بصدد معالجة قضايا الهاربين. على سبيل المثال، سيعلن أسماءً محددة لن يشملها قرار العفو العام، وسيكون عددها قليلاً جداً. القضايا الرئيسة سيبحثها الرفيق العطاس معكم، وأهمها تطوير العلاقات الاستراتيجية الثنائية بين البلدين. القوى الرجعية مرتاحة ومسرورة لأي فتور في العلاقة، مثلاً زيارة علي عبد الله صالح لإثيوبيا دون إشعار أو تنسيق معنا أمر مفيد لهم. وكذلك إذا لم نقدم إليكم صورة عن نتائج زيارة العطاس لليبيا وسورية يسعدهم كثيراً.

وعدم حضور وفد من اتحاد النساء الإثيوبيات للمشاركة في مؤتمر اتحاد نساء اليمن يعدّونه مكسباً لهم. عندنا مؤتمر الصحفيين اليمنيين سيعقد في ٢٨ يوليو، وهو يوم عيد ميلاد الرفيق عبد الفتاح إسماعيل، وقد وجهت دعوة إلى وفود من الصحفيين والإعلاميين الإثيوبيين، فإذا حضروا وشاركوا في هذا المؤتمر فإنه سيكون صفعة للقوى المعادية للثورتين اليمنية والإثيوبية.

من وجهة نظرنا، إن بعض القضايا المهمة المتصلة بطبيعة العلاقة بين البلدين نرى أن يستمر الحوار فيها وتستأنف عملية التشاور والتنسيق في مختلف أوجه التعاون. نحن نقدر

انشغالاتكم الكبيرة هذه الأيام في مناقشة الدستور. لقد كان قدوم الوفد العسكري إلى بلادنا أخيراً مصدر قلق وإزعاج للدوائر الإمبريالية والرجعية، واتضح ذلك من خلال الاهتمام والمتابعة لمعرفة مهمة الوفد ونتائج زيارته، ولنا أمل كبير في أن يتدخل الرفيق منغستو شخصياً لإعادة العلاقات في بعض المجالات، وكذا الإسهام في تطبيع العلاقة بين شطري اليمن.

يفضل أن يكون موعد زيارة الرفيق العطاس من ٢٢ يوليو وما بعده هذا، إن كان الوقت يسمح لكم.

الرفيق منغستو أشار معقباً إلى أنه «في الواقع تقدمنا في فترة ماضية بمقترحات من منطلق الحرص وبما يخدم مصالح ثورتكم وبلادكم، ولا يوجد لدينا تصلب أو شروط في تنفيذ هذه المقترحات، فمسألة تنفيذها أو الأخذ بها تعود إليكم بدرجة أساسية، وإذا لم تأخذوها بعين باعتبار فلن نستاء لأنها شؤون خاصة بكم».

د. جرهوم، مقاطعاً الرفيق منغستو: إن المقترحات المقدمة من قبله قد نقلت إلى المكتب السياسي لحزبنا، وإنه يقدر هذه المقترحات ويعمل في ضوئها، ودائماً نصائح الرفيق منغستو موضع احترام وتقدير واهتمام من قبل قياداتنا السياسية.

منغستو: صحيح في بداية الأمر عندما قدم إلينا النازحون مارسنا نوعاً من الضغوط واعتبرنا ما حدث من اقتتال دامٍ وصدام عنيف حصل بين رفاق وأخوة. مثل هذه التغييرات والمشاكل حدثت وتحدث في العالم كله.

ولهذا قلنا مباشرة أن لا بد من حل المشاكل الناجمة واحتواء نتائج الأحداث سريعاً، ويجري ذلك بأسلوب أخوي ورفاقي وثوري حتى لا تتوسع شقة الخلافات أكثر ويستمر الاقتتال بين الأخوة، حتى لا تستفيد القوى الإمبريالية والرجعية. وحلّ هذه المشاكل يجب أن يكون في نطاق معسكر الأصدقاء، وفي معسكر قوى الثورة، وليس في معسكر القوى المعادية. وقد تقدمنا بمقترحات في حينها، وقد جرى التشاور بشأنها مع الرفاق والأصدقاء في الدول الاشتراكية، وكان الكل يؤمن بأنه لابد من وجود حل سياسي سريع للأزمة لكي لا تفتح الطريق أمام الأعداء للتدخل في شؤونكم الداخلية.

د. جرهوم: علي ناصر قدم إلى القوى الإمبريالية والرجعية خدمة كبيرة في إيجاد عدم الاستقرار في المنطقة. والمعالجات التي اتخذها المكتب السياسي ستأخذ طريقها إلى التنفيذ، ونحن نحرص على التفاهم مع العناصر الوطنيين الذين يمتكلون الحس الوطني والثوري في معاداة الإمبريالية والرجعية. وكذلك محاولة إقناع العناصر الطبقيين الكادحين الذين تورطوا في المشاركة في المؤامرة، بمن فيهم العناصر السياسية الذين يريدون أن يمدوا أيديهم للقوى الرجعية هؤلاء العناصر سنمد لهم أيدينا.

أما العناصر الذين لهم موقف معادٍ واضح فلن يجري التفاهم معهم.

منغستو: ذكرت أن هذه القضية تسير في اتجاهين، ونفهم من خلال حديثكم أننا متفقون وتفكيرنا واحد في ما يتعلق بعودة النازحين وأنهم كلما عادوا إلى وطنهم وديارهم وأسرهم تحولوا إلى عناصر إيجابيين صالحين يسهمون في بناء الوطن، ويفوتون الفرصة على الآخرين المتربصين لثورتكم لأن يصبحوا آلة وأدوات بيدها. وفي الوقت نفسه الخروج المستمر للناس وبأعداد كبيرة إلى الخارج يتحول إلى مشكلة كبيرة ومعقدة.

د. جرهوم: نبذل الجهود الكبيرة في سبيل تحقيق الاستقرار الداخلي، وما حدث ليس بالأمر الهيّن والبسيط. تجري عملية ضبط النفس وإعادة النظام والهدوء.

منغستو: أنا تكلمت مرات كثيرة وفي مناسبات عديدة بأن لا توجد مشكلة بين إثيوبيا واليمن الديمقراطية. المشاعر نحوكم لم تتجمد، ولا يعني عدم إرسال وفد نسائي إثيوبي إلى عدن في مؤتمر اتحاد نساء اليمن أن لنا موقفاً ويقصد به أي شيء يسيء إلى العلاقة بين البلدين. نحن لا نرسل وفوداً حتى إلى البلدان الاشتراكية أحياناً نتيجة لظروف خاصة بأوضاعنا. لا تحاولوا أن تبالغوا في هذه الأمور الصغيرة وتعطوها تفسيرات خاطئة. إذا ركزنا على هذه الأشياء الصغيرة، فستولد ردود أفعال خاطئة سيستفيد منها الأعداء.

وأعتقد أن الاتصالات بيننا وبينكم خلال الأشهر الستة الماضية كانت أكثر من ذي قبل. أنت شخصياً حضرت مرتين في فترة قصيرة. وزير الإعلام الإثيوبي سيحضر عدن خلال الأيام القريبة القادمة. طبعاً المشكلة موجودة عندكم. وليس بيننا وبينكم أية مشاكل.

الرفيق العطاس سنستقبله في أي وقت. أما تحديد الوقت ٢٢ يوليو، فقد لا يكون

مناسباً لنا، لأنه في هذه الفترة لدينا ارتباطات حزبية وحكومية. وممكن الاتفاق على الموعد المناسب للزيارة. وسيجري إبلاغكم عبر القنوات الرسمية.

شيء يجب أن تتأكدوا منه، أن مشاعر الإثيوبيين وانسجاماً مع تقاليدهم وتاريخهم فإنهم يتحدثون للأصدقاء بكل صراحة ووضوح. ما نؤمن به نقوله. هذا صح وهذا غلط، نحن نقول لكم ما نراه ونعتقد أنه مفيد، وأنتم سواء استفدتم من ذلك أو لا، فالمسألة راجعة لكم. ماذا نعمل بعد هذا؟

في الواقع، أصدقاؤنا القدامى قدموا إلينا وهم عندنا حالياً كضيوف. وهم ليسوا عندنا فقط، بل مع أصدقائكم في بلدان أخرى، فلماذا أنتم متحسسون منا فقط، إذا أنتم نظرتم إلى أن إقامتهم في بلادنا مشكلة، فهذا سينتج منه مشكلة بيننا.

استضفناهم عندنا شعوراً بأن ذلك واجب تحتمه الالتزامات الأدبية والمعنوية نحو أصدقائنا. وما داموا قد جاؤوا إلينا من بلد ثوري فإننا لا يمكن التخلي عنهم أو نطاردهم.

د. جرهوم: حتى إذا جاء إليكم قاتل؟

منغستو: وهل الذين ذهبوا إلى الاتحاد السوفياتي قتلة؟

إذاً أنتم تفكرون من منطلق الحساسية لوجودهم لدينا، ثمة أزمة شك وثقة ليست في مصلحتنا جميعاً.

د. جرهوم: نستضيف الآخرين في ضوء موقفهم من النظام التقدمي، نحن لن نقبل أعداء الثورة الإثيوبية ضيوفاً على بلادنا. نحن ننطلق من نظرة علمية وعلى أساس المواقف الطبقية لهؤلاء.

منغستو: لابد من ربط هذه الظاهرة بالموضوعية. ما حصل في اليمن الديمقراطية من حرب أهلية. في تلك اللحظة الحرجة من الحرب المشتعلة لم نكن ندري مع من تجري، ومن يحارب من: لم تكن الأمور واضحة للعالم كله. وفي هذه الأثناء جاء إلينا أعضاء من المكتب السياسي في الحزب الاشتراكي اليمني. نحن استقبلناهم على أساس أنهم رفاق، ولا نستطيع تصنيفهم أعداءً للثورة اليمنية وللنظام التقدمي في اليمن الديمقراطية، ومن واقع هذه النظرة الرفاقية فإننا لن نسمح لهؤلاء بممارسة نشاطات سياسية معادية لثورتكم وبلادكم.

وإذا أنتم استسلمتم للإشاعات التي يبثها الآخرون، وإذا صدقتم الإشاعة بأننا ننسق مع هيثم والمكاوي وعلي ناصر للنيل من ثورتكم ونظامكم، فإن من الأفضل لنا ولكم أن ننفصل.

علاقتنا الاستراتيجية معكم ما زالت قوية، ولابد من العمل على تعزيزها وتعميقها. من جانبنا لن نسمح لأنفسنا بأن يمس نظامنا الثوري ويتزعزع توجهنا الاشتراكي.

هذه مشكلة آنية فرضتها علينا الأحداث عندكم. وإلى الآن لم نمارس أعمالاً معادية ضدكم، فلماذا هذه الشكوك؟

إذا لم تدركوا هذه الظاهرة التي فرضتها الظروف التاريخية، فمن الصعب أن نجد سبيلاً للتفاهم المشترك.

لماذا نضلل أنفسنا؟

أنتم تقارنون جماعة الانفصاليين الذين حفروا للثورة الإثيوبية قبراً لدفنها والتعجيل بنهايتها بالجماعة الذين لجأوا إلينا، وإذا فرضنا أن أحداثاً مشابهة حصلت في إثيوبيا ولجأت إلى عدن هل ستستقبلونا؟

د. جرهوم: إذا وصلت وأنت معادٍ للثورة الإثيوبية فلن نقبلك.

وعندها وقف الرئيس منغستو غاضباً وقال:

إذاً فالمقابلة بيننا انتهت.. وعليكم أن تميزوا بين الصداقة والعلاقات مع إثيوبيا، وبين الصداقة والعلاقة بيني وبين علي ناصر محمد. لذلك لن أقبل بعد الآن الحديث عن مسألة وجود الرئيس علي ناصر وجماعته عندنا في أديس أبابا.

بعد ذلك طلب جرهوم استمرار الاجتماع وقال:

إن علي ناصر محمد قد أخرج اليمن من الدائرة الحمراء إلى الدائرة العربية.

فرد عليه منغستو بقوله:

إن هذه ليست تهمة ضده، فأنا إثيوبي أولاً، ولست سوفيتياً، وإفريقي قبل أن أكون أممياً.

قال د. جرهوم:

– أود التأكيد مجدداً أن لا توجد لدينا حساسية من وجود جماعة علي ناصر. ثقتنا

بالرفيق منغستو عالية. وقد سبق أن شرحت لكم أن قيادتنا السياسية تقدر تقديراً عالياً تحملكم الأعباء والمشاكل عندما قدموا إليكم في الأيام الأولى.

وإذا كان العقيد القذافي أو علي عبد الله صالح يحاولون طرح أي إشاعات أو كلام فإننا نعتبره كاذباً ونحن لم نقارنهم بالانفصاليين الإريتريين. ونؤمن إيماناً عميقاً بأن أي إضعاف للثورة اليمنية هو إضعاف للثورة الإثيوبية، والعكس صحيح. وأي نشاط يصبّ في هذا الاتجاه هو نشاط معاد للثورتين. في ١٤ يونيو وجه علي ناصر محمد رسائل إلى الأنظمة المعادية لنا، رسائل استخدم فيها الأوراق الرسمية لهيئة الرئاسة.

منغستو: أقول لكم بصريح العبارة إن أي كلام صادر عن القذافي أو علي عبد الله صالح في الثورة الإثيوبية لا أريد أن أسمعه ثانية. ربنا يعطينا طول العمر لتروا موقف الثورة الإثيوبية عملياً. نحن لسنا خائبين ولا ننقل الثورة إلى بلدان أخرى. الخطوط الثورية هي حياتنا. حتى غورباتشوف لا يدعي أنه أحسن شيوعي من الآخرين. الشيوعية هي ترجمة عملية. وجود الثورة بالنسبة إلينا شيء واضح ومهم.

وفي الوقت ذاته لو انحرف اتجاه الثورة اليمنية نحن سندرك هذا، وعندما أقول مثل هذا الكلام لا تعتقدوا أنه نوع من الاستعباط. وعندما نكون واضحين معاً نستطيع الوصول إلى الصداقة الحقيقية، ولهذا فسأكون واضحاً مع أي رفيق يمني.

وإذا سألتك سؤالاً عما حصل في ١٣ يناير، أهو صدام مسلح بين الثورة والثورة المضادة؟

هل تصدقون أن الدول الاشتراكية لم يصدقوا أن ما حصل كان بين الثورة والثورة المضادة؟

وأنا شخصياً طوال عشر سنوات عرفت جميع الرفاق وعرفت حق المعرفة طبيعة المشاكل والخلافات الدائرة في القيادة. وأستطيع القول بأني مقتنع كل القناعة بأن ما حصل ليس بسبب الثورة والثورة المضادة. الرفاق في القيادة وقعوا في مشكلة كبيرة. وموقفنا كان واضحاً منذ البداية. دعني أضرب لك مثلاً حياً على ما أقول. الرفيق عبد الفتاح إسماعيل عندما أزيح من السلطة والحزب هل كان مضاداً للثورة. هل انحرف عن خط الثورة؟

عندما جاء إلينا الوفد ليشرح أسباب إقالته. ولأني أعرف جيداً الرفيق عبد الفتاح إسماعيل قلت لعلي ناصر محمد بالحرف الواحد: تجنبوا اعتقاله، ونطلب منكم أن توافقوا على أن يعيش في إثيوبيا، ولن نسمح له بممارسة نشاط معادٍ لكم.

إذا لم يفهم بعضنا البعض سنقع في مشاكل، نحن لسنا انتهازيين، نحن ثوريون، ولهذا فإن المجموعة التي تعيش معنا ليست من القوى المعادية، ولا يمكن أن تكون حركة معادية لكم. إذا حصل أن تصادمت بعض القيادات الثورية بسبب السلطة واحتموا ببلدان أخرى، فلا تنظروا إليهم بأنهم قوى معادية للثورة. إذا استمرت نظرتكم، لهؤلاء بأنهم معادون للثورة فستكون هناك مشاكل في معسكر الثورة. الثورة نظام يقاد بوساطة الشعوب ويمكن أن تخرج فئات قيادية لسبب من الأسباب رفاقاً لم ينسجموا معاً. أقول لا يمكن أن يظلم مثل هؤلاء الناس. بقاؤهم عندنا يجب ألا يمسّ العلاقة الاستراتيجية، أنا أتحدث في هذه القضية للمرة الأولى والأخيرة ولا أريد تكرار الحديث حولها. وإذا اعتقدتم أنها ستكون مثار نقاش دائم وحوار طويل فقد تخلق عقبة بيننا لا يمكن إزالتها. أنا أفكر بعقل نظيف وأتحدث مع الأصدقاء بكل صراحة، ولهذا نقول لكم بكل وضوح وننصحكم بأن تعتبروا هذه المجاميع عناصر طيبة، ولابد من قبولهم ليساهموا معكم في بناء السلطة والمجتمع اليمني، كلما كثر عددهم في الخارج زادت الأضرار حولكم. وأرجو أن علاقتنا معكم تنمو وتزدهر وأن تكون لدينا جميعاً رؤية حقيقية لكافة الأمور.

د. جرهوم: هناك وضوح كافٍ، ووجهة نظرنا تتطابق مع وجهة نظر الرفيق منغستو، إلا في مسألة واحدة، هي تقييم أحداث ١٣ يناير، هذه القضية يجري تدارسها حالياً في أوساط الهيئات العلمية في بلادنا، ويمكن تبادل الرأي مع حزبكم بشأنها. هناك حقيقة ثابتة هي أن القوى المفجرة لأحداث يناير كانت على صلة بأعداء الثورة اليمنية، فالذي نظم الإعدامات الجماعية للكوادر لا يمكن أن يكون إلا من صف القوى المعادية للثورة، جوهر الصراع هو صراع طبقي، هذه مسألة لاتقبل الجدل، وعلى هامش الصراع كانت هناك مسائل ثانوية، لم يحصل فرز طبقي. قوى من أفراد الشعب غرر بها وحتى إذا اعتبرنا أن الصراع كان على

السلطة فهو في جوهره صراع طبقي. إن الأفراد يرفعون الشعارات السياسية والثورية، ولكنهم يتسترون وراءها لتحقيق أهدافهم الخاصة وطموحاتهم الذاتية.

بالنسبة إلى زيارة الرفيق العطاس، هل يمكن تحديد موعدها؟

منغستو: أنا منتظرٌ وفداً من موسكو. وفي هذا الوقت نعدّ لهذه الزيارة، وسيجري تبادل وجهات النظر وتقييم الأوضاع في المنطقة ككل. ويمكن استقبال العطاس بعد زيارة الوفد السوفياتي والهدف من ذلك أن تكون علاقتنا واضحة ويكون اللقاء مثمراً وإيجابياً لما فيه خدمة العلاقة بين بلدينا. شخصياً لو يأتي اليوم يمكن أن أستقبله، ولا يمكن اعتبار التقارب معكم مثل التقارب بين ليبيا والشطر الشمالي، بل علاقتنا يجب أن تكون مبنية على الثقة والوضوح، ونتحدث وجهاً لوجه، لا من خلال الآخرين. ولكي تواصل العلاقة الثنائية بمثل هذه المشاعر نواصل الحوار.

د. جرهوم: ما القضايا التي نختلف فيها؟ إني أرى وجهات النظر متطابقة.

منغستو: أقول لكم لا تربطوا المشاكل التي حصلت داخل الحزب الاشتراكي اليمني بالبلدان الثورية. الانعكاسات السلبية داخل حزبكم أثرت بنا نرجو أن لا تشكوا فينا.

د. جرهوم: ثقتنا بكم كبيرة. الوثيقة التحليلية ستعكس رسمياً موقفنا من الثورة الإثيوبية. وإسهامكم مطلوب في إغناء هذه الوثيقة المهمة، وتحليل الأحداث لتكون قناعتنا مشتركة حول ما يحصل.

منغستو: بصريح العبارة، بعد انفجار الأحداث تحدثت مع رفاق كثيرين أجريت حواراً طويلاً ومفصلاً قبل الأحداث، ولكي لاتحصل مشاكل نوقشت أوضاعكم في البلدان الاشتراكية. رفاقكم وجهوا إلينا دعوة للتوسط في حلّ المشكلة حلاً سلماً. وذهبنا إلى اليمن الديمقراطية في الوقت الذي كان فيه أعضاء الحزب شاهرين السلاح بعضهم ضد بعض. كنتم في أخطر مرحلة تواجهها الثورة، وما حصل في أحداث ١٣ يناير لا تقع مسؤوليته على شخص واحد، بل إن الجميع يتحمل المسئولية عمّا جرى.

الملحق رقم (٢)
جبهة تحرير ظفار:
بيان إعلان الكفاح المسلح

أيها الشعب العربي في ظفار، لقد قامت طليعة ثورية منك آمنت بالله وبالوطن وجعلت حريته مبدأً اتخذته شعاراً للتحرر من حكم سلاطين آل بوسعيد الطغاة الذين ارتبطت سلطنتهم بجحافل الغزو الاستعماري البريطاني. إن هذا الشعب أيها الأخوة قد ذاق مرارة العيش أزمنة طويلة، الأمر الذي أدى به إلى التشرد والبطالة والفقر والجهل والمرض، هذه الأسلحة الفتاكة التي استخدمتها حراب الاستعمار البريطاني ونفذتها حكومة سلاطين مسقط في ظفار.

أيها الشعب العربي في ظفار، لقد رأيت ولمست الحالة بعينها وذقنا جميعاً مرارة العيش في ظل هذه السياسة الخرقاء، لقد أراد لنا الله الحياة وأرادوا لنا الموت وإرادة الله هي إرادة الحق التي يجب أن ترتفع خفاقة فوق هذا الجزء من الوطن العربي الكبير.

يا جماهير ظفار المكافحة باسم الشهداء الأحرار الذين سقطوا في ساحة الكرامة والشرف وباسم جميع الثكالى وباسم من أضعفه هذا الوضع الشاذ الفاسد. وباسم الأمة العربية التي يكافح أبناؤها في كل شبر من أرضهم نستصرخ فيكم الروح العربية الأصيلة أن تقفوا صفاً واحداً أمام هذا الوضع الفاسد ونطالبكم جميعاً بأن تلتفوا حول رجال جبهة تحرير ظفار لنشكل جميعاً سداً منيعاً أمام هذا الطغيان.

إن حكومة السلطان سعيد بن تيمور العميل قد استأجرت جيشاً من المرتزقة الشعوبيين للقضاء على الأهداف العربية التحررية في هذا الوطن، ولكن جبهة التحرير الظفارية ستكون لهم دوماً ناراً متأججة في كل شبر من أرض الوطن، لقد استطاع هذا الجيش المرتزق أن يعرقل أهداف الثورة في عُمان، ولكن الإدارة الحرة التي تستمد قوتها من إرادة الله ستنتصر على هذا الجيش الشعوبي الحاقد، ونعاهد الله والوطن أن نلقن هذا الجيش درساً لن ينساه

كذلك الذي لحق بجيوش الاستعمار في مصر والجزائر والعراق واليمن.

يا جماهير شعبنا العربي في الجنوب والخليج وفي كل شبر من أرض العروبة، إنكم اليوم مطالبون بالتأييد المادي والمعنوي للكفاح المسلح في ظفار العربية، إن هذه الثورة المسلحة في ظفار تستمد قوتها من أهداف القومية العربية التي آمن بها جيش التحرير العربي في ظفار، وهو الآن يجسد هذه المبادئ لتحقيق هذه الأهداف بقوة السلاح. لقد اختارت جبهة التحرير في ظفار الكفاح المسلح وسيلة للقضاء على السلاطين وعملائهم الخونة ومن ورائهم الاستعمار البريطاني لأنها اقتنعت بأن الاستعمار وعملاءه الذين استعبدوا وأذلوا هذا الشعب بأساليب القوة والبطش لا يمكن أن يسلموا بمطالبه إلا بقوة السلاح، حيث لم يبق لهذا الشعب بصيص من الأمل في الكرامة والحرية.

أيها الأخوة إن هذا الوضع الفاسد جعل العرب الظفاريين يعيشون على الكفاف وبذر فيهم الفتنة والضعف. إن مثل هذا الموضع كان السبب الحتمي لانفجار الجماهير وقيام ثورة الكرامة والحرية.

يا أخي في ظفار إن جبهتك التي تتحمل اليوم مسؤولية تحرير بلادك تستصرخك بأن تلبي النداء في هذه الظروف العصيبة التي تمرّ بها بلادك.

يا أبناء المدن والجبال والبادية أنتم اليوم مطالبون بأن تلتفوا حول جبهة التحرير وأن تقفوا معها صفاً واحداً في وجه الاستعمار وعملائه من السلاطين الخونة من أجل تحقيق الحرية والوحدة والعدالة الاجتماعية والكرامة.

إن الذين يتعاملون مع هذه السلطنة الظالمة ومع الاستعمار البريطاني سيلقون حتماً جزاءهم العادل، وإن جبهة التحرير الظفارية كفيلة بتنفيذ هذا الجزاء.

أيها الأخوة، إن جبهة التحرير الظفارية تناشدكم باسم الوطن والعروبة أن تحملوا سلاحكم وتقفوا معها ضد قوات الاستعمار ومرتزقته حتى ترتفع راية الحرية خفاقة في سماء ظفارنا الحبيبة.

يا جماهيرنا العربية المناضلة، إن جبهة تحرير ظفار، التي تقود النضال اليوم ضد الاستعمار وزبانيته في ظفار لتؤمن إيماناً راسخاً بوحدة الأمة العربية ووحدة النضال لأبناء

العروبة من المحيط إلى الخليج، وإن إيمانها هذا لابد أن يقودها إلى الالتحام الثوري بالمنظمات الثورية العربية في الخليج والجنوب، وإنها انطلاقاً من هذا الإيمان لتدعو الجبهات والمنظمات الثورية التي تناضل اليوم في هذه الساحة من أرض العرب إلى أن تقف معها في نضالها العادل، وأن تساندها بكل ما تملك من إمكانات مادية ومعنوية، حتى تحقق أهدافها وتنتصر على أعداء العروبة.

والنصر دوماً للأحرار المكافحين، والهزيمة والعار للخونة والمستعمرين.

عاشت ظفار حرة عربية وعاشت جبهة تحرير ظفار، وعاشت الأمة العربية.

٩ يونيو ١٩٦٥ م

الملحق رقم (٣)
مقررات مؤتمر حمرين
(أيلول / سبتمبر ١٩٦٨)

١ - على الصعيد الاستراتيجي:

أ - التزام العنف الثوري المنظم، باعتباره المسلك الوحيد لدحر الإمبريالية والرجعية والبرجوازية والإقطاع.

ب - تغيير اسم الجبهة من جبهة تحرير ظفار إلى «الجبهة الشعبية لتحرير الخليج العربي المحتل»، وتبني استراتيجية ثورية ذات أبعاد شمولية على مستوى ساحة الخليج العربي المحتل. وذلك بربط نضال ظفار بنضال الجماهير في الخليج العربي المحتل لتكسب الثورة المعنى الحقيقي لها.

ج - العمل على توحيد الأداة الثورية الجماهيرية الشعبية في الخليج العربي المحتل باعتبارها المدخل الثوري والصحي لوحدة المنظمة.

٢ - على الصعيد الأيديولوجي:

تبني الاشتراكية العلمية باعتبارها الإطار التاريخي الذي تخوض من خلاله الجموع الفقيرة النضال للقضاء على الاستعمار والإمبريالية والبرجوازية والإقطاع، وباعتبارها الأسلوب العلمي لتحليل الواقع ولفهم التناقضات بين صفوف الشعب. وقد ناقش المؤتمر بإسهاب كافة المخططات والمؤامرات التي تحوكها الدوائر الإمبريالية العالمية لقمع حركة التحرر الوطني في الخليج العربي المحتل، بصورة خاصة والوطن العربي بصورة عامة. وقد أدان المؤتمر بشدة:

اتحاد إمارات الخليج العربي المزيف.

إمامة عمان، وكافة القوى السياسية التقليدية في المنطقة التي تتاجر بقضية الجماهير وتتاجر بالشعارات الثورية الزائفة.

وقد أيّد المؤتمر بحزم نضال شعب فلسطين المتمثل في المقاومة الفلسطينية المسلحة، وكذلك أيّد المؤتمر نضالات الشعوب العادلة ضد الإمبريالية العالمية والأنظمة البرجوازية الإقطاعية في كل من آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية. وقد شجب المؤتمر وأدان بشدة:

الحكم العنصري في روديسيا

التفرقة العنصرية في أميركا

والجبهة الشعبية لتحرير الخليج العربي المحتل تهيب بكل الفصائل الثورية في الخليج العربي المحتل أن تتحمل مسؤولياتها التاريخية، وأن تلتزم مقررات المؤتمر الثاني وأن تعمل على تنفيذها، وكذلك تهيب الجبهة الشعبية لتحرير الخليج العربي المحتل بكافة الدول العربية التقدمية والدول الاشتراكية الصديقة أن تساند نضال شعبنا العادل وأن تدعمه على كافة المستويات المادية والعسكرية والإعلامية والمعنوية.

والنصر دائماً للشعوب المناضلة، والهزيمة والعار للإمبرياليين والرجعيين.

وعاشت الجبهة الشعبية لتحرير الخليج العربي المحتل، وعاش نضال كل شعوب العالم لدحر الإمبريالية والاستعمار والبرجوازية والإقطاع.

صادر عن القيادة العامة

للجبهة الشعبية لتحرير الخليج العربي المحتل

في ١٠ / ١١ / ١٩٦٨ م

الملحق رقم (٤)

الرد الذي نشرته صحيفة (الحياة) في عددها رقم (١٣٣٠٥)

الصادر في ١٢ آب - أغسطس ١٩٩٩م:

نشرت «الحياة» بتاريخ ٢٤ و٢٨ شباط (فبراير) الماضي خمس حلقات من مذكرات مستشار الرئيس الأخير للاتحاد السوفياتي ميخائيل غورباتشوف، نائب رئيس قسم الشرق الأوسط للشؤون الدولية في الحزب الشيوعي الحاكم آنذاك كارين بروتينتس، تطرقت إلى تجربة بروتينتس (٧٤ سنة) في العالم العربي والجوانب الخفية من سياسة الكرملين حيال الشرق الأوسط، وتناولت الحلقة الرابعة من المذكرات اليمن الديموقراطي سابقاً وعلاقاته بالاتحاد السوفياتي والانشقاقات داخل الحزب الاشتراكي الحاكم آنذاك والصراعات التي أدت إلى اندلاع الحرب الداخلية في ١٩٨٦م.

وحمّل بروتينتس في مذكراته الرئيس اليمني السابق علي ناصر محمد مسؤولية الحوادث، واتهمه بأنه أسهم في توتير الأجواء ودفعها إلى الانفجار. وحرصاً على توضيح الملابسات وكشف الجوانب الأخرى من الحقيقة، ردّ الرئيس السابق على بعض ما ورد في مذكرات بروتينتس، مستخدماً وثيقة سرية صدرت آنذاك عن جهاز المخابرات السوفياتي (كي جي بي)، وهي واحدة من الوثائق الكثيرة التي يحتفظ بها وتتضمن العديد من الأسرار التي يمكن أن تنشر في مذكراته.

وهنا ردّ الرئيس السابق علي ناصر محمد:

لم أكن أود التطرق إلى تعقيدات العلاقة اليمنية - السوفياتية، كما لم أكن أود نبش الماضي إطلاقاً، إذ إنني كتبت كل ما أعرفه وعايشته خلال تجربتنا في اليمن الجنوبي في مذكراتي التي حرصت على عدم نشرها في الوقت الحالي، حتى لا تستخدم لتصفية بعض الحسابات، ولأن الوقت لم يحن في ظل متغيرات متسارعة تحتم إيلاء المستقبل أهمية أكبر من الماضي، وعدم التسرع في إسقاط إيجابيات وسلبيات مرحلة على مرحلة أخرى، وانتظار

ما تأتي به الأيام، حيث لكل كلمة مكانها ولكل موقف انعكاساته ولكل تجربة ساعة حسم لا بد أن تكشف فيها عن نفسها وتقدم حساباتها المنتظرة للشعب. لذلك فضلت إرجاء النشر حتى يمكن الاستفادة منها مستقبلاً ضمن استقراء هادئ لتاريخنا وقراءة موضوعية متأنية له.

غير أن ما نشره مسؤول اللجنة المركزية للحزب الشيوعي كارين بروتنتس في صحيفة «الحياة» العدد ١٣١٤٠ بتاريخ ٢٧ شباط (فبراير) ١٩٩٩م ضمن ما سمّاه مذكراته، يستدعي النقاش والتمحيص، لأنها إذا أحسنا الظن تداعي أفكار غير موثقة تغلب وجهات النظر أكثر مما تعتمد الحقائق، وتجنح إلى تغليب الرغبات أكثر من الواقع. وتحاول مسخ الحقائق عبر تبرئة الذات وتحميل المسؤولية للآخرين، ناهيك عما تفوح به روائح الاستعلاء والتعالي والوصاية على الآخرين من خلال تقديرات وتقارير استخباراتية وعبر تقويمات لا ترى سوى مصلحة الدولة «العظمى» ولا تبالي بآمال وأحلام وآلام أي شعب تعتبره يدور في فلكها، فهو يصف أحداث ١٣ كانون الثاني (يناير) الفاجعة التي جرت عام ١٩٨٦م في عدن بأنها كانت مفاجئة للسوفيات، ويوحي بأنهم لم يلعبوا دوراً فيها، ولكن «وثيقة سرية» تحت رقم (٤١٧٣٤٢) بتاريخ ١٨/ ١١/ ١٩٨٥م، أي قبل الأحداث بأقل من شهرين، تؤكد بما لا يقبل الشك أن تصعيد الخلافات وخلق البلبلة وتوتير الأجواء بين القيادات اليمنية، وصولاً إلى أحداث يناير المشؤومة كان من إعداد وصنع دوائر الاستخبارات السوفياتية (كي جي بي).

هذه الوثيقة السرية هي توجيهات مرسلة من قبل السيد (أليشن) في الاستخبارات السوفياتية إلى مسؤول الـ (كي جي بي) في السفارة السوفياتية في عدن.

ويؤكد (أليشن) في بدايتها أن هذه التوجيهات ترتكز على التعليمات الواردة من مكتب (بروتنتس)، باعتباره مسؤولاً عن الشرق الأوسط في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي. ويحدد مسؤول الاستخبارات السوفياتية المشكلة التي تواجههم في عدن على الشكل الآتي:

«إن الصعوبات الرئيسية التي تعترضنا، لا تزال كما كانت في السابق، ترتبط بشخص

علي ناصر محمد، فهو ومؤيدوه مستمرون في النمو بشكل قوي في البلاد، مما يلحق الضرر بالعلاقات السوفياتية – اليمنية».

ويستطرد في تحديد المشكلة قائلاً: «أظهرت الوقائع أنه على صلة قوية بـ (صالح) رئيس الجمهورية العربية اليمنية» وأنه خطط لإقامة علاقة مع الولايات المتحدة على حسابنا، كما عقد العزم على رفض وجود لقواعدنا، واتهم الطرف السوفياتي بعرقلة استكشافات النفط في اليمن الديمقراطية، كما أنه ساند تعاظم السخط بين سكان اليمن الديمقراطية إزاء سياسة الاتحاد السوفياتي، وحرّض على خطابات مناهضة لوجودنا في البلاد».

هكذا حددت الـ (كي. جي. بي) ومكتب بروتينتس في اللجنة المركزية ماهية المشكلة التي تواجههم في عدن. وبصرف النظر عن مدى صحة القضايا المطروحة في هذا التمهيد الاستخباري، إلا أن ما يجب تأكيده هنا هو أن ذلك يعني بصورة قاطعة تدخلاً سافراً في شؤون اليمن الديموقراطية، ومحاولة للنيل من قيادتها وتوجهاتها.

غير أن التوجيهات تأخذ مدى أبعد حيث لا تكتفي بتوضيح الحال، وإنما تحدد الهدف العاجل والمستقبلي... حيث تؤكد «فهمنا للحاجة إلى استبدال علي ناصر محمد، وتستعرض الشخصيات البديلة الممكنة وتعلل كلاً منها وتضع سيناريو الأحداث المقبلة»، إذ تؤكد أن «خطتنا تقوم على استعداء (علي ناصر محمد) ضد (علي عنتر وصالح مصلح قاسم) وإذا حدث ذلك، فإن ضربة مضادة سوف توجه ضد (محمد) وسنكون جاهزين لتدخل سريع، وسنوفر دعماً عسكرياً ونفسياً يعود بالبلاد إلى حالتها الطبيعية، ويعيد البريق لمثاليات الثورة الاشتراكية اليمنية».

و«أظهر تحليل للأوضاع السياسية في اليمن الديموقراطية أن الحاجة ملحة للقيام بذلك قبل أن تحاول الدول الغربية الاستفادة من الوضع لصالحها».

وهكذا تضع (كي. جي. بي) وبروتينتس سيناريوهاً متكاملاً للتدخل في شؤون اليمن الجنوبي الداخلية وتغيير قيادتها عبر صراع دامٍ يستهدف تدميرها حتى يمكن الإتيان بشخصية مطواع يرتضونها.

وبروتينتس نفسه يعترف بالتدخل السوفياتي في أفغانستان وبمشاركة موسكو في

الخلاف بين نور طراقي وحفيظ الله أمين، ويصفه بأنه أبشع خطأ ارتكبه الجانب السوفياتي، ولكنه لا يعترف بذلك في الحالة اليمنية صراحة.

ويتبجح بروتينتس بأنهم (أي السوفيات) «كنا على الأغلب، القادة وكانوا المقودين» في اليمن الجنوبي، وهو ما فقدوه في القيادة التي حكمت ما بين عامي ١٩٨٠م و١٩٨٦م بحيث تآمروا للتخلص منها كما تعترف (الوثيقة السرية) للمخابرات السوفياتية. وإذا ما أخذنا في الاعتبار أن هذه الوثيقة ليست سوى واحدة من آلاف الوثائق التي لم يُتَح لنا الاطلاع عليها فإن لنا أن نتصور في ضوء ما جرى في بلادنا حجم التحريض الذي تمّ وحجم الدسّ الذي تم تنفيذه واتجاه مسارات الأحداث التي خطط لها، لذلك فإن القيمة الواضحة لهذه الوثيقة هي أنها تعطينا أفق الرؤية لدى القيادات السوفياتية وأدواتها الميدانية والأهداف المطلوب تحقيقها في ضوء استراتيجيتهم آنذاك، وكذلك الرؤوس المطلوبة ثمناً لهذه التحديات.

وأتساءل هنا: هل كان ذلك الخيار الأسلم أمام موسكو؟ ألم يفكروا بفداحة الثمن الذي سيدفعونه وتدفعه اليمن الجنوبية وشعبها للارتهان لمثل هذه العقلية من التفكير والتخطيط والقيادات القصيرة النظر؟ ألم يفكروا في الثمن الفادح سياسياً وأخلاقياً الذي سيدفعونه ويدفعه حلفاؤهم وأصدقاؤهم؟!

أما لماذا سلكوا هذا المسلك تجاهنا في عدن؟ وما الذي ولّد لديهم الارتياب تجاه قادتها؟ ولماذا قرروا العمل ضد الشرعية في اليمن الجنوبية؟ فيمكن محاولة الإجابة عن ذلك باستقراء تطورات الأحداث التي سبقت تلك المرحلة.

أولاً: كان السوفيات منذ أن طردوا من مصر والصومال يعيشون أزمة حادة ويستشعرون جرحاً عميقاً ويخشون من تكرار العملية في أكثر من موقع في الشرق الأوسط، ويعيشون هاجس الطرد مرة أخرى من موقع آخر ويخشون أن يكون الموقع القادم هو «جنة عدن».

ثانياً: كانت عدن بما تتمتع به من موقع استراتيجي وثروات نفطية مخبأة مجالاً للاستقطاب بين المعسكرين، فموسكو تريد أن تحكم سيطرتها، والغرب يحاول أن يجد منفذاً يدخل منه ويجد لقدمه موطئاً فيه، أي إن صراع الدول الكبرى قد بدأ يحدد موقع اللعبة المقبلة.

ثالثاً: كان وضع السوفيات في الشرق الأوسط سيئاً، فهم يستبعدون تدريجاً من اللعبة، وأصبحت معظم أوراق «اللعبة» أميركية. ووضعهم الداخلي الضعيف سمح بنمو مراكز قوة متعددة، ولم يعد القرار السياسي متناغماً وبموافقة كل القيادة السوفياتية كما أوضح بروتنتس حول ما جرى في أفغانستان، ما سمح بنموّ بعض مراكز القوة العسكرية والاستخبارية، وهو ما أدى إلى تعدد المصالح واتخاذ قرارات بغير علم أو دراسة من قبل الأطر القيادية.

رابعاً: كانت الإصلاحات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي جرت بين الأعوام ١٩٨٠-١٩٨٥م في اليمن الديمقراطية غير مرضية للـ (كي. جي. بي) وبعض أطراف القيادة السوفياتية. فالتقارب والتنسيق مع صنعاء، وإيقاف المساندة للجبهات المناهضة العاملة في اليمن الشمالي وظفار، وتطبيع العلاقات مع السعودية ودول الخليج، كل ذلك عُدَّ توجهاً وطنياً وقومياً يغلّب مصالح اليمن وشعبه ومصالح دول المنطقة على حساب العلاقات الثورية والاشتراكية... والانفتاح الاقتصادي عُدَّ ارتماءً في أحضان الإمبريالية، وهكذا دواليك.

خامساً: عُدَّ الاتفاق الثلاثي للتعاون الذي وقع بين عدن وليبيا وإثيوبيا محاولة لخلق تكتل إقليمي سيتمرد مستقبلاً على الطاعة السوفياتية.

سادساً: وهو الأهم، عُدَّ نجاح المؤتمر الثالث للحزب الاشتراكي، المنعقد في تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٩٨٥م توطيداً وترسيخاً لمكانة قيادة الحزب والبلد واعترافاً بدور الأمين العام للحزب والرئيس، وإسباغاً للشرعية على القرارات والإجراءات الانفتاحية التي اتُّخذت طوال الأعوام الخمسة الماضية، ما لم يُرضِ بعض الأطراف السوفياتية، وعلى رأسهم (كي. جي. بي).

في اعتقادي أن هذه أهم الأسباب التي أدت إلى التفكير في تغيير القيادة في عدن من قبل (كي. جي. بي)، وللزخم الكبير الذي كانت تحظى به القيادة في عدن بين أوساط الجماهير، لم يكن بالإمكان إجراء التغيير المنشود إلا عبر هذا السيناريو المعقَّد من استعداء القيادة على بعضها وتوتير الأجواء، وخلق توترات يومية عبر تفجير الأوضاع في العديد من القطاعات، وصولاً إلى المواجهة الشاملة التي ستؤدي إلى تدمير شامل وحرب أهلية تقلب كل شيء.

وبدأ العمل بموجب تلك التوجيهات مستنفرين كل قواهم للعمل ضدنا.

وعلى سبيل المثال في نهاية شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٥م، اتصل بي رئيس الأركان (العقيد عبد الله علي عليوه) طالباً اللقاء معي بمعية الملحق العسكري السوفياتي، وحضر اللقاء قائد القوات البحرية اليمنية العقيد أحمد عبد الله الحسني. وأبلغنا الملحق العسكري الذي كانت تربطه بالاثنين علاقات طيبة... بأن أحد عملاء (كي. جي. بي) اليمنيين، وهو الرائد ثابت عبد، نائب وزير أمن الدولة، رفع تقريراً مفاده أننا أرسلنا قائد البحرية إلى فرنسا بطريقة سرية لشراء أسلحة فرنسية بتمويل من دول الخليج، وأن القيادة السوفياتية منزعجة من ذلك، وتعتبره تغييراً في سياسة الحزب الاشتراكي، وأن تنويع مصادر السلاح مقدمة لعدم الاعتماد على السوفيات في التسلح، ما يذكّرهم بما عمله الرئيس أنور السادات في الخبراء والمستشارين السوفيات.

كان الخبر مختلقاً من أساسه، وأفهمته أن قائد البحرية الموجود أمامه لم يغادر اليمن في هذه المدة ولم يزر باريس إطلاقاً، ومستشاروهم السوفيات موجودون في البحرية، ولا شك في أنهم سيلاحظون غيابه إن كان قد غادر عدن. وأفهمته أن جهات عديدة يمنية وسوفياتية تحاول اختلاق أكاذيب عديدة لغرض لا أفهمه... ولكن ذلك كان مؤشراً على أن سيناريو (كي. جي. بي) بدأ تنفيذه على أرض الواقع، وأن ذلك كان يخدم محاولة إقناع جهات سوفياتية بسوء نياتنا المفترضة تجاههم. ومن جانب آخر، فإنه يزيد الهوة بين أطراف القيادة اليمنية التي قد يعتقد بعضها أننا نقوم باتصالات وترتيبات مع الغرب من دون علمهم. وكل ذلك كان يهدف إلى إثارة البلبلة والشكوك وإثارة الخلافات وتعقيدها.

في الوقت ذاته، كنا على علاقة ممتازة بالرئيس الإثيوبي منغستو هيلا مريام، ودائمي التشاور فيما بيننا، وستلاحظون أن توجيهات الـ (كي. جي. بي) المشار إليها أعلاه تسعى لتنفيذ المخطط نفسه تجاه الرئيس منغستو، في محاولة لتغييره بأحد أعضاء المكتب السياسي الإثيوبي الأكثر ارتباطاً بالسوفيات. وفي إحدى زياراتي لأديس أبابا، سأل منغستو عن النفط في بلادنا، فأجبته بأن السوفيات ينقبون عنه، ونأمل أن يستخرجوه.

كانت لدى منغستو معلومات أيضاً عن تحركات الـ (كي. جي. بي) ضده وضدنا

في عدن، فردّ قائلاً: «إن السوفيات ينقبون عندنا أيضاً، وجرى استكشاف النفط في منطقة أوغادين، ولكن المسؤول السوفياتي عن الحفر لم يبلغنا بذلك، وأرسل برقية مشفرة إلى سفارته في أديس أبابا، وطلب منها إبلاغ موسكو حتى تقرر إبلاغنا أو عدمه. ولسوء حظهم، وقعت البرقية في أيدينا، وقمنا بفتح الشفرة، وبعدها طلبنا من المسؤول السوفياتي مغادرة البلاد لإخفائه المعلومات عنا».

وأردف قائلاً: «يا عزيزي، إنني متأكد أن النفط لن يستخرج في عهدي أو في عهدك... لأن الـ (كي. جي. بي) يعتبروننا قادة شوفينيين».

وفي عام ١٩٨٨م جرت محاولة انقلابية فاشلة في أديس أبابا على الرئيس منغستو... وحدثني الرئيس الإثيوبي عندما زرته عن دور السوفيات في ذلك الانقلاب، قائلاً:

«قبل فترة، طلبت من السوفيات إرسال فريق من العسكريين السوفيات لتقييم الجاهزية القتالية للجيش الإثيوبي، ووصل ١١ جنرالاً في عام ١٩٨٧م إلى وزارة الدفاع للقيام بهذه المهمة، وقدر لها فترة ثلاثة أشهر للانتهاء من ذلك. ونظراً لانشغالاتنا الكثيرة ومشاكلنا الداخلية والحرب التي نخوضها وثقتنا بالعسكريين السوفيات، لم نتابع الموضوع إلى أن جرت المحاولة الانقلابية. وعند محاصرتنا لوزارة الدفاع والبدء في تطهيرها، وجدنا الأحد عشر جنرالاً في أقبية الوزارة وهم في حال يرثى لها، وعند التحقيق معهم عن سرّ اختفائهم طوال تلك الفترة، اعترفوا بأنهم كانوا يخططون للانقلاب الخائب وهم وراءه».

لا أريد من كل ما سردت أن أتنصل وزملائي اليمنيين من مسؤولية ما حدث في يناير ١٩٨٦م... ليس ذلك هو الغرض إذ إنني منذ أول يوم من خروجي من عدن قلت إننا جميعاً نتحمل مسؤولية ما حدث، ولكن الغرض تبيان الدور الذي قام به الآخرون وخصوصاً الاستخبارات السوفياتية التي خططت للصراع وأذكته واعتبرته وسيلة للتغيير الذي تستهدفه غير آبهة بالالتزامات الأخلاقية ولا بنتائج تلك المغامرة السياسية.

وغير ذلك، فإن بروتنتس تخونه الذاكرة، لأنه يعبّر عن رغباته وليس عن الوقائع، كما جرت.

فهو يقول إنه قابل عبد الفتاح إسماعيل بعد خروجه من اليمن في مدينة فارنا في أيار

(مايو) ١٩٨٠م، والمعروف أن عبد الفتاح لم يغادر عدن إلا في بداية شهر آب (أغسطس) ١٩٨٠م، أما في مايو، فكان في منزله في عدن.

وفي مكان آخر يقول إنه حذّر عبد الفتاح إسماعيل من مغبة الحرب مع صنعاء في عام ١٩٧٩م عبـر صديـق يثق به في السفارة السوفياتية، والمقصود بالصديق الموثوق مسؤول الـ(كي. جي. بي) في السفارة، في الوقت الذي كان حينها عبد الفتاح إسماعيل رئيساً لليمن الجنوبية وإذا كان لا بد من إبلاغه تحذيراً سوفياتياً، فالقناة الصحيحة هي السفير السوفياتي في عدن، وليس المخابرات، وليست هذه هي الحالة الوحيدة التي يحاول فيها بروتنتس الإساءة إلى قيادة اليمن الديموقراطية، فهو ينقل على لسان عبد الفتاح إسماعيل كلاماً، ضد علي عنتر بعد لقائهما في موسكو عام ١٩٨٣م. إنه أي عبد الفتاح إسماعيل، قال له: إنه لا يثق بتوبة علي عنتر، ولكنه يعتقد أنه يمكنه الاستفادة منه لتيسير العودة إلى الوطن.

أما قلب الحقائق والوقائع، فنجد مثالاً له في ما أورده عن مقابلته لي في آذار (مارس) ١٩٨٥م، إذ يقول إنني لمحّت له بلهجة لا لبس فيها إلى أنني مستعد لاستخدام القوة لحل الخلافات الداخلية، وإنه حذرني من مغبة ذلك... فإضافة إلى أنه ليس من المنطقي ولا من الحكمة بمكان أن أكشف لهم عن أي نيات أو خطط مفترضة بهذه الطريقة، فإن ما جرى كان عكس ذلك تماماً. فاللقاء مع بروتنتس لم يحصل في مارس ١٩٨٥م، بل في نوفمبر ١٩٨٥م، واستأنس برأيي فيما يمكن أن يطرحه على الأخ عبد الفتاح إسماعيل عند اللقاء به. وأكد لي أن غرض لقائه سيكون محاولة إقناع عبد الفتاح إسماعيل للوقوف إلى جانبي في الخلاف القائم في قيادة الحزب الاشتراكي، وذلك كما قال بروتنتس بالنص: ضد العناصر الانقساميين والقبليين في الحزب، ويقصد بذلك «علي عنتر وزملاءه» وبعد لقائه بعبد الفتاح عاد لمقابلتي، وكان ذلك بحضور عبد الغني عبد القادر، عضو المكتب السياسي، وقال لي: «إن عبد الفتاح إسماعيل غارق في ذاته حتى أذنيه، وأرجو أن تنقذه من هذه الحالة، حيث أَخْفَقْتُ في إقناعه بالموقف الصحيح». وأضاف: «إن عبد الفتاح يتهمكم بإقامة علاقات مع الأنظمة الرجعية والمحافظة في المنطقة... وأنكم أخرجتم عدن من الدائرة الحمراء إلى

الدائرة القومية»، وكانت لهجته تحذرني من عبد الفتاح، واتهمه بالتطرف في الوقوف إلى جانب علي عنتر.

وكان هذا آخر لقاء مع بروتنتس وأنا في عدن، ولم التقه بعدها إلا في عام ١٩٩٤م، أثناء زيارته برفقة ميخائيل غورباتشوف لدولة الإمارات العربية المتحدة، إذ جمعنا لقاء مشترك بمسؤول عربي كبير، هو الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، عضو مجلس الاتحاد حاكم الشارقة الذي بادر غورباتشوف بالقول له: «لقد قمتم بتدمير الاتحاد السوفياتي... وخدمتم أعداءكم وأخللتم بالتوازن الدولي وتدفعون حالياً ثمن ذلك، ومعكم الشعوب الصغيرة. لقد ارتكبتم حماقة كبيرة، إنكم كمن وضع نفسه في زنزانة ورمى مفتاحها إلى البحر، فلا هو حمى نفسه ولا يمتلك سبيلاً للخروج من مأزقه». ولم يستطع غورباتشوف الردّ على ذلك ناهيك عن بروتنتس، كما أكد حاكم عجمان الشيخ حميد النعيمي لغورباتشوف بقوله إن من بدأ البروسترويكا هو الرئيس علي ناصر محمد.

أكتفي بهذا القدر وأترك الوثيقة السرية، المؤرخة في ١٨ نوفمبر ١٩٨٥م تتحدث عن نفسها. فهي تكشف من دون مواربة «الأصابع الخفية» التي كانت وراء أحداث ١٣ يناير ١٩٨٦م في عدن. ولا عذر لبروتنتس بعد ذلك، إن كان يجهل ذلك، أو يتعمد إخفاء دور أجهزة بلاده في المأساة اليمنية. وعلى أي حال، لم يعد لكليهما الآن وجود... لا للاتحاد السوفياتي ولا لليمن الديموقراطية... كلاهما أصبح في ذمة التاريخ... ولكن التاريخ حتى لو أخذ صورة مذكرات، لا يكتب على طريقة بروتنتس المتعسفة.

الملحق رقم (٥)

الوثيقة الروسية المنشورة في مجلة كينيا إكسبرس

الترجمة الكاملة لنص (وثيقة الاستخبارات السوفياتية "السرية" الموجهة إلى السفارة في عدن) والتي كانت وراء أحداث يناير١٩٨٦م. وقد ترجمت عن الأصل الروسي إلى اللغة الإنكليزية. وهذا النص أدناه مترجم عن النسخة الإنكليزية.

مجلة كينيا إكسبرس «KENYA EXPRESS»

الجزء الثالث، العدد الأول ١٩٨٦م (ص ٢٨)

الترجمة الكاملة لنص الوثيقة التوجيهية الصادرة عن المخابرات السوفياتية

النص مترجم عن الروسية

استناداً إلى المعلومات المستقاة منكم، وتلك التي تم الحصول عليها من مصادر أخرى، وكذلك بناءً على التعليمات من مكتب الرفيق (دائرة الرفيق) بروتينتس (BRUTENTS)، فان المركز يتدبر أمر خطة لتعزيز موقع الاتحاد السوفياتي في بلد مقركم، وكذلك فإن المركز ينطلق من حقيقة أن من الضروري تجنب أخطاء عام ١٩٨٢م مع الأخذ بالاعتبار النتائج الإيجابية التي تحققت في تعزيز موقع (موقف) الاتحاد السوفياتي في شبه الجزيرة العربية، وتوسيع علاقتنا مع المشيخات والإمارات العربية الإقطاعية، وبعبارة أخرى، فإن نشاطاتنا في المرحلة الحالية يجب ألّا تظهر بمظهر التدخل في الشؤون الداخلية للدول العربية ذات السيادة في شبه الجزيرة العربية. لقد كان هذا هو السبب الذي طلبنا من أجله من الرفيق منغستو زيارة جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية، وذلك بهدف الحصول على مساعدته بالتوصل إلى اتفاق مناسب لكل الأطراف المعنية، وذلك لتجنب انشقاق نهائي في الحزب الاشتراكي اليمني خلال انعقاد المؤتمر الذي تم هذا العام. وقد شكلت هذه الزيارة فائدة قصوى وساعدت على تطبيع الوضع داخل الحزب وبالإضافة إلى تحقيقها لحل وسط

مؤقت (تسوية مؤقتة) بمساعدة الرفيق منغستو، فإن الزيارة قد خلقت فرصة لعقد المؤتمر في جو هادئ. وبالمعنى السياسي، فإن مصاعبنا الرئيسية، وكما الحال سابقاً، تتعلق بشخص علي ناصر محمد، فإنه ومؤيديه اليمنيين مستمرون بالنمو بشكل أقوى في البلد مما يلحق الضرر بالعلاقات السوفياتية - اليمنية التي تتميز بتعاون سياسي واقتصادي واسع، وبكم واسع من تبادل الطلاب، رغم حقيقة أن العلاقات تتطلب عقد اجتماعات منتظمة على أعلى المستويات لمناقشة أمور ملموسة تتعلق بالتعاون الثنائي، فإنه مستمر في تجنب هذه الاجتماعات.

لقد أظهرت الأحداث أن محمد مقرب (قريب جداً) جداً من صالح، رئيس الجمهورية العربية اليمنية، والذي يؤيد (جماعة) هيثم ويدعم (يؤيد) برنامجها ونشاطها الموجه نحو تقويض (زعزعة، نسف) الثورة الاشتراكية في جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية. وكونه مرتبطاً بعلاقات القرابة (من جهة الأب أو الأم) مع الهيثم فقد حاول محمد عزل الناس المكرسين أنفسهم للاشتراكية من دوائر البلد الحكومية والاستعاضة عنهم بممثلين لقبيلة الدثينة التي ينتمي إليها هيثم (الهيثم) ينتمي أيضاً إلى هذه القبيلة. وفي سعيه المخزي للعودة بجمهورية اليمن الديمقراطية إلى طريق الإقطاع، فقد عين محمد أشخاصاً مخلصين له في المراكز الحكومية الحساسة، وحاول الحصول على تأييد (دعم) الدول الإقطاعية المجاورة والدول الغربية، وقد توقف عن مساعدة الجماعات الاشتراكية الشقيقة في عُمان واليمن الشمالي.

وحتى إنه خطط لإقامة علاقات مع الولايات المتحدة، ما يلحق الضرر بالجهود التي نبذلها لتحقيق التعاون. لقد عقد النية على رفض السماح لقواعد لنا، واتهم طرفنا (الطرف السوفياتي) بالتصميم المسبق على عدم استخراج النفط الواعد في أراضي جمهورية اليمن الديمقراطية، وبالمثول السيئ في ما يتعلق بأهداف التعاون الثنائي، وحتى إنه طلب مساعدتنا المالية ليدفع لقاء خدمات الشركات الغربية التي ستساعد جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية لأن تصبح مستقلة اقتصادياً عن الاتحاد السوفياتي. لقد ساند محمد أيضاً تعاظم جماعة السخط بين سكان جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية ـ إزاء سياسة الاتحاد

السوفياتي وحرّض على خطابات مناهضة لوجودنا في البلد، ونقد طريقة حياتنا. لقد درس ثابت عبد وبعناية نشاطات الزمر المنشقة المختلفة وأكد وجود اتجاهات معادية لنا والتي يحاول أنصار محمد تعزيزها لدى السكان في جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية، مدركين الحاجة إلى استبدال محمد، فإننا نواجه صعوبة المرشح لمنصبه. من الظاهر أن عبد الفتاح إسماعيل يمكن أن يصبح الخليفة المنطقي لمحمد، ولكنه مريض جداً وغير قادر على حكم بلد معقد مثل جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية. والأكثر من ذلك، فقد أبدى في الماضي اتجاهات موالية لليبيا، وهذا ما يمكن وبهذه الحال أن يزيد من النزاعات بين الزمر المختلفة، ويخلق الصعوبات أمام خططنا في اليمن الشمالي، عُمان الكويت ودول أخرى. وكونه من اليمن الشمالي فإنه سيصبّ في مفهومنا الثابت في توحيد الشمال والجنوب. أما علي عنتر فهو انتهازي متسرع وانشقاقي معروف تماماً وقد حاول وبكل طريقة الحصول على تأييدنا، إنه شخص لا يمكن الوثوق به. وشريكه الحالي المقرب منه، قاسم، لا يستحق إلا ثقة أقل. فإنه ومثله كمثل علي عنتر عضو في جماعة (مجموعة) قبيلة الدحلي (المقصود الضالعي) وهو انتهازي خبيث يخفي أفكاره الحقيقية وراء إخلاص لافت للأنظار للحزب وهو أيضاً عميل ليبي.

البيض عضو آخر في هذه المجموعة الانتهازية، ولكن أقل ظهوراً ولا يمكن اعتباره شخصاً مهماً. الأخوة باذيب تحت سيطرة محمد، وسوف يهبون إلى جانبه. يتظاهر الدالي (الضالعي) بأنه قد انفصل عن محمد، ولكن لا يمكن الوثوق به بالإشارة إلى روابطه السابقة مع مجموعته. ينتمي يحيى والقادر إلى البعثيين الذين يؤيدون محمد. ويبدو أنهم يتلقون دعماً مالياً من العراق. الاثنان غير مناسبين. ينتمي حيدر أبو بكر العطاس والسييلي إلى قبيلة الحضرمي. مواقفهم (مواقعهم) ضعيفة، ولكن يمكن الوثوق بهم. بإمكانهم أن يشكلوا نواة تستطيع الإبقاء على جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية في خط تقدمي حتى ينادى بزعيم حقيقي، والذي يكون لديه القناعات الماركسية المناسبة، إنه سالم صالح محمد – وينتمي إلى قبيلة يافع وبإمكانه أن يصبح مثل هذا الزعيم (القائد). إن الخطة التي يجري تدبيرها من قبلنا تقضي بإثارة محمد ضد علي عنتر، قاسم ومؤيديهم اليساريين. وإذا ما حدث هذا

فإننا نتوقع ضربة مضادة لمحمد، وسوف نكون مستعدين للتدخل السريع، وسوف نقدم الدعم العسكري والنفسي لتهدئة الوضع وخلق الظروف لعودة البلد للحزب الاشتراكي وثورة اليمن الاشتراكية. ويظهر تحليل الوضع. السياسي في جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية أن الحاجة قد نضجت للعمل على ذلك قبل أن تحاول الدول الغربية الاستفادة من الوضع في اليمن الجنوبي لمصلحتها. لقد أخذ المركز أيضاً بالاعتبار، وعند تطوير الخطة، ردة الفعل الممكنة لحلفاء جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية والدول المجاورة عن إزاحة محمد، إننا نفهم أن ليبيا سوف تعرب عن السخط (الامتعاض) على عملنا، وفي هذه الحالة نستطيع بسهولة إقناع الليبيين بأن محمد كان ينوي إعادة تكييف نفسه باتجاه الولايات المتحدة الأميركية، وشرح الخطر الذي يمكن أن يمثله هذا على ليبيا، وعلى الدول الأخرى المحبة للسلام. سوف يجهز المركز أيضاً البيانات الضرورية لإقناع الجمهورية العربية اليمنية، المملكة العربية السعودية، عُمان ودول أخرى في المنطقة بأن النظام السياسي الجديد، وبعد أن يتخلص من محمد الانتهازي، سوف يكون ضامناً موثوقاً للسلام في منطقة الخليج الفارسي.

ولمعلوماتكم الشخصية، فإننا نعلمكم بأننا نخطط لتنفيذ عملية مشابهة في إثيوبيا وهي مشارك في الاتفاق الثلاثي وتقضي هذه العملية باستبدال منغستو، الذي بدأ بإظهار أساليب يمينية، بالرفيق ليجس أسفو وهو مؤيد حقيقي للاشتراكية واضعين في الحسبان ما ذكر أعلاه، وكذلك المهمة التي تسلمتها سابقاً، نطلب إليكم البدء بالعمل على وضع خطة مفصلة واتخاذ الخطوات لإرسال مقترحاتكم إلى المركز وبوقت مناسب وخلال عملكم، فإنه يمكنكم تنسيق خطواتكم مع السفير السوفياتي والذي سوف يتلقى التعليمات المناسبة من MFA.

(ألشن ١٨/ نوفمبر / ١٩٨٥م).

الملحق رقم (٦)

محضر اللقاء مع القائد ياسر عرفات

٣/ ١٠/ ١٩٨٦

الساعة ٧ ونصف مساءً

الحضور من الجانب اليمني:

عبد الله صالح – أحمد حيدره – علي منصور – عبد الله صالح البار – عبد الله علي عليوه – عبد ربه منصور – عبدالله محنف – أحمد المحروق – محمد سليمان ناصر – محمد سالم عكوش – حسن أحمد باعوم

من الجانب الفلسطيني

ياسر عرفات – عباس زكي – العقيد بو حميد

بدأ الأخ البار حديثه مرحباً بالأخ ياسر عرفات وزملائه، وأعرب عن سعادته هو وزملائه للقاء بالمناضل ياسر عرفات والاستماع إليه، ثم تابع قائلا نحن نأسف لعدم تمكن الكثير من أعضاء ل.م الحضور في هذا اللقاء، وذلك بسبب وجودهم في الشمال، في حين أن بعضهم في القتال، والبعض الآخر في مهمات خارج الشمال، ولا شك في أن الأخ الأمين العام في لقائه معكم قد أعطاكم صورة واضحة بالنسبة إلى أوضاعنا في الداخل، ونحن مدركون أنكم على اطلاع بأوضاعنا قبل أحداث ١٣ يناير وأثناءها. وبعد نحن نقدر عالياً موقف أبو عمار في كافة المراحل الصعبة التي مرت فيها ثورتنا وشعبنا، ونقدر موقفكم أثناء الأحداث وبعدها الاحتكام إلى صوت الحق والمنطق، ولكن كل محاولاتنا اصطدمت بتعنت حكام عدن ورفضهم لأي حوار أو حل سياسي. نحن نحاول ضبط النفس ومواجهة كافة الضغوطات التي تأتينا من جماهيرنا في الداخل ومن الموجودين معنا في شمال الوطن،

نأمل أن يستجيب حكام عدن لمشروع الحلّ السياسي لتجنيب البلاد مزيداً من الاقتتال وسفك الدماء. هذا ما شدّدت عليه (ل.م) في دورتها الأخيرة، غير أنه لا يفوتنا هنا أن نشير إلى أن (ل.م) شدّدت أيضاً على ضرورة التصدي الحازم، مستخدمين كافة أشكال النضال لإنقاذ الشعب وإعادة الاستقرار إلى الوطن والشعب. هذا ما أردنا توضيحه لكم ونود أن نسمع منكم. وشكراً.

ياسر عرفات

سعيد جداً بلقائي معكم قبل سفري نحن نعيش محنة جديدة في جنوب لبنان (صور البحرية الإسرائيلية) تقصفنا من البحر وعصابات أمل تحاول الاقتحام من البرّ وقصف مدفعي من (لحد) الذي أصبح نائباً لإيتان الإسرائيلي الذي يدعي أنه متبرع. سأحاول توزيع نداء على الأقل للعالم دعوةً لإنقاذ الشعب الفلسطيني في مخيماته، لعل التاريخ مستقبلاً يسجل إذا لن يتقدم أحد لمساعدتنا في الدفاع عن شعبنا على الأقل نرجوهم يمكنوننا من الدفاع عن أنفسنا وشعبنا.

عندما جاء أبو إياد وقابل الرئيس علي ناصر هنا، بعدها كانت عندي لقاءات أنا في ألمانيا أتيح لي عندما كنت في ألمانيا الديمقراطية راقداً في المستشفى ان التقي بالأخ مسؤول العلاقات الخارجية في اللجنة المركزية للحزب الألماني. جلست معه كثيراً وتكلمت عن القضية الفلسطينية وعن عدن، وتكلمت بأشياء كثيرة حول عدن، ذلك كان موقفنا. قلت لهم: مخطئون جداً جداً إن كنتم تعتقدون بإمكانية تهدئة الأوضاع في عدن من دون وفاق وطني وأصعب ومستحيل حيث قدمت لهم مثلاً في بلادنا فلسطين كيف إن الأم الفلسطينية تغذي أبناءها من الصغر على روح الثأر ويشبّ مشبعاً بهذه الروح... فكيف واقع الحال في اليمن المجتمع القبلي المعروف بذلك تاريخياً، وكيف الحال والأمر يتجاوز عشرات آلاف القتلى؟ الدم المسفوك في ظل واقع كهذا لن يذهب هدراً، لذا في تقديري المصالحة الوطنية هي الطريق الوحيد والحل الأسلم والأمثل ومهمة الجميع المشاركة في هذا. فوجئتُ صراحةً بأن الألمان يملكون نفس الرؤية والتصور، وموقفهم متطابق مع موقفنا، ونظرتنا للحل واحدة. طلبت منهم نقل رسالة بهذا الخصوص إلى هونيكر ومن هونيكر

إلى القادة السوفيات. قبل ذهابي إلى هراري، جاءني المندوب السوفياتي (فورينتنشوف) لمناقشة موضوع المؤتمر الدولي واللجنة التحضيرية. لم يكن هنالك خلاف بيننا. تكلمنا عن لبنان وقضايا كثيرة، منها قضية عدن في برلين. سألوني: ما الحل؟ قلت لهم: ليس لديّ حلّ سحري، لكن هنالك ترتيبات لعقد مؤتمر حزبي (كونفرنس) وذلك سيعمّق الانقسام أكثر، وهكذا قلت للمندوب السوفياتي، طلبنا تأجيل المؤتمر في عدن، فأبلغوني في هراري أن المؤتمر في عدن تأجل. بلغت أنا بدوري الإرياني، وأيضاً قابلت العطاس بالصدفة في حفلة في هراري مع آخرين من دول عربية وغيرها، ودردشت مع حيدر حول القضية. طلبت تأجيل المؤتمر بعدما سمعت عن التأجيل شكرتهم على ذلك. هذه بادرة طيبة كما قلت له: لكن هل هذا هو نقطة في الطريق؟ ماذا بعد التأجيل؟ وجدته للأسف متأزم وعملت له تليين بإشراك رفائيل (نائب كاسترو) في الحديث معنا. قلت لرفائيل وجهة نظرنا وشعرت منه بأن ذلك يطابق وجهة نظرهم. أيضاً طلبت منه مساعدتي على العطاس. تكلم الكوبي كثيراً في موضوع عدن وأهميته، وأبلغت الرئيس علي ناصر بهذا عند لقائي به هنا.

التقيتُ أخيرًا هنا القائم بالأعمال في السفارة السوفياتية بصنعاء. قلت له بصراحة إن ما يحدث في عدن يهمنا لأسباب كثيرة، عدن هي بمثابة باب الرحمة لشعبنا الفلسطيني. بيننا وبين عدن روابط قوية. نقدّر مواقف عدن من شعبنا قلت له حول آلاف الكوادر الحزبية والعسكرية والحكومية المشردة في مختلف البقاع، هؤلاء الخمسة والثلاثون ألفاً ليسوا فلاحين يمكن ببساطة توزيعهم في الشمال. طبعاً سجل كل الكلام الذي قلته له. قلت له أن المصالحة هي الطريق الوحيد. مصالحة تقوم على الشرعية بشكل مباشر أو غير مباشر، وتطرقت إلى نفس الموضوع مع سفير ألمانيا الديمقراطية في صنعاء. فوجئت بالألماني يقول لي بعد سماع كلامي: إنك ساعدتني الآن على كتابة تقريري.

كلاهما كان متعاطفاً مع ما قلته: (أنا سوف أقابل مندوب سوفيتي خلال يومين، طلبت أن يبعثوه إلى بغداد، لكنهم فضلوا إرساله إلى صنعاء).

هذا باختصار ما توصلنا إليه، وعدنا ندردش ونخفف في همومنا.

البار

نحن في الواقع نبحث عن حل سريع وعادل للمسألة، مدركين عمق المأساة التي يعيشها شعبنا. ما أشرت إليه في حديثك يصبّ في نفس الاتجاه الذي نسير فيه. طوال الفترة الماضية حاولنا طرح مبادرات سياسية للحل السياسي. في لقائنا مع السييلي أكدنا هذا الجانب إذا انغلق باب الحوار نهائياً والمسألة ستتعقد أكثر والوضع في المنطقة سيتأزم بطريقة عجيبة سنقوم بإبلاغ الأخ الرئيس علي ناصر بآخر ما أشعرتنا به.

عكوش

عندي ملاحظة قصيرة، قبلها أقول أنا سعيد بلقاء المناضل البارز ياسر عرفات. لا نريد أن نتكلم معك بدبلوماسية، ولكننا سنحدثك كمناضل قضيتنا واضحة: حدث انقسام في الحزب، وأنتم على علم بذلك. حالياً يجب أن نستعين بكل الشرفاء في العالم لحلّ القضية المفتاح نحن والشمال و(م.ت.ف). ما حصل يكفي في بلادنا. الضحايا تفوق الخيال. أنا خرجت مؤخراً وشفت مأتماً في البلاد. الضحايا بعد الاعتقال كانت أكثر. نحن نؤكد عودتنا إلى البلاد بأي طريقة. نحن شعب بأكمله هنا اذا تمت العودة دون دماء فهذا أفضل، ما لم نعد بطرق أخرى العودة بالنسبة إلينا إنقاذ لشعبنا وبلدنا. الشعب لا يزال يعيش مأساة عميقة، لدينا إصرار على العودة.

محمد سليمان

نعتز ونثمن جهود أبو عمار طول كل المراحل التي مرّ بها شعبنا. مشكلتنا في الحزب معروفة لكم. ما حصل في ١٣ يناير النتيجة قضيتنا تحظى بعطف متزايد. نقدّر موقف أخوتنا في الشتات، وغيرهم مما يجري في الداخل من تصفيات وممارسات أكثر خطورة. النازحين يصلون يومياً ويحكون حكايات غريبة ومثيرة حول الممارسات في عدن. القيادة في عدن مشغولة بخلافاتها، ونسيت احتياجات المواطنين والمشاريع. لا أحد يدخل إلى عدن من المحافظات إلا العجزة والنساء، وذلك بسبب الرعب. الحوار السياسي أصبح يسير في طريق مسدود. هذا انطباع الناس في الداخل. الناس يطالبون بحلّ سريع، يطالبوننا بالذخيرة

للمقاومة. السلطة في المحافظات شبه مفقودة، مجاميعنا هنا ملوا الانتظار.

الجهود المبذولة على المستوى السياسي جيدة، لكن المشكلة بحاجة إلى حل سريع لإنقاذ الشعب. نخشى أن جماعة عدن يماطلون باسم الحوار لكسب الوقت. لا توجد جهة في عدن بيدها القرار. شكراً.

البار

لو سمحت لي، هل تعتقدون بإمكانية الحل السياسي؟ هل ستثمر جهود الألمان والسوفيات؟

ياسر عرفات

عندما طرحت الموضوع عليهم، طرحته في مناسبة غير رسمية، لكنني فوجئت بسرعة الاستجابة. شيء آخر أكدته لهم، أنهم مسؤولون بهذا القدر أو ذاك عمّا يحدث في عدن، وعن مصير الآلاف. قلت لهم صراحة إن مصلحتكم في عدن تستدعي مساهمتكم في حلّ المسألة. تقديري الشخصي أن الكونفرنس لم يؤجَّل إلا وفي شيء لديهم. حاولت أن أحذرهم من خطورة المسألة. لن يأتي حلّ إذا ترك الأمر لأصحابي وأصحابك في عدن. قابلت البيض ٤٠ دقيقة في ألمانيا، والعطاس في هراري. لم أشعر بأن في إمكانية لديهم لحلّ سياسي، لذا أركز على السوفيات ودورهم، طرحت لهم سؤالاً: ماذا تنتظرون بعد ٩ أشهر أعتقد أيضاً أن تأجيل المؤتمر لم يكن قراراً عدنياً بحتاً.

عبد ربه منصور

نحن نأمل في الحل السياسي ولكن بحكم معرفتنا لبعض، وللأوضاع في الداخل وخلافاتهم الراهنة، نشعر بأن تأجيل المؤتمر جاء ليعطيهم وقتاً لحلّ مشاكلهم الداخلية وليست خطوة في اتجاه الحل السياسي. ليس هنالك محور للقرار في عدن. أستشهد بما دار في برلين بين البيض، منغستو، غورباتشوف، هونيكر. السوفيات في حيرة، والدليل على ذلك موقفهم من طلبنا في موسكو.

البار

يجب أن نستعد لأسوأ الاحتمالات، ومسؤوليتنا إنقاذ شعبنا بأي وسيلة.

عباس زكي

رداً على التساؤل من البار، أول ما صارت الإحداث يشعر المرء عندما يتكلم مع السوفيات حول الحل للمسألة بأنهم ينتفضون ولا يريدون حديثنا في هذا الجانب، ويرفضون الاستجابة. يدعون أن من خرج من الحدود أصبح رجعي، ومنتهياً. لا شك شعروا بأن حسم الموقف في عدن يعبّر عن وجود قوة وحزب في عدن. هكذا كانوا يفكرون في البداية. شعرت بذلك من لقاءاتي معهم، وبعد مرور الوقت وإيضاح كثير من الحقائق لهم، صاروا يجرون وراءنا وجهوا إليّ دعوة لزيارة موسكو، رفضتها لأنها من جهاز مخابراتهم. بعدها أرسلوا إليّ مندوباً سألني: كيف ترون الحل؟ قلت له: عليكم بالحوار المفتوح، وهو السبيل الوحيد والأفضل لحلّ المشكلة. يمكن أن تبدأوا مع أناس ليسوا مطرودين أو مفصولين، فمثلاً علي باذيب، مقبل... إلخ.

بعد مرور ٩ أشهر بتقديري، إذا لم تكن قضيتكم حية لن يهتم السوفيات بها ويبحثوا الحلول، يوم على يوم الأمور في تقديرنا تسير لمصلحتكم. حتى هذه اللحظة يمكن أن أقول أن السوفيات والألمان سيكون لهم تأثير إذا واصلتم السير على نفس خط الانضباط الذي تمارسونه متابعة أبو عمار من قبل السوفيات للقاء به حول قضية عدن لا تخلو من غرض.

البار

ما مدى إمكاناتهم للضغط على عدن؟

ياسر

الاهتمام السوفياتي بما نقوله لهم يعطينا الأمل.

البار

الحل السياسي يتطلب إحداث تغيير في عدن، لأن كل الاطراف في عدن لن تتفق على الحل السياسي.

بعدها انتقل الحديث إلى سرد بعض الأخبار والحكايات من قبل عباس ذكي حول الأحداث وما صار بعدها.

وانتهى اللقاء في الساعة الثامنة والنصف مساءً.

الملحق رقم (٧)

رسالة الى التويجري

بسم الله الرحمن الرحيم

مكتب الرئيس
علي ناصر محمد

الرقم: فوق العادة
التاريخ: ١٤-١-٢٠٠٨

معالي الشيخ عبد المحسن بن عبد العزيز التويجري
مستشار خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله بن عبد العزيز

حفظه الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

نهديكم أطيب تحياتنا، ونهنئكم بالعام الهجري الجديد، ونأمل أن تكونوا بصحة جيدة.

لقد سعدنا كثيراً بلقائنا معكم في منزلكم العامر بالرياض، وأعاد هذا اللقاء إلى ذاكرتي لقائي السابق مع والدكم الراحل الكبير معالي الشيخ عبد العزيز التويجري في سبتمبر من عام ١٩٨٦م، وأتذكر أنه قدم إليّ هدية ثمينة، هي عبارة عن كتاب للكاتب المصري عصمت سيف الدولة، وطلب مني بطريقته الودية أن أقرأه وقال: «لن أقول لك وداعاً، بل إلى اللقاء» لنناقش الكتاب ومحتوياته في لقاء لاحق، وسألت نفسي آنذاك؟ «أين، ومتى نلتقي»، ولكنني تركت ذلك للزمن، فلكل منا ظروفه ومشاغله وبرامجه وتنقلاته وتحركاته، ومرت الأيام والأشهر والسنون، التقيت به وتعرفت إليه أكثر من خلال قراءتي ومطالعاتي لكتبه،

وفي مقدمتها الكتاب القيم والثمين «لسراة الليل هتف الصباح»، الذي وصفه الأستاذ محمد حسنين هيكل بأنه «قصيدة حب... لمؤلف عاشق لبطله»، وشبهه رياض نجيب الريس بأنه «صهيل خيول وصليل سيوف»، وهو يستحق مثل هذا الوصف والتقدير من قبل هذين الكاتبين الكبيرين.

شاءت الأقدار أن ينتقل الشيخ عبد العزيز التويجري إلى الرفيق الأعلى، تاركاً تراثاً ضخماً من التجارب والفكر والثقافة والتاريخ والأحباء والأصدقاء والأبناء الذين ساروا على نهجه، وهو مثله لا يموت أبداً، قد يتوقف نبضه، ويشيَّع جثمانه، وقد تذهب ملامح وجهه من عيوننا، لكنه أبداً لا يموت، لأن تراثه وآثاره وبصماته الخالدة تحمل عناصر الخلود وتبقى دائماً حافظة لذكراه الطيبة، وفقيدنا الكبير هو من العمالقة الكبار الخالدين.

ها أنا اليوم وبالصدفة ألتقي بكم في مدينة الرياض دون موعد مسبق، وإذا بي أجلس إلى جانبكم، وكأني التقي وجهاً لوجه بالشيخ عبد العزيز التويجري، ذلك العملاق الذي عرفته أكثر من طريق محبيه وكتبه وسمعته التي تجاوزت حدود الجزيرة والمنطقة كلها.

كان حديثنا معكم ودياً دون حواجز أو مجاملات وكأننا نعرف بعضنا منذ زمان بعيد، وهو امتداد للقاء مع والدكم الراحل الكبير الذي عرفته، وقد قبلت دعوتكم الكريمة، وكنت على وشك السفر إلى خارج المملكة بعد أن حضرت للمشاركة وأديت واجب العزاء لأسرة فقيد اليمن الكبير الشيخ عبد الله بن حسين الأحمر رحمه الله، وسعدت وتشرفت بزيارتكم في قصركم العامر الذي يعجّ بالضيوف الكرام وبالمعرض الرائع لصور والدكم الراحل التي عُلِّقت في مكان جميل على جدران منزلكم الذي نقلنا بالصور عبر التاريخ لفترة مهمة من تاريخ المملكة والتاريخ الحافل بالجهاد لهذا المفكر والسياسي الكبير الذي وهب حياته من أجل تطور المملكة وعزتها ونهضتها، ولا شك في أنه ترك بصماته في علاقات المملكة بالدول الشقيقة والصديقة، إضافة إلى علاقاته الواسعة التي نسجها مع الأدباء والكتاب والمثقفين العرب والأجانب الذين أحبهم وأحبوه، وفي مقدمتهم الأستاذ الحكيم أحمد محمد نعمان رحمه الله.

وكما أهداني الفقيد الكبير كتاباً عند زيارته لليمن، عربوناً للصداقة والعلاقة معه آنذاك

وهو يقف إلى جانب وليّ العهد الأمير عبد الله بن عبد العزيز رئيس الحرس الوطني، فقد أهديتموني أهم مؤلفاته التي هي عبارة عن كنز ثمين من الكتب القيمة، ومعروف أن العرب والأجانب يتهادون في المناسبات الخاصة والعامة اللوحات والتحف الفنية والساعات والسجاد والأوسمة والسيوف والبن والعسل والعطور والطيور والخيول والبخور وغيرها من الهدايا الثمينة، ولكن هدايا آل التويجري تختلف عن كل الهدايا التي تسلمتها، لقد وضعتها في ركن مهم من مكتبتي ومن قلبي... وستبقى جزءًا من تاريخنا السياسي والعلمي المشترك.

وفقكم الله في مهماتكم الكبيرة. تقبلوا مني وافر الود والتقدير وخالص تمنياتي بدوام الصحة والتوفيق.

في الختام أتمنى أن يستمر التواصل بيننا، وأن نلتقي على الخير دوماً لما فيه مصلحة منطقتنا والأمتين العربية والإسلامية.

أخوكم

الرئيس علي ناصر محمد

الملحق رقم (٨)

حديث الرئيس منغستو مع السفير السوفياتي

وفي «أديس أبابا» استدعى الرئيس «منغستو» السفير السوفياتي لدى إثيوبيا بحضوري وأبلغه بموقفي، وهو أنني مع وقف إطلاق النار فوراً والدخول في حوار يؤدي إلى المصالحة الوطنية مع الطرف الآخر.

وقد قلت للسفير السوفياتي:

هل تثقون بنا، وتؤمنون بأن موقفنا قائم على المبادئ؟

وهل تعرفون عن الأوضاع شيئاً لا نعرفه؟

هل تشاركوننا مشاعرنا في أن اليمن الديمقراطية يتهددها الخطر؟

هل درستم الرأي العام المحلي وعرفتم مع من يقف؟ وهل تعرفون من الذين يدمرون عدن؟

وفي الأخير قلت له:

- نحن مستعدون لأن نحتكم إلى قرارات المؤتمر العام الثالث لحزبنا المنعقد في أكتوبر الماضي، وعلى هذا الأساس لابد أن تحددوا موقفكم حتى نضع حداً لما يحدث.

أبدى «السفير» اهتمامه بما قلته له وقال:

- نحن مع الشرعية ومع قرارات المؤتمر، لكن أي تدخل من جانب الشمال سيعني القضاء على الجميع، ونحن نحافظ على النظام في اليمن الديمقراطية من القوى الرجعية.

وردّ الرئيس «منغستو» نيابةً عني فاقداً صوابه:

- أنتم ستخرجون من عدن مكللين بالذل والعار إذا لم تتخذوا موقفاً صريحاً وواضحاً مما يدور هناك.

وأضاف «منغستو»:

- كل ما اهتممتم به أنكم أخرجتم الرعايا السوفيات من عدن، بينما تركتم الشعب

اليمني يتلظى بنيران المدافع والدبابات والصواريخ. إن الرئيس علي ناصر محمد هنا وقلبه يتمزق من الألم، وقد رفض مساعدتنا ومساعدة الشماليين، وفي الوقت الصعب توجه إليكم طالباً مساعدتكم، فماذا فعلتم؟ أو ماذا أنتم فاعلون له؟ إنه في الأخير لن يقف متفرجاً على مأساة شعبه مثلما تتفرجون، وسيضطر إلى طلب مساعدة الآخرين في حالة رفضتم مساعدته.

كان هذا تلميحاً من الرئيس الإثيوبي إلى المساعدة التي وعدني بها واختتم حديثه المحدد إلى السفير قائلاً:

– إن على الرئيس «غورباتشوف» أن يتخذ قراره هذا المساء قبل الغد، وطلب من السفير رداً صريحاً وسريعاً.



المحتويات



